

المجموعة الكاملة لمؤلفات

جبران خليل جبران العربية

تحقيق وتقديم

سمير إبراهيم بسيوني

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة - شارع محمد عبده - أمام الباب الخلفي لجامعة الأزهر

القاهرة - ميدان حلیم خلف بنك فيصل - شارع 26 يوليو من ميدان الأوبرا

بطاقة فهرسة

المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران العربية

جبران خليل جبران

سمير إبراهيم بسيوني

مكتبة الإيمان - مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب

تأليف

قيام بالتحقيق

الناشر

رقم الإيداع

الترقيم الدولي

حقوق النشر محفوظة

ل : مكتبة الإيمان - المنصورة

أما جامعة الأزهر

و مكتبة جزيرة الورد - القاهرة

(أ) شارع محمد عبده - أمام الباب للخلفي لجامعة الأزهر

() ميدان حلیم خلف بنك فيصل - شارع 26 يوليو من ميدان الأوبرا

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب في أي صورة من الصور (ورقية -
أقراص مدججة - على شبكة الإنترنت الدولية - على الشبكات الداخلية في
المؤسسات التعليمية أو خلاف ذلك) وأيضاً لا يجوز اختزان مادته بطريقة
الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأية طريقة إلا بموافقة الناشر على هذا
وبصورة مُسجَّلة وموثقة في الشهر العقاري بجمهورية مصر العربية .

حق
النشر

الاهداء

« جئت لأقول كلمة ، وسأقولها . إذا أرجعني الموت
قبل أن ألفظها بقولها الغد . فالغد لا يترك سرًا مكنونًا في
كتاب اللانهاية » .

جبران

« يطوي العبقري في خلال عمر واحد أعمال أجيال
سبقتة ، وأجيال رافقتة ، وأجيال تأتي بعده ، فيموت ليحيا ،
ويحيا غيره ليموت . وجبران كان ذلك العبقري » .

ميخائيل نعيمة

مقدمة التحقيق

أولاً : الأدب المهجري

لا نكاد نعرف أنّ هناك نهضة فنية أصابت شعرنا العربي المعاصر أوسع ولا أضخم من تلك النهضة التي أصابته على يد شعراء المهاجر الأمريكية ، ذلك لأن الشعر المهجري كان نقطة انطلاق واسعة إلى تطوير المفهوم الشعري ، ونقله إلى آفاق أرحب من تلك الآفاق التي ظل محصوراً فيها على طول مراحل تاريخ الأدب العربي ، لا يكاد يتجاوز في أية مرحلة منها ملامحه الأساسية التي عرف بها منذ العصر الجاهلي ، سواء من ناحية مضموناته العامة ، أم من ناحية أشكاله الصياغية .

ومن هنا فإنه ليس من المبالغة أن نقرر أن شعر المهجر من ناحية شكله ، ومن ناحية مضمونه يمثل مرحلة متميزة كل التمييز في حياتنا الأدبية المعاصرة ، وأنّه يمكن اعتبار هذه المرحلة نقلة هائلة بعيدة الأثر في رسم إطار جديد للتصور الشعري ، وفي إعطاء القيمة الحقيقية من الناحية الفنية والإنسانية لهذا الجنس الأدبي⁽¹⁾.

(1) اعتبر د. أحمد هيكّل أنّ من العوامل التي هيأت لظهور الاتجاه الابتداعي العاطفي المتمثل في أقطاب مدرسة أبولو هو التأثير بأدب المهجر ، وقد كان هذا العامل كبير الأثر بصفة خاصة عند الشعراء المحبين لهذا «الاتجاه العاطفي» ومعروف أن أدب المهجر المبكر المتمثل في نتاج «جبران خليل جبران» يغلب عليه الطابع الرومانسي ، رغم أنّ معظمه نثر . ومعروف أيضاً أنّ أهم شعراء المهجر قد التقوا في دعوتهم التجديدية بدعوة المجددين المصريين التي كان من روادها «العقاد ، وشكري والمازني» يتضح ذلك في :

(أ) المقدمة التي كتبها العقاد لكتاب «الغربال» لميخائيل نعيمة .

(ب) ثناء ميخائيل نعيمة على كتاب «الديوان» للعقاد والمازني في «الغربال» (ص 175-177) .

من هنا يتضح اللقاء بين المجددين المصريين والمهجرين . فيما عدا تمسك الأدباء والمفكرين المصريين بسلامة الأداء اللغوي . غير أن شعر هؤلاء المهجرين كان أكثر من شعر المجددين انطلاقةً وتحرراً ، كما كان أقل ذهنية ، وأغزر عاطفية ، أو بعبارة أخرى ، كان أشبه بشعر الرومانتيكيين الغربيين ، ثم أنّ أدب المهجر نثرًا وشعرًا كان يذاع في مصر . خلال كتب هؤلاء المهجرين ودواوينهم وقصائدهم ، التي كانت تنشر في بعض المجالات الأدبية حينذاك ، مثل الهلال والمقتطف .

وكان أكثر المستفيدين من الشعر المهجري ، هؤلاء الشعراء الابتداعيين العاطفيين الذين لم يتح لهم - حينذاك - الاتصال المباشر بالشعر الرومانتيكي الغربي .

[د. أحمد هيكّل - تطور الأدب الحديث في مصر - دار المعارف - مصر 1968 (ص 235-236)] .

الأدب المهجري:

هو أدب عربي البذار ، عربي الأرومة ، عربي الجنى . فرع عريق من دوحة العروبة ، حملته الرياح إلى مشاتل العالم الجديد ، فزكا في كل تربة ، وأينع تحت كل سماء ، طبعت شمس الغرب ألوانها على أوراقه ، أما لبّه فيحيا على إشعاع الشرق ، وقلبه يختلج بنسمات الصحراء .

تعرفّ العالم العربي على آثار أدبية رائعة للريحاني ، وجبران ، وميخائيل نعيمة ، وإيليا أبي ماضي ، ونسيب عريضة ، ورشيد أيوب ، وندرة حداد ، وفيها من الأجناس القديم والجديد والمتطرف .. وانتشر أدب المهاجر في الأمصار العربية خاصة في مصر وسوريا والعراق .

كان أدباء الشمال تجمعهم الرابطة القلمية» .. تتسم مدرسة المهجر الشمالي بالتححرر من القديم ، وتغليب المعاني المتحررة وهي كانت من أقوى مدارس المهجر من حيث استقلال شخصيتها . وزعماءها : أمين الريحاني ، وجبران الذي كان يمثل طابع جهودها ، فقد رأس بمدينة نيويورك الجماعة . وكان لسان حالها مجلة «الصائح» التي تولى إدارتها «عبد المسيح حداد»⁽²⁾ .

(2) جريدة «الصائح» كانت أشبه ما تكون بمجلة أدبية . وهي تصدر مرتين في الأسبوع ، وتتلاقى فيها أقلام كثيرة لناشرين وناظمين ، بعضهم من وراء البحار .

وتأتي بعدها جريدة «السّمر» اليومية النيويوركية في العناية بالأدبيّات ، بحيث إذا أراد مؤلف أن يضع كتاباً يؤرخ به لإنتاج «الرابطة القلمية» واقتباس نماذج متنوعة من هذا الإنتاج ، وعلى الأخص من الشعر ، لما وجد أفضل من هاتين الجريدتين مرجعاً لدراسته واقتباسه .

وتوجد جرائد أخرى كانت تتابع إنتاج الأدباء في المهاجر فنجد مقالات «الأميرة نجلا أبي اللمع معلوف» بعنوان «أحسن ما قرأت وما سمعت» في جريدة «الهدى» ومقالات «السيد عبد الله بري» في جريدة «نهضة العرب» التي تصدر في مدينة ديترويت .

كذلك تحتوي مقالات عامة . والأسلوب فيها يميل إلى الإيجاز البالغ حيث التحرر البياني من شوائب الثثرة والإسهاب الممل ، وهذه العناية بالتركيز الذي يطابق مقتضى الحال . ولكن هذا لم يمنع أن نجد كثيراً من النشر والنظم يتبع الكلاسيكية المأثورة .

ولم يقتصر النشر في صحف أمريكا بل كانت المجلات والصحف العربية ترحب بنشر هذا الإنتاج ، مثل مجلة «الأديب» في بيروت ، و«المقتطف» في مصر .

وقد قطعت هذه الجماعة كل صلة بأساليب الأدب القديم ، وبطريقة الكتابة .
واصطنعت لنفسها أساليب في كتابة الرسائل الثرية ، والشعر المنثور .

أما عن المهاجرين إلى أمريكا الجنوبية ، فقد أنشأوا «العصبة الأندلسية» . وقد لاقت قبولاً
يكاد يكون إجماعياً في العالم العربي وذلك لأنها :

- حافظت على أصول اللغة .

- حافظت على سلامة الأسلوب من حيث جودة الصياغة . وحرارة العاطفة ،
والموسيقى .

- النزعة الوطنية التي وضحت في إنتاجهم .

ومن أهم زعماء هذه المدرسة : إلياس فرحات ، رشيد سليم خوري «نادى باستعمال
اللهجة السورية الدارجة في الكتابة الأدبية» ولكن لم تجد هذه الرسالة من يستجيب لها -
فوزي المعلوف .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى انقطعت الصلة بين روادها وبين الحياة الراهنة في العالم
العربي . وقد رجع بعض زعمائها إلى الوطن ومنهم «الريحاني - نعيمة»⁽³⁾ .

يمكن القول أنّ الأدب المهجري قد أدخل إلى الأدب العربي تياراً واضحاً من الأدب
الأمريكي ، الذي اتصل إلى حد كبير بالأدب الإنجليزي ، ومن هنا كان التعاطف بين
السائرين معاً في التيار السكسوني ، كما تأثر الريحاني بالأدب الإنجليزي وكذلك فعل جبران
حين كتب باللغة الإنجليزية ، وطلق الكتابة العربية نهائياً .

(3) مجلة الرسالة - المجلد الثاني - السنة الرابعة - اغناطيوس كراتشفوفسكي - في الأدب العربي الحديث (ص 1667) .

وهكذا أعطى الأدب المهجري الأدب العربي المعاصر هذه المظاهر ذات الدلالة في طبع الأسلوب بالغيبات والتهويمات ، مما صرفه حيناً عن الطابع العلمي العقلي الذي يقوم على الدليل والبرهان والتجربة ، وهو النهج الذي كان العالم العربي في حاجة إليه - إذ ذاك - لمواجهة ضغط النفوذ الأجنبي ، كما دفعه إلى ازدراء مقوماته اللغوية والقومية والروحية بدعوته إلى تغليب العامية ، والتوهان في المجال الإنساني ، وازدراء القيم الروحية التي حاول الأدب المهجري أن يعتبرها معوقات عن النهضة (4).

ولكن هذا لا يمنع من أن الأدب المهجري أمدّ الأدب العربي المعاصر بمفاهيم عديدة في النقد ، وفي مفاهيم النظم ، وفي تطعيم الأدب العربي بفنون جديدة .

الهجرة وأسبابها (5):

كان أول المهاجرين إلى أمريكا الشمالية من أدباء لبنان هو «أنطوان البشعلاني» عام 1854 ، وأقام في نيويورك ومات فيها ثم تبعه سوريون ولبنانيون بعد الحادثة المعروفة بمذبحة سنة الستين (6) وأقدم أديب كان «ميخائيل رستم» والد الشاعر «أسعد رستم» . ثم جاء بعده الدكتور «لويس صابونجي» ومن أهم ما وصلنا من إبداعه قصيدة نظمها في وصف السنترال وكان ذلك في نيويورك عام 1872 . وقد نشرتها مجلة «النحلة» التي كانت تصدر في لندن .

(4) أنور الجندي : أضواء على الأدب العربي المعاصر - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة 1969 .

(5) د. عبد الحكيم يلعب : بين الأدب والنقد (ص 93) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1985 .

(6) فتنة السنين ، أو مذبحة السنين ، وهي الحادثة التي مثلت أعنف مراحل الصراع بين قوى الاستعمار وأذنايه ومؤيديه وبين الروح الوطني الطامح الذي توثب آنذاك - ليحطم الأغلال وينشر الرخاء والأمن على ربوع لبنان .

وقد تكاثر عدد المهاجرين بعد الثورة العراقية 1882 عندما لجأ الشوام المقيمون في مصر- إلى البواخر البريطانية فأقلتهم مجاناً إلى موانئ فرنسا وإيطاليا ، ومنها استأنفوا السفر إلى كندا وأمريكا الشمالية⁽⁷⁾، ولم يتجه المهاجرون إلى أمريكا الجنوبية إلا بعد وصولهم إلى الشمال . وأقدم هجرة إلى البرازيل كانت عام 1874⁽⁸⁾، ثم تكاثر عدد المهاجرين في نهاية القرن بعد أن عقدت معاهدة المهاجرة بين الحكومة العثمانية وحكومة البرازيل على أثر زيارة الإمبراطور بطرس الثاني لفلسطين ولبنان⁽⁹⁾، وبعد أن فشلت ثورة يوسف بك كرم في لبنان ، فهرب فريق من جنوده إلى أميركا الجنوبية .

أسباب الهجرة :

1- عامل اقتصادي :

كان الفقر السمة الغالبة في هذا المجتمع في ظل حكم تركي يجمع أكبر قدر من الضرائب دون نظر إلى أي تحسين لمعيشة الشعب .

2- عامل سياسي :

كان الحكم العثماني يفرض ألواناً من السيطرة والاستبداد على حياة الناس ، فيصادر كل إحساس بالحرية ، ويخنق كل محاولة للفكاك من هذه القيود العنيفة التي تحللت مصاير البشر .

(7) جورج صيدح - أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية - بيروت 1957 .

(8) وصلها عقيقتان لبنانيتان من عائلة «زخريا» وتبعها خمسون مهاجراً في الأعوام العشرة التالية .

(9) يوجد في المتحف الإمبراطوري في «بتروبوليس» القريبة من عاصمة البرازيل كتباً عربية أهداها الشيخ «إبراهيم اليازجي» إلى الإمبراطور «بدر الثاني» وكتب عليها الإهداء شعراً بخطه . والمعروف أنّ الإمبراطور «بدر» كان يعرف العربية . [أكرم زعيتر - مهمة في قارة] .

وفي هذا الجو القاتم الخائق لم يكن بد من التفكير في منطلق إلى حياة أكرم ، وإلى عيش أرغد ،
ولم يكن هذا المنطلق إلا تلك الولايات الأمريكية التي كانت تعتبر - وقتذاك - مرافئ للحرية
، ومنتجعات للرزق الوافر .

قال الشاعر القروي عند رحيله :

أبيت جوارها أرضاً	بغير الذل لا ترضى
بلاد خسفها أمسي	على ابنائها فرضاً
أحس يد الرجاء فلا	أحس بقلبه نبضاً

ويقول إيليا أبو ماضي :

لبنان لا تعدل بنيك إذا هم	ركبوا إلى العلياء كل سفين
لم يهجروك ملالة لكنهم	خلقوا لصيد اللؤلؤ المكنون
لما ولدتهم نورا حلقتوا	لا يقنعون من العلاء بالدون
والنسر لا يرضى السجون وإن تكن	ذهباً فكيف محابس من طين



خصائص الأدب المهجري :

أولاً : الطابع العاطفي :

ويتجلى ذلك في الشوق ، والحنين إلى الوطن الأم ، يقول «فرحات» :

دار العروبة ، دار الحبيب والغزل	هاجرت منك وقلبي فيك لم يزل
هلا مننت بقلبي استرد بها	فجر الشباب ، فشمس العمر في الطفل
هذي الغربة ما زالت تقبلني	والسم يقطر من أنيابها العصل
والله يشهد أني كلما رجعت	مني إليك الصبا حملتها قبلي ⁽¹⁰⁾

ثانياً : طابع القلق ، الصادر من الغربة أولاً ، وعن ازدواج المعاني الأساسية في نفوسهم مع المعاني الجديدة ثانياً .

ثالثاً : طابع التمرد ، الصادر عن الإحساس بالتححرر من القديم ، ومن التقليد .

رابعاً : طابع الحرية ؛ الحرية في قواعد اللغة ، وفي المعاني ، وذلك تحت تأثير الأدب الجديد ، ونتيجة للقصور الطبيعي في بيانهم العربي .

طابع التقليد للأدب الإفرنجية ، والتأثر بالشعر المنشور في الأدب الأمريكي .

ومن هنا برز ذلك اللون الجديد من غرائب الاستعارات والتشبيه والأضواء والظلال .

وقد تأثر الأدب العربي المعاصر بالأدب المهجري ، وظهر هذا التأثر في :

- الأسلوب الحالم المجنح المهموم .

- استخدام الرمز وتوظيفه .

- المفاهيم والمعاني المتحررة .

(10) جورج صيدح - أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية . 59 .

- مناهج النقد للغة والشعر حيث استحدث المهجريون آراء جديدة فهو عندهم على حد تعبير «ميخائيل نعيمة» ليس مجرد استحسان أو استهجان ولكنه إبداع وخلق وأن أول معالم القوة في الأداء عندهم هو «نسمة الحياة ، التي هي انعكاس داخلي في عامل الوجود» .

خامساً : الطابع الصوفي :

حب الجمال المثالي جعلهم يحبون الطبيعة ، ويندمجون فيها . لقد ناجوها ، واستلهموها روائع الشعر ، وتعدوا في وصف جمالها المشهد المنظور إلى ما وراءه من معان وأسرار .

سادساً : الطابع التأملي :

هو نتيجة لتأملهم الطويل في الذات ، وفي ما حولهم من الكائنات انشغلوا بها انطوى في أعماق النفس من المخبات والودائع ، وانشغلوا بمشاكل الوجود وقضايا الفناء والخلود فاتجهوا بفنهم إلى استجلاء غوامضها .. وخير تمثيل لذلك قصيدة «الطلاس» لأبي ماضي :

إنني جئت وأمضي وأنا لا أعلم

أنا لغز وذهابي كمجيئي طلسم

والذي أوجد هذا اللغز سر مبهم

لا تجادل ذو الحجبى من قال إني

لست أدري

سابعاً : الطابع الأخلاقي :

أدب التوجية نحو ممارسة الفضائل ، واجتناب الرذائل . يعتمد الصورة الشعرية لبث دعوته ، أو يتغلغل في النفوس بوسائل القصص المثير فيوحي إليها النفور من القبيح والخبث والشائن ، أو يزرع فيها بذور التمرد على ما في الأرض من ظلم وقسوة .

ثامناً : الطابع الواقعي :

أدب هو مرآة الحياة ، يراوح بين أحوالها وأشكالها ، أو هو كما يقول نعيمة : « عين يقظى تلاحظ وتسجل ، وقلب ينبض الحياة فيما حوله ، ويتحسس مجاعة الأرواح ».

هذا الأدب يصور الواقع المحسوس بالبيان الفني ، فتصل رسالته إلى المجتمع متزودة بوسائل الإقناع ، وبجماليات الفن .

تاسعاً : الطابع القومي :

هو أدب الوطنية الصحيحة التي تركزت على أسس ثابتة ، كوحدة اللغة ، ووحدة التاريخ ، ووحدة الأهداف ، ليست وطنية جغرافية ؛ لأن الحدود الجغرافية قابلة للتعديل ، ولا هي وطنية دينية ؛ لأن الدين مشاع للأمم مختلفة ، ولا يشمل جميع أفراد الأمة الواحدة .

أدب المهاجر أخلص للوطن الأم ، فأسهم في الحركات التحريرية فيه ، فما حدث أمر ذو شأن إلا كان المهاجرون أول من يتناوله بالتعليق ، وما نزلت محنة في الوطن إلا عاشوها معه بقلوبهم ، وأدبهم .

وما ضربنا إن يك العرب وحدة وقد وحدتنا في الجهاد المقاصد
أصابع كف المرء في العد خمسة ولكنهما في مقبض السيف واحد

عاشراً : الطابع الإنساني :

أدب يشع بروحانية الشرق ، يتطلع بروحه إلى المثل العليا في الحياة ، ويتعاون مع قوى الخير لخلق عالم أفضل .

يقول فرحات :

ربسة الحكمة إني شاعر	يعشق الحكمة مذكّان صيبا
لا تخاليني لصيقاً بالثرى	لا تمس الأرض إلا قديما
إنّ في الإنسان من فطرته	للثرى شيئا وشيئا للثريا



ثانياً : جبران خليل جبران

(1883-1931م)

ولد جبران في قرية «بشرى» المجاورة لـ «أرز الرب» ، والرابضة على كتف الوادي المقدس «قنوبين»⁽¹¹⁾. وذلك في السادس من يناير سنة 1883⁽¹²⁾. وهذا المكان يتمتع بمناظر طبيعية خلّابة ، حيث ينبع «قاديشا» الفوّار فيحيل الوادي إلى خضرة ، وزهراً ، بينما تعمم الثلوج الجبال المحيطة بالوادي معظم فصول السنة . هذه البقعة الغنية بمفاتها حوت ثروة من الجمال لم يكن يد لعين «جبران» أن تكتحل به ، ولروحه من أن تستحم في بهائه . وقد اغترف «جبران» من تلك الثروة ، فألهبت خياله ، وأذكت روحه . إلى ذلك كان «جبران» الصغير يتمتع بمشاهدة هذه الطبيعة المبهرة ، وظل جماها منطبعاً في نفسه وحبّها لا يفارقه ، يقول في رسالة له إلى ابن عمّه نخلة : «هل يأتي ربيع حياتنا ثانية ، فنفرح مع الأشجار ، ونبتسم مع الزهور ، ونركض وراء السّواقى ، ونترنّم مع العصافير مثلما كنا نفعل في «بشرى» ، هل نرجع ونجلس بقرب «ماري سركيس» ، وعلى نهر «النبات» ، وبين صخور «ماري جرجس» ، إن أجمل ما في هذه الحياة يا نخلة : هو أن أرواحنا تبقى مرفرفة فوق الأماكن التي تمتعنا فيها بشيء من اللذة .

هذا يثبت مدى تأثر «جبران» بهذه البيئة التي عاش بين ربوعها في صغره ، والتي كان يشتاّق لها في مهجره .

(11) في كافة الترجمات ذكرت أن «بشرى» تقع «على كتف وادي قاديشا» . فلعله اسم آخر له .
(12) أثبت عن طريق الخطأ الكثير من ترجموا لجبران أنّ مولده في ديسمبر «كانون الأول» وذلك بسبب خطأ «نسيب عريضة» في ترجمة شهر «يناير» إلى «كانون الأول» . وقد صحح ذلك «جبران» نفسه في رسالة له لـ «مي زيادة» .

عائلة جبران :

الأب «خليل» [1844-1909م] كان يعمل لـ «جباية» الرسم المفروض على المشية في «جرود» شمالي لبنان .

الأم «كاملة رحمة» [1864-1904م] ابنة «خوري أسطفان» ، وكانت ذات ثقافة محدودة ، ولكنها اتسمت بحيوية وذكاء . تزوجت أولاً من ابن عمها «حنا عبد السلام» .

وهاجرت معه إلى البرازيل ، ورزقت هناك بابنها الأكبر «بطرس» . ثم انفصلت عن زوجها ، وتزوجت من أحد أقربائها ، وهو «يوسف إلياس جعجع» ، ولم توفق في هذا الزواج أيضاً ، وتقدمت بطلب للطلاق وقبل صدور الحكم عقدت «كاملة» قرانها على «خليل» . وقد أنجبت منه «جبران» ثم «ماريانا» ثم «سلطانة» (13) .

كانت عائلة «جبران» قليلة الموارد .

عند بلوغ «جبران» الخامسة التحق بمدرسة - دير مار اليشاع - «تحت السنديانة» القريب من قرية «بشرى» حيث تلقى مبادئ اللغات : العربية والفرنسية والسريانية ، وكان يتردد على مركز للرهبان الإيطاليين ، فتعرّف على الحضارة الإيطالية . كما تعرّف أثناء دراسته على الطبيب «سليم الضاهر» الذي تنبأ بمواهبه ، فنمى فيه حب دراسة الأدب والفن ولم ينس «جبران» أياديته عليه ، فما أن علم بوفاته في سنة 1912 حتى رثاه بمقالة كلها وفاء ، وذلك في مجلة «مرآة العرب» ، قال فيها : «لقد مات فتى الأرز ، فهلم يا أبناء الأرز نحمله على نعش من النار والورد ونطوف به الأودية والمنحدرات» .

(13) كان تأثير «كاملة» على ابنها «جبران» كبيراً ، لأنها تحملت الكثير في توفير سبل الراحة له خاصة بعد أن سجن الوالد ، وتولّت هي شؤون الأسرة ، يقول عنها في رسالة أرسلها إلى «مي زيادة» بتاريخ 28 يناير 1920 : لقد كانت ولم تنزل أمّا لي بالروح - الرسالة كانت بعد وفاتها - وإني أشعر اليوم بقربها مني وتأثيرها علي ، ومساعدتها لي أكثر مما كنت أشعر به قبل أن تذهب ، أكثر بما لا يقاس . هذا شيء قليل من أمي ، وإذا جمعنا الأيام أخبرتك الشيء الكثير عنها ، وأنا لا أشك بأنك ستحبينها لأنها تحبّك .. والأرواح السابحة هناك ، تحبّ الأرواح الجميلة السائرة هنا . وأنت يا «مي» روح جميلة ، إذا لا تستغربي قولي «إنها تحبك» . ويقول عنها أيضاً : «أما أنا فقد ورثت عن أمي تسعين بالمائة من أخلاقي وميولي ، لا أقصد بذلك أنني أمثلها من حيث الخلاوة ، والوداعة ، وكبر القلب» .

برغم الظروف القاسية التي كانت تحيط بالأسرة من قلة الموارد فزاد الطين بله ، فقد أوقف الأب لاتهامه باختلاس ما كان بجيبه ، وتم الحجز على أملاكه ، وفرضت عليه إقامة جبرية في مركز قريب من المحكمة .

عاشت الأسرة بعد أن فقدت موارد عائلتها ، في فقر مدقع فكان عليها أن تغادر لبنان طلباً للرزق ، وهرباً من هذه الفضيحة .

الهجرة :

في سنة 1894م غادرت «كاملة» مع أولادها الأربعة «بشرى» قاصدة باريس ، حيث استطاعت بوساطة أحد أقربائها أن تسترد بعض الممتلكات . ومن باريس ذهبت مع أولادها إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، فنزلت في بوسطن حيث أقامت في حي الصينيين ، وهذا الحي من أقدر أحياء المدينة ، ويسكنه الزوج والمهاجرون الفقراء ، ويجمع أناس من كل لون وجنس ودين . وأقامت في شقة بجوار كنيسة «سيدة الأرز» في شارع تيلر رقم 76 .

عملت الأم والابن الأكبر بالتجارة - خاصة تجارة «الكشة» كمعظم اللبنانيين المغتربين (14). أما «مريانا وسلطانة» فقد عملتا في خدمة البيوت ، والتحق جبران في مدرسة شعبية مجانية تعلّم فيها أصول اللغة الإنجليزية . توسمت فيه معلمته الإنجليزية الذكاء ومواهبه الفنية ، فعرفته بالثري «فريد هولاند داي» (15) الذي ساعده على دراسة فن الرسم ، ومكّنه من إتقان اللغة الإنجليزية ، وتعرف في سنته الأخيرة بهذه المدرسة بالشاعرة الأمريكية «جوزيفين بيودي» ، وكان ذلك في سنة 1898 .

(14) بعد فترة افتتح «بطرس» محلاً تجارياً . وتحسنت أحوال الأسرة المالية إلى حد ما .

(15) أحد الأثرياء الأمريكيين ، كان محباً للفن ، ومشجعاً للفنانين خاصة الناشئين ، فشمله برعايته ، وتبناه فنياً وطلب إليه أن يجلس إليه ليأخذ عنه رسوماً ، وكان يقاضيه أجراً سخياً .

وظهرت موهبته الفنية في الصورة التي رسمها للشاعرة ، والتي كتبت إلى «فريد هولاند داي» قائلة : «هذا الرسم حدث سعيد بالنسبة لي» . وتردد جبران على المكتبة الشعبية ببوسطن ، ونسخ فيها رسوماً عن الشاعر الرسام «وليم بلايك» . وأقام «فريد هولاند داي» معرضاً فنياً عرض فيه كثيراً من رسوم جبران .

عودة جبران إلى لبنان :

استطاعت الأسرة بعد حوالي ثلاث سنوات من هجرتها إلى أمريكا أن تجمع قدرًا من المال ، ونزولاً على رغبة الأم ، قام «بطرس» الأخ الأكبر بإرسال «جبران» إلى لبنان ليكمل تعليمه بدراسة اللغة العربية واللغة الفرنسية ، وصادف ذلك رغبة كبيرة عند جبران . ويلتحق جبران في بيروت بمعهد الحكمة ، حيث أمضى - به ثلاث سنوات (16) [1898 - 1902] تعلّم في المعهد على يد الأساتذة المتخصصين وأشهرهم «الخورى يوسف الحداد» (17).

وفي خلال وجوده في لبنان تكررت زيارته لقريته الحبيبة «بشرى» حيث ملاعب صباه ، والتقى أباه (18)، و«حلا الضاهر» التي شغف بها جبران ، وكان له معها قصة حب كبيرة لم تكتمل (19).

(16) هكذا في مقدمة الديوان [ط. «كتابنا للنشر»]. بينما المدة في كتاب «جورج صيدح» - أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية - أربع سنوات .

(17) هو أستاذ البيان في المعهد ، وكان قد حَزَّ في نفسية «جبران» أن يضعه المعهد في المرحلة الابتدائية ، ويزامل صبية لا يجارونه في ثقافته ، فشكا لأستاذه ذلك . وجرى حديث بينهما نقله «الخورى» إلى «مارون عبود» ، = يقول : «اقشعرّ بدني وشعرت أن أمامي عقلية بارزة في فتى له حكمة الشيوخ . لم يكن «جبران» عند إلقاء الأمثلة يفتح كتابه ، بل كان أذناً وعيناً ، كان كلما شرعت بإعطاء دروس يغرس سبابته وراء أذنيه ويقبض بباقي أصابعه على صدغيه ، ويلبث محدّقاً إلى ، أو مطرّقاً ، فإذا راقه الدرس ثابر إلى النهاية ، وإلا انصرف عنه إلى ورقة بيضاء يخط عليها رسوماً ، أو عبارات أجنبية إنجليزية ، وكان يأتيني بمقالات من عندياته ، فأرى فيها جسماً متناسق الأعضاء ، عليه مسحة من الجمال ، ثوب من اللفظ لا يشاكل المعنى» [هارون عبود - الحداد وجبران - المجموعة الكاملة - المجلد الثاني - جُدّد وقدماء - 576 - 580] .

(18) وجد أباه معدّماً ، وظهرت عليه مبكراً أعراض الشيخوخة وكان لذلك تأثير سيئ على نفسيته .

(19) كانت فتاة رائعة الجمال ، وهي التي أوحى إليه فيما بعد روايته «الأجنحة المتكسرة» ، وذكرها تحت اسم «سلمى كرامة» يقول في الإهداء : إلى التي تحدق في الشمس بأجفان جامدة ، وتقبض على النار بأصابع غير مرتعشة ، وتسمع نغمة الروح «الكلي» من وراء ضجيج العميان وصراخهم ، إلى M.E.H. أرفع هذا الكتاب . [كتاب الهلال - العدد 36 (مارس 1954) ص 118 ، دار الهلال - مصر] .

تعرف جبران على النحات «يوسف الحويك»، والفنان «حبيب سرور» [1860-1927]، و«أيوب ثابت» [1882-1947] الذي تولى رئاسة لبنان سنة 1943، وشقيقته «سلطانة ثابت».

العودة إلى أمريكا [1902-1908]، والأحزان :

تلقى «جبران» خبر وفاة شقيقته أثناء تواجده في لبنان، فقرر العودة إلى بوسطن، فوصلها في «إبريل 1902». دون إكمال دراسته للغة العربية، وتوالت المصائب.. بفقدته أخاه «بطرس»، وكان بمثابة الأب له في مارس 1903، ثم أمه «كاملة» في يونيو 1903⁽²⁰⁾.

في هذه الفترة كانت أهم علاقة في حياة «جبران» حيث تعرف على شاعرة ارتبط بها وجداناً هي «جوزفين» فكان يلجأ إليها لتخفف عنه أحزانه كما كان يلجأ لـ«فريد هولاند داي» ولم تستمر هذه العلاقة طويلاً. فقد أصيبت بنكسة مالية، واضطرت إلى السفر سعياً إلى عمل تتعيش منه، وكانت قد نشرت ديوانها «الأوراق المنشدة» الذي انطوى على خواطرها الشديدة العبوس. واكتفت «جوزفين» باعتبار «جبران» صديقاً حميماً. وصرفت النظر عن التفكير فيه كزوج.. ويكفي أنها كانت ملهمته في الكثير من أعماله الفنية والأدبية. وقد لفتت نظره إلى شاعر كبير هو «جون كيتس». وكان له أثره الكبير في نزعة «جبران» الرومانسية.

(20) أصيب «بطرس» والأم «كاملة» بمرض السل، ثم أصيبت كاملة أيضاً بمرض الجدري وأدخلت إحدى المستشفيات الشعبية، وزاد المرض على «بطرس». ولفظ أنفاسه في مارس 1903 وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وبعده بشهرين [يونيو 1903] لفظت أم جبران أنفاسها الأخيرة، ويقول جبران عن أخيه «بطرس» لصديقه «فريد هولاند داي»: انطفأ شقيقي وهو في الخامسة والعشرين من عمره، لا أجد كلاماً يُعبّر عن حزني. أما حزنه الأكبر فكان على أمه، يقول: «ما بكيت عليها لأنها أُمي وحسب، بل لأنها صديقتي، لقد كانت حكيمة فوق كل حكمة، إن أعذب ما تحدث به الشفاة البشرية «يا أُمي». تلك الكلمة الصغيرة الكبيرة، والمملوءة بالأمل، والحب والانعطاف. فقدت بفقدتها التعزية في الحزن، والرجاء في اليأس، والقوة في الضعف. فقدت ينبوع الحنو، والرأفة، والغفران، والصدر الذي أسند إليه رأسي، واليد التي تباركني وتحرسني.

جبران أديباً :

التقى جبران أحد الصحفيين كان يصدر صحيفة «المهاجر» هو «أمين الغريب» ، الذي أعجب بأسلوب «جبران» ورسومه . فاتفق معه على الكتابة بصحيفته ، وكان يقوم «أمين الغريب» بتصحيح المقالات التي يدفع بها جبران إلى الجريدة لغوياً . وظهر أول مقال لجبران ، وعنوانه «رؤيا» في مارس 1904 ، ثم توالى سلسلة من المقالات تحت عنوان «رسائل من نار» .

لقائه بـ «ماري هاسكل» [1872-1994] :

كان لقاء «جبران» بـ «ماري هاسكل» بداية قصة حب كبيرة ، فقد أعجبت أولاً بموهبته الفنية . وحدث أن أقام «جبران» ، و«فريد» معرضاً فنياً ، ولكن يشاء القدر أن يحدث حريق يلتهم كل ما أنتج هو وصديقه⁽²¹⁾ ، وتعلم «ماري هاسكل» بالحريق ، فتكون خير مواسيه له . وعن طريقها يتعرف على «إملي ميتشل»⁽²²⁾ ، وهي فرنسية رائعة الجمال ، و«شارلوت تيلر» وهي مناضلة اجتماعية تدرّس في جامعة شيكاغو . وكان هذا اللقاء فاتحة صفحة جديدة في حياة جبران الأدبية والفنية والعاطفية .

(21) يقول «جورج صيدح» (ص 228) أن ذلك الحريق «أنّاح له توكيد تفكيره في عقيدة ثابتة استوحاها من احتراق رسومه في المعرض ، فأصبح جبرياً ، ومؤمناً بتناسخ الأرواح ، يرد إلى «المكتوب» كل حوادث حياته ؛ [ولادته - هجرته - موت أهله - احتراق رسومه] . وهو يشير في المواقب إلى هذه العقيدة :

وللمقادير سبل لا تغيرها والناس في عجزهم عن قصدهم قصروا

(22) هي مثاله ، وأحبها جبران ، ورسومها .

أصدر جبران في هذه الفترة كتابه الأول «الموسيقى» [1905] ، ونشر له «أمين الغريب» : عرائس المروج [1906] ⁽²³⁾ . الأرواح المتمردة [1908] ⁽²⁴⁾ .

رحلته إلى باريس [1908-1910] :

أيقن جبران أنه لابد أن يصقل موهبته بالدراسة ، وكانت باريس في ذلك الوقت هي ملجأ الفنانين ، ولكنه لا يستطيع تحمل مصاريف الدراسة . فسارعت «ماري هاسكل» إلى مساندته مادياً ، وذهب «جبران» إلى باريس في أول يوليو 1908 حيث أقام فيها ستين متمتعاً بالمنحة الشهرية التي ترسلها له «ماري هاسكل» وكان قبل سفره قد أهداها بعض لوحاته .

إقامته في باريس :

سافرت «ميشلين» أولاً إلى باريس ، لتكون في استقباله ، واستأجرت له غرفة ليقم فيها . ولكنها بعد مدة لم تعجب جبران ، فانتقل إلى بناية كبيرة بشارع مونبارناس [جادة ده مان رقم 14] كان يقيم فيها الكثير من الرسامين المحترفين ، وجعل من غرفة نومه مرسماً له .

(23) كتب مقدمته في نهاية الكتاب ، يقول «أمين الغريب» : مقدمات الكتب تكون عادة في بداية الكتب لا في نهايتها . أما في هذا الكتاب فالمقدمة تصير خاتمة .. طالعت الروايات الثلاث التي ألف كتابه منها فأخذت رشاقة أسلوبه بمجامعي ، وكبرت لدي مقاصده حتى وجدت أن كتاباً مثل هذا الكتاب لا يجوز أن يقدم عليه شيء ، ولأجل ذلك هذه المقدمة تصير خاتمة [جبران خليل جبران - عرائس المروج - مطبعة كرم ومكتبتها - دمشق (ص 449) .

(24) كتاب «الأرواح المتمردة» - كما يدل عنوانه - يحدث عن أرواح تمردت على التقاليد والشرائع الفاسية «في نظره» التي تحد من حرية الفكر والقلب ، والتي تسمح لحفنة من الأدمنين أن تتحكم في أرزاق الناس وعواطفهم وأعناقهم باسم القانون ، وباسم الدين . [عن ميخائيل نعيمة - كتاب الهلال ، العدد 36 - مارس 54 ، ص 12] .

التحق «جبران» بأكاديمية «جوليان» ، ودرس فيها على يد الرسام «جان بول لورنس» القواعد الفنية للرسم . وكانت صعوبة اللغة عائقاً له ، ولكن بعد فترة تعرّف إلى فنان آخر هو «بيير مارسيل بيرونو» فانتقل للدراسة معه .

وفي باريس تعرّف على النحات «رودان»⁽²⁵⁾ . وتعلّم منه فن النحت ، ونصحه بأن يستلهم الطبيعة في أعماله .

كانت «ميشلين» تعتني به في باريس . يقول عنها في رسالة إلى «ماري هاسكل» : «ميشلين» الحلوة هي أم صغيرة ، عزيزة ، وطفلة صغيرة ، إنّها في الواقع عون كبير .

وعلى الرغم من الظروف الجيدة التي مكنته من الدراسة في باريس ، ووجود ميشلين إلى جواره إلا أنّ صحته ساءت حتى ظنّ أن الموت قد يداهمه وهو في باريس ، فيكتب وصيته إلى «هاسكل» يقول لها : «.. أريد القول بأن اللوحات والرسوم القليلة التي بحوزتك هي جميعاً ملكك فيما لو داهمني الموت فجأة هنا في باريس ، كما أنّ الدروس والدراسات التي يُعثر عليها في مكتبي في باريس هي جميعها لك .. » .

عندما علم «يوسف الحويك» - وكان قد بدأ يدرس أصول الرسم في روما - بوجود «جبران» في باريس لدراسة الرسم ، انتقل إلى باريس ، وتزاملاً ، على الرغم من اختلاف نزعاتهما .

(25) رودان : أوجست رودان [1840-1917] نحّات فرنسي ، تنزع آثاره إلى التعبير عن فكر تجريدي الطابع . وقد نفى «يوسف الحويك» تلمذة جبران على «رودان» قائلاً أنّها «باطل من الأباطيل» مؤكداً ذلك برسالة وصلته من جبران في 19 يناير 1911 .

وفاة الأب :

في سنة 1909 ورد «جبران» نعي أبيه .. مات بعد أن أصيب بالعمى وحاصرته الديون من كل جانب . ولكنه تعزّى بمباركة والده له قبل وفاته .

اشتراكه في معرض فني بباريس :

كان «جبران» يهفو إلى أن يعرض لوحاته في معرض رسمي في باريس دفعه ذلك إلى السعي للاشتراك في «معرض الربيع» الذي تنظمه الجمعية الوطنية للفنون الجميلة . واستعد لذلك بمجموعة من لوحاته منها لوحة «موكب الأجيال» ، يقول عنها لصديقه «نخلة جبران» : « لا يعلم غير الله ما كابדתه في سبيل هذا الرسم ؛ لأنه من المواضيع التي تستلزم كثيرًا من الدرس ، والوقت ، والفكر ، والإحساس . وقبلت اللوحة .. وأسرع يزف خبر اشتراكه في المعرض لراعيته «ماري هاسكل» .

رحلته إلى لندن :

زار أمين الريحاني صديقه «جبران» في باريس ، وانتقلا إلى لندن لمشاهدة متاحفها ، ومسارحها . وتمنيا إنشاء دار للأوبرا في بيروت ، ووضع جبران تصميمًا لها يدل على سماحته الدينية ، فقد ظهرت فيها قبتان ترمزان إلى المسيحية والإسلام وهما يتصافحان .

في نهاية الرحلة توجه «الريحاني» إلى نيويورك ، وعاد «جبران» إلى باريس . على أمل اللقاء فيما بعد في أمريكا .

دعته الجمعية الوطنية الفرنسية للفنون ليعرض أعماله في صالون الخريف . ولكن لم تسمح له حالته المادية بالبقاء في فرنسا أكثر من ذلك . وفي نوفمبر 1910 غادر باريس متوجهاً إلى بوطسن .

مغادرة بوطسن .. والإقامة في نيويورك [1913-1931] :

في عام 1912⁽²⁶⁾، وبإغراء من «الريحاني» انتقل إلى نيويورك ، وأقام في 164 شارع وافرلي ، حيث قضى بقية حياته فيها .

أصدر كتابه «الأجنحة المتكسرة» يقول «جورج صيدح»⁽²⁷⁾ : جبران هو في الحقيقة بطل قصته ، والوقائع التي يرويها هي حكاية حاله ؛ «سلمى كرامة» فتاة أحلامه ، أحبته وعاهدته على الزواج ، ولكن المطران أرغمها على الزواج من ابن أخيه ، ففعلت مكرهة ، وماتت كمدًا . وهي مأساة حبه الأول .

يقول «جبران» : «قد أوجدت الكآبة بين روحي وروح «سلمى» صلة المشابهة فكان كلانا يرى في وجه الثاني ما يشعر به قلبه ، ويسمع بصوته صدى مخبات صدره»⁽²⁸⁾ .

(26) انفردت مقدمة المجموعة الكاملة لجبران (ط. الجليل) بذكر تاريخ انتقاله إلى نيويورك في 26 إبريل 1911 .

(27) أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية (ص 229) .

(28) صدرت بعد الأرواح المتمردة بأربع سنوات ، يروى فيها جبران قصة حبه الأول ، يوم كان طالبًا في بيروت ، ويرويها بأسلوب شعري ، وجداني ، مشبع بروح التقديس للحب ، وكل ما يبعثه في النفس من غبطة سماوية ، وآلام لا تطاق . وجبران إذا ما تغنى بآمال القلب البشري وآلامه منحنا من الألحان أشجأها ، وأرانا من الألوان أبهاها .

فكيف به يتغنى بحبه الأول ، وبجمال الفتاة التي حركت مشاعره ، وألهمته أجمل أعماله ؟

لقد حاول جبران في «الأجنحة المتكسرة» أن يكتب أكثر من قصة ، تحدث عن قلبين متحابين تحول دون اتحادهما التقاليد الاجتماعية ، وسلطة رجل من رجال الدين ، ولكن في ظروف تترك القارئ في حيرة لا في نقمة على التقاليد ورجال الدين . فقد كان في استطاعة الحبيين - بقليل من عناد المحبين ، وإيمانهم بقدسية الحب - أن يتغلبا على هذه العقبات ، ولكنهما أثرا الرضوخ للأمر الواقع على العناد وأثرا الشكوى والتفجع والنواح ، على الوقوف بجانب حقهما في الحياة .

وبعد عام أصدر كتابه الشعري الوحيد «المواكب» ، وعرض فيه إلى جانب الشعر ، أعماله الفنية في الرسم .

قامت الحرب العالمية الأولى .. وحدث الخراب في كل مكان .. وتعرضت لبنان للمجاعة ، فأصدر عام 1920 كتابه «العواصف» تحت تأثير تلك الحوادث . وكان آخر كتبه باللغة العربية⁽²⁹⁾ .

في «العواصف» يظهر مدى تعلقه بوطنه ، ومدى تألمه لما حاق به ، يقول : «مات أهلي وأنا في قيد الحياة أندبهم في وحدتي وانفرادي لو كنت جائعاً بين أهلي الجائعين ، مضطهداً بين قومي المضطهدين ، لكانت الأيام أخف وطأة على صدري ، والليالي أقل سواداً أمام عيني ، ولكنني هنا وراء البحار السبعة أعيش في ظل الطمأنينة ، وخمول السلامة ، أنا ههنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ، ولا أستطيع أن أفخر بشيء حتى ولا بدموعي » .

ومع استقراره بـ«نيويورك» توالى إصداراته : [الأجنحة المتكسرة- 1912 - دمة وابتسامة 1914 - المواكب 1919 ، العواصف] .

(29) ليس معنى هذا أنه انقطع عن الكتابة بالعربية ، فقد ظلّ يكتب مقالات متقطعة ، أهمها ما كان ينشره في الأعداد الممتازة التي كانت تصدرها جريدة «السائح» في مطلع كل عام . وكان آخر ما كتبه بالعربية مقالاً أعدّه لصحيفة «السائح» في مطلع عام 1931 بعنوان : «ملك البلاد وراعي الغنم» وهو حوار يدور بين «ملك وراع» فيخرج الراعي منه منتصراً . ولكن هذا العدد لم يصدر . ولم يكتب لخبّر أن يقرأ مقاله مطبوعاً ، فقد أدركته المنية مساء العاشر من إبريل عام 1931 . وهكذا جاء هذا المقال خاتمة صامتة لثورة عنيفة جامحة مباركة هزّت الأدب العربي هزّاً ، وقد حمل لواءها قلب محب فسيح ، مفكر إنساني حبار ، وخيال نفاذ وثّاب ، وروح موقع أجمل التوقيع لخير ما في الكيان البشري من أشواق حرّاقة ، وحنين أبدي إلى الانعتاق من القيود والحدود للحظوة بحرية المعرفة التي لا توصف ولا تحد .

أما الكتب التي صدرت بالإنجليزية :

[المجنون 1912 - العواصف «السابق» بالإنجليزية 1920 - البدائع والطرائف 1921 - النبي 1923 - رمل وزبد 1926 - يسوع ابن الإنسان 1928 - آلهة الأرض 1931 (صدر قبل وفاته بأيام)].

وذلك أنه بعد أن تأسست «الرابطة القلمية» وترأسها وذلك في 20 إبريل 1920 انصرف إلى التأليف باللغة الإنجليزية ، وقد درّت عليه هذه الإصدارات أرباحًا كبيرة ، نزعته من قلمه طعم المرارة ، ومن قلبه حرارة الشكوى ؛ كان يكتب في الحب الضيق ، فأصبح يكتب في الحب العام المطلق ، كان أدبه قويًا ، فأصبح إنسانًا . ثم دخل في طور الفلسفة ، فكانت فلسفته مبنية على الحب .

الرحيل :

كانت العلة تزداد .. وجبران لا يأبه .. هو مشغول بالفن والأدب .. ولكن ناء الجسد بالحمل الثقيل ، فخدمت شعلة الحياة في الجسد في العاشر من إبريل 1931 .. وفي 21 أغسطس 1931 رقد الجثمان بسلام في دير مارسركيس بمسقط رأسه «بشري» .

بعد وفاته صدر له بالإنجليزية [التائه 1932 - حديقة النبي 1933] .

لقد عاد المنفى إلى قريته وقد أوصى لها وهي التي ضنت عليه بالكفاف من الرزق بديع كتبه ومجموعة صوره ، وأن يخلف على قلبه في صباه ، كنوزًا لا تثمن من الشهرة والمجد .

سمير إبراهيم بسيوني

المنصورة في نوفمبر 2009م

الموسيقى

نشرت أول مرّة عام (1905 م)

نقلتها مجلة (الحفار) تحت عنوان « دمة وابتسامة »

جلست بقرب من أحبتها نفسي أسمع حديثها ، أصغيت ولم أنبس بينت شفة ، فشعرتُ
أن في صوتها قوّة اهتزّ لها قلبي اهتزازات كهربائية فصلت ذاتي ، فطارت نفسي- سابحة في
فضاء لا حدّ له ولا مدى ، ترى الكون حلماً ، والجسد سجناً ضيقاً .

سحر عجيب مازج صوت حبيبي وفعل بمشاعري ما فعل وأنا لاهٍ عن كلامها بما أغناني
عن الكلام .

هي الموسيقى أيّها الناس ، سمعتها إذ تنهّدت حبيبي بُعيد بعض الكلمات ، وابتسمت في
بعضها ، سمعتها لما حكّت تارة بألفاظ متقطعة ، وآونة بجمل متواصلة ، وأخرى بكلمات
أبقت نصفها بين شفّتيها .

تأثيرات قلب حبيبي ، رأيته بعين سمعي ، فشغلّنتني عن جوهر حديثها بجواهر
عواطفها المتجسّمة بموسيقى هي صوت النفس .

بلى ، فالموسيقى هي لغة النفوس ، والألحان نسيّات لطيفة تهزّ أوتار العواطف ، هي
أنامل رقيقة تطرق باب المشاعر ، وتنبه الذاكرة فتتشر هذه ما طوته الليالي من حوادث أثرت
فيها بماضٍ عبر .

هي نغمات رقيقة تستحضر على صفحات المخيّلة ، ذكرى ساعات الأسى والحزن إذا
كانت محزنة ، أو ذكرى أويقات الصفاء والأفراح إذا كانت مفرحة .

هي مجموع أصوات محزنة تسمعها فتستوقفك ، وتملاً أضلعك لوعة ، وتمثّل ذلك الشقاء
كالأشباح .

هي تأليف أنغام مفرحة ، تعيها فتأخذ قلبك فيرقص بين أضلعك فرحاً وتيها .

هي رنة وتر تدخل سامعتك محمولة بمتوجات الأثير ، فقد تخرج عن عينيك دمعة محرقة
أثارها لوعة نأي حبيب ، أو آلام كلوم خرقها ناب الدهر ، وربما خرجت من بين شفتيك
ابتسامة كانت والحق عنوان السعادة والرخاء .

هي جسم من الحشاشة ، له روح من النفس وعقل من القلب .

وجد الإنسان فأوحيت إليه الموسيقى من العلاء لغة ، ليست كاللغات ، تحكي ما يكنه
القلب للقلب ، فهي حديث القلوب ، وهي كالحب عمّ تأثيرها الناس ، فترنم بها البرابرة في
الصحراء ، وهزت أعطاف الملوك في الصروح ، مزجتها الشكلى مع نوحها ، فكانت ندباً
يفتت قلب الجماد ، وبثها الجذلان مع أفراحه فكانت إنشاداً يطرب مغلوب الأرزاء ، فقد
حاكت الشمس ، إذ أحييت بأشعتها جميع زهور الحقل .

الموسيقى كالمصباح ، تطرد ظلمة النفس ، وتنير القلب ، فتظهر أعماقه ، والألحان في
قضائي أشباح الذات الحقيقيّة ، أو أخيلة المشاعر الحيّة ، والنفس كالمرآة المنتصبة تجاه
حوادث الوجود وفواعله ، تنعكس عليها رسوم تلك الأشباح وصور تلك الأخيلة .

النفس زهرة ليّنة في مهبّ ريح التقادير ، نسيات الصباح تهزّها وقطرات الندى تلوي عنقها ، كذا تغريدة عصفور تنبّه الإنسان من غفلته ، فيصغي ، ويشعر ، ويمجد معه الحكمة مبدعة نغمة الطائر العذبة وشعوره الرقيق ، وتهيج تلك التغريدة قوى فكرته ، فيسأل ذاته ، وما يحفّ به ، عمّا أسرّه لحن ذلك الطائر الحقيق فحرّك أوتار عواطفه ، وأوحى إليه معاني ما حوتها كتب الألى تقدموه ، يسأل مستفهمًا عمّا إذا كان العصفور يناجي زهور الحقل ، أم يحاكي أغصان الأشجار ، أم يقلّد خريز مجاري المياه ، أم ينادم الطبيعة بأسرها ، ولكنه لا يستطيع إلى الحصول على الجواب سبيلًا .

الإنسان لا يدري ما يقوله العصفور فوق أطراف الأغصان ، ولا الجداول على الحصباء ، ولا الأمواج إذ تأتي الشاطئ ببطء وهدوء ، ولا يفقه ما يحكيه المطر إذ يتساقط منهما على أوراق الأشجار ، أو عندما يطرق بأنامله اللطيفة بلور نافذته ، ولا يفهم ما يقوله النسيم لزهور الحقل ، ولكنه يشعر أن قلبه يفقه ويفهم مفاد جميع هذه الأصوات فيهتزّ لها تارة بعوامل الطرب ، ويتنهد طورًا بفواعل الأسى والكآبة .

أصوات تناجيه بلغة خفيّة ، وضعتها الحكمة قبل كيانه ، فتحدّثت نفسه والطبيعة مرّات كثيرة وهو واقف معقود اللسان حائرًا ، وربما ناب عن لفظه والدمع أفصح مترجم .

اثّت معي ، يا صاح ، إلى مسرح الذكرى لنرى منزلة الموسيقى عند أمم طوتها الأيام ، وتعال نتأمّل تأثيرها في كلّ دور من أدوار ابن آدم .

عندها الكلدانيون والمصريون كإله عظيم يُسجد له ويمجّد ، واعتقد الفرس والهنود بكونها روح الله بين البشر ، وقال شاعر فارسي ما معناه : « إن الموسيقى كانت حورية في سماء الآلهة تعشقت آدمياً وهبطت نحوه من العلو فغضب الآلهة إذ علموا وبعثوا وراءها ريجاً شديدة نثرتها في الجو وبعثرتها في زوايا الدنيا ، ولم تمت نفسها قطّ بل هي حيّة تقطن آذان البشر » .

وقال حكيم هندي : « إنّ عذوبة الألحان توطد آمالي بوجود أبدية جميلة » .

والموسيقى عند اليونان والرومان كانت إلهًا مقتدرًا ، بنوا له هياكل عظيمة ما برحت تحدثنا بعظمتهم ، ومذابح فخيمة ، قدموا عليها أجمل قرابينهم وأعطر بخورهم ، إلهًا دعوه أبولون فمثلوه وجميع الكمالات تجعله منتصبًا ، كالغصن على مجاري المياه ، يحمل القيثارة في يسراه ، ويمينه على الأوتار ، رأسه مرفوع يمثل العظمة ، وعينه ناظرتان إلى البعيد كأنّه يرى أعماق الأشياء .

وقالوا : إنّ رنّات أوتار «أبولون» صدى صوت الطبيعة ، رنّات شجيرة ينقلها عن تغريد الطيور وخرير المياه وتنهدات النسيم وحفيف أغصان الأشجار .

وجاء في أساطيرهم أنّ رنّات أوتار «أورفيوس» الموسيقى حرّكت قلب الحيوان فاتبعته الضواري ، والنبات ، فمدّت نحوه الأزاهر أعناقها ومالت إليه الأغصان ، والجماد ، فتحركت وتفتّت .

وقالوا : فقد «أورفيوس» زوجته فبكاها ورثاها ندبًا حتى ملأت نعمة لوعته البرية ، فبكت الطبيعة لبكائه حتى حنّت قلوب الآلهة ففتحت له أبواب الأبدية كي يلتقي حبيبته في عالم الأرواح .

وقالوا : قتلت بنات الأحرار «أورفيوس» ورمين برأسه وقيثارته إلى البحر فطافا على الماء حتى بلغا جزيرة دعاها اليونان جزيرة الأغاني .

وقالوا إنّ الأمواج التي حملت رأس أورفيوس وقيثارته ما برحت منذ ذاك الحين تصوغ من أصواتها ندباً مؤثراً وأنغاماً مخزنة ، تملأ الأثير فيسمعها الملاحون .

هذا كلام بعد أن قضى عز تلك الأمة ومضى ، دعوانه خرافات مصدرها الوهم وأحلاماً ابتدعتها التصوّرات ، غير أنّه قول دلّ على أن تأثير الموسيقى في صدور اليونان كان عميقاً وعظيماً فقالوا ما قالوا عن صحة اعتقاد ، فما ضرنا لو دعونا تلك الأقوال مبالغة شعرية مصدرها رقة العواطف ومحبة الجمال وهذا في عُرْف الشعراء الشعر ؟

نقلت إلينا آثار الآشوريين رسوماً تمثل مواكب الملوك سائرة وآلات الطرب تتقدمها ، وحدّثنا مؤرّخوهم عن الموسيقى فقالوا إنّها عنوان المجد في الحفلات ورمز السعادة في الأعياد ، أجل ، فالسعادة بدوها تحكي فتاة قطع لسانها ، فالموسيقى لسان جميع أمم الأرض ، سبّحت معبوداتها بالأناشيد ومجدها بالألحان ، وكانت التراتيل - وهي الآن - فرض كالصلاة يقدمونها في المعابد وكمحركات يقفونها على القوّة المعبودة ، محركات مقدّسة مبدؤها عواطف النفس ، صلوات يهذبها القلب وما أكملته اهتزازات المشاعر .

أنفاس حرّة ما زلفتها الألفاظ بل تظّرفت بها أنفاس أثارته ندامة الملك داود فملأت أناشيده أرض فلسطين وابتدعت أشجانه أنغاماً شجيّة مؤثرة منبعها انفعالات التوبة وحزن النفس ، وكوسيط قامت مزاميره ، بينه وبين الله ، تطلب له مغفرة زلاته ، وكأن رنّات قيثارته قد انبثقت من قلبه المنسحق وسرت مع قطرات دمه إلى أصابعه ، فكانت أعمال تلك الأصابع عظيمة عند الله والناس ، وهو القائل : « هلّلوا للربّ ، سبّحوا بصوت البوق ، سبّحوه بالمزامير والقيثارة ، سبّحوه بصنوج التهليل وكلّ نسمة فلتسبّح الربّ » ، وجاء في الأسفار أن ملائكة من السماء تأتي ، في آخر الدهر ، نافخة الأبواق في جميع أقطار العالم فتستفيق من صوته الأرواح وتلبس أجسامها وتشر- أمام الديان ، لقد عظم كاتب هذا السفر الموسيقى إذ أنزلها منزلة رسول من الله إلى أرواح البشر ، وما قول الكاتب إلّا صورة مشاعره وعلى نوع كلام ينطبق على اعتقادات معاصريه .

وجاء في بدء مأساة «ابن البشر-» ، أن التلامذة سبّحوا قبيل ذهابهم إلى بستان الزيتون حيث قبض على معلّمهم ، وكأني الآن أسمع نغم تلك التسيحة صادراً من أعماق نفوس حزينة رأت ما سيحلّ برسول السلام فتنفست عن نعمة مؤثرة نابت عن كلمة الوداع .

تسير الموسيقى ، أمام العساكر ، إلى الحرب فتجدّد عزيمة حميتهم وتقوّمهم على الكفاح ، وكالجازبية تجمع شتاتهم وتؤلّف منهم صفوفاً لا تتفرّق ، ما سارت الشعراء ، أمام الكتائب ، إلى ساحات القتال ، موطن المنيّة ، لا ولا الخطباء ، ما رافقتهم الأقلام والكتب ، بل مشّت أمامهم الموسيقى كقائد عظيم ، يبتّ بأجسامهم الواهنة قوّة تفوق الوصف ، وحميّة تنبّه في قلوبهم حبّ الانتصار فيغالبون الجوع والعطش وتعب المسير ، ويدافعون بكلّ ما في أجسادهم من القوّة ، وراءها يسرون بفرح وطرب ويتبعون الموت إلى أرض العدو المبعوضة ، كذا يستخدم «ابن آدم» أقدس ما في الكون لتعميم شرور الكون .

الموسيقى رفيقة الراعي في وحدته ، وهو إن جلس على صخرة في وسط قطيعه نفخ
بشبابته ألحاناً تعرفها نعاجه فترعى الأعشاب آمنة ، والشبابة عند الراعي كصديق عزيز لا
تفارق وسطه ، ونديم محبوب ، تستبدل سكينه الأودية الرهيبة برياض مأهولة ، وتقتل
بأنغامها الشجيّة وحشتها ، وتملأ الهواء أنساً وحلاوة .

الموسيقى تقود أظعان المسافرين وتخفف تأثير التعب وتقصّر مديد الطرقات ، فالعيس لا
تسير في البیداء إلا إذا سمعت صوت الحادي ، والقافلة لا تقوم بثقل الأحمال إلا إذا كانت
الأجراس معلّقة برقابها .

ولا بدع ، فالعقلاء في أيّامنا هذه يربّون الضواري بالألحان ويدجنونها بأصوات عذبة .

الموسيقى ترافق أرواحنا وتجتاز معنا مراحل الحياة ، تشاطرنا الأرزاء والأفراح وتساهمنا
السّراء والضّراء ، وتقوم كالشاهد في أيّام مسرّتنا وكقريب شفيق في أيّام شقائنا .

يأتي المولود من عالم الغيب إلى دنيانا فتقبله القابلة والأقارب بأغاني الفرح ، متأهلين
بأناشيد الابتهاج والحبور ، يحييهم ، عندما يرى النور ، بالبكاء والعويل فيجيبونه بالتهليل
والهتاف كأنهم يسابقون بالموسيقى الزمان على إفهامه الحكمة الإلهيّة .

وإذا ما بكى الرضيع اقتربت منه والدته وغنّت بصوتها الموسيقى المملوء رقة وحنّوا
فيكف عن البكاء ويرتاح لألحان أمّه المتجسمة من الشفقة وینام ، وفي ألحان الوالدة ونغمتها
قوة توّعز إلى الكرى ليغمض أجفان طفلها ، وتشارك تلك الألحان السكينة بهدوئها فتزيدها
حلاوة وتمحو رهبتها وتملأها سحرًا من أنفاس الأم الحنون حتى يتغلّب الرضيع على الأرق
وينام وتطير نفسه إلى عالم الأرواح ، ولا ينام الطفل لو تكلمت الوالدة بلسان شيشرون أو
قرأت ابن الفارض .

ينتقي الرجل شريكه حياته وتتحد نفساهما برباط الزواج ، متممين وصية كتبها الحكمة منذ البدء على قلبيهما ، فيجتمع الأقارب والخلاّن ويصدحون بالأناشيد والأهازيج و يقيمون الموسيقى شاهداً عندما يربط القران عرس المحبة ، فكأنّي بها ، يوم التعريس ، صوت رهيب تمازجه الحلاوة ، صوت يمجد الله في مخلوقاته ، صوت ينبّه الحياة النائمة لتسير وتملأ وجه الأرض .

وعندما يأتي الموت ، ويمثّل آخر مشهد من رواية الحياة ، نسمع الموسيقى المحزنة ونراها تملأ الجوّ بأشباح الأسي ، في تلك الساعة الموجعة إذ تودّع النفس ساحل هذا العالم الجميل وتسبح في بحر الأبدية ، تاركة هيكلها الهيولي بين أيدي الملحنين والندّابين ، فيتأوّهون بنغمت الحزن والأسف ويلحفون تلك المادة الثرى ويشيّعونها بألحان مفادها الضيم ، وأناشيد معناها الكمد واللوعة ، نغمت يحونها ما بقي التراب فوق التراب ، وإن بليت يبقى صداها في خلايا الجوارح ما دام القلب يذكر من مضى .

جالست من ميّزه الله بعذوبة الصوت وحباه إدراك فلسفة التنعيم والإيقاع فرأيت السامعين حوله مصغين صاغرين ، ماسكين أنفاسهم ، محكومين بفواعل السكينة ، شاخصين إليه كالشعراء المستسلمين لقوة فعالة ، توحى إليهم أسراراً غريبة ، حتى إذا ما انتهى الملحن من إنشاده تنهّدوا ذاك التنهّد الطويل - آه - آه - آه !! صادرة من أفئدة هيّجت فيها الألحان عواطف مكنونة فلذّ لها التأوّه . آه ! تنفّسها قلوب حرّى أنعشتها الذكرى ، آه ! كلمة صغيرة لكنّها حديث طويل . آه ! ما قالها سامع كلام الملحن لا ولا ناظر وجهه ، بل تنهّدوا من أعار أذنّا لنشيد نسج من مقاطع أنفاس حيّة مثلت له فصلاً من رواية حياته الماضية ، أو فشت سرّاً أكتّته أضلعه .

وكم تأملت وجه سامع حسّاس فرأيت ملامحه تنقبض وتنبسط طورًا وتنقلب مع تقلّبات النغم ، واهتديت بخُلقه إلى خُلقه ، واستحكيت بباطنه بواسطة ظاهره .

والموسيقى كالشعر والتصوير ، تمثّل حالات الإنسان المختلفة وترسم أشباح أطوار القلب وتوضّح أخيلة ميول النفس وتصوغ ما يجول في الخاطر وتصف أجمل مشتهيات الجسد .

النهاوند

(النهاوند) يمثّل تفريق المحبّين ووداع الوطن ويصف آخر نظرة من راحل عزيز ، يمثّل شكوى آلام مبرحة بين ضلوع قوامها لظى الشوق ، النهاوند صوت من أعماق النفس الحزينة ، نغم متجسّم من مهجور يسأل عطفًا على رmqه قبل أن يضنيه البعاد ، زفرات يائس أنشأتها المرارة وتنهدات قانط بثتها لوعة من أتلفه الصبر والتجلّد ، النهاوند يمثّل الخريف وتساقط أوراق الأشجار المصفّرة بسكينة وهدوء ، وتلاعب الريح بها وتفريق شملها ، النهاوند صلاة والدة نأى ابنها إلى أرض بعيدة فباتت بعدة تغالب النوى فيهاجمها بعوامل اليأس وتصدّه بفواعل الصبر والأمل ، وفي النهاوند معنى بل معان وأسرار يفهمها القلب وتفقهها النفس ، أسرار يحاول بثّها اللسان وكشفها القلم فيجفّ هذا وتنقطع أوصال ذاك .

الأصفهان

وأصغيت (للأصفهان) فشاهدت ، بعين سمعي ، آخر فصل من حكاية عاشق دنف ، ماتت حبيبته فتقطّعت عرى آماله وتواصلت زفراته فهو ينوح بآخر ما في جسده من الحياة ، ويرثي ببقايا ما في حياته من الرmq ، الأصفهان آخر نفس من منازع واقف ، في مركب الموت ، بين شاطئ الحياة وبحر الأبدية .

الأصفهان رثاء الذات بغصّات متقطّعة متواصلة وتنهدات عميقة ، نغمة صداها سكينة تمازجها مرارة الموت والأسى وحلاوة الدمع والوفاء .

وإن كان النهاوند حنين من يحيا ببعض الأمل ، فالأصفهان أنين من انفصمت عرى آماله .

الصبا

نسمع (الصبا) فتستفيق منّا قلوب حجبها لحف الغم وتستيقظ وترقص الضلوع ،
فالصبا نغمة فرح تنسي المرء أتراحه فيطلب الراح ويشربها بلذّة غريبة ويستزيد منها كأنّه
يعلم أن خمرة المسرات تسابقها فتحكم بالعاقلة ، الصبا حديث محبّ مغتبط صارع الدهر
وأرغم أنف البين وأسعدته الليالي بخلوة فحظي بلقاء محبوبه جميلة في حقل بعيد ، فأولاه
اللقاء فرحاً وابتهاجاً ، الصبا كنسيات الصّبا تمرّ فتتهزّ لها أزاهر الحقل تيهًا وابتهاجًا .

الرصد

و(للرصد) في سكون الليل ، وقع في المشاعر يحاكي تأثير كلمات رسالة جاءت من عزيز
غالٍ ، انقطعت أخباره في بلاد بعيدة ، فجاء الكتاب يحوي عاطفة الأمل ويعد النفس باللقاء
، وكأنيّ بمغنيّ الرصد يخبر بقرب الفجر واندحار الظلام ، وقد قيل : « إن جهز ليك
فأرصد » .

وفي العتابا البعلبيّة عتاب رقيق يراوح بين اللوم والتعنيف ، ولحنها مزيج من النهاوند
المؤثر ، والصبا المفرح ، وفعلها في النفس فعلها .

والآن وقد كتبت هذه الصفحات ، أراني كطفل ينسخ كلمة من نشيد طويل ، غتته
الملائكة عندما جبل الله الإنسان الأوّل ، أو كأمنيّ يستظهر جملة من كتاب وضعته الحكمة
على صفحات المشاعر قبيل ابتداء الدهر .

فيا أيتها الموسيقى ، يا أوتربي المقدسة لقد رقصت أخواتك الفنون فيما غبر من الأجيال
زمنًا ، ووضعن في معازل النسيان آخر ، وأنت تهزئين بهنّ ولم تتنازلي عن مسرح النفس يومًا
واحدًا ، فكأنّك صدى القبلّة الأولى التي وضعها آدم على شفّتي حواء ، صدى له صدى له
صدى ، تتناقل وتتناسخ وتكتنف الكلّ وتحيا بالكلّ ، يلذّ لعمالها عملهم ويفرح الغير
الموهوب من مكارمها بسمعه .

يا ابنة النفس والمحبة ، يا إناء مرارة الغرام وحلاوته ، يا أخيلة القلب البشري ، يا ثمرة
الحزن وزهرة الفرح ، يا رائحة متصاعدة من طاقة زهور المشاعر المضمومة ، يا لسان المحبّين
ومديعة أسرار العائقين ، يا صائغة الدموع من العواطف المكنونة ، يا موحية الشعر ومنظمة
عقود الأوزان ، يا موحدة الأفكار مع نتف الكلام ومؤلفة المشاعر من مؤثرات الجمال ، يا
خمرة القلوب الرافعة شاربها إلى أعالي عالم الأخيلة ، يا مشجعة الجنود ومطهرة نفوس
العابدين ، يا أيتها التموجات الأثرية الحاملة أشباح النفس ويا بحر الرقة واللفظ ، إلى
أمواج نسلم أنفسنا وفي أعماقك نستودع قلوبنا ، فاحملها إلى ما وراء المادة ، وأرينا ما تكنّه
عوالم الغيب .

تكاثري يا عواطف النفوس وتعاطمي يا مشاعر القلوب وارفعي أيادي ذوي الأيادي
لبناء الهياكل لهذه الآلهة العظيمة ، وانزل يا ملاك الوحي على قلوب الشعراء ، واسكب في
خلايا قريحتهم مديحًا وتسبيحًا لهذه العظيمة المقدسة ، واكبري يا مخيلة الرّسامين والنقّاشين ،
وابتدعي لها صورًا وأشباحًا .

كرّموا يا سكّان الأرض كهنتها وكاهناتها ، وعيّدوا لذكر خدامها ، وشيّدوا لهم التماثيل ،
صلّي أيتها الأمم وسلّمي على أورفيوس وداود والموصلي ، وعظّمي ذكر بيتهوفن وفغنر
وموزارت ، وغنّي يا سوريا باسم شاكر الحلبي ، ويا مصر- باسم عبده الحمولي ، كبر أيّها
الكون الألى بثوا في سمائك أنفسهم وملأوا الهواء أرواحًا لطيفة وعلموا الإنسان أن يرى
بسمعه ، ويسمع بقلبه . آمين .



عرائس المروج

نشرت عام 1906



رماد الأجيال والنار الخالدة

- 1 -

توطئة

(في خريف 16) قبل الميلاد

سكن الليل ، ورقدت الحياة في مدينة الشمس ، وأطفئت السرج في المنازل المنتشرة حول الهياكل العظيمة القائمة بين أشجار الزيتون والغار ، وطلع القمر فانسكبت أشعته على بياض الأعمدة الرخامية المنتصبة كالجبابة تخفر في هدوء الليل مذابح الآلهة ، وتنظر تيهًا وإعجابًا بروح لبنان الجالسة في الوعر على جبهات الروابي البعيدة .

في تلك الساعة المملوءة بسحر الهدوء ، الموحدة بين أرواح النيام وأحلام اللانهاية ، جاء «ناثان» ابن الكاهن «حيرام» ودخل هيكل «عشثروت» حاملاً مشعلًا ، وييد مترجفة أنار المسارج وأوقد المباخر فتصاعدت روائح المر واللبنان ، ووشحت تمثال المعبودة بنقاب لطيف يشابه برقع الأماني المحيط بالقلب البشري ، ثم ركع أمام المذبح المصفّح برقوق العاج والذهب ، ورفع يديه ونظر نحو العلاء ، ومن عينيه الدموع تستدرّ الدموع ، وبصوت تخفضه الغصّات الأليمة وتقطعه اللوعة القاسية صرخ قائلاً :

رحماك يا عشتروت العظيمة ، رحماك يا ربّة الحبّ والجمال ، ترأفي بي وأزيلي الموت عن
حبيتي التي اختارتها نفسي بمشيئتك ... لقد نبت أعاصير الأطباء ومساحيقهم ، وباطلاً
ضاعت تعازيم الكهّان والعرفانين ، ولم يبق لي غير اسمك المقدّس عوناً ومساعداً ،
فاستجيبني تضرّعاتي ، وانظري انسحاق قلبي وتوجّع عواطفني ، وأبقي شطر نفسي- حيّاً
بجانبي ، لنفرح بأسرار محبّتك ونسعد بجمال الشبيبة المعلنة خفايا مجدك ، من هذه الأعماق
أصرخ إليك يا «عشتروت» المقدّسة ، من وراء ظلمة هذا الليل أستجير بحنانك ، فاسمعيني أنا
عبدك «ناثان» ابن الكاهن «حيرام» الذي وقف عمره على خدمة مذبحك - قد أحببت صبيّة
من بين الصبايا واتخذتها رفيقة فحسدتنا عرائس الجان ونفثن في جسدنا اللطيف لهاث علّة غريبة
، ثمّ بعثنّ رسول المنايا ليقودها إلى مغاورهنّ السحريّة ، وهو هو الآن رابض بقرب مضجعها ،
يزمجر كالنمر الجائع ، مخيماً عليها بأجنحته السوداء ، مادّاً مقابضه الخشنة ليغتالها من بين
ضلوعي ، من أجل ذلك جئت إليك متذلّلاً ، فارحميني وابقِها زهرة لم تفرح بعدُ بجمال صيف
الحياة ، وطائرًا لم يكمل تغريدة مسرّته لمجئ فجر الشبيبة ، أنقذها من بين أظفار الموت فنبتهج
بأغاني مدائحك ، مقدّمين المحروقات لمجد اسمك ، ناحرين الضحايا على مذبحك ، مالتين
بالخمر القديمة والزيت المطيّب آنية خزائنك ، فارشين بالورود والياسمين رواق هيكلك ،
محرقين البخور والعود الذكي الرائحة أمام تماثلك ، خلّصينا يا ربّة المعجزات ودعي المحبّة
تغلب الموت ، فأنت ربّة الموت والمحبّة .

وسكت دقيقة كانت فيها لوعته تسيل دموغاً وتتصاعد تنهداً ، ثمّ عاد فقال : « أواه ! لقد تضعضعت أحلامي يا عشتروت المقدّسة وذابت حشاشتي ومات قلبي في داخلي والتهبت دموعي في عيني ، فأحييني بالرفّة وأبقي لي حبيتي » ، ودخل إذ ذاك عبد من عبّيده واقترب منه ببطء وهمس في أذنه هذه الكلمات : « لقد فتحت عينيها يا سيّدي ونظرت حول مضجعها فلم ترك ثمّ نادتك بلجاجة فجئت لأدعوك إليها » .

فقام «ناثان» ومشى مسرعاً والعبد يتبعه ، ولما بلغ صرحه دخل حجرة العليلة وانحنى فوق سريرها أخذاً يدها النحيلة بين يديه مقبلاً شفّتها مراراً كأنه يريد أن ينفخ في جسدها السقيم حياة جديدة من حياته ، فحوّلت نحوه وجهها الغارق بين المساند الحريريّة ، وفتحت أجفانها قليلاً ، وظهر على شفّتها خيال ابتسامة هي بقية الحياة في جسدها اللطيف ، هي آخر أشعة من نفسها المودّعة - هي صدى نداء القلب المتسارع نحو الوقوف ، ثمّ قالت ومقاطع صوتها تشابه أنفاس طفل الفقيرة الجائع : « قد نادتنى الآلهة يا عريس نفسي ، وجاء الموت ليفصلني عنك ، فلا تجزع لأنّ مشيئة الآلهة مقدّسة ، ومطالب الموت عادلة ، أنا ذاهبة الآن وكأسا الحبّ والشبيبة ما برحتا طافحتين في أيدينا ، ومسالك الحياة الجميلة ما زالت منبسطة أمامنا ، أنا راحلة يا حبيبي إلى مسارح الأرواح وسوف أعود إلى هذا العالم لأنّ عشتروت العظيمة ترجع إلى هذه الحياة أرواح المحبّين الذي ذهبوا إلى الأبدية قبل أن يتمتّعوا بملذات الحبّ وغبطة الشبيبة ، سوف نلتقي يا ناثان ونشرب معاً ندى الصباح من كؤوس النرجس ونفرح مع عصافير الحقل بأشعة الشمس ، إلى اللقاء يا حبيبي » .

وانخفض صوتها وبقيت شفتاها ترتجفان مثل زهرة أقاح ذابلة أمام نسيات الفجر ،
فضمّتها حبيبها وبلّل عنقها بالعبرات ، ولما قرّى شفتيه من ثغرها وجده بارداً كالثلج ،
فصرخ صراخاً هائلاً ومزّق ثوبه وارتمى على جثتها الهامدة وروحه المتوجّعة تراوح بين لجج
الحياة وهاوية الموت .

في هدوء ذلك الليل ارتجفت أجفان الراقدين وجزعت نساء الحي وذعرت أرواح
الأطفال إذ تبطّنت ملابس الدجى بنواح موجه وبكاء مرّ وعويل أليم متصاعد من جوانب
قصر كاهن عشتروت .

ولما جاء الصباح طلب القوم ناثن ليغزّوه ويؤاسوه في مصيبتهم فلم يجدوه .

وبعد أيام جاءت قافلة من المشرق أخبر زعيمها أنّه رأى ناثن تائهاً في البريّة البعيدة هائماً
مع أسراب الغزلان .

مرّت الأجيال ساحقة بأقدامها الخفيّة أعمال الأجيال ، وبعدت الآلهة عن البلاد وحلّ
مكانها آلهة غضوب يلذّها الهدم ويهيجها التخريب ، فدكّت هياكل مدينة الشمس الفخمة
وتقوّضت قصورها الجميلة وبيست حدائقها النضرة ، وأجدبت حقولها الخصبة ، ولم يبق في
تلك البقعة غير طللٍ بالٍ يعيد للذاكرة أشباح الأمس فيؤلمها ، ويرجع للنفس صدى تهاليل
المجد القديم فيحزنها .

ولكن الأجيال التي تمرّ وتسحق أعمال الإنسان لا تفني أحلامه ، ولا تضعف عواطفه .

فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكليّ الخالد ، وقد تتوارى حيناً وتهجع آونة
متشبّهة بالشمس عند مجيء الليل وبالقمر عند مجيء الصباح .



في ربيع سنة (1890) لمجيء يسوع الناصري

توارى النهار واطمحلّ النور ، ولّمت الشمس وشاحها عن سهول بعلبك فعاد عليّ الحسيني⁽³⁰⁾ أمام قطيعه نحو خرائب الهيكل ، وهناك جلس بين الأعمدة الساقطة كأنّها أضلع جندي متروك مزقتها الهيجاء وجردتها العناصر ، فربضت أغنامه حوله مستأمنة بأنغام شبّابته .

انتصف الليل ، وألقت السماء بذور الغد في أعماق ظلمته ، فتعبت أجفان عليّ من أشباح اليقظة ، وكلّت عاقلته من مرور مواكب الأخيلة السائرة بسكينة خيفة بين الجدران المهدومة ، فاتكأ على زنده ، واقترب النعاس ولامس حواسه بأطراف ثنانيا نقابه مثلما يلامس الضباب اللطيف وجه البحيرة الهادئة ، فنسي- ذاته المقتبسة والتقى بذاته المعنويّة الخفيّة المفعمّة بالأحلام المترفّعة عن شرائع الإنسان وتعاليمه ، واتّسعت دوائر الرؤيا أمام عينيه ، وانبسطت له خفايا الأسرار ، فانفردت نفسه عن موكب الزمن المتسارع نحو اللاشيء ووقفت وحدها أمام الأفكار المتناسقة والخواطر المتسابقة ، ولأوّل مرة في حياته عرف أو كاد يعرف أسباب المجاعة الروحيّة الملاحقة شبّيبته ، تلك المجاعة التي توحد بين حلاوة الحياة ومرارتها ، ذلك الظمأ الجامع بين تأوّه الحنين وسكينة الاستكفاء ، ذلك الشوق الذي لا تزيله أمجاد العالم ولا تثنيه مجاري العمر ، لأوّل مرّة في حياته شعر عليّ الحسيني بعاطفة غريبة أيقظتها خرائب الهيكل ، عاطفة رقيقة هي الذكرى بمنزلة البخور من المجامر ، عاطفة سحرية قد انعكفت على حواسه انعكاف أنامل الموسيقى على صفوف الأوتار ، عاطفة جديدة قد انبثقت من اللاشيء ، أو من كلّ شيء ، ونمت وتدرّجت حتى عانقت كليّته المعنويّة وملأت نفسه بشغف مدنف بلطفه وتوجّع مستعذب بمرارته مستطيب بقساوته ، عاطفة تولدت من خلايا دقيقة واحدة مفعمّة بالنعاس ، ومن دقيقة واحدة تتولد رسوم الأجيال مثلما تتناسل الأمم من نطفة واحدة .

(30) قبيلة الحسينيون تقيم في سهول بعلبك ، وهي قبيلة عربية .

نظر عليّ نحو الهيكل المهذوم وقد تبدّل النعاس بيقظة روحية فظهرت بقايا المذبح المخدّشة واتضحت أماكن الأعمدة المرتمية ، وأسس الجدران المتداعية فجمدت عيناه وخفق قلبه ، ومثل ضير عاد النور إلى عينيه فجأة فثار يرى ويفكر ويتأمل ومن تموجات التفكير ودوائر التأمل تولدت في نفسه أشباح الذكرى فتذكر - تذكر تلك الأعمدة منتصبة بفخر وعظمة ، تذكر المسارج والمبارج الفضية محيطة بتمثال معبودة مهابة ، تذكر الكهّان الوقورين يقدمون الضحايا أمام مذبح مصفّح بالعاج والذهب ، تذكر الصبايا الضاربات الدفوف والفتيان المترنمين بمدائح ربّة الحبّ والجمال ، تذكر ورأى هذه الصور متضحة لبصيرته المتكهربة وشعر بتأثيرات غوامضها تحرّك سواكن أعماقه ، ولكن الذكرى لا تعيد غير أشباح الأجسام التي نراها فيما غبر من أعمارنا ، ولا يرجع إلى مسامعنا إلاّ صدى الأصوات التي وعتها آذاننا ، فأية علاقة بين هذه التذكريات السحرية وماضي حياة فتى ولد بين المضارب ، وصرف ربيع عمره يرعى قطيعاً من الغنم في البرية ؟

قام «عليّ» ومشى بين الحجارة المتقوّضة وتذكاراته البعيدة تزيح أغشية النسيان عن مخيلته مثلما تزيل الصبية نسيج العنكبوت عن بلّور مرآتها . حتى إذا ما بلغ صدر الهيكل وقف كأنّ في الأرض جاذباً يتمسك بقدميه ، فنظر وإذا به أمام تمثال مهشّم ملقى على الحضيض ، فركع بجانبه على غير هدى وعواطفه تتدفق في أحشائه مثلما يتسارع نزيف الدماء من جوانب الكلوم البليغة ، ونبضات قلبه تتكاثر وتتهامل مثل أمواج البحر المتصاعدة المنخفضة فخشع بصره وتأوّه بمرارة وبكى بكاء أليماً لأنّه شعر بوحدة جارحة وبعاد متلف فاصل بين روحه وروح جميلة كانت بقربه قبل مجيئه إلى هذه الحياة .

شعر بأن جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعرة متّقدة فصلها الله عن ذاته قبيل انقضاء الدهر .

شعر بحفيف أجنحة لطيفة ترفرف بين أضلعه الملتهبة وحول لفائف دماغه المنحلة .

شعر بالحبّ القوي العظيم يشمل قلبه ويمتلك أنفاسه ، ذلك الحبّ الذي يبيع مكنونات النفس للنفس ويفصل بتفاعيله بين العقل وعالم المقاييس والكمية ، ذلك الحبّ الذي نسمعه متكلمًا عندما تخرس ألسنة الحياة ونراه منتصبًا كعمود النور عندما تحجب الظلمة كلّ الأشياء ، ذلك الحبّ ، ذلك الإله قد هبط في تلك الساعة الهادئة على نفس «عليّ الحسيني» وأيقظ فيها عواطف حلوة ومرةً مثلما تستنبت الشمس الزهور بجانب الأشواك .

ولكن ما هذا الحبّ ، ومن أين أتى ، وماذا يريد من فتى رابض مع قطيعه بين تلك الهياكل الرميمة؟

ما هذه الخمرة السائلة في كبد لم تحركها قط لواحظ الصبايا؟ وما هذه الأغنية السماوية المتموجة في مسامع بدوي لم يُطربهُ بعدُ شدو النساء؟

ما هذا الحبّ ، ومن أين أتى ، وماذا يريد من عليّ المشغول عن العالم بأغنامه وشبابته؟ هل هي نواة ألقته محاسن بدوية بين أعشار قلبه على غير معرفة من حواسه ، أم هو شعاع كان محتجبًا بالضباب وقد ظهر الآن لينير خلايا نفسه؟ هل هو حلم سعى في سكينة الليل ليسخر بعواطفه ، أم هي حقيقة كانت منذ الأزل وستبقى إلى آخر الدهر؟

أغمض «عليّ» أجفانه المغلفة بالدموع ومدّ يديه كالمسوّل المستعطف وارتعشت روحه في داخله ، ومن ارتعاشتها المتواصلة انبثقت الزفرات المؤلفة بين تذلل الشكوى وحرقة الشوق ، وبصوت لا يميزه عن التنهد غير رنّات الألفاظ الضعيفة هتف قائلاً :

« من أنتِ أيتها القريبة من قلبي ، البعيدة عن ناظري ، الفاصلة بيني وبينني ، الموثقة حاضري بأزمة بعيدة منسية ، أطياف حورية جاءت من عالم لتبين لي بطل الحياة وضعف البشر . أم روح مليكة الجان تصاعدت من شقوق الأرض لتسترق مني عاقلتي وتجعلني سخرية بين فتیان عشيرتي؟ من أنت وما هذا الفتون المميت المحيي القابض على قلبي؟ وما هذه المشاعر المألثة جوانحي نورًا ونارًا؟ ومن أنا وما هذه الذات الجديدة التي أدعوها (أنا) وهي غريبة عني؟ هل تجرعت ماء الحياة مع دقائق الأثير فصرت ملاكًا أرى وأسمع خفايا الأسرار ، أم هي خمر وساوس سكرت بها فتعاميت عن حقائق المعقولات؟ » .

وسكت دقيقة وقد نمت عواطفه وتسامت روحه فقال : « يا من تبينها النفس وتدنيها ويحببها الليل ويقصّيها - أيتها الروح الجميلة الحائمة في فضاء أحلامي ، قد أيقظت في باطني عواطف كانت نائمة مثل بذور الزهور المختبئة تحت أطباق الثلج ، ومررت كالنسيم الحامل أنفاس الحقول ولا مست حواسي فاهتزت واضطربت كأوراق الأشجار ! دعيني أراك إن كنت لابسة من المادة ثوبًا ، أو مري النوم أن يغمض أجفاني فأراك بالمنام إن كنت معتوقة من التراب ، دعيني أملك ، أسمعيني صوتك ، مزّقي هذا النقاب الحاجب كليتي واهدمي هذا البناء الساتر ألوهيتي وهبيني جناحًا فأطير وراءك إلى مسارج الملاء الأعلى إن كنت من سكانها ، ولا مسي عيني بالسحر فأتبّعك إلى مكان من الجاه إن كنت من عرائسها ، ضعي يدك الخفية على قلبي ، وامتلكيني إن كنت حريًا باتّباعك » .

كان «عليّ» يهمس في آذان الدجى كلماته المتناسخة عن صدى نغمة متمايلة في أعماق صدره وبين ناظريه ومحيطه تنسل أشباح الليل كأنها أبخرة متولدة من مدامعه السخية ، وعلى جدران الهياكل تتمثل له صور سحرية بألوان قوس قزح .

كذا مرّت ساعة وهو فرح بدموعه ، مغتبط بلوعته ، سامع نبضات قلبه ، ناظر إلى ما وراء الأشياء كأنّه يرى رسوم هذه الحياة تضمحلّ ببطء ويحلّ مكانها حلم غريب بمحاسنه ، هائل بهواجسه ، ومثل نبي يتأمل نجوم السماء مترقّباً هبوط الوحي صار ينتظر مآتي الدقائق وتنهيداته المسرعة توقف أنفاسه الهادئة ، ونفسه تتركه وتسبح حوله ثمّ تعود إليه كأنّها تبحث بين تلك الخرائب عن ضائع عزيز . لاح الفجر وارتجفت السكينة لمرور نسياماته وسال النور البنفجسي بين دقائق الأثير ، وابتسم الفضاء ابتسامة نائح لاح له في الحلم طيف حبيبته ، فظهرت العصافير من شقوق جدران الخرائب ، وصارت تنتقل بين تلك الأعمدة وتترنّم وتتناجى متنبئة بمآتي النهار ، فانتصب عليّ واضعاً يده على جبهته الملتهبة ونظر حوله بطرف جامد ، ومثل آدم عندما فتحت عينيه نفخة الله صار ينظر مستغرباً كلّ ما يراه ، ثمّ اقترب من نعاجه وناداه فقامت وانتفضت ومشّت وراءه بهدوء نحو المروج الخضراء ، سار عليّ أمام قطيعه وعيناه الكبيرتان محدّقتان إلى الفضاء الصافي وعواطفه المنصرفة عن المحسوسات تبين له غوامس الوجود ومستتراته وتريه ما غبر من الأجيال وما بقي منها بلمحة واحدة ، وبلمحة تنسيه كلّ ذلك وتعيد إليه الشوق والحنين ، فيجد ذاته منحجباً عن روح روحه انحجاب العين عن النور ، فيتنهّد ومع كلّ تنهيدة تنسلخ شعلة من فؤاده المتقد .

بلغ الجدول المذيع بخبره سرائر الحقول فجلس على ضفته تحت أغصان الصفصاف المتدلّية إلى المياه كأنّها تروم امتصاص عذوبتها ، وانشت نعاجه ترعى الأعشاب وندى الصباح يتلمّع على بياض صوفها .

ولم تمرّ دقيقة حتى شعر بتسارع نبضات قلبه وتضاعف اهتزازات روحه ، ومثل راقد أجفله أشعة الشمس تحرّك وتلفت حوله فرأى صبيّة قد ظهرت من بين الأشجار تحمل جرّة على كتفها وتتقدّم على مهل نحو الغدير وقد بللّ الندى قدميها العاريتين .

ولما بلغت حافة الجدول وانحنت لتماماً جرّتها التفتت نحو الحافة المقابلة فالتقت عيناها بعيني عليّ فشبهت ورمّت بالجرّة ثمّ تراجعت قليلاً إلى الوراء وشخصت به شخصاً ضائع وجد من يعرفه ... مرّت دقيقة كانت ثوانها مثل مصابيح تهدي قلبيهما مبتدعة من السكينة أنغاماً غريبة تعيد إلى نفسيهما صدى تذكارات مبهمة وتبين الواحد منهما للآخر في غير ذلك المكان محاطاً بصور وأشباح بعيدة عن ذلك الجدول وتلك الأشجار ، فكان كلّ منهما ينظر إلى الآخر نظرة استعطاف ويتفرّس فيه مستلطفاً ملامحه مصغياً لتنهداته بكلّ ما في عواطفه من المسامح ، مناجياً إياه بكلّ ما في نفسه من الألسنة ، حتى إذا ما تمّ التفاهم وتكامل التعارف بين الروحين عبر عليّ الجدول مجذوباً بقوة خفيّة واقترب من الصبية وعانقها وقبل شفيتها وقبل عنقها وقبل عينيها فلم تبدّ حراكاً بين ذراعيه كأنّ لذة العناق قد انتزعت منها إرادتها ، ورقة الملازمة قد أخذت منها قواها ، فاستسلمت استسلام أنفاس الياسمين لتموجات الهواء ، وألقت رأسها على صدره كمتعب وجد راحة ، وتنهدت تنهدة عميقة تشير إلى حدوث انبساط في فؤاد منقبض وتعلن ثورات جوانح كانت راقدة فأفاقت ، ثمّ رفعت رأسها ونظرت إلى عينيّه نظرة من يستصغر الكلام المتعارف بين البشر - بجانب السكينة - لغة الأرواح - نظرة من لا يرضى بأن يكون الحبّ روحاً في أجساد من الألفاظ .

مشى الحبيبان بين أشجار الصفصاف ووحداً كليهما لسان ناطق بتوحيدهما ، ومسمع
منصت لوحي المحبة ، وعين مبصرة مجد السعادة ، تتبعهما الخراف مرتعية رؤوس الأعشاب
والزهور ، وتابلهما العصافير من كل ناحية مرتلة أغاني السحر !

ولما بلغا طرف الوادي ، وكانت الشمس قد طلعت وألقت على تلك الروابي رداء مذهباً
، جلسا بقرب صخرة يحتمي البنفسج بظلّها ، وبعد هنيهة نظرت الصبيّة في سواد عيني عليّ
وقد تلاعب النسيم بشعرها كأن النسيم شفاه خفيّة تروم تقبيلها ، وشعرت بأنامل سحرية
تدعب لسانها وشفتيها رغم إرادتها ، فقالت وفي صوتها حلاوة جارحة :

قد أعادت عشرتوت⁽³¹⁾ روحينا إلى هذه الحياة كيلا نحرم ملذات الحبّ ، ومجد الشبيبة يا
حبيبي !

فأغمض عليّ أجفانه وقد استحضرت موسيقى كلماتها رسوم حلم طالما رآه في نومه ، وشعر
بأجنحة غير منظورة قد حملته من ذلك المكان وأوقفته في حجرة غريبة الشكل بجانب سرير
ملقى عليه جثمان امرأة جميلة أخذ الموت بهاءها وحرارة شفتيها ، فصرخ ملتحاً من هول المشهد
ثمّ فتح أجفانه فوجد تلك الصبيّة جالسة بجانبه وعلى شفتيها ابتسامة محبة وفي لحظها أشعة
الحياة ، فأشرق وجهه وانتعشت روحه وتضعضت أخيلة رؤياه ونسي الماضي ومآتيه .

تعانق الحبيبان وشربا من خمرة القبل حتى سكرا ونام كلّ منهما ملتقاً بذراعي الآخر إلى
أن مال الظلّ وأيقظتهما حرارة الشمس .

(31) عشرتوت : آلهة سورية ، آلهة الإخصاب والأمومة وأيضاً آلهة الحرب عند المصريين في عصر الدولة الحديثة . أما
اليونان فشبهتها بالآلهة «أفروديت» .

مرتّا البانية⁽³²⁾

مات والدها وهي في المهد ، وماتت أمّها قبل بلوغها العاشرة ، فتركت يتيمة في بيت جار فقير يعيش مع رفيقته وصغاره من بذور الأرض وثمارها في تلك المزرعة المنفردة بين أودية لبنان الجميلة .

مات والدها ولم يورثها غير اسمه وكوخ حقير قائم بين أشجار الجوز والخور ، وماتت أمّها ولم تترك لها سوى دموع الأسى وذللّ التيّم ، فباتت غريبة في أرض مولدها ، وحيدة بين تلك الصخور العالية والأشجار المحتبكة ، وكانت تسير في كلّ صباح عارية القدمين رثّة الثوب وراء بقرة حلوب إلى طرف الوادي حيث المرعى الخصب ، وتجلس بظلّ الأغصان مترنّمة مع العصافير ، باكية مع الجدّاء ، حاسدة البقرة على وفرة المأكّل ، متأمّلة بنمو الزهور ورفرفة الفراش ، وعندما تغيب الشمس ويضئها الجوع ترجع نحو ذلك الكوخ وتجلس مع صبيّة وليّها ملتهمة خبز الذرة مع قليل من الثمار المجفّفة والبقول المغموسة بالخل والزيت ، ثمّ تفرش القشّ اليابس مسندة رأسها بساعديها وتنام متنهدة متمنية لو كانت الحياة كلّها نومًا عميقًا لا تقطعه الأحلام ولا تليه اليقظة ، وعند مجيء الفجر ينتهرها وليّها لقضاء حاجة فتهبّ من رقادها مرتعدة خائفة من سخطه وتعنيفه .

كذا مرّت الأعوام على «مرتّا» المسكينة بين تلك الروابي والأودية البعيدة ، فكانت تنمو بنمو الأنصاب وتتولّد في قلبها العواطف على غير معرفة منها مثلما يتولّد العطر في أعماق الزهرة ، وتتأبها الأحلام والهواجس مثلما تتأب القطعان مجاري المياه ، فصارت صبيّة ذات فكرة تشابه تربة جيدة عذراء لم تُلق بها المعرفة بذورًا ولا مشت عليها أقدام الاختبار ، وذات نفس كبيرة طاهرة منفية بحكم القدر إلى تلك المزرعة حيث تتقلب الحياة مع فصول السنة كأنّها ظلّ إله غير معروف جالس بين الأرض والشمس .

(32) نسبة إلى «بان» وهي قرية تقع شمال لبنان .

نحن الذين صرفوا معظم العمر في المدن الآهلة نكاد لا نعرف شيئاً عن معيشة سكّان القرى والمزارع المنزوية في لبنان ، قد سرنا مع تيار المدنيّة الحديثة حتى نسينا أو تناسينا فلسفة تلك الحياة الجميلة البسيطة المملوءة طهراً ونقاوة ، تلك الحياة التي إذا ما تأملناها وجدناها مبتسمة في الربيع ، مثقلة في الصيف ، مستغلة في الخريف ، مرتاحة في الشتاء ، متشبهة بأمنّا الطبيعة في كلّ أدوارها ، نحن أكثر من القرويين مألّاً وهم أشرف منّا نفوساً ، نحن نزرع كثيراً ولا نحصد شيئاً ، أمّا هم فيحصدون ما يزرعون نحن عبيد مطامعنا وهم أبناء قناعتهم ، نحن نشرب كأس الحياة ممزوجة بمرارة اليأس والخوف والملل ، وهم يرتشفونها صافية .

بلغت «مرتا» السادسة عشرة وصارت نفسها مثل مرآة صقلية تعكس محاسن الحقول وقلبها شبيهاً بخلايا الوادي يرجع صدى كلّ الأصوات ، ففي يوم من أيام الخريف المملوءة بتأوّه الطبيعة جلست بقرب العين المنعقدة من أسر الأرض انعتاق الأفكار من مخيلة الشاعر تتأمل باضطراب أوراق الأشجار المصفّرة وتلاعب الهواء بها مثلما يتلاعب الموت بأرواح البشر ، ثمّ تنظر نحو الزهور فتراها قد ذبلت ويست قلوبها حتى تشققت وأصبحت تستودع التراب بذورها مثلما تفعل النساء بالجواهر والحلى أيّام الثورات والحروب .

وبينما هي تنظر إلى الزهور والأشجار ، وتشعر معها بألم فراق الصيف ، سمعت وقع حوافر على حصباء الوادي ، فالتفت وإذا بفارس يتقدّم نحوها ببطء ، ولما اقتربت من العين وقد دلّت ملامحه وملابسه على ترف وكياسة ، ترّجل عن ظهر جواده وحيّاها بلطف ما تعودته من رجل قطّ ، ثمّ سألها قائلاً : « قد تهت عن الطريق المؤدية إلى الساحل ، فهل لك أن تهديني أيتها الفتاة؟ » فأجابت وقد وقفت منتصبّة كالغصن على حافة العين : « لست أدري يا سيّدي ولكني أذهب وأسأل وليّي فهو يعلم » ،

قالت هذه الكلمات بوجل ظاهر وقد أكسبها الحياء جمالاً ورقّة ، وإذ همّت بالذهاب أوقفها الرجل وقد سرت في عروقه خمرة الشبية وتغيّرت نظراته وقال : « لا ، لا تذهبي » ، فوقفت في مكانها مستغرّبة شاعرة بوجود قوّة في صوته تمنعها عن الحراك ، ولما اختلست من الحياء نظرةً إليه رآته يتأملها باهتمام لم تفقه له معنى ويبتسم لها بلطف سحري يكاد يبكيها لعدوبته ، وينظر بمودّة وميل إلى قدميها العاريتين ومعصميهما الجميلتين وعنقها الأملس وشعرها الكثيف الناعم ، ويتأمل بافتتان وشغف كيف قد لوّحت الشمس بشرتها لأسباب لا تدركها .

في ذلك المساء رجعت البقرة الحلوب وحدها إلى الحظيرة ، أمّا مرتا فلم ترجع ، ولما عاد وليّها من الحقل بحث عنها بين تلك الوهاد ولم يجدها ، فكان يناديها باسمها ولا تجيبه غير الكهوف وتأوّهات الهواء بين الأشجار ، فرجع مكتئباً إلى كوخه وأخبر زوجته فبكت بسكينة طول ذلك الليل وكانت تقول في سرّها : رأيته مرةً في الحلم بين أظافر وحش كاسر يمزّق جسدها وهي تبتسم وتبكي !

هذا إجمال ما عرفته عن حياة مرتا في تلك المزرعة الجميلة ، وقد تخبرته من شيخ قروي عرفها مذ كانت طفلة حتى شبّت واختفت من تلك الأماكن غير تاركة خلفها سوى دموع قليلة في عيني امرأة وليّها ، وذكرى رقيقة مؤثرة تسيل مع نسيات الصباح ذلك الوادي ، ثمّ تضمحلّ كأنها لهاث طفل على بلور النافذة .

جاء خريف سنة (1900) فعدت إلى بيروت بعد أن صرفت العطلة المدرسية في شمال لبنان ، وقبل دخولي إلى المدرسة قضيت أسبوعاً كاملاً أتجول مع أترابي في المدينة متمتعين بغبطة الحرية التي تعشقها الشبيبة وتحرمها في منازل الأهل وبين جدران المدرسة ، فكنا أشبه بعصافير رأت أبواب الأقفاص مفتوحة أمامها فصارت تشبع القلب من لذة التنقل وغبطة التغريد ، والشبيبة حلم جميل تسترق عذوبته معميات الكتب وتجعله يقظة قاسية ، فهل يجيء يوم يجمع فيه الحكماء بين أحلام الشبيبة ولذة المعرفة مثلما يجمع العتاب بين القلوب المتنافرة؟ هل يجيء يوم تصبح فيه الطبيعة معلمة ابن آدم ، والإنسانية كتابه ، والحياة مدرسته؟ هل يجيء ذلك اليوم؟ لا ندري ، ولكننا نشعر بسيرنا الحثيث نحو الارتقاء الروحي ، وذلك الارتقاء هو إدراك جمال الكائنات بواسطة عواطف نفوسنا واستدرار السعادة بمحبتنا ذلك الجمال .

ففي عشية يوم وقد جلست على شرفة المنزل أتأمل العراق المستمر في ساحة المدينة ، وأسمع جلبة باعة الشوارع ومناداة كل منهم عن طيب ما لديه من السلع والمأكّل ، اقترب مني صبي ابن خمس يرتدي أطماراً بالية ويحمل على منكبيه طبقاً عليه طاقات الزهور ، وبصوت ضعيف يخفضه الذلّ الموروث والانكسار الأليم قال :

- أتشتري زهراً يا سيدي؟

فنظرت إلى وجهه الصغير المصفر ، وتأملت عينيه المكحولتين بأخيلة التعاسة والفاقة ، وفمه المفتوح قليلاً كأنه جرح عميق في صدر متوجع ، وذراعيه العاريتين النحيلتين ، وقامته الصغيرة المهزولة المنحنية على طبق الزهور كأنها غصن من الورد الأصفر الذابل بين الأعشاب النضرة ، تأملت كل هذه الأشياء بلمحة مظهرًا شفقتي بابتسامات هي أمر من الدموع ، تلك الابتسامات التي تنشق من أعماق قلوبنا وتظهر على شفاهنا ولو تركناها وشأنها لتصاعدت وانسكبت من مآقينا ، ثم ابتعت بعض زهوره وبغيتي ابتاع محادثته لأنني شعرت بأن من وراء نظراته المحزنة قلباً صغيراً ينطوي على فصل من مأساة الفقر الدائم تمثيلها على ملعب الأيام ، وقل من يهتم بمشاهدتها لأنها موجهة ، ولما خاطبته بكلمات لطيفة استأمن واستأنس ونظر إليّ مستغرباً لأنه مثل أترابه الفقراء لم يتعود غير خشن الكلام من أولئك الذين ينظرون غالباً إلى صبية الأزقة كأشياء قدرة لا شأن لها ، وليس كنفوس صغيرة مكلومة بأسهم الدهر ، وسألته إذ ذاك قائلاً :

ما اسمك؟

فأجاب وعيناه مطرقتان إلى الأرض :

اسمي فؤاد!

قلت : ابن من أنت وأين أهلك؟

قال : أنا ابن مرتا البانيّة .

- قلت : وأين والدك؟

فهزّ رأسه الصغير كمن يجهل معنى الوالد ، فقلت :

وأين أمّك يا فؤاد؟

قال : مريضة في البيت .

تجرّعت مسامعي هذه الكلمات القليلة من فم الصبي وامتصتها عواطفني مبتدعة صورًا وأشباهًا غريبة محزنة لأنّي عرفت بلحظة أن مرتا المسكينة التي سمعت حكايتها من ذلك القرويّ هي الآن في بيروت مريضة ، تلك الصبيّة التي كانت بالأمس مستأمنة بين أشجار الأودية هي اليوم في المدينة تعاني من الفقر والأوجاع ، تلك اليتيمة التي صرفت شببتها على أكفّ الطبيعة ترعى البقر في الحقول الجميلة قد انحدرت مع جرف نهر المدينة الفاسدة وصارت فريسة بين أظفار التعاسة والشقاء .

كنت أفكّر وأتخيل هذه الأشياء والصبي ينظر إليّ كأنه رأى بعين نفسه الطاهرة انسحاق قلبي ، ولما أراد الانصراف أمسكت بيده قائلاً :

- سر بي إلى أمك لأنّي أريد أن أراها!

فسار أمامي صامتًا متعجبًا ومن حين إلى آخر كان ينظر إلى الوراء ليرى إذا كنت بالحقيقة متبعًا خطواته .

في تلك الأزقة القذرة حيث يختمر الهواء بأنفاس الموت ، بين تلك المنازل البالية حيث يرتكب الأشرار جرائمهم مختبئين بستائر الظلمة ، وفي تلك المنعطفات الملتوية إلى اليمين وإلى الشمال التواء الأفاعي السوداء ، كنت أسير بخوف وتهيب وراء صبي له من حدائته ونقاوة قلبه شجاعة لا يشعر بها من كان خبيرًا بمكايد أجلاف القوم في مدينة يدعوها الشرقيون عروس سوريا ودرة تاج السلاطين ، حتى إذا ما بلغنا أذيال الحي دخل الصبي بيتًا حقيرًا لم يبق منه السنون غير جانب متداعٍ ، فدخلت خلفه وطرقات قلبي تتسارع كلما اقتربت حتى صرت في وسط غرفة رطبة الهواء ليس فيها من الأثاث غير سراج ضعيف يغالب الظلمة بسهام أشعته الصفراء ، وسرير حقير يدلّ على عوز مبرح ، فقر مدقع ، منظرحة عليه امرأة نائمة ، قد حولت وجهها نحو الحائط كأنها تحتمي به من مظالم العالم ، أو كأنها وجدت بين جدرانها قلبًا أرق وألين من قلوب البشر ، ولما اقترب الصبي منها منادياً : « يا أمّاه! ... » التفتت إليه فرأته يومئٍ نحوي فتحرّكت إذ ذاك بين اللحف الرثة ، وبصوت موجه يلاحقه ألم النفس والتنهيدات المرة قالت :

- ماذا تريد أيها الرجل؟ هل جئت لتبتاع حياتي الأخيرة وتجعلها دنسة بشهواتك؟ اذهب عني فالأزقة مشحونة بالنساء اللواتي يبعنك أجسادهنّ ونفوسهنّ بأبخس الأثمان ، أمّا أنا فلم يبق لي ما أبعه غير فضلات أنفاس متقطعة ، عما قريب يشتريها الموت براحة القبر!

فاقتربت من سريها وقد آلت كلماتها قلبي لأنّها مختصر حكايتها التعسة ، وقلت متمنياً لو كانت عواطفها تسيل مع الكلام :

- لا تخافي مني يا مرتا فأنا لم أجيء إليك كحيوان جائع بل كإنسان متوجع ، أنا لبناني عشت زمناً في تلك الأودية والقرى القريبة من غابة الأرز ، لا تخافي مني يا مرتا!

سمعت كلماتي وشعرت بأنها صادرة من أعماق نفس تتأمل معها ، فاهتزت على مضجعها مثل القضبان العارية أمام رياح الشتاء ، ووضعت يديها على وجهها كأنّها تريد أن تستر ذاتها من أمام الذكرى الهائلة بحلاوتها ، المرّة بجماها ، وبعد سكونية ممزوجة بالتأوّه ظهر وجهها من بين كتفيها المرتجفتين فرأيت عينين غائرتين محدقتين إلى شيء غير منظور منتصب في فضاء الغرفة ، وشفّتين يابستين تحركهما ارتعاشات اليأس ، وعنقاً تتردّد فيه حشرجة النزع المصحوبة بأنين عميق متقطع ، وبصوت يبشه الالتماس والاستعطاف ويسترجعه الضعف والألم قالت :

جئت محسناً مشفقاً فلتجزك السماء عني إن كان الإحسان على الخطاة برّاً والشفقة على المرذولين صلاحاً ، ولكنني أطلب إليك أن تعود من حيث أتيت لأن وقوفك في هذا المكان يكسبك عاراً ومذمةً ، وحنانك عليّ يثمر لك عيباً ومهانة ، ارجع قبل أن يراك أحد في هذه الغرفة الدنسة المملوءة بأقذار الخنازير ، وسر مسرعاً ساتراً وجهك بأثوابك كيلا يعرفك عابرو الطريق ، إن الشفقة التي تملأ نفسك لا تعيد إليّ طهارتي ، ولا تمحو عيوبي ، ولا تزيل يد الموت القويّة عن قلبي ، أنا منفية بحكم تعاستي وذنوبي إلى هذه الأعماق المظلمة ، فلا تدع شفقتك تدنيك من العيوب ، أنا كالأبرص الساكن بين القبور فلا تقترب مني ، لأن الجامعة تحسبك دنساً وتقصيك عنها إذا فعلت ، ارجع الآن ولا تذكر اسمي في تلك الأودية المقدسة ، لأن النعجة الجرباء ينكرها راعيها خوفاً على قطيعه ، وإذا ذكرتني قل : قد ماتت مرتا البانية ولا تقل غير ذلك .

ثم أخذت يدي ابنها الصغيرتين وقبلتهما بلهفة وقالت متنهدة :

- سوف ينظر الناس إلى ولدي بعين السخرية والاحتقار قائلين : هذا ثمرة الإثم ، هذا ابن مرتا الزانية ، هذا ابن العار ، هذا ابن الصدف ، سوف يقولون عنه أكثر من ذلك ، لأنهم عميان لا يبصرون ، وجهلاء لا يدرون أن أمّة قد طهرت طفولته بأوجاعها ودموعها ، وكفرت عن حياته بتعاستها وشقائها .

سوف أموت وأتركه يتيمًا بين صبيان الأزقة وحيداً في هذه الحياة القاسية ، غير تاركة له سوى ذكرى هائلة تخجله إن كان جباناً خاملاً وتهيج دمه إن كان شجاعاً عادلاً ، فإن حفظته السماء وشبّ رجلاً قوياً ساعد السماء على الذي جنى عليه وعلى أمّه ، وإن مات وتملص من شبكة السنين وجدني مترقبة قدومه هناك حيث النور والراحة !

فقلت وقلبي يوحى إليّ : « لست كالأبرص يا مرتا وإن سكنت بين القبور ، ولست دنسة وإن وضعتك الحياة بين أيدي الدنسين ، إن أدران الجسد لا تلامس النفس النقية ، والثلوج المتراكمة لا تमित البذور الحيّة ، وما هذه الحياة سوى بيدر أحزان تدرس عليه أغمار النفوس قبل أن تعطي غلّتها ، ولكن ويل للسنابل المتروكة خارج البيدر ، لأن نمل الأرض يحملها وطيور السماء تلتقطها ، فلا تدخل أهراء ربّ الحقل ، أنتِ مظلومة يا مرتا وظالمك هو ابن القصور ، ذو المال الكثير والنفس الصغيرة ، أنتِ مظلومة ومحتقرة ، وخير للإنسان أن يكون مظلوماً من أن يكون ظالماً ، وأخلق به أن يكون شهيد ضعف الغريزة الترابيّة من أن يكون قوياً ساحقاً بمقابضه زهور الحياة ، مشوهاً بميوله محاسن العواطف ، النفس يا مرتا هي حلقة ذهبية مفروطة من سلسلة الألوهية ، فقد تصهر النار الحامية هذه الحلقة وتغيّر صورتها وتمحو جمال استدارتها ، لكنّها لا تحيل ذهبها إلى مادة أخرى ، بل تزيده لمعاناً ، ولكن ويل للهشيم إذ تأتي النار وتلتهمه وتجعله رماداً ثمّ تهب الرياح وتذريه علة وجه الصحراء ... إي مرتا ، أنتِ زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبئ في الهياكل البشريّة ، قد داستك تلك النعال بقساوة ، لكنها لم تخفِ عطرك المتصاعد مع نواح الأرامل وصراخ اليتامى وتنهيدات الفقراء نحو السماء مصدر العدل والرحمة ، تعزّي يا مرتا بكونك زهرة مسحوقة ولست قدماً ساحقة ! » .

كنت أتكلّم وهي مصغية وقد أنارت التعزية وجهها المصفر مثلما تنير أشعة المغرب اللطيفة خلايا الغيوم ، ثمّ أومأت إليّ أن أجلس على جانب السرير ، ففعلت مسائلاً ملامحها المتكلّمة عن مخبّات نفسها الحزينة ، ملامح من عرف أنه مائت ، ملامح صبيّة في ربيع العمر قد شهرت بوقع أقدام الموت حول فراشها البالي ، ملامح امرأة متروكة كانت بالأمس بين أودية لبنان الجميلة مملوءة حياة وقوّة ، فصارت اليوم مهزولة تترقب الانعتاق من قيود الحياة ، وبعد سكيّنة مؤثرة جمعت قواها وقالت ودموعها تتكلّم معها ونفسها تتصاعد مع أنفاسها :

- نعم أنا مظلومة ، أنا شهيدة الحيوان المختبئ في الإنسان ، أنا زهرة مسحوقة تحت الأقدام ، كنت جالسة على حافة ذلك الينبوع عندما مرّ راكبًا ... قد خاطبني بلطف ورقة وقال لي إني جميله وإنه قد أحبني فلا يتركني ، وإن البرية مملوءة وحشة والأودية هي مساكن الطيور وبنات آوي ... ثم ألوى عليّ وضممني إلى صدره وقبلني ، وكنت لم أذق حتى تلك الساعة طعم القبله لأنني كنت يتيمة متروكة ، أردفني خلفه على ظهر الجواد وجاء بي إلى بيت جميل منفرد ، ثم أتى بالملابس الحريرية والعطور الزكية والمأكّل اللذيذة والمشارب الطيبة ، فعل كلّ ذلك مبتسمًا سائرًا بشاعة ميوله وحيوانية مرامه بالكلام اللطيف والإشارات المستحبة ... وبعد أن أشبع شهواته من جسدي وأثقل بالذلّ نفسي- غادرني تاركًا في أحشائي شعلة حية ملتهبة تغذت من كبدي ونمت بسرعة ثم خرجت إلى هذه الظلمة من بين دخان الأوجاع ومرارة العويل ... وهكذا قسمت حياتي إلى شطرين : شطر ضعيف متألم ، وشطر صغير يصرخ في هدوء الليل طالبًا الرجوع إلى الفضاء الواسع ، في ذلك البيت المنفرد تركني الظلوم ورضيحي نقاسي مضض الجوع والبرد والوحدة ، لا معين لنا غير البكاء والنحيب ، ولا سميع سوى الخوف والهواجس .

وعلم رفاقه بمكاني وعرفوا بعوزي وضعفي ، فجاء الواحد بعد الآخر وكل يتبغي ابتياع العرض بالمال وإعطاء الخبز لقاء شرف الجسد .. آه كم قبضت على روحي بيدي لتقديمها للأبدية ، ثم أفلتتها لأنها لم تكن لي وحدي فشريكي بها كان ولدي الذي أبعدته السماء عنها إلى هذه الحياة ، مثلما أقصتني عن الحياة وألقتني في أعماق هذه الهاوية ... والآن ها هي الساعة قد دنت وعريسي الموت قد جاء بعد هجرانه ليقودني إلى مضجعه الناعم!

وبعد سكونة عميقة تشابه مس الأرواح المتطايرة ، رفعت عينيها المحجوبتين بظلّ المنية
وقالت بهدوء :

- أيها العدل الخفي ، الكامن وراء هذه الصور المخيفة ، أنت أنت السامع عويل نفسي-
المودعة ونداء قلبي المتهامل ، منك وحدك أطلب وإليك أتضرّع ، فارحمني وارعَ بيمناك ولدي ،
وتسلّم بيسراك روحي !

وخارت قواها وضعفت تنهداتها ، ونظرت إلى ابنها نظرة حزن وحنوّ ، ثمّ ميّلت عينيها
ببطء وبصوت يكاد يكون سكونة قالت : « أبانا الذي في السموات ... ليتقدس اسمك ...
ليأت ملكوتك ... لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض ، اغفر لنا ذنوبنا » .

وانقطع صوتها ، وبقيت شفّتها متحركتين هنيهة ، وبوقوفهما همدت كلّ حركة في جسدها ،
ثمّ اختلجت وتأوهت وابتض وجهها وفاضت روحها ، وظلت عيناها محدقتين إلى ما لا يرى .

عندما جاء الفجر وُضعت جثة مرتا البانية في تابوت خشبي ، وحملت على كتفَي فقيرين
ودُفنت في حقل مهجور بعيد عن المدينة ، وقد رفض الكهّان الصلاة على بقاياها ولم يقبلوا
أن ترتاح عظامها في الجبّانة حيث الصليب يخفر القبور ، ولم يشيعها إلى تلك الحفرة البعيدة
غير ابنها وفتى آخر كانت مصائب هذه الحياة قد علّمتها الشفقة .



يوحنا المجنون

- 1 -

في أيام الصيف كان «يوحنا» يسير كلّ صباح إلى الحقل سائقًا ثيرانه وعجوله ، حاملاً محراثه على كتفيه ، مصغياً لتغريد الشحارير وحفيف أوراق الأغصان ، وعند الظهر كان يقترب من الساقية المتراكضة بين منخفضات تلك المروج الخضراء ويأكل زاده تاركاً على الأعشاب ما بقي من الخبز للعصافير ، وفي المساء عندما ينتزع دقائق النور من الفضاء ، كان يعود إلى البيت الحقيق المشرف على القرى والمزارع في شمال لبنان ، ويجلس بسكينة مع والديه الشيخين مصغياً لأحاديثهما المملوءة بأخبار الأيام شاعراً بدنو النعاس والراحة معاً .

وفي أيام الشتاء كان يتكئ مستدفئاً بقرب النار ، سامعاً تأوه الأرياح وندب العناصر ، مفكراً بكيفية تتابع الفصول ، ناظراً من الكوة الصغيرة نحو الأودية المكتسية بالثلوج ، والأشجار العارية من الأوراق كأنّها جماعة من الفقراء تركوا خارجاً بين أظفار البرد القارس والرياح الشديدة .

وفي الليالي الطويلة كان يبقى ساهراً حتى ينام والده ثمّ يفتح الخزانة الخشبيّة ويأتي بكتاب العهد الجديد ، ويقرأ منه سرّاً على نور مسرّجة ضعيفة ، متلفتاً بتحذر بين الآونة والأخرى نحو والده النائم الذي منعه عن تلاوة ذلك الكتاب لأن الكهنة ينهون بسطاء القلب عن استطلاع خفايا تعاليم يسوع ويحرمونهم من « نعم الكنيسة » إذا فعلوا .

هكذا صرف «يوحنا» شبيبته بين الحقل المملوء بالمحاسن والعجائب وكتاب يسوع المفعم بالنور والروح ، كان سكوتًا كثير التأملات يصغي لأحاديث والديه ولا يجيب بكلمة ، ويلتقي بأترابه الفتيان ويجالسهم صامتًا ناظرًا إلى البعيد حيث يلتقي الشفق بازرقاق السماء ، وإذا ما ذهب إلى كنيسة عاد مكتئبًا ، لأن التعاليم التي يسمعونها من على المنابر والمذابح هي غير التي يقرأها في الإنجيل ، وحياة المؤمنين مع رؤسائهم هي غير الحياة الجميلة التي تكلم عنها يسوع الناصري .

جاء الربيع واضمحلت الثلوج في الحقول والمروج ، وأصبحت بقاياها في أعالي الجبال تذوب وتسير جداول في منعطفات الأودية ، وتجتمع غزيرة تتكلم بهديرها عن يقظة الطبيعة فأزهرت أشجار اللوز والتفاح ، وأورقت قضبان الحور والصفصاف ، وأنبتت الروابي أعشابها وأزاهرها ، فتعب «يوحنا» من الحياة بجانب المواقد ، وعرف أن عجوله قد ملّت ضيق المرباض ، واشتاق إلى المراعي الخضراء ، لأن مخازن التبن قد شحت ، وزنابل الشعير قد نفدت ، فجاء وحلّها من معالفها وسار أمامها إلى البرية سائرًا بعباءته كتاب العهد الجديد كيلا يراه أحد ، حتى بلغ المرجة المنبسطة على كتف الوادي بقرب حقول الدير⁽³³⁾ القائم كالبرج الهائل بين تلك الهضاب ، فتفرقت عجوله مرتعية الأعشاب ، وجلس مستندًا إلى صخرة يتأمل تارة بجمال الوادي وطورًا بسطور كتابه المتكلمة عن ملكوت السموات .

كان ذلك النهار من أواخر أيام الصوم ، وسكان تلك القرى المنقطعون عن اللحوم ، أصبحوا يترقبون بفضلات الصبر مجيء عيد الفصح ، أمّا يوحنا ، فمثل جميع المزارعين الفقراء لم يكن يفرق بين أيام الصيام وغيرها ، فالعمر كله كان صومًا طويلًا عنده ، وقوته لم يتجاوز قط الخبز المعجون بعرق الجبين ، والثمار المتباعة بدم القلب ، فالانقطاع عن اللحوم والمآكل الشهية كن طبيعيًا ، ومشتهيات الصوم لم تكن في جسده بل في عواطفه ، لأنها تعيد إلى نفسه ذكرى مأساة «ابن البشر» ونهاية حياته على الأرض .

(33) هو دير «اليشاع النبي» ، يقع شمال لبنان ، ويعرف رهبانه بالخليين .

كانت العصافير ترفرف متناجية حول «يوحنا» ، وأسراب الحمام تتطاير مسرعة ، والزهور تتمايل مع النسيم كأنها تتحمم بأشعة الشمس ، وهو يقرأ في كتابه بتمعن ثم يرفع رأسه ويرى قبب الكنائس في المدن والقرى المنشورة على جانبي الوادي ، ويسمع طنين أجراسها فيغمض عينيه وتسبح نفسه فوق أشلاء الأجيال إلى «أورشليم» القديمة أقدم يسوع في الشوارع سائلة العابرين عنه فيجيبونها قائلين : هنا شفى العميان وأقام المقعدين ، وهناك ضفروا له إكليلاً من الشوك ووضعوه على رأسه ، في هذا الرواق وقف يكلم الجموع بالأمثال ، وفي ذلك القصر كتفوه على العمود وبصقوا على وجهه وجلدوه ، في هذا الشارع غفر للزانية خطاياها وفي ذلك وقع على الأرض تحت أثقال صليبه .

ومرّت الساعة و«يوحنا» يتألم مع الإله الإنسان بالجسد ، ويتمجد معه بالروح ، حتى إذا ما انتصف النهار قام من مكانه ونظر حوله فلم ير عجوله ، فمشى متلفتاً إلى كل جانب مستغرباً اختفاءها في تلك المروج السهلة ، ولما بلغ الطريق المنحنية بين الحقول انحناء خطوط الكف رأى عن بُعد رجلاً بملابس سوداء واقفاً بين البساتين ، فأسرع نحوه ، ولما اقترب منه وعرف أنه أحد رهبان الدير ، حيّاه بحني رأسه ثم سأله قائلاً : « هل رأيت عجولاً سائرة بين هذين البساتين يا أبتاه؟ » فنظر إليه الراهب متكلفاً إخفاء حنقه وأجاب بخبت : « نعم رأيتها فهي هناك ، تعال وانظرها » .

فسار «يوحنا» وراء الراهب حتى بلغا الدير ، فإذا بالعجول ضمن حظيرة واسعة موثقة بالحبال يخفها أحد الرهبان وفي يده نبوت يجلد بها كيفما تحركت ، وإذ هم يوحنا ليقودها أمسك الراهب بعباءته والتفت نحو رواق الدير وصرخ بأعلى صوته : « هوذا الراعي المجرم قد قبضت عليه » ، فهرول القسس والرهبان من كل ناحية يتقدمهم الرئيس وهو رجل يمتاز عن رفاقه بنحافة أثوابه وانقباض سحتته ، وأحاطوا بيوحنا كالجنود المتسابقة على الفريسة ، فنظر يوحنا إلى الرئيس وقال بهدوء : « ماذا فعلت لأكون مجرمًا ، ولماذا قبضتم عليّ؟ » فأجابه الرئيس وقد بانت القساوة على وجهه الغضوب ، وبصوت خشن أشبه بصير المناشير قال : « قد ارتعت عجولك زرع الدير وقضمت قضبان كرومه ، فقبضنا عليك لأن الراعي هو المسؤول عما تخربه مواشيه » ، فقال يوحنا مستعطفًا : « هي بهائم لا عقل لها يا أبتاه ، وأنا فقير لا أملك غير قوى ساعدي وهذه العجول ، فاتركني أقودها وأسير واعدًا إياك بأن لا أجيء إلى هذه المروج مرة أخرى » ، فقال الرئيس وقد تقدم قليلاً إلى الأمام ورفع يده نحو السماء : « إن الله قد وضعنا ههنا ووكل إلينا حماية أراضي مختاره إيشاع العظيم ، فنحن نحافظ عليها ليلاً ونهارًا بكل قوانا لأنها مقدسة ، وهي كالنار تحرق كل من يقترب سمئها ، فإذا امتنعت عن محاسبة الدير انقلبت الأعشاب في أجواف عجولك سموماً آكلة ، ولكن ليس من سبيل إلى الامتناع لأننا نبقي بهائمك في حظيرتنا حتى تفني آخر فلس عليك » .

وهمّ الرئيس بالذهاب فأوقفه «يوحنا» ، وقال متذللًا متوسلاً : « أستحلفك يا سيدي بهذه الأيام المقدسة ، التي تألم فيها «يسوع» وبكت لأحزانها «مريم» ، أن تتركني أذهب بعجولي ، لا تكن قاسي القلب عليّ ، فأنا فقير مسكين والدير غني عظيم ، فهو يسامح تهامني ويرحم شيخوخة والدي » ، فالتفت إليه الرئيس وقال بهزء : « لا يسامحك الدير بمثقال ذرة أيها الجاهل ، فقيرًا كنت أم غنيًا ، فلا تستحلفني بالأشياء المقدسة لأننا أعرف منك بأسرارها وخفاياها ، وإن شئت أن تقود عجولك من هذه المرباض فافتدها بثلاثة دنانير لقاء ما التهمت من الزرع » ، فقال يوحنا بصوت مختنق : « إنني لا أملك بارة واحدة يا أبتاه ، فاشفق عليّ وارحم فقري » ، فأجاب الرئيس بعد أن مشط لحيته الكثيفة بأصابعه : « اذهب وبع قسمًا من حقلك وعد بثلاثة دنانير ، فخير لك أن تدخل السماء بلا حقل من أن تكتسب غضب إيشاع العظيم باحتجاجك أمام مذبحة ، وتهبط في الآخرة إلى الجحيم حيث النار المؤبدة » .

فسكت «يوحنا» دقيقة وقد أبرقت عيناه وانبسط محياه وتبدلت لوائح الاسترحام بملامح القوّة والإرادة ، فقال بصوت تمتزج فيه نغمة المعرفة بعزم الشبية : « هل يبيع الفقير حقله منبت خبزه ومورد حياته ليضيف ثمنه إلى خزائن الدير المفعمة بالفضّة والذهب؟ أمّن العدل أن يزداد الفقير فقرًا ويموت المسكين جوعًا كيما يغفر إيشاع العظيم ذنوب بهائم جائعة؟ » فقال الرئيس هازًا برأسه استكبارًا : « هكذا يقول يسوع المسيح : « من له يعطى ويزداد ، ومن ليس له يُؤخذ منه » .

سمع «يوحنا» هذه الكلمات فاضطرب قلبه وصدره ، وكبرت نفسه ، وتعالى قامته عن
ذي قبل ، كأن الأرض قد نمت تحت قدميه ، فانتشل الإنجيل من جيبه كما يستل الجندي
سيفه للمدافعة ، وصرخ قائلاً : « هكذا تتلاعبون بتعاليم هذا الكتاب أيها المراءون ، هكذا
تستخدمون أقدس ما في الحياة لتعميم شرور الحياة ، فويل لكم إذ يأتي ابن « البشر » ثانية
ويخرب أديرتكم ويلقي حجارته في هذا الوادي ، محرقاً بالنار مذابحكم ورسومكم
وتماثيلكم ! ويل لكم وألف ويل لكم من دماء يسوع الزكية ودموع أمه الطاهرة ، إذ تنقلب
سيلاً عليكم وتجرفكم إلى أعماق الهاوية ! ويل وألف ويل لكم أيها الخاضعون لأصنام
مطامعكم ، الساترون بالأثواب السوداء اسوداد مكروهاكم ، المحرّكون بالصلاة شفاهكم
وقلوبكم جامدة كالصخور ، الراكعون بتذل أمام المذابح ونفوسكم متمردة على الله ، قد
قدموني بخباثة إلى هذا المكان المملوء بآثامكم ، وكمجرم قبضتم عليّ من أجل قليل من
الزروع تستنبته الشمس لي ولكم على السواء ، ولما استعطفتكم باسم «يسوع» واستحلفتكم
بأيام حزنه وأوجاعه استهزأتم بي كأني لم أتكلم بغير الحماقة والجهالة ، خذوا وابحثوا في هذا
الكتاب وأروني متى لم يكن يسوع غفوراً ، واقرأوا هذه المأساة السماوية وأخبروني أين تكلم
بغير الرحمة والرأفة ، أفي موعظته على الجبل ، أم في تعاليمه في الهيكل أمام مضطهدي تلك
الزانية المسكينة ، أم على الجلجلة عندما بسط ذراعيه على الصليب ليضم الجنس البشري ،
انظروا يا قساة القلوب إلى هذه المدن والقرى الفقيرة ، ففي منازلها يتلوى المرضى على أسرة
الأوجاع ، وفي حبوسها تفنى أيام البائسين ، وأمام أبوابها يتضرع المتسولون ، وعلى طرقها
ينام الغرباء ، وفي مقابرها تنوح الأرامل واليتامى ، وأنتم ههنا تتنعمون براحة التواني
والكسل ، وتتلذذون بثمار الحقول وخمور الكروم ، فلم تزوروا مريضاً ، ولم تفتقدوا سجيناً ،
ولم تطعموا جائعاً ، ولم تؤووا غريباً ، ولم تعزّوا حزيناً ، وليتكم تكتفون بما لديكم وتقنعون
بما اغتصبت من جدودنا باحتيالكم ، فأنتم تمدون أيديكم كما تمدّ الأفاعي رؤوسها ،
وتقبضون بشدة على ما وفرته الأرملة من عمل يديها وما أبقاه الفلاح لأيام شيخوخته » .

وسكت «يوحنا» ريثما استرجع أنفاسه ثم رفع رأسه بفخر وقال بهدوء : « أنتم كثار ههنا وأنا وحدي ، افعلوا بي ما شئتم ، فالذئاب تفرس النعجة في ظلمة الليل لكن آثار دمائها تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس » .

كان «يوحنا» يتكلم وفي صوته قوّة علويّة توقف في أبدان الرهبان الحركة وتثير في نفوسهم الغيظ والحدّة ، ومثل غربان جائعة في أقفاص ضيقة كانوا يرتجفون غضبًا وأسنانهم تصرف بشدة مترقبين من رئيسهم إشارة ليمزقه تمزيقًا ويسحقوه سحقًا ، حتى إذا ما انتهى من كلامه وسكت سكوت العاصفة بعد تكسيرها الأغصان المتشاحخة والأنصاب اليابسة ، صرخ الرئيس بهم قائلاً :

- « اقبضوا على هذا المجرم الشقي وانزعوا منه الكتاب وجروه إلى حجرة مظلمة من الدير ، فمن يجدف على مختاري الله لا يغفر له ههنا ولا في الأبدية » ، فهجم الرهبان على يوحنا هجوم الكواسر على الفريسة وقادوه مكتوفًا إلى حجرة ضيقة وأقفلوا عليه بعد أن نهكوا جسده بخشونة أكفهم ورفس أرجلهم .

في تلك الغرفة المظلمة وقف يوحنا وقفة منتصر- توفى العدو لأسره ، ونظر من الكوة الصغيرة المظلمة على الوادي المملوء بنور النهار ، فتهلل وجهه وشعر بلذة روحية تعانق نفسه وطمأنينة مستعذبة تملك عواطفه ، فالحجرة الضيقة لم تسجن غير جسده ، أما نفسه فكانت حرة تتموج مع النسيم بين الطلول والمروج ، وأيدي الرهبان التي آلت أعضائه لم تمس عواطفه المستأمنة بجوار يسوع الناصري ، والمرء لا تعذبه الاضطهادات إذا كان عادلاً ، ولا تفنيه المظالم إذا كان بجانب الحق ، فسقراط شرب السمّ مبتسمًا ، وبولس⁽³⁴⁾ رُجم فارحًا ، ولكن هو الضمير الخفيّ نخالفيه فيوجعنا ، ونخونه فيقضي علينا .

(34) القديس بولس [1ت: 67م] رسول الأمم ، ولد في «طرسوس» بآسيا الصغرى . كان يضطهد المسيحيين ، ثم اهتدى على طريق دمشق ، وعمره حينها 33 ، بشّر بالمسيحية في آسيا الصغرى واليونان ، استشهد في روما بقطع الرأس .

وعلم والدا «يوحنا» بما جرى لوحدهما ، فجاءت أمّه إلى الدير مستعينة بعصاها ، وترامت على قدمي الرئيس تذرف الدموع وتقبل يديه ليرحم ابنها ويغفر جهله ، فقال لها بعد أن رفع عينيه نحو السماء كمترفع عن العالميات : « نحن نغفر طيش ابنك ونسامح جنونه ولكن للدير حقوقاً مقدسة لا بد من استيفائها ، نحن نسامح بتواضعنا زلات الناس ، أما إيلشاع العظيم فلا يسامح ولا يغفر لمن يتلقون كرومه ويرتعون زرعته » ، فنظرت إليه الوالدة والدمع ينسكب على وجنتيها المتجعدتين بأيدي الشيخوخة ، ثم نزعت قلادة فضية من عنقها ووضعتها في يده قائلة : « ليس لدي غير هذه القلادة يا أبتاه ، فهي عطية والدتي يوم اقتراني ، فليقبلها الدير كفارة عن ذنوب وحيدي » ، فأخذ الرئيس القلادة ووضعتها في جيبه ثم قال ووالدة يوحنا تقبل يديه شكراً وامتناناً : « ويل لهذا الجيل ، فقد انعكست فيه آيات الكتاب وأصبح الأبناء يأكلون الحصرم والآباء يضرسون ، اذهبي أيتها المرأة الصالحة وصلي من أجل ابنك المجنون لتشفيه السماء وتعيد إليه صوابه » .

وخرج «يوحنا» من أسره ومشى ببطء أمام عجوله بجانب أمّه المنحنية على عصاها تحت أثقال السنين ، ولما بلغ الكوخ قاد العجول إلى معالفها وجلس بسكينة قرب النافذة يتأمل اضمحلال نور النهار ، وبعد هنيهة سمع والده يهمس في أذن أمّه هذه الكلمات : « كم عارضتني يا سارة عندما كنت أقول لك إن ولدنا مختل الشعور ، والآن أراك لا تعترضين لأن أعماله قد حققت كلامي ورئيس الدير الوقور قد قال لك اليوم ما قلته أنا منذ سنين » .

وظل «يوحنا» ناظرًا نحو المغرب حيث الغيوم المتلبدة متلوّنة بأشعة الشمس .



جاء عيد الفصح وتبدل الانقطاع عن المآكل بالإكثار من المشتريات ، وكان قد تم بناء الهيكل الجديد المتعالي بين المساكين في مدينة بشري كصر-ح أمير قائم بين أكوخ الرعايا ، وكان القوم يترقبون قدوم أحد الأساقفة لتكريسه وتقديس مذابحه ، ولما شعروا بدنوه خرجوا صفوفًا على الطريق وأدخلوه المدينة بين تهليل الفتيان وتساييح الكهنة وأصوات الصنوج وطين الأجراس والنواقيس ، ولما ترجّل عن فرسه المزدانة بالسرج المزركش واللجام الفضي ، قابله الأئمة والزعماء بمستطاب الكلام ، مترحين به بالقصائد والأناشيد المصدرة بالمديح والمذيلة بالتبجيل ، حتى إذا ما بلغ الهيكل الجديد ارتدى الملابس الحبرية الموشاة بالذهب ، ولبس التاج المرصع بالجواهر ، وتقلد عصا الرعاية المنمقة بالنقوش البديعة والحجارة الكريمة وطاف حول الهيكل منعّمًا مع الكهنة الصلوات والتقاسيم ، وقد تصاعدت حوله روائح البخور الطيبة ، وشعشت الشموع الكثيرة ، وكان يوحنا في تلك الساعة واقفًا بين الرعاة والزارعين على رواق مرتفع يتأمل بعينه الحزيتتين هذا المشهد ، ويتنهد بمرارة ويتأوه بغصات موجعة إذ يرى من الجهة الواحدة ملابس حريرية مطرزة ، وأواني ذهبية مرصعة ، ومباخر ومشاعر فضية ثمينة ، ومن الأخرى جماعة من الفقراء والمساكين الذين أتوا من القرى والمزارع الصغيرة يشاهدون بهجة هذا الفصح والاحتفال بتكريس الكنيسة .

من الجهة الواحدة عظمة ترتدي القطيفة والأطالس ، ومن الأخرى تعاسة تلتف بالأطمار البالية ، ههنا فئة قوية غنية تمثل الدين بالتنعيم والتعزيم ، وهناك شعب ضعيف محتقر يفرح سرًا بقيامة يسوع من بين الأموات ويصلي بسكينة هامسًا في مسامع الأثير تنهيدات حارة صادرة من أعماق القلوب الكسيرة ، ههنا رؤساء وزعماء لهم من سلطتهم حياة أشبه شيء بأشجار السرو ذات الاخضرار الأبدي ، وهناك رؤساء وزارعون لهم من خضوعهم حياة تشابه سفينة ، ربانها الموت وقد كسرت الأمواج دفتها ، ومزقت الرياح شراعها فأمست في هبوط وصعود ، بين غضب اللجة وهول العاصفة ، ههنا الاستبداد القاسي ، وهناك الخضوع الأعمى ، فأيهما كان مولودًا للآخر ؟ هل الاستبداد شجرة قوية لا تنبت في غير التربة المنخفضة ، أم هو الخضوع حقل مهجور لا تعيش فيه غير الأشواك ؟

بهذه التأملات الأليمة وهذه الأفكار المعذبة كان يوحنا مشغولاً وقد بكّل زنديه على صدره كأن حنجرته قد ضاقت عن أنفاسه فخاف أن يتمزق صدره حناجر ومنافذ ، حتى إذا ما انتهت حفلة التكريس وهمّ الشعب بالانصراف والتفرّق ، شعر بأنّ في الهواء روحًا تنتدبه واعظًا عنها ، وفي الجموع قوة تحرك روحه وتوقفه خطيبًا أمام السماء والأرض أسر إرادته ، فتقدّم إلى طرف الرواق ورفع عينيه وأشار بيده نحو العلاء وبصوت عظيم يستدعي المسامع ويستوقف النواظر صرخ قائلاً :

« انظر يا يسوع الناصري الجالس في قلب دائرة النور الأعلى ، انظر من وراء القبة الزرقاء إلى هذه الأرض التي ليست بالأمس من عناصرها رداء ، انظر أيها الحارس الأمين ، فقد خنقت أشواك الوعر أعناق الزهور التي أنعشت بذورها بعرق جبينك ، انظر أيها الراعي الصالح ، فقد نهشت مخالب الوحوش ضلوع الحمل الضعيف الذي حملته على منكبيك ، انظر فدمائك الزكية قد غارت في بطن الأرض ، ودموعك السخينة قد جفت في قلوب البشر ، وأنفاسك الحارة قد تضعضعت أمام رياح الصحراء ، وأصبح هذا الحقل الذي قدسته قدماء ساحة قتال تسحق فيها حوافر الأقوياء ضلوع المنطرحين ، وتتنزع أكف الظالمين أرواح الضعفاء ... إن صراخ البائسين المتصاعد من جوانب هذه الظلمة لا يسمعه الجالسون باسمك على العروش ، ونواح المحزونين لا تعيه آذان المتكلمين بتعاليمك فوق المنابر ، فالخراف التي بعثتها من أجل كلمة الحياة ، قد انقلبت كواسر تمزق بأنبيائها أجنحة الخراف التي ضممتها بذراعيك ، وكلمة الحياة التي أنزلتها من صدر الله قد توارت في بطون الكتب وقام مقامها ضجيج نخيف ترتعد من هوله النفوس ، لقد أقاموا يا يسوع لمجد أسمائهم كنائس ومعابد كسوها بالحرير المنسوج والذهب المذوب ، وتركوا أجساد مختاريك الفقراء عارية في الأزقة الباردة ، وملأوا الفضاء بدخان البخور وهيب الشموع ، وتركوا بطون المؤمنين بألوهيتك خالية من الخبز ، وأفعموا الهواء بالتراتيل والتسابيح ، فلم يسمعوا نداء اليتامى وتنهيدات الأرملة ، تعال ثانية يا يسوع الحي واطرد باعة الدين من هياكلك ، فقد جعلوها مغاور تتلوى فيها أفاعي روعهم واحتياهم ، تعال وحاسب هؤلاء القياصرة ، فقد اغتصبوا من الضعفاء ما لهم وما لله .

تعال وانظر الكرمة التي غرستها يمينك ، فقد أكلت جذوعها الديدان ، وسحقت
عناقيدها أقدام ابن السبيل ، تعال وانظر الذين ائتمنتهم على السلام ، فقد انقسموا على
ذواتهم وتحاصموا وتحاربوا ، ولم تكن أشلاء حروبهم غير نفوسنا المحزونة وقلوبنا المضنكة
.... في أعيادهم واحتفالاتهم يرفعون أصواتهم بجسارة قائلين : المجد لله في العلى وعلى
الأرض السلام وبالناس المسرة ، فهل يتمجد أبوك السماوي بأن تلفظ اسمه الشفاه الأثيمة
والألسنة الكاذبة؟ وهل على الأرض سلام وأبناء الشقاء في الحقول يفنون قواهم أمام وجه
الشمس ليعطوا فم القوي ويملاؤوا جوف الظالم؟ وهل بالناس مسرة والبؤساء ينظرون
بأعين كسيرة إلى الموت نظرة المغلوب إلى المنقذ؟ ما هو السلام يا يسوع الحلو؟ هل هو في
أعين الأطفال المتكئين على صدور الأمهات الجائعات في المنازل المظلمة الباردة؟ أم في
أجساد المعوزين النائمين على أسرة حجرية يتمنون القوت الذي يرمي به قس الدير إلى
خنازيرهم المسمنة ولا يحصلون عليه؟ ما هي المسرة يا يسوع الجميل ، بأن يشتري الأمير
بفضلات الفضة قوى الرجال وشرف النساء ، وبأن نسكت ونبقى عبيداً بالنفس والجسد
لمن يدهشون أعيننا يلمعان ذهب أو سمتهم وبريق حجارتهم وأطالس ملابسهم ، أم بأن
نصرخ متظلمين منددين فيبعثوا إلينا بأتباعهم حاملين علينا بسيوفهم وسنابك خيولهم
فتنسحق أجساد نسائنا وصغارنا وتسكر الأرض من مجاري دمائنا ؟ امدد يدك يا يسوع
القوي وارحمنا لأن يد الظلوم قوية علينا ، أو أرسل الموت ليقودنا إلى القبور حيث ننام
براحة مخفورين بظل صليبك إلى ساعة مجيئك الثاني ، لأن الحياة ليست حياة عندنا ، بل هي
ظلمة تتسابق فيها الأشباح الشريرة ، ووادٍ تجب في جوانبه الثعابين المخيفة ، ولا الأيام أيام
عندنا ، بل هي أسياف سنينة يخفيها الليل بين لحف مضاجعنا ويشهرها الصباح فوق
رؤوسنا عندما تقودنا محبة البقاء إلى الحقول ، ترأف يا يسوع بهذه الجموع المنضمة باسمك
في يوم قيامتك من بين الأموات وارحم ذلهم وضعفهم » .

كان «يوحنا» يناجي السماء والشعب حوله مستحسن راضٍ ومستقبح غاضب ، فهذا يصرخ : لم يقل غير الحق ، فهو يتكلم عنا أمام السماء لأننا مظلومون ، وذا يقول : هو مسكون يتكلم بلسان روح شريرة ، وذاك يقول : لم نسمع قط مثل هذا الهذيان من آبائنا وجدودنا ولا نريد أن نسمعه الآن ، وآخر يهمس في أذن قريبه : أحسست بقشعريرة سحرية تهز قلبي في داخلي عندما سمعت صوته ، فهو يتكلم بقوة غريبة ، وغيره يجيب : نعم ولكن الرؤساء أعرف منا باحتياجاتنا فمن الخطأ أن نشك بهم .

وبينما هذه الأصوات تتصاعد من كل ناحية وتتألف كهدير الأمواج ثم تضيع في الهواء ، جاء أحد الكهنة وقبض على يوحنا وأسلمه للشرطة فقادوه إلى دار الحاكم ، ولما استنطقوه لم يجب بكلمة لأنه تذكر أن يسوع كان سكوتاً أمام مضطهديه ، فأنزلوه إلى سجن مظلم حيث نام بسكينة متكئاً على الحائط الحجري .

وفي صباح النهار التالي جاء والد «يوحنا» وشهد أمام الحاكم بجنون وحيدته قائلاً : « طالما سمعته يهذي في وحدته يا سيدي ، ويتكلم عن أشياء غريبة لا حقيقة لها ، فكم سهر الليالي مناجياً السكون بألفاظ مجهولة ، منادياً أخيلة الظلمة بأصوات مخيفة تقارن تعازيم العرافين المشعوذين ، سلّ فتیان الحي يا سيدي فقد جالسوه وعرفوا انجذاب عاقلته إلى عالم بعيد ، فكانوا يخاطبونه فلا يجيب ، وإن تكلم جاءت أقواله ملتبسة لا علاقة لها بأحاديثهم ، سل أمّه فهي أدرى الناس بانسلاخ نفسه عن المدارك الحسية ، فقد شاهده مرّات ناظرًا إلى الأفق بعينين زجاجيتين جامدتين وسمعته متكلمًا بشغف عن الأشجار والجداول والزهور والنجوم ، مثلما تتكلم الأطفال عن صغائر الأمور ، سل رهبان الدير فقد خاصمهم بالأمس محتقراً تنسكهم وتعبدهم ، كافراً بقداسة معيشتهم ، وهو مجنون يا سيدي ، ولكنه شفوق عليّ وعلى أمّه ، فهو يعولنا في أيام الشيخوخة ويذرف عرق جبينه من أجل الحصول على حاجتنا ، فترأف به برأفتك بنا ، واغتفر جنونه باعتبارك حنوّ الوالدين » .

أُفرج عن «يوحنا» وشاع في تلك النواحي جنونه ، فكان الفتيان يذكرونه ساخرين بأقواله ، والصبايا ينظرون إليه بأعين آسفة قائلات : للسماء شؤون غريبة في الإنسان ، فهي قد جمعت في هذا الفتى بين جمال الوجه واختلال الشعور ، وقارنت بين أشعة عينية اللطيفة وظلمة نفسه المريضة .

بين تلك المروج والروابي الموشاة بالأعشاب والزهور ، كان يوحنا يجلس بقرب عجوله المنصرفه عن متاعب ابن آدم بطيب المرعى ، وينظر بعينين دامعتين نحو القرى والمزارع المنتشرة على كتفي الوادي مردداً هذه الكلمات بتنهيدات عميقة : أنتم كثار وأنا وحدي ، فقولوا عني ما شئتم ، وافعلوا بي ما أردتم ، فالذئاب تفترس النعجة في ظلمة الليل ، ولكن آثار دمائها تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس .



الأرواح المتمردة

إلى الروح التي عانقت روحي إلى القلب الذي سكب أسرارهِ
في قلبي إلى اليد التي أوقدت شعلة عواطفِي أرفع هذا الكتاب .

جبران

نُشر عام 1908

وردة الهاني

- 1 -

ما أتعس الرجل الذي يحب صبية من بين الصبايا ويتخذها رفيقة لحياته ، ويهرق على قدميها عرق جبينه ودم قلبه ، ويضع بين كفيها ثمار أتعابه وغلة اجتهاده ، ثم ينتبه فجأة فيجد قلبها الذي حاول ابتياعه بمجاهدة الأيام وسهر الليالي قد أُعطي مجاًناً لرجل آخر ليتمتع بمكنوناته ويسعد بسائر محبته .

وما أتعس المرأة التي تستيقظ من غفلة الشبيبة فتجد ذاتها في منزل رجل يغمرها بأمواله وعطاياه ، ويسر بلها بالتكريم والمؤانسة ، لكنه لا يقدر أن يلامس قلبها بشعلة الحب المحيية ، ولا يستطيع أن يشبع روحها من الخمرة السماوية التي يسكبها الله من عيني الرجل في قلب المرأة .

عرفت «رشيد بك نعمان» منذ حدثتي ، وهو رجل لبناني الأصل ، بيروت المولد والدار ، متحدّر من أسرة قديمة غنية موصوفة بالمحافظة على ذكر الأجداد الغابرة ، فكان مولعاً بسرود الحوادث التي تبين نبالة آبائه وجدوده ، متبعاً بمعيشة عقائدهم وتقاليدهم ، منصرفاً إلى تقليدهم في العادات والأزياء الغربية المرففة كأسراب الطيور في فضاء الشرق .

وكان «رشيد بك» طيب القلب كريم الأخلاق ، لكنه كالكثيرين من سكان سوريا ، لا ينظر إلى ما وراء الأشياء ، بل إلى الظاهر منها ، ولا يصغي إلى نغمة نفسه ، بل يشغل عواطفه باستماع الأصوات التي يحدثها محيطه ، ويلهي ميوله ببهجة المرئيات التي تعمي البصيرة عن أسرار الحياة وتحول النفس عن إدراك خفايا الكيان إلى ملاحظة الملذات الوقتية ، وكان من أولئك الرجال الذين يتسرعون بإظهار محبتهم أو مقتهم للناس وللأشياء ، ثم يندمون على تسرعهم بعد فوات الوقت ، عندما تصير الندامة مجلبة للسخرية والاستهزاء بدلاً من العفو والغفران .

هذه هي الصفات والأخلاق التي جعلت «رشيد بك نعمان» يقترن بالسيدة «وردة الهاني» قبل أن تضم نفسها نفسه في ظل المحبة الحقيقية التي تجعل الحياة الزوجية نعيمًا .

غبت عن بيروت بضعة أعوام ، ولما رجعت إليها ، ذهبت لزيارة رشيد فوجدته ضعيف الجسد ، مكمد اللون ، تتمايل على سحنته المنقبضة أشباح الأحزان وتنبعث من عينيه الحزيتين نظرات موجعة تتكلم بالسكينة عن انسحاق قلبه وظلمة صدره ، وبعد أن بحثت في محيطه ولم أجد أسباب نحوله وانقباضه سألته قائلاً : ما أصابك أيها الرجل وأين تلك البشاشة التي كانت تنبعث كالشعاع من وجهك؟ وأين ذهب ذاك السرور الذي كان ملاصقًا شببيتك؟ هل فصل الموت بينك وبين صديق عزيز ، أم سلبتك الليالي السوداء مآلاً جمعته في الأيام البيضاء؟ قل لي بحق الصداقة ما هذه الكآبة المعانقة نفسك ، وهذا النحول المالك جسداً؟

فنظر إليّ نظرة متأسف أرته الذكرى رسوم أيام جميلة ثم حجبتها ، وبصوت تتموج في مقاطعه معاني اليأس والقنوط قال : إذا فقد المرء صديقاً عزيزاً والتفت حوله يجد الأصدقاء الكثيرين فيتصبر ويتعزى ، وإذا خسر الإنسان مآلاً وفكر قليلاً رأى النشاط الذي أتى بالمال سيأتي بمثله فينسى ويسلو ، ولكن إذا أضاع الرجل راحة قلبه فأين يجدها وبمّ يستعويض عنها؟ يمد الموت يده ويصفعك بشدة فتتوجع ، ولكن لا يمر يوم وليلة حتى تشعر بملامس أصابع الحياة فتبتسم وتفرح ، يجيئك الدهر على حين غفلة ، يحدق إليك بأعين مستديرة مخيفة ويقبض على عنقك بأظفار محددة ويحرك بقساوة على التراب ويدوسك بأقدامه الحديدية ويذهب ضاحكاً ،

ثم لا يلبث أن يعود إليك نادماً مستغفراً فينتشلك بأكفه الحريرية ويغني لك نشيد الأمل
فيطربك ، مصائب كثيرة ومتاعب أليمة تأتيك مع أخيلة الليل تضمحل أمامك بمجيء
الصباح ، وأنت شاعر بعزيمتك متمسك بآمالك ، ولكن إذا كان نصيبك من الوجود طائراً
تجبه وتطعمه حبّات قلبك وتسقيه نور أحداقك ، وتجعل ضلوعك له قفصاً ومهجتك عشاً ،
وبينما أنت تنظر إلى طائرِكَ وتغمر ريشه بشعاع نفسك ، إذا به قد فرّ من بين يديك وطار
حتى حلّق فوق السحاب ثم هبط نحو قفص آخر وما من سبيل إلى رجوعه ، فماذا تفعل إذ
ذاك أيّها الرجل ؟ قل لي ماذا تفعل وأين تجد الصبر والسلوان ، وكيف تحيي الآمال
والأمانى؟

لفظ «رشيد بك» الكلمات الأخيرة بصوت مخنوق متوجع ووقف على قدميه مرتجفاً كقصبة
في مهب الريح ، ومدّ يديه إلى الأمام كأنه يريد أن يقبض بأصابعه المعوجة على شيء ليمزقه إرباً
إرباً ، وقد تصاعد الدم إلى وجهه وصبغ بشرته المتجعدة بلون قاتم ، وكبرت عيناه وجمدت
أجفانه وحدق دقيقة كأنه رأى أمامه عفريتاً قد انبثق من العدم وجاء ليميته ، ثم نظر إلى وقد
تغيرت ملامحه بسرعة وتحول الغضب والحنق في جسده المهزول إلى التوجّع والألم وقال باكياً :
هي المرأة - المرأة التي أنقذتها من عبودية الفقر ، وفتحت أمامها خزائني وجعلتها محسودة بين
النساء على الملابس الجميلة والحلة الثمينة ، والمركبات الفخمة والخيول المطّهمة ؛ المرأة التي
أحبها قلبي وسكب على قدميها عواطفه ، ومالت إليها نفسي فغمرتها بالمواهب والعطايا ، المرأة
التي كنت لها صديقاً ودوداً ورفيقاً مخلصاً وزوجاً أميناً قد خانتني وغادرتني ،

وذهبت إلى بيت رجل آخر لتعيش معه في ظلال الفقر ، وتشاركه بأكل الخبز المعجون بالعار ، وشرب الماء الممزوج بالذل والعيب ؛ المرأة التي أحببتها ، الطائر الجميل الذي أطعمته حبات قلبي وسقيته نور حدقتي وجعلت ضلوعي له قفصاً ومهبطي عشاً ، قد فر من بين يديّ وطار إلى قفص آخر محبوبك من قضبان العوسج ليأكل فيه الحسك والديدان ، ويشرب من جوانبه السم والعلقم ، الملاك الطاهر الذي أسكنته فردوس محبتي وانعطافي ، قد انقلب شيطاناً مخيفاً وهبط إلى الظلمة ليتعذب بآثامه ويعذبني بجريمته .

وسكت الرجل وقد حجب وجهه بكفيه كأنه يريد أن يحمي نفسه من نفسه ثم تنهد قائلاً : هذا كلّ ما أقدر أن أقوله فلا تسألني أكثر من ذلك ، ولا تجعل لمصيتي صوتاً صارخاً ، بل دعها مصيبة خرساء لعلّها تنمو بالسكينة فتميتني وتريحني ، فقامت من مكاني والدموع تراود أجفاني والشفقة تسحق قلبي ، ثم ودعته ساكتاً لأنني لم أجد في الكلام معنى يعزّي قلبه الجريح ، ولا في الحكمة شعلة تنير نفسه المظلمة .

بعد أيام التقيت لأول مرة بالسيدة «وردة الهاني» في بيت حقير محاط بالزهور والأشجار ، وكانت قد سمعت لفظ اسمي في منزل «رشيد بك نعمان» ، ذلك الرجل الذي داست قلبه وتركته ميتاً بين حوافر الحياة ولما رأيت عينيها المنيرتين وسمعتُ نغمة صوتها الرخيمة ، قلت في ذاتي : أتقدر هذه المرأة أن تكون شريرة؟ وهل بإمكان هذا الوجه الشفاف أن يستر نفساً شنيعة وقلباً مجرماً؟ أهذه هي الزوجة الخائنة؟ أهذه هي المرأة التي جنيتُ عليها مَرَّات عديدة بتصويرها لفكري كثعبان مخيف مختبئ في جسم طائر بديع الشكل؟ ولكنني رجعت وهمست في سري قائلاً : إذن أي شيء جعل ذلك الرجل تعساً إذا لم يكن هذا الوجه الجميل ؟ أو لم نسمع ونر أن المحاسن الظاهرة كانت سبباً لمصائب خفية هائلة وأحزان عميقة أليمة؟ أوليس القمر الذي يسكب في قرائح الشعراء شعاعاً هو القمر الذي يهيج سكينه البحار بالمدّ والجزر؟

جلستُ وجلستِ السيّد وردة وكأنتما قد سمعتني مفكراً فلم ترد أن يطول الصراع بين حيرتي وظنوني ، فأسندت رأسها الجميل بيدها البيضاء ، وبصوت يحاكي نغمة الناي رقة قالت : لم ألتق بك قبل الآن يا رجل ، ولكنني سمعت صدى أفكارك وأحلامك من أفواه الناس فعرفتُك شفوفاً على المرأة المظلومة ، رؤوفاً بضعفها ، خبيراً بعواطفها وميولها ، من أجل ذلك أريد أن أبسط لك قلبي وأفتح أمامك صدري ، لترى مخبأته وتخبر الناس بأن وردة الهاني لم تكن قط امرأة خائنة شريرة .

كنتُ في الثامنة عشرة من عمري عندما قادني القدر إلى «رشيد بك نعمان» ، وكان هو إذ ذاك قريباً من الأربعين ، فشغف بي ومال إليّ ميلاً شريفاً كما يقول الناس ، ثم جعلني زوجة له وسيدة في منزله الفخم بين خدامه الكثيرين ، فألبسني الحرير وزين رأسي وعنقي ومعصمي بالجواهر والحجارة الكريمة ، وكان يعرضني كتحفة غريبة في منازل أصدقائه ومعارفه ، ويتسم ابتسامة الفوز والانتصار عندما يرى عيون أترابه ناظرة إليّ بإعجاب واستحسان ، ويرتفع رأسه تيهًا وافتخارًا إذ يسمع نساء أصحابه يتكلمنّ عني بالإطراء والمودة ، ولكنه لم يكن يسمع قول السائل : أهذه زوجة رشيد بك أم هي صبية تبنّاها؟ وقول الآخر : لو تزوج رشيد بك في زمن الشباب لكان بكره أكبر سنًا من وردة الهاني .

جرى كلّ ذلك قبل أن تستيقظ حياتي من سبات الحداثة العميق ، وقبل أن توقد الآلهة شعلة المحبة في قلبي ، وقبل أن تنبت بذور العواطف والميول في صدري ، نعم جرى كلّ ذلك عندما كنت أحسب منتهى السعادة في ثوب جميل يزين قامتي ، ومركبة فخمة تجرني ، ورياش ثمينة تحيط بي ، ولكن عندما استيقظت ، عندما استيقظت وفتح النور أجفاني ، وشعرت بألسنة النار المقدسة تلسع أضلعي وتحرقها ، وبالمجاعة الروحية تقبض على نفسي- فتوجعها ؛ عندما استيقظت ورأيت أجنحتي تتحرك يمينًا وشمالًا قبل أن أعرف كنه تلك القيود ومفاد تلك الشريعة ؛ عندما استيقظت وشعرت بهذه الأشياء ، عرفت أن سعادة المرأة ليست بمجد الرجل وسؤدده ، ولا بكرمه وحلمه ، بل بالحب الذي يضم روحها إلى روحه ، ويسكب عواطفها في كبده ، ويجعلها ويجعله عضوًا واحدًا من جسم الحياة وكلمة واحدة على شفطي الله ، عندما بانّت هذه الحقيقة الجارحة لبصيرتي رأيتني في منزل رشيد نعمان مثل لص سارق يأكل خبزه ثم يستتر بظلام الليل ،

وعرفت أن كل يوم أصرفه بقربه هو كذبة هائلة يخططها الرياء بأحرف نارية ظاهرة على جبهتي أمام الأرض والسماء ، لأنني لم أقدر أن أهبه محبة قلبي لقاء كرمه ، ولا أن أمنحه انعطاف نفسي ثمنًا لإخلاصه وصلاحه ، وقد حاولت ، وباطلاً حاولت ، أن أتعلم محبته فلم أتعلم ، لأن المحبة هي قوة تبتدع قلوبنا ، وقلوبنا لا تقدر أن تبتدعها ، ثم صليت وتضرعت وباطلاً تضرعت ، وصليت في سكينة الليالي أمام السماء لتولد في أعماقي عاطفة روحية تقربني من الرجل الذي اختارته رفيقاً فلم تفعل السماء ، لأن المحبة تهبط على أرواحنا بإيعاز من الله لا بطلب من البشر ، وهكذا بقيت عامين كاملين في منزل ذلك الرجل أحسد عصافير الحقل على حرّيتها ، وبنات جنسي يحسدنني على سجنني ، وكالثكل الفاقدة وحيدها كنت أندب قلبي الذي ولد بالمعرفة واعتلّ بالشرعية ، وكان يموت في كل يوم جوعاً وعطشاً .

ففي يوم من تلك الأيام السوداء نظرت من وراء الظلمة فرأيت شعاعاً لطيفاً ينسكب من عيني فتى يسير وحده على سبل الحياة ، ويعيش منفرداً بين أوراقه وكتبه في هذا البيت الحقيق ، فأغمضت عيني كيلا أرى ذلك الشعاع وقلت لنفسي : نصيبك يا نفس ظلمة القبر ، فلا تطمعي بالنور ، ثم أصغيت فسمعت نغمة علوية تهزّ جوارحي بعدوبتها وتمتلك كليتي بطهرها ، فأغلقت أذني كيلا أسمع ، لكن عينيّ ظلّتا تريان ذلك الشعاع وهما منطبقتان ، وأذنيّ تسمعان تلك النغمة وهما مغلفتان ، فخفت لأوّل وهلة خوف فقير وجد جوهرة بقرب قصر الأمير فلم يجسر أن يلتقطها لخوفه ، ولم يقدر أن يتركها لفاقته ، وبكيت بكاء ظامئ رأى ينبوع العذب محاطاً بكواسر الغاب فارتمى على الأرض مترقباً جازعاً .

وسكتت السيّدة «وردة» دقيقة ، وقد أغمضت عينيها الكبيرتين كأن ذلك الماضي قد انتصب أمامها فلم تجسر أن تحرق إليّ وجهًا لوجه ، ثمّ عادت فقالت : هؤلاء البشر- الذي يحيئون من الأبدية ويعودون إليها قبل أن يذوقوا طعم الحياة الحقيقية لا يمكنهم أن يدركوا كنه أوجاع المرأة عندما تقف نفسها بين رجل تحبه بإرادة السماء ، ورجل تلتصق به بشريعة الأرض ، هي مأساة أليمة مكتوبة بدماء الأنثى ودموعها يقرأها الرجل ضاحكًا لأنه لا يفهمها ، وإن فهمها انقلب ضحكه فجورًا وقساوة وأنزل على رأس المرأة من غضبه نارًا وكبريتًا ، وملاً أذنيها لعنا وتجديفًا .

هي رواية موجعة تمثلها الليالي السوداء بين ضلوع كلّ امرأة تجد جسدها مقيّدًا بمضجع رجل عرفته زوجًا قبل أن تعرف ما هي الزيجة ، وترى روحها مرفرفة حول آخر تحبّه بكل ما في الروح من المحبة وبكل ما في المحبة من الطهر والجمال ، هي نزاع مخيف قد ابتداء منذ ظهور الضعف في المرأة والقوة في الرجل ، ولا ينتهي حتى تنقضي- أيام عبودية الضعف للقوة ، هي حرب هائلة بين شرائع الناس الفاسدة وعواطف القلب المقدسة ، قد طُرحتُ بالأمس في ساحتها وكدتُ أموت جزعًا وأذوب دموعًا ، لكنني وقفت ونزعت عني جبانة بنات جنسي- ، وحللتُ جناحيّ من رُبط الضعف والاستسلام وطرت في فضاء الحبّ والحرية ، وأنا سعيدة الآن بقرب الرجل الذي خرج وخرجت شعلة واحدة من يد الله قبيل ابتداء الدهور ، ولا توجد قوة في هذا العالم تستطيع أن تسلبني سعادتي لأنها منبثقة من عناق روحيين يضمهما التفاهم ويظللها الحبّ .

ونظرت إليّ السيدة «وردة» نظرة معنوية كأنها تريد أن تحرق صدري بعينيها لترى تأثير كلامها في عواطفني وتسمع صدى صوتها من بين ضلوعي ، لكنني بقيت صامتًا كيلا أوقفها عن الكلام ، فقالت وقد قارن صوتها بين مرارة الذكرى وحلاوة الخلاص والحرية :

يقول لك الناس إن «وردة الهاني» امرأة خائنة جحود قد اتبعت شهوة قلبها وهجرت الرجل الذي رفعها إليه وجعلها سيدة في منزله ، ويقولون لك : هي زانية عاهرة قد أتلقت بمقابضها القدرة إكليل الزواج المقدس الذي صفرت له الديانة ، واتخذت عوضاً عنه إكليلاً وسخاً محبوباً من أشواك الجحيم ، وألقت عن جسدها ثوب الفضيلة وارتدت لباس الإثم والعار ، ويقولون لك أكثر من ذلك لأن أشباح جدودهم ما زالت حية في أجسادهم ، فهم مثل كهوف الأودية الخالية يرجعون صدى أصوات ولا يفهمون معناها .

هم لا يعرفون شريعة الله في مخلوقاته ، ولا يفقهون مفاد الدين الحقيقي ، ولا يعلمون متى يكون الإنسان خاطئاً أو باراً ، بل ينظرون بأعينهم الضئيلة إلى ظواهر الأعمال ولا يرون أسرارها ، فيقضون بالجهل ويدينون بالعمارة ، ويستوي أمامهم المجرم والبريء والصالح والشرير .

فويل لمن يقضي وويل لمن يدين ... أنا كنت زانية وخائنة في منزل رشيد نعمان لأنه جعلني رفيقة مضجعه بحكم العادات والتقاليد قبل أن تصيرني السماء قرينة له بشريعة الروح والعواطف ، وكنت دنسة وديئة أمام نفسي وأمام الله عندما كنت أشبع جوفي من خيراته ليشبع ميوله من جسدي ، أما الآن فصرت طاهرة نقية لأن ناموس الحب قد حررني ، وصرت شريفة وأمينة لأنني أبطلت بيع جسدي بالخبز وأيامي بالملابس ، نعم كنت زانية ومجرمة عندما كان الناس يحسبونني زوجة فاضلة ، واليوم صرت طاهرة وشريفة وهم يحسبونني عاهرة دنسة لأنهم يحكمون على النفوس من مآتي الأجساد ، ويقيسون الروح بمقاييس المادة .

والتفتت السيدة وردة نحو النافذة وأشارت يمينها نحو المدينة ورفعت صوتها عن ذي قبل وقالت بلهجة الاحتقار والاشمئزاز كأنها رأت بين الأزقة وعلى السطوح وفي الأروقة أشباح المفاسد وأخيلة الانحطاط : انظر إلى هذه المنازل الجميلة والقصور الفخمة العالية حيث يسكن الأغنياء والأقوياء من البشر- ، فبين جدرانها المكسوة بالحرير المنسوج تقطن الخيانة بجانب الرياء ، وتحت سقوفها المطلية بالذهب المذوب يقيم الكذب بقرب التصنع ، انظر وتأمل جيداً بهذه البنايات التي تمثل المجد والسؤدد والسعادة ، فهي ليست سوى مغاور يختبئ فيها الذل والشقاء والسعادة ، هي قبور مكلسة يتوارى فيها مكر المرأة الضعيفة وراء كحل العيون واحمرار الشفاه ، وتنحجب في زواياها أنانية الرجل وحيوانيته بلمعان الفضة والذهب ، هي قصور تتشامخ جدرانها تيهًا وافتخارًا نحو العلاء ، ولو كانت تشعر بأنفاس المكار والغش السائلة عليها لتشققت وتبعثرت وهبطت إلى الحضيض ، هي منازل ينظر إليها القروي بعينين دامعتين ، ولو علم أنه لا يوجد في قلوب سكانها ذرة من تلك المحبة العذبة التي تملأ صدر رفيقته لابتسم مستهزئًا وعاد إلى حقله مشفقًا .

وأمسكت السيدة «وردة» بيدي وقادتني إلى جانب النافذة التي كانت تنظر منها نحو تلك المنازل والقصور وقالت : تعال فأريك خفايا هؤلاء الناس الذين لم أرض أن أكون مثلهم ، انظر إلى ذلك القصر ذي الأعمدة الرخامية والجوانح النحاسية والنوافذ البلورية ، ففيه يسكن رجل غني ورث ماله عن والده البخيل واكتسب أخلاقه من جوانب الأزقة المفعمة بالمفاسد ، وقد تزوج منذ عامين بامرأة لم يعرف عنها شيئاً سوى أن لوالدها شرفاً موروثاً ومنزلة رفيعة بين نبلاء البلاد ، ولم ينقض شهر العسل حتى ملأها متضجرًا وعاد إلى مسامرة بنات الهوى ، وتركها في هذا القصر- مثلما يترك السكير جرة خمر فارغة ، فبكت وتوجعت لأول وهلة ، ثم تصبرت وسلت سلو من عرف خطأه ، وعلمت أن دموعها هي أثمن من أن تهرق على خسارة رجل مثل زوجها ، وهي الآن مشغولة عن كل شيء بعشق فتى جميل الوجه حلو الحديث ، تسكب في راحتيه عواطف قلبها وتملأ جيوبه من ذهب بعلمها الذي يغض الطرف عنها لأنها تغض الطرف عنه .

ثم انظر إلى ذلك البيت المحاط بالحديقة الغنّاء ، فهو مسكن رجل ينتمي إلى أسرة شريفة حكمت البلاد مدة طويلة ، وقد انخفض مقامها اليوم بتوزيع ثروتها وانصراف أبنائها إلى التواني والكسل ، وقد اقترن هذا الرجل منذ أعوام بفتاة قبيحة الصورة لكنّها غنية جدًا ، وبعد استيلائه على ثروتها الطائلة نسي- وجودها واتخذ خليلة حسناء وغادرها تنهش أصابعها ندمًا وتذوب شوقًا وحنينًا ، وهي الآن تصرف الساعات بتجعيد شعرها ، وتكحيل عينيها ، وتلوين وجهها بالمساحيق والعقاقير ، وتزين قامتها بالأطالس والحريز ، لعلها تحظى بنظرة من أحد زائريها ، لكنها لا تحصل إلا على نظرات شبّحها في المرأة .

ثم انظر إلى ذلك المنزل الكبير المزين بالنقوش والتماثيل ، فهو منزل امرأة جميلة الوجه ، خبيثة النفس ، قد مات زوجها الأول فاستأثرت بأمواله وأملاكه ثم اختارت من بين الرجال رجلًا ضعيف الجسم والإرادة واتخذته بعلًا لتحتمي باسمه من ألسنة الناس وتدافع بوجوده عن منكراتها ، وهي الآن بين مريديها كالنحلة تمتص من الزهور ما كان حلواً لذيذاً .

وانظر إلى تلك الدار ذات الأروقة الوسيعة والقناطر البديعة ، فهي مسكن رجل مادي الميول ، كثير المشاغل والمطامع ، وله زوجة كلّ ما في جسدها جميل وحسن ، وكل ما في روحها حلو ولطيف ، وقد تمازجت في شخصها عناصر النفس بدقائق الجسد مثلما تتآلف في الشعر نغمة الوزن برقة المعاني ، فهي قد كونت لتعيش بالحب وتموت به ، ولكنها كالكثيرات من بنات جنسها قد جنى عليها والدها قبل بلوغها الثامنة عشرة من عمرها ووضع عنقها تحت نير الزيجة الفاسدة ، وهي الآن سقيمة الجسم تذوب كالشمع بحرارة عواطفها المقيدة ، وتضمحل على مهل كالرائحة الزكية أمام العاصفة ، وتفنى حبًا بشيء جميل تشعر به ولا تراه ، وتصبو حينًا إلى معانقة الموت لتتخلص من حياتها الجامدة وتحرر من عبودية رجل يصرف الأيام بجمع الدنانير والليالي بعدها ويصر أسنانه مجدّافًا على الساعة التي تزوج فيها بامرأة عاقر لا تلد له ابنًا ليحيي اسمه ويرث ماله وخيراته .

ثم انظر إلى ذلك البيت المنفرد بين البساتين ، فهو مسكن شاعر خيالي سامي الأفكار ،
روحي المذهب ، له زوجة غليظة العقل ، خشنة الطباع ، تسخر بأشعاره لأنها لا تفهمها ،
وتستهزئ بأعماله لأنها غريبة ، وهو الآن مشغول عنها بمحبة امرأة أخرى متزوجة تتوقد
ذكاء وتسيل رقة وتولد في قلبه النور بانعطافها وتوحي إليه الأقوال الخالدة بابتسامتها
ونظراتها .

وسكتت السيدة وردة هنيهة وقد جلست على مقعد بجانب النافذة كأن نفسها قد تعبت
من التجول في مخادع تلك المنازل الخفية ، ثم عادت تقول بهدوء : هذه هي القصور التي لم
أرض أن أكون من سكانها .

هذه هي القبور التي لم أرد أن أدفن حية طي لحودها ، هؤلاء هم الناس الذين تخلصت
من عوائدهم وخلعت عني نير جامعتهم ، هؤلاء هم المتزوجون الذين يقترنون بالأجساد
ويتنافرون بالروح ، ولا شفيع بهم أمام الله سوى جهلهم ناموس الله .

أنا لا أدينهم الآن بل أشفق عليهم ، ولا أكرههم بل أكره استلامهم عفواً إلى الرياء
والكذب والخبائث ، ولم أكشف أمامك خفايا قلوبهم وأسرار معيشتهم ، لأنني أحب
الاغتياب والنميمة ، بل فعلت ذلك لأريك حقيقة قوم كنت بالأمس مثلهم فنجوت ،
وأبين لك معيشة بشر يقولون عني كل كلمة شريرة ، لأنني خسرت صداقتهم لأربح نفسي-
، وخرجت عن سبل خداعهم المظلمة وحولت عيني نحو النور حيث الإخلاص والحق
والعدل ، وقد نفوني الآن من جامعتهم وأنا راضية ، لأن البشر لا ينفون إلا من تمردت روحه
الكبيرة على الظلم والجور ، ومن لا يؤثر النفي على الاستعباد لا يكون حرّاً بما في الحرية من
الحق والواجب ، أنا كنت بالأمس مثل مائدة شهية ، وكان رشيد بك يقترب مني عندما
يشعر بحاجة إلى الطعام ، أمّا نفسانا فتظلان بعيدتين كخادمين ذليلين ، ولما رأيت المعرفة
كرهت الاستخدام ، وقد حاولت الخضوع لما يدعونه نصيباً فلم أقدر ، لأن روحي أثبت أن
أصرف العمر كله راحة أمام صنم مخيف أقامته الأجيال المظلمة ودعته الشرعية ، فكسرت
قيودي لكنني لم ألقها عني حتى سمعت الحبّ منادياً ورأيت النفس متأهبة للمسير .

فخرجت من منزل «رشيد نعمان» خروج الأسير من سجنه تاركة خلفي الحلى والحلل والخدم والمركبات ، وجئت بيت حبيبي الخالي من الرياش المملوء من الروح وأنا عالمة بأنني لم أفعل غير الحق والواجب ، لأن مشيئة السماء ليست بأن أقطع جناحي بيدي وأرتمي على الرماد حاجبة رأسي بساعدي ، ساكبة حشاشتي من أجفاني قائلة هذا نصيبي من الحياة ، إن السماء لا تريد أن أصرف العمر صارخة متوجعة في الليالي قائلة متى يجيء الفجر ، وعندما يجيء الفجر أقول متى ينتقضي هذا النهار ، إن السماء لا تريد أن يكون الإنسان تعسًا لأنها وضعت في أعماقه الميل إلى السعادة ، لأنه بسعادة الإنسان يتمجد الله .

هذه هي حكايتي أيها الرجل ، وهذا احتجاجي أمام السماء والأرض ، وأنا أردده وأترنم به والناس يغلقون آذانهم ولا يسمعون لأنهم يخشون ثورة أرواحهم ، ويخافون أن تتزعزع أسس جامعتهم وتهبط على رؤوسهم .

هذه هي العقبة التي سرت عليها حتى بلغت قمة سعادي ، ولو جاء الموت واختطفني الآن لوقفت روحي أمام العرش الأعلى بلا خوف ولا وجل ، بل بفرح وأمل ، وانحلت لفائف ضميري أمام الديان الأعظم وبانت نقية كالثلج ، لأنني لم أفعل غير مشيئة النفس التي فصلها الله عن ذاته ، ولم أتبع غير نداء القلب وصدى أغاني الملائكة .

هذه هي روايتي التي يحسبها سكان بيروت لعنة في فم الحياة وعلة في جسم الهيئة الاجتماعية ، ولكنهم سوف يندمون عندما تنبه الأيام محبة المحبة في قلوبهم المظلمة ، مثلما تستنبت الشمس الزهور من بطن الأرض المملوء من بقايا الأموات فيقف إذ ذاك عابر الطريق بجانب قبري ويلقي عليه السلام قائلاً : ههنا رقدت وردة الهاني التي حررت عواطفها من عبودية الشرائع البشرية الفاسدة لتحيا بناموس المحبة الشريفة ، وحولت وجهها نحو الشمس كيلا ترى ظل جسدها بين الجماجم والأشواك .

ولم تنته السيدة «وردة» من كلامها حتى فُتح الباب ودخل علينا فتى نحيل القوام ، جميل الوجه ، تنسكب من عينيه أشعة سحرية وتسيل على شفثيه ابتسامة لطيفة ، فوقفت السيدة وردة وأمسكت بذراعه بانعطاف كلي وقدمته إليّ بعد أن لفظت اسمي مذيلاً بكلمة لطيفة واسمي مشفوعاً بنظرة معنوية ، فعرفت أنه ذلك الشاب الذي أنكرت العالم وخالفت الشرائع والتقاليد من أجله .

ثم جلسنا جميعاً صامتين لانشغال كلّ منا بمعرفة رأي الآخر فيه ، حتى إذا مرت دقيقة مملوءة من السكينة التي تستميل النفوس إلى الملاء الأعلى ، نظرت إليهما وقد جلسا أحدهما بجانب الآخر فرأيت ما لم أره قط ، وعرفت بلحظة معنى حكاية السيدة وردة وأدركت سر احتجاجها على الهيئة الاجتماعية التي تضطهد الأفراد المتمردين على شرائعها قبل أن تستفحص دواعي تمردهم ، رأيت روحاً واحدة سماوية متمثلة أمامي بجسدين يحملهما الشباب ويسر بلهما الاتحاد وقد وقف بينهما إله الحبّ باسطاً جناحيه ليحميهما من لوم الناس وتعنيفهم ، وجدت التفاهم الكلي منبعثاً من وجهين شفافين ينيرهما الإخلاص ويحيط بهما الطهر ، وجدت لأول مرة في حياتي طيف السعادة منتصباً بين رجل وامرأة يرذلها الدين وتنبذهما الشريعة .

وبعد هنيهة وقفت وودعتهما مظهرًا بغير الكلام تأثيرات نفسي وخرجت من ذلك المنزل الحقير الذي جعلته العواطف هيكلاً للحب والوفاق ، وسرت بين تلك القصور والمنازل التي أظهرت لي خفاياها السيدة وردة مفكرًا بحديثها وبكل ما ينطوي تحته من المبادئ والتناج ، ولكنني لم أبلغ أطراف ذلك الحي حتى تذكرت رشيد بك نعمان ، فتمثلت لبصيرتي لوعة قنوطه وشقائه فقلت في ذاتي : هو تعس مظلوم ، ولكن هل تسمعه السماء إذا وقف أمامها متظلمًا شاكيًا وردة الهاني؟ هل جنت عليه تلك المرأة عندما تركته

واتبعت حرية نفسها ، أم هو الذي جنى عليها عندما أخضع جسدها بالزواج قبل أن يستميل روحها بالمحبة؟ فمن هو الظالم من الاثنين ومن هو المظلوم؟ ومن هو المجرم ومن هو البريء يا ترى؟ ثم عدت قائلاً لذاتي مستفتياً أخبار الأيام مستقصياً حوادثها : كثيراً ما أباح الغرور للنساء أن يتركن رجالهنّ الفقراء ويتعلقنّ بالرجال الأغنياء ، لأن شغف المرأة ببهرجة الملابس ونعومة العيش يعمي بصيرتها ويقودها إلى العار والانحطاط ، فهل كانت وردة الهاني مغرورة وطامعة عندما خرجت من قصر- رجل غني مفعم بالحلى والحلل والرياش والخدم وذهبت إلى كوخ رجل فقير لا يوجد فيه سوى صف من الكتب القديمة؟ وكثيراً ما يميّت الجهل شرف المرأة ويحيي شهواتها فتترك بعلمها مللاً وتضجرًا وتطلب ملذات جسدها بقرب رجل آخر أكثر منها انحطاطاً وأقل شرفاً ، فهل كانت وردة الهاني جاهلة راغبة بالملذات الجسدية عندما أعلنت استقلالها على رؤوس الأشهاد وانضمت إلى فتي رويحي الميول ، وقد كان بإمكانها أن تشبع حواسها سرّاً في منزل زوجها من هيام الفتيان الذين يستمتون ليكونوا عبيد جمالها وشهداء غرامها؟ وردة الهاني كانت امرأة تعسة فطلبت السعادة فوجدتها وعانقتها ، وهذه هي الحقيقة التي تحتقرها الجامعة الإنسانية وتنفيها الشريعة .

همست تلك الكلمات في مسامع الأثير ثمّ قلت مستدرّكاً : ولكن أيسوغ للمرأة أن تشتري سعادتها بتعاسة بعلمها؟ فأجابتنني نفسي قائلة : وهل يجوز للرجل أن يستعبد عواطف زوجته ليبقى سعيداً؟

وظللت سائراً وصوت السيدة وردة يتموج في مسامعي حتى بلغت أطراف المدينة والشمس قد مالت إلى الغروب وابتدأت الحقول والبساتين تتشح بنقاب السكينة والراحة ، والطيور تنشد صلاة المساء ، فوقفت متأملاً ثم تنهدت قائلاً : أمام عرش الحرية تفرح هذه الأشجار بمداعبة النسيم ، وأمام هيبتها تبتهج بشعاع الشمس والقمر ، على مسامع الحرية تتناجى هذه العصافير ، وحول أذيالها ترفرف بقرب السواقي ، في فضاء الحرية تسكب هذه الزهور عطر أنفاسها وأمام عينيها تبتسم لمجيء الصباح ، كل ما في الأرض يحيا بناموس طبيعة ناموسه يستمد مجد الحرية وأفراحها ، أما البشر- فمحرومون من هذه النعمة لأنهم وضعوا لأرواحهم الإلهية شريعة عالمية محدودة ، وسنوا لأجسادهم ونفوسهم قانوناً واحداً قاسياً ، وأقاموا لميولهم وعواطفهم سجنًا ضيقاً مخيفاً ، وحفروا لقلوبهم وعقولهم قبراً عميقاً مظلماً ، فإذا ما قام واحد من بينهم وانفرد عن جامعتهم وشرائعهم قالوا : هذا متمرّد شرير خليق بالنفي ، وساقط دنس يستحق الموت ... ولكن هل يظل الإنسان عبداً لشرائعه الفاسدة إلى انقضاء الدهر ، أم تحرره الأيام ليحيا بالروح وللروح؟ أبقى الإنسان محققاً إلى التراب أم يحول عينيه نحو الشمس كيلا يرى ظل جسده بين الأشواك والجماجم؟



صراخ القبور

- 1 -

تربع الأمير على منصة القضاء فجلس عقلاء بلاده عن يمينه وشماله وعلى وجوههم المتجعدة تنعكس أوجه الكتب والأسفار ، وانتصب الجند حوله ممتشقين السيوف رافعين الرمح ، ووقف الناس أمامه بين متفرج أتى به حب الاستطلاع ، ومتربح ينتظر الحكم في جريمة قريبة ، وجميعهم قد حنوا رقابهم وخشعوا بأبصارهم وأمسكوا أنفاسهم كأن في عيني الأمير قوة توغز الخوف وتوحي الرعب إلى نفوسهم وقلوبهم ، حتى إذا ما اكتمل المجلس وأزفت ساعة الدينوية ، رفع الأمير يده وصرخ قائلاً : أحضروا المجرمين أمامي واحداً واحداً وأخبروني بذنوبهم ومعاصيهم .

ففتح باب السجن وبانت جدران المظلمة مثلما تظهر حنجرة الوحش الكاسر عندما يفتح فكيه مثائباً ، وتصاعدت من جوانبه قلقة القيود والسلاسل متألقة مع أنين الحساء ونحيبهم ، فحوّل الحاضرون أعينهم وتناولت أعناقهم كأنهم يريدون مسابقة الشريعة بنواظرهم ليروا فريسة الموت خارجة من أعماق ذلك القبر .

وبعد هنيهة خرج من السجن جنديان يقودان فتى مكتوف الساعدين يتكلم وجهه العابس وملامحه المنقبضة عن عزة في النفس وقوة في القلب ، وأوقفاه وسط المحكمة وتراجعا قليلاً إلى الوراء ، فحدق إليه الأمير دقيقة ثم سأل قائلاً : ما جريمة هذا الرجل المنتصب أمامنا برأس مرفوع كأنه في موقف الفخر لا في قبضة الدينونة ؟

فأجاب رجل من أعوانه قائلاً :

- هو قاتل شريير قد اعترض بالأمس قائداً من قواد الأمير وجندله صريعاً إذ كان ذاهباً بمهمة بين القرى ، وقد قبض عليه والسيف المغمّد بدماء القتيل ما زال مشهوراً في يده .

فتحرك الأمير غضباً فوق عرشه وتطايرت سهام الحنق من عينيه وصرخ بأعلى صوته قائلاً : ارجعوه إلى الظلمة وأوثقوا جسده بالقيود ، وعندما يجيء فجر الغد اضربوا عنقه بحدّ سيفه ثم اطرحوا جثته في البرية لتجردها العقبان والضواري وتحمل الرياح رائحة تنانتها إلى أنوف أهله ومحبيه .

أرجعوا الشاب إلى السجن والناس يتبعونه بنظرات الأسف والتنهيدات العميقة لأنه كان فتى في ربيع العمر حسن المظهر قويّ البنية .

وخرج الجنديان ثانية من السجن يقودان صبية جميلة الوجه ضعيفة الجسد قد وشح معانيها اصفرار اليأس والقنوط ، وغمرت عينيها العبرات وألوت عنقها الندامة والحسرة .

فنظر إليها الأمير قائلاً : وما فعلت هذه المرأة المهزولة الواقفة أمامنا وقوف الظل بجانب الحقيقة؟

فأجابه أحد الجنود قائلاً : هي امرأة عاهرة قد فاجأها بعلها ليلاً فوجدها بين ذراعي خليلها فأسلمها للشرطة بعد أن فر أليفها هارباً ، فحرق الأمير إليها وهي مطرقة خجلاً ثم قال بشدة وقساوة : أرجعوها إلى الظلمة ومددوها على فراش من الشوك لعلّها تذكر المضجع الذي دنسته بعييها ، واسقوها الخل ممزوجاً بنقيع العلقم عساها تذكر طعم القبل المحرمة ، وعند مجيء الفجر جروها عارية إلى خارج المدينة وارجموها بالحجارة واتركوا جسدها هناك لكي تتنعم بلحمائه الذئب وتخر عظامه الديدان والحشرات .

توارت الصبية بظلمة السجن والحاضرون ينظرون إليها بين معجب بعدل الأمير ،
ومتأسف على جمال وجهها الكثيب ورقة نظراتها المحزنة .

وظهر الجنديان الثالثة يقودان كهلاً ضعيفاً يسحب ركبتيه المرتعشتين كأنهما خرقتان من
أطراف ثوبه البالي ، ويلتفت جزعاً إلى كل ناحية ، ومن نظراته الموجعة تنبعث أخيلة البؤس
والفقر والتعاسة .

فالتفت الأمير نحوه وقال بلهجة الاشمزاز : ما ذنب هذا القذر الواقف كالميت بين
الأحياء؟

فأجابه أحد الجنود قائلاً : هو لص سارق قد دخل الدير ليلاً فقبض عليه الرهبان
الأتقياء ووجدوا طي أثوابه آنية مذابحهم المقدسة .

فنظر إليه الأمير نظرة النسر الجائع إلى عصفور مكسور الجناحين وصرخ قائلاً : انزلوه إلى
أعماق الظلمة واكلوه بالحديد ، وعند مجيء الفجر جروه إلى شجرة عالية واشنقوه بحبل من
الكتان واركوا جسده معلقاً بين الأرض والسماء ، فتشر العناصر أصابعه الأثيمة وتذري
الرياح أعضائه نتفاً .

أرجعوا اللص إلى السجن والناس يهمسون بعضهم في آذان بعض قائلين : كيف تجرأ هذا
الضعيف الكافر على اختلاس آنية الدير المقدسة؟

ونزل الأمير عن كرسي القضاء فاتبعه العقلاء والمشرعون وسار الجند خلفه وأمامه
وتبدد شمل المتفرجين وخلا ذلك المكان إلا من عويل المسجونين وزفرات القانطين المتمايلة
كالأخيلة على الجدران .

جرى كلّ ذلك وأنا واقف هناك وقوف المرأة أمام الأشباح السائرة ، مفكرًا بالشرائع التي وضعها البشر للبشر ، متأملًا بما يحسبه الناس عدلًا متعمقًا بأسرار الحياة بحثًا عن معنى الكيان ، حتى إذا ما تضعضعت أفكاري مثلما تتوارى خطوط الشفق بالضباب خرجت من ذاك المكان قائلاً لذاتي : الأعشاب تمتص عناصر التراب ، والخروف يلتهم الأعشاب والذئب يفترس الخروف ، ووحيد القرن يقتل الذئب ، والأسد يصيد وحيد القرن ، والموت يفني الأسد ، فهل توجد قوّة تغلب على الموت فتجعل سلسلة هذه المظالم عدلاً سرمدياً!... أتوجد قوّة تحوّل جميع هذه الأسباب الكريهة إلى نتائج جميلة؟ أتوجد قوة تقبض بكفها على جميع عناصر الحياة وتضمها إلى ذاتها مبتسمة مثلما يُرجع البحر جميع السواقي إلى أعماقه مترنماً؟ أتوجد قوة توقف القاتل والمقتول ، والزانية وخليلها ، والسارق والمسروق منه أمام محكمة أسمى وأعلى من محكمة الأمير؟

وفي اليوم الثاني خرجت من المدينة وسرت بين الحقول حيث تبيع السكينة للنفس ما تسره النفس ، ويميت طهر الفضاء جراثيم اليأس والقنوط التي تولدها الشوارع الضيقة والمنازل المظلمة ، ولما بلغت طرف الوادي التفت فإذا بأجواق كثيرة من العقبان والغربان والنسور تتطاير تارة وتهبط طورًا ، وقد ملأت الفضاء بنعابها وصفيرها وحفيف أجنحتها ، فتقدمت قليلًا مستطلعًا فرأيت أمامي جثة رجل معلقة على شجرة عالية ، وجثة امرأة عارية مطروحة بين الحجارة التي رُجمت بها ، وجثة فتى غارقة بالدماء المجلجلة بالتراب وقد فصل رأسها عنها .

وقفت وهول المشهد يغشي بصيرتي بنقاب كثيف مظلم ، فلم أر سوى خيال الموت المريع منتصبًا بين الجثث الملطخة بالدماء ، وأصغيت فلم أسمع غير عويل العدم ممزوجة بنعاب الغربان الحائمة حول فريسة شرائع البشر .

ثلاثة من أبناء آدم كانوا بالأمس على أحضان الحياة فأصبحوا اليوم في قبضة الموت .

ثلاثة أساءوا بعرف البشر إلى الناموس فمدت الشريعة العمياء يدها وسحقتهم بقساوة .

ثلاثة جعلهم الجهل مجرمين لأنهم ضعفاء فجعلتهم الشريعة أمواتًا لأنها قوية .

رجل فتك برجل آخر فقال الناس : هذا قاتل ظالم ، وعندما فتك به الأمير قال الناس : هذا أمير عادل .

ورجل حاول أن يسلب الدير فقال الناس : هذا لص شرير ، وعندما سلبه الأمير حياته قالوا : هذا أمير فاضل .

وامرأة خانت بعلها فقال الناس : هي زانية عاهرة ، ولكن عندما سيرها الأمير عارية
ورجمها على رؤوس الأشهاد قالوا : هذا أمير شريف .

سفك الدماء محرّم ، ولكن من حلله للأمير؟

سلب الأموال جريمة ، ولكن من جعل سلب الأرواح فضيلة؟

خيانة النساء قبيحة ، ولكن من صيّر رجم الأجساد جميلاً؟

أنقلاب الشر بشر أعظم ونقول هذه هي الشريعة ؟

ونقاتل الفساد بفساد أعظم ونهتف هذا هو الناموس؟ ونغالب الجريمة بجريمة أكبر
ونصرخ هذا هو العدل؟

أما صرع الأمير عدوًا في غابر حياته؟ أما سلب مالا أو عقارًا من أحد تابعيه الضعفاء؟
أما رواد امرأة جميلة عن نفسها؟ هل كان معصومًا عن هذه المحرّمات فجاز له إعدام القاتل
وشنق السارق ورجم الزانية؟

ومن هم الذين رفعوا هذا اللص على الشجرة : أملائكة نزلوا من السماء أم رجال
يغتصبون ويسرقون كلّ ما تصل إليه أيديهم؟

ومن قطع رأس هذا القاتل : أنبياء هبطوا من العلاء أم جنود يقتلون ويسفكون الدماء أينما
حلوا؟

ومن رجم هذه الزانية : أنسّاك طاهرون أتوا من صوامعهم أم بشر- يأتون المنكرات
ويفعلون الرذائل مختبئين بستائر الظلام؟

الشرعية - وما هي الشرعية؟ من رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء؟ وأي بشري رأى قلب الله فعلم مشيئته في البشر-؟ وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين احرموا الضعفاء نور الحياة ، وأفنوا الساقطين بحدّ السيف ، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد؟

وظلت هذه الأفكار تتزاحم على فكري وتتساهم عواطفني حتى سمعت وطء أقدام قريبة مني ، فنظرت وإذا بصبية قد ظهرت من بين الأشجار واقتربت من الجثث الثلاث متحذرة متلفتة بخوف إلى كل ناحية ، حتى إذا ما رأت رأس الفتى المقطوع صرخت جزعاً وركعت بجانبه وطوقته بزنديها المرتجفتين ، وأخذت تستفرغ الدموع من عينيها ، وتلامس شعره الجعدي بأطراف أصابعها وتتحب بصوت عميق جارح خارج من صميم الكيد ، ولما أنهكها البكاء وغلبتها الحسرات ، أسرعت تحفر التراب بيديها ، حتى إذا ما حفرت قبراً واسعاً جرت إليه الفتى المصروع ومددته على مهل ووضعت رأسه المضرج بالدماء بين كتفيه ، وبعد أن غمرته بالتراب غرست نصل السيف الذي قطع عنقه على قبره ، وإذ همت بالانصراف ، تقدمت نحوها فأجفلت وارتعشت خوفاً ثم أطرقت والدمع السخين يتساقط من مقلتيها كالطرر وقالت متنهدة : اشكني إلى الأمير إن شئت فخير لي أن أموت وألحق بمن خلّصني من قبضة العار من أن أترك جسده طعاماً لقشاعم الطير والوحوش الكواسر ، فأجبته قائلاً : لا تخافي مني أيتها المسكينة ، فأنا قد ندبت حظ فتاك قبلك ، بل خبريني : كيف أنقذك من قبضة العار؟

فقال والغصص تقطع صوتها : جاء قائد الأمير إلى حقولنا ليتقاضى الضرائب ويجمع الجزية ، ولما رآني نظر إليّ نظرة استحسان مخيفة ، ثم فرض ضريبة باهظة على حقل والدي الفقير يعجز الغني عن دفعها ، فقبض عليّ ليقْتادني قهراً إلى صرح الأمير بدلاً من الذهب ، فاسترحمته بدموعي فلم يحفل ، واستحلفته بشيخوخة والدي فلم يرحم ، فصرخت مستغيثة برجال القرية فجاء هذا الشاب وهو خطيبي وخلّصني من بين يديه القاسيتين ، فاستشاط غضباً وهمّ أن يفتك به فسبقه الشاب وامتشق سيفاً قديماً معلقاً على الحائط وصرعه به مدافعاً عن حياته وعن عرضي ، ولكبر نفسه لم يفر هارباً كالقتلة المجرمين ، بل لبث واقفاً بقرب جثة القائد الظلوم حتى جاء الجند وساقوه إلى السجن مكبلاً بالقيود .

قالت هذا ، ونظرت إليّ نظرة تذيب الفؤاد وتثير الشجون وولت مسرعة ورنات صوتها الموحجة تولد بين تموجات الأثير اهتزازاً وارتعاشاً .

وبعد هنيهة نظرت فرأيتُ فتى في ربيع العمر يتقدم سائراً وجهه بأثوابه ، حتى إذا ما بلغ جثة الزانية وقف بقربها وخلع عباءته وستر بها أعضائها العارية ، وأخذ يحفر الأرض بخنجر كان معه ثم حملها بهدوء وواراها التراب ساكباً مع كلّ حفنة قطرة من أجفانه ، ولما انتهى من علمه جنى بعض الزهور النابتة هناك ووضعها على القبر منحني الرأس منخفض الطرف ، وإذ هم بالذهاب أوقفته قائلاً : ما نسبة هذه المرأة الساقطة إليك حتى سعت مخالفاً إرادة الأمير ومخاطراً بحياتك لكي تحمي جسدها المروض من طيور السماء الجوارح؟

فنظر إليّ وأجفانه المقرحة من البكاء والسهر تتكلم عن شدة حزنه ولوعته ، وبصوت مخنوق ترافقه التنهيدات الأليمة قال : أنا هو ذلك الرجل التعس الذي رُجمت من أجله - أحببتها وأحبّني مذ كنا صغيرين نلعب بين المنازل ، نمونا ونما الحبّ معنا حتى صار سيّداً قوياً نخدمه بعواطف قلوبنا فيستميلنا إليه ونهابه بسرائر روحنا فيضمنا إلى صدره .

ففي يوم وقد كنت غائبًا عن المدينة زوجها والدها كرهاً من رجل تكرهه ، ولما رجعت وسمعت بالخبر تحولت أيامي إلى ليل طويل حالك ، وصارت حياتي نزاعاً مرّاً متواصلًا ، وبقيت أصارع عواطفي وأغالب ميول نفسي- حتى تغلبت عليّ وقادتني مثلما يقود البصير ضريراً أعمى ، فذهبت إلى حبيتي سرّاً ، وأقصى مرامي أن أرى نور عينيها وأسمع نغمة صوتها ، فوجدتها منفردة تندب حظها وترثي أيامها ، فجلست والسكينة حديثنا والعفاف ثالثنا ، ولم تمر ساعة حتى دخل زوجها فجأة ، ولما رأي أوعزت إليه نياته القذرة فقبض على عنقها الأملس بكفيه القاسيتين وصرخ بأعلى صوته : تعالوا وانظروا الزانية وعشيقها ، فهرول الجيران ثم فجأة جاء الجند مستطلعين الخبر فأسلمها إلى أيديهم الخشنة فاقتاوها محلولة الشعر ممزقة الثياب ، أما أنا فلم يمسنني أحد بضرر لأن الشريعة العمياء والتقاليد الفاسدة تعاقب المرأة إذا سقطت ، أما الرجل فتسامحه .

وعاد الشاب نحو المدينة سائرًا وجهه بأثوابه ولبثت أنا ناظرًا متأملًا متنهّدًا ، وجثة اللص المشنوق ترتجف قليلاً كلما هز الهواء أغصان الشجرة كأنها تسترحم بحراكها أرواح الفضاء لتهبط وتمدها على صدر الأرض بجانب قتيل المروءة وشهيدة الحبّ .

وبعد ساعة ظهرت امرأة ضعيفة الجسم ترتدي خرقاً بالية ووقفت بقرب المشنوق تقرع صدرها باكية ، ثمّ تسلقت الشجرة وقضمت حبل الكتان بأسنانها فسقط الميت على الأرض سقوط الثوب البليل .

فنزلت المرأة وحفرت قبرًا بجانب القبرين ووضعت فيه ، وبعد أن غمرته بالتراب أخذت قطعتين من الخشب وصنعت منها صليباً وغرسته فوق رأسه ، ولما تحولت نحو الوجهة التي جاءت منها أوقفته قائلاً : ما غرك أيتها المرأة فجئت تدفين لصاً سارقاً؟

فنظرت إليّ بعينين غارقتين مكحولتين بأشباح الكآبة والشقاء وقالت : هو زوجي الصالح ورفيقي الحنون ووالد أطفالي ، خمسة أطفال يتضورن جوعاً أكبرهم في الثامنة وأصغرهم رضيع لم يفطم ... لم يكن زوجي لصّاً بل كان زارعاً يفلح أرض الدير ويستغلها ولا يحصل من الرهبان إلا على رغيف نتقاسمه عند المساء ولا تبقى منه لقمة إلى الصباح .

مذ كان فتى وهو يسقي بعرق جبينه حقول الدير ويزرع عزم ساعديه في بساتينه ، ولما ضعف وانتهت أعوام العمل قواه وراودت الأمراض جسده أبعده قائلين : لم يعد الدير محتاجاً إليك فاذهب الآن ، وعندما يشب أبناءك ابعثهم إلينا لكي يأخذوا مكانك في الحقل ، فبكى وأبكاني واسترحمهم باسم يسوع واستحلفهم بالملائكة والقديسين ، فلم يرحموه ولم يشفقوا عليه وعليّ وعلى صغارنا العراة الجائعين .

فذهب يطلب عملاً في المدينة وعاد مطروداً لأن سكان تلك القصور لا يستخدمون إلا الفتيان الأقوياء ، ثمّ جلس على قارعة الطريق مستعطياً فلم يحسن الناس إليه بل كانوا يمرون به قائلين : الصدقة لا تجوز على مغلوب التواني والكسل .

ففي ليلة ، وقد برح العوز بنا حتى صار أطفالنا يتلون جوعاً على التراب ، والرضيع بينهم يمص ثديي ولا يجد لبناً ، تغيرت ملامح زوجي وذهب مستتراً بالظلام ودخل قبواً من أقبية الدير حيث يخزن الرهبان غلة الحقول وخمر الكروم ، وحمل زنببلاً من الدقيق على ظهره وهم بالرجوع إلينا ، لكنه لم يسر بضع خطوات حتى استيقظ القسس من رقادهم وقبضوا عليه وأوسعوه ضرباً وشتماً ، وعندما جاء الصباح أسلموه إلى الجند قائلين : هو لصٌ شرير جاء لكي يسرق آنية الدير الذهبية ، فاقتاده الجند إلى السجن ثم إلى المشنقة ليملاً أجواف القعبان من جسده لأنه حاول أن يملأ أجواف الصغار الجياع من فضلات الغلة التي جناها بأتعابه إذ كان مخدوماً للدير .

وذهبت المرأة الفقيرة ولكلامها المتقطع أشباح محزنة تتصاعد وتتسارع إلى كل ناحية كأنها أعمدة من الدخان يتلاعب بها الهواء .

وقفت بين القبور الثلاثة وقفة مؤبن ارتج عليه وانعقد لسانه لوعة ، فانسكب دمه متكلماً عن عواطفه ، وحاولت التفكير والتأمل فعصتني نفسي- لأن النفس كالزهرة تضم أوراقها أمام الظلمة ، ولا تعطي أنفاسها لأخيلة الليل .

وقفت ومن دقائق تراب تلك القبور ينبثق صراخ التظلم انبثاق الضباب من خلايا الأودية ويتموج حول مسامعي ليوحى إليّ الكلام .

وقفت ساكتاً ولو فهم الناس ما تقوله السكينة لكانوا أقرب إلى الآلهة منهم إلى كواسر الغاب .

وقفت متنهداً ، ولو لامست شعلات تنهيداتي أشجار ذلك الحقل لتحركت وتركت أماكنها وزحفت كتائب وحاربت بقضبانها الأمير وجنوده ، وهدمت بجذوعها جدران الدير على رؤوس رهبانه .

وقفت ناظرًا ، ومع نظراتي تنسكب حلاوة الشفقة ومرارة الحزن على جوانب تلك القبور الجديدة : قبر فتى دافع بحياته عن شرف عذراء ضعيفة وأنقذها من بين أظفار ذئب كاسر ، فقطعوا عنقه جزاء شجاعته ، وقد أغمدت تلك الصبية سيفه بتراب قبره ليبقى هناك رمزًا يتكلم أمام وجه الشمس عن مصير الرجولة في دولة الحيف والغباوة .

وقبر صبية لامس الحبّ نفسها قبل أن تغتصب المطامع جسدها ، فرجعت لأن قلبها أبى إلا أن يكون أمينًا حتى الموت ، وقد وضع حبيبها باقة من زهور الحقل فوق جسدها الهامد لتتكلم بذبولها وفنائها البطيء عن مصير النفوس التي يقدسها الحبّ بين قوم أعمتهم المادة وأخرسهم الجهل .

وقبر فقير بائس أوهت ساعديه حقول الدير فطرده الرهبان ليستعوضوا عنها بسواعد غيره ، فطلب الخبز لصغاره بالعمل فلم يجده ، ثمّ رجاه بالتسول فلم ينله ، وعندما دفعه اليأس إلى استرجاع قليل من الغلة التي جمعها بأتعابه وعرق جبينه قبضوا عليه وفتكوا به ، وقد وضعت أرملة صليبا على قبره ليستشهد في سكينة الليل نجوم السماء على ظلم رهبان يحولون تعاليم الناصري إلى سيوف يقطعون بها الرقاب ويمزقون بحدودها السنينة أجساد المساكين والضعفاء .

وتوارت الشمس إذ ذاك وراء الشفق كأنها ملت متاعب البشر وكرهت ظلمهم ، وابتدأ المساء يحوك من خيوط الظل والسكون نقابًا دقيقًا على جسد الطبيعة ، فرفعت عينيّ إلى العلاء وبسطت يديّ نحو القبور وما عليها من الرموز وصرخت بأعلى صوتي : هذا هو سيفك أيتها الشجاعة فقد أغمد بالتراب ، وهذه هي زهورك أيها الحبّ فقد لفتحها النيران ، وهذا هو صليبك يا يسوع الناصري فقد غمرته ظلمة الليل .



مضجع العروس

خرج العريس والعروس من الهيكل يتبعهما المهنتون الفارحون وتتقدمهما الشموع والمصابيح ، ويسير حولهما الفتيان المترنمون بالأهازيج والصبايا المنشدات أغاني السرور .

بلغ الموكب منزل العريس المزدان بالرياش الثمينة والأواني المتلمعة والرياحين العطرة ، فاعتلى العروسان مقعداً مرتفعاً وجلس المدعوون على الطنائف الحريرية والكراسي المخملية ، حتى غصت تلك القاعة الواسعة بأشكال الناس ، وجلسوا يسكرون النفوس بأنفاسهم السحرية ويبطنون الصدور بألحانهم المنسوجة مع همس أوتار العود وتنهيدات الناي وحفيف الدفوف .

ثم قامت الصبايا يرقصن ويتميلن بقامات تلاحق مقاطع اللحن مثلما تتابع الأغصان اللينة مجاري هبوب النسيم وتثني طيات أثوابهم الناعمة كأنها سحب بيضاء يداعبها شعاع القمر ، فشخصت إليهن الأبصار وسجدت لهن الرؤوس وعانقتهن أرواح الفتيان وتفطرت لجمالهن مرائر الشيوخ ، ثم مال الجميع يستزيدون من الشراب ويعمرون ميولهم بالخمور ، فمت الحركة وعلت الأصوات وسادت الحرية وتوارت الرزانة وتضعضت الأدمغة وتلهبت النفوس واضطربت القلوب وأصبح ذلك المنزل بكل ما فيه كقيثارة مقطعة الأوتار في يد جنية غير منظورة تضرب عليها بعنف وتولد منها أنغاماً جامعة بين التناسق والالتباس : فهنا فتى يبوح بسرائر حبه لفتاة أولاهها الجمال تيهًا ودلالاً ، وهناك شاب يستعد لمحادثة حسناء مستحضراً إلى حافظته أعذب الألفاظ وأرق المعاني ، وهناك كهل يجرع الكأس وراء الكأس ويطلب بلجاجة إلى المنشدين إعادة أغنية ذكرته بأيام صبايته ، في هذه القرنة امرأة تغامز بأطراف أجفانها رجلاً ينظر بمودة إلى سواها ، وفي تلك الزاوية سيدة قد بيض الشيب مفرقها تنظر مبتسمة نحو الصبايا لتنتقي منهم عروسة لوحيدها ، وبجانب تلك النافذة زوجة قد اتخذت سكر حليلها فرصة فاقتربت من خليلها ، وجميعهم غارقون في بحر من الخمر والغزل ، مستسلمون إلى تيار الغبطة والسرور ، متناسون حوادث الأمس ، منصرفون عن مآتي الغد ، منعكفون على استثمار دقائق الحاضر .

كان يجري كلّ ذلك والعروس الجميلة تنظر بعينين كئيبتين إلى هذا المشهد مثلما ينظر الأسير اليائس إلى جدران سجنه السوداء ، وتلقت بين الآونة والأخرى نحو زاوية من زوايا تلك القاعة حيث جلس فتى في العشرين من عمره منفردًا عن الناس المغتربين انفراد الطائر الجريح عن سربه ، مكبلاً زنديه على صدره كأنه يحول بهما بين قلبه والفرار ، محدقًا إلى شيء غير منظور في فضاء تلك القاعة كأن ذاته المعنوية قد انفصمت عن ذاته الحسية وسبحت في الخلاء متبعة أشباح الدجى .

انتهى الليل وتعاظمت غبطة الجماعة حتى صارت ثورة ، واختمرت أدمغتهم حتى تلجلجت ألسنتهم ، فقام العريس من مكانه وهو كهل خشن المظهر وقد تغلب السكر على حواسه وطاف يتكلف اللطف والرقّة بين الناس .

في تلك الدقيقة أومأت العروس إلى صبية أن تقترب منها ، فاقتربت وجلست بجانبها ، وبعد أن تلفت العروس إلى كلّ ناحية تلفت جازع يريد أن يفشي- سرًا خفيًا هائلًا لزّت إلى الصبية وهمست في أذنها هذه الكلمات بصوت مرتعش : أستحلفك يا رفيقتي بالعواطف التي ضمت نفسيها مذكنا صغيرتين ، أستحلفك بكل ما هو عزيز لديك في هذه الحياة ، أستحلفك بمخبات صدرك ، أستحلفك بالحب الذي يلامس أرواحنا ويجعلها شعاعًا ، أستحلفك بأفراح قلبك وأوجاع قلبي ، أن تذهبي الآن إلى سليم وتطلبي إليه أن ينزل خفية إلى الحديقة وينتظرني هناك بين أشجار الصفصاف ، تضرعي عني يا سوسان حتى يجيب طلبي ، ذكره بالأيام الغابرة ، توسلي إليه باسم الحبّ ، قولي له هي تعسة عمياء ، قولي له هي مائة تريد أن تفتح قلبها أمامك قبل أن يكتنفها الظلام ، قولي له هي هالكة شقية تريد أن ترى نور عينيك قبل أن تحتطفها نار الجحيم ، قولي له هي خاطئة تريد أن تعترف بذنوبها وتلتمس عفوك ، أسرعني إليه وابتهلي عني أمامه ولا تخافي مراقبة هؤلاء الخنازير لأن الخمر قد سدّت آذانهم وأعمت بصائرهم .

فقامت «سوسان» من جانب العروس وجلست بقرب سليم الكئيب المنفرد وحده وأخذت تستعطفه هامسة في أذنه كلمات رفيقتها ودلائل الود والإخلاص بادية على ملامحها وهو منحني الرأس يسمع ولا يجيب ببنت شفة ، حتى إذا ما انتهت من كلامها نظر إليها نظرة ظامئ يرى الكأس في قبة الفلك وبصوت منخفض تخاله آتياً من أعماق الأرض أجابها قائلاً :

- سأنتظرها في الحديقة بين أشجار الصفصاف .

قال هذه الكلمات وقام من مكانه وخرج إلى الحديقة .

ولم تمض بضع دقائق حتى قامت العروس واتبعتة مختلسة خطواتها بين رجال فتنهم ابنة الكروم ونساء شغلت قلوبهن صباية الفتیان ، ولما بلغت الحديقة الموشاة بأثواب الليل أسرعت ملتفتة إلى الوراء ، ومثل غزال جازع هارب إلى كناسة من الذئاب الخاطفة تقدمت نحو أشجار الصفصاف حيث وقف ذلك الفتى ، ولما رأت نفسها بجانبه ترامت عليه وطوقت عنقه بزنديها وحدقت إلى عينيه ثم قالت والألفاظ تتسارع من شفثيها بسرعة الدموع من أجفانها : اسمعني يا حبيبي ، اسمعني جيداً ، ها قد ندمت على جهالتي وتسرعني ، قد ندمت يا سليم حتى سحقت الندامة كبدي ، أنا أحبك ولا أحب سواك وسوف أحبك إلى منتهى العمر ، قد أخبروني بأنك سلوتي وهجرتني وتعلقت بهوى غيري ، أخبروني بكل ذلك يا سليم وسَمِّموا قلبي بالستهم ومزقوا صدري بأظفارهم وملأوا نفسي- بكذبهم ، قد أخبرتني نجية بأنك سلوتي وكرهتني وانشغفت بحبها ، قد ظلمتني تلك الخبيثة واحتالت على عواطفني لكي أرضى بنسبها عريساً ، فرضيته يا سليم ولا عريس لي سواك .

والآن ، والآن قد رفع الغشاء عن عيني فجئت إليك ، قد خرجت من هذا المنزل ولن أعود إليه ، قد جئت لكي أضمك بذراعي ولا توجد قوة في هذا العالم ترجعني إلى ذراعي الرجل الذي زُفِّتُ إليه كرهاً ويأساً ، قد تركت العريس الذي اختاره لي الكذب بعلًا ، وتركت الوالد الذي أقامه القدر وليًا ، وتركت الزهور التي ضفرها الكاهن إكليلاً ، وتركت الشرائع التي حبكتها التقاليد قيودًا ، قد تركت كل شيء في هذا المنزل المملوء بالسكر والخلاعة وأتيت لأتبعك إلى أرض بعيدة ، إلى أقاصي العالم ، إلى مكامن الجن ، إلى قبضة الموت ، تعال نسرع يا سليم من هذا المكان مستترين بوشاح الليل ، هلم نسير إلى الساحل ونركب سفينة تحملنا إلى بلاد بعيدة مجهولة ، تعال نمشي الآن فلا يجيء الفجر إلا ونحن في مأمن من أيدي العدو .

انظر ، انظر هذه الحلى الذهبية وهذه القلائد والخواتم الثمينة ، وهذه الجواهر النفيسة ، فهي تكفل مستقبلنا وتكفي لنعيش بأثمانها كالأمراء لماذا لا تتكلم يا سليم؟ لماذا لا تنظر إليّ؟ لماذا لا تقبلني؟ أسمع أنت صراخ قلبي وعويل نفسي؟ ألا تصدق أنني هجرت عريسي- وأبي وأمي وجئت بأثواب العرس لكي أهرب معك؟ تكلم أو هلم نسرع فهذه الدقائق أثمن من حبات الألماس وأغلى من تيجان الملوك .

كانت العروس تتكلم وفي صوتها نغمة أعذب من همس الحياة وأمرّ من عويل الموت وألطف من حفيف الأجنحة وأعمق من أنين الأمواج ، نغمة تتموج نبضاتها بين اليأس والأمل ، واللذة والألم ، والفرح والشقاء ، وكل ما في صدر المرأة من الميول والعواطف .

أمّا الشاب فكان يسمع وفي داخل نفسه يتصارع الحبّ والشرف : ذلك الحبّ الذي يجعل الوعر سهلاً ، والظلام نورًا ، وذلك الشرف الذي يقف أمام النفس ، ويثنيها عن رغائبها ومنازعها ، ذلك الحبّ الذي ينزله الله على القلب ، وذلك الشرف الذي تسكبه تقاليد البشر في الدماغ .

وبعد أحيان خرساء هائلة شبيهة بالأجيال المظلمة التي تتمايل فيها الأمم بين النهوض والاضمحلال ، رفع الشاب رأسه وقد تغلب شرف نفسه على ميلها وحول عينيه عن الصبية الخائفة المترقبة وقال بهدوء : ارجعي أيتها المرأة إلى ذراعي عريسك فقد قضي- الأمر ومحت اليقظة ما صورته الأحلام ، أسرعني إلى أحضان المسرات قبل أن تراك أعين الرقباء فيقول الناس قد خانت عريسها في ليلة العرس مثلما خانت حبیبها أيام العهد .

فارتعشت العروس لهذه الكلمات وتململت كزهرة ذابلة أمام الريح ثم قالت متوجعة : لا أعود إلى هذا المنزل وبى رمق من الحياة ، قد خرجت منه إلى الأبد ، قد تركته وكل من فيه مثلما يترك الأسير أرض المنفى ، فلا تبعدني عنك ولا تقل إنني خائنة ، لأن يد الحب التي مزجت روحي بروحك هي أقوى من يد الكاهن التي أسلمت جسدي إلى مشيئة العريس ، ها قد طوقت ذراعي حول عنقك فلا تحملها القوات وقربت نفسي- إلى نفسك فلا يفرقهما الموت .

فقال الشاب محاولاً الخلاص من ذراعيها متكلفاً إظهار المقت والاشمئزاز : ابتعدي عني أيتها المرأة قد سلوتك ، نعم سلوتك وكرهتك وتعلقت بهوى غيرك ، فلم يقل الناس غير الصحيح ، هل سمعت ماذا أقول؟ قد سلوتك حتى نسيت وجودك وكرهتك حتى أبت نفسي مرآك ، فابتعدي عني ودعيني أذهب في سبيلي ، وعودي إلى عريسك وكوني له زوجة أمينة .

فقالت الصبية متفجعة : لا ، لا أصدق كلامك ، فأنت تحبني وقد قرأت معنى الحب في عينيك وشعرت بملامسه عندما لمست جسدي ، أنت تحبني وتحبني مثلما أحبك ، فأنا لا أترك هذا المكان إلا بجانبك ولن أدخل هذا المنزل وفي نفسي بقية من الإرادة ، قد جئت لكي أتبعك إلى آخر الأرض ، فسر أمامي وارفع يدك وأهرق دمي .

فقال الشاب وقد رفع صوته عن ذي قبل : اتركيني أيتها المرأة وإلا صرخت بأعلى صوتي وجمعت في هذه الحديقة أولئك الناس المدعويين إلى أفراح عرسك وأريتهم عارك وجعلتك مضغة مرة في أحناكهم ومثلاً قبيحاً على ألسنتهم وأوقفت نجبية التي أحبها قلبي تسخر بك وتبتسم فارحة بانتصارها مستهزئة بانغلابك .

قال هذا وأمسك بذراعها ليعدها عنه ، فتغيرت ملامحها وأبرقت عيناها وتحولت بكليتها من الاستعطاف والرجاء والتوجع إلى الغضب والقساوة ، وصارت كلبوة فقدت أشبالها أو كبحر أثارت أعماقه الزوابع ثم صرخت : من هي التي تتمتع بحبك بعدي ، وأي قلب يسكر بقبل شفتيك غير قلبي !

لفظت هذه الكلمات وانتشلت من بين أثوابها خنجرًا سنيئاً وأغمדתه بصدرة سرعة البرق ، فهوى وسقط على الأرض كغصن قصفته العاصفة ، فانحنت فوقه والخنجر في يدها يقطر دمًا ، ففتح عينيه المغمورتين بظل الموت وارتعشت شفاته وخرجت هذه الكلمات مع أنفاسه الضعيفة : اقتربي الآن يا حبيبتني ، اقتربي يا ليلي ولا تتركيني ، الحياة أضعف من الموت والموت أضعف من الحب ، اسمعي اسمعي قهقهة الفارحين بعرسك ، اسمعي رنين كؤوسهم يا حبيبتني ، لقد أنقذتني يا ليلي من قساوة هذه القهقهة ومرارة تلك الكؤوس ، فدعيني أقبل اليد التي كسرت قيودي ، قبلي شفتي ، قبلي شفتي اللتين تكلفتا الكذب وأخذتا أسرار قلبي ، أغمضي- أجفاني الذابلة بأصابعك المغموسة بدمي ، وعندما تطير روحي في الفضاء ضعي الخنجر في يميني وقولي لهم قد انتحري يأسًا وحسدًا ، قد أحبتك يا ليلي ولم أحب سواك ولكنني رأيت تضحية قلبي وسعادي وحياتي أفضل من الهرب بك في ليلة عرسك ، قبليني يا حبيبة النفس قبل أن يرى الناس جثتي ... قبليني قبليني ، يا ليلي .

ووضع المصروع يده فوق قلبه المطعون ولوى عنقه وفاضت روحه !

فرفعت العروس رأسها والتفتت نحو المنزل وصرخت بصوت هائل : تعالوا ، تعالوا أيها الناس ، فهنا العرس وهذا العريس ، هلموا لنريكم مضجعنا الناعم ، استيقظوا أيها النيام وانتبهوا أيها السكارى وأسرعوا لنريكم أسرار الحب والموت والحياة .

تموج صراخ العروس في زوايا ذلك المنزل حاملاً كلماتها إلى آذان المحتفلين المغتبطين ، فارتعشت أرواحهم وأصغوا هنيهة كأن الصحو قد باغت نشوتهم ، ثم تراكضوا مسرعين من أبواب المنزل ومخارجه ، وساروا متلفتين يميناً وشمالاً ، حتى إذا ما رأوا جثة المصروع والعروس الجاثية بقربها تراجعوا مذعورين إلى الوراء ، ولا أحد منهم يجسر على استقصاء الخبر ، كأن منظر الدماء المنبعثة من صدر القتيل ولمعان الخنجر في يد العروس قد عقد ألسنتهم وأجهد الحياة في أجسادهم .

فالتفتت العروس إليهم وقد اتشحت ملامحها بهيبة محزنة وصرخت قائلة : اقتربوا أيها الجبناء ، ولا تخافوا خيال الموت ، فهو عظيم ولا يدنو من صغارتكم ، اقتربوا ولا ترتجفوا جزعاً من هذا الخنجر فهو آلة مقدسة لا تلامس أجسادكم القذرة وصدوركم المظلمة ، انظروا هذا الفتى الجميل المتسربل بحلة العرس - هو حبيبي وقد قتلته لأنه حبيبي - هو عريسي وأنا عروسته ، وقد بحثنا فلم نجد مضجعاً يليق بعناقنا في هذا العالم الذي جعلتموه ضيقاً بتقاليدكم ومظلماً بجهالتكم وفساداً بلهائكم ، ففضلنا الذهاب إلى ما وراء الغيوم ، اقتربوا أيها الضعفاء الخائفون وانظروا لعلكم ترون وجه الله منعكساً على وجهينا ، وتسمعون صوته العذب منبثقاً من قلوبنا ، أين هي تلك المرأة الخبيثة الحسود التي وشت إليّ بحبيبي ، وقالت إنه شغف بها وسلاني وتعلق بحبها لينساني؟ قد توهمت تلك الشريرة أنها ظفرت عندما رفع الكاهن يده فوق رأسي ورأس نسيبها ، أين نجية المحتالة؟ أين تلك الأفعى الجهنمية؟ دعوها تقترب الآن وترى أنها قد جمعتكم لتفرحوا بعرس حبيبي وليس بعرس الرجل الذي اختارته لي .

أنتم لا تفهمون كلامي ، لأن اللهجة لا تعي أغاني الكواكب ، لكنكم سوف تجربون أبناءكم عن المرأة التي قتلت حبيبها ليلة عرسها ، سوف تذكرونني وتلعنونني بشفاكم الأثيمة ، أما حفدتكم فسوف يباركونني لأن الغد سيكون للحق والروح .

وأنت أيها الرجل الغبي الذي استخدم الحيلة والمال والخباثة ليصيرني له زوجة ، أنت رمز هذه الأمة التعسة التي تبحث عن النور في الظلمة ، وتترقب خروج الماء من الصخرة ، وظهور الورد من القطرب .

أنت رمز هذه البلاد المستسلمة لغاوتها استسلام الأعمى إلى قائده الأعمى ، أنت ممثل الرجولة الكاذبة التي تقطع الأعناق والمعاصم توصلا إلى العقود والأساور ، أنا أغتفر لك صغارتك ، لأن النفس الفارحة بذهابها من هذا العالم تغتفر جميع زلات هذا العالم .

حينئذ رفعت العروس خنجرها نحو العلاء ، ونظير ظامئ يقرب حافة الكأس إلى شفثيه أغمدته بعزم في صدرها وهبطت بجانب حبيبها نظير زنبقة قطع عنقها حد المنجل ، فتململت النساء وصرخن صراخ الخوف والألم وأغمي على بعضهن ، وتصاعد ضجيج الرجال من كل ناحية واقتربوا من المصروعين بوجل وهيبة .

فنظرت إليهم العروس المنازعة وقالت ونجيع الدماء ينهل بغزارة من صدرها البلوري : لا تقتربوا أيها العاذلون ولا تفصلوا بين جسدنا ، وإن حاولتم فالروح الحائمة فوق رؤوسكم تقبض على أعناقكم وتخنقكم بعنف وقساوة ، دعوا هذه الأرض الجائعة تلوك جسدنا لقمة واحدة ، دعوها تخفيننا وتحمينا في صدرها مثلما تحمي البذور من ثلوج الشتاء حتى يجيء الربيع .

ولزّت العروس إلى حبيبها وألقت شفتيها على شفّتيه الباردين وخرجت هذه الكلمات
المتقطعة مع أنفاسها الأخيرة : انظر يا حبيبي ، انظر يا عريس نفسي- كيف وقف الحساد حول
مضجعنا ، انظر عيونهم المحدقة إلينا ، واسمع صرير أسنانهم وتكسر ضلوعهم ، قد انتظرتني
طويلاً يا سليم فما أنذا قد كسرت القيود وفككت السلاسل ، فلنسر عن نحو الشمس فقد طال
وقوفنا في الظل ، ها قد امحت الرسوم وانحجبت الأشياء فلم أعد أرى سواك يا حبيبي ، ها
شفتاي فاقتبل أنفاسي الأخيرة ، هلم نذهب يا سليم ، فقد رفع الحبّ أجنته وسبح أمامنا نحو
دائرة النور .

وألقت العروس صدرها على صدر حبيبها فامتزجت دماؤها بدمائه وحنّت رأسها على
عنقه وظلت عيناها محدقتين إلى عينيه .

ولبت الناس صامتين هنيهة وقد اصفرت وجوههم وتراخت ركبهم ، كأن هيبة الموت
قد سلبتهم القوة والحراك .

فتقدم إذ ذاك الكاهن الذي ضفر بتعاليمه أكاليل ذلك العرس وأشار بيمينه نحو
القتيلتين ونظر نحو القوم المذهولين وخاطبهم بصوت خشن قائلاً : ملعونة هي الأيدي
التي تمد إلى هذين الجسدين الملطختين بدماء الجريمة والعار ، و ملعونة هي الأعين التي
تذرف دموع الحزن على هالكين قد حملت الأبالسة روحيهما إلى الجحيم ، لتبق جثة ابن
سادوم وجثة ابنة عمورة مطروحتين على هذا التراب الدنس المجبول بدمائهما حتى تتقاسم
لحمهما الكلاب وتذري عظامهما الرياح ، اذهبوا إلى مساكنكم أيها الناس واهربوا من
الرائحة المتنتنة المتصاعدة من داخل قلوبين جبلتهما وسحقتهما الرذيلة ، تفرقوا أيها الواقفون
بقرب هاتين الجيفتين ، وانصرفوا مسرعين قبل أن تلسعكم ألسنة النار الجهنمية ، ومن يبق
منكم ههنا يكن محروماً ومرذولاً فلا يدخل الهيكل الذي يركع فيه المؤمنون ، ولا يشترك
بالصلاة التي يقدمها المسيحيون !

فتقدمت سوسان ، تلك الصبية التي بعثتها العروس رسولاً إلى حبيبها ، ووقفت أمام الكاهن ونظرت إليه بعينين مغرورقتين بالدموع وقالت بشجاعة : أنا أبقى هنا أيها الكافر الأعمى ، وأنا أحرسها حتى يجيء الفجر ، وأنا أحفر لهما قبراً تحت هذه الأغصان المتدلية ، فإن منعتم عني محفراً مزقت صدر الأرض بأصابعي ، وإن ربطتم ساعدي حفرت به بأسناني ، أسرعوا بالخروج من هذا المكان المملوء برائحة البخور واللبن ، فالخنازير تأبى استنشاق العطور الزكية ، واللصوص الخاطفة تهاب رب البيت وتخشى قدوم الصباح ، أسرعوا إلى مضاجعكم المظلمة لأن أغاني الملائكة المتموجة فوق شهيد الحب لا تدخل آذانكم المسدودة بالتراب .

وتفرق الناس من أمام وجه الكاهن العبوس ولبثت تلك الصبية واقفة بقرب الجثتين الهامدين كأنها أم رقوب تحرس طفليها في سكينة الليل .

ولما توارى الجمع وخلا ذلك المكان استسلمت للبكاء والنحيب .



خليل الكافر

- 1 -

كان «الشيخ عبّاس» بين سكان تلك القرية المنزوية في شمال لبنان كالأمير بين الرعية ، وكان منزله القائم بين أكواخهم الحقيرة يشابه الجبّار الواقف بين الأقزام ، وكانت معيشتهم ممتازة عن معيشتهم بميزة السعة عن العوز ، وأخلاقه مختلفة عن أخلاقهم باختلاف القوة عن الضعف .

إن تكلم الشيخ عبّاس بين أولئك الفلاحين حنوا رؤوسهم إيجاباً ، كأن القوى العقلية قد انتدبته ممثلاً لها واتخذت لسانه ترجماناً عنها ، وإن غضب ارتجفوا جزعاً وتبددوا من أمام وجهه ، مثلما تتراكم أوراق الخريف أمام الأرياح ، وإن صفع خد رجل منهم ظل ذلك الرجل جامداً صامتاً كأن الضربة قد أتت من السماء ، فمن الكفر أن يتجاسر ويرفع عينيه ليرى من أنزلها وإن تبسم لرجل آخر قال الجميع : ما أسعده فتى رضي عنه الشيخ عبّاس !

ولم يكن استسلام أولئك المساكين إلى «الشيخ عبّاس» وخوفهم قساوته ، صادرين عن ضعفهم وقوته فقط ، بل كانا عن فقرهم واحتياجهم إليه ، لأن الحقول التي كانوا يحرثونها والأكواخ التي يسكنونها كانت ملكه وقد ورثها عن أبيه وجده مثلما ورثوا الفقر والتعاسة عن آبائهم وجدودهم .

فكانوا يفلحون الأرض ويزرعونها ويحصدونها تحت مراقبته ، ولا يحصلون لقاء أتعابهم وجهادهم إلا على جزء من الغلة لا يكاد ينقذهم من أظافر الجوع ، قد كان أكثرهم يحتاج إلى الخبز قبل انقضاء أيام الشتاء الطويلة ، فيذهب إليه الواحد بعد الآخر ويتضرع أمامه باكيًا مستعطفًا لكي يقرضه دينارًا أو مكيالًا من الحنطة ، فكان الشيخ عباس يجب سؤلهم مسرورًا لعلمه بأنه سيستوفي الدينار دينارين ، ومكيال الحنطة مكيالين عندما تجيء أيام البيادر والموسم . وهكذا كان يبقى هؤلاء التعساء مثقلين بديون الشيخ عباس مكبلين بحاجتهم إليه خائفين غضبه طالين رضاه .

قدم الشتاء بثلوجه وعواصفه ، وخلت الحقول والأودية ، إلا من الغربان الناعبة والأشجار العارية ، فلزم سكان تلك القرية أكواخهم بعد أن أشبعوا أهراء «الشيخ عبّاس» من الغلة وملاؤا آنيته من عصير الكروم وأصبحوا ولا عمل لهم ، يفنون الحياة بجانب المواعد متذكرين مآتي الأجيال الغابرة مرددين على مسامع بعضهم حكايات الأيام والليالي .

انقضى كانون الأول (ديسمبر) ، وقضى العام العجوز متنهّداً أنفاسه الأخيرة في الفضاء الرمادي ، وجاءت الليلة التي يتوج فيها الدهر رأس العام الطفل ويجلسه على عرش الوجود .

توارى النور الضئيل وغمرت الظلمة البطاح والأودية ، وابتدأت الثلوج تنهمر بغزارة ، والعواصف تصفر وتتسارع ملعلعة من أعالي الجبال نحو المنخفضات ، حاملة الثلوج لتخزنها في الوهاد ، فترتعش لهولها الأشجار وتتململ أمامها الأرض ، فمزجت الأرياح بين تساقط من الثلج في ذلك النهار والساقط منها في تلك الليلة ، حتى أصبحت الحقول والطلول والممرات كصفحة واحدة بيضاء يكتب عليها الموت سطوراً مبهمّة ثمّ يمحوها ، وفصل الضباب بين القرى المنتورة عل كتفي الوادي وتوارت الأنوار الضئيلة التي كانت تشعشع في نوافذ البيوت والأكواخ الحقيمة ، وقبض العرب على نفوس الفلاحين ، وانزوت البهائم بقرب المعالف ، واختبأت الكلاب في القراني ، ولم يبق سوى الريح تخطب وتضج على مسامع الكهوف والمغاور ، فيتصاعد صوتها الرهيب من أعماق الوادي تارة ، وطوراً ينقض من أعالي قمم الجبال ، فكأن الطبيعة قد غضبت لموت العام العجوز ، فقامت تأخذ بثأره من الحياة المختبئة في الأكواخ وتحاربها بالبرد القارس والزمهرير الشديد .

ففي هذه الليلة الهائلة ، وتحت هذا الجو الثائر ، كان فتى في الثانية والعشرين من عمره يسير على الطريق المتصاعدة بتدرج من دير قزحياً إلى قرية «الشيخ عباس» ، وقد أيبس البرد مفاصله ، وانتزع الجوع والخوف قواه ، وأخفت الثلوج ثوبه الأسود كأنها تريد أن تكفنه قبل أن تميته ، فكان يخطو إلى الأمام والأرياح تصده وترجعه إلى الوراء ، كأنها أبت أن تراه في منازل الأحياء ، وتتشبث الطريق الوعرة بقدميه فيسقط ثم ينهض ثم يصرخ بأعلى صوته مستغيثاً ، ثم يخرسه البرد فيقف صامتاً مرتجفاً فكأنه بين العناصر المتحاربة كالأمل الضعيف بين اليأس الشديد والحزن العميق ، أو كعصفور مكسور الجناحين سقط في النهر فحمله التيار الغضوب إلى الأعماق .

وظل الشاب سائراً والموت يتبعه حتى خارت قواه وانحطت عزيمته وتجمدت الدماء في عروقه فارتمى على الثلوج ، وصرخ صوتٌ هائلٌ هو بقية الحياة في جسده ، صوت خائف قد رأى خيال الموت وجهاً لوجه ، صوت منازع قانط أتلفته الظلمة وقبضت عليه العاصفة لترمي به إلى الهاوية ، صوت محبة الكيان في فضاء العدم .

في الجهة الشمالية من تلك القرية ، كوخ صغير منفرد بين الحقول تسكنه امرأة تدعى «راحيل» مع ابنتها «مريم» غير المتجاوزة الثامنة عشرة من سنيها ، هذه المرأة هي أرملة سمعان الرامي الذي وجد قتيلاً في البرية منذ خمسة أعوام ولم يعرف قاتله بعد .

كانت «راحيل» مثل جميع الأراامل الفقيرات تعيش بالاجتهاد والعمل مخافة الموت والفناء ، فكانت تخرج أيام الحصاد وتلتقط السنابل المتروكة في الحقل ، وفي أيام الخريف كانت تجمع فضلات الأثمار المنسية في البساتين ، وفي الشتاء كانت تغزل الصوف وتخطط الأثواب لقاء دريهمات قليلة أو مكيال من الذرة ، وكانت جميع أعمالها مقرونة بالثبات والصبر والاعتناء ، أما ابنتها مريم فكانت صبية جميلة هادئة تشاطر والدتها الأتعاب وتساهمها أعمال البيت .

ففي تلك الليلة المخيفة التي وصفناها كانت «راحيل» وابنتها جالستين بقرب موقد قد تغلب البرد على حرارته واكتنف الرماد جمهره ، وفوق رأسيهما سراج ضعيف يبعث أشعته الصفراء الضئيلة إلى قلب الظلمة مثلما تبعث الصلاة أشباح التعزية إلى كبد الفقير الحزين .

انصرف الليل والمرأتان جالستان تسمعان ولولة الأرياح خارجاً ، ومن وقت إلى آخر كانت الصبية تقف وتفتح الكوة الصغيرة وتنظر نحو الفضاء المظلم ثم تعود إلى مكانها مضطربة مرتعبة من غضب العناصر .

في تلك الدقيقة تحركت الصبية فجأة كأنها استيقظت من سبات نوم عميق والتفتت
بوجل نحو أمها وقالت بسرعة : هل سمعت يا أماه؟ هل سمعت صوت صارخ مستغيث ؟
فرفعت الوالدة رأسها وأصغت هنيهة ثم أجابت : لا ، لا أسمع سوى عويل الأرياح يا
ابنتي .

فقالت الصبية : أنا قد سمعت صوتاً أعمق من هزيم الريح ، وأمر من عويل العاصفة .
قالت هذه الكلمات وانتصبت واقفة وفتحت الكوة وأصغت دقيقة ثم قالت : قد سمعت
الصارخ ثانية يا أماه ، فأجابت الأم وقد أسرعرت مرتاعة نحو النافذة : وأنا قد سمعت أيضاً
... تعالي نفتح الباب وننظر ، أوصدي النافذة كي لا تطفئ الريح السراج .
قالت هذا والتفت برداء طويل وفتحت الباب وخرجت بقدم ثابتة وبقيت مريم واقفة في
الباب والهواء يتلاعب بجدايل شعرها .

مشّت «راحيل» بضع خطوات فالحة الثلج بقدميها ثم وقفت ونادت : من الصارخ؟ أين
المستغيث؟ فلم يجبها أحد ، ثم رددت كلماتها هذه ثانية وثالثة ، وإذ لم تسمع غير صراخ
الزوبعة تقدمت إلى الأمام بشجاعة متلفطة إلى كل ناحية حاجبة وجهها من تموجات الريح
العنيفة ، ولم تسر رمية سهم حتى رأت أثر أقدام غارقة في الثلج قد أوشكت الأرياح أن تمحوها
، فاتبعها بسرعة جازع مترقب ، وبعد هنيهة نظرت فرأت أمامها جسداً مطروحاً على الثلج
كرقعة سوداء على ثوب ناصع البياض ، فتقدمت وذرت الثلج عنه ، وأسندت رأسه على
ركبتيها ، ووضعت يدها على صدره ، وإذ شعرت بنبضات قلبه المتهاون ، التفتت نحو الكوخ
وصرخت : هلمي يا مريم ، هلمي إلى معونتي ، فقد وجدته .

فخرجت «مريم» من البيت متبعة أثر أقدم والدتها ، مرتعشة من البرد والخوف ، حتى إذا ما بلغت المكان ورأت الشاب الملقى بلا حراك على الثلج تأوهت وصرخت بلهفة وتوجع ، فقالت الأم وقد وضعت يديها تحت إبطيه : هو حي فلا تخافي ، بل أمسكي بأطراف أثوابه وتعالى نحمله إلى البيت .

حملت المرأتان الفتى والأرياح الشديدة تصدهما والثلوج تتمسك بأقدامهما حتى إذا ما بلغت به الكوخ ألقته بجانب الموقد وأخذت الأم تفرك أعضائه المتجلدة والابنة تجفف بأطراف ثوبها شعره البليل وأصابعه الباردة ، فلم تمر دقائق حتى عادت إليه الحياة فتحرك قليلاً وارتعشت أجفانه وتنهد تنهيدة عميقة بعثت الأمل بنجاته في قلبي المرأتين الشفوقتين ، فقالت مريم بعد أن حلت سيور حذائه المهشم وخلعت عباءته البليلة : انظري يا أماه ، انظري ملابسه فهي شبيهة بأثواب الرهبان ، فالتفتت راحيل وقد وضعت في الموقد غمرًا من القضبان اليابسة وقالت مستغربة : إن الرهبان لا يخرجون من الدير في مثل هذه الليلة المخيفة ، فأى شيء يا ترى جعل هذا المسكين يخاطر بحياته؟

فقالت الصبية مستدركة : ولكن هو أمرد يا أماه وللرهبان لحى كثيفة فنظرت إليه الوالدة وقد انسكبت الرأفة الوالدية من عينيها وقالت متنهدة : جففي قدميه جيدًا يا ابنتي راهبًا كان أم مجرمًا .

وفتحت راحيل الخزانة الخشبية وأخرجت منها جرّة صغيرة مملوءة خمرًا وسكبت منها في إناء من الفخار ثم قالت لابنتها : أسندي رأسه يا مريم لنجرعه قليلاً من الخمر فينتعش وتعود الحرارة إلى جسده .

قربت «راحيل» حافة الطاس إلى شفتي الشاب وجرعته قليلاً ففتح عينيه الكبيرتين ونظر إلى منقذتيه لأول مرة نظر نظرة لطيفة محزنة قد انبعثت مع دموع الشكر ومعرفة الجميل ، نظرة من شعر بملامس الحياة بعد أن كان بين مخالب الموت ، نظرة الأمل بعد اليأس ، ثم ألوى عنقه وخرجت هذه الكلمات من بين شفتيه المرتعشتين : ليبارككما الله .

فقالت «راحيل» وقد وضعت يدها على كتفه : لا تزعج نفسك بالكلام يا أخي ، بل ابق صامتاً حتى تعود إليك القوة .

وقالت «مريم» : اتكئ يا أخي على المسند واقرب قليلاً من الموقد .

فاتكأ الشاب متنهداً ، وبعد دقيقة ملأت راحيل الطاس خمراً وسقته ثانية ، ثم التفتت نحو ابنتها وقالت : ضعي جبته بقرب النار لتجف ، ففعلت مريم ثم جلست تنظر إليه بحنو وشفقة كأنها تريد أن تبث بنظراتها الحرارة والقوة في جسده النحيل .

وأحضرت «راحيل» إذ ذاك رغيفين من الخبز وقصعة مملوءة دبساً وطبقاً عليه بعض الثمار المجففة وجلست بجانبه تطعمه بيدها لقمًا صغيرة مثلما تفعل الأم وطفلها ، حتى إذا اكتفى من الطعام وشعر بشيء من النشاط استوى جالساً على البساط فانعكست أشعة النار الوردية على وجهه المصفر وتلمعت عيناه الحزيتان ثم قال هازئاً رأسه بهدوء : « الرحمة والقساوة تتصارعان في القلب البشري مثلما تتحارب العناصر في فضاء هذه الليلة المظلمة ، ولكن سوف تغلب الرحمة على القساوة لأنها إلهية ، وسوف تمر مخاوف هذه الليلة بمجيء النهار » ، وسكت الشاب دقيقة ثم زاد بصوت منخفض يكاد لا يسمع : يد بشرية دفعتني إلى الهوان ويد بشرية خلصتني ، فما أشد قساوة الإنسان وما أكثر رأفته !

فقال «راحيل» بصوت تمتزج بمقاطعه عاطفة الأمومة بعذوبة الطمأنينة : كيف تجرأت يا أخي وتركت الدير في هذه الليلة التي تخافها الذئاب فتتزوي بالكهوف ، وتهاجم العقبان فتختبئ بين الصخور؟

فأغمض الشاب عينيه كأنه يريد أن يعيد بأجفانه الدموع إلى أعماق قلبه ثم قال : للشعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار ، وأما ابن الإنسان فليس له أن يسند رأسه .

فقال «راحيل» : هكذا قال يسوع الناصري عن نفسه عندما طلب إليه أحد الكتبة أن يتبعه إلى حيث يذهب .

فأجاب الشاب : وهكذا يقول كل من يريد أن يتبع الروح والحق في هذا الجبل المملوء بالكذب والرياء والفساد .

فسكت «راحيل» مفكرة بمعنى كلماته ثم قالت بشيء من التردد : ولكن ففي الدير غرف عديدة رحبة ، وخزائن طافحة بالذهب والفضة ، وأقبية مملوءة بالغلة والخمور ، وزرائب غاصة بالعجول والكبوش المسمنة ، فأني أمر جعلك تترك جميع هذه الأشياء وتخرج في مثل هذه الليلة؟

فقال الشاب متنهداً : قد تركت جميع هذه الأشياء وخرجت كرهاً من الدير .

فقالت «راحيل» : إن الراهب في الدير نظير الجندي في ساحة الحرب يزجره رئيسه فينحني صامتاً ويأمره فيطيع مسرعاً ، وقد سمعت بأن الرجل لا يصير راهباً إلا إذا نزع عنه الإرادة والفكر والميل وكل ما يختص بالنفس ، ولكن الرئيس الصالح لا يطلب من مرؤوسيه فوق طاقتهم ، فكيف يطلب منك رئيس دير قزحياً أن تسلم حياتك إلى العواصف والثلوج؟

فأجاب الشاب : إن الرجل لا يصير راهباً في عرف رئيسه إلا إذا كان مثل آلة عمياء خرساء فاقدة الحس والقوة ، أما أنا فقد خرجت من الدير لأنني لست آلة عمياء بل إنسان يرى ويسمع .

فحدقت إليه «راحيل» ومريم كأنهما قد رأتا في وجهه سرّاً خفياً يريد كتماناً ، وبعد هنيهة قالت الوالدة مستغربة : أخرج الإنسان الذي يرى ويسمع في مثل هذه الليلة التي تعمي العيون وتصم الآذان؟

فتنهّد الشاب وحنى رأسه على صدره وقال بصوت عميق : خرجت مطروداً من الدير .

فقالت «راحيل» بدهشة : مطروداً!!؟

ورددت «مريم» هذه الكلمة متأوهة .

فرفع الشاب رأسه وقد ندم على إظهاره الحقيقة للمراتين ، وخاف أن تتحول رأفتها به إلى استياء واستهجان ، ولكنه نظر فرأى في عينيها أشعة الشفقة متموجة مع محبة الاستطلاع ، فقال بصوت مخنوق : نعم خرجت مطرودًا من الدير لأنني لم أستطع أن أحفر قبري بيدي ، لأن قلبي قد تعب في داخلي من متابعة الكذب والرياء ، لأن نفسي-أبت أن تتنعم بأموال الفقراء والمساكين ، لأن روحي قد امتنعت عن التلذذ بخيرات الشعب المستسلم إلى الغباوة ، خرجت مطرودًا لأن جسدي لم يعد يجد راحة في الغرف الرحبة التي بناها سكان الأكواخ ، لأن جوفي لم يعد يقبل الخبز المعجون بدموع اليتيم والأرملة ، لأن لساني لم يعد يتحرك بالصلاة التي يبيعها الرئيس بأموال المؤمنين البسطاء ، خرجت مطرودًا كالأبرص القذر لأنني رددت على مسامع القسس والرهبان آيات الكتاب الذي جعلهم قسسًا ورهبانًا .

وسكت الشاب وظلت راحيل ومريم ناظرتين إليه مستغربتين كلامه محدقتين إلى وجهه الجميل الحزين متلفتتين بين الآونة والأخرى إلى بعضهما كأنهما تتساءلان بالسكينة عن الأسباب الغريبة التي جاءت به إليهما ، حتى إذا ما نمت محبة الاستقصاء في قلب الوالدة نظرت إليه بانعطاف وسألته قائلة : أين أبوك وأملك يا أخي؟ هل هما حيّان؟

فأجاب الشاب والغصص الموجهة تقطع ألفاظه : ليس لي أب ولا أم ولا أخت ولا مسقط رأس .

فتنهدت «راحيل» متأثرة وحولت مريم وجهه نحو الحائط لتخفي دمعة محرقة استقطرتها الشفقة من أجفانها ، فنظر إليهما الشاب نظرة المغلوب إلى منجده وقد انتعشت نفسه برقة عواطفهما مثلما تنتعش الزهرة النابتة بين الصخور عندما يسكب الصباح قطرات الندى في قلبها ، ثم رفع رأسه وقال : مات أبي وأمّي قبل أن أبلغ السابعة من عمري ! فأخذني كاهن القرية التي ولدت فيها إلى دير قزحيًا ، فسر الرهبان بي وجعلوني راعيًا للبقر ، ولما بلغت الخامسة عشرة ألبسوني هذا الثوب الأسود الخشن وأوقفوني أمام المذبح قائلين : أقسم بالله وقديسيه بأنك قد نذرت الفقر والطاعة والعفة ، فرددت كلامهم قبل أن أفهم مفاد كلامهم ، وقبل أن أدرك معاني الفقر والطاعة والعفاف ، وقبل أن أرى السبيل الضيقة التي سيروني عليها .

كان اسمي «خليلاً» فصار الرهبان منذ ذلك الحين يدعونني «الأخ المبارك» ولكنهم لم يعاملوني قط كأخ لهم ، كانوا يتنعمون باللحوم والمأكّل الشهية ويطعمونني الخبز اليابس والبقول المجففة ، ويتلذذون بالخمور والمشارب الطيبة ويسقونني الماء ممزوجًا بالدموع ، ويضطجعون على الأسرة الناعمة وينيمونني على فراش حجري في غرفة مظلمة باردة بجانب زرائب الخنازير ، فكنت أقول في نفسي- : متى أصير راهبًا يا ترى فأشارك هؤلاء السعداء بغبطتهم ، وأصبح خليفًا بملذاتهم ومسرّاتهم ، فلا تقطع قلبي رائحة الطعام ، ولا تعذب كبدي ألوان الخمور ، ولا ترتعش روحي لصوت الرئيس ؟ ولكن باطلاً كنت أتمنى وأحلم لأنني بقيت أرعى البقر في البريّة ، وأنقل الحجارة الثقيلة على ظهري ، وأحفر التراب بساعدي .

بقيت أفعل كل ذلك لقاء الخبز الدنيء والمأوى الضيق ، لأنني لم أكن أعلم أنه يوجد مكان غير الدير يمكن أن أعيش فيه لأنهم علّموني الكفر بكل شيء إلا معيشتهم ، وسمموا نفسي- بنقيع اليأس والاستسلام ، حتى ظننت أن هذا العالم هو بحر أحزان وشقاء ، وإن الدير هو ميناء الخلاص .

واستوى «خليل» جالسًا وانبسطت ملامحه المنقبضة ونظر كأنه رأى شيئًا جميلًا منتصبًا أمامه في ذلك الكوخ ، أما «راحيل ومريم» فلبثتا صامتتين محدقتين إليه ، وبعد هنيهة عاد فقال : إن السماء التي شئت فأخذت والديّ ونفتني يتيماً إلى الدير ، لم تشأ أن أصرف العمر كله كالأعمى السائر في المعابر الخطرة ولم ترض بأن أكون عبداً تعساً متصاعراً إلى نهاية الحياة ، ففتحت عيني وأذني وأرتني النور مشعشعاً وأسمعتني الحقيقة متكلمة .

فهزت «راحيل» رأسها إذ ذاك وقالت : أوجد نور غير الذي تسكبه الشمس على جميع الناس ؟ وهل بإمكان البشر أن يعرفوا الحقيقة ؟

فأجاب «خليل» قائلاً : النور الحقيقي هو ذاك الذي ينبثق من داخل الإنسان ، ويبين سائر النفس للنفس ، ويجعلها فارحة بالحياة مترنمة باسم الروح ، أما الحقيقة فهي كالنجوم لا تبدو إلا من وراء ظلمة الليل ، الحقيقة هي مثل جميع الأشياء الجميلة في هذا العالم لا تظهر مفاعيلها المستحبة إلا لمن شعر بتأثيرات البطل القاسية ، الحقيقة هي تلك العاطفة الخفية التي تعلمنا أن نفرح بأيامنا ، وتجعلنا نتمنى ذلك الفرح نفسه لجميع الناس .

فقالت «راحيل» : كثار هم الذين يعيشون حسب العاطفة الخفية الكائنة في قلوبهم ، وكثار هم الذين يعتقدون أن هذه العاطفة هي ظلّ الناموس الذي سنّه الله للإنسان ، ولكنهم لا يفرحون البتّة بأيامهم بل يظلّون تعساء حتى الموت .

فأجابها «خليل» قائلاً : باطلة هي الاعتقادات والتعاليم التي تجعل الإنسان تعساً في حياته ، وكذابة هي العواطف التي تقوده إلى اليأس والحزن والشقاء ، لأن واجب الإنسان أن يكون سعيداً على الأرض وأن يعلم سبل السعادة ويكرز باسمها أينما كان ، ومن لا يشاهد ملكوت السموات في هذه الحياة لن يراه في الحياة الآتية ، لأننا لم نجى هذا العالم

كالمنفيين المرذولين ، بل جننا كالأطفال الأغبياء لكي نتعلّم من محاسن الحياة وأسرارها عبادة الروح الكلّي الخالد واستطلاع خفايا نفوسنا .

هذه هي الحقيقة التي عرفتها عندما قرأت تعاليم يسوع الناصري ، وهذا هو النور الذي انبثق من داخلي وأبان لي الدير ومن فيه كهوّة مظلمة تنبعث في أعماقها الأشباح المخفية لتمييتني ، هذا هو السرّ الخفيّ الذي أعلنته البريّة الجميلة لنفسني عندما كنت أجلس جائعًا باكيًا متأوّهًا في ظلّ الأشجار .

ففي يوم وقد سكرت نفسي- من هذه الخمرة السماويّة وقفت بين الرهبان ، إذ كانوا جالسين في حديقة الدير مثلما تربض البهائم المتخومة ، وأخذت أبيتّ لهم أفكارًا وأتلو على مسامعهم آيات الكتاب التي تبين ضلالهم وكفرهم .

قلت لهم : لماذا نصرّف الأيام في هذه الخلوة متمتعين بخيرات الفقراء والمساكين ، مستطيين الخبز المعجون بعرق جبينهم ودموع أجفانهم ، متلذذين بغلة الأرض المسلوّبة منهم ؟ لماذا نعيش في ظلال التواني والكسل ، مبتعدين عن الشعب المحتاج إلى المعرفة حارمين البلاد قوى نفوسنا وعزم سواعدها ؟ إن يسوع الناصري قد بعثكم كالخراف بين الذئاب ، فأيّ تعاليم جعلتكم تصيرون كالذئاب بين الخراف ؟ لماذا تبتعدون عن البشر- وقد خلقكم الله بشرًا ؟ إذا كنتم أفضل من السائرين في موكب الحياة عليكم أن تذهبوا إليهم وتعلموهم ، وإن كانوا أفضل منكم امتزجوا بهم وتعلموا كيف تنذرون الفقر وتعيشون كالأمرء ، وتنذرون الطاعة وتتمردون على الإنجيل ، وتنذرون العفّة وقلوبكم مفعمة بالشهوات ؟ أنتم تتظاهرون بقتل أجسادكم ولكنكم لا تقتلون غير نفوسكم ، وتتظاهرون بالترفع عن العالميات وأنتم أكثر الناس طمعًا ،

وتظاهرون بالتنسك والتقشف وأنتم كالبهائم المشغولة عن المعرفة بطيب المرعى ،
تعالوا نعيد أراضي الدير الواسعة إلى سكّان هذه القرى المحتاجين ، ونرجع إلى جيوبهم
الأموال التي أخذناها . تعالوا نتفرق إلى كلّ ناحية مثلما تتفرق أسراب الطيور ، فنخدم
الشعب الضعيف الذي جعلنا أقوياء ، ونصلح البلاد التي نعيش بخيراتها ، ونعلم هذه
الأمّة التعسة أن تبسم لنور الشمس وتفرح بمواهب السماء ومجد الحياة والحرية ، لأن المتاعب
التي نجدها بين الناس هي أجل وأجل من الراحة التي نستسلم إليها في هذا المكان ، والرأفة
التي نلامس بها قلب القريب هي أسمى من الفضيلة المختبئة في قراني الدير ، وكلمة التعزية
التي نقولها على مسامع الضعيف والمجرم والساقطة هي أشرف من الصلاة الطويلة التي نرددها
في الهيكل .

وسكت «خليل» مسترجعاً أنفاسه ثمّ رفع عينيه نحو راحيل ومريم وقال بصوت هادئ :

كنت أتكلّم بهذه الأشياء وما يشابهها أمام الرهبان وهم سامعون ودلائل الاستغراب
بادية على وجوههم ، كأنهم لم يصدقوا أن فتى مثلي يقف بينهم ويتكلّم متجاسراً بمثل هذا
الكلام حتى إذا ما انتهيت اقترب أحدهم وقال صارفاً أسنانه : أتتجرأ أيّها الضعيف وتلفظ
أمامنا بمثل هذا الكلام؟ واقترب آخر وقال ضاحكاً مستهزئاً : هل تعلمت هذه الحكمة من
البقر والخنازير التي رافقتها كلّ أيام حياتك؟ وجاء آخر وقال متوعداً : سوف ترى ما يحلّ
بك أيّها الخبيث الكافر ، ثمّ تفرقوا عني إلى كلّ ناحية مثلما يبتعد الأصحاء عن الأبرص .

وذهب بعضهم وشكوني إلى الرئيس ، فاستدعاني عند غروب الشمس ، وبعد أن وبّخني بقساوة على مسمع من الرهبان المبتهجين أمر بجلدي فجُلدت بسياط من المرس ، ثمّ حكم بسجني شهرًا كاملاً ، فاقتادني الرهبان مقهقهين فرحين إلى غرفة رطبة مظلمة .

انقضى الشهر وأنا مطروح في ذلك القبر لا أرى النور ولا أشعر بغير دبيب الحشرات ، ولا ألمس سوى التراب ، ولا أعرف نهائية الليل من بدء النهار ، ولا أسمع سوى وطء أقدام أحد الرهبان عندما يجيء ويضع قربي كسرة من الخبز اليابس العطن وطاسًا من الماء الممزوج بالخل ، ولما خرجت من ذلك السجن ورأى الرهبان نحول جسدي واصفرار وجهي ، توهّموا أن ميول نفسي قد ماتت في داخلي ، وأنهم بالجوع والعطش والعذاب قد قتلوا العاطفة التي أحيّاها الله في قلبي .

مرّت الأيام إثر الليالي وأنا أجهد النفس مفكرًا في ساعات انفرادي بما يجعل أولئك الرهبان يرون النور ويسمعون نغمة الحياة ، ولكن باطلاً كنت أفكر وأفكر ، لأن الغشاء الكثيف الذي حاكته الأجيال الطويلة على أبصارهم لا تمزقه الأيام القليلة ، والطينة التي طبّت بها الغباوة آذانهم قد تحجرت ، فلا تزيلها ملامس الأصابع الناعمة .

وبعد سكونة مملوءة بالتنهدات ، رفعت مريم رأسها والتفتت نحو والدتها كأنها تستأذن بالكلام ، ثمّ نظرت بكآبة نحو خليل وسألته قائلة : هل عدت وتكلمت ثانية أمام الرهبان فطرّدوك من الدير في هذه الليلة المخيفة التي تعلم الإنسان أن يكون رؤوفًا ورفيقًا حتى بأعدائه !

فقال الشاب : في هذا المساء عندما تعظم هزل العاصفة وابتدأت العناصر تتجاوب في الفضاء ، جلست منفردًا عن الرهبان المستدفئين حول النار والمشغولين بسرود الحوادث والحكايات المضحكة ، وفتحت الإنجيل متأملًا بتلك الأقوال التي تستميل النفس وتنسيها غضب الطبيعة وقساوة العناصر ، ولما رآني الرهبان بعيدًا عنهم اتخذوا انفرادي سببًا للسخرية بي فجاء بعضهم ووقفوا بقربي وأخذوا يتغامزون ويضحكون ويشيرون نحوي مستهزئين ، فلم أحفل بهم بل أطبقت الكتاب وبقيت ناظرًا من النافذة ، فتململوا لذلك غيظًا ونظروا إليّ شزرًا ، لأن سكوتي قد أيس عواطفهم ، ثم قال أحدهم ساخرًا : ماذا تقرأ أيها المصلح العظيم؟ فلم أرفع عيني نحو المتكلم ، بل فتحت الإنجيل وقرأت منه بصوت عالٍ هذه الآية : وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه : يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي فاصنعوا أثمارًا تليق بالتوبة ولا تبتدئو تقولون في نفوسكم إن لنا إبراهيم أبا لأنني أقول لكم إن الله قادر على أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم ، والآن وقد ضعت الفأس على أصل الشجرة ، فكل شجرة لا تعطي ثمرًا جيدًا تقطع وتلقى في النار ، وسأله الجموع قائلين : فماذا نفعل؟ فأجاب وقال لهم : من له ثوبان فليعط من ليس له ، ومن له طعام فليفعل هكذا .

عندما قرأت هذه الكلمات التي قالها يوحنا المعمدان ، سكت الرهبان دقيقة كأن يدًا خفيّة قد قبضت على أرواحهم ، ولكنهم عادوا وقهقهوا ضاحكين ثمّ قال أحدهم : قد قرأنا هذا الكلام مرات عديدة ولسنا نحتاج لرعاة البقر أن يرددوه على مسامعنا ، فقلت : لو كنتم تقرأون هذه الآيات وتفهمونها لما كان سكان هذه القرى المغمورة بالثلوج يتأفّفون بردًا ويتضورون جوعًا وأنتم ههنا تتمتعون بخيراتهم وتشربون عصير كرومهم وتأكلون لحوم مواشيهم .

لم تخرج هذه الألفاظ من بين شفّتيّ حتى صفعني أحد الرهبان على وجهي كأني لم أتكلّم بغير الحماقة ، ثمّ رفسني آخر برجله ، وآخر انتزع الكتاب من يدي ، وآخر نادى الرئيس فجاء مسرعًا ، وإذ أخبروه بما جرى تعالت قامته وزوى ما بين عينيه وارتجف غضبًا وصرخ بأعلى صوته : اقبضوا على هذا الشرير المتمرد ، وجروه بعيدًا عن الدير ، ودعوا العناصر الغضوب تعلمه الطاعة ، أخرجوه إلى الظلمة الباردة لتفعل به الطبيعة مشيئة الله ، ثمّ أغسلوا أكفكم خوفًا من سموم الكفر المتعلقة بأثوابه ، وإن عاد متضرعًا متظاهرًا بالتوبة لا تفتحوا له الأبواب ، لأن الأفعى إذا سجدت في القفص لا تنقلب حمامة ، والعليقة إذا غرست في الكرم لا تثمر تينًا .

حينئذٍ قبض الرهبان عليّ وجروني بعنف إلى خارج الدير وعادوا ضاحكين ، وقبل أن يوصدوا الأبواب سمعت أحدهم يقول ساخرًا : كنت بالأمس ملكًا وكانت رعيتك البقر والخنازير ، وقد خلعتك اليوم أيها الصالح لأنك أسأت السياسة ، فاذهب الآن وكن ملكًا على الذئب الجائعة والغربان المتطائرة ، وعلمها كيف يجب أن تعيش في كهوفها وأوجرتها .

وتنهّد خليل تنهيدة عميقة ، ثمّ حول وجهه ونظر إلى النار المتأجّجة في الموقد ، وبصوت جارح بحلاوته قال : هكذا طردت من الدير ، وهكذا سلمني الرهبان إلى يد الموت ، فسرت والضباب يحجب الطريق عن بصري ، والرياح الشديدة تمزق أثوابي ، والثلوج المتراكمة تتمسك بركبتي ، حتى وهنت قواي فسقطت مستغيثاً صارخاً صراخ يائس شعر بأنه لا يوجد من يسمعه سوى الموت المخيف والأودية المظلمة ، ولكن من وراء الثلوج والأرياح ، من وراء الظلمة والغيوم ، من وراء الأثير والكواكب ومن وراء كلّ شيء قوة هي كلّ معرفة وكلّ رحمة قد سمعت صراخي وندائي فلم تشأ أن أموت قبل أن أتعلم ما بقي من سرائر الحياة ، فبعثتكم إليّ لكي تسترجعاني من أعماق الهاوية والعدم .

وسكت الشاب والمرأتان تنظران إليه بانعطاف وإعجاب وشفقة كأن نفسيهما قد فهمتا خفايا نفسه واشتركتا معاً بالشعور والمعرفة ، وبعد هنيهة مدّت راحيل يدها قسر- إرادتها ولمست يده بلطف وقالت والدموع تتلمع في عينيها : إن من تختاره السماء نصيراً للحق لا تفنيه المظالم ولا تميته الثلوج والعواصف .

وهمست مريم قائلة : إن العواصف والثلوج تفني الزهور ولكنّها لا تميته بذورها .

فقال خليل وقد أنارت التعزية وجهه المصفرّ مثلما تنير أشعة الفجر خطوط الأفق : إن كنتما لا تحسباني متمرّداً وكافراً كما يحسبني الرهبان يكون الاضطهاد الذي لقيته في الدير رمزاً للشدة التي تعانيها الأمة قبل بلوغها المعرفة ، وتكون هذه الليلة التي كادت تميّني شبيهة بالثورات التي تتقدّم الحرية والمساواة ، لأن من قلب المرأة الحساس تنبثق سعادة البشر ، ومن عواطف نفسها الشريف تتولّد عواطف نفوسهم .

قال هذا واتكأ على الوسادة ، فلم تشأ المرأتان متابعة الحديث لأنهما عرفتا من نظراته أن النعاس المتولّد من الراحة والاستدفاء بعد عناء المسير قد راود عينيه .

ولم تمض دقائق حتى أغمض «خليل» أجفانه ونام كالطفل المستأن على ذراعي أمّه ، فقامت «راحيل» بهدوء وتبعته «مريم» وجلستا على فراشهما تنظران إليه كأن في وجهه الذابل جاذباً يستميل رويهما ويحيط بقلبيهما ، ثمّ همست الوالدة كأنها تتكلم مع نفسها وقالت : في عينيه المطبقتين قوة غريبة تتكلم بالسكينة وتنبه ميول النفس .

وقالت الابنة : يداها يا أمّاه مثل يدي صورة يسوع الموجودة في الكنيسة .

فهمست الوالدة : على وجهه الكئيب ظاهرة رقّة المرأة وقوّة الرجل .

وحملت أجنحة الكرى روي المرأتين إلى عالم الأحلام ، وخمدت النار في الموقد وتحولت إلى رماد .

ثم جف زيت السراج فشخّ نوره ببطء ثمّ انطفأ ، وظلت العاصفة تضجّ خارجاً والجو القاتم ينثر رقع الثلوج ، والأرياح العنيفة تقذفها يميناً وشمالاً .

مضى أسبوعان على تلك الليلة والفضاء المتلبد بالغيوم يسكن حيناً ثم يثور متهيجاً ،
غامراً الأودية بالضباب ، مكفناً الطلول بالثلوج ، وقد همّ خليل ثلاث مرات أن يتابع
مسيره نحو الساحل فكانت راحيل تصده بلطف وانعطاف قائلة :

لا تسلم حياتك ثانية إلى العناصر العمياء ، بل ابق ههنا يا أخي ، فالخبز الذي يشبع اثنين
يكفي ثلاثة ، والنار في هذا الموقد تظل بعد ذهابك مثلما كانت قبله ، نحن فقراء يا أخي
ولكننا نحيا أمام وجه الشمس مثل جميع الناس ، لأن الله يعطينا خبزنا كفاف يومنا .

أمّا «مريم» فكانت ترجوه بنظراتها اللطيفة وتستعطفه بتنهيدها الهادئة لكي يمتنع عن
الذهاب ، لأنها منذ دخوله بين حي وميت ذلك البيت الحقيق ، شعرت بوجود قوة علوية في
نفسه تبعث الحياة والشعاع إلى قلبها ، وتنبه عواطف جديدة مستحبة في قدس من أقداًس
روحها ، لأنها شعرت لأول مرة في حياتها بتلك الحاسة الغريبة التي تجعل قلب الصبية مثل
وردة بيضاء تشرب قطرات الندى وتسكب دقائق العطر .

لا يوجد في داخل الإنسان عاطفة أنقى وأعذب من تلك العاطفة الخفية التي تستفيق على
حين غفلة في قلب الصبية وتملأ خلايا صدرها بالأنغام السحرية ، وتجعل أيامها شبيهة
بأحلام الشعراء ولياليها مثل الأنبياء ، ولا يوجد بين أسرار الطبيعة سرّ أقوى وأجمل من
ذلك الليل الذي يحول سكونة نفس العذراء إلى حراك مستمر يميز بعزمه ذكرى الأيام
الغابرة ، ويحيي بحلاوته الآمال بالأيام الآتية .

والصبية اللبنانية تمتاز عن صبايا الأمم بقوة عواطفها ورقة إحساسها ، لأن التربية البسيطة التي تحرم عاقلتها من النمو وتوقف مداركها عن الارتقاء ، تحوّل نفسها إلى استفسار ميول نفسها وتشعل قلبها باستطلاع خفايا قلبها ، الصبية اللبنانية مثل ينبوع يخرج من قلب الأرض بين المنخفضات ، فلا يجد ممراً ليسير به نهراً نحو البحر ، فينقلب بحيرة هادئة تنعكس على وجهها أشعة القمر والنجوم .

وشعر «خليل» بتموجات روح مريم حول روحه ، وعرف أن الشعلة المقدسة التي أحاطت بقلبه قد لامست قلبها ، ففرح لأول وهلة فرح طفل ضائع وجد أمه ، ولكنه عاد فلام نفسه على تسرعها وانشغافها ظناً منه بأن هذا التفاهم الروحي سيضمحل كالضباب عندما تفصله الأيام عن تلك القرية ، فكان يناجي نفسه قائلاً : ما هذه الأسرار الخفية التي تتلاعب بنا ونحن غافلون؟ وما هذه النواميس التي تسيرنا تارة على سبل وعرة ففسير منقادين ، وتوقفنا طوراً أمام وجه الشمس فنقف فرحين ، وتبلغنا مرة قمة الجبل فنبتسم متهللين وتهبط بنا أخرى إلى أعماق الوادي فنصرخ متوجعين؟ ما هذه الحياة التي تعانقنا يوماً كالحيب ويوماً تصفنا كالعدو؟ ألم أكن بالأمس مكروهاً مضطهداً بين رهبان الدير؟ ألم أقبل العذاب والسخرية من أجل هذه الحقيقة التي أيقظتها السماء في صدري؟ ألم أقل للرهبان إن السعادة هي مشيئة الله في الإنسان؟

إذاً ما هذا الخوف ، ولماذا أغمض عيني وأحوّل وجهي عن النور المنبعث من عيني هذه الصبية؟ أنا مطرود وهي فقيرة ، ولكن أبا الخبز وحده يحيا الإنسان؟ أوليست الحياة ديناً ووفاء؟ أولسنا بين العوز واليسر كالأشجار بين الشتاء والصيف؟ ولكن ماذا تقول راحيل إذا علمت أن روح الفتى المطرود من الدير وروح ابنتها الوحيدة قد تفاهمتا في السكينة واقتربتا من دائرة النور الأعلى؟ وماذا تفعل يا ترى إذا ما درت بأن الشاب الذي خلصته من مخالب الموت يريد أن يكون رفيقاً لابنتها؟ وماذا يقول سكّان هذه القرية البسطاء إذا ما علموا أن فتى ربي في الدير وخرج مطروداً ، جاء قريبهم لكي يعيش بقرب صبيّة جميلة؟ أفلا يغلقون آذانهم إذا ما قلت لهم إن الذي يغادر الدير ليعيش بينهم يكون كالطائر الذي يخرج من ظلمة القفص إلى النور والحرية؟ وماذا يقول الشيخ عبّاس العائش بين هؤلاء الفلاحين المساكين كالأمير بين العبيد ، إذا ما سمع حكايتي؟ وماذا يفعل كاهن القرية إذا ما رددوا على مسمعه تلك الأقوال التي سببت طردي من الدير؟

كان «خليل» يناجي نفسه وهو جالس بقرب الموقد يتأمل ألسنة النار الشبيهة بعواطفه ، أما مريم فكانت تحتلس النظرات إليه وتقرأ أحلامه في ملامح وجهه ، وتسمع صدى أفكاره خارجاً من صدره ، وتشعر بأخيلة هواجسه متمائلة حول قلبه .

ففي عشية يوم ، وقد وقف خليل بقرب الكوة المطلّة نحو الوادي ، حيث الأشجار والصخور الملتحفة بالثلوج التحاف الأموات بالأكفان ، جاءت مريم ووقفت بجانبه ونظرت من الكوة إلى الفضاء ، فالتفت نحوها ، وإذا التقت عيناه بعينيها تنهد تنهيدة محرقة ثمّ حوّل وجهه وأغمض أجفانه كأن نفسه قد تركته وسبحت ساعية في أعماق اللانهاية باحثة عن كلمة تقولها .

وبعد هنيهة تشجعت مريم وسألته قائلة : إلى أي مكان تذهب عندما تذوب الثلوج وتنفتح الطرقات؟

فأجابها وقد فتح عينيه الكبيرتين وحدّق إلى الأفق البعيد : سوف أتبع الطريق إلى حيث لا أعلم .

فارتعشت روح «مريم» ثم قالت متنهدة : لماذا لا تسكن في هذه القرية وتبقى قريباً منّا؟ أليست الحياة ههنا أفضل من الغربة البعيدة؟

فأجابها وقد اضطربت أحشاؤه لرقّة كلماتها ونغمة صوتها : إن سكّان هذه القرية لا يقبلون المطرود من الدير جاراً لهم ولا يسمحون له أن يتنفس الهواء الذي يحْيِيهم ، لأنّهم يحسبون عدوّ الرهبان كافراً بالله وقديسيه .

فتأوّهت «مريم» ولبثت ساكّنة ، لأن الحقيقة الجارحة قد أخرستها ، حينئذٍ أسند خليل رأسه بيده وقال : إن سكّان هذه القرية يا مريم قد تعلموا من الرهبان والكّهّان بغض كلّ من يفكر لذاته ، فصاروا يقلّدونهم ويتبعون مثلهم عن جميع من يريدون أن يصرفوا حياتهم فاحصين لا تابعين ، فإذا بقيت في هذه القرية وقلت لسكّانها : تعالوا يا إخوتي نعبد ونصلّي حسب مشيئة نفوسنا ، لا مثلما يريد الرهبان والقسّس ، لأن الله لا يريد أن يكون معبوداً من الجاهل الذي يقلّد غيره ، يقولون : هذا ملحد يعاند السلطة التي وضعها الله في أيدي كّهّانه ، وإن قلت لهم : اصغوا يا إخوتي واسمعوا صوت قلوبكم ، واملوا إرادة الروح الكائنة في أعماقكم ، يقولون : هذا شرير يريدنا أن نكفر بالوسائط التي أقامها الله بين السماء والأرض .

ونظر «خليل» إذ ذاك إلى عيني «مريم» ، وبصوت يحاكي رنين الأوتار الفضيّة قال : ولكن في هذه القرية يا مريم قوّة سحريةً تمتلكني وتتشبث بنفسي- ، قوة علوية قد أنستني اضطهاد الرهبان وحببت إليّ قساوتهم ، في هذه القرية لقيت الموت وجهاً لوجه ، وفيها عانقت روحي روح الله ، في هذه القرية زهرة نابذة بين الأشواك ، يستميل جمالها نفسي ويملأ عطرها كبدي ، فهل أترك هذه الزهرة وأذهب مبشراً بالمبادئ التي أبعدتني عن الدير ، أم أبقى بجانبها وأحضر لأفكاري وأحلامي قبراً بين الأشواك المحيطة بها؟ ماذا أفعل يا مريم ؟

سمعت «مريم» هذه الكلمات فاهتزّت قامتها مثلما ترتعش الزنبقة أمام نسيم السحر ، وفاضت أشعة قلبها من مقلتيها ، فقالت والحياء يغالب لسانها : كلانا بين يدي قوّة خفيّة عادلة رحوم ، فلندعها تفعل ما تشاء بنا .

منذ تلك الدقيقة تمازجت عواطف خليل بعواطف مريم ، وصارت نفسيهما شعلة واحدة متقدة ينبعث منها النور ويتضوع حولها البخور .

منذ ابتداء الدهر إلى أيامنا هذه ، والفئة المتمسكة بالشرف الموروث تتحالف وتتفق مع الكهان ورؤساء الأديان على الشعب ، هي علة مزمنة قابضة على عنق الجامعة البشرية ، ولن تزول إلا بزوال الغباوة من هذا العالم عندما يصير عقل كل رجل ملكاً ويصبح قلب كل امرأة كاهناً .

ابن الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفلاحين الفقراء الضعفاء ، والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسلمين ، الأمير يقبض على ذراعي الفلاح المسكين والكاهن يمد يده إلى جيبه ، الحاكم ينظر إلى أبناء الحقول عابساً والمطران يلتفت نحوهم مبتسماً ، وبين عبوسة النمر وابتسامة الذئب يفنى القطيع .

الحاكم يدعي تمثيل الشريعة والكاهن يدعي تمثيل الدين ، وبين الاثنين تفنى الأجساد وتضمحل الأرواح .

وفي لبنان - ذلك الجبل الغني بنور الشمس الفقير إلى نور المعرفة - قد اتحد الشريف والكاهن على الفقير الضعيف الذي يحرق الأرض ويستغلها كما يحمي جسده من سيف الأول ولعنة الثاني .

ابن الشرف الموروث يقف في لبنان بجانب قصره ويصرخ باللبنانيين قائلاً : قد أقامني السلطان ولياً على أجسادكم ، والكاهن ينتصب أمام المذبح هاتفاً : قد أقامني الله وصياً على أرواحكم ، أما اللبنانيون فيظلون صامتين لأن القلوب المغلفة بالتراب لا تنكسر ، لأن الأموات لا يكون .

«فالشيخ عبّاس» الذي كان في تلك القرية وليّاً وحاكماً وأميراً ، كان محبّاً لرهبان الدير ، محافظاً على تعاليمهم وتقاليدهم ، لأنهم كانوا يشاركونه بقتل المعرفة وإحياء الطاعة في نفوس حارثي حقوله وكرومه .

ففي ذلك المساء ، بينما كان «خليل ومريم» يقتربان من عرش الحبّ ، و«راحيل» تنظر إليهما بانعطاف مستطلعة خفايا نفسيهما ، ذهب «الخوري إلياس» كاهن القرية وأخبر «الشيخ عبّاس» أن الرهبان الأتقياء قد طردوا من الدير فتى متمرداً شريراً ، وإن الملحد الكافر قد جاء القرية منذ أسبوعين ، وهو الآن ساكن في بيت «راحيل» أرملة «سمعان الرامي» .

ولم يكتف «الخوري إلياس» بإبلاغ الشيخ هذا الخبر ، بل زاد قائلاً : إن الشيطان الذي يُطرد من الدير لا ينقلب ملاكاً في هذه القرية ، والتينة التي يقطعها رب الحقل ويلقيها في النار لا تعطي ثماراً جيدة وهي في الموقد ، فإن كنا نريد أن تبقى هذه القرية سالمة من جراثيم العلل الخبيثة ، علينا أن نطرد هذا الشاب من منازلنا وحقولنا مثلما طرده الرهبان من الدير .

فسأله «الشيخ عبّاس» قائلاً : وكيف عرفت أن هذا الشاب سيكون في هذه القرية كالعلة الخبيثة؟ أليس أفضل أن نبقيه عندنا ونجعله ناطوراً للكروم أو راعياً للبقرة؟ نحن بحاجة ماسة إلى العمّال ، فإذا جلبت لنا الطريق فتى قوي الساعدين نسترضيه ولا نتركه .

فابتسم الكاهن تلك الابتسامة الشبيهة بملامس الأفعى ثم قال ممشطاً لحيته الكثيفة بأصابعه : لو كان هذا الشاب صالحاً للعمل لما طرده الرهبان ، لأن أراضي الدير واسعة وقطعانه لا تحصى ، وقد أخبرني مكاري الدير الذي بات عندي ليلة أمس ، أن هذا الشاب كان يردّد على مسامع الرهبان آيات الكفر مقرونة بألفاظ ثورية تدل على طيشه وخبائثه ، فقد تجاسر مرات عديدة وخطب فيهم قائلاً : أرجعوا حقول الدير وكرومه وأمواله إلى سكّان هذه القرى الفقراء ، وتفرقوا إلى كلّ ناحية ، وذاك خير من الصلاة والعبادة .

وأخبرني المكاري أيضاً بأن قساوة التوبيخ وأوجاع الجلد بالسياط وظلمة السجن ، لم تعد لهذا الكافر صوابه ، بل كانت تغذي الشيطان القابض على نفسه مثلما تكثر أوساخ المزابيل عدد الحشرات .

فانتصب «الشيخ عبّاس» على قدميه ، ونظير نمر يتراجع قليلاً إلى الوراء قبيل الوثوب بقى ساكناً هنيهة يصرّ أسنانه ويتنفّض غيظاً ، ثم مشى نحو باب القاعة ونادى خدامه بصوت عالٍ ، فجاء ثلاثة منهم ، ووقفوا أمامه مستطلعين أمره ، فخاطبهم قائلاً : في بيت «راحيل» الأرملة شاب مجرم يرتدي أثواب راهب ، فاذهبوا الآن وقودوه إليّ مكتوفاً ، وإن قاومتكم تلك المرأة اقبضوا عليها وجروها على الثلج بجداول شعرها ، لأن من يساعد الشرير يكون شريكاً .

فحنى الخدّام رؤوسهم وخرجوا مسرعين ليتمموا مشيئة سيدهم ، وبقي الشيخ عبّاس والكاهن يتحدثان عما يجب أن يفعله بالشاب المطرود وراحيل الأرملة .

توارى النهار وقدم الليل ناشرًا أخيلته بين تلك الأكواخ المكتنفة بالثلوج وظهرت النجوم في ذلك الفضاء المظلم البارد ظهور الأمل بالخلود من وراء أوجاع النزاع والموت ، فأوصد الفلاحون الأبواب والنوافذ وأشعلوا السرج ، وجلسوا يصطلون بقرب المواقد غير حافلين بأشباح الليل السارة حول بيوتهم .

في تلك الساعة بينما كانت «راحيل» وابنتها «مريم» و«خليل» جالسين حول مائدة خشبية يتناولون العشاء ، طرق الباب ودخل عليهم خدام «الشيخ عبّاس» ، فالتفتت راحيل مذعورة وشهقت مريم مرتاعة ، أمّا «خليل» فلبث هادئًا كأن نفسه الكبيرة قد تنبأت وعلمت بمجيء هؤلاء الرجال قبيل مجيئهم .

فاقترب أحد الخدام وألقى يده بعنف على كتف خليل وقال بصوت أجش : أأنت أنت الشاب المطرود من الدير؟ فأجابه خليل ببطء : أنا هو فماذا تريدون؟

فقال الرجل : نريد أن نسير بك مكتوفًا إلى منزل «الشيخ عبّاس» ، وإن أبدت ممانعة نجرّك على الثلج كالأخروف المذبوح .

فانتصبت «راحيل» وقد اصفر وجهها وتجمعت جبهتها وقالت بصوت مرتجف : أي ذنب أتاه أمام «الشيخ عبّاس» ، ولماذا تريدون جرّه مكتوفًا؟

وقالت مريم ونعمة الرجاء والاستعطاف تمازج صوتها : هو فرد وأنتم ثلاثة ، فمن الجبانة أن تتحالفوا على إذلاله وتعذيبه .

فصرخ الخادم وقد حمي غضبه : أوجد في هذه القرية امرأة تعارض مشيئة «الشيخ عباس؟» قال هذا وانتشل من وسطه حبلاً متيناً وهمّ ليوثق به كتفي «خليل» ، فوقف الشاب ولم تتغير ملامحه ، بل ظل رأسه مرفوعاً كالبرج أمام الزوبعة ، وسالت على شفثيه ابتسامة محزنة ثم قال : أنا أشفق عليكم أيها الرجال ، لأنكم آلة قوية عمياء في يد مبصر- ضعيف يظلمكم ويسحق الضعفاء بسواعدكم ، أنتم عبيد الغباوة والغباوة هي أشد اسوداداً من بشرة الزنوج ، وأكثر استسلاماً للحيث والقساوة ، كنت بالأمس مثلكم أيها الرجال وغداً تصيرون مثلي ، أما الآن فبيننا هوة عميقة مظلمة تمتص ندائي وتحجب حقيقتي عنكم فلا تسمعون ولا تبصرون ، ها أنذا فشدوا ساعدي وافعلوا بي ما شئتم .

سمع الرجال هذا الكلام ، فجمدت عيونهم واقشعرت أبدانهم وبهتوا بالشاب هنيهة كأن عذوبة صوته قد انتزعت الحركة من أجسادهم ، وأيقظت الميولة العلوية الهاجعة في أعماق قلوبهم ، ولكنهم عادوا فانتبهوا كأن صدى صوت الشيخ عباس قد تملل في مسامعهم ، وذكرهم بالمهمة التي بعثهم من أجلها ، فتقدموا وأوثقوا ساعدي الشاب وخرجوا به ساكتين شاعرين بشيء من الألم بين تلايف ضيائهم ، فاتبعتهم راحيل ومريم ، ونظير بنات أورشليم عندما اتبعن يسوع إلى الجلجلة ، سارتا خلف خليل نحو منزل الشيخ عباس .

إن الأخبار ، كبيرة كانت أم تافهة ، تنتقل بسرعة الفكر بين الفلاحين في القرى الصغيرة ، لأن بعدهم عن مشاغل الاجتماع المتتابة يجعلهم ينصرفون بكليتهم إلى استقصاء ما يحدث في محيطهم المحدود ، وفي أيام الشتاء عندما تكون الحقول والبساتين راقدة تحت لحف الثلوج ، وتنزوي الحياة خائفة مستدفئة حول المواقد يصير القرويون أشد رغبة وأكثر ميلاً إلى استطلاع الأخبار لكي يملأوا بتأثيراتها أيامهم الفارغة ، ويصرّفوا باستفسارهم ليالهم الباردة .

وهكذا لم يقبض خدام «الشيخ عبّاس» على خليل في تلك الليلة حتى انتشر الخبر كالعدوى بين سكان تلك القرية ، وأثارت محبة الاستفهام نفوسهم ، فتركوا أكواخهم وتراكضوا مسرعين من كلّ ناحية كالجنود المتفرقين ، فلم يبلغ الشاب المكتوف منزل الشيخ حتى اجتمع في تلك الدار الواسعة ، الرجال والنساء والصبيان ، وكلهم يمدون أعناقهم بتشوق ليحظوا بنظرة من الكافر المطرود من الدير ، ومن راحيل الأرملة وابنتها مريم اللتين شاركتا الأرواح الشريرة في بث السموم والعلل الجهنمية في فضاء قريتهم .

جلس «الشيخ عبّاس» على مقعد عالٍ ، وتربع بجانبه «الخورى إلياس» ، ووقف الفلاحون والخدام مترقبين محدقين إلى الفتى المكتوف الواقف بينهم برأس مرفوع وقوف الطود بين المنخفضات ، أما راحيل ومريم فكانتا واقفتين خلفه والخوف يراود قلبيهما ، ونظرات القوم القاسية تعذب نفسيهما ، ولكن ماذا يفعل الخوف في عواطف امرأة رأت الحق فاتبعته؟ وماذا تفعل النظرات القاسية في فؤاد صبية سمعت نداء الحبّ فاستيقظت؟

ونظر «الشيخ عباس» إذ ذاك نحو الشاب ، وبصوت يشابه ضجيج الأموات سأله قائلاً :
ما اسمك أيها الرجل ؟

فأجابه : اسمي خليل .

فقال الشيخ : من هم أهلك وذووك وأين مسقط رأسك ؟

فالتفت «خليل» نحو الفلاحين الناظرين إليه بكره واشمئزاز وقال : الفقراء والمساكين
المظلومون هم أهلي وعشيرتي ، وهذه البلاد الواسعة هي مسقط رأسي .

فابتسم «الشيخ عباس» مستهزئاً ثم قال : إن الذين تنتسب إليهم يطالبون معاقبتك ،
والبلاد التي تدعيها وطنك تأبى أن تكون من سكانها .

فقال «خليل» وقد اضطربت أحشائه : إن الشعوب الجاهلة تقبض على أشرف أبنائها
وتسلمهم إلى قساوة العتاة والظالمين ، والبلاد المغمورة بالذل والهوان تضطهد محبيها ومخلصيها
، ولكن أترك الابن الصالح والدته إذا كانت مريضة ، وينكر الأخ الرؤوف أخاه إذا كان
تعباً ؟

إن هؤلاء المساكين الذين أسلموني إليك مكتوفاً اليوم هم الذين أسلموك رقابهم بالأمس
والذين أوقفوني مهاناً أمامك هم الذين يزرعون حبّات قلوبهم في حقولك ، ويهرقون دماء
أجسادهم على قدميك ، وهذه الأرض التي تأبى أن أكون من سكانها هي الأرض التي لا
تفغر فاهها وتبتلع الطغاة والطامعين .

فقهه «الشيخ عباس» ضاحكًا كأنه يريد أن يغرق بضحكه القبيح روح الشاب ويوقفها عن المسير إلى أرواح السامعين البسطاء ، ثم قال : أو لم تكن راعيًا لثيران الدير أيها الشاب الوقح ؟ فلماذا تركت رعيتك وخرجت مطرودًا؟ هل ظننت أن الشعب يكون أكثر رافة بالمجاذيب الملحد من الرهبان الأتقياء؟

فأجابه «خليل» : كنت راعيًا ولم أكن جزّارًا ، كنت أقود العجول إلى المروج الخضراء والمراعي الخصبة ، ولم أسر بها قط إلى الطلول الجرداء ، كنت أوردتها الينابيع العذبة وأبعدها عن المستنقعات الفاسدة ، كنت أعيدها في المساء إلى الحظيرة ولم أتركها في الوادي فريسة للذئاب والضواري الخاطفة .

هكذا كنت أفعل بالبهايم ، ولو فعلت أنت مثلي بهذا القطيع المهزول الرابض الآن حولنا لما كنت تسكن هذا القصر الرفيع وتتركه يبيد جوعًا في الأكواخ المظلمة ، ولو كنت ترحم أبناء الله المخلصين مثلما كنت أرحم عجول الدير لما كنت جالسًا الآن على هذا المقعد الحريري وهم واقفون أمامك وقوف القبضان العارية أمام ريح الشمال .

فتحرك «الشيخ عباس» منزعجًا ، وتلمعت على جبهته قطرة عرق باردة وتبدل ضحكه بالغضب ، ولكنه عاد فامتلك نفسه كيلا يظهر الاهتمام والاكتراث أمام رجاله وتابعيه ، ثم قال مشيرًا بيده : لم نأت بك مكتوفًا أيها الكافر لنسمع هذيانك ، بل أحضرناك لكي نحاكمك كمجرم شرير ، فاعلم إذا أنك واقف الآن أمام سيد هذه القرية وممثل إرادة الأمير أمين الشهابي أيده الله ، وأمام «الخوري إلياس» ممثل الكنيسة المقدسة التي كفرت بها ، فدافع إذا عن نفسك مما اتهمت به ، أو فاركع مسترحمًا نادمًا أمامنا وأمام هذا الجمع الساخر بك ، فنغفر لك ونجعلك راعيًا للبقر مثلما كنت في الدير .

فأجاب الشاب بهدوء : إن المجرم لا يحاكمه المجرمون ، والكافر الشرير لا يدافع عن نفسه أمام الخطاة .

قال هذه الكلمات والتفت نحو الجمع المزدحم في تلك القاعة الواسعة ، وبصوت جهوري يشابه رنين الأجراس الفضية ناداهم قائلاً : أيها الإخوة ، إن الرجل الذي أقامه خضوعكم واستسلامكم سيداً على حقولكم قد أحضرني مكتوفاً ليحاكمني أمامكم في هذا القصر المبني فوق بقايا آبائكم وجدودكم ، والرجل الذي جعله إيمانكم كاهناً في كنيستكم قد جاءني ليدينني ، ويساعد على تعذيبي وإذلاي ، أما أنتم فقد تراكضتم مسرعين من كل ناحية لكي تنظروني متألماً وتسمعوني مستغيثاً مسترحماً ، قد تركتم جوانب المواقد الدافئة لتشاهدوا ابنكم وأحاكم مكتوفاً مهاناً ، قد أسرتم لتروا الفريسة المتوجعة بين مخالف الكواسر ، قد جئتم لتنظروا المجرم الكافر واقفاً أمام القضاة ، أنا هو المجرم ، أنا هو الكافر الذي طُرد من الدير فحملته العاصفة إلى قريبتكم ، أنا هو ذلك الشرير فاسمعوا احتجاجي ، ولا تكونوا مشفقين بل كونوا عادلين ، لأن الشفقة تجوز على المجرمين الضعفاء ، أما العدل فهو كل ما يطلبه الأبرياء .

قد اخترتكم قضاتي لأن إرادة الشعب هي مشيئة الله ، فأيقظوا قلوبكم واسمعوني جيداً ثم احكموا عليّ بما توحيه ضمائركم ، قد قيل لكم إني رجل كافر شرير ، ولكنكم لم تعرفوا ما هي جريمتي ، وقد رأيتُموني مكتوفاً كاللص القاتل ولم تسمعوا بعد ذنوبي ، لأن حقيقة الجرائم والذنوب في هذه البلاد تظل مستترة وراء الذباب ، أما العقاب فيظهر للناس ظهور أسياف البرق في ظلمة الليل .

جريمتي أيها الرجال هي إدراكي تعاستكم وشعوري بثقل قيودكم ، وآثامي أيتها النساء هي شفقتي عليكن وعلى أطفالكن الذين يمتصون الحياة من صدوركن ممزوجة بلهاث الموت .

أنا واحد منكم أيها الجمع ، وقد عاش آبائي وجدودي بين هذه الأودية التي تستفرغ قواكم ، وماتوا تحت هذا النير الذي يلوي أعناقكم ، أنا أو من بالله الذي يسمع نداء نفوسكم المتوجعة ويرى صدوركم المقروعة ، وأو من بالكتاب الذي يجعلني ويجعلكم إخوة متساوين أمام وجه الشمس ، وأو من بالتعاليم التي تحررني وتحرركم من عبودية البشر ، وتوقفنا جميعاً بغير قيود على الأرض موطئ أقدام الله .

كنت في الدير راعياً للبقر ، ولكن انفرادي مع البهائم الخرساء في البرية الساكنة لم يعمّني عن المأساة الأليمة التي تمثلونها كرهاً في الحقول ، ولم يصم أذني عن صراخ اليأس المتصاعد من قراني الأكواخ ، قد نظرت فرأيتني في الدير ورأيتكم في الحقول كقطع من النعاج سائر وراء ذئب خاطف إلى وكره ، فوقفت في منتصف الطريق وصرخت مستغيثاً ، فهجم الذئب ونهشني بأنيابه المحددة ، ثم احتال عليّ وأبعدني كيلا يثير صراخي روح القطيع فيتمرد ويتفرق مدعوراً إلى كل ناحية ويتركه منفرداً جائعاً في ظلام الليل .

قد احتملت السجن والجوع والعطش من أجل الحقيقة الجارحة التي رأيتها مكتوبة بالدماء على وجوهكم ، وقاسيت العذاب والجلد والسخرية لأنني جعلت لسكينة تنهيداتكم صوتاً صارخاً متموجاً في خلايا الدير ، ولكنني لم أخف قط ولم يضعف قلبي لأن صراخكم الأليم كان يتبع نفسي ويجدد قواي ، ويجب إليّ الاضطهاد والاحتقار والموت .

أنتم تسألون نفوسكم الآن قائلين : متى صرنا متظلمين وأي فرد منا يتجاسر أن يفتح شفتيه؟ وأنا أقول لكم إن نفوسكم تصرخ متظلمة في كل يوم وقلوبكم تستغيث متوجعة في كل ليلة ، ولكنكم لا تسمعون نفوسكم وقلوبكم ، لأن المنازع لا يسمع حشر-جة صدره ، أمّا الجالسون بجانب مضجعه فيسمعون ، والطائر المذبوح يرقص متمللاً قسر-إرادته ولا يعلم ، أمّا الناظرون فيعلمون .

في أي ساعة من النهار لا تتأوه أرواحكم متوجعة؟ أفي الصباح عندما تنهركم محبة البقاء وتمزق نقاب الكرى عن أجفانكم وتقودكم كالعبيد إلى الحقول؟ أم في الظهر عندما تتمنون الجلوس في ظل الأشجار لكي تتقوا سهام الشمس المحرقة ولا تستطيعون؟ أم في المساء عندما تعودون جائعين إلى أكواخكم ولا تجدون سوى الخبز اليابس والماء العكر؟ أم في الليل عندما تطرحكم المتاعب على الأسرة الحجرية فتنامون قلقين ، ولا يكحل النعاس أجفانكم إلا وتهبون متوهمين صوت الشيخ يرن في آذانكم؟ وفي أي فصل من السنة لا تندب قلوبكم متحسرة؟ أفي الربيع عندما ترتدي الطبيعة حلة جديدة فتخرجون لمشاهدتها بأطمار بالية ممزقة؟ أم في الصيف عندما تحصدون الزرع وتجمعون الأغمار على البيادر وتملأون أهراء سيدكم الظلوم بالغلة ، ولا تحصلون لقاء أتعابكم على غير التبن والزوان؟ أم في الخريف عندما تجنون الأثمار وتعصرون العنب ولا يكون نصيبكم منها سوى الخل والبلوط؟ أم في الشتاء عندما يضطهدكم الفضاء ويطردهم البرد والمهرير إلى الأكواخ الملتحفة بالثلوج ، فتجلسون بجانب المواقد متأففين خائفين غضب الزوابع والعواصف؟

هذه هي حياتكم أيها الفقراء ، هذا هو الليل المخيم على أرواحكم أيها التعساء ، هذه هي أشباح ذلکم وشقائقكم أيها المساكين ، هذا هو الصراخ الأليم المتسمر الذي سمعته خارجاً من أعماق صدوركم ، فاستيقظت وتمردت على الرهبان وكفرت بمعيشتهم ، ووقفت منفرداً متظلماً باسمكم واسم العدالة المتوجعة بأوجاعكم ، فحبسوني كافرًا شريرًا وطرّدوني من الدير فجئت لكي أشاطرکم التعاسة وأعيش بقرّبكم ، وأمزج دموعي بدموعكم ، فأسلمتموني مكتوفاً إلى عدوكم القوي الذي يغتصب خيراتكم ، ويحيا غنيًا بأموالكم ويملاً جوفه الواسع من أثمار أتعابكم .

ألا يوجد بينكم شيوخ يعلمون أن الأرض التي تراثونها وتحرمون غلتها هي لكم وقد اغتصبها والد الشيخ عبّاس من آبائكم عندما كانت الشريعة مكتوبة على حد السيف؟ أما سمعتم بأن الرهبان قد احتالوا على جدودكم وامتلكوا مزارعهم وكرومهم عندما كانت آيات الدين مخطوطة على شفتي الكاهن؟ ألا تعلمون أن ممثلي الدين وأبناء الشرف الموروث يتعاونون على إخضاعكم وإذلالكم واستقطار دماء قلوبكم؟ أي رجل منكم لم يلوّ عنقه كاهن الكنيسة أمام سيد الحقول؟ وأي امرأة بينكم لم يجرها سيد الحقول ويستحثها لكي تتبع مشيئة كاهن الكنيسة؟

قد سمعتم بأن الله قال للإنسان الأول : بعرق جبينك تأكل خبزك ، فلماذا يأكل الشيخ عبّاس خبزه مجبولاً بعرق جبينكم ويشرب خمرة ممزوجة بدموعكم؟ هل ميّز الله هذا الرجل وجعله سيداً إذ كان في رحم أمه؟ أم غضب عليكم لذنوب مجهولة وبعثكم عبيداً إلى هذه الحياة لكي تجمعوا غلة الحقول ولا تأكلوا غير أشواك الأودية ، وتقيموا القصور الفخمة ولا تسكنوا غير الأكواخ المتداعية؟

قد سمعتم بأن يسوع قد قال لتلاميذه : مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا ، لا تقتنوا فضة ولا ذهباً ولا نحاساً في مناطقكم ، إذاً ، أي تعاليم أباحت للرهبان والكهّان بيع صلواتهم وتعازيمهم بالفضة والذهب؟ أنتم تصلون في سكينة الليالي قائلين : أعطنا يا رب خبزنا كفاف يومنا ، والرب قد وهبكم هذه الأرض لتعطيكم الخبز الكفاف ، فهل وهب رؤساء الأديرة السلطة لانتزاع هذا الخبز من بين أيديكم؟ أنتم تلعنون يهوذا لأنه باع سيده بالفضة ، فأيّ شيء يجعلكم تباركون الذين يبيعونه في كلّ يوم من حياتهم؟ إن يهوذا التعس قد ندم على خطيئته فشقق نفسه ، أمّا هؤلاء فيسيرون أمامكم برؤوس مرفوعة وأذيال طويلة ناعمة ، وقلائد ذهبية وخواتم ثمينة ، أنتم تعلمون أبناءكم محبة الناصري ، فكيف تعلّمونهم الخضوع أمام مبغضيه ومخالفه تعاليمه وشرائعه؟ قد عرفتم أن رسل المسيح قد ماتوا قتلاً ورجماً لكي يحيا فيكم الروح المقدسة ، فهل تعرفون أن الرهبان والكهّان يقتلون أرواحكم لكي يحيا متمتعين بخيراتكم متلذذين بحرقة قيودكم؟ ماذا يغركم أيها المساكين في وجود مفعم بالذل والهوان ويبقيكم راكعين أمام صنم مخيف أقامه الكذب والرياء على قبور آبائكم؟ وأي كنز ثمين تحافظون عليه بخضوعكم لتبقوه إرثاً لأبنائكم؟

نفوسكم في قبضة الكاهن ، وأجسادكم بين مخالف الحاكم ، وقلوبكم في ظلمة اليأس والأحزان .

فأيّ شيء في الحياة يمكنكم أن تشيروا إليه قائلين : هذا لنا؟ أتعرفون أيها المستسلمون الضعفاء من هو الكاهن الذي تهابونه وتقيمونه وصياً على أقدم أسرار نفوسكم؟ اسمعوني فأبين لكم ما تشعرون أنتم به وتخافون إظهاره .

هو خائن يعطيه المسيحيون كتاباً مقدساً فيجعله شبكة يصطاد بها أموالهم ، ومراءٍ يقلده المؤمنون صليلاً جميلاً فيمتشقّه سيفاً سنياً ويرفعه فوق رؤوسهم ، وظالم يسلمه الضعفاء أعناقهم فيربطها بالمقاود ويوثقها باللجم ويقبض عليها بيد من حديد ، ولا يتركها حتى تنسحق كالفضّار وتتبدد كالرماد .

هو ذئب كاسر يدخل الحظيرة فيظنه الراعي خروفاً وينام مطمئناً ، وعند مجيء الظلام يثب على النعاج ويخنقها نعجة إثر نعجة .

هو نهم يحترم موائد الطعام أكثر من مذابح الهيكل ، وطامع يتبع الدينار إلى مغاور الجن ، ويمتصّ دماء العباد مثلاً تمتصّ رمال الصحراء قطرات المطر ، وبخيل يحرص على أنفاسه ويدخر ما لا يحتاج إليه .

هو محتال يدخل من شقوق الجدران ولا يخرج إلا بسقوط البيت ، ولص صخري القلب ينتزع الدرهم من الأرملة والفلس من اليتيم .

هو مخلوق عجيب له منقار النسر ، ومقابض النمر ، وأنياب الضبع ، وملامس الأفعى ، خذوا كتابه ومزّقوا ثوبه وانتفوا لحيته ، وافعلوا به ما شئتم ، ثمّ عودوا وضعوا الدينار في كفة فيغفر لكم ويبتسم بمحبة ، اصفعوا خده وابصقوا بوجهه ودوسوا عنقه ثمّ أجلسوه على موائدكم فيتناسى ويتهلل ويحلّ حزامه لينمو جوفه بماكلكم ومشاربكم ، جدفوا على اسم ربه واقذفوا بعقائده واسخروا بإيمانه ، ثمّ ابعثوا إليه بجرّة من الخمر أو بسلة من الفاكهة فيسأحكم ويبرّركم أمام الله والناس .

يرى المرأة فيحوّل وجهه قائلاً بأعلى صوته : ابتعدي عني يا ابنة بابل ، ثمّ يهمس بسرّه قائلاً : الزيجة أفضل من التحرق ، يرى الفتيان والصبايا سائرين في موكب الحبّ فيرفع عينيه نحو السماء ويهتف قائلاً : باطلة الأباطيل ، وكل شيء تحت الشمس باطل ، ثمّ يختلي ويتنهد قائلاً : لتفنّ الشرائع وتضمحلّ التقاليد التي أبعدتني عن غبطة الحياة وحرمتني ملذات العمر ... يقول للناس مستشهداً : لا تدينوا لئلا تدانوا . ولكنه يدين بقساوة جميع الذين يسخرون بمكارهه ، ويبعث بأرواحهم إلى الجحيم قبل أن يبعدهم الموت عن هذه الحياة ، يحدثكم رافعاً عينيه بين الآونة والأخرى نحو العلاء ، أما فكرته فتظلّ مناسبة كالأفعى حول جيوبكم ، يناديكم بقوله لكم : يا أولادي ويا أبنائي ، وهو لا يشعر بالعاطفة الأبوية ، ولا تبسم شفاته لرضيع ، ولا يحمل طفلاً على منكبيه ، يقول لكم هازاً رأسه بتخشع : لنترفعن عن العالميات ، لأن أعمارنا تضمحلّ كالضباب ، وأيامنا تزول كالفيء ، وإذا نظرتم جيداً رأيتموه متمسكاً بأذيال الحياة ، متشبّثاً بأهداب العمر ، متأسفاً على ذهاب الأمس ، خائفاً من سرعة اليوم ، مترقباً مجيء الغد .

يطلب منكم الإحسان وهو أوفر منكم مالاً ، فإن أجبتموه يبارككم علناً ، وإن منعتموه يلعنكم سرّاً ، في الهيكل يوصيكم بالفقراء والمحتاجين ، وحول منزله يصرخ الجائعون ، وأمام عينيه تمدّ أيدي البائسين فلا ينظر ولا يسمع ... يبيع صلاته ، ومن لا يشتري يكون كافراً بالله وأنبيائه ، محروماً من الجنة والنعيم .

هذا هو المخلوق الذي يخيفكم أيّها المسيحيّون ، هذا هو الراهب الذي يمتص دماءكم أيّها الفقراء .

هذا هو الكاهن الذي يرسم إشارة الصليب بيمينه ويقبض على قلوبكم بشماله ، هذا هو الأسقف الذي تقيمونه خادماً فينقلب سيِّداً ، وتطوَّبونه قديساً فيصير شيطاناً ، وترفعونه نائباً فيصبح نيراً ثقيلاً ، هذا هو الظل الذي يتبع أرواحكم منذ بلوغها هذا العالم حتى رجوعها إلى الأبدية هذا هو الرجل الذي جاء في هذه الليلة لكي يدينني ويرذلني ، لأن روحي تمرّدت على أعداء يسوع الناصري الذي أحبكم ودعاكم إخوة له ثم صُلب من أجلكم .

وتهلل وجه الشاب المكتوف ، وقد شعر باليقظة الروحية المتمايلة في صدور سامعيه ، واتضحت له تأثيرات كلامه في وجوه الناظرين إليه ، فرفع صوته وزاد قائلاً : قد سمعتم أيها الإخوة بأن الشيخ عبّاس قد أقامه الأمير أمين الشهابي سيِّداً على هذه القرية ، وسمعتم أيضاً بأن الأمير قد أقامه المليك حاكماً على هذا الجبل ، فهل سمعتم أو رأيتم القوة التي أقامت المليك رباً على هذه البلاد؟ أنتم لا ترون تلك القوة متجسدة ولا تسمعونها متكلمة ، ولكنكم تشعرون بوجودها في أعماق أرواحكم وتسجدون أمامها مصليين مبتهلين وتنادونها بقولكم : أبانا الذي في السموات .

نعم إن أباكم السماوي هو الذي يقيم الملوك والأمراء ، وهو القادر على كل شيء ، ولكن هل تعتقدون أن أباكم الذي أحبكم وعلمكم سبل الحق بواسطة أنبيائه يريد أن تكونوا مظلومين ومردولين؟ هل تعتقدون أن الله الذي ينزل السحاب مطراً ، ويستتبت البذور زرعاً ، وينمي الزهور أثماراً ، يريد أن تكونوا جوعاً محتقرين لكي يبقى واحد بينكم منتفخاً متلذذاً؟ هل تعتقدون أن الروح السرمدي الذي يوحى إليكم محبة الزوجة والرافة بالبنين والشفقة على القريب يقيم عليكم سيِّداً قاسياً يظلمكم ويستعبد أيامكم؟ هل تعتقدون أن النواميس الأزلية التي تحبب إليكم نور الحياة تبعث إليكم بمن يجب إليكم ظلمة الموت؟ هل تعتقدون أن الطبيعة قد بعثت القوى في أجسادكم لكي تعود فتخضعها أمام الضعف؟

أنتم لا تعتقدون بهذه الأشياء لأنكم إذا فعلتم تكونوا كافرين بالعدل الإلهي ، جاحدين نور الحق الذي يضيء على جميع الناس ، إذا أي شيء يجعلكم تساعدون الشرير على نفوسكم؟ ولماذا تخالفون مشيئة الله الذي بعثكم أحرارًا إلى هذا العالم وتصيرون عبيدًا للمتمردين على ناموسه؟ كيف ترفعون أعينكم نحو الله القوي وتدعونه أبا ، ثم تحنون رقابكم أمام الإنسان الضعيف وتدعونه سيدًا؟ كيف يرى أبناء الله أن يكونوا عبيدًا للبشر؟ أما دعاكم يسوع إخوة ، فكيف يدعوكم الشيخ عبّاس خدماً؟ أما جعلكم يسوع أحرارًا بالروح والحق ، فكيف يجعلكم الأمير عبيدًا للحييف والفساد؟ أما رفع يسوع رؤوسكم نحو السماء ، فكيف تخفضونها إلى التراب؟ أما سكب يسوع النور في قلوبكم ، فكيف تغمرونها بالظلام؟

إن الله قد بعث أرواحكم في هذه الحياة كشعلات مضيئة تنمو بالمعرفة وتزيد جمالاً باستطلاعها خفايا الأيام والليالي ، فكيف تلحقونها بالرماد لتبيد وتنطفئ؟ إن الله قد وهب نفوسكم أجنحة لتطير بها سابحة في فضاء الحب والحرية ، فلماذا تجزونها بأيديكم وتدبون كالحشرات على أديم الأرض؟ إن الله قد وضع في قلوبكم بذور السعادة ، فكيف تنتزعونها وتطرحونها على الصخر لتلتقطها الغربان وتذريها الأرياح؟ إن الله قد رزقكم البنين والبنات لكي تدربوهم على سبل الحق وتملأوا صدورهم بأغاني الكيان وتتركوا لهم غبطة الحياة إرثاً ثميناً ، فكيف تهجعون وتحلفونهم أمواتاً بين أيدي الدهر ، غرباء في أرض مولدهم ، تعساء أمام وجه الشمس؟ أوليس الوالد الذي يترك ابنه الحر عبداً ، يكون كالوالد الذي يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً؟ أما رأيتم عصافير الحقل تدرب فراخها على الطيران ، فكيف تعلّمون صغاركم جرّ القيود والسلاسل؟ أما رأيتم زهور الأودية تستودع بذورها حرارة الشمس ، فكيف تسلّمون أطفالكم إلى الظلمة الباردة؟

وسكت «خليل» هنيهة كأن أفكاره وعواطفه قد نمت واتسعت فلم تعد ترتدي الألفاظ ثوبًا ، ثم قال بصوت منخفض : إن الكلام الذي سمعتموه مني في هذه الليلة هو الكلام الذي طردني الرهبان من أجله ؛ والروح التي شعرت بتموجاتها في قلوبكم هي الروح التي أوقفتني مكتوفًا أمامكم ، فإذا وثب عليّ سيد حقولكم وكاهن كنيستكم وصرعاني أموت سعيدًا فرحًا لأنني بإظهاره لكم حقيقة ما يحسبه الظالمون جرماً هائلاً قد تمت مشيئة بارئي وبارئكم .

كان «خليل» يتكلم وفي صوته الجهوري نغمة سحرية تضطرب لها قلوب الرجال الناظرين إليه بإعجاب يشابه استغراب الأعمى إذا ما أبصر- فجأة ، وتهتز لحلاوتها نفوس النساء المحدقات إليه بأعين طافحة بالدموع ، أمّا الشيخ عبّاس والخوري إلياس ، فكانا يرتجفان غضبًا ويتلويان كالمطروحين على وسائد من الأشواك ، وقد حاول كلّ منهما أن يوقف الشاب عن الكلام فلم يستطع ، لأنه كان يخاطب الجمع بقوة علوية تشابه العاصفة بعزمها والنسيم برقتها .

ولما انتهى «خليل» من كلامه ، وقد تراجع قليلًا إلى الوراء ، ووقف بجانب راحيل ومريم ، حدث سكوت عميق كأن روحه المرفرفة في جوانب تلك القاعة الواسعة قد حوّلت بصائر القرويين نحو مكان قصي- وانتزعت الفكر والإرادة من نفسي- الشيخ والكاهن وأوقفتها مرتعشين أمام أشباح ضميرهما المزعجة .

حينئذٍ وقف «الشيخ عباس» ، وقد تقصّلت ملاحه واصفرّ وجهه ، وانتهر الرجال الواقفين حوله قائلاً بصوت مخنوق : ما أصابكم أيها الكلاب؟ هل تسممت قلوبكم وجمدت الحياة في داخل أجسادكم ، فلم تعودوا قادرين على تمزيق هذا الكافر المهذار؟ هل اكتنفت روح هذا الشيطان أرواحكم وكبلت بسحره الجهنمي سواعدكم فلم تستطيعوا إبادته؟

قال هذه الكلمات وامتشق سيفاً كان بجانبه وهجم على الفتى المكتوف ليوقع به ، فتقدم رجل قوي البنية من بين الشعب واعترضه قائلاً بهدوء : أغمد سيفك يا سيدي ، لأن من يأخذ بالسيف بالسيف يهلك .

فارتعش «الشيخ عباس» وسقط السيف من يده وصرخ قائلاً : هل يعترض الخادم الضعيف سيده وولي نعمته؟

فأجابه الرجل : الخادم الأمين لا يشارك سيده بالشرور والمظالم ، إن هذا الشاب لم يقل غير الحق ، ولم يعلن لهؤلاء السامعين سوى الحقيقة .

وتقدّم رجل آخر وقال : لم يقل هذا الفتى شيئاً يستوجب الحكم ، فلماذا تضطهده؟ ورفعت امرأة صوتها وقالت : لم يقذف بالدين ولم يجدف على اسم الله ، فلماذا تدعوه كافرًا؟

فتشجعت «راحيل» إذ ذاك وتقدمت إلى الأمام وقالت : إن هذا الشاب يتكلم بالستنا ويتظلم عنا ، ومن يريد به شرًا يكون عدوًّا لنا .

فقال «الشيخ عباس» صارفًا أسنانه : وأنت تتمردين أيضًا أيتها الأرملة الساقطة؟ هل نسيت ما أصاب زوجك عندما تمرد عليّ منذ خمس سنوات ؟

فشهقت «راحيل» عندما سمعت هذه الكلمات وارتعشت متوجعة كمن أدرك سرًا هائلًا ، والتفتت نحو الجمع وصرخت بأعلى صوتها : هل سمعتم القاتل يعترف بجريمته في ساعة غضبه؟ إلا تذكرون أن زوجي قد وُجد قتيلاً في الحقل ، وقد بحثتم عن القاتل فلم تجدوه لأنه كان مختبئًا وراء هذه الجدران؟ ألا تذكرون أن زوجي كان رجلًا شجاعًا؟ أما سمعتموه متكلمًا عن مكاره الشيخ عباس مندداً بأعماله متمردًا على قساوته؟

ها قد أبانت السماء قاتل جاركم وأخيكم وأوقفته أمامكم ، فانظروا إليه وأقرأوا جريمته مكتوبة على وجهه المصفرّ ، انظروه متململاً جازعًا ، تأملوا كيف قد ستر وجهه بيديه كيلا يرى عيونكم محذقة إليه .

انظروا السيد القوي مرتجفًا كالقصبه المرضوضة ، انظروا الجبار العظيم مرتاعًا أمامكم كالعبد الخاطيء ، إن الله قد أراكم على حين غفلة خفايا هذا القاتل الذي تخافونه ، وأبان لكم النفس الشريرة التي جعلتني أرملة بين نسائكم ، وتركت ابنتي يتيمة بين أبنائكم .

وبينما «راحيل» تتكلم صارخة وألفاظها تنقض كالصواعق على رأس الشيخ عباس ، وضجيج الرجال وزفرات النساء تتموج كشعلات النار والكبريت حول دماغه ، وقف الكاهن وأخذ بساعده وأجلسه على المقعد ، ثم نادى الخدم بصوت مرتجف قائلاً :

اقبضوا على هذه المرأة التي تتهم سيدكم زورًا وجروها مع هذا الشاب الكافر إلى غرفة مظلمة ، ومن يعترضكم يكون شريكًا لهما بالجريمة ، محرومًا نظيرهما من الكنيسة المقدسة .

فلم يتحرك الخدام من أماكنهم ، ولم يحفلوا بأوامر الكاهن ، بل لبثوا جامدين محدقين إلى «خليل» المكتوف و«راحيل ومريم» الواقفتين عن يمينه وشماله ، كأنهما جناحان قد فتحهما ليطير ويخلق بهما في السحاب .

فقال الكاهن ولحيته تتراقص حنقًا : هل تكفرون بنعمة سيدكم أيها الأجلاف ، وتجددون فضله وتنكرونه من أجل فتى مجرم كافر وامرأة عاهرة كاذبة؟

فأجابه أكبر الخدام سنًا وقال : قد خدمنا «الشيخ عبّاس» لقاء الخبز والمأوى ، ولكننا لم نكن له عبيدًا قط ، قال هذا ونزع عباءته وكوفيته وطرحهما أمام الشيخ عبّاس وزاد قائلاً : لا أريد أن أنعم جسدي بهذه الملابس الحقيرة كيما تبقى نفسي معذبة في منزل سفاك الدماء .

ففعل الخدام كافة نظيره وانضموا إلى الجمع ، وعلى وجوههم سياء الانعتاق والحرية .

فلما رأى «الخوري إلياس» ما فعلوه ، وقد شعر بأن سلطته الكاذبة قد تضعضعت ، خرج من ذلك المنزل مجددًا على الساعة التي أتت بخليل إلى تلك القرية .

حينئذٍ تقدم رجل من بين الجمع وحل وثاق خليل ونظر إلى «الشيخ عبّاس» المرتمي على كرسيه كجثة هامدة ، وبلهجة مملوءة بالعزم والإرادة خاطبه قائلاً : إن الشاب الذي أحضرته مكتوفاً لكي تحاكمه كمجرم أثيم ، قد أنار قلوبنا المظلمة وحوّل بصائرنا نحو سبل الحق والمعرفة ، والأرملة البائسة التي دعوتها عاهرة كاذبة ، قد أبانت لنا السر-الهائل الذي ظل مكتوماً خمسة أعوام ، أما نحن فقد تراكضنا مسرعين إلى هذه الدار بدينونة البريء واضطهاد العادل .

والآن وقد انفتحت أعيننا وأرتنا السماء جريمتك المخيفة ومظالمك القاسية نغادرك منفرداً ولا ندينك ، ونهملك ولا نشكوك ، ونبتعد عنك طالين من السماء أن تفعل مشيئتها بك .

وارتفعت إذ ذاك أصوات الرجال والنساء في تلك القاعة الواسعة ، فكان هذا يقول : هلموا نخرج من هذا المكان المشحون بالآثام والمعاصي ونذهب إلى بيوتنا ، وذا يصرخ : تعالوا نتبع الشاب إلى بيت راحيل ونسمع حكمته المعزية وأقواله العذبة ، وذاك يهتف : لنفعلنّ إرادة خليل ، فهو أعلم بحاجتنا وأدرى منّا بمطالبنا ، وغيره يقول : إن كنا نريد العدل والإنصاف فلنذهب غداً إلى الأمير أمين ونخبره بجرائم «الشيخ عبّاس» ونطلب إليه أن يعاقبه ، وآخر يصيح : يجب أن نستعطف الأمير ونرجوه أن يقيم «خليلاً» ممثلاً له في هذه القرية ، وغيره يقول : يجب أن نشكو الخوري إلياس إلى الأسقف لأنّه يشارك الشيخ بجميع أعماله .

وبينما هذه الأصوات تتصاعد من كلّ ناحية ، وتهبط كالسهام الحادة على صدر الشيخ الخفوق ، رفع خليل يده وأسكت الجميع بإشارة ، ثمّ ناداهم قائلاً : اسمعوا وتبصروا أيها الإخوة ولا تكونوا متسرعين .

أنا أطلب إليكم باسم محبتي ألا تذهبوا إلى الأمير فهو لا ينصفكم من الشيخ ؛ لأن الكواسر لا ينهش بعضها البعض ، ولا تشكوا الكاهن إلى رئيسه ، لأن الرئيس يعلم أن البيت الذي ينقسم على ذاته يخرب ، ولا تطلبوا أن أكون ممثلاً للحاكم في هذه القرية ، لأن الخادم الأمين لا يريد أن يكون عوناً للسيد الشرير ، إن كنت خليقاً بحبكم وانعطافكم ، دعوني أعيش بينكم وأشارككم بأفراح الحياة وأحزانها ، وأشاطركم العمل في الحقول والراحة في المنازل لأنني إن لم أكن كواحد منكم أكن كالمرائين الذين ينكرون الفضيلة ولا يفعلون غير الشر .

والآن ، وقد وضعت الفأس على أصل الشجرة ، تعالوا نذهب تاركين «الشيخ عبّاس» واقفاً في محكمة ضميره أمام عرش الله الذي يشرق شمسُه على الأبرار والأشرار .

قال هذا وخرج من ذلك المكان فتبعه الجمع كأن في شخصه قوة تتحول نحوها الأبصار كيفما تحولت ، وبقي الشيخ منفرداً كالبرج المهديم ، متوجعاً كالقائد المغلوب ، ولما بلغ الجميع ساحة الكنيسة وكان القمر قد طلع من وراء الشفق وسكب أشعته الفضية في السماء ، التفت خليل ورأى أوجه الرجال والنساء متجهة نحوه كالخراف النازرة إلى راعيها ، فتحركت روحه في داخله كأنه وجد في أولئك القرويين المساكين رمز الشعوب المظلومة ، وشاهد في تلك الأكواخ الحقيبة المكتنفة بالثلوج المتجلدة رمز البلاد المغمورة بالذل والهوان ، فوقف وقفة نبي يسمع صراخ الأجيال ، وتغيرت ملامحه واتسعت عيناه كأن نفسه قد أبصرت جميع أمم المشرق سائرة تجرّ قيود العبودية في تلك الأودية ، فرفع كفيه نحو العلاء وبصوت يشابه ضجيج الأمواج صرخ قائلاً :

- من أعماق هذه الأعماق نناديك أيتها الحرية فاسمعينا ، من جوانب هذه الظلمة نرفع أكفنا نحوك فانظرينا ، وعلى هذه الثلوج نسجد أمامك فارحمنا ، أمام عرشك الرهيب نقف الآن ناشرين على أجسادنا أثواب آبائنا الملطخة بدمائهم ، عافرين شعورنا بتراب القبور الممزوج ببقاياهم ، حاملين السيوف التي أغمدت بأكبادهم ، رافعين الرماح التي خرقت صدورهم ، ساحبين القيود التي أبدت أقدامهم ، صارخين الصراخ الذي جرح حناجرهم ، نائحين النواح الذي ملأ ظلمة سجونهم ، مصلين الصلاة التي انبثقت من أوجاع قلوبهم ، فأصغي أيتها الحرية واسمعينا ، من منبع النيل إلى مصب الفرات يتصاعد نحوك عويل النفوس متموجاً مع صراخ الهاوية ، ومن أطراف الجزيرة إلى جبهة لبنان تمتد إليك الأيدي مرتعشة بنزع الموت ، ومن شاطئ الخليج إلى أذيال الصحراء ترتفع نحوك الأعين مغمورة بذوبان الأفئدة ، فالتفتي أيتها الحرية وانظرينا ، في زوايا الأكواخ القائمة في ظلال الفقر والهوان تقرع أمامك الصدور ، وفي خلايا البيوت الجالسة في ظلمة الجهل والغباوة تطرح لديك القلوب ، وفي قراني المنازل المحجوبة بضباب الجور والاستبداد تحنّ إليك الأرواح ، فانظري أيتها الحرية وارحمينا .

في المدارس والمكاتب تناجيك الشبيبة اليائسة ، وفي الكنائس والجوامع يستميلك الكتاب المتروك ، وفي المحاكم والمجالس تستغيث بك الشريعة المهملة ، فاشفقي أيتها الحرية وخلصينا ، وفي شوارعنا الضيقة يبيع التاجر أيامه ليعطي أثمانها للصوص المغرب ، ولا من ينصحه ، وفي حقولنا المجذبة يحفر الفلاح الأرض بأظافره ، ويزرعها حبات قلبه ، ويسقيها دموعه ، ولا يستغل غير الأشواك ولا من يعلمه ، وفي سهولنا الجرداء يسير البدوي عارياً جائعاً ولا من يترأف به ، فتكلمي أيتها الحرية وعلمينا .

نعاجنا ترعى الأشواك والحسك بدلاً من الزهور والأعشاب ، وعجولنا تقضم أصول
الأشجار بدلاً من الذرة ، وخيولنا تلتهم الهشيم بدلاً من الشعير ، فهل مي أيتها الحرية وانقذينا .

منذ البدء وظلام الليل يخيم على أرواحنا ، فمتى يجيء الفجر؟ من الحبوس إلى الحبوس
تنتقل أجسادنا والأجيال تمر بنا ساخرة ، فإلى متى نحتمل سخرية الأجيال؟ ومن نير ثقيل
إلى نير أثقل تذهب أعناقنا وأمم الأرض تنظر من بعيد ضاحكة منا ، فإلام نصبر على
ضحك الأمم؟ ومن القيود إلى القيود تسير ركابنا ، فلا القيود تفنى ولا نحن نقرض ، فإلى
متى نحيا؟

من عبودية المصريين إلى سبي بابل إلى قساوة الفرس إلى خدمة الإغريقين إلى استبداد
الروم إلى مظالم المغول إلى مطاعم الإفرنج ، فإلى أين نحن سائرون الآن ، ومتى نبلغ جبهة
العقبة؟

من مقابض فرعون إلى مخالب نبوخذنصر إلى أظافر الإسكندر إلى أسياف هيرودس إلى
برائن نيون إلى أنياب الشيطان ، فإلى يد من نحن ذاهبون الآن ، ومتى نبلغ قبضة الموت
فترتاح من سكينه العدم؟

بعزم سواعدنا قد رفعوا أعمدة الهياكل والمعابد لمجد آلهتهم ، وعلى ظهورنا قد نقلوا الطين
والحجارة لبناء الأسوار والبروج لتعزيز حماهم ، وبقوى أجسادنا قد أقاموا الأهرام لتخليد
أسمائهم ، فحتى متى نبني القصور والصرور ، ولا نسكن غير الأكواخ والكهوف ، ونملأ
الأهراء والخزائن ، ولا نأكل غير الثوم والكراث ، ونحوك الحرير والصوف ، ولا نلبس غير
المسوح والأطهار؟

بخبثهم واحتياهم قد فرقوا بين العشيرة والعشيرة ، وأبعدوا الطائفة عن الطائفة ،
وبغضوا القبيلة بالقبيلة ، فحتى متى نتبدد كالرماد أمام هذه الزوبعة القاسية ، ونتصارع
كالأشبال الجائعة بقرب هذه الحيفة المنتنة؟

لحفظ عروشهم وطمأنينة قلوبهم قد سلحوا الدرزي لمقاتلة العربي ، وحمّسوا الشيعي
لمصارعة السني ، ونشطوا الكردي لذبح البدوي وشجعوا الأحمدي لمنازعة المسيحي ،
فحتى متى يصرع الأخ أخاه على صدر الأم ، وإلى متى يتوعد الجار جاره بجانب قبر الحبيبة
، وإلام يتباعد الصليب عن الهلال أمام عين الله؟

أصغي أيتها الحرية واسمعينا ، التفتي يا أم ساكني الأرض وانظرينا ، فنحن لسنا أبناء
ضرتك ، تكلمي بلسان فرد واحد منا ، فمن شرارة واحدة يشتعل القش اليابس ، أيقظي
بحفيف أجنحتك روح رجل من رجالنا ، فمن سحابة واحدة ينبثق البرق ، وينير بلحظة خلايا
الأودية وقمم الجبال ، بددي بعزمك هذه الغيوم السوداء وانزلي كالصاعقة واهدمي كالمنجنيق
قوائم العروش المرفوعة على العظام والجماجم المصفحة بذهب الجزية والرشوة ، المغمورة
بالدماء والدموع .

اسمعينا أيتها الحرية ، ارحمينا يا ابنة أثينا ، أنقذينا يا أخت رومة ، خلّصينا يا رفيقة موسى
، أسعفينا يا حبيبة محمد ، علمينا يا عروسة يسوع ، قوي قلوبنا لنحيا ، أو شددى سواعد
أعدائنا علينا فنحنى ونقرض ونرتاح .

كان جليل يناجي السماء وعيون الفلاحين محدقة إليه ، وعواطفهم تنسكب مع نغمة صوته ،
ونفوسهم تتطير مع أنفاسه ، وصدورهم تحفق بنبضات قلبه ، كأنه أصبح منهم في تلك الساعة
بمنزلة الروح من الجسد ، ولما انتهى من مناجاته التفت نحوهم وقال بهدوء : قد جمعنا هذا الليل في
منزل الشيخ عباس لكي نرى نور النهار ، وأوقفنا المظالم أمام هذا الفضاء البارد لكي نتفاهم وننضم
كالفراخ تحت جناحي الروح الخالدة ، فليذهب الآن كلّ منا إلى فراشه لينام مترقباً لقاء أخيه في
الصباح .

قال هذا ومشى متبعًا خطوات راحيل ومريم إلى كوخهما ، فتفرق إذ ذاك الجمع وذهب كل إلى بيته مفكرًا بما سمعه ورآه ، شاعرًا بملامس حياة جديدة في داخل نفسه .

ولم تمر ساعة حتى انطفأت السرج في الأكواخ وألقت السكينة وشاحها على تلك القرية ، وحملت الأحلام أرواح الفلاحين تاركة روح الشيخ عباس ساهرة مع أشباح الليل ، مرتعدة أمام ذنوبه ، متعذبة بين أنياب هواجسه .

- 8 -

مرّ شهران وخليل يسكب سرائر روحه في قلوب أولئك القرويين ، محدثًا إياهم في كل يوم عن غوامض حقوقهم وواجباتهم ، مصورًا لبصائرهم حياة الرهبان الطامعين ، مرددًا على مسامعهم أخبار الحكام القساة ، جاعلاً بين عواطفه وعواطفهم صلة قوية شبيهة بالنواميس الأزلية التي تقيد الأجرام بعضها ببعض ، فكانوا يصغون إليه بفرح يضارع بهجة الحقول الظمآنة بانهطال الأمطار ، ويرددون كلامه في خلوتهم ملبسين نسائم مقاصده أجسادًا من محبتهم ، غير حافلين بالخوري إلياس الذي أصبح يتزلف إليهم منذ ظهور جريمة حليفه الشيخ ويقترّب منهم لينأ كالشمع بعد أن كان صلبًا كالرخام .

أمّا «الشيخ عباس» فد أُصيب بعلّة في نفسه شبيهة بالجنون ، فكان يسير ذهابًا وإيابًا في رواق منزله كالنمر المسجون ، وينادي خدامه بأعلى صوته فلا يجيبه غير الجدران ، ويصرخ مستنجدًا برجاله فلا يأتي لمعونته غير زوجته المسكينة التي عانت من خشونة طباعه ما قاساه الفلاحون من مظالمه واستبداده ، ولما جاءت أيام الصوم ، وأعلنت السماء قدوم الربيع ، انقضت أيام الشيخ بانقضاء زوابع الشتاء ، فمات بعد نزع موجد مخيف ، وذهبت روحه محملة على بساط أعماله لتقف عارية أمام ذلك العرش الذي نشعر بوجوده ولا نراه .

وقد اختلفت آراء الفلاحين في سبب موته ، فكان بعضهم يقول : قد اختل شعوره فقضى
مجنونًا ، وبعضهم يقول : قد سمم اليأس حياته عندما زالت سطوته فمات منتحرًا .

أما النساء اللواتي ذهبن لتعزية زوجته فأخبرن رجالهن بأنه مات خائفًا مرتاعًا ، لأن شبح
سمعان الرامي كان يظهر له مرتديًا أثوابًا ملطخة بالدماء ، ويقوده كرهًا عندما يتتصف
الليل إلى المكان الذي وُجد فيه مصروعًا منذ خمسة أعوام .

وأعلن أيام نيسان (إبريل) لسكان تلك القرية سرائر الحبّ الخفيّة الكائنة بين روح
«خليل» وروح «مريم ابنة راحيل» ، فتهللت وجوههم فرحًا ، ورقصت قلوبهم ابتهاجًا ،
ولم يعودوا يخشون ذهاب الشاب الذي أيقظ قلوبهم إلى محيط أوسع وأرقى من وسطهم ،
فطافوا يبشرون بعضهم بعضًا بصيرورته جاريًا قريبًا وصهرًا محبوبًا لكل واحد منهم .

ولما جاءت أيام الحصاد خرج الفلاحون إلى الحقول وجمعوا الأغمار على البيادر ، ولم يكن
«الشيخ عبّاس» هناك ليغتصب الغلة ويحملها إلى أهرائه ومخازنه ، بل كان كلّ الفلاحين
يستغل الحقل الذي فلحه وزرعه ، فامتلأت تلك الأكواخ من القمح والذرة والخمر
والزيت .

منذ تلك السنة إلى أيامنا هذه أصبح كلّ فلاّح في تلك القرية يستغل بالفرح الحقل الذي
زرعه بالأتعاب ، ويجمع بالمسرة ثمار البستان الذي غرسه بالمشقة ، فصارت الأرض ملكًا
لمن يفلحها ، والكروم نصيبًا لمن ينقبها ويحرثها .

والآن وقد انقضى نصف قرن على هذه الحادثة ، وراودت اليقظة أجفان اللبنانيين ، يمر
المسافر على طريقه إلى غابة الأرز ويقف متأملاً بمحاسن تلك القرية الجالسة كالعروس على
كتف الوادي ، فيرى أكوأخها قد صارت بيوتاً جميلة مكتنفة بالحقول الخصبة والحدائق الناضرة
، وإن سأل أحد سكانها عن تاريخ «الشيخ عبّاس» يجيبه مشيراً نحو حجارة متقوضّة
وجدران مهدومة مرتّمة قائلاً : هذا قصر «الشيخ عبّاس» وهذا هو تاريخ حياته ، وإن سألّه
عن «خليل» يرفع يده إلى العلاء قائلاً : هناك يسكن خليلنا الصالح ، أما تاريخ حياته فقد
كتبه آباؤنا بأحرف من شعاع على صفحات قلوبنا ، فلن تمحوه الأيام والليالي .



الأجنحة المتكسرة

إلى التي تحدّق إلى الشمس بأجفان جامدة ، وتقبض على النار بأصابع غير
مرتعشة ، وتمسح نعمة الروح « الكلي » من وراء ضجيج العميان وصراخهم .
إلى M.E.H. أرفع هذا الكتاب .

(نشر عام 1912)

توطئة

كنت في الثامنة عشرة من عمري عندما فتح الحبّ عينيّ بأشعته السحرية ، ولمس نفسي- لأول مرة بأصابعه النارية . وكانت سلمى كرامة المرأة الأولى التي أيقظت روحي لمحاسنها ، ومشت أمامي إلى جنة العواطف العلوية حيث تمر الأيام كالأحلام وتنقضي الليالي كالأعراس . سلمى كرامة هي التي علمتني عبادة الجمال بجمالها ، وأرتني خفايا الحبّ بانعطافها ، وهي التي أنشدت على مسمعي أول بيت من قصيدة الحياة المعنوية .

أي فتى لا يذكر الصبية الأولى التي أبدلت غفلة شببته بيقظة هائلة بلطفها ، جارحة بعدوبتها ، فتاكة بحلاوتها؟ من منا لا يذوب حيناً إلى تلك الساعة الغريبة التي إذا انتبه فيها فجأة رأى كليته قد انقلبت وتحولت ، وأعماقه قد اتسعت وانبسطت وتبطنّت بانفعالات لذيذة بطل ما فيها من مرارة الكتمان ، مستحبة بكل ما يكتنفها من الدموع والشوق والسهاد؟

لكل فتى سلمى تظهر على حين غفلة في ربيع حياته . وتجعل لانفراده معنى شعرياً وتبدل وحشة أيامه بالأنس ، وسكينة ليلاليه بالأنغام .

كنت حائراً بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب والأسفار عندما سمعت الحبّ يهمس بشفتي سلمى في آذان نفسي- ، وكانت حياتي خالية مقفرة باردة شبيهة بسبات آدم في الفردوس عندما رأيت سلمى منتصبة أمامي كعمود النور ، «فسلمى كرامة» هي حواء هذا القلب المملوء بالأسرار والعجائب ، هي التي أفهمته كنه هذا الوجود وأوقفته كالمرأة أمام هذه الأشباح . حواء الأولى أخرجت آدم من الفردوس بإرادتها وانقياده ، أما سلمى فأدخلتني إلى جنة الحبّ والطهر بحلاوتها واستعدادي ، ولكن ما أصاب الإنسان الأول قد أصابني ، والسيف الناري الذي طرده من الفردوس هو كالسيف الذي أخافني بلمعان حده وأبعدني كرهاً عن جنة المحبة قبل أن أخالف وصية وقبل أن أذوق طعم ثمار الخير والشر .

واليوم وقد مرت الأعوام المظلمة طامسة بأقدامها رسوم تلك الأيام ، لم يبق لي من ذلك الحلم الجميل سوى تذكارات موجعة ترفرف كالأجنحة غير المنظورة حول رأسي مثيرة تنهيدات الأسى في أعماق صدري مستقطرة دموع اليأس والأسف من أجفاني و«سلمى» - سلمى الجميلة العذبة قد ذهبت إلى ما وراء الشفق ولم يبق من آثارها في هذا العالم سوى غصات أليمة في قلبي وقبر رخامي منتصب في ظلال أشجار السرو ، فذلك القبر وهذا القلب هما كل ما بقي ليحدث الوجود عن «سلمى كرامة» ، غير أن السكينة التي تحفر القبور لا تفشي- ذلك السر المصون الذي أخفته الآلهة في ظلمات التابوت ، والأغصان التي امتصت عناصر الجسد لا تبيح بحفيفها مكنونات الحفرة ، أما غصات هذا القلب وأوجاعه فهي التي تتكلم وهي التي تنسكب الآن مع قطرات الحبر السوداء معلنة للنور أشباح تلك المأساة التي مثلها الحبّ والجمال والموت .

فيا أصدقاء شيبتي المنتشر-ين في بيروت ، إذا مررتم بتلك المقبرة القريبة من غابة الصنوبر ادخلوها صامتين وسيروا ببطء كيلا تزعج أقدامكم رفات الراقدين تحت أطباق الثرى ، وقفوا متهيئين بجانب قبر سلمى وحيوا عني التراب الذي ضم جثمانها ، ثم اذكروني بتنهيده قائلين في نفوسكم : ههنا دفنت آمال ذلك الفتى الذي نفتته صروف الدهر إلى ما وراء البحار ، وههنا توارت أمانيه وانزوت أفراحه وغارت دموعه واضمحلت ابتساماته ، وبين هذه المدافن الخرساء تنمو كآبته مع أشجار السرو والصفصاف ، وفوق هذا القبر ترفرف روحه كلّ ليل مستأنسة بالذكرى ، مرددة مع أشباح الوحشة ندبات الحزن والأسى ، نائحة مع الغصون على صبية كانت بالأمس نعمة شجية بين شفتي الحياة فأصبحت اليوم سرًا صامتًا في صدر الأرض .

أستحلفكم يا رفاق الصبا بالنساء اللواتي أحبتهنّ قلوبكم أن تضعوا أكاليل الأزهار على قبر المرأة التي أحبها قلبي ، فرب زهرة تلقونها على ضريح منسي تكون كقطرة الندى التي تسكبها أجفان الصباح بين أوراق الورد الذابلة .



الكآبة الخرساء

أنتم أيها الناس تذكرون فجر الشبيبة فرحين باسترجاع رسومه متأسفين على انقضائه ،
أما أنا فأذكره مثلما يذكر الحر المعتق جدران سجنه وثقل قيوده ، أنتم تدعون تلك السنين
التي تجيء بين الطفولة والشباب عهداً ذهبياً يهزأ بمتاعب الدهر وهو أجسه ويطير مرفراً
فوق رؤوس المشاغل والهموم مثلما تجتاز النحلة فوق المستنقعات الخبيثة سائرة نحو البساتين
المزهرة ، أما أنا فلا أستطيع أن أدعو سني الصبا سوى عهد آلام خفية خرساء كانت تقطن
قلبي وتثور كالعواصف في جوانحه وتتكاثر نامية بنموه ، ولم تجد منفذاً تنصرف منه إلى عالم
المعرفة حتى دخل إليه الحبّ وفتح أبوابه وأنار زواياه ، فالحب قد أعتق لساني فتكلمت ،
ومزق أجفاني فبكيت ، وفتح حنجرتي فتنهدت وشكوت .

أنتم أيها الناس تذكرون الحقول والبساتين والساحات وجوانب الشوارع التي رأت
ألعابكم وسمعت همس طهركم ، وأنا أيضاً أذكر تلك البقعة الجميلة من شمال لبنان ، فما
أغمضت عيني عن هذا المحيط إلا رأيت تلك الأودية المملوءة سحراً وهيبه ، وتلك الجبال
المتعالية بالمجد والعظمة نحو العلاء ولا صمتت أذني عن ضجة هذا الاجتماع إلا سمعت
خريف تلك السواقي وحفيف تلك الغصون ، ولكن هذه المحاسن التي أذكرها الآن
وأتشوق إليها تشوق الرضيع إلى ذراعي أمه هي التي كانت تعذب روحي المسجونة في
ظلمة الحادثة مثلما يتعذب البازي بين قضبان قفصه عندما يرى أسراب البزاة تسبح حرة في
الخلاء الواسع ، وهي التي كانت تملأ صدري بأوجاع التأمل ومرارة التفكير وتنسج بأصابع
الحيرة والالتباس نقاباً من اليأس والقنوط حول قلبي ، فلم أذهب إلى البرية إلا عدت منها
كئيباً جاهلاً أسباب الكآبة ، ولا نظرت مساءً إلى الغيوم المتلونة بأشعة الشمس إلا شعرت
بانقباض متلف ينمو لجهلي معاني الانقباض ، ولا سمعت تغريدة الشحرور أو أغنية الغدير
إلا وقفت حزيناً لجهلي موحيات الحزن .

يقولون إن الغباوة مهد الخلو والخلو مرقد الراحة ، وقد يكون ذلك صحيحًا عند الذين يولدون أمواتًا ويعيشون كالأجساد الهامدة الباردة فوق التراب ، ولكن إذا كانت الغباوة العمياء قاطنة في جوار العواطف المستيقظة تكون الغباوة أقسى من الهاوية وأمر من الموت ، والصبي الحساس الذي يشعر كثيرًا ويعرف قليلًا هو أتعس المخلوقات أمام وجه الشمس لأن نفسه تظل واقفة بين قوتين هائلتين متباينتين : قوة خفية تحلق به في السحاب وتريه محاسن الكائنات من وراء ضباب الأحلام ، وقوة ظاهرة تقيده بالأرض وتغمر بصيرته بالغبار وتتركه ضائعًا خائفًا في ظلمة حالكة .

للكآبة أيدٍ حريرية الملامس قوية الأعصاب تقبض على القلوب وتؤلمها بالوحدة ، فالوحدة حليفة الكآبة كما أنها أليفة كل حركة روحية ، ونفس الصبي المنتصبه أمام عوامل الوحدة وتأثيرات الكآبة شبيهة بالزنبقة البيضاء عند خروجها من الكمام ترتعش أمام النسيم وتفتح قلبها لأشعة الفجر وتضم أوراقها بمرور أخيلة المساء ، فإن لم يكن للصبي من الملاهي ما يشغل فكرته ، ومن الرفاق من يشاركه في الميول ، كانت الحياة أمامه كحبس ضيق لا يرى في جوانبه غير أنوال العناكب ولا يسمع من زواياه سوى ديبب الحشرات .

أما تلك الكآبة التي اتبعت أيام حدثي فلم تكن ناتجة عن حاجتي إلى الملاهي لأنها كانت متوفرة لدي ، ولا عن افتقاري إلى الرفاق لأنني كنت أجدهم أينما ذهبت ، بل هي من أعراض علة طبيعية في النفس كانت تحب إليّ الوحدة والانفراد ، وتميت في روعي الميول إلى الملاهي والألعاب ، وتخلع عن كتفي أجنحة الصبا ، وتجعلني أمام الوجود كحوض مياه بين الجبال يعكس بهدوئه المحزن رسوم الأشباح وألوان الغيوم وخطوط الأغصان ، ولكنه لا يجد ممرًا يسير فيه جدولًا مترنًا إلى البحر .

هكذا كانت حياتي قبل أن أبلغ الثامنة عشرة ، فتلك السنة هي من ماضي بمقام القمة من الجبل لأنها أوقفتني متأملاً تجاه هذا العالم وأرنتني سبل البشر- ومروج ميولهم وعقبات متاعبهم وكهوف شرائعهم وتقاليدهم .

في تلك السنة ولدت ثانية ، والمرء إن لم تحبل به الكآبة ويتمخض به اليأس وتضعه المحبة في مهد الأحلام تظل حياته كصفحة خالية بيضاء في كتاب الكيان .

في تلك السنة شاهدت ملائكة السماء تنظر إليّ من وراء أجفان امرأة جميلة ، وفيها رأيت أبالسة الجحيم يضجون ويتراكضون في صدر رجل مجرم ، ومن لا يشاهد الملائكة والشياطين في محاسن الحياة ومكروهاها يظل قلبه بعيداً عن المعرفة ونفسه فارغة من العواطف .



يد القضاء

كنت في بيروت في ربيع تلك السنة المملوءة بالغرائب ، وكان نيسان قد أنبت الأزهار والأعشاب فظهرت في بساتين المدينة كأنها أسرار تعلنها الأرض للسماء ، وكانت أشجار اللوز والتفاح قد اكتست بحلل بيضاء معطرة فبانّت بين المنازل كأنها حوريات بملابس ناصعة قد بعثت بهن الطبيعة عرائس وزوجات لأبناء الشعر والخيال .

الربيع جميل في كلّ مكان ولكنه أكثر من جميل في سوريا ... الربيع روح إله غير معروف تطوف في الأرض مسرعة وعندما تبلغ سوريا تسير ببطء متلفتة إلى الوراء مستأنسة بأرواح الملوك والأنبياء الحائمة في الفضاء ، مترنمة مع جداول اليهودية بأناشيد سليمان الخالدة ، مرددة مع أرز لبنان تذكارات المجد القديم .

وبيروت في الربيع أجمل منها في ما بقي من الفصول لأنها تخلو فيه من أوحال الشتاء وغبار الصيف وتصبح بين أمطار الأول وحرارة الثاني كصبية حسناء قد اغتسلت بمياه الغدير ثمّ جلست على ضفته تجفف جسدها بأشعة الشمس .

ففي يوم من تلك الأيام المفعمّة بأنفاس نيسان المسكرة وابتساماته المحيية ، ذهبت لزيارة صديق يسكن بيتاً بعيداً عن ضجة الاجتماع ، وبينما نحن نتحدث راسمين بالكلام خطوط آمالنا وأمانينا دخل علينا شيخ جليل في الخامسة والستين من عمره تدل ملابسه البسيطة وملامحه المتجعدة على الهيبة والوقار .

فوقفت احتراماً وقبيل أن أصافحه مسلماً تقدّم صديقي وقال : حضرته «فارس أفندي كرامة» ، ثمّ لفظ اسمي مشفوعاً بكلمة ثناء ، فحدّق إليّ الشيخ هنية لامساً بأطراف أصابعه جبهته العالية المكلفة بشعر أبيض كالثلج كأنّه يريد أن يسترجع إلى ذاكرته صورة شيء قديم مفقود ثمّ ابتسم ابتسامة سرور وانعطاف واقترب مني قائلاً : أنت ابن صديق حبيب قديم صرفت ربيع العمر برفقته ، فما أعظم فرحي بمرآك وكم أنا مشتاق إلى لقاء أبيك بشخصك !

فتأثرت لكلامه وشعرت بجاذب خفي يدنيني إليه بطمأنينة مثلما تقود الغريزة العصفور إلى وكره قبيل مجيء العاصفة ، ولما جلسنا أخذ يقص علينا أحاديث صداقته لوالدي متذكراً أيام الشباب التي صرفها بقربه تالياً على مسامعنا أخبار أعوام قضت فكفنها الدهر بقلبه وقبرها في صدره إن الشيوخ يرجعون بالفكر إلى أيام شبابهم رجوع الغريب المشتاق إلى مسقط رأسه ، ويمليون إلى سرد حكايات الصبا ميل الشاعر إلى تنعيم أبلغ قصائده ، فهم يعيشون بالروح في زوايا الماضي الغابر لأن الحاضر يمر بهم ولا يلتفت ، والمستقبل يبدو لأعينهم متشجاً بضباب الزوال وظلمة القبر .

وبعد ساعة مرت بين الأحاديث والتذكارات مرور ظل الأغصان على الأعشاب ، وقف فارس كرامة للانصراف ، ولما دنوت منه مودعاً أخذ يدي بيمينه ووضع شماله على كتفي قائلاً : أنا لم أر والدك منذ عشرين سنة ولكنني أرجو أن أستعوض عن بعهده الطويل بزياراتك الكثيرة . فانحنيت شاكراً واعدًا بتتميم ما يجب على الابن نحو صديق أبيه .

ولما خرج «فارس كرامة» استزدت صاحبي من أخباره فقال بلهجة يساورها التحذّر : لا أعرف رجلاً سواه في بيروت قد جعلته الثروة فاضلاً والفضيلة مثيراً .

هو واحد من القليلين الذين يجيئون هذا العالم ويغادرونه قبل أن يلامسوا بالأذى نفس مخلوق ، ولكن هؤلاء الرجال يكونون غالباً تعساء مظلومين ، لأنهم يجهلون سبل الاحتيال التي تنقذهم من مكر الناس وخبثهم و«فارس كرامة» ابنة وحيدة تسكن معه منزلاً فخماً في ضاحية المدينة ، وهي تشابهه بالأخلاق وليس بين النساء من تماثلها رقة وجهالاً ، وهي أيضاً ستكون تاعسة لأن ثروة والدها الطائلة توقفها الآن على شفير هاوية مظلمة مخيفة .

لفظ صديقي الكلمات الأخيرة وظهرت على محياه لوائح الغم والأسف ثم زاد قائلاً :
فارس كرامة شيخ شريف القلب كريم الصفات ولكنه ضعيف الإرادة يقوده رياء الناس
كالأعمى وتوقفه مطاعمهم كالأخرس ، أما ابنته فتخضع ممثلة لإرادته الواهنة على رغم كل
ما في روحها الكبيرة من القوى والمواهب .

وهذا هو السر- الكامن وراء حياة الوالد وابنته ، وقد فهم هذا السر- رجل يتألف في
شخصه الطمع بالرياء والخبث والدهاء ، وهذا الرجل هو مطران تسير قبائحه بظل الإنجيل
فتظهر للناس كالفضائل ، هو رئيس دين في بلاد الأديان والمذاهب تخافه الأرواح والأجساد
وتخر لديه ساجدة مثلما تنحني رقاب الأنعام أمام الجزار .

ولهذا المطران ابن أخ تتصارع في نفسه عناصر المفسد والمكاره مثلما تنقلب العقارب
والأفاعي على جوانب الكهوف والمستنقعات ، وليس بعيداً اليوم الذي ينتصب فيه المطران
بملابسه الحبرية جاعلاً ابن أخيه عن يمينه وابنة فارس كرامة عن شماله رافعاً بيده الأثيمة
إكليل الزواج فوق رأسيهما مقيداً بسلاسل التكهين والتعزيم جسداً طاهراً بجيفة منتنة ،
جامعاً في قبضة الشريعة الفاسدة روحاً سماوية بذات ترابية ، واضعاً قلب النهار في صدر
الليل ، هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك الآن عن فارس كرامة وابنته فلا تسلني أكثر من
ذلك لأن ذكر المصيبة يدينها مثلما يقرب الموت الخوف من الموت .

وحول صديقي وجهه ونظر من النافذة إلى الفضاء كأنه يبحث عن أسرار الأيام والليالي
بين دقائق الأثير .

فقمتم إذ ذاك من مكاني ، ولما أخذت بيده مودعاً قلت له : غداً أزور فارس كرامة قياماً
بوعدي له واحتراماً للتذكارات التي أبقتها صداقته لوالدي .

فبهت بي الشاب دقيقة وقد تغيرت ملامحه كأن كلماتي القليلة البسيطة قد أوحى إليه فكرًا جديدًا هائلًا ، ثم نظر في عيني نظرة طويلة غريبة ، نظرة محبة وشفقة وخوف ، نظرة نبي يرى في أعماق الأرواح ما لا تعرفه الأرواح ، ثم ارتعشت شفتاه قليلًا ولكنه لم يقل شيئًا ، فتركته وسرت نحو الباب بأفكار متضعضعة ، وقيل أن يلتفت إلى الوراء رأيت عينيه ما زالتا تتبعاني بتلك النظرة الغريبة ، تلك النظرة التي لم أفهم معانيها حتى عتقت نفسي- من عالم المقاييس والكمية وطارت إلى مسارح الملاء الأعلى حيث تتفاهم القلوب بالنظرات وتنمو الأرواح بالتفاهم .

في باب الهيكل

وبعد أيام وقد مللت الوحدة وتعبت أجفاني من النظر إلى أوجه الكتب العابسة علوت مركبة طالبًا منزل فارس كرامة ، حتى إذا ما بلغت بي غابة الصنوبر حيث يذهب القوم للتنزه حول السائق وجهة فرسيه عن الطريق العمومية فسار خبيًا على ممر تظله أشجار الصفصاف وتتمايل على جانبيه الأعشاب والدوالي المتعرشة وأزاهر نيسان المبتسمة بثغور حمراء كالياقوت وزرقاء كالزمرد وصفراء كالذهب .

وبعد دقيقة وقفت المركبة أمام منزل منفرد تحيط به حديقة مترامية الأطراف تتعانق في جوانبها الأغصان وتعطر فضاءها رائحة الورد والفل والياسمين .

ما سرت بضع خطوات في تلك الحديقة حتى ظهر «فارس كرامة» في باب المنزل خارجاً للقائي كأن هدير المركبة في تلك البقعة المنفردة قد أعلن له قدومي ، فهش متأهلاً وقادني مرحباً إلى داخل الدار ، ونظير والد مشتاق أجلسني بقربه يحدثني مستفسراً عن ماضيّ مستطلعاً مقاصدي في مستقبلي ، فكنت أجيبه بتلك اللهجة المفعمة بنغمة الأحلام والأمان التي يترنم بها الفتیان قبل أن تقذفهم أمواج الخيال إلى شاطئ العمل حيث الجهاد والنزاع ، للشبيبة أجنحة ذات ريش من الشعر وأعصاب من الأوهام ترتفع بالفتیان إلى ما وراء الغيوم فيرون الكيان مغموراً بأشعة متلونة بألوان قوس قزح ، ويسمعون الحياة مرتلة أغاني المجد والعظمة ، ولكن تلك الأجنحة الشعرية لا تلبث أن تمزقها عواصف الاختبار فيهبطون إلى عالم الحقيقة ، وعالم مرآة غريبة يرى فيها المرء نفسه مصغرة مشوهة .

في تلك الدقيقة ظهرت من بين ستائر الباب المخملية صبية ترتدي أثواباً من الحرير الأبيض الناعم ومشت نحوي ببطء ، فوقفت ووقف الشيخ قائلاً : هذه ابنتي «سلمى» ، وبعد أن لفظ اسمي شفعه بقوله : إن ذاك الصديق القديم الذي حجبتة عني الأيام قد عادت فأبانت لي بشخص ابنه ، فأنا أراه الآن ولا أراه .

فتقدمت الصبية إليّ وحدثت إلى عينيّ كأنها تريد أن تستنطقها عن حقيقة أمري وتعلم منهما أسباب مجيئي إلى ذلك المكان ، ثم أخذت يدي بيد تضارب زنبقة الحقل بياضاً ونعمة ، فأحسست عند ملاسة الأكف بعاطفة غريبة جديدة أشبه شيء بالفكر الشعري عند ابتداء تكوينه في مخيلة الكاتب .

جلسنا جميعاً ساكتين كأن سلمى قد أدخلت معها إلى تلك الغرفة روحاً علوية توزع الصمت والتهيب ، وكأنها شعرت بذلك فالتفتت نحوي وقالت مبتسمة : كثيراً ما حدثني والدي عن أبيك معيداً على مسمعي حكايات شبابه ، فإن كان والدك قد أسمعك تلك الوقائع فلا يكون هذا اللقاء هو الأول بيننا .

فسر الشيخ بكلمات ابنته وانبسطت ملامحه ثم قال : إن سلمى روحية الميول والمذاهب ، فهي ترى جميع الأشياء سابحة في عالم النفس .

وهكذا عاد «فارس كرامة» إلى محادثتي باهتمام كلي ورقة متناهية كأنه وجد في سرًا سحريًا يرجعه على أجنحة الذكرى إلى ربيع أيامه الغابرة .

كان ذلك الشيخ يحدّق إليّ مسترجعًا أشباح شبابه وأنا أتأمله حالمًا بمستقبلي ، كان ينظر إليّ مثلما تخيّم أغصان الشجرة العالية المملوءة بمآتي الفصول فوق غرسة صغيرة مفعمة بعزم هاجع وحياة عمياء ، شجرة مسنّنة راسخة الأعراق قد اختبرت صيف العمر وشتاءه ووقفت أمام عواصف الدهر وأنوائه ، وغرسة ضعيفة ليّنة لم تر غير الربيع ولم ترتعش إلا بمرور نسيم الفجر .

أما سلمى فكانت ساكنة تنظر إليّ تارة وطورًا إلى أبيها كأنها تقرأ في وجهينا أوّل فصل من رواية الحياة وآخر فصل منها .

قضى ذلك النهار متنهدًا أنفاسه بين تلك الحداثات والبساتين وغابت الشمس تاركة قبلة صفراء على قمم لبنان المتعالية قبالة ذلك المنزل و«فارس كرامة» يتلو عليّ أخباره فيذهلني وأنا أترنّم أمامه بأغاني شبيبتي فأطربه ، و«سلمى» جالسة بقرب تلك النافذة تنظر إلينا بعينيها الحزينتين ولا تتحرّك وتسمع أحاديثنا ولا تتكلم كأنها عرفت أن للجمال لغة سماوية تترفع عن الأصوات والمقاطع التي تحدثها الشفاه والألسنة ، لغة خالدة تضمّ إليها جميع أنغام البشر وتجعلها شعورًا صامتًا مثلما تجتذب البحيرة الهادئة أغاني السواقي إلى أعماقها وتجعلها سكونًا أبديًا ، إن الجمال تفهمه أرواحنا وتفرح به وتنمو بتأثيراته ، أما أفكارنا فتقف أمامه محتارة محاولة تحديده وتجسيده بالألفاظ ولكنها لا تستطيع ، هو سيال خافٍ عن العين يتموج بين عواطف الناظر وحقيقة المنظور .

الجمال الحقيقي هو أشعة تنبعث من قدس أقداس النفس وتثير خارج الجسد مثلما تنشق الحياة من أعماق النواة وتكسب الزهرة لونًا وعطرًا ، هو تفاهم كلي بين الرجل والمرأة يتم بلحظة ، وبلحظة يولد ذلك الميل المترفع عن جميع الميول ، ذلك الانعطاف الروحي الذي ندعوه حبًا ، فهل فهمت روعي روح «سلمى» في عشية ذلك النهار فجعلني التفاهم أراها أجمل امرأة أمام الشمس ، أم هي سكرة الشبيبة التي تجعلنا نتخيل رسومًا وأشباحًا لا حقيقة لها؟ هل أعمتني الفتوة فتوهمت الأشعة في عيني «سلمى» والحلاوة في ثغرها والرقّة في قدّها ، أم هي تلك الأشعة وتلك الحلاوة وتلك الرقة التي فتحت عيني لتريني أفراح الحبّ وأحزانه؟ لا أدري ، ولكنني أعلم أنني شعرت بعاطفة لم أشعر بها قبل تلك الساعة ، عاطفة جديدة تمايلت حول قلبي بهدوء يشابه رفرفة الروح على الغمر قبل أن تبتدئ الدهور ، ومن تلك العاطفة قد تولدت سعادي وتعاستي مثلما ظهرت وتناسخت الكائنات بإرادة ذلك الروح .

هكذا انقضت تلك الساعة التي جمعتني بـ«سلمى» لأوّل مرة ، وهكذا شاءت السماء وأعتقتني على حين غفلة من عبودية الحيرة والحدائث لتسيرني حرًا في موكب المحبة ، فالمحبة هي الحرية الوحيدة في هذا العالم لأنّها ترفع النفس إلى مقام سام لا تبلغه شرائع البشر . وتقاليدهم ولا تسوده نوااميس الطبيعة وأحكامها .

ولما وقفت للانصراف اقترب مني «فارس كرامة» وقال بصوت تعانقه رنة الإخلاص : الآن وقد عرفت الطريق إلى هذا المنزل يجب أن تأتي إليه شاعرًا بالثقة التي تقودك إلى بيت أبيك وأن تحسبني وسلمى كوالد وأخت لك ، أليس كذلك يا سلمى؟

فحنت سلمى رأسها إيجابًا ثم نظرت إليّ نظرة غريب ضائع وجد رقيقًا يعرفه . إن تلك الكلمات التي قالها لي «فارس كرامة» هي النعمة الأولى التي أوقفني بجانب ابنته أمام عرش المحبة ، هي استهلال الأغنية السماوية التي انتهت بالندب والرثاء ، هي القوة التي شجعت روحينا فاقتربنا من النور والنار ، هي الإناء الذي شربنا فيه الكوثر والعلقم . وخرجت فشيّعني الشيخ إلى أطراف الحديقة ، فودعتها وقلبي يخفق في داخلي مثلما ترتعش شفتا العطشان بملامسة حافة الكأس .

الشعلة البيضاء

وانقضى نيسان وأنا أزور منزل «فارس كرامة» وألتقي «سلمى» وأجلس قبالتها في تلك الحديقة متأملاً محاسنها ، معجباً بمواهبها ، مصغياً لسكينة كآبتها ، شاعراً بوجود أيدٍ خفية تجتذني إليها ، فكل زيارة كانت تبين لي معنى جديداً من معاني جمالها وسراً من أسرار روحها حتى أصبحت أمام عينيّ كتاباً أقرأ سطورهِ وأستظهر آياته وأترنّم بنغمته ولا أستطيع الوصول إلى نهايته .

إن المرأة التي تمنحها الآلهة جمال النفس مشفوعاً بجمال الجسد هي حقيقة ظاهرة غامضة نفهمها بالمحبة ونلمسها بالطهر ، وعندما نحاول وصفها بالكلام تختفي عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة والالتباس .

و«سلمى كرامة» كانت جميلة النفس ، والجسد فكيف أصفها لمن لا يعرفها؟ هل يستطيع الجالس في ظلّ أجنحة أن يستحضر تغريدة البلبل ، وهمس الورد ، وتهيئة الغدير؟ أيقدر الأسير المثلث بالقيود أن يلاحق هبوب نسائم الفجر؟ ولكن أليس السكوت أصعب من الكلام؟ وهل يمنعني التهيّب عن إظهار خيال من أخيلة سلمى بالألفاظ الواهية إذا كنت لا أستطيع أن أرسم حقيقتها بخطوط من الذهب؟ إن الجائع السائر في الصحراء لا يأبى أكل اليابس إذا كانت السماء لا تمطره المنّ والسلوى .

كانت «سلمى» نحيلة الجسم تظهر بملابسها البيضاء الحريرية كأشعة قمر دخلت من النافذة ، كانت حركاتها بطيئة متوازنة أشبه شيء بمقاطع الألحان الأصفهانية ، وصوتها منخفضاً حلواً تقطعه التنهيدات ، فينسكب من بين شفّتها القرمزتين مثلما تتساقط قطرات الندى عن تيجان الزهور بمرور تموجات الهواء ، ووجهها! ومن يا ترى يستطيع أن يصف وجه سلمى كرامة؟ بأية ألفاظ نقدر أن نصور وجهاً حزيناً هادئاً محجوباً وليس بنقاب من الاصفرار الشفاف؟ بأية لغة نقدر أن نتكلم عن ملامح تعلن في كلّ دقيقة سرّاً من أسرار النفس وتذكر الناظرين إليها بعالم روعي بعيد عن هذا العالم!

إن الجمال في وجه «سلمى» لم يكن منطبقاً على المقاييس التي وضعها البشر- للجمال ، بل كان غريباً كالحلم أو كالرؤيا أو كفكر علوي لا يقاس ولا يحدُّ ولا ينسخ بريشة الصوّر ، ولا يتجسّم برخام الحفّار .

جمال «سلمى» لم يكن في شعرها الذهبي بل في هالة الطهر المحيطة به ، ولم يكن في عينيها الكبيرتين بل في النور المنبعث منهما ، ولا في شفيتها الورديتين بل في الحلاوة السائلة عليهما ، ولا في عنقها العاجي بل في كيفة انحنائه قليلاً إلى الأمام ، جمال سلمى لم يكن في كمال جسدها بل في نبالة روحها الشبيهة بشعلة بيضاء متقدة سابحة بين الأرض واللا نهاية ، جمال سلمى كان نوعاً من ذلك النبوغ الشعري الذي نشاهد أشباحه في القصائد السامية والرسوم والأنغام الخالدة ، وأصحاب النبوغ تعساء مهما تسامت أرواحهم تظلّ مكتنفة بغلاف من الدموع .

وكانت سلمى كثيرة التفكير قليلة الكلام ، لكن سكوتها كان موسيقياً ينتقل بجليسها إلى مسارح الأحلام البعيدة ، ويجعله يصغي لنبضات قلبه ، ويرى أخيلة أفكاره وعواطفه منتصبة أمام عينيه .

أمّا الصفة التي كانت تعانق مزايا «سلمى» وتساور أخلاقها في الكآبة العميقة الجارحة ، فالكآبة كانت وشاحاً معنوياً ترتديه فتزيد محاسن جسدها هيبه وغرابة ، وتظهر أشعة نفسها من خلال خيوطه كخطوط شجرة مزهرة من وراء ضباب الصباح ، وقد أوجدت الكآبة بين روحي وروح «سلمى» صلة المشابهة ، فكان كلانا يرى في وجه الثاني ما يشعر به قلبه ، ويسمع بصوته صدى مخبات صدره ، فكأن الآلهة قد جعلت كلّ واحد منا نصفاً للآخر يلتصق به الطهر فيصير إنساناً كاملاً ، وينفصل عنه فيشعر بنقص موجه في روحه .

إنّ النفس الحزينة المتألّمة تجد راحة بانضمامها إلى نفس أخرى تماثلها بالشعور وتشاركها بالإحساس مثلما يستأنس الغريب بالغريب في أرض بعيدة عن وطنهما ، فالقلوب التي تدنيها أو جاع الكآبة بعضها من بعض لا تفرقها بهجة الأفراح وبهرجتها ، فرابطة الحزن أقوى في النفوس من روابط الغبطة والسرور .

والحبّ الذي تغسله العيون بدموعها يظلّ طاهراً وجميلاً وخالداً .

العاصفة

وبعد أيام دعاني «فارس كرامة» إلى تناول العشاء في منزله ، فذهبت ونفسي- جائعة إلى ذلك الخبز العلوي الذي وضعته السماء بين يدي سلمى ، ذلك الخبز الذي نلتهمه بأفواه أفئدتنا فنزداد جوعاً ، ذلك الخبز السحري الذي ذاق طعمه قيس العربي ودانتي الطليافي وسافو اليونانية فالتهمت أحشاؤهم وذابت قلوبهم ، ذلك الخبز الذي عجنته الآلهة بحلاوة القبل ومرارة الدموع وأعدته مأكلاً للنفوس الحساسة المستيقظة لتفرحها بطعمه وتعذبها بتأثيره .

ولما بلغت المنزل وجدت «سلمى» جالسة على مقعد خشبي في زاوية من الحديقة وقد أسندت رأسها إلى عمدة شجرة فبانت بثوبها الأبيض كواحدة من عرائس الخيال تخفر ذلك المكان ، فدنوت منها صامتاً وجلست بقربها جلوس مجوسي متهيّب أمام النار المقدسة ، ولما حاولت الكلام وجدت لساني منعقداً وشفتيّ جامدتين فاستأنست بالسكوت ، لأن الشعور العميق غير المتناهي يفقد شيئاً من خاصّته المعنويّة عندما يتجسم بالألفاظ المحدودة ، ولكنني شعرت بأنّ سلمى كانت تسمع في السكينة مناجاة قلبي المتواصلة وتشاهد في عينيّ أشباح نفسي المرتعشة .

وبعد هنيهة خرج «فارس كرامة» إلى الحديقة ومشى نحونا مرحباً بي كعادته باسطاً يده إليّ كأنه يريد أن يبارك بها ذلك السرّ الخفيّ الذي يربط روحي بروح ابنته ، ثمّ قال مبتسماً : هلمّ يا ولديّ إلى العشاء فالطعام ينتظرنا ، فقمنا وتبعناه وسلمى تنظر إليّ من وراء أجفان مكحولة بالرقّة والانعطاف كأن لفظة « يا ولديّ » قد أيقظت في داخلها شعوراً جديداً عذباً يكتنف محبتها لي مثلما تحتضن الأم طفلها .

جلسنا إلى المائدة نأكل ونشرب ونتحدث في تلك الغرفة نتلذذ بألوان الطعام الشهية وأنواع الخمور المعتقة وأرواحنا تسبح على غير معرفة منّا في عالم بعيد عن هذا العالم وتحلم بمآتي المستقبل وتتأهب للوقوف أمام مخاوفه وأهواله ، ثلاثة أشخاص تختلف أفكارهم باختلاف مقاصدهم من الحياة وتتفق سرائرهم باتفاق قلوبهم بالمودة والمحبة ، ثلاثة من الضعفاء الأبرياء يشعرون كثيرًا ويعفون قليلًا ، وهذه هي المأساة المستتبة على مسرح النفس : شيخ جليل شريف يحب ابنته ولا يحفل بغير سعادتها ، وصبية في العشرين من عمرها ترى المستقبل قريبًا بعيدًا وتحقق إليه لترى ما يخبئ لها من الغبطة والشقاء ، وفتى كثير الأحلام والهواجس لم يذق بعد خمر الحياة ولا خلّها يحرك جناحيه ليطير سابعًا في فضاء المحبة والمعرفة ولكنه لا يستطيع النهوض لضعفه ، ثلاثة جالسون حول مائدة أنيقة في منزل منفرد عن المدينة تخيم عليه سكينه الدجي وتحقق إليه عيون السماء ، ثلاثة يأكلون ويشربون وفي أعماق صحوهم وكؤوسهم قد أخفى القدر المرارة والأشواك .

ولم تنته من العشاء حتى دخلت علينا إحدى الخادومات وخاطبت فارس كرامة قائلة : في الباب رجل يطلب مقابلتك يا سيدي .

فسألها : من هو هذا الرجل ؟ فأجابت : أظنه خادم المطران يا سيدي ، فسكت دقيقة وحدّق إلى عيني ابنته نظير نبي ينظر إلى وجه السماء ليرى ما تخبئه من الأسرار ، ثم التفت نحو الخادمة وقال : دعيه يدخل .

فعادت الخادمة ، وبعد هنيهة ظهر رجل بأثواب مزركشة وشارب معقوف الطرفين ، فسلم منحنيًا ، وخاطب فارس كرامة قائلاً : قد بعثني سيادة المطران بمركبته الخصوصية لأطلب إليك أن تتكرّم بالذهاب إليه ، فهو يريد أن يباحثك بأمور ذات أهمية .

فانتصب الشيخ وقد تغيرت ملامحه وانحجبت بشاشة وجهه وراء نقاب من التأمل والتفكير ، ثم اقترب مني وقال بصوت تساوره الرقة والحلاوة : أرجو أن أعود وألقاك ههنا ، فسلمى ستجد بك مؤنسًا يبعد بأحاديثه وحشة الليل ، ويزيل بأنغام نفسه تأثير الوحدة والانفراد ، ثم التفت نحو ابنته وزاد مبتسمًا : أليس كذلك يا سلمى ؟
فحنت الصبية رأسها وقد تورّدت وجتها قليلًا ، وبصوت يضارع نغمة الناي رقة قالت :

- سوف أجهد نفسي لكي أجعل ضيفنا مسرورًا يا والدي .

وخرج الشيخ مصحوبًا بخادم المطران وظلت سلمى واقفة تنظر من النافذة نحو الطريق حتى اختفت المركبة عن بصرها وراء ستائر الظلام واضمحل ارتجاج الدواليب بتباعد المسافة وتشرب السكون حرقلة سنابك الخيل ، ثم جلست قبالي على مقعد موشى بنسيج من الحرير الأخضر فبانت بأثوابها الناصعة كزنبقة لوت قامتها نسيمات الصباح على بساط من الأعشاب .

كذا شاءت السماء فخلوت بسلمى ليلاً في منزل منفرد تخفّره الأشجار ، وتغمره السكينة ، وتسير في جوانبه أخيلة الحبّ والطهر والجمال .

ومرت دقائق وكلانا صامت حائر مفكر يترقب الآخر ليبدأ بالكلام ، ولكن هل هو الكلام الذي يحدث التفاهم بين الأرواح المتحابّة؟ هل هي الأصوات والمقاطع الخارجة من الشفاة والألسنة التي تقرب بين القلوب والعقول؟ أفلا يوجد شيء أسمى مما تلده الأفواه وأظهر مما تهتز به أوتار الحناجر؟ أليست هي السكينة التي تحمل شعاع النفس إلى النفس ، وتنقل همس القلب إلى القلب؟ أليست هي السكينة التي تفصلنا عن ذواتنا فنسبح في فضاء الروح غير المحدود ، مقترين من الملائ الأعلى ، شاعرين بأن أجسادنا تفوق السجون الضيقة ، وهذا العالم لا يمتاز عن المنفى البعيد؟

ونظرت «سلمى» إليّ وقد باحت أجفانها بسرائر نفسها ثمّ قالت بهدوء سحري : تعال
نخرج إلى الحديقة ونجلس بين الأشجار لنرى القمر طالعا من وراء الجبل .
فوقفت مطيعا وقلت ممانعا : أليس الأفضل أن نبقى ههنا يا سلمى حتى يطلع القمر
وينير الحديقة؟

أما الآن فالظلام يحجب الأشجار والأزهار فلا نستطيع أن نرى شيئا ، فأجابت : إذا
حجب الظلام الأشجار والرياحين عن العين فالظلام لا يحجب الحبّ عن النفس .
قالت هذه الكلمات بلهجة غريبة ، ثمّ حولت عينيها ونظرت نحو النافذة ، فبقيت أنا
صامتا مفكرا بكلماتها مصورا لكل مقطع معنى ، راسما لكل معنى حقيقة ، ثمّ عادت
فحدقت إليّ كأنها ندمت على ما قالت فحاولت استرجاع كلماتها من أذنيّ بسحر أجفانها ،
ولكن سحر تلك الأجفان لم يسترجع تلك الألفاظ إلا ليعيدها إلى أعماق صدري أكثر
وضوحا وأشدّ تأثيرا وليبقّيها هناك ملتصقة بقلبي متموجة مع عواطفي إلى آخر الحياة .

كل شيء عظيم وجميل في هذا العالم يتولد في فكر واحد ومن حاسة واحدة داخل الإنسان
، كلّ ما نراه اليوم من أعمال الأجيال الغابرة كان قبل ظهوره فكرا خفيا في عاقلة رجل أو
عاطفة لطيفة في صدر امرأة ... الثورات الهائلة التي أجرت الدماء كالسواقي وجعلت
الحرية تُعبد كالألهة كانت فكرا خياليا مرتعشا بين تلايف دماغ رجل فرد عائش بين ألوف
من الرجال ، والحروب الموجهة التي ثلت العروس وخربت الممالك كانت خاطرا يتمايل في
رأس رجل واحد ، والتعاليم السامية التي غيرت مسار الحياة البشرية كانت ميلا شعريا في
نفس رجل واحد منفصل بنبوغه عن محيطه ، فكر واحد أقام الأهرام وعاطفة واحدة خربت
طروادة وخاطر واحد أوجد مجد الإسلام وكلمة واحدة أحرقت مكتبة الإسكندرية .

فكر واحد يجيئك في سكينة الليل يسير بك إلى المجد أو إلى الجنون ، نظرة واحدة من أطراف أجفان امرأة تجعلك أسعد الناس أو أتعسهم ، كلمة واحدة تخرج من بين شفتي رجل تصيرك غنياً بعد الفقر أو فقيراً بعد الغنى ... كلمة واحدة لفظتها سلمى كرامة في تلك الليلة الهادئة أوقفنتني بين ماضي ومستقبلي وقوف سفينة بين لجة البحار وطبقات الفضاء ، كلمة واحدة معنوية قد أيقظتني من سبات الحداثة والخلو وسارت بأيامي على طريق جديدة إلى مسارح الحب حيث الحياة والموت .

خرجنا إلى الحديقة وسرنا بين الأشجار شاعرين بأصابع النسيم الخفية تلامس وجهينا وقامات الأزهار والأعشاب اللدنة تتمايل بين أقدامنا ، حتى إذا ما بلغنا شجرة الياسمين جلسنا صامتين على ذلك المقعد الخشبي نسمع تنفس الطبيعة النائمة ونكشف بحلاوة التنهد خفايا صدورنا أمام عيون السماء الناضرة إلينا من وراء ازرقاق السماء .

وطلع القمر إذ ذاك من وراء صنيّ وغمر بنوره تلك الروابي والشواطئ ، فظهرت القرى على أكتاف الأودية كأنها قد انبثقت من اللاشيء ، وبان لبنان جميعه من تحت تلك الأشعة الفضية كأنه فتى متكئ على ساعده تحت نقاب لطيفة يخفي أعضائه ولا يخفيها .

لبنان عند شعراء الغرب مكان خيالي قد اضمحلّت حقيقته بذهاب داود وسليمان والأنبياء مثلما انحجبت جنة عدن بسقوط آدم وحواء ، هو لفظة شعريّة لا اسم جبل ، لفظة ترمز عن عاطفة في النفس وتستحضر إلى الفكر رسوم غاباتٍ من الأرز يفوح منها العطر والبخور ، وأبراج من النحاس والرّخام تتعالى بالمجد والعظمة ، وأسراب من الغزلان تتهادى بين الطلول والأودية ، وأنا قد رأيت لبنان في تلك الليلة مثل فكر شعري خيالي منتصب كالحلم بين اليقظة واليقظة ، كذا تتغيّر الأشياء أمام أعيننا بتغير عواطفنا ، وهكذا نتوهم الأشياء متشحة بالسحر والجمال عندما لا يكون السحر والجمال إلا في نفوسنا .

والتفتت إليّ «سلمى» وقد غمر نور القمر وجهها وعنقها ومعصميه فبانت كتمثال من العاج
نحتته أصابع متعبد لعشثروت ربّة الحسن والمحبة : لماذا لا تتكلم؟ لماذا لا تحدّثني عن ماضي
حياتك؟

فنظرت إلى عينيها المنيرتين ، ومثل أحرص فاجأ النطق شفثيه أجبتّها قائلاً : ألم تسمعيني
متكلّمًا مذ جئت إلى هذا المكان؟ أو لم تسمعي كلّ ما قلته مذ خرجنا إلى هذه الحديقة؟ إنّ
نفسك التي تسمع همس الأزهار وأغاني السكينة تستطيع أن تسمع صراخ روحي وضجيج
قلبي .

فَحَجَبَتْ وجهها بيديها ثمّ قالت بصوت متقطع : قد سمعتك ... نعم سمعتك ...
سمعت صوتًا صارخًا خارجًا من أحشاء الليل وضجّة هائلة منبثقة من قلب النهار .
فقلت بسرعة وقد نسيت ماضي حياتي ونسيت كلّ شيء ولم أعد أعرف سوى سلمى ولا
أشعر بغير وجودها : وأنا قد سمعتك يا سلمى ، سمعت نعمة عظيمة محيية جارحة تتموّج
لها دقائق الفضاء وتهتزّ بارتعاشها أسس الأرض .

فأغمضت سلمى أجفانها وظهر على شفثيها القرمزيتين خيال ابتسامة مخزنة ثمّ همست قائلة :
قد عرفت الآن أنّه يوجد شيء أعلى من السماء وأعمق من البحر وأقوى من الحياة والموت والزمن
، وقد عرفت الآن ما لم أكن أعرفه بالأمس ولا أحلم به .

منذ تلك الدقيقة صارت «سلمى كرامة» أعزّ من الصديق وأقرب من الأخت وأحبّ من
الحبيبة ، صارت فكرًا ساميًا يتبع عاقلتي وعاطفة رقيقة تكتنف قلبي وحلمًا جميلًا يجاور
نفسي .

ما أجهل الناس الذين يتوهمون أن المحبة تتولد بالمعاشرة الطويلة والمرافقة المستمرة ، إنّ المحبة الحقيقية هي ابنة التفاهم الروحي وإن لم يتم هذا التفاهم بلحظة واحدة لا يتم بعام ولا بجيل كامل .

ورفعت «سلمى» رأسها ونظرت نحو الأفق البعيد حيث تلتقي خطوط صنين بأذيال الفضاء ، ثم قالت : لقد كنت لي بالأمس مثل أخ أقرب منه مطمئنة وأجلس بجانبه في ظلال والدي ، أما الآن فقد شعرت بوجود شيء أقوى وأعذب من العلاقة الأخوية ، قد شعرت بعاطفة غريبة مجردة عن كلّ علاقة : عاطفة قوية مخيفة لذيدة تملأ قلبي حزناً وفرحاً . فأجبتها : أليست هذه العاطفة التي نخافها ونرتجف لمرورها في صدورنا جزءاً من الناموس الكلي الذي يسير القمر حول الأرض ، والأرض حول الشمس ، والشمس وما يحيط بها حول الله؟

فوضعت يدها على رأسي وغرست أصابعها بشعري وقد تهلل وجهها وترقرقت الدموع في عينيها مثلما تلمع قطرات الندى على أطراف أوراق النرجس ، ثم قالت : مَنْ من البشر- يصدق حكايتنا؟ من منهم يصدق أننا في الساعة التي تجيء بين غروب الشمس وطلوع القمر ، قد قطعنا العقبات واجتزنا المعابر الكائنة بين الشك واليقين؟ من منهم يعتقد أن نيسان الذي جمعنا لأول مرة هو الشهر الذي أوقفنا في قدس أقداس الحياة؟

قالت هذه الكلمات ويدها ما برحت على رأسي المنحني ، ولو تخيرت في تلك الدقيقة لما فضلت تيجان الملوك وأكاليل الغار على تلك اليد الحريرية المتلاعببة بشعري ، ثم أجبتها قائلاً : إن البشر لا يصدقون حكايتنا لأنهم لا يعلمون بأن المحبة هي الزهرة الوحيدة التي تنبت وتنمو بغير معاونة الفصول ، ولكن هل هو نيسان الذي جمعنا لأول مرة ، وهل هي هذه الساعة التي أوقفنا في قدس أقداس الحياة؟ أما جمعت روحينا قبضة الله قبل أن تصيرنا الولادة أسيري الأيام والليالي؟ إن حياة الإنسان يا سلمى لا تبتدئ في الرحم كما أنها لا تنتهي أمام القبر ، وهذا الفضاء الواسع المملوء بأشعة القمر والكواكب لا يخلو من الأرواح المتعاقبة بالمحبة والنفوس المتضامنة بالتفاهم .

ورفعت «سلمى» يدها بلطف عن رأسي تاركة بين مغارس الشعر تموجات كهربائية يتلاعب بها نسيم الليل فيزيدها نموًا وحراكًا ، فأخذت تلك اليد براحتي نظير متعبد يتبرك بلثم المذبح ووضعتها على شفتيَّ الملتهبتين وقبّلتها قبلة طويلة عميقة خرساء تذيب حرارتها كلّ ما في القلب البشري من الإحساس وتنبه بعذوبتها كلّ ما في النفس الإلهية من الطهر .

ومرّت علينا ساعة كلّ دقيقة منها عام شغف ومحبة ، تساورنا سكينة الليل وتغمرنا أشعة القمر وتحيط بنا الأشجار والرياحين ، حتى إذا ما بلغنا تلك الحالة التي ينسى فيها الإنسان كلّ شيء سوى حقيقة الحبّ سمعنا وقع حوافر وهدير مركبة تقترب منّا بسرعة ، فانتبهنا من تلك الغيوبة اللذيذة وهبطت بنا اليقظة من عالم الأحلام إلى هذا العالم الوقف بمسيره بين الحيرة والشقاء ، فعرفنا أن الوالد الشيخ قد عاد من دار المطران ، فسرنا بين الأشجار ننتظر وصوله ، وبلغت المركبة مدخل الحديقة فترجّل فارس كرامة وسار نحونا منحني الرأس بطيء الحركة ، ونظير متعب رازح تحت حمل ثقيل تقدّم نحو سلمى ووضع كلتا يديه على كتفيها وحدّق إلى وجهها طويلًا كأنه يخاف أن تغيب صورتها عن عينيه الضئيلتين ، ثمّ انسكبت دموعه على وجنتيه المتجعدتين وارتجفت شفتاه بابتسامة محزنة وقال بصوت مخنوق : عما قريب يا سلمى ، عما قريب تخرجين من بين ذراعي والدك إلى ذراعي رجل آخر ، عما قريب تسير بك سنّة الله من هذا المنزل المنفرد إلى ساحة العالم الواسعة فتصبح هذه الحديقة مشتاقّة إلى وطء قدميك ويصير والدك غريبًا عنك ، لقد لفظ القدر كلمته يا سلمى ، فلتباركك السماء وتحرسك !

سمعت «سلمى» هذه الكلمات فتغيرت ملاحظتها وجمدت عيناها كأنها رأت شبح الموت منتصباً أمامها ، ثم شهقت وتلملت متوجّعة كعصفور رماه الصياد فهبط على الحضيض مرتجفاً بالآلامه ، وبصوت تقطعه الغصّات العميقة صرخت قائلة : ماذا تقول؟ ماذا تعني؟ إلى أين تبعث بي؟

ثم شخصت به كأنها تريد أن تزيل بنظراتها الغلاف عن مخبآت صدره ، وبعد دقيقة مثقلة بعوامل ذلك السكون الشبيه بصراخ القبور قالت متأوّهة : قد فهمت الآن ... قد عرفت كلّ شيء ... إن المطران قد فرغ من حبك قضبان القفص الذي أعدّه لهذا الطائر المكسور الجناحين ، فهل هذه هي إرادتك يا والدي؟

فلم يجبها بغير التنهّدات العميقة ، ثم أدخلها الدار وأشعة الحنو تنسكب من ملامحه المضطربة ، فبقت أنا واقفاً بين الأشجار والحيرة تتلاعب بعواطفي مثلما تتلاعب العواصف بأوراق الخريف ، ثم تبعتهما إلى القاعة ، وكيلاً أظهر بمظهر طفيلي يميل إلى استطلاع الخصوصيات أخذت يد الشيخ مودّعاً ونظرت إلى سلمى نظرة غريق تلفت نحو نجم لامع في قبة الفلك ، ثم خرجت دون أن يشعر بخروجي ، ولكنني ما بلغت أطراف الحديقة حتى سمعت صوت الشيخ منادياً ، فالتفت وإذا به يتبعني ، فعدت إلى لقاءه ، ولما دنوت منه أمسك بيدي وقال بصوت مرتعش : ساعمني يا ابني فقد جعلت ختام ليلتك مكتنفاً بالدموع ، ولكنك سوف تجيء إليّ دائماً ، أليس كذلك؟ ألا تزورني عندما يصير هذا المكان خالياً إلا من الشيخوخة المحزنة؟ إن الشباب الغض لا يستأنس بالشيخوخة الذابلة كما إن الصباح لا يلتقي بالمساء ، أمّا أنت فسوف تجيء إليّ لتذكرني بأيام الصبا التي صرفتها بقرب أبيك وتعيد على مسمعي أخبار الحياة التي لم تعد تحسبني من أبنائها ، أليس كذلك؟ ألا تزورني عندما تذهب سلمى وأصبح وحيداً منفرداً في هذا المنزل البعيد عن المنازل؟

لفظ الكلمات الأخيرة بصوت منخفض متقطع ، ولما أخذت يده وهزرتها صامتاً
أحسست بقطرات من الدموع السخينة قد تساقطت على يدي من أجفانه ، فارتعشت نفسي-
في داخلي وشعرت نحوه بعاطفة بنوية عذبة محزنة تتمايل بين ضلوعي وتصاعد كاللهاث إلى
شفتيّ ثمّ تعود كالغصات إلى أعماق قلبي ، ولما رفعت رأسي ورأى أن دموعه قد استدرت
الدموع من أجفاني انحنى قليلاً ولمس بشفتيه المرتجفتين أعلى جبهتي ثمّ قال محوّلًا وجهه
نحو باب المنزل : مساء الخير ... مساء الخير يا ابني .

إن دمة واحدة تتلمع على وجنة شيخ متجعدة لهي أشدّ تأثيراً في النفس من كلّ ما تهرقه
أجفان الفتیان .

إن دموع الشباب الغزيرة هي ممّا يفيض من جوانب القلوب المترعة ، أمّا دموع الشيوخ
فهي فضلات العمر تنسكب من الأحداق ، هي بقية الحياة في الأجساد الواهنة ، الدموع في
أجفان الشبيبة كقطرات الندى على أوراق الوردة ، أمّا الدموع على وجنة الشيخوخة فأشبهه
بأوراق الخريف المصفرة التي تنثرها الرياح وتذريها عندما يقترب شتاء الحياة .

واختفى «فارس كرامة» وراء مصراعي الباب وخرجت أنا من تلك الحديقة وصوت سلمى
يتموّج في أذنيّ ، وجمالها يسير كالخيال أمام عينيّ ، ودموع والدها تجفّ ببطء على يديّ ، خرجت
من ذلك المكان خروج آدم من الفردوس ، ولكن حواء هذا القلب لم تكن بجانبني لتجعل العالم
كلّه فردوساً ، خرجت شاعراً بأن تلك الليلة التي ولدت فيها ثانية هي الليلة التي لمحت فيها وجه
الموت لأوّل مرّة . كذا تحيي الشمس الحقول بحراراتها وبحرارته تميتهها .

بحيرة النار

كل ما يفعله الإنسان سرًّا في ظلمة الليل يظهره الإنسان علنًا في نور النهار ، الكلمات التي تهمسها شفاهنا في السكينة تصير على غير معرفة منّا حديثًا عمومياً ، والأعمال التي نحاول اليوم إخفاءها في زوايا المنازل تتجسّم غدًا وتنتصب في منعطفات الشوارع .

كذا أعلنت أشباح الدجى مقاصد المطران بولس غالب من اجتماعه بفارس كرامة ، وهكذا حملت دقائق الأثير أقواله وأحاديثه إلى أحياء المدينة حتى بلغت مسمعي .

ما طلب المطران بولس غالب مقابلة فارس كرامة في تلك الليلة القمرية ليفاوضه بشؤون الفقراء والمعوزين أو يخامرهم بأمور الأرامل والأيتام ، بل أحضره بمركبته الخصوصية الفخمة ليطلب منه ابنته سلمى عروسًا لابن أخيه منصور بك غالب .

كان «فارس كرامة» رجلًا غنيًا ولم يكن له وارث سوى ابنته سلمى ، وقد اختارها المطران زوجة لابن أخيه ، لا لجمال وجهها ونبالة روحها بل لأنها غنية موسرة تكفل بأموالها الطائلة مستقبل منصور بك وتساعد به بأملاكها الواسعة على إيجاد مقام رفيع بين الخاصة والأشراف .

إن رؤساء الدين في الشرق لا يكتفون بما يحصلون عليه أنفسهم من المجد والسؤدد بل يفعلون كلّ ما في وسعهم ليجعلوا أنسابهم في مقدّمة الشعب ومن المستبدين به والمستدرين قواه وأمواله .

إن مجد الأمير ينتقل بالإرث إلى ابنه البكر بعد موته ، أما مجد الرئيس المدني فينتقل بالعدوى إلى الإخوة وأبناء الإخوة في حياته ، وهكذا يصبح الأسقف المسيحي والإمام المسلم والكاهن البرهمي كأفاعي البحر التي تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة وتمتصّ دماءها بأفواه عديدة .

عندما طلب المطران «بولس» يد «سلمى» من والدها لم يجبه ذلك الشيخ بغير السكوت العميق والدموع السخينة ، وأي والد لا يشقّ عليه فراق ابنته حتى ولو كانت ذاهبة إلى بيت جاره أو إلى قصر ملك؟ أيّ رجل لا ترتعش أعماق نفسه بالغصّات عندما يفصله ناموس الطبيعة عن الابنة التي لاعبها طفلة وهذبها صبية ورافقها امرأة؟ إن كآبة الوالدين لزواج الابنة يضارع فرحهما بزواج الابن ، لأن هذا يكسب العائلة عضواً جديداً ، أما ذاك فيسلبها عضواً قديماً عزيزاً ، أجاب الشيخ طلب المطران مضطراً وانحنى أمام مشيئته قهراً عما في داخل نفسه من الممانعة ، وكان قد اجتمع بابن أخيه «منصور بك» وسمع الناس يتحدثون عنه فعرف خشونته وطمعه وانحطاط أخلاقه ، ولكن أيّ مسيحي يقدر أن يقاوم أسقفاً في سوريا ويبقى محسوباً بين المؤمنين؟ أيّ رجل يخرج عن طاعة رئيس دينه في الشرق ويظل كريماً بين الناس؟ أتعاوند العين سهماً ولا تفقأ أو تناضل اليد سيفاً ولا تقطع؟ وهَبْ أن ذلك الشيخ كان قادراً على مخالفة المطران بولس والوقوف أمام مطامعه فهل تكون سمعة ابنته في مآمن من الظنون والتأويل ، وهل يظل اسمها نقيّاً من أوساخ الشفاه والألسنة؟ أوليت جميع العناقيد العالية حامضة في شرع بنات آوى؟

هكذا قبض القدر على «سلمة كرامة» وقادها عبدة ذليلة في موكب النساء الشرقيات التاعسات ، وهكذا سقطت تلك الروح النبيلة بالحبائل بينما كانت تسبح لأوّل مرّة على أجنحة الحبّ البيضاء في فضاء تملأه أشعة القمر وتعطره رائحة الأزاهر .

إنّ أموال الآباء تكون في أكثر المواطن مجلبةً لشقاء البنين ، تلك الخزائن الواسعة التي يملأها نشاط الوالد وحرص الأم ، تنقلب حبوسًا ضيقة مظلمة لنفوس الورثة ، ذلك الإله العظيم الذي يعبدّه الناس بشكل الدينار ينقلب شيطانًا مخيفًا يعذب النفوس ويميت القلوب ، و«سلمى كرامة» هي كالكثيرات من بنات جنسها اللواتي يذهبن ضحية ثروة الوالد وأمانى العريس ، فلو لم يكن فارس كرامة رجلًا غنيًا لكانت سلمى اليوم حية تفرح مثلنا بنور الشمس .

مرّ أسبوع وحب «سلمى» يجالسني في المساء منشدًا على مسمعي أغاني السعادة وينبهني عند الفجر ليريني معاني الحياة وأسرار الكيان ، حب علوي لا يعرف الحسد لأنه غنيّ ، ولا يوجع الجسد لأنه في داخل الروح ، ميل قوي يغمر النفس بالقناعة ، مجاعة عميقة تملأ القلب بالاكْتفاء ، عاطفة تولد الشوق ولكنها لا تثيره ، فتون جعلني أرى الأرض نعيمًا والعمر حلمًا جميلًا ، فكنت أسير صباحًا في الحقول وأرى في يقظة الطبيعة رمز الخلود ، وأجلس على شاطئ البحر وأسمع من أمواجه أغاني الأبدية ، وأمشي- في شوارع المدينة وأجد في طلعات العابرين وحركات المشتغلين محاسن الحياة وبهجة العمران .

تلك أيام مضت كالأشباح واضمحلت كالضباب ولم يبق لي منها سوى الذكرى الأليمة ، فالعين التي كنت أرى بها جمال الربيع ويقظة الحقول لم تعد تحدق إلى غير غضب العواصف ويأس الشتاء ، والأذن التي كنت أسمع بها أغنية الأمواج لم تعد تصغي لغير آنة الأعماق وعويل الهاوية ، والنفس التي كانت تقف متهيبة أمام نشاط البشر ومجد العمران لم تعد تشعر بغير شقاء الفقر وتعاسة الساقطين ، فما أحلى أيام الحبّ وما أعذب أحلامها ، وما أمر ليالي الحزن وما أكثر مخاوفها!

وفي نهاية الأسبوع وقد سكرت نفسي بخمرة عواطفي سرت مساء إلى منزل سلمى كرامة ، وذلك الهيكل الذي أقامه الجمال و قدسه الحبّ لتسجد فيه النفس مصلية ويركع القلب خاشعًا ، ولما بلغته ودخلت إلى تلك الحديقة الهادئة أحسست بوجود قوّة تستهويني وتستميلني وتبعدني عن هذا العالم وتدنيني ببطء إلى عالم سحري خالٍ من العراك والجهاد ، ومثل متصوف جذبته السماء إلى مسارح الرؤيا وجدتني سائرًا بين تلك الأشجار المحتبكة والزهور المتعانقة ، حتى إذا ما اقتربت من باب الدار التفت وإذا بسلمى جالسة على ذلك المقعد بظلال شجرة الياسمين حيث جلسنا منذ أسبوع في تلك الليلة التي اختارتها الآلهة من بين الليالي وجعلتها بدء سعادتي وشقائي ، فدنوت منها صامتًا فلم تتحرك ولم تتكلّم كأنّها علمت بقدومي قبل قدومي ، ولما جلست بجانبها حدقت إلى عينيّ دقيقة وتنهدت تنهيدة طويلة ثمّ عادت فنظرت إلى الشفق البعيد حيث تعبث أوائل الليل بأواخر النهار ، وبعد هنيهة مملوءة بتلك السكينة السحرية التي تضم نفوسنا إلى مواكب الأرواح غير المنظورة ، حوّلت سلمى وجهها نحوي وأخذ يدي بيد مرتعشة باردة ، وبصوت يشابه تأوّه جائع لا يقوى على الكلام قالت :

- انظر إلى وجهي يا صديقي ، انظر إلى وجهي جيدًا وتأمله طويلًا واقراء فيه كلّ ما تريد أن تفهمه مني بالكلام ... انظر إلى وجهي يا حبيبي انظر جيدًا يا أخي .

فنظرت إلى وجهها ، نظرت طويلًا ، فرأيت تلك الأجفان التي كانت منذ أيام قليلة تبسم كالشفاه وتتحرك كأجنحة الشحرور قد غارت وجمدت واكتحلت بخيالات التوجّع والألم ، رأيت تلك البشرة التي كانت بالأمس مثل ثنایا الزنبقة البيضاء الفرحة بقبلات الشمس ، قد اصفرّت وذبلت وتبرّقت بنقاب القنوط ، رأيت الشفتين التين كانتا كزهرة أقاح تسيل عليها الحلاوة وقد ييستا وصارتا كوردتين مرتجفتين أبقاهما الخريف على طرف الغصن ، رأيت العنق الذي كان مرفوعًا كعمود العاج قد انحنى إلى الأمام كأنّه لم يعد قادرًا على حمل ما يجول في تلايف الرأس .

رأيت هذه الانقلابات الموجهة في ملامح «سلمى» ، رأيتها جميعها ولكنها لم تكن في نظري إلا كسحابة رقيقة توشح القمر فتزيد منظره حسناً وهيبه ، وإن الملامح التي تبيح أسرار الذات المعنوية تكسب الوجه جمالاً وملاحة مهما كانت تلك الأسرار موجهة وأليمة ، أمّا الوجوه التي لا تتكلم بصمتها عن غوامض النفس وخفاياها فلا تكون جميلة مهما كانت متناسقة الخطوط متناسبة الأعضاء ، إن الكؤوس لا تستميل شفاهنا حتى يشف بلورها عن لون الخمر ، فسلمى كرامة كانت في عشيّة ذلك النهار مثل كأس طافحة من خمرة علوية تمتزج بدقائقها مرارة العيش بحلاوة النفس ، كانت تمثل على غير معرفة منها حياة المرأة الشرقية التي لا تغادر منزل والدها المحبوب إلا لتضع عنقها تحت نير زوجها الخشن ولا تترك ذراعي أمّها الرؤوف إلا لتعيش في عبودية والدّة زوجها القاسية .

وبقيت محدّقاً إلى وجه «سلمى» مصغياً لأنفاسها المتقطعة صامتاً مفكراً شاعراً متألماً معها ولها ، حتى أحسست أن الزمن قد وقف عن مسيره والوجود قد انحجب واضمحلّ ولم أعد أرى سوى الغيبوبة حتى سمعت سلمى تقول بهدوء : تعالّ نتحدّث الآن يا صديقي ، تعالّ نحاول تصوير المستقبل قبل أن يحمل علينا بمخاوفه وأهواله ، لقد ذهب والدي ليلتقي الرجل الذي انتقته الأرض سيّداً على أيامي الآتية ، ففي قلب هذه المدينة يجتمع الآن الشيخ الذي رافق شببتي بالشباب الذي سيرافق ما بقي لي من السنين ، وفي هذه الليلة يتفق الوالد والخطيب على يوم القران الذي سيكون قريباً مهما جعلاه بعيداً ، فما أغرب هذه الساعة وما أشدّ تأثيرها! في مثل هذه الليلة من الأسبوع الغابر ، وفي ظلال هذه الياسمينه قد عانق الحبّ روحي لأول مرة ، بينما كان القدر يخطّ أول كلمة من حكاية مستقبلي في دار المطران بولس غالب ، وفي هذه الساعة وقد جلس والدي وخطيبي ليضفرا إكليل زواجي ، أراك بجانيبي وأشعر بنفسك متموجة حولي كطائر ظامئ يحوم مرفرفاً فوق ينبوع ماء يحفره ثعبان جائع مخيف ، فما أعظم هذه الليلة وما أعمق أسرارها!

فأجبتها وقد تخيلت القنوط شبَّحًا مظلمًا قابضًا على عنق حبنا ليميته في طفوليته : سيظل هذا الطائر حائماً مرفرفاً فوق ينبوع حتى يضمنه العطش فيرديه أو يقبض عليه الثعبان المخيف فيمزقه ويلتهمه .

فقلت متأثرة وصوتها يرتجف كالأوتار الفضية : لا ، لا يا صديقي ، فليبق هذا الطائر حيًا ليبق هذا البلبل مغرّدًا حتى المساء ، حتى ينتهي الربيع ، حتى ينتهي العالم ، حتى تنتهي الدهور ، لا تخرسه لأن صوته يحيني ، ولا توقف جناحيه لأن حفيفهما يزيل الضباب عن قلبي .

فهمست متنهّدًا : الظمأ يقتله يا سلمى والخوف يميته .

فأجابت والكلام يتدفّق من شفّتها المرتعشتين : إن ظمأ الروح أعظم من ارتواء المادة ، وخوف النفس أحبُّ من طمأنينة الجسد ... ولكن اسمع يا حبيبي ، اسمعني جيدًا ، أنا واقفة الآن في باب حياة جديدة لا أعرف عنها شيئًا ، أنا مثل عمياء تتلمّس بيدها الجدران مخافة السقوط ، أنا جارية أنزلني مال والدي إلى ساحة النخاسين فابتاعني رجل من بين الرجال ، أنا لا أحبُّ هذا الرجل لأنني أجهله ، وأنت تعلم أن المحبّة والجهالة لا تلتقيان ، ولكنني سوف أتعلّم محبته ، سوف أطيعه وأخدمه وأجعله سعيدًا ، سوف أهبه كلّ ما تقدر المرأة الضعيفة أن تهب الرجل القوي ، أما أنت فلم تزل في ربيع العمر ، أمامك الحياة طريقًا واسعة مفروشة بالأزهار والرياحين ، سوف تخرج إلى ساحة العالم حاملاً قلبك مشعلًا متقدًا ، سوف تفكر بحرية وتتكلم وتفعل ، سوف تكتب اسمك على وجه الحياة لأنك رجل ، سوف تعيش سيّدًا ، إنّ فاقة والدك لا تجعلك عبدًا ، وأمواله لا تنزل بك إلى سوق النخاسين حيث تباع البنات وتشتري ، سوف تقترن بالصبية التي تختارها نفسك من بين الصبايا فتسكنها صدرك قبل أن تسكنها منزلك ، وتشاركها بأفكارك قبل أن تساهمها الأيام والليالي .

وسكنت دقيقة كيما تسترجع أنفاسها ، ثم زادت بصوت تتابعه الغصّات : ولكن أهّنا
تفرّقنا سبل الحياة لتذهب بك إلى أمجاد الرجل وتسير بي إلى واجبات المرأة؟ أهكذا ينقضي-
الحلم الجميل وتندثر الحقيقة العذبة؟ أهكذا تبتلع اللجة نغمة الشحرور في ظلال هذه
الياسمينّة؟ هل تسرعنا بالصعود نحو الكواكب فكّلت أجنحتنا وهبطت بنا إلى الهاوية. هل
فاجأنا الحبّ نائماً فاستيقظ غاضباً ليعاقبنا ، أم هيّجت أنفاسنا نسّات الليل فانقلبت ريجاً
شديدة لتمزقنا وتجرفنا كالغبار إلى أعماق الوادي؟ لم نخالف وصية ولم ندق ثمرّاً فكيف
نخرج من هذه الجنة. لم نتأمر ولم نتمرد فلماذا نهبط إلى الجحيم؟ لا ، لا ، وألف لا ولا ، إن
الدقائق التي جمعتنا هي أعظم من الأجيال ، والشعاع الذي أنار نفسينا هو أقوى من الظلام
، فإن فرقنا العاصفة على وجه هذا البحر الغضوب فالأمواج تجمعنا على ذلك الشاطئ
المهادئ ، وإن قتلنا هذه الحياة فذاك الموت يخبينا .

إن قلب المرأة لا يتغير مع الزمن ولا يتحوّل مع الفصول ، قلب المرأة ينازع طويلاً ولكنّه
لا يموت ، قلب المرأة يشابه البرية التي يتخذها الإنسان ساحة لحروبه ومذابحه ، فهو يقتلع
أشجارها ويحرق أعشابها ويلطّخ صخورها بالدماء ويغرس تربتها بالعظام والجماجم ،
ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة ويظل فيها الربيع ربيعاً والخريف خريفاً إلى نهاية الدهور
... والآن قضي الأمر فماذا نفعل ؟ قل لي ماذا نفعل وكيف نفرق ومتى نلتقي؟ هل نحسبُ
الحبّ ضيفاً غريباً أتى به المساء وأبعده الصباح؟ أنحسب هذه العاطفة النفسية حلماً أبانه
الكرى ثم أخفته اليقظة؟ أنحسب هذا الأسبوع ساعة سكر ما لبثت أن قضت بالصحو
والانتباه؟ ارفع رأسك لأرى عينيك يا حبيبي ، افتح شفّتيك لأسمع صوتك ، تكلم ،
أخبرني حدثني ، هل تذكر بعد أن تغرق العاصفة سفّيتي أيامنا؟ هل تسمع حفيف أجنحتي
في سكينّة الليل؟ هل تشعر بأنفاسي متموجة على وجهك وعنقك؟ هل تصغي لتهديداتي
متصاعدة بالتوجع منخفضة بالغصّات؟ وهل ترى خيالي قادماً مع خيالات الظلام مضمحلاً
مع ضباب الصباح؟ قل لي يا حبيبي ، قل لي ماذا تكون لي بعد أن كنت نوراً لعيني ونغمة لأذني
وجناحاً لروحي ، ماذا تكون؟

فأجبتها وحبّات قلبي تذوب في عيني : سأكون لك يا سلمى مثلما تريدينني أن أكون .
فقالت : أريدك أن تحبني ، أريدك أن تحبني إلى نهاية أيامي ، أريدك أن تحبني مثلما يحب
الشاعر أفكاره المحزنة ، أريدك أن تذكرني مثلما يذكر المسافر حوض ماء هادئ رأى فيه
خيال وجهه قبل أن يشرب من مائه ، وأريدك أن تذكرني مثلما تذكر الأيام جنيّات في
أحشائها قبل أن يرى النور ، وأريدك أن تزور والدي في وحدته وتعزيه في انفراده ، لأنني
عما قريب سأتركه وأصير غريبة عنه .

فأجبتها : سأفعل كلّ ذلك يا سلمى ، سوف أجعل روحي غلافًا لروحك ، وقلبي بيتًا
لجمالك ، وصدري قبرًا لأحزانك ، سوف أحبك يا سلمى محبة الحقول للربيع ، سوف أحيا
بك حياة الأزهار بحرارة الشمس ، سوف أترنم باسمك مثلما يترنم الوادي بصدى رنين
الأجراس المتمايلة فوق كنائس القرى ، سوف أصغي لأحاديث نفسك مثلما تصغي
الشواطئ لحكاية الأمواج ... سأذكرك يا سلمى مثلما يذكر الغريب المستوحش وطنه
المحبوب ، والفقر الجائع مائدة الطعام الشهية ، والملك المخلوع أيام عزّه ومجده ، والأسير
الكئيب ساعات الحرية والطمأنينة ، سوف أفكر بك مثلما يفكر الزارع بأغمار السنابل وغلة
البيادر ، والراعي الصالح بالمروج الخضراء والمناهل العذبة .

كنت أتكلّم و«سلمى» تنظر إلى أعماق الليل وتتأوه بين الآونة والأخرى ، ونبضات قلبها
تسارع وتتمايل كأنها أمواج بحر بين صعود وهبوط ، ثم قالت : غدًا تصير الحقيقة خيالًا
واليقظة حلمًا ، فهل يكتفي المشتاق بعناق الخيال ويرتوي الظمآن من جدران الأحلام؟

فأجبتها قائلاً : غدًا يسير بك القدر إلى أحضان العائلة المملوءة بالراحة والهدوء ، ويسير
بي إلى ساحة العالم حيث الجهاد والقتال ، أنتِ إلى منزل رجل يسعد بجمالك وطهر نفسك ،
وأنا إلى مكان أيام تعذبني بأحزانها وتخفيني بأشباحها ... أنتِ إلى الحياة وأنا إلى النزع ،
أنتِ إلى الأنس والألفة وأنا إلى الوحشة والانفراد

، ولكنني سأرفع في وادي ظل الموت تمثالاً للحب وأعبده ، سأأخذ الحب سميماً وأسمعه
منشداً وأشربه خمرًا وألبسه ثوباً ، عند الفجر سينبهي الحب من رقادي ويسير أمامي إلى
البرية البعيدة ، وعند الظهيرة سيقودني إلى ظل الأشجار فأربض مع العصافير المحتمية من
حرارة الشمس ، وفي المساء سيوقفني أمام المغرب ويسمعني نغمة وداع الطبيعة للنور
ويريني أشباح السكينة سابحة في الفضاء ، وفي الليل سيعانقني فأنام حالمًا بالعوالم العلوية
حيث تقطن أرواح العشاق والشعراء ، في الربيع سأمشي والحب جنباً لجنب ، مترنمين بين
التلول والمنحدرات متبعين آثار أقدام الحياة المخططة بالبنفسج والأقحوان ، شاربين بقايا
الأمطار بكؤوس النرجس والزنبق ، وفي الصيف سأتكئ والحب ساندين رأسينا إلى أغمار
القش مفترشين الأعشاب متلحفين السماء ساهرين مع القمر والنجوم ، وفي الخريف
سأذهب والحب إلى الكروم فنجلس بقرب المعاصر ناظرين إلى الأشجار وهي تخلع أثوابها
المذهبة متأملين بأسراب الطيور الراحلة إلى الساحل ، وفي الشتاء سأجلس والحب بقرب
الموقد تالين حكايات الأجيال مرددين أخبار الأمم والشعوب ، وفي أيام الشيبية سيكون لي
الحب مهذباً وفي الكهولة عضداً وفي الشيخوخة مؤنساً ، سيظل الحب معي يا سلمى إلى
نهاية العمر ، إلى أن يجيء الموت ، إلى أن يجمعني بك قبضة الله .

كانت الألفاظ تتصاعد بسرعة من أعماق نفسي كأنها شعلات من نار تنمو وتتطاير ثم
تتبدد وتضمحل في زوايا تلك الحديقة ، وكانت سلمى مصغية والدموع تنهمر من عينيها
كأن أجفانها شفاه تجيبني بالدموع على الكلام .

إن الذين لم يهبهم الحبّ أجنحة لا يستطيعون أن يطيروا إلى ما وراء الغيوم ليروا ذلك العالم السحري الذي طافت فيه رוחي وروح سلمى في تلك الساعة المحزنة بأفراحها المفرحة بأوجاعها ، إن الذين لم يتخذهم الحبّ أتباعاً لا يسمعون الحبّ متكلاً ، فهذه الحكاية لم تكتب لهم ؛ فهم وإن فهموا معاني هذه الصفحات الضئيلة لا يمكنهم أن يروا ما يسيل بين سطورها من الأشباح والأخيلة التي لا تلبس الحبر ثوباً ولا تتخذ الورق مسكناً ، لكن أيّ بشري لم يرشف من خمرة الحبّ في إحدى كاساته؟ أيّة نفس لم تقف متهية في ذلك الهيكل المنير المرصوف بحبات القلوب المسقوف بالأسرار والأحلام والعواطف؟ أيّ زهرة لم يسكب الصباح قطرة من الندى بين أوراقها؟ وأيّ ساقية تضل طريقها ولا تذهب إلى البحر؟

ورفعت سلمى إذ ذاك رأسها نحو السماء المزينة بالكواكب ومدت يديها إلى الأمام وكبرت عيناها وارتجفت شفتاها وظهر على وجهها المصفر كلّ ما في نفس المرأة المظلومة من أتت من الذنوب ليتبعها سخطك إلى آخر الدهور؟ هل اقترفت جرماً لا نهاية لفظاعته ليكون عقابك لها بغير نهاية؟ أنت قوي يا ربّ وهي ضعيفة فلماذا تبيدها بالأوجاع؟ أنت عظيم وهي تدبّ حول عرشك فلماذا تسحقها بقدميك؟ أنت عاصفة شديدة وهي كالغبار أمام وجهك فلماذا تذرّيتها على الثلوج؟ أنت جبّار وهي بائسة فلماذا تحاربها؟ أنت بصير عليم وهي تائهة عمياء فلماذا تهلكها؟ أنت توجدها بالمحبة فكيف بالمحبة نفنيها؟ بيمينك ترفعها إليك وبشمالك تدفعها إلى الهاوية وهي جاهلة لا تدري أنّي ترفعها وكيف تدفعها؟ في فمها تنفخ نسمة الحياة وفي قلبها تزرع بذور الموت ، على سبل السعادة تسيرها راجلة ثمّ تبعت الشقاء فارساً ليصطادها ، في حنجرتها تبث نغمة الفرح

ثم تغلق شفتيها بالحزن وتربط لسانها بالكآبة ، بأصابعك الخفية تمنطق باللذة أو جاعها
وبأصابعك الظاهرة ترسم هالات الأوجاع حول ملذاتها ، في مضجعها تخفي الراحة
والسلامة وبجانب مضجعها تقيم المخاوف والمتاعب ، بإرادتك تحيي ميولها ومن ميولها
تولد عيوبها وزلاتها ، بمشيئتك تريها محاسن مخلوقاتك وبمشيئتك تنقلب محبتها لحسن
مجاعة مهلكة ، بشريعتك تزوج روحها من جسد جميل وبقضائك تجعل جسدها بعلاً
للضعف والهوان ، أنت تسقيها الحياة بكأس الموت والموت بكأس الحياة .

أنت تطهرها بدموعها وبدموعها تذيبها ، أنت تملأ جوفها من خبز الرجل ثم تملأ حفنة
الرجل من حبات صدرها ، أنت أنت يا رب قد فتحت عيني بالمحبة وبالمحبة أعميتني ،
أنت قبلتني بشفتيك وبيدك القوية صفعتني ، أنت زرعت في قلبي وردة بيضاء وحول هذه
الوردة أنبت الأشواك والحسك ، أنت أوثقت حاضري بروح فتى أحبه وبجسد رجل لا
أعرفه ، قيدت أيامي فساعدني لأكون قوية في هذا الصراع المميت وأسعفني لأبقى أمينة
وطاهرة حتى الموت ... لتكن مشيئتك يا رب ، ليكن اسمك مباركاً إلى النهاية .

وسكنت «سلمى» وظلت ملامحها تتكلم ، ثم حنت رأسها وأرخت ذراعيها وانخفض
هيكلها كأن القوي الحيوية قد تركتها فبانَتْ لناظري كغصن قصفته العاصفة وألقته إلى
الحضيض ليحف ويندثر تحت أقدام الدهر .

فأخذت يدها المثلجة بيدي الملهبة وقبلت أصابعها بأجفاني وشفتي ، ولما حاولت
تعزيتها بالكلام وجدتني أخرى منها بالتعزية والشفقة ، فبقيت صامتة حائرة متأملاً شاعراً
بتلاعب الدقائق بعواطفي ، مصغياً لأنه قلبي في داخلي ، خائفاً من نفسي على نفسي .

ولم ينبس أحدنا ببنت شفة في ما بقي من تلك الليلة ، لأن اللوعة إذا عظمت تصير خرساء ،
فبقينا ساكتين جامدين كعمودي رخام قبرهما الزلزال في التراب ، ولم يعد أحدنا يريد أن
يسمع الآخر متكلماً ، لأن خيوط قلبينا قد وهت حتى صار التنهد دون الكلام يقطعها .

انتصف الليل ونمت رهبة السكوت وطلع القمر ناقصاً من وراء صنين وبان بين النجوم
كوجه ميت شاحب غارق في المساند السوداء بين شموع ضئيلة تحيط بنعشه ، وظهر لبان
كشيخ لوت ظهره الأعوام وأناخت هيكله الأحزان وهجر أجفانه الرقاد فبات يساهر
الدجى ويتربقب الفجر كملك مخلوع جالس على رماد عرشه بين خرائب قصره ، إن الجبال
والأشجار والأنهار تتبدل هيئاتها ومظاهرها بتقلب الحالات والأزمنة مثلما تتغير ملامح
وجه الإنسان بتغير أفكاره وعواطفه ، فشجرة الحور التي تتعالى في النهار كعروس جميلة
يلعب النسيم أثوابها تظهر في المساء كعمود دخان يتصاعد نحو اللاشيء .

والصخر الكبير الذي يجلس عند الظهيرة كجبار قوي يهزأ بعاديات الزمن يبدو في الليل
كفقر يبتس يفرش الثرى ويلتحف الفضاء ، والساقية التي نراها عند الصباح متلمعة
كذوب اللجين ونسمعها مترنمة بأغنية الخلود نخالها في المساء مجرى دموع يتفجر من بين
أضلع الوادي ونسمعها تندب وتنوح كالثكلى ، ولبنان الذي ظهر منذ أسبوع بكل مظاهر
الجلال والرونق عندما كان القمر بدرًا والنفس راضية قد بان في تلك الليلة كئيباً منهوگاً
مستوحشاً أمام قمر ضئيل ناقص هائم في عرض السماء وقلب خافق معتل في داخل الصدر

وقفنا للوداع وقد وقف بيننا الحبّ واليأس شبحين هائلين ، هذا باسط جناحيه فوق
رأسينا وذاك قابض بأظافره على عنقينا ، هذا يبكي مرتاعاً وذاك يضحك ساخرًا ؛ ولما
أخذت يد سلمى ووضعتها على شفتي متبرگًا دنت مني ولثمت مفرق شعري ، ثمّ عادت
فارتمت على المقعد الخشبي وأطبقت جفنها وهمست ببطء : أشفق يا رب وشدد جميع
الأجنحة المتكسرة .

انفصلتُ عن «سلمى» وخرجتُ من تلك الحديقة شاعرًا بنقاب كثيف يوشي مداركي
الحسيّة مثلما يغمر الضباب وجه البحيرة ، وسرت وأخيلة الأشجار القائمة على جانبي
الطريق تتحرك أمامي كأنها أشباح قد انبثقت من شقوق الأرض لتخيفني ، وأشعة القمر
الضعيفة ترتعش بين الغصون كأنها سهام دقيقة تريشها أرواح الجان السابحة في الفضاء
نحو صدري ، والسكينة العميقة تخيم عليّ كأنها أكف سوداء ثقيلة ألقتها الظلمة على
جسدي .

كل ما في الوجود وكل ما في الحياة وكل سر في النفس قد صار قبيحًا رهيبًا هائلًا ، فالنور
المعنوي الذي أراني جمال العالم وبهجة الكائنات قد انقلب نارًا تحرق كبدي بلهيبها متستر
نفسي بدخانها ، والنعمة التي كانت تضم إليها أصوات المخلوقات وتجعلها نشيدًا علويًا قد
استحالت في تلك الساعة إلى ضجيج أروع من زججرة الأسد وأعمق من صراخ الهاوية .
بلغتُ غرفتي وارتميتُ على فراشي كطائر رماه الصياد فسقط بين السياج والسهم في قلبه ،
وظلّت عاقلتي تترواح بين يقظة خيفة ونوم مزعج ، وروحي في داخلي تردد في الحالتين
كلمات سلمى : أشفق يا ربّ وشدد جميع الأجنحة المتكسرة .

أمام عرش الموت

إنما الزيجة في أيامنا هذه تجارة مضحكة مبكية يتولى أمورها الفتيان وآباء الصبايا ، الفتيان يربحون في أكثر المواطن والآباء يخسرون دائماً ، أما الصبايا المتنقلات كالسلع من منزل إلى آخر فتزول بهجتهن ، ونظير الأمتعة العتيقة يصير نصيبهن زاوياً حيث الظلمة والفناء البطيء .

إن المدينة الحاضرة قد أنمت مدارك المرأة قليلاً ولكنها أكثرت أوجاعها بتعميم مطامع الرجل ، كانت المرأة بالأمس خادمة سعيدة فصارت اليوم سيدة تعيسة ، كانت بالأمس عمياء تسير في نور النهار فأصبحت مبصرة تسير في ظلمة الليل ، كانت جميلة بجهلها فاضلة ببساطتها قوية بضعفها فصارت قبيحة بتفننها سطحية بمداركها بعيدة عن القلب بمعارفها ، فهل يجيء يوم يجتمع في المرأة الجمال بالمعرفة والتفنن بالفضيلة وضعف الجسد بقوة النفس ؟ أنا من القائلين إن الارتقاء الروحي سنة في البشر والتقرب من الكمال شريعة بطيئة لكنها فعالة ، فإذا كانت المرأة قد ارتقت بشيء وتأخرت بشيء آخر فلا أن العقبات التي تبلغنا قمة الجبل لا تخلو من مكامن اللصوص وكهوف الذئاب ؛ ففي هذا الجبل الشبيه بالغيوبة التي تتقدم اليقظة - في هذا الجبل القابض بكفيه على تراب الأجيال الغابرة وبذور الأجيال الآتية - في هذا الجبل الغريب بأمياله وأمانيه لا تخلو مدينة من امرأة ترمز بوجودها عن ابنة المستقبل ، وسلمى كرامة كانت في بيروت رمز المرأة الشرقية العتيدة ، ولكنها كالكثيرين الذين يعيشون قبل زمانهم قد ذهبت ضحية الزمن الحاضر ونظير زهرة اختطفها تيار النهر قد سارت قهراً في مركب الحياة نحو الشقاء .

وتزوج «منصور بك» من «سلمى» فسكنّا معاً في منزل فخّم قائم على شاطئ البحر في رأس بيروت حيث يقطن وجهاء القوم والأغنياء ، وبقي فارس كرامة وحده في ذلك البيت المنفرد بين الحدائق والبساتين انفراد الراعي بين أغنامه ، ومضت أيام العرس وانقضت ليالي الأفراح ومر الشهر الذي يدعوّه الناس عسلاً تاركاً وراءه شهور الخل والعلقم مثلما ترك أمجاد الحروب جهاجم القتلى في البرية البعيدة ، إن بهرجة الأعراس الشرّقية تصعد بنفوس الفتيان والصبايا صعود النسّر إلى ما وراء الغيوم ثم تهبط بهم هبوط حجر الرحى إلى أعماق اليم ، بل هي مثل آثار الأقدام على رمال الشاطئ لا تلبث أن تمحوها الأمواج .

وذهب الربيع وتلاه الصيف وجاء الخريف ومحبتني لسلمى تتدرج من شغف فتى في صباح العمر بامرأة حسنة إلى نوع من تلك العبادة الخرساء التي يشعر بها الصبي اليتيم نحو روح أمه الساكنة في الأبدية ، فالصبابة التي كانت تمتلك كليتي قد تحولت إلى كآبة عمياء لا ترى غير نفسها. والولع الذي كان يستدر الدموع من عيني قد انقلب وهماً يستقطر الدم من قلبي. وأنه الحنين التي كانت تملأ ضلوعي أصبحت صلاة عميقة تقدمها روحي في السكينة أمام السماء مستمدة السعادة لسلمى والغبطة لبعْلِها والطمأنينة لولدها ، ولكن باطلاً كنت أشفق وأبتهل وأصلي لأن تعاسة سلمى كانت علة في داخل النفس لا يشفيها سوى الموت ، أما بعْلِها فكان من أولئك الرجال الذين يحصلون بغير تعب على كلّ ما يجعل الحياة هنيئة ولا يقنعون بل ويطمحون دائماً إلى ما ليس لهم وهكذا يظلون معذبين بمطامعهم إلى نهاية أيامهم ؛ وباطلاً كنت أرجو الطمأنينة لفارس كرامة لأن صهره لم يستلم يد ابنته ويحصل على أموالها حتى نسيه وهجره بل صار يطلب حتفه توصيلاً إلى ما بقي من ثروته.



كان «منصور بك» شبيهاً بعمّه المطران «بولس غالب» وكانت أخلاقه ونفسه صورة مصغرة لنفسه ولم يكن الفرق بينهما إلا بما يفرق الرياء عن الانحطاط ، كان المطران يبلغ أمانيه مستتراً بأثوابه البنفسجية وبشبع مطامعه محتمياً بالصليب الذهبي المعلق على صدره ، أما ابن أخيه فكان يفعل كلّ ذلك جهراً وعنوة. كان المطران يذهب إلى الكنيسة في الصباح ويصرف ما بقي من النهار منتزعاً الأموال من الأرامل واليتامى وبسطاء القلب ، أما منصور بك فكان يقضي النهار كله متبعاً ملذاته ملاحقاً شهواته في تلك الأزقة المظلمة حيث يختمر الهواء بأنفاس الفساد ، كان المطران يقف يوم الأحد أمام المذبح ويعظ المؤمنين بما لا يتعظ به ويصرف أيام الأسبوع مشغلاً بسياسة البلاد. أما ابن أخيه فكان يصرف جميع أيامه متاجراً بنفوذ عمه بين طالبي الوظائف ومريدي الوجهة. كان المطران يسير مختبئاً بستائر الليل ، أما منصور بك فكان يمشي بشجاعة في نور النهار .

كذا تبديد الشعوب بين اللصوص والمحتالين مثلما تفني القطعان بين أنياب الذئاب وقواطع الجزارين ، وهكذا تستسلم الأمم الشرقيّة إلى ذوي النفوس المعوجة والأخلاق الفاسدة فتتراجع إلى الوراء ثم تهبط إلى الحضيض فيمر الدهر ويسحقها بأقدامه مثلما تسحق مطارق الحديد آنية الفخار .

وماذا يا ترى يجعلني الآن أن أشغل هذه الصفحات بالكلام عن أمم بائسة يائسة وأنا قد خصصتها لتدوين حكاية امرأة تاعسة وتصوير خيالات قلب وجيع لم يلمسه الحب بأفراحه حتى صفعه بأحزانه؟ لماذا تراود الدموع أجفاني لذكر شعوب خاملة ومظلومة وأنا قد وقفت دموعي على ذكرى أيام امرأة ضعيفة لم تعانق الحياة حتى احتضنها الموت ولكن أليست المرأة الضعيفة هي رمز الأمة المظلومة؟ أليست المرأة المتوجعة بين آمال نفسها وقيود جسدها هي كالأمة المتعذبة بين حكامها وكهانها. أليست العواطف الخفية التي تذهب بالصبيبة الجميلة إلى ظلمة القبر هي كالعواطف الشديدة التي تغمر حياة الشعوب بالتراب؟ إن المرأة من الأمة بمنزلة الشعاع من السراج وهل يكون شعاع السراج ضئيلاً إذا لم يكن زيته شحيحاً.

مضت أيام الخريف وعرت الرياح الأشجار متلاعبة بأوراقها الصفراء مثلما تداعب الأنواء زبد البحر ، وجاء الشتاء باكياً وأنا في بيروت ولا رفيق لي سوى أحلام تتصاعد بنفسى تارة فتبلغها الكواكب وتنخفض بقلبي طوراً فتلحده بجوف الأرض .
إن النفس الكئيبة تجد راحة بالعزلة والانفراد فتهجر الناس مثلما يبتعد الغزال الجريح عن سربه ويتوارى في كهفه حتى يبرأ أو يموت .

ف ذات يوم سمعت باعتلال «فارس كرامة» ، تركت وحدتي وذهبت لعيادته ماشياً على ممر منفرد بين أشجار الزيتون المتلمعة أوراقها الرصاصية بقطرات المطر ، متنجياً عن الطريق العمومية حيث تزعج ضجة المركبات سكينه الفضاء .

بلغت منزل الشيخ ودخلت عليه فوجدته ملقى على فراشه مضنى الجسد ، شاحب الوجه أصفر اللون ، وقد غرقت عيناه تحت حاجبيه فباتتا كهوتين عميقتين مظلمتين تجول فيهما أشباح السقم والألم ، فاللامح التي كانت بالأمس عنوان البشاشة والانبساط قد تقلصت واكفهرت وأصبحت كصحيفة رمادية متجعدة تكتب عليها العلة سطوراً غريبة ملتبسة . واليدان اللتان كانتا مغلفتين باللطف واللدانة قد نحلتا حتى بدت عظام أصابعهما من تحت الجلد كقضبان عارية ترتعش أمام العاصفة .

ولما دنوت منه سائلاً عن حاله ، حوّل وجهه المهزول نحوي وظهر على شفثيه المرتجفتين خيال ابتسامة مخزنة ، وبصوت ضعيف خافت خلته آتياً من وراء الجدران قال : اذهب ، اذهب يا بني إلى تلك الغرفة وامسح دموع سلمى وسكّن روعها ثمّ عد بها إليّ لتجلس بجانب فراشي .

دخلت الغرفة المحاذية فوجدت سلمى منطرحة على مقعد وقد غمرت رأسها بزنديها وأغرقت وجهها بالمساند وأمسكت أنفاسها كيلا يسمع والدها نحيبها ، فاقتربت منها ببطء ولفظت اسمها بصوت أقرب إلى التنهد منه إلى الهمس فاحتركت مضطربة ونظرت إليّ بعينين شاخصتين جامدتين كأنها رأت شبحاً في عالم الرؤيا ولا تصدق حقيقة وجودي في ذلك المكان . وبعد سكوت عميق أرجعنا بتأثراته السحرية إلى تلك الساعات التي سكرنا فيها من خمرة الآلهة مسحت سلمى دموعاً بأطراف بنانها وقالت متحسرة : رأيت كيف تبدلت الأيام؟ رأيت كيف أضلنا الدهر فسرنا مسرعين إلى هذه الكهوف المفزعة؟ في هذا المكان جمعنا الربيع في قبضة الحبّ وفي هذا المكان يجعلنا الآن الشتاء أمام عرش الموت فما أبهى ذلك النهار وما أشد ظلمة هذا الليل !

قالت هذه الكلمات وقد ابتلعت الغصات وأواخرها ثمّ عادت وسترت وجهها بيديها كأن ذكرى الماضي قد تجسدت ووقفت أمامها فلم تشأ أن تراها ، فوضعت يدي على شعرها قائلاً : تعالي يا سلمى ، تعالي نتصب كالأبراج أمام الزوبعة ، هلمي نقف كالجنود أمام الأعداء متلقين سفار السيوف بصدورنا لا بظهورنا. فإن صرنا نموت كالشهداء وإن تغلبنا نعيش كالأبطال ...

إن عذاب النفس بثبات أمام المصاعب والمتاعب هو أشرف من تقهقرها إلى حيث الأمن والطمأنينة فالفراشة التي تظل مرفرفة حول السراج حتى تحترق هي أسمى من الخلد الذي يعيش براحة وسلامة في نفقه المظلم. والنواة التي لا تحتل برد الشتاء وثورات العناصر لا تقوى على شق الأرض ولن تفرح بجمال نيسان... هلمي نسير يا سلمى بقدم ثابتة على هذه الطريق الوعرة رافعين أعيننا نحو الشمس كيلا نرى الجماجم المطروحة بين الصخور، والأفاعي المنسابة بين الأشواك، فإن أوقفنا الخوف في منتصف الطريق أسمعنا أشباح الليل صراخ الاستهزاء والسخرية، وإن بلغنا قمة الجبل بشجاعة فترنم معنا أرواح الفضاء بأنشودة النصر والاستظهار. خففي عنك يا سلمى وجففي دموعك واخفي هذه الكآبة الظاهرة على محياك وقومي نجلس بجانب فراش والدك لأن حياته من حياتك وشفاءه بابتسامتك.

فنظرت إليّ نظرة ملؤها الحنان والرافة والانعطاف ثم قالت: أتطلب مني الصبر والتجلد وفي عينيك معنى اليأس والقنوط؟ أيعطي الفقير الجائع خبزه إلى الجائع الفقير أو يصف العليل دواء لعليل آخر وهو أخرى بالدواء؟.

ثم وقفت وسارت أمامي منحنية الرأس إلى غرفة والدها.

جلسنا أمام مضجع الشيخ العليل وسلمى تتكلف الابتسام وهدوء البال وهو يتكلف الراحة والقوة ، وكل منهما شاعر بلوعة الآخر عالم بضعفه سامع غصات قلبه. فكانا مثل قوتين متضارعتين تفنيان بعضهما بعضاً في السكينة ، والد دنف يذوب ضنى لتعاسة ابنته وابنة محبة متوجعة بعلة والدها. نفس راحلة ونفس يائسة تتعانقان أمام الحب والموت وأنا بينهما أتحمل ما بي وأقاسي ما بهما ؛ ثلاثة جمعتهن يد القضاء ثم قبضت عليهن بشدة حتى سحقتهن ؛ شيخ يمثل بيتاً قديماً هدمه الطوفان وصبية تحاكي زنبقة قطع عنقها حد المنجل ، وفتى يشابه غرسة ضعيفة لوت قامتها الثلوج ، وجميعنا مثل ألعوبة بين أصابع الدهر.

وتحرك الشيخ إذا ذاك بين اللحف ومد يده النحيلة نحو سلمى وبصوت أودعه كل ما في قلب الأب من الرقة والرأفة وكل ما في صدر العليل من السقم والألم قال: ضعي يدك في يدي يا سلمى .

فمدت يدها وألقتهما بين أصابعه فضمها بلطف ثم زاد قائلاً : لقد شبت من السنين يا ولدي ، قد عشت طويلاً وتلذذت بكل ما تثمره الفصول وتمتعت بكل ما تبرزه الأيام والليالي ، قد لاحقت الفراش صبيّاً وعانقت الحب فتىً وجمعت المال كهلاً وكنت في هذه الأدوار سعيداً مغبوطاً... فقدت أمك يا سلمى قبل أن تبلغني الثالثة ولكنها أبقتك لي كنزاً ثميناً فكنت تنمين بسرعة نمو الهلال ، وتنعكس على وجهك ملامح أمك مثلما تنعكس أشعة النجوم في حوض ماء هادئ ، وتظهر أخلاقها ومزاياها بأعمالك وأقوالك ظهور الحلي الذهبية من وراء النقاب الرقيق ، فتعزيت بك يا ولدي لأنك كنت مثلها جميلة وحكيمة ... والآن قد صرت شيخاً طاعناً وراحة الشيوخ بين أجنحة الموت الناعمة ، فتعزي يا ولدي لأنني بقيت لأراك امرأة كاملة وافرحي لأنني سأبقى بك حياً بعد موتي. إن ذهابي الآن مثل ذهابي غداً أو بعده ، لأن أيامنا مثل أوراق الخريف تتساقط وتتبدد أمام وجه الشمس ، فإن أسرع بي إلى الأبدية فلأنها علمت بأن روحي قد اشتاقت إلى لقاء أمك .

لفظ الكلمات الأخيرة بنغمة مفعمة بحلاوة الحنين والرجاء ولاحت على وجهه المنقبض أشعة شبيهة بذلك النور الذي ينبثق من أجفان الأطفال. ثمّ مد يده بين المساند المحيطة برأسه وانتشل صورة صغيرة قديمة يمنطقها إطار من الذهب قد نعمت حدوده ملامس الأيدي ومحت نقوشه قبل الشفاه ، ثمّ قال بدون أن يحول عينيه عن الرسم : اقتربي يا سلمى اقتربي مني يا ولدي لأريك خيال أمك ، تعالي وانظري ظلها على صفحة من الورق .

فدنت «سلمى» ماسحة الدموع من مقلتيها كيلا تحول بين ناظرها والرسم الضئيل ، وبعد أن أهدت به طويلاً كأنه مرآة تعكس معانيها وشكل وجهها ، قربته من شفيتها وقبلته بلهفة مراراً متوالية ثمّ صرخت قائلة : يا أماه ، يا أماه ، يا أماه ! ولم تزد على هذه الكلمة بل عادت ووضعت الرسم على شفيتها المرتعشتين كأنها تريد أن تثبت فيه الحياة بأنفاسها الحارة.

إن أعذب ما تحدّثه الشفاه البشرية هو لفظة « الأم » وأجمل مناداة هي : يا أمي ، كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحب والانعطاف وكل ما في القلب البشري من الرقة والحلاوة والعدوبة. الأم هي كلّ شيء في هذه الحياة ، هي التعزية في الحزن ، والرجاء في اليأس ، والقوة في الضعف ، هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران ، فالذي يفقد أمه يفقد صدرًا يسند إليه رأسه ويدًا تباركه وعينًا تحرسه .

كلّ شيء يرمز ويتكلم عن الأمومة فالشمس هي أم هذه الأرض ترضعها حرارتها وتحضنها بنورها ولا تغادرها عند المساء إلا بعد أن تنومها على نغمات أمواج البحر وترنيمة العصافير والسواقي ، وهذه الأرض هي أم للأشجار والأزهار تلدها وترضعها ثمّ تغطمها والأشجار والأزهار تصير بدورها أمهات حنونات للأثمار الشهية والبذور الحية ، وأم كلّ شيء في الكيان هو الروح الكلية الأزلية الأبدية المملوءة بالجمال والمحبة .

و«سلمى كرامة» لم تكن تعرف أمها لأنها ماتت وهي طفلة وقد شهقت متأثرة عندما رأت رسمها ونادتها « يا أماه » أسرت إرادتها لأن لفظة الأم تختبئ في قلوبنا مثلما تختبئ النواة في قلب الأرض وتنبثق من بين شفاها في ساعات الحزن والفرح كما يتصاعد العطر من قلب الورد في الفضاء الصافي الممطر .

كانت «سلمى» تحدد برسم أمها ثم تقبله بلهفة ثم تلزّ صدرها الخفوق ثم تتأوّه متنهدة ومع كلّ تنهدة تفقد جزءاً من قواها ، حتى إذا ما وهت الحياة في جسدها النحيل هوت وسقطت بجانب سرير أبيها ، فوضع كلتا يديه على رأسها قائلاً : قد أريتك يا ولدي شبح أمك على صفحة من الورق ، فأصغي إليّ لأسمعك أقوالها .

فرفعت «سلمى» رأسها مثلما تفعل الفراخ في العش عندما تسمع حفيف أجنحة العصفورة بين القضبان ، ونظرت إليه مصغية صاغرة كأن ذاتها المعنوية قد استحالت إلى أعين محدقة وآذان واعية .

فقال والدها : كنت طفلة رضيعة عندما فقدت أمك والدها الشيخ فحزنت لفقده وبكت بكاء حكيماً متجلّداً ، ولكنها لم تعد من جانب قبره حتى جلست بجانبه في هذه الغرفة وأخذت يدي براحتها وقالت : قد مات والدي يا فارس وأنت باقٍ لي وهذه هي تعزيتي ، إن القلب بعواطفه المتشعبة يماثل الأرز بأغصانها المتفرقة ، فإذا ما فقدت شجرة الأرز غصناً قوياً تتألم ولكنها لا تموت بل تحوّل قواها الحيوية إلى الغصن المجاور لينمو ويتعالى ويملاً بفروعه الغضة مكان الغصن المقطوع ، هذا ما قالت والدتك يا سلمى عندما مات أبوها وهذا ما يجب عليك أن تقوليهِ عندما يأخذ الموت جسدي إلى راحة القبر وروحي إلى ظل الله .

فأجابت «سلمى» متفجعة : فقدت أمي والدها فبقيت أنت لها ، فمن يبقى لي إذا فقدتك يا والدي؟ مات والدها وهي في ظلال زوج محب فاضل أمين ، مات والدها فبقيت لها طفلة تغمر رأسها الصغير بثدييها وتطوق عنقها بذراعيها ، فمن يبقى لي إذا فقدتك يا والدي؟ أنت أبي وأمي ورفيق حداثتي ومهذب شببتي فبمن أستعوض إذا ما ذهبت عني؟

قالت هذا وحولت عينيها الدامعتين نحوي وأمسكت بيمينها طرف ثوبي وقالت : ليس لي غير هذا الصديق يا والدي ولن يبقى لي سواه إذا ما تركتني . فهل أتعزى به وهو متعذب مثلي؟ هل يتعزى كسير القلب بالقلب الكسير؟ إن الحزينة لا تتصبر بحزن جارتها كما أن الحماسة لا تطير بأجنحة مكسورة ، هو رفيق لنفسي ولكنني قد أثقلت عاتقه بأشجاني حتى لويت ظهره وسملت عينيه بعبراتي فلم يعد يرى غير الظلمة ، هو أخ أحبه ويحبني مثل جميع الأخوة يشترك بالمصيبة ولا يخففها ويساعد بالبكاء فيزيد الدمع مرارة والقلب احتراقاً .

كنت أسمع «سلمى» متكلمة وعواطفي تنمو وصدري يضيق حتى شعرت بأن أضلعي تكاد تتفجر حناجر وفوهات ، أما الشيخ فكان ينظر إليها وجسده المهزول يهبط ببطء بين الوسائد والمساند ، ونفسه المتعبة ترتجف كشعلة السراج أمام الريح ، ثم بسط ذراعيه وقال بهدوء : دعيني أذهب بسلام يا ولدي ، لقد لمحت عينايا ما وراء الغيوم فلن أحولهما نحو هذه الكهوف ، دعيني أطيّر فقد كسرت بأجنحتي قضبان هذا القفص ... لقد نادتني أمك يا سلمى فلا توقفيني ... ها قد طاب الريح وتبدد الضباب عن وجه البحر فرفعت السفينة شراعها وتأهبت للمسير فلا توقيفها ولا تنزعي دفتها ،

دعي جسدي يرقد مع الذين رقدوا ، ودعي روحي تستيقظ لأن الفجر قد لاح والحلم قد انتهى ... قبليني قبلة رجاء وأمل ولا تسكبي قطرة من مرارة الحزن على جسدي لئلا تمنع الأعشاب والأزهار عن امتصاص عناصره ، ولا تذرفي دموع اليأس على يديّ لأنها تنبت شوكة على قبوري ، ولا ترسمي بزفرات الأسى سطرًا على جبهتي لأن نسيم البحر يمر ويقرؤه فلا يجمل غبار عظامي إلى المروج الخضراء ... قد أحبتك بالحياة يا ولدي وسوف أحبك بالموت فتظل روحي قريبة منك لتحملك وترعاك .

والتفت الشيخ إليّ وقد انطبقت أجفانه قليلاً فلم أعد أرى سوى خطين رماديين مكان عينيه ، ثم قال وسكينة الفناء تسترق ألفاظه : أما أنت يا بني فكن أخاً لسلمي مثلما كان والدك لي ، كن قريباً منها في ساعات الشدة ، وكن صديقاً لها حتى النهاية ، ولا تدعها تحزن لأن الحزن على الأموات غلطة من أغلاط الأجيال الغابرة ، بل اتلّ على مسمعها أحاديث الفرح وأنشدتها أغاني الحياة فتسلوا وتتناسى ... قل لأبيك أن يذكرني ، سله فيخبرك عن مآتي أيامي عندما كان الشباب يخلق بنا الغيوم ... فقل له إنني أحبته بشخص ابنه في آخر ساعة من حياتي .

وسكت دقيقةً وظلت أشباح ألفاظه تدبّ على جدران الغرفة ، ثم عاد فنظر إليّ وإلى سلمى بوقت واحد وقال همساً : لا تدعوا طبيباً ليطل بمساحيقه ساعات سجني لأن أيام العبودية قد مضت فطلبت روحي حرية الفضاء ، ولا تدعوا كاهناً إلى جانب فراشي لأن تعازيمه لا تكفر عني ذنوبي إن كنت خاطئاً ، ولا تسرع بي إلى الجنة إن كنت باراً ، إن إرادة البشر لا تغير مشيئة الله كما أن المنجمين لا يحولون مسير النجوم ، أما بعد موتي فليفعل الأطباء والكهان ما شاؤوا ، فاللجة تنادي اللجة أما السفينة فتظلّ سائرة حتى تبلغ الساحل .

عندما انتصف الليل المخيف فتح فارس كرامة عينيه الغارقتين في ظلمة النزاع ، فتحها
لآخر مرة ، وحولها نحو ابنته الجاثية بجانب مضجعه ، ثم حاول الكلام فلم يستطع لأن
الموت كان قد تشرب صوته فخرجت هذه الألفاظ لهاثاً عميقاً من بين شفثيه ، ها قد ذهب
الليل ... وجاء الصباح ... يا سلمى ... يا سلمى .

ثم نكس رأسه وابتيض وجهه وابتسمت شفثاه وأسلم الروح .
ومدت «سلمى» يدها ولمست يد والدها فوجدتها باردة كالثلج ، فرفعت رأسها ونظرت
إليه فرأت وجهه مبرقعا بنقاب الموت ، فجمدت الحياة في جسدها وجفت الدموع في
محاجرها ، فلم تتحرك ولم تصرخ ولم تتأوه ، بل بقيت محدقة به بعينين جامدتين كعيني
التمثال ، ثم تراخت أعضاؤها مثلها تراخي طيات الثوب البليل ، وهبطت حتى لمست
جبهتها الأرض ، ثم قالت بهدوء : أشفق يا ربّ وشدد جميع الأجنحة المتكسرة .

مات «فارس كرامة» وعانقت الأبدية روحه واسترجع التراب جسده ، واستولى منصور
بك على أمواله وظلت ابنته أسيرة تعاستها ترى الحياة مأساة تمثلها المخاوف أمام عينها .

أما أنا فكنت ضائعا بين أحلامي وهواجسي- ، تتناوبني الأيام والليالي مثلما تتناوب
النسور والعقبان لحمان الفريسة ، فكم حاولت أن أفقد ذاتي بين صفحات الكتب لعلني
أستأنس بأخيلة الذين طواهم الدهر ، وكم جربت أن أنسى حاضري لأعود بقراءة الأسفار
إلى مسارح الأجيال الغابرة ، فلم يُجِدني كل ذلك نفعا بل كنت كمن يحاول إخماد النار
بالزيت ، لأنني لم أكن أرى من مواكب سوى أشباحها السوداء ، ولا أسمع من أنغام الأمم
غير الندب والنواح ، فسفر أيوب كان عندي أجمل من مزامير داود ، ومراثي ارميا كان
أحبّ لديّ من نشيد سليمان ، ونكبة البرامكة أشدّ وقعاً في نفسي- من عظمة العباسيين ،
وقصيدة ابن زريق أكثر تأثيراً من رباعيات الخيام ، ورواية هملت أقرب إلى قلبي من كل ما
كتبه الإفرنج .

كذا يضعف القنوط بصيرتنا فلا نرى غير أشباحنا الرهيبة وهكذا يصم اليأس آذاننا فلا
نسمع غير طرقات قلوبنا المضطربة .

بين عششروت والمسيح

بين تلك البساتين والتلول التي تصل أطراف بيروت بأذيال لبنان يوجد معبد صغير قديم محفور في قلب صخرة بيضاء قائمة بين أشجار الزيتون واللوز والصفصاف ، ومع أن هذا المعبد لا يبعد أكثر من نصف ميل عن طريق المركبات فقد قلّ من عرفه من محبّي الآثار والخرائب القديمة ، فكأن الإهمال قد أبقاه محجوبًا عن عيون الأثريّين ليضعه خلوة لنفوس المتعبين ومزارًا للمحبين والمستوحشين .

والداخل إلى هذا المعبد العجيب يرى على الجدار الشرقي منه صورة فينيقية الشواهد والبنات محفورة في الصخر قد محت أصابع الدهر بعض خطوطها ولونت الفصول معالمها ، وهي تمثل عششروت ربّة الحبّ والجمال جالسة على عرش فخم ومن حولها سبع عذارى عاريات واقفات بهيئات مختلفة ، فالواحدة منهن تحمل مشعلًا ، والثانية قيثارة ، والثالثة مبخرة ، والرابعة جرة من الخمر ، والخامسة غصنًا من الورد ، والسادسة إكليلاً من الغار ، والسابعة قوسًا وسهامًا ، وجميعهن ناظرات إلى عششروت وعلى وجوههنّ سياء الخضوع والامثال .

وعلى الجدار الثاني صورة أخرى أحدث عهدًا وأكثر ظهورًا تمثل يسوع الناصري مصلوبًا وإلى جانبه أمه الحزينة مريم المجدليّة وامرأتان ثانيتان تنتحبان ، وهذه الصورة البيزنطيّة الأسلوب والقرائن تدل على كونها حفرت في القرن الخامس أو السادس للمسيح . وفي الجدار الغربي كوتان مستديرتان يدخل منهما شعاع الشمس عند أصيل النهار وينسكب على الصورتين كأنهما طليتا بماء الذهب .

وفي وسط المعبد حجر من الرخام مربّع الشكل على جوانبه نقوش ووسامات قديمة الطراز قد انحجب بعضها تحت كتلات متحجرة من الدماء تدل على أن الأقدمين كانوا ينحرون ذبائحهم على هذا الحجر ويصبون فوقه قرايين الخمر والعطر والزيت .

ولم يكن في هذا المعبد الصغير شيء آخر سوى سكينه عميقة تعانق النفس وهيبه سحرية تبيح بتموجاتها أسرار الآلهة وتتكلم بلا نطق عن مآتي الأجيال الغابرة ومسير الشعوب من حالة إلى حالة ومن دين إلى دين ، وتستميل الشاعر إلى عالم بعيد عن هذا العالم وتقنع الفيلسوف بأن الإنسان مخلوق دين يشعر بما لا يراه ويتخيل ما لا تقع عليه حواسه في رسم لشعوره رموزًا تدل بمعانيها على خفايا نفسه ويجسم خياله بالكلام والأنغام والصور والتماثيل التي تظهر بأشكالها أقداس أمياله في الحياة وأجمل مشتهياته بعد الموت .

في هذا الهيكل المجهول كنت ألتقي بـ«سلمى كرامة» مرّة في الشهر فنصرف الساعات الطوال ناظرين إلى الصورتين الغريبتين مفكرين بفتى الأجيال المصلوب فوق الجلجلة ، مستحضرين إلى مخيلتنا أشباح الفتيان والصبايا الفينقيين الذين عاشوا وعشقوا وعبدوا الجمال بشخص عشوت فحرقوا البخور أمام تماثيلها وهرقوا الطيوب على مذابحها ثم طوتهم الأرض فلم يبقَ منهم سوى اسم تردده الأيام أمام وجه الأبدية .

كم يصعب عليّ الآن أن أدوّن بالكلام ذكرى تلك الساعات التي كانت تجمعني بسلمى ، تلك الساعات العلوية المكتنفة باللذة والألم ، والفرح والحزن ، والأمل واليأس ، وكل ما يجعل الإنسان إنسانًا والحياة لغزًا أبديًا ، ولكن كم يصعب عليّ أن أذكرها ولأرسم بالكلام الضئيل خيالًا من خيالاتها لبقى مثلًا لأبناء الحبّ والكآبة .

كنا نختلي في ذلك الهيكل القديم فنجلس في بابه ساندين ظهرينا إلى جداره مرددين
صدى ماضينا مستقصين مآتي حاضرا خائفين مستقبلنا ، ثم نترج إلى إظهار ما في أعماق
نفسنا فيشكو كل منا لوعته وحرقة قلبه وما يقاسيه من الجزع والحسرة ، ثم يصبر واحدنا
الآخر باسطاً أمامه كل ما في جيوب الأمل من الأوهام المفرحة والأحلام العذبة فيهدأ
روعنا وتجف دموعنا وتنفرج ملامحنا ثم نبسم متناسين كل شيء سوى الحب وأفراحه
منصرفين عن كل أمر إلا النفس وأميالها ، ثم نتعانق فنذوب شغفاً وهياماً ، ثم تقبل سلمى
مفرق شعري بطهر وانعطاف فتملأ قلبي شعاعاً وأقبل أطراف أصابعها البيضاء فتغمض
عينها وتلوي عنقها العاجي وتتورد وجنتها باحمرار لطيف يشابه الأشعة الأولى يلقيها
الفجر على جباه الروابي. ثم نسكت وننظر طويلاً نحو الشفق البعيد حيث الغيوم المتلونة
بأنوار المغرب البرتقالية .

ولم تكن اجتماعاتنا مقتصرة على مبادلة العواطف وبث الشكوى بل كنا ننتقل على غير
معرفة بنا إلى العموميات فتبادل الآراء والأفكار في شؤون هذا العالم الغريب ونتباحث في
مرامي الكتب التي كنا نقرأها ذاكرين حسناتها وسيئاتها وما تنطوي عليه من الصور الخيالية
والمبادئ الاجتماعية ، فتكلم «سلمى» عن منزلة المرأة في الجامعة البشرية وعن تأثير الأجيال
الغابرة على أخلاقها وميولها وعن العلاقة الزوجية في أيامنا هذه وما يحيط بها من الأمراض
والمفاسد وإني أذكر قولها مرة : إن الكتاب والشعراء يحاولون إدراك حقيقة المرأة ولكنهم
للآن لم يفهموا أسرار قلبها ومخبات صدرها لأنهم ينظرون إليها من وراء نقاب الشهوات
فلا يرون غير خطوط جسدها أو يضعونها تحت مكبرات الكره فلا يجدون فيها غير الضعف
والاستسلام .

وقولها لي مرة أخرى وقد أشارت بيدها إلى الرسمين المحفورين على جدران الهيكل : في قلب هذه الصخرة قد نقشت الأجيال رمزين يظهران خلاصة آميال المرأة ويستجليان غوامض نفسها المتراوحة بين الحبّ والحزن ، بين الانعطاف والتضحية ، بين عشثروت الجالسة على العرش ومريم الواقفة أمام الصليب ، إن الرجل يشتري المجد والعظمة والشهرة ولكن هي المرأة التي تدفع الثمن .

ولم يدر باجتماعنا السريّة أحد سوى الله وأسراب العصافير المتطايرة بين تلك البساتين ، فسلمى كانت تحيى بمركبتها إلى المكان المدعو بحديقة الباشا ثمّ تسير الهوينى على الممرات المنفردة حتى تبلغ المعبد الصغير فتدخله مستندة على مظلتها وعلى وجهها لوائح الأمن والطمأنينة فتجدني منتظرًا مترقبًا مشتاقًا بكل ما في الشوق من الجوع والعطش .

ولم نخف قط عين الرقيب ولا شعرنا بوخز الضمير لأن النفس إذا تطهرت بالنار واغتسلت بالدموع ترفع عما يدعوه الناس عيبًا وعارًا وتتحرر من عبودية الشرائع والنواميس التي سنتها التقاليد لعواطف القلب البشري وتقف برأس مرفوع أمام عروس الآلهة .

إن الجامعة البشريّة قد استسلمت سبعين قرنًا إلى الشرائع الفاسدة فلم تعد قادرة على إدراك معاني النواميس العلوية الأولية الخالدة ، قد تعودت بصيرة الإنسان النظر إلى ضوء الشموع الضئيلة فلم تعد تستطيع أن تحرق بنور الشمس ، لقد توارثت الأجيال الأمراض والعاهات النفسية بعضها عن بعض حتى أصبحت عمومية بل صارت من الصفات الملازمة للإنسان فلم يعد الناس ينظرون إليها كعاهات وأمراض بل يعتبرونها كخلال طبيعية نبيلة أنزلها الله على آدم فإذا ما ظهر بينهم فرد خال منها ظنوه ناقصًا محرومًا من الكمالات الروحيّة .

أما الذين سيعيون سلمى كرامة محاولين تلويث اسمها لأنها كانت تترك منزل زوجها الشرعي لتختلي برجل آخر فهم السقماء الضعفاء الذين يحسبون الأصحاء مجرمين وكبار النفوس متمردين ، بل هم كالحشرات التي تدب في الظلمة وتخشى الخروج إلى نور النهار كيلا تدوسها أقدام العابرين .

إنّ السجين المظلوم الذي يستطيع أن يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جبائاً وسلمى كرامة كانت سجينة مظلومة ولم تستطع الانعتاق فهل تلام لأنها كانت تنظر من وراء نافذة السجن إلى الحقول الخضراء والفضاء الواسع ، هل يحسبها الناس خائنة لأنها كانت تجيء من منزل منصور بك غالب لتجلس بجانبه بين عشقوت المقدسة والجبار المصلوب؟ ليقول الناس ما شأؤوا فسلمى قد اجتازت المستنقعات التي تغمر أرواحهم وبلغت ذلك العالم الذي لا يبلغه عواء الذئاب وفحيح الأفاعي . وليقل الناس ما أرادوا عني فالنفس التي شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه اللصوص ، والجندي الذي رأى السيوف محتبكة فوق رأسه وسواقي الدماء تحت قدميه لا يحفل بالحجارة التي يرشقه بها صبيان الأزقة.

التضحية

ففي يوم من أواخر حزيران وقد ثقلت وطأة الحر في السواحل وطلب الناس أعالي الجبال سرت كعادتي نحو ذلك المعبد واعدًا نفسي بقاء سلمى حاملاً بيدي كتاباً صغيراً من الموشحات الأندلسية التي كانت في ذلك العهد ولم تزل إلى الآن تستميل روحي .

بلغت المعبد عند الأصيل فجلست أرقب الطريق المناسبة بين أشجار الليمون والصفصاف ، وأنظر من وقت إلى آخر إلى وجه كتابي هامساً في مسامع الأثير أبيات الموشحات التي تستهوي القلب برشاقة تراكييها ورنه أوزانها وتعيد إلى النفس ذكرى أمجاد الملوك والشعراء والفرسان الذين ودعوا غرناطة وقرطبة وأشبيلية تاركين في قصورها ومعاهدها وحدثاتها كل ما في أرواحهم من الآمال والميول ثم تواروا وراء حجب الدهر والدمع في أجفانهم والحسرة في أكبادهم .

وبعد ساعة التفت فإذا بـ«سلمى» تيمس بقدها النحيل بين الأشجار المحتبكة وتقرب نحوي مستندة على مظلتها كأنها تحمل كل ما في العالم من الهموم والمتاعب ولما بلغت باب الهيكل وجلست بقربي نظرت إلى عينيها الكبيرتين فرأيت فيهما معاني وأسراً جديدة غريبة توحى التحذر والانتباه وتثير حب الاستطلاع والاستقصاء .

وشعرت «سلمى» بما يجول في خاطري فلم تشأ أن يطول الصراع بين ظنوني وهواجسي- فوضعت يدها على شعري وقالت : اقترُب مني ، اقترُب مني يا حبيبي اقترُب ودعني أزود نفسي منك فقد دنت الساعة التي تفرقنا إلى الأبد .

فصرخت قائلاً : ماذا تقولين يا سلمى وأية قوة تستطيع أن تفرقنا إلى الأبد؟ .

فأجابت : إن القوة العمياء التي فرقنا بالأمس ستفرقنا اليوم ، القوة الخرساء التي تتخذ الشريعة البشرية ترجماناً عنها قد بنت بأيدي عبيد الحياة حاجزاً منيعاً بيني وبينك .
القوة التي أوجدت الشياطين وأقامتهم أولياء على أرواح الناس قد حتمت عليّ ، أن لا أخرج من ذلك المنزل المبني من العظام والجماجم .

فسألتها قائلاً : هل علم زوجك باجتماعاتنا فصرت تحشين غضبه وانتقامه؟
فأجابت : إن زوجي لا يحفل بي ولا يدري كيف أصرف أيامي فهو مشغول عني بأولئك
الصبايا المسكينات اللواتي تقودهن الفاقة إلى أسواق النخاسين فيتعطرن ويتكحلن ليبعن
أجسادهن بالخبز المعجون بالدماء والدموع .

فقلت : إذا ما يصدقك عن المجيء إلى هذا المعبد والجلوس بجانبى أمام هيئة الله وأشباح
الأجيال؟ هل مللت النظر إلى خفايا نفسي فطلبت روحك الوداع والتفريق؟
فأجابت والدمع يراد أجفانها : لا يا حبيبي إن روحي لم تطلب فراقك لأنك شطرها
ولا ملت عيناى النظر إليك لأنك نورهما ، ولكن إذا كان القضاء قد حكم عليّ أن أسير على
عقبات الحياة مثقلة بالقيود والسلاسل فهل أرضى بأن يكون نصيبك من القضاء مثل
نصيبى؟

فقلت : تكلمي يا سلمى وأخبريني عن كل شيء ولا تتركيني ضائعاً بين هذه المعميات .
فأجابت : لا أقدر أن أقول كل شيء لأن اللسان الذي أخرسته الأوجاع لا يتكلم ،
والشفاه التي ختم عليها اليأس لا تتحرك وكل ما أقدر أن أقوله لك هو أنى أخاف عليك
من الوقوع في شرك الذين نصبوا لي الحبائل واصطادوني .

فقلت : ماذا تعنين يا سلمى ومن هم الذين تخافين عليّ منهم؟
فسترت وجهها بيدها وتأوهت ملتاعة ثم قالت مترددة : إن المطران بولس غالب قد
صار يعلم بأننى أخرج مرة في الشهر من القبر الذي وضعني فيه .
فقلت : وهل علم المطران بأنك تلتقين بي في هذا المكان .

فأجابت : لو علم بذلك لما رأيته الآن جالسة بقربك ، ولكن الشكوك تخامره والظنون تتلاعب بأفكاره وقد بث عليّ العيون لترقبني وأوعز إلى خدمه ليتجسسوا حركاتي حتى صرت أشعر بأن للمنزل الذي أسكنه والطرق التي أسير عليها نواظر تحديق بي وأصابع تشير إليّ وأذاناً تسمع همس أفكاري .

وأطرقت هنيهة ثم زادت والدمع ينسكب على وجنتيها : أنا لا أخاف على نفسي- لأن الغريق لا يخشى البلل ، ولكنني أخاف عليك وأنت حر كنور الشمس أن تقع مثلي في أشراكه فيقبض عليك بأظافره وينهشك بأنيابه ، أنا لا أخاف من الدهر لأنه أفرغ جميع سهامه في صدري ، ولكنني أخاف عليك وأنت في ربيع العمر أن تلسع الأفعى قدميك وتوقفك عن المسير نحو قمة الجبل حيث ينتظرك المستقبل بأفراحه وأمجاده .

فقلت : إن من لا تلسه أفاعي الأيام وتنهشه ذئاب الليل يظل مغروراً بالأيام والليالي ، ولكن اسمعي يا سلمى ، اسمعيني جيداً ، أليس أماننا غير الفراق لتتقي صغارة الناس وشروهم؟ هل سُدَّتْ أماننا سبل الحب والحياة والحرية فلم يبق غير الاستسلام إلى مشيئة عبيد الموت؟

فأجابت بلهجة يساورها القنوط والحسرة : لم يبق أماننا غير الوداع والتفرق .

فأخذت يدها وقد تمرّدت روحي في داخلي وتبدّد الدخان عن شعلة فتوتي ، فقلت متهيجًا : قد استسلمنا طويلاً إلى أهواء الناس يا سلمى ... منذ تلك الساعة التي جمعتنا حتى الآن ونحن ننقاد إلى العميان ونركع أمام أصنامهم ، منذ عرفتك ونحن في يد المطران بولس غالب مثل كرتين يلعب بنا كيفها أراد ويقذفنا حيثما شاء ، فهل نبقى خاضعين لديه محدقين بظلمة نفسه حتى يلوكننا القبر وتبتلعنا الأرض ؟ هل وهبنا الله نسمة الحياة لنضعها تحت أقدام الموت ؟ وأعطانا الحرية لنجعلها ظلًا للاستعباد ؟ إن من يحمد نار نفسه بيده يكون كافرًا بالسما التي أوقدتها ، ومن يصبر على الضيم ولا يتمرد على الظلم يكون حليف الباطل على الحق وشريك السفاحين بقتل الأبرياء ، وقد أحبتك يا سلمى وأحببتني والحب كنز ثمين يودعه الله النفس الكبيرة الحساسة ، فهل نرمي بكنزنا إلى حظائر الخنازير لتبعثره بأنوفها وتذريه بأرجلها ؟ أماننا العالم مسرحًا واسعًا مملوءًا بالمحاسن والغرائب فلماذا نسكن في هذا النفق الضيق الذي حفزه المطران وأعوانه ؟ أماننا الحياة من الحرية وما في الحرية من الغبطة والسعادة فلماذا لا نخلع النير الثقيل عن عاتقينا ونكسر القيود الموثوقة بأرجلنا ونسير إلى حيث الراحة والطمأنينة ؟ قومي يا سلمى نذهب من هذا المعبد الصغير إلى هيكल الله الأعظم هلمي نرحل من هذه البلاد وما فيها من العبودية والغباوة إلى بلاد بعيدة لا تصل إليها أيدي اللصوص ولا تبلغها لهات الأبالسة . تعالي نسرع إلى الشاطئ مستترين بوشاح الليل فنعتلي سفينة تقلنا إلى ما وراء البحار وهناك نحيا حياة مكتنفة بالطهر والتفاهم ، فلا تنفثنا الثعابين بأنفاسها ولا تدوسنا الطواريء بأقدامها ، لا تترددي يا سلمى فهذه الدقائق أثنى من تيجان الملوك وأسمى من سرائر الملائكة ، قومي نتبع عمود النور فيقودنا من هذه الصحراء القاحلة إلى حقول تنبت الأزهار والرياحين .

فهزت رأسها وقد شخصت عيناها بشيء غير منظور في فضاء ذلك الهيكل ، وسالت على شفتيها ابتسامة مخزنة تعلن ما في داخل نفسها من الشدة والألم ، ثم قالت بهدوء : لا ، لا يا حبيبي ، إن السماء قد وضعت في يدي كأساً مفعمة بالخل والعلقم وقد تجرعتها صرفاً ولم يبق فيها غير قطرات قليلة سوف أشربها متجلدة لأرى ما في قاع الكأس من الأسرار فأنا لا أستحقها ولا أقوى على احتمال أفراحها وملذاتها ، لأن الطائر المكسور الجناحين يدب متنقلاً بين الصخور ولكنه لا يستطيع أن يسبح محلقاً في الفضاء ، والعيون الرمضاء تحرق بالأشياء الضئيلة ولكنها لا تقوى على النظر إلى الأنوار الساطعة ، فلا تحدثني عن السعادة لأن ذكرها يؤلمني كالتعاسة ، ولا تصور لي الهناء لأن ظله يخيفني كالشقاء ... ولكن انظر رماد صدري ... أنت تعلم بأنني أحبك محبة الأم وحيدها وهي المحبة التي علمتني أن أحملك حتى ومن نفسي ، هي المحبة المطهرة بالنار التي توقفتني الآن عن اتباعك إلى أقاصي الأرض وتجعلني أن أميت عواطفني وأميالي لكي تحيا أنت حرّاً نزيهاً وتظل في مأمن من لوم الناس وتقولاتهم الفاسدة ، إن المحبة المحدودة تطلب امتلاك المحبوب ، أما المحبة غير المتناهية فلا تطلب غير ذاتها ... المحبة التي تجيء بين يقظة الشباب وغفلته تستكفي باللقاء وتقنع بالوصل وتنمو بالقبل والأعناق ، أما المحبة التي تولد في أحضان اللانهاية وتهبط مع أسرار الليل فلا تقنع بغير الأبدية ولا تستكفي بغير الخلود ولا تقف متهيبة أمام شيء سوى الألوهية ... عندما عرفت بالأمس أن المطران بولس غالب يريد أن يمنعني عن الخروج من منزل ابن أخيه ويسلبني اللذة الوحيدة التي عرفتها منذ تزوجت ، وقفت أمام نافذة غرفتي ونظرت نحو البحر مفكرة بما وراءه من البلاد الوسيعة والحرية المعنوية والاستقلال الشخصي ، وتخيلت نفسي عائشة بقربك محاطة بخيالات روحك ،

مغمورة بانعطافك ، ولكن هذه الأحلام التي تنير صدور النساء المظلومات وتجعلنهم
يتمردن على التقاليد الباطلة ليعشن في ظل الحق والحرية لم تمر في خاطري حتى جعلتني
أستصغر نفسي وأستضعفها وأرى محبتنا واهية محددة لا تستطيع الوقوف أمام وجه الشمس .
فبكيت بكاء ملك أضع ملكه وغني فَقَدَ كنزه ، ولكني ما لبثت أن رأيت وجهك من خلال
دموعي وأبصرت عينيك محدقتين إليّ ، فتذكرت ما قلته لي مرة وهو : هلمّي يا سلمى نقف
أمام الأعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا ، فإن صرنا نُمُتْ كالشهداء وإن تغلبنا نعش
كالأبطال ، لأن عذاب النفس بثباتها أمام المصاعب والمتاعب هو أشرف من تقهقرها إلى
حيث الأمن والطمأنينة ... هذه الكلمات قلتها لي يا حبيبي عندما كانت أجنحة الموت
ترفرف حول مضجع والدي ، وقد ذكرتها بالأمس وقد كانت أجنحة اليأس تصفق حول
رأسي ، فتقويت وتشجعت وشعرت وأنا في ظلمة السجن بنوع من الحرية النفسية التي
تستهون الشدائد وتستصغر الأحزان ، ورأيت حبنا عميقاً كالبحر ، عاليًا كالنجوم ، متسعاً
كالفضاء ، وقد جئت اليوم إليك وفي نفسي المتوجعة المنهكة قوة جديدة وهي المقدرة على
الأمر العظيم للحصول على أمر أعظم ، تضحية سعادتي بقربك لكي تبقى أنت شريفاً تعرف
الناس بعيداً عن غدرهم واضطهادهم ... كنت أجيء بالأمس إلى هذا المكان والقيود الثقيلة
تغل قدمي الضعيفتين ، أما اليوم فقد جئت شاعرة بعزم يهزأ بثقل القيود ويستقصر الطريق .
كنت أجيء مثل طيف طارق خائف أما اليوم فقد جئت مثل امرأة حية تشعر بوجوب
التضحية وتعرف قيمة الأوجاع وتريد أن تحمي من تحب من الناس والأغبياء ومن نفسها
الجائعة . كنت أجلس حذاءك مثل ظل مرتجف وقد أتيت اليوم لأريك حقيقتي أمام
عشثروت المقدسة ويسوع المصلوب . أنا شجرة نابثة في الظل وقد مددت أغصاني اليوم لكي
تنتعش ساعة النهار ، وقد جئت لأودعك يا حبيبي فليكن وداعنا عظيماً وهائلاً مثل حبنا ،
ليكن وداعنا كالنار التي تبهر الذهب لتجعله أشد لمعاناً .

ولم تترك لي «سلمى» مجالاً للكلام والاحتجاج بل نظرت إليّ وقد أبرقت عيناها فأحاطت أشعتها بوجداني واتشحت ملامح وجهها بنقاب من الهيبة والجلال فبانت كملিকে توحى الصمت والتخشع ، ثم ارتمت على صدري بانعطاف كلّ ما عهدته فيها قبل الساعة وطوقت عنقي بزندها الأمس وقبلت شفتي قبلة طويلة عميقة محرقة أيقظت الحياة في جسدي وأثارت الأسرار الخفية في نفسي وجعلت الذات الوضعية التي أدعوها «أنا» أن تتمرد على العالم بأسره لتخضع صامته أمام الناموس العلوي الذي اتخذ صدر سلمى هيكلًا ونفسها مذبحًا.

ولما غربت الشمس ولمحت أشعتها الأخيرة تبعد عن تلك الحداثق والبساتين انتفضت سلمى ووقفت في وسط الهيكل ونظرت طويلاً إلى جدرانها وزواياها كأنها تريد أن تسكب نور عينيها على رسومه ورموزه ثم تقدمت قليلاً وجثت خاضعة أمام صورة يسوع وقبلت قدميه المكلومتين مرات متوالية ثم همست قائلة :

- ها قد اخترت صليبك يا يسوع الناصري وتركت مسرّات عشتروت وأفراحها ؛ قد كللت رأسي بالأشواك بدلاً من الغار ، واغتسلت بدمي ودموعي بدلاً من العطور والطيوب وتجرعت الخل والعلقم بالكأس التي صنعت للخمر والكوثر ، فاقبلني بين تابعيك الأقوياء بضعفهم وسيرني نحو الجلجلة برفقة مختاريك المستكفين بأوجاعهم المغبوطين على كآبة قلوبهم .

ثم انتصبت والتفتت نحوي قائلة :

- سأعود الآن فرحة إلى الكهف المظلم حيث تتراكم الأشباح المخيفة ، فلا تشفق عليّ يا حبيبي ولا تحزن من أجلي لأن النفس التي ترى ظل الله مرة لا تخشى بعد ذلك أشباح الأبالسة ، والعين التي تكتحل بلمحة واحدة من الملاء الأعلى لا تغمضها أوجاع العالم .

وخرجت «سلمى» من ذاك المعبد ملتفة بملابسها الحريرية وتركتني حائرًا ضائعًا مفكرًا مجذوبًا إلى مسارح الرؤيا حيث تجلس الآلهة على العروش وتدون الملائكة أعمال البشر وتتلو الأرواح مأساة الحياة وترنم عرائس الخيال بأناشيد الحب والحزن والخلود .

ولما صحوت من هذه السكر ، وكان الليل قد غمر الوجود بأمواجه القاتمة ، وجدتني هائمًا بين تلك البساتين مسترجعًا إلى حافظتي صدى كل كلمة لفظتها سلمى ، معيدًا إلى نفسي حركاتها وسكناتها وملامح وجهها وملامس يديها ، حتى إذا ما اتضح لي حقيقة الوداع وما سيجيء من ألم الوحشة ومرارة الشوق جمدت فكري وتراخت خيوط قلبي وعلمت للمرة الأولى بأن الإنسان وإن ولد حرًا يظل عبدًا لقساوة الشرائع التي سنّها آباؤه وأجداده ، وأن القضاء الذي نتوهمه سرًا علويًا هو استسلام اليوم إلى مآتي الأمس ، وخضوع الغد إلى ميول اليوم ، وكم مرة فكرت منذ تلك الليلة إلى هذه الساعة بالنواميس النفسية التي جعلت سلمى تختار الموت بدلًا من الحياة ، وكم مرة وضعت نبالة التضحية بجانب سعادة المتمردين لأرى أيهما أجل وأجمل ولكنني للآن لم أفهم سوى حقيقة واحدة وهي أن الإخلاص يجعل جميع الأعمال حسنة وشريفة ، وسلمى كرامة كانت الإخلاص متأنسًا وصحة الاعتقاد متجسدة .

المنقذ

ومرت خمسة أعوام على زواج «سلمى» ولم ترزق ولدًا ليوجد بكيانه العلاقة الروحية بينها وبين بعلمها ويقرب بابتسامته نفسيهما المتنافرتين مثلما يجمع الفجر بين أواخر الليل وأوائل النهار .

والمرأة العاقر مكروهة في كل مكان لأن الأنانية تصور لأكثر الرجال دوام الحياة في أجساد الأبناء فيطلبون النسل ليظلوا خالدين على الأرض .

إن الرجل المادي ينظر إلى زوجته العاقر بالعين التي يرى بها الانتحار البطيء فيمقتها ويهجرها ويطلب حتفها كأنها عدو غدار يريد الفتك به ، ومنصور بك غالب كان ماديًا كالتراب وقاسيًا كالفلولاذ وطامعًا كالمقبرة وكانت رغبته بآبن يرث اسمه وسؤدده تكرهه بسلمى المسكينة وتحول محاسنها في عينيه إلى عيوب جهنمية .

إن الشجرة التي تنبت في الكهف لا تعطي ثمرًا ، وسلمى كرامة كانت في ظل الحياة فلم تثمر أطفالًا ؛ إن البلبل لا يحوك عشًا في القفص كيلا يورث العبودية لفراخه ، وسلمى كرامة كانت سجينه الشقاء فلم تقسم السماء حياتها إلى أسيرين ؛ إن أزاهر الأودية هي أطفال يلدها الحب والحنو ، فسلمى كرامة لم تشعر قط بأنفاس الحنو وملامس الانعطاف في ذلك المنزل الفخم النائم على شاطئ البحر في رأس بيروت ، ولكنها كانت تصلي في سكينه الليلي ضارعة أمام السماء لتبعث إليها بطفل يجفف بأصابعه الوردية دموعها ويزيل بنور عينيه خيال الموت من قلبها .

وقد صلت «سلمى» متوجعة حتى ملأت الفضاء صلاة وابتهالاً وتضرعت مستغيثة حتى بدد صراخها الغيوم ، فسمعت السماء ندائها وبثت في أحشائها نغمة مختمرة بالحلاوة والعدوبة وأعدتها بعد خمسة أعوام من زواجها لتصيرها أما وتمحو ذلها وعارها .

الشجرة النابتة في الكهف قد أزهرت لثمر .

البلبل المسجون في القفص قد هم ليحوك عشا من ريش جناحيه .
القيثارة التي طرحت تحت الأقدام قد وضعت في مهب نسيم المشرق ليحرك بأواجه ما
بقي من أوتارها .

سلمى كرامة المسكينة قد مدت ذراعيها المكبلتين بالسلاسل لتقبل موهبة السماء .
وليس بين أفراح الحياة ما يضارع فرح المرأة العاقر عندما تهيئها النواميس الأزلية
لتصيرها أما ، كل ما في يقظة الربيع من الجمال ، وكل ما في مجيء الفجر من المسرة يجتمع بين
أضلع المرأة التي أحرمها الله ثم أعطاها .
لا يوجد نور أشد سطوعاً وأكثر لمعاً من الأشعة التي يبعثها الجنين السجين في ظلمة
الأحشاء .

وكان نيسان (أبريل) قد جاء متنقلاً بين الروابي والمنحدرات عندما تمت أيام «سلمى»
لتلد بكرها ، وكأن الطبيعة قد وافقتها وعاهدتها فأخذت تضع حمل أزاهرها وتلف بأقمطة
الحرارة أطفال الأعشاب والرياحين .

مضت شهور الانتظار و«سلمى» تتربح الخلاص مثلما يتربح المسافر طلوع كوكب
الصباح ، وتنظر إلى المستقبل من وراء دموعها فتراه مشعشعاً وقد طالما ظهرت الأشياء
القائمة متلمعة من خلال الدموع .

ففي ليلة وقد طافت أشباح الظلام بين تلك المنازل في رأس بيروت ، انطرحت سلمى
على مضجع المخاض والأوجاع فانصب الموت والحياة يتصارعان بجانب فراشها ، ووقف
الطبيب والقابلة ليقدا إلى هذا العالم ضيفاً جديداً ، وسكنت حركة عابري الطريق
وانخفضت نغمة أمواج البحر ولم يعد يسمع في ذلك الحي سوى صراخ هائل يتصاعد من
نوافذ منزل منصور بك غالب ... صراخ انفصال الحياة من الحياة ... صراخ محبة البقاء في
فضاء اللاشيء والعدم ... صراخ قوة الإنسان المحدودة أمام سكينه القوي غير المتناهية ،
صراخ سلمى الضعيفة المنطرحة تحت أقدام جبارين : الموت والحياة .

عندما لاح الفجر ولدت «سلمى» ابناً ، ولما سمعت إهلاله فتحت عينيها المغلقتين بالألم ونظرت حواليتها فرأت الأوجه متهللة في جوانب تلك الغرفة ... ولما نظرت ثانية رأت الحياة والموت ما زالاً يتصارعان بقرب مضجعتها فعادت وأغمضت عينيها وصرخت لأول مرة : يا ولدي .

ولفت القابلة الطفل بالأقمطة ووضعتة حذاء أمه ، أما الطبيب فظل ينظر بعينين حزينتين نحو سلمى ويهز رأسه صامتاً بين الدقيقة والأخرى .

وأيقظت نغمة الفرح بعض الجيران فجاءوا بملابس النوم ليهنئوا الوالد بولده ، أما الطبيب فبقي ينظر بعينين كئيبتين نحو الوالدة وطفلها .

وأسرع الخدم نحو منصور بك ليشرّوه بقدوم وريثه ويملؤوا أيديهم من عطاياه أما الطبيب فلبث واقفاً ينظر بعينين يائستين إلى سلمى وابنها .

ولما طلعت الشمس قربت سلمى ولدها من ثديها ففتح عينيه لأول مرة ونظر في عيناها ثم اختلج وأغمضها لآخر مرة . فدنا الطبيب وأخذه من بين ذراعيها وانسكبت على وجنتيه دمعتان كبيرتان ثم همس في سره قائلاً : هو زائر راحل ؟

مات الطفل وسكان الحي يفرحون مع الوالد في القاعة الكبرى ويشربون نخبه ليعيش طويلاً ، و«سلمى» المسكينة تحدق بالطبيب وتصرخ قائلة : أعطني ولدي لأضمه ، ثم تحدق ثانية فترى الموت والحياة يتصارعان بجانب سريرها .

مات الطفل ورنه الكؤوس تنمو بين أيدي الفرحين بمجيئه .

ولد مع الفجر ومات عند طلوع الشمس ، فأني بشري يستطيع أن يقيس الزمن ليخبرنا ماذا كانت الساعة التي تمر بين مجيء الفجر وطلوع الشمس هي أقصر من الدهر الذي يمر بين ظهور الأمم وتواريتها .

ولد كالفكر ومات كالتنهدة واختفى كالظل فأذاق سلمى كرامة طعم الأمومة ولكنه لم يبق ليسعدها ويزيل يد الموت عن قلبها .

حياة قصيرة ابتدأت بنهاية الليل وانقضت بابتداء النهار فكانت مثل قطرة الندى التي تسكبها أجفان الظلام ثم تجفها ملامس النور .

كلمة لفظتها النواميس الأزلية ثم ندمت عليها وأعادتها إلى سكينه الأبدية .

لؤلؤة قذفها المد إلى الشاطئ ثم جرفها الجزر إلى الأعماق .

زنبقة ما انبثقت من كمام الحياة حتى انسحقت تحت أقدام الموت .

ضيف عزيز ترقت «سلمى» قدومه ولكنه ما حل حتى ارتحل وما فتح مصرععي الباب حتى اختفى .

جين ما صار طفلاً حتى صار تراباً - وهذه حياة الإنسان بل حياة الشعوب ، بل حياة الشمس والأقمار والكواكب - وحولت سلمى عينيها نحو الطبيب وتنهدت بشوق جارح ثم صرخت قائلة : أعطني ابني لأضمه بذراعي ... أعطني ولدي لأرضعه .

فنكس الطبيب رأسه وقال والغصات تخرسه :

- قد مات طفلك يا سيدتي فتجلدي وتصبري لكي تعيشي بعده .

فصرخت سلمى بصوت هائل ثم سكنت هنيهة ، ثم ابتسمت ابتسامة فرح ومسرة ، ثم تهلل وجهها وكأنها عرفت شيئاً لم تكن تعرفه وقالت بهدوء :

- أعطني جثة ولدي ، قربه مني ميتاً .

فحمل الطبيب الطفل الميت ووضع بين ذراعيها فضمته إلى صدرها وحولت وجهها نحو الحائط وقالت مخاطبه :

- قد جئت لتأخذني يا ولدي ، قد جئت لتدلني على الطريق المؤدية إلى الساحل ، ها أنذا يا ولدي فسر أمامي لنذهب من هذا الكهف المظلم .

وبعد دقيقة دخلت أشعة الشمس من بين ستائر النافذة وانسكبت على جسدين هامدين
منظر حين على مضجع تخفّره هيبة الأمومة وتظلله أجنحة الموت .

فخرج الطبيب باكياً من تلك الغرفة ، ولما بلغ القاعة الكبرى تبدلت تهاليل المهنيين
بالصراخ والعيويل ، أما منصور بك غالب فلم يصرخ ولم يتنهّد ولم يذرف دمعة ولم يفه
بكلمة بل لبث جامداً منتصباً كالصنم قابضاً يمينه على كأس الشراب .

في اليوم التالي كفنت سلمى بأثواب عرسها البيضاء ووضعت في تابوت موشى بالمخمل
الناصع ، أما طفلها فكانت أقمطة أكفانه وتابوته ذراعي أمه وقبره صدرها الهادئ .

حملوا الجثتين في نعش واحد مشوا ببطء متلف يشابه طرقات القلوب في صدور المنازعين
فسار المشيعون وسرت بينهم وهم لا يعرفونني ولا يدرون ما بي .

بلغوا المقبرة فانتصب المطران بولس غالب يرتل ويعزم ووقف الكهان حوله ينغمون
ويسبحون وعلى وجوههم الكالحة نقاب من الخلو والغفول .

ولما أنزلوا التابوت إلى أعماق الحفرة همس أحد الواقفين قائلاً :

- هذه أول مرة رأيت فيها جسدين يضمهما تابوت واحد .

وقال آخر :

- كأن طفلها قد جاء ليأخذها وينقذها من مظالم زوجها وقساوته .

وقال آخر :

- تأملوا بوجه منصور بك فهو ينظر إلى الفضاء بعينين زجاجيتين كأنه لم يفقد زوجته

وطفله في يوم واحد .

وقال آخر :

- غداً يزوجه عمه المطران ثانية من امرأة أخرى أوفر ثروة وأقوى جسماً .
وظل الكهان يرتلون ويسبحون حتى فرغ حفار القبور من ردم الحفرة فأخذ المشيعون إذ
ذاك يقتربون واحداً واحداً من المطران وابن أخيه يصبرونهما ويواسونهما بمستعذبات الكلام ،
أما أنا فبقيت واقفاً منفرداً وحدي وليس من يعزيني على مصيبتني كأن سلمى وطفلها لم
يكونا أقرب الناس إليّ .

عاد المشيعون وبقي حفار القبور منتصباً بجانب القبر الجديد وفي يده رفشه ومحفره ،
فدنوت منه وسألته قائلاً :

- أتذكر أين قبر «فارس كرامة؟» .

فنظر إليّ طويلاً ثم أشار نحو قبر «سلمى» وقال:

في هذه الحفرة قد مددت ابنته على صدره ، وعلى صدر ابنته مددت طفلها وفوق الجميع
قد وضعت التراب بهذا الرفش .

فأجبته: وفي هذه الحفرة أيضاً قد دفنت قلبي أيها الرجل ، فما أقوى ساعديك .

ولما توارى حفار القبور وراء أشجار السرو-وخانني الصبر والتجلد فارتميت على قبر
سلمى أبكيها وأرثيها .



دمعة وابتسامة

إلى M.E.H

أقدم هذا الكتاب وهو أول نسمة من عاصفة حياتي ،
إلى الروح النبيلة التي تحب النسمات وتسير مع العواصف .

جبران

(نُشر عام 1914)

توطئة

أنا لا أبذل أحزان قلبي بأفراح الناس ولا أرضى أن تنقلب الدموع التي تستدرها الكآبة من جوارحي وتصير ضحكًا ، أتمنى أن تبقى حياتي دمة وابتسامة : دمة تطهر قلبي وتفهمني أسرار الحياة وغوامضها ، وابتسامة تدنيني من أبناء بجدتي وتكون رمز تمجيدي الآلهة ، دمة أشارك بها منسحقي القلب وابتسامة تكون عنوان فرحي بوجودي .

أريد أن أموت شرفًا ولا أحيا مللاً . أريد أن تكون في أعماق نفسي مجاعة للحب والجمال لأنني نظرت فرأيت المستكفين أشقى الناس وأقربهم من المادة أصغيت فسمعت تنهيدات المشتاق المتمني أعذب من رنات المثاني والمثالث .

يأتي المساء فتضم الزهرة أوراقها وتنام معانقة شوقها وعندما يأتي الصباح تفتح شفتيها لاقتبال قبلة الشمس فحياة الأزهار شوق ووصال ، دمة وابتسامة .

تتبخر مياه البحر وتتصاعد ثم تجتمع وتصير غيمة وتسير فوق التلال والأودية حتى إذا ما لاقت نسيما لطيفة تساقطت باكية نحو الحقول وانضمت إلى الجداول ورجعت إلى البحر موطنها ، حياة الغيوم فراق ولقاء ، دمة وابتسامة . كذا النفس تنفصل عن الروح العام وتسير في عالم المادة وتمر في كغيمة فوق جبال الأحزان وسهول الأفراح فتلتقي بنسيما الموت فترجع إلى حيث كانت : إلى بحر المحبة والجمال إلى الله .



حياة الحب

الربيع

هلمي يا محبوبتي نمش بين الطلول ، فقد ذابت الثلوج ، وهبت الحياة من مراقدها
وتمايلت في الأودية والمنحدرات ، سيرى معي لنتبع آثار أقدام الربيع في الحقل البعيد ، تعالي
لنصعد إلى أعالي الربى ونتأمل تموجات اخضرار السهول حولها .

ها قد نشر فجر الربيع ثوبا طواه ليل الشتاء فاكستت به أشجار الخوخ والتفاح فظهرت
كالعرائس في ليلة القدر ، واستيقظت الكروم وتعانقت قضبانها كعاشر العشاق ، وجرت
الجدول راقصة بين الصخور مرودة أغنية الفرحة ، وانبثقت الأزهار من قلب الطبيعة انبثاق
الزبد من البحر .

تعالي لنشرب بقايا دموع المطر من كؤوس النرجس ونملا أنفسنا بأغاني العصافير
المسرورة ونغتني استنشاق عطر النسيمات .

لنجلس بقرب تلك الصخرة حيث يختبئ البنفسج ونتبادل قبلات المحبة .

الصيف

هيا بنا إلى الحقل يا حبيبتى فقد جاءت أيام الحصاد وبلغ الزرع مبلغه وأنضجته حرارة
محبة الشمس للطبيعة ، تعالى قبل أن تسبقنا الطيور فتستغل أتعابنا ، وجماعة النمل فتأخذ
أرضنا ، هلمي نجن ثمار الأرض مثلما جنت النفس حبوب السعادة من بذور الوفاء التي
زرعتها المحبة في أعماق قلبينا ، ونملاً المخازن من نتاج العناصر كما ملأت الحياة أهراء
عواطفنا .

هلمي يا رفيقتى نفترش الأعشاب ونلتحف السماء ونوسد رأسينا بضغث من القش
الناعم فنرتاح من عمل النهار ونسمع مسامرة غدير الوادي .

الخريف

لنذهب إلى الكرمة يا محبوبتي ونعصر العنب ونُوعه في الأجران مثلما تعي النفس حكمة
الأجيال ونجمع الأثمار اليابسة ونستقطر الأزهار ونستعص عن العين بالأثر .

لنرجع نحو المساكن فقد اصفرّت أوراق الأشجار ونثرها الهواء كأنه يريد أن يكفّن بها
أزهارا قضت لوعة عندما ودعها الصيف ، تعالى فقد رحلت الطيور نحو الساحل وحملت معها
أنس الرياض وخلّفت الوحشة للياسمين والسيسبان فبكى باقي الدموع على أديم التراب .

لنرجع ! فالجداول قد وقفت عن مسيرها ، والعيون نشّفت دموع فرحها ، والطلول
خلعت باهي أثوابها ، تعالى يا محبوبتي ، فالطبيعة قد راودها النعاس فأمست تودّع اليقظة
بأغنية نهاوندية مؤثرة .

اقتربي يا شريكة حياتي ، اقتربي مني ولا تدعي أنفاس الثلوج تفصل جسمينا ، اجلسي-
 بجانبي أمام هذا الموقد ، فالنار فاكهة الشتاء الشهية ، حدثيني بمآتي الأجيال ، فأذناي قد
 تعبنا من تأوه الرياح وندب العناصر ، أوصدي الأبواب والنوافذ ، فمرأى وجه الجو
 الغضوب يحزن نفسي ، والنظر إلى المدينة الجالسة كالشكلى تحت أطباق الثلوج يدمي قلبي ...
 اسقي السراج زيتاً ، يا رفيقة عمري ، فقد أوشك أن ينطفئ ، وضعيه بالقرب منك لأرى ما
 كتبه الليالي على وجهك ... تي بجرّة الخمر لشرب ونذكر أيام العصر .

اقتربي! اقتربي مني يا حبيبة نفسي ، فقد خمدت النار وكاد الرماد يخفيها ... ضميني ، فقد
 انطفأ السراج وتغلّبت عليه الظلمة ... هاقد أثقلت أعيننا خمر السنين ... أرمقيني بعين
 كحلها النعاس ... عانقيني قبل أن يعانقني الكرى ... قبليني فالثلج قد تغلب على كلّ شيء
 إلا قبلتك ... آه يا حبيبتي ما أعمق بحر النوم! آه ما أبعد الصباح ... في هذا العالم!



حكاية

على ضفة ذلك النهر ، في ظل أشجار الجوز والصفصاف ، جلس ابن زرع يتأمل المياه الجارية بسكينة وهدوء ، فتى ربي بين الحقول حيث يتكلم كل شيء عن الحب ، حيث الأغصان تتعانق ، والأزهار تتمايل والطيور تتشعب ، حيث الطبيعة بأسرها تركز بالروح ، ابن عشرين رأى بالأمس على ينبوع صبية جالسة بين الصبايا فأحبها ثم علم أنها ابنة الأمير فلام قلبه وشكا إلى نفسه لكن الملامة لا تميل بالقلب عن الحب ، والعذل لا يصرف النفس عن الحقيقة ، والإنسان بين قلبه ونفسه كغصن لين في مهب ريح الجنوب وريح الشمال .

نظر الفتى فرأى زهرة البنفسج قد نبتت بقرب زهرة الأقحوان ، ثم سمع الهزار يناجي الشحرور ، فبكى لوحده وانفراده ، ثم مرت ساعات حبه أمام عينيه مرور الأشباح فقال وعواطفه تسيل مع كلماته ودموعه :

- هو ذا الحب يستهزئ بي ، ها قد جعلني سخرية وقادني إلى حيث الآمال تعد عيوباً والأمانى مذلة ، الحب الذي عبدته قد رفع قلبي إلى قصر- الأمير وخفض منزلتي إلى كوخ الزرع وسار بنفسه إلى جمال حورية تحببها الرجال ويحميها الشرف الرفيع ... أنا طائع أيها الحب فماذا تريد؟ قد ابتعتك على سبل نارية فلذعني اللهب ، قد فتحت عيني فلم أر غير الظلمة ، وأطلقت لساني فلم أتكلم بغير الأسى ، قد عانقني الشوق أيها الحب بمجاعة روحية لن تزول بغير قبل الحبيب ، أنا ضعيف أيها الحب فلم تخاصمني وأنت القوي؟ لماذا تظلمني وأنت العادل وأنا البريء؟ لماذا تذلني ولم يكن غيرك ناصري؟ لماذا تتخلى عني وأنت موجدي؟ إن جرى دمي بغير مشيئتك فاهرقه ، وإن تحركت قدماي على غير طرقك فشلها ، افعل مشيئتك بهذا الجسد وخل نفسي تفرح بهذه الحقول المستأمنة بظل جناحك ... الجداول تسير إلى حبيبها البحر ، والأزهار تبتسم لعشيقها النور ، والغيوم تهبط نحو مريدها الوادي ، وأنا وبى ما لا تعرفه الجداول ولا تسمع به الأزهار ولا تدركه الغيوم ، قد رأيتني وحيداً في محنتي منفرداً في غرامي بعيداً عن التي لا تريدني جندياً في كتائب أبيها ، ولا ترضاني خادماً في قصرها .

وسكت الفتى هنيهة كأنه يريد أن يتعلم الكلام من خرير النهر وحفيف أوراق الغصون ، ثم عاد فقال :

وأنتِ يا من أخاف من اسمها أن أدعوها باسمها ، أيتها المحجوبة عني بستائر العظمة وجدران الجلال ، أيتها الحورية التي لا أطمع بلقائها إلا في الأبدية حيث المساواة ، يا من تطيعها الصوارم وتنحني أمامها الرقاب وتنتفح لها الخزائن والمساجد ، قد ملكت قلباً قدسه الحب واستعبدت نفساً شرفها الله وخلبت عقلاً كان بالأمس حرّاً بحرية هذه الحقول فصار اليوم أسيراً بقيود هذا الغرام ، رأيتك أيتها الجميلة فعرفت سبب مجيئي إلى هذا العالم ، ولما عرفت رفعة منزلتك ونظرت إلى حقارتي علمت أن للآلهة أسراراً لا يعرفها الإنسان ، وسبلاً تذهب بالأرواح إلى حيث المحبة تقضي بغير الشرائع البشرية ، أيقنت لما نظرت إلى عينيك أن هذه الحياة فردوس بأبهى القلب البشري ، ولما رأيت شرفك وذلي يتصارعان صراع رماد وربال علمت أن هذه الأرض لم تعد وطناً لي ، ظننت لما وجدتك جالسة بين نساءك ، كالوردة بين الرياحين ، أن عروس أحلامي قد تجسدت وصارت بشراً مثلي ، ولما تخبرت مجد أبيك وجدت أن دون اجتناء الورد أشواكاً تدمي الأصابع ، وإن ما تجمعها الأحلام تفرقه اليقظة .

وقام إذ ذاك ومشى نحو الينبوع منخفض الجناح ، كسير القلب ، مجسماً الأسى والقنوط بهذه الكلمات :

- تعال يا موت وأنقذني ، فالأرض التي تخنق أشواكها أزهارها لا تصلح للسكن ، هلمّ وخلصني من أيام تخلع الحبّ عن كرسي مجده وتقيم الشرف العالي مكانه ، خلصني يا موت فالأبدية أجدر بقاء المحبين من هذا العالم ، هناك يا موت انتظر حبيبي وهناك أجمع بها .

بلغ الينبوع وقد جاء المساء وأخذت الشمس تلم وشاحها الذهبي عن الحقل ، فجلس يذرف الدموع على حضيض وطئته قدمًا ابنة الأمير وقد حنى رأسه على صدره كأنه منع قلبه من الخروج .

في تلك الدقيقة ظهرت من وراء أشجار الصفصاف صبية تجرّ أذيالها على الأعشاب ووقفت بجانب الفتى ووضعت يدها الحريرية على رأسه ، فنظر إليها نظرة نائم أيقظه شعاع الشمس ، فرأى ابنة الأمير واقفة حذاءه فجثا على ركبتيه مثلما فعل موسى عندما رأى العليقة مشتعلة أمامه ، ولما أراد الكلام أرتج عليه فنابت عيناه الطفاحتان بالدمع عن لسانه . ثم عانقته الصبية وقبلت شفتيه ، وقبلت عينيه راشقة المدامع السخينة ، وقالت بصوت ألطف من نغمة الناي :

- قد رأيتك يا حبيبي في أحلامي ونظرت وجهك في وحدتي وانقطاعي فأنت رفيق نفسي الذي فقدته ونصفي الجميل الذي انفصلت عنه عندما حكم علي بالمجيء إلى هذا العالم .

قد جئت سرًّا يا حبيبي لألتقيك وها أنت الآن بين ذراعي ، فلا تجزع! قد تركت مجد والدي لأتبعك إلى أقاصي الأرض وأشرب معك كأس الحياة والموت ، قم يا حبيبي إلى البرية البعيدة عن الإنسان .

ومشى الحبيبان بين الأشجار تخفيهما ستائر الليل ولا يخيفهما بطش الأمير ولا أشباح الظلمة

هناك في أطراف البلاد عشر رّواد الأمير على هيكلين بشريين في عنق أحدهما قلادة ذهبية
وبقربهما حجر كتبت عليه هذه الكلمات :

قد جمعنا الحبّ فمن يفرقنا ، وأخذنا الموت فمن يرجعنا؟



في مدينة الأموات

تملّصت بالأمس من غوغاء المدينة وخرجت أمشي في الحقول الساكنة حتى بلغت أكمة عالية ألبستها الطبيعة أجمل حلاها ، فوقفت وقد بانّت المدينة بكلّ ما فيها من البنايات الشاهقة والقصور الفخمة تحت غيمة كثيفة من دخان المعامل .

جلست أتأمّل عن بُعد بأعمال الإنسان فوجدت أكثرها عناء ، فحاولت في قلبي ألا أفكر بما صنعه آدم وحوّلت عينيّ نحو الحقل كرسي مجد الله فرأيت في وسطه مقبرة ظهرت فيها الأجداث الرخاميّة المحاطة بأشجار السرو .

هناك بين مدينة الأحياء ومدينة الأموات جلست أفكر ، أفكر في كيفية العراك المستمر والحركة الدائمة في هذه ، وفي السكينة السائدة والهدوء المستقر في تلك ، من الجهة الواحدة آمال وقنوط ، ومحبة وبغضة ، وغنى وفقر ، واعتقاد وجحود ومن الأخرى تراب في تراب تقلب الطبيعة بطنه ظاهريا وتبدع منه نباتا ثم حيوانا ، وكلّ ذلك يتمّ في سكينة الليل .

بينما أنا مستسلم لعوامل هذه التأمّلات استلقت ناظري جمع غفير يسير الهويناء تتقدّمه الموسيقى وتملأ الجو ألحانا محزنة ، موكب جمع بين الفخامة والعظمة وآلف بين أشكال الناس ، جنازة غني قوي ، رفات ميت يتبعه الأحياء وهم يبكون ويولولون ويبشون بالهواء الصراخ والعويل .

بلغوا الجبّانة فاجتمع الكهّان يصلّون ويبخرون ، وانفرد الموسيقيون ينفخون الأبواق ، وبعد قليل انبرى الخطباء فأبّنوا الراحل بمتتقيات الكلام ، ثم الشعراء فرثوه بمنتخبات المعاني ، وكلّ ذلك كان بتطويل ممل ، وبعد قليل انقشع الجمع عن جدث تسابق في صنعه الحفّارون والمهندسون وحوله أكاليل الأزهار المنمّقة بأيدي المتفنّين .

رجع الموكب نحو المدينة وأنا أنظر من بعيد وأفكر .

ومالت الشمس نحو الغروب واستطالت أخيلة الصخور والأشجار وأخذت الطبيعة
تخلع أثواب النور .

في تلك الدقيقة نظرت فرأيت رجلين يقلان تابوتا خشبيا ووراءهما امرأة ترتدي أطمارا
بالية وهي حاملة على منكبيها طفلا رضيعا وبجانبها كلب ينظر إليها تارة وإلى التابوت
أخرى ، جنازة فقير حقير ووراءها زوجة تذرف دموع الأسى وطفل يبكي لبكاء أمه وكلب
أمين يسير وفي مسيره حزن وكآبة .

وصل هؤلاء إلى المقبرة وأودعوا التابوت حفرة في زاوية بعيدة عن الأجداث الرخامية
ثم رجعوا بسكينة مؤثرة والكلب يتلفت نحو محط رحال رفيقه حتى اختفوا عن بصري
وراء الأشجار .

فالتفت إذ ذاك نحو مدينة الأحياء وقلت في نفسي- : تلك للأغنياء الأقوياء ، ثم نحو
مدينة الأموات وقلت : هذه للأغنياء الأقوياء ، فأين موطن الفقير الضعيف يا رب؟

قلت هذا ونظرت نحو الغيوم المتلبدة المتلونة أطرافها بذهب من أشعة الشمس الجميلة ،
وسمعت صوتا من داخلي يقول : هناك .



موت الشاعر حياته

خيّم الليل بجنحه فوق المدينة وألبسها الثلج ثوبًا وهزم البرد ابن آدم من الأسواق فاخترًا في أوكاره ، وقامت الرياح تتأوه بين المساكن كمؤمن وقف بين القبور الرخامية يرثي فريسة الموت .

وكان في أطراف الأحياء بيت حقير تداعت أركانه وأثقلته الثلوج حتى أوشك أن يسقط وفي إحدى زوايا ذلك البيت فراش بالٍ عليه مُحْتَضِرٌ ينظر إلى سراج ضعيف يغالب الظلمة فتغلبه ، فتى في ربيع العمر قد علم بقرب أجل انعتاقه من قيود الحياة فصار ينتظر المنيّة وعلى وجهه المصفر نور الأمل وعلى شفّتيه ابتسامة محزنة ، شاعر جاء ليفرح قلب الإنسان بأقواله الجميلة يموت جوعًا في مدينة الأحياء الأغنياء ، نفس شريفة هبطت مع نعم الآلهة لتجعل الحياة عذبة تودع دنياها قبل أن تبسم لها الإنسانية ، منازع يلفظ أنفاسه الأخيرة وليس بقربه سوى سراج كان رفيق وحدته وأوراق عليها أخيلة روحه اللطيفة .

جمع ذلك الفتى المنازع بقايا قوة قاربت الفناء ورفع يديه نحو العلاء وحرك أجفانه الذابلة كأنه يريد أن يخرق بنظراته الأخيرة سقف ذلك الكوخ البالي ليرى النجوم من وراء الغيوم ، ثم قال :

- تعالي أيتها المنية الجميلة فقد اشتاقتك نفسي ، اقتربي وحلي قيود المادة فقد تعبت من جرّها ، تعالي إليّ يا أيتها المنية الحلوة وأنقذيني من بين البشر ، أسرعني نحوي فقد تحلى عني الإنسان وطرحني في زوايا النسيان لأنني لم أكن طامعًا بالمال نظيره ولا باستخدام من هو أضعف مني ، تعالي إليّ أيتها المنية المعذبة وخذي مني فأولاد بجدي لا يحتاجون إليّ ، ضميني إلى صدرك المملوءة محبة ، قبلي شفّتي التي لم تذق طعم قبلة الوالدة ولا لمست وجنة الأخت ولا لثمت ثغر المحبوبة ، أسرعني وعانقيني يا حبيبتي المنية .

انتصب إذ ذاك بجانب فراش المنازع طيف امرأة ذات جمال غير بشري ترتدي ثوباً ناصعاً
كالثلج وتحمل بيدها إكليل زنابق من نبت الحقول العلوية ، ثم دنت منه وعانقته وأغمضت
عينيه كي يراها بعين نفسه ، وقبلت شفثيه قبلة محبة ، قبلة تركت على شفثيه ابتسامة اكتفاء .
في تلك الدقيقة أصبح ذلك البيت خبالاً إلا من التراب وبعض أوراق منشورة في زوايا
الظلمة .

مرت الأجيال وسكان تلك المدينة غرقى في سبات الجحود والإهمال ، ولما استفاقوا
ورأت عيونهم فجر المعرفة أقاموا لذلك الشاعر تمثالاً عظيمًا في وسط الساحة العمومية
وعيدوا له في كل عام عيدًا آه ما أجهل الإنسان!



بنات البحر

في أعماق البحر الذي يحيط بالجزائر القريبة من مطلع الشمس ، هنالك في الأعماق حيث الدر الكثير ، جثة فتى هامة بقرها بنات البحر ذوات الشعور الذهبية قد جلسن بين نبات المرجان ينظرن إليها بعيونهن الزرقاء الجميلة ويتحدثن بأصوات موسيقية ، حديثاً سمعته اللجة فحملته الأمواج إلى الشواطئ فجاء به النسيم إلى نفسي .

قالت واحدة :

- هذا بشريّ هبط بالأمس إذ كان البحر حانقاً .

فقال الثانية :

- لم يكن البحر حانقاً ولكن الإنسان - وهو الذي يدّعي بأنه من سلالة الآلهة ، كان في حرب حامية أُهرقت فيها الدماء حتى صار لون الماء قرمزياً ، وهذا البشري هو قاتل الحرب .

فقال الثالثة :

- لا أدري ما هي الحرب ولكنني أعلم أن الإنسان بعد أن تغلب على اليابسة طمع بالسيادة على البحر فابتدع الآلات الغريبة ونخر العباب ، فدرى نبتون إله البحار وغضب من هذا التعدي ، فلم ير الإنسان بدءاً إذ ذاك من إرضاء ملكينا بالذبائح والهدايا ، فالأشلاء التي رأيناها بالأمس هابطة هي آخر تقدمه من الإنسان إلى نبتون العظيم .

فقال الرابعة :

- ما أعظم نبتون ولكن ما أقسى قلبه! لو كنت أنا سلطنة البحار لما رضيت بالذبائح الدموية ، تعالي لنرى جثة هذا الشاب قريباً أفادتنا شيئاً عن طائفة البشر .

اقتربت بنات البحر من جثمان الشاب وبحثن في جيوب أثوابه فعثرن على رسالة في الثوب الملاصق قلبه ، فأخذت الرسالة واحدة منهن وقرأت :

«يا حبيبي ! ها قد انتصف الليل وأنا ساهرة وليس لي مسلّ غير دموعي ، ولا معزّ سوى أملي برجوعك إليّ من بين مخالب الحرب ، ولا أقدر أن أفكر إلا بما قلته لي عند الوداع بأن عند كلّ إنسان أمانة من الدمع لا بد من ردها يومًا ... لا أدري يا حبيبي ماذا أكتب بل أترك نفسي تسيل على الورق ، نفس يعذبها الشقاء ويعزيها الحبّ الذي يجعل الألم لذة والأحزان مسرة ... لما وحد الحبّ قلبينا وصرنا نتوقع ضمّ جسمين تجول فيهما روح واحدة ، نادتك الحرب فاتبعتها مدفوعاً بعوامل الواجب والوطنية ، ما هذا الواجب الذي يفرق المحبين ويرمل النساء وييتم الأطفال؟ ما هذه الوطنية التي من أجل أسباب صغيرة تدعو الحرب لتخريب البلاد؟ ما هذا الواجب المحتوم على القروي المسكين والذي لا يحفل به القوي وابن الشرف الموروث؟ إذا كان الواجب ينفي السلم من بين الأمم ، والوطنية تزعج سكينه حياة الإنسان ، فسلام على الواجب والوطنية ... لا ، لا يا حبيبي ، لا تحفل بكلامي بل كن شجاعاً ومحبّاً لوطنك ولا تسمع كلام ابنة أعمها الحبّ وأضاع بصيرتها الفراق ... إذا كان الحبّ لا يرجعك إليّ في هذه الحياة فالحب يضمني إليك في الحياة الآتية .

وضعت بنات البحر تلك الرسالة تحت أثواب الشاب وسبحن بسكينه مخزنة ، ولما بعدن قالت واحدة منهن :

إن قلب الإنسان أقسى من قلب نبتون⁽³⁵⁾ .



(35) إله البحر عند الرومان ، ويقابل «يوسيدون» عند اليونان .

النفس

.... وَفَصَلَ إِلَهَ الآلهة عن ذاته نفسًا وابتدع فيها جمالًا .
وأعطاه رقة نسيات السحر وعطر أزاهر الحقل ولطف نور القمر .
ووهبها كأس سرور وقال : لن تشربي منها إلا إذا نسيت الماضي وأهملت الآتي ، وكأس
حزن وقال : تشربين منها فتدركين كنه فرح الحياة .
وبثَّ فيها محبة تفارقها مع أول تنهدة استكفاء وحلاوة تخرج منها مع أول كلمة ترفع .
وأسقط عليها علمًا من السماء ليرشدها إلى سبل الحق .
ووضع في أعماقها بصيرة ترى ما لا يُرى .
وابتدع فيها عاطفة تسيل مع الأخيلة وتسير مع الأشباح .
وألبسها ثوب شوق حاكته الملائكة من تموجات قوس قزح .
ثم وضع فيها ظلمة الخيرة وهي خيال النور .
وأخذ الإله نارًا من مصهر الغضب ، وريجًا تهب من صحراء الجهل ، ورملاً من على
شاطئ بحر الأنانية ، وترابًا من تحت أقدام الدهور وجبل الإنسان .
وأعطاه قوة عمياء تثور عند الجنون وتحمد أمام الشهوات .
ثم وضع فيه الحياة وهي خيال الموت .
وابتسم إله الآلهة وبكى وشعر بمحبة لا حدَّ لها ولا مدى وجمع بين الإنسان ونفسه .



ابتسامة ودمعة

لمت الشمس أذيالها عن تلك الحدايق الناضرة وطلع القمر من وراء الأفق وسكب عليها نورًا لطيفًا وأنا جالس هنالك تحت الأشجار أتأمل انقلاب الجو من حالة إلى حالة وأنظر من خلال الأغصان إلى النجوم المنثورة كالدرهم على بساط أزرق وأسمع من بعيد خرير جداول الوادي .

ولما استأمنت الطيور بين القضبان المورقة وأغمضت الأزهار عيونها وسادت السكينة سمعت وقع أقدام خفيفة على الأعشاب ، فحولت نظري وإذا بفتى وفتاة يقتربان مني ، ثم جلسا تحت شجرة غضة وأنا أراها ولا أرى .

وبُعِيد أن تلفت الفتى إلى كل ناحية سمعته يقول : اجلسي بجانبني يا حبيبتني واسمعي ، ابتسمي لأن ابتسامتك هي رمز مستقبلنا ، وافرحي لأن الأيام قد فرحت من أجلنا ، حدثني نفسي بالشك الذي يخامر قلبك والشك في الحب إثم يا حبيبتني ، عن قريب تصيرين سيدة هذه الأملاك الواسعة التي ينيرها ذلك القمر الفضي . ، وربة هذا القصر- المضاهي قصور الملوك ، تحرك خيولي المهطمة في المنتزهات وتذهب بك مركباتي الجميلة إلى المراقص والملاهي ، ابتسمي يا حبيبتني كما يتسم الذهب في خزائني ، وارمقيني كما ترمقني جواهر والدي ، اسمعي يا حبيبتني فقد أبى قلبي إلا أن يسكب أمامك مخباته ، أمامنا سنة العسل ، سنة نصرها مع الذهب الكثير على شواطئ بحيرات سويسرا وفي منتزهات إيطاليا وقرب قصور النيل وتحت أغصان أرز لبنان ، سوف تلتقين الأميرات والسيدات فيحسدنك على حلاك وملابسك ، كل ذلك لك مني ، فهلا رضيت ؟ آه ما أحلى ابتسامتك ! ابتسامتك تحاكي ابتسام دهوري .

وبعد قليل رأيتهما يمشيان على مهل ويدوسان الأزهار بأقدامهما كما تدوس قدم الغني قلب الفقير .

غابا عن بصري وأنا أفكر بمنزلة المال عند الحبّ ، أفكر بالمال مصدر شرور الإنسان وبالحب منبع السعادة والنور .

ظلمت تائهاً في مسارح هذه الأفكار حتى لمحت شبّحين مرّاً من أمامي وجلسا على الأعشاب ، فتى وفتاة أتيا من جهة الحقول حيث أكواخ الفلاحين في المزارع ، وبعد هنيهة من سكينة مؤثرة سمعت هذا الكلام صادراً مع تنهدات عميقة من فم مصدر : كفكفي الدمع وتعزي لأننا تحالفنا على دين الحبّ ، ومن أجل الحبّ العذب نحتمل عذاب الفقر ومرارة الشقاء وتباريح الفراق ، ولا بد لي من مصارعة الأيام حتى أظفر بغنيمة تليق بأن أضعها بين يديك تساعدنا على قطع مراحل العمر ، إن المحبة يا حبيبتي ، وهي الله ، تقبل منّا هذه التنهدات وهذه الدموع كبخور عاطر ، وهي تكافئنا عليها بقدر ما نستحق ، أودّعك يا حبيبتي فأنا راحل قبل أن يغيب القمر .

ثم سمعت صوتاً رقيقاً تقاطعه زفرات أنفاس ملتبهة ، صوت عذراء لطيفة أودعت كلّ ما في جوارحها من حرارة الحبّ ومرارة التفرق وحلاوة التجلد تقول : الوداع يا حبيبي .

ثم افترقا وأنا جالس تحت أغصان تلك الشجرة تتجاذبني أيدي الشفقة وتساهمني أسرار هذا الكون الغريب .

ونظرت تلك الساعة نحو الطبيعة الراقدة وتأملت ملياً فوجدت فيها شيئاً لا حدّ له ولا نهاية ، شيئاً لا يشتري بالمال ، وجدت شيئاً لا تمحوه دموع الخريف ولا يميته حزن الشتاء ، شيئاً لا توجده بحيرات سويسرا ولا متنزهات إيطاليا ، وجدت شيئاً يتجلد فيحيا في الربيع ويثمر في الصيف ، وجدت فيها المحبة .



رؤيا

هناك في وسط الحقل على ضفة جدول بلوري رأيت قفصًا حبكت ضلوعه يد ماهرة ،
وفي إحدى زويا القفص عصفور ميت وفي زاوية أخرى جرن جفّ مأؤه وجرن نفدت
بذوره .

فوقفت وقد امتلكتني السكينة وأصغيت صاغراً كأن في الطائر الميت وصوت الجدول
عظة تستنطق الضمير وتستفسر- القلب ، وتأملت فعلمت أن ذلك العصفور الحقيّر قد
صارع الموت عطشاً وهو بجانب مجاري المياه ، وغالبه جوعاً وهو في وسط الحقول التي هي
مهد الحياة كغني أُفقلت عليه أبواب خزائنه فمات جوعاً بين الذهب .

وبعد هنيهة رأيت القفص قد انقلب فجأة وصار هيكل إنسان شفافاً ، وتحول الطائر
الميت إلى قلب بشري فيه جرح عميق يقطر دمًا وقد حاكت جوانب الجرح شفتي امرأة
حزينة .

ثم سمعت صوتاً خارجاً من الجرح مع قطرات الدماء قائلاً : أنا هو القلب البشري أسير
المادة وقبيل شرائع الإنسان التراي ، وفي وسط حقل الجمال ، على ضفة ينابيع الحياة ، أُسرت
في قفص الشرائع التي سنّها الإنسان للشواعر ، على مهد محاسن المخلوقات بين أيدي المحبة
مت مهملاً ، لأن ثمار تلك المحاسن ونتاج هذه المحبة قد حُرّما علي ، كلّ ما يشوقني صار
بعرف الإنسان عاراً ، وجميع ما أشتهيه أصبح في قضائه مذلة .

أنا القلب البشري قد حُبست في ظلمة سنن الجامعة فضعفت ، وقيدت بسلاسل الأوهام
فاحتضرت ، وأهمّلت في زوايا غيّ المدينة فقضيت ولسان الإنسانية منعقد وعيونها ناشفة وهي
تبتسم .

سمعت هذه الكلمات ورأيتها خارجة مع قطرات الدم من ذلك القلب الجريح ، وبعد
ذلك لم أعد أرى شيئاً ولم أسمع صوتاً فرجعت إلى حقيقتي .



الجمال

إن الجمال دين الحكماء

شاعر هندي

يا أيها الذين حاروا في سبيل الأديان المتشعبة وهاموا في أودية الاعتقادات المتباينة فرأوا
حرية الجحود أوفى من قيود التسليم ، ومسارح النكران أسلم من معاقل الاتباع ، اتخذوا
الجمال ديناً واتقوه رباً ، فهو الظاهر في كمال المخلوقات البادي في نتائج المعقولات ، انبذوا
الألى مثلوا التدين لهواً وآفوا بين طمعهم بالمال وشغفهم بحسن المآل وآمنوا بألوهية جمال
كان بدء استحسانكم الحياة ومنع محبتكم السعادة ، ثم توبوا إليه فهو المقرب قلوبكم من
عرش مرآة شعائركم والمدرّب أنفسكم في مجال الطبيعة موطن حياتكم .

ويا أيها الذين شاعوا في ليل التقولات وغرقوا في لجج الأوهام ، إن في الجمال حقيقة نافية
الريب ، مانعة الشك ، ونوراً باهراً يقيكم ظلمة البطل .

تأملوا يقظة الربيع ومجيء الصبح ، إن الجمال نصيب المتأملين .

اصغوا لأنغام الطيور ، وحفيف الأغصان ، وخرير الجداول ، إن الجمال قسمة السامعين
انظروا وداعة الطفل ، وظرف الشاب ، وقوة الكهل ، وحكمة الشيخ ، إن الجمال فتنة
الناظرين .

تشببوا برنّجس العيون ، وورد الخدود ، وشقيق الفم ، إن الجمال يتمجد بالمتشبين .

سبحوا لغصن القد ، وليل الشعر ، وعاج العنق ، إن الجمال يسر بالمسبحين .

كرّسوا الجيد هيكلاً للحسن ، وقدّسوا القلب مذبحاً للحب ، إنّ الجمال يجازي المتعبّدين
تهللوا يا أيها الذين أنزلت عليهم آيات الجمال وافرحوا إذ لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .



الحروف النارية

احفروا على لوح قبري :

« هنا رفات من كتب اسمه بهاء »

جان كيتس (*)

أهكذا تمرّ بنا الليالي؟ أهكذا تندثر أقدام الدهر؟ أهكذا تطوينا الأجيال ، ولا تحفظ لنا
سوى اسم تخطّه على صحفها بهاء بدلاً من المداد؟

أينطفئ هذا النور ، وتزول هذه المحبّة ، وتضمحل هذه الأمانى؟ أيهدم الموت كلّ ما نبنيه
، ويذري الهواء كلّ ما نقوله ، ويخفي الظل كلّ ما نفعله؟

أهذه هي الحياة؟ هل هي ماضٍ قد زال واختفت آثاره ، وحاضر يركض لاحقاً بالماضي ،
ومستقبل لا معنى له إلا إذا ما مر وصار حاضراً أو ماضياً؟ أتزول جميع مسرات قلوبنا
وأحزان أنفسنا دون أن نعلم نتائجها؟

أهكذا يكون الإنسان مثل زبد البحر يطفو دقيقة على وجه الماء ثم تمر نسيات الهواء
فتطفئه ويصبح كأنه لم يكن؟

لا ، لعمرى ، فحقيقة الحياة حياة ، حياة لم يكن ابتداءؤها في الرحم ، ولن يكون منتهاها في
اللحد ، وما هذه السنوات إلا لحظة من حياة أزلية أبدية ، هذا العمر الدنيوي مع كلّ ما فيه
هو حلم بجانب اليقظة التي ندعوها الموت المخيف ، حلم ولكن كلّ ما رأيناه وفعلناه فيه
يبقى ببقاء الله .

(*) جون كيتس (1795-1821) شاعر غنائي ، من أكبر الشعراء الرومانسيين الإنجليز ، تأثر بأساطير القرون الوسطى
، جمع بين الجمال الحسي والفني في أسلوبه . من رأيه أنّ رسالة الفنان تخلّد لحظات الجمال في شعره . صادق «شيللي»
وشاركه في شعوره بمشكلات المجتمع والبحث عن الكمال . أشهر قصائده «إلى الخريف» ، و«قصيدة إلى عندليب» .

فالأثير يحمل كلّ ابتسامة وكل تنهدة تصعد من قلوبنا ، ويحفظ صدى كلّ قبلة مصدرها
المحبة ، والملائكة تحصي كلّ دمعة يقطرها الحزن من مآقينا ، وتعيد على مسمع الأرواح
السابحة في فضاء اللانهاية كلّ أنشودة ابتدعها الفرح من شواعرنا .

هناك في العالم الآتي سترى جميع تموجات شواعرنا واهتزازات قلوبنا ، وهناك ندرك كنه
ألوهيتنا التي نحتقرها الآن مدفوعين بعوامل القنوط .

الضلال الذي ندعوه اليوم ضعفاً سيظهر في الغد كحلقة كيانه واجب لتكملة سلسلة
حياة ابن آدم .

الأتعاب التي لا نكافأ عليها الآن ستحيا معنا وتذيع مجدنا .

الأرزاء التي نحتملها ستكون إكليلاً .

هذا ولو علم « كيتس » ذلك البلبل الصداح ، أن أناشيده لم تزل تبث روح محبة الجمال في
قلوب البشر لقال :

- احفروا على لوح قبوري : هنا بقايا من كتب اسمه على أديم السماء بأحرف من نار .



بين الخرائب

وشح القمر تلك الخمائل المحاطة بمدينة الشمس برقعا لطيفا ، وظفر الهدوء بأعنة الكائنات وبانت تلك الخرائب الهائلة كأنها جبّاراً يهزأ بعاديات الليالي .

في تلك الساعة انبثق من لا شيء خيالان يشبهان أبخرة متصاعدة من بحيرة زرقاء وجلسا على عمود رخامي استأصله الدهر من ذلك البناء الغريب يتأملان بمحيط يحاكي مسارح السحر ، وبعد هنيهة رفع أحدهما رأسه ، وبصوت يشبه الصدى الذي تردده خلّيا الأودية البعيدة قال :

- هذه بقايا هياكل بنيتها من أجلك يا محبوبتي ، وتلك رمم قصر- رفعته لاستحسانك وقد دكّت ولم يبق منها سوى أثر يحدث الأمم بمجد صرفت الحياة لتعميمه ، وعزّ استخدمت الضعفاء لتعظيمه ، تأملي يا محبوبتي ، فقد تغلبت العناصر على مدينة شيدتها ، واستصغرت الأجيال حكمة رأيّتها ، وأضاع النسيان ملكاً رفعته ولم يبق لي سوى المحبة التي أولدها جمالك ونتائج الجمال الذي أحياه حبّك ، بنيت هيكلاً في أورشليم للعبادة فقدّسه الكهّان ثمّ سحقته الأيام ، وبنيت هيكلاً بين أضلعي للمحبة فقدسه الله ولن تقوى عليه القوّات ، صرفت العمر مستفسراً ظواهر الأشياء مستنطقاً أعمال المادة فقال الإنسان : ما أحكمه مالكا! وقالت الملائكة : ما أصغره حكيمًا! ثمّ رأيّتك يا محبوبتي وغنيت فيك نشيد محبة وشوق ففرحت الملائكة ، أما الإنسان فلم ينتبه ... كانت أيام ملكي كالحواجز بين نفسي الظمآن والروح الجميل المستقر في الكائنات ، ولما رأيّتك استيقظت المحبة وهدمت تلك الحواجز فأسفت على عمر صرفته مستسلماً لتيارات القنوط حاسباً كلّ شيء تحت الشمس باطلاً ، حبكت الدروع وطرقت التروس فخافتني القبائل ، ولما أنارتني المحبة احتُقرت من شعبي ، ولكن عندما جاء الموت أودع تلك الدروع والتروس التراب وحمل محبتي إلى الله .

وُبعيد سَكينة قال الخيال الثاني : مثلما تكتسب الزهرة عطرها وحياتها من التراب كذلك تستخلص النفس من ضعف المادة وخطأها قوة وحكمة .

عندئذٍ تمازج الخيالان وصارا خيالاً واحداً وسارا ، وبعد هنيهة أذاع الهواء هذه الكلمات في تلك الأنحاء : لا تحفظ الأبدية إلا المحبة لأنّها مثلها .

رؤيا

أرفع هذه الرسالة إلى الفيكونتس

س . ل . جواباً على رسالة أكرممتني بها

مشى الشاب أمامي فاتبعت مسيره ، حتى إذا بلغنا حقلاً بعيداً متأملاً الغيوم الجارية فوق خط الشفق كأنها قطع نعاج بيضاء ، والأشجار المشيرة بأغصانها العارية إلى العلاء كأنها تطلب من السماء استرجاع أوراقها الغضة ، فقلت : أين نحن أيها الشباب ؟ قال : في حقول الحيرة فانتبه ، قلت : لنرجع ! لأن وحشة المكان تخيفني ومرأى الغيوم والأشجار العارية يحزن نفسي ، قال : اصبر فالحيرة بدء المعرفة ، ثم نظرت فإذا بحورية تقترب منا كالخيال فصرخت مستغرباً : من هذه ؟ قال : هي ميلبومين ابنة جوبيتر وربة الروايات المحزنة ، قلت : وماذا تبتغي مني وأنت بجانب أيها الشاب المفرح ؟ قال : جاءت لتريك الأرض وأحزانها ، ومن لا يرى الأحزان لا يرى الفرح .

ووضعت الحورية يدها على عيني ، ولما رفعتها رأيته منفصلاً عن شبابي مجرداً من ثوب المادة ، فقلت : أين الشاب يا ابنة الآلهة ؟ فلم تجبني بل ضمتني بجناحيها وطار بي إلى قمة جبل عالٍ فرأيت الأرض وما فيها منبسطة أمامي كالصفحة وأسرار سكانها ظاهرة لعيني كالخطوط ، فوقفت متهيئاً بجانب الحورية متأملاً خفايا الإنسان مستفسراً رموز الحياة ، رأيت ، وليتني لم أر ، رأيت ملائكة السعادة تحارب أبالسة الشقاء والإنسان بينهما في حيرة تميل به نحو الأمل تارة والقنوط أخرى ، رأيت الحب والبغض يلعبان بالقلب البشري : هذا يستر ذنوبه ويسكره بخمرة الاستسلام ويطلق لسانه بالمدح والإطراء ، وذاك يهيج خصوماته ويعميه عن الحقيقة ويغلق سامعته عن القول الصحيح ، رأيت المدينة جالسة كابنة الأزقة متشبثة بأذيال ابن آدم ، ثم رأيت البرية الجميلة واقفة عن بعد تبكي من أجله .

رأيت الكهان يروغون كالثعالب ، والمسحاء الكذبة يحتالون على ميول النفس ، والإنسان يصرخ مستنجدًا بالحكمة وهي نافرة عنه غضبي عليه لأنه لم يسمعها عندما نادته في الشوارع على رؤوس الأشهاد .

رأيت القسوس يكثرون رفع عيونهم إلى السماء وقلوبهم مطمورة في قبور المطامع ، رأيت الفتيان يتحببون بألستهم ويقتربون بآمال نزقهم وألوهيتهم بعيدة وعواطفهم نائمة ، رأيت المشرعين يتاجرون بثرثرة الكلام بسوق الخداع والرياء ، والأطباء يلعبون بأرواح البسطاء الوثائقين ، رأيت الجاهل يجالس العاقل فيرفع ماضيه على عرش المجد ويوسد حاضره بساط السعة ويمد لمستقبله فراش الفخامة ، رأيت الفقراء المساكين يزرعون والأغنياء الأقوياء يحصدون ويأكلون والظلم واقف هناك والناس يدعونه الشريعة ، رأيت لصوص الظلمة يسرقون كنوز العقل وحراس النور غرقى في كرى التواني ، رأيت المرأة كالقيثارة في يد رجل لا يحسن الضرب عليها فتُسمعه أنغامًا لا ترضيه ، رأيت تلك الكتائب المعروفة تحاصر مدينة الشرف الموروثة ، لكنني رأيت كتائب قد اندحرت لأنها قليلة غير متحدة ، رأيت الحرية الحقيقية تسير وحدها في الشوارع وأمام الأبواب تطلب مأوى والقوم يمنعونها ، ثم رأيت الابتذال يسير بموكب عظيم والناس يدعونه الحرية ، رأيت الدين مدفونًا طي الكتاب والوهم قائمًا مقامه ، رأيت الإنسان يلبس الصبر ثوب الجبانة ، ويعطي التجلّد لَقَبَ التواني ، ويدعو اللطف باسم الخوف ، رأيت المتطفل على موائد الآداب يدعي والمدعو إليها صامتًا ، رأيت المال بين يدي المبذر شبكة شروره وبين يدي البخيل مجلبة لمقت الناس وبين يدي الحكيم لم أر مالا .

عندما رأيت كلّ هذه الأشياء صرخت متألّما من هذا المنظر : أهذه هي الأرض يا ابنة الآلهة؟ أهذا هو الإنسان؟ فأجابت بسكينة جارحة : هذه طريق النفس المفروشة شوگا وقطرًا ، هذا ظل الإنسان ، هذا هو الليل وسيجيء الصباح ، ثم وضعت يدها على عينيّ ، ولما رفعتها وجدتها وشبابي سائرًا على مهل ، والأمل يركض أمامي .



الأمس واليوم

مشى الموسر في حديقة صرحه ومشى الهمّ متبعاً خطواته ، وحام القلق فوق رأسه مثلما تحوم النسور على جثة صفعها الموت ، حتى بلغ بحيرة تسابقت في صنعها أيدي الإنسان وجمعت جوانبها منطقة من الرخام المنحوت ، فجلس هناك ينظر أنا إلى المياه المتدفقة من أفواه التماثيل تدفق الأفكار من مخيلة العاشق ، وآونة إلى قصره الجميل الجالس على تلك الراحبة جلوس الخال على وجنة الفتاة .

جلس فجالسته الذكرى ونشرت أمام عينيه صفحات كتبها الماضي في رواية حياته فأخذ يتلوها والدموع تحجب عنه محيطاً صنعه الإنسان واللهفة تعيد إلى قلبه رسوم أيام نسجتها الآلهة حتى أبت لوعته إلا الكلام فقال :

كنت بالأمس أرعى الغنم بين تلك الروابي المخضرة وأفرح بالحياة وأنفخ في شبابتي معلناً غبطني ، وها أنا اليوم أسير المطامع يقودني المال إلى المال ، والمال إلى الانهماك ، والانهماك إلى الشقاء ، كنت كالعصفور مغرداً ، وكالفراش متنقلاً ، ولم يكن النسيم أخفّ وطأة على رؤوس الأعشاب من خطوات أقدامي في تلك الحقول ، وها أنا سجين عادات الاجتماع : أتصنع بملاسي وعلى مائدي وبكل أعمال من أجل إرضاء البشر- وشرائعهم ، كنت أود لو أنني خلقت لأتمتع بمسرات الوجود ، ولكنني أراني اليوم متبعاً بحكم المال سبل الغم ، فصرت كالناقة المثقلة بحمل من الذهب ، والذهب يميته ، أين السهول الواسعة؟ أين السواقي المترنمة؟ أين الهواء النقي؟ أين مجد الطبيعة؟ أين ألوهيتي؟ قد ضيعت كلّ ذلك ولم يبق لي غير ذهب أحبه فيستهزئ بي ، وعبيد أكثرتهم فقلّ سروري ، وصرح رفعتة ليهدم غبطني ، كنت وابنة البدو نسير والعفاف ثالثنا ، والحب نديمنا ، والقمر رقيينا ، واليوم أصبحت بين اللواتي يمشين ممدودات الأعناق ، غامزات العيون ، الشاريات الحسن بالسلاسل والمناطق ، البائعات الوصل بالأساور والخواتم .

كنت والفتيان نخطر بين الأشجار كسرب الغزلان ، نشترك بإنشاد الأغاني ، نقسم
ملذات الحقول ، واليوم صرت بين القوم كالنعجة بين الكواسر ، أمشي في الشوارع فتفتح
علي عيون البغض ويشار إليّ بأصبع الحسد ، وإن ذهبت إلى المتزهات لا أرى غير وجوه
كالحة ورؤوس شاحخة ، بالأمس أعطيت الحياة وجمال الطبيعة ، واليوم سُلبتها ، بالأمس
كنت غنيًا بسعادتي واليوم أصبحت فقيرًا بهالي ، بالأمس كنت ونعاجي مثل ملك رؤوف
ورعيتة ، واليوم صرت لدى الذهب كالعبد المتصاغر أمام السيد المظلوم ... ما كنت أحسب
أن المال يطمس عين نفسي ويقودها إلى مغاور الجهل ، ولم أدرك أن ما يحسبه الناس مجداً كان
واحرّ قلباه جحيماً .

وقام الموسر من مكانه ومشى ببطء نحو قصره متأوهاً مردداً : أهذا هو المال؟ أهذا الإله
الذي صرت كاهنه؟ أهذا ما نبتاع بالحياة ولا يمكننا أن نستبدل به ذرة من الحياة؟ من يبعني
فكراً جميلاً بقطار من الذهب؟ من يأخذ قبضة من الجواهر بدقيقة محبة؟ من يعطيني عيناً
ترى الجمال ويأخذ خزائني؟

ولما وصل إلى باب القصر نظر نحو المدينة نظرة «إرميا» إلى «أورشليم» وأوماً بيده نحوها
كأنه يرثيها وقال بصوت عالٍ : أيها الشعب السالك في الظلمة ، الجالس في ظل الموت ،
الراكض وراء التعاسة ، القاضي بالبطل ، المتكلم بالحماقة ، إلى متى تأكل الشوك والحسك
وترمي الثمار والزهر إلى الهاوية؟ حتى متى تسكن الوعر والخرائب تاركاً بستان الحياة؟ لماذا
ترتدي الأطمار البالية وثوب الدمقس قد فُصل من أجلك؟ أيها الشعب قد انطفأ سراج
الحكمة فاسقه زيتاً ، وخرّب ابن السيل كرم السعادة فاحرسه ، وسرق اللص خزائن
راحتك فانتبه!

في تلك الدقيقة وقف أمام الغني فقير ومدّ يده متسولاً ، فنظر إليه وقد انضمت شفتاه المرتجفتان وانبسطت سحته وانبعث من عينيه نور لطيف ، كان بالأمس الذي رثاه بقرب البحيرة قد مرّ مسلماً فاقترّب من المستعطي وقبّله قبلة المحبة والمساواة وملاً يده ذهباً وقال والرأفة تسيل من كلماته : خذ يا أخي الآن وعد غداً مع أترابك واسترجعوا أموالكم ، فابتسم الفقير ابتسامة الزهرة الذابلة بعيد المطر وراح مسرعاً .

حينئذ دخل الموسر قصره قائلاً : كلّ شيء حسن في الحياة حتى المال لأنه يعلم الإنسان أمثولة .

إنما المال كالأرغن يُسمع من لا يحسن الضرب عليه أنغاماً لا ترضيه ، المال كالحب يميت من يظنّ به ويحيي واهبه .



رحماك يا نفس رحماك!

حتى متى تنوحين يا نفسي وأنت عالمة بضعفي؟ إلى متى تضجين وليس لديّ سوى كلام بشري أُصور به أحلامك؟ انظري يا نفسي فقد أنفقت عمري مصغيًا لتعاليمك ، تأملي يا معذبتني فقد أتلفت جسمي متبعًا خطواتك .

كان قلبي مليكي فصار الآن عبدك ، وكان صبري مؤنسي فغدا بك عذولي ، كان الشباب نديمي فأصبح اليوم لائي ، وهذا كلّ ما أوتيته من الآلهة ، فمم تستزيدين وبم تطمعين؟
قد أنكرت ذاتي وتركت ملاذ حياتي وغادرت مجد عمري ولم يبق لي سواك ، فاقضي- علي بالعدل ، فالعدل مجدك ، أو استدعي الموت واعتقي من الأسر معنك .

رحماك يا نفس! فقد حملتني من الحبّ ما لا أطيعه : أنت والحب قوة متحدة ، وأنا والمادة ضعف متفرق ، وهل يطول عراك بين قوي وضعيف؟

رحماك يا نفس! فقد أريتني السعادة عن بعد شاسع : أنت والسعادة على جبل عالٍ ، وأنا والشقاء في أعماق الوادي ، وهل يتم لقاء بين علو ووطوءة؟

رحماك يا نفس! فقد أبنت لي الجمال وأخفيتني : أنت والجمال في النور ، وأنا والجهل في الظلمة ، وهل يمتزج النور بالظلمة؟

أنت يا نفس تفرحين بالآخرة قبل مجيء الآخرة ، وهذا الجسد يشقى بالحياة وهو في الحياة .

أنت تسيرين نحو الأبدية مسرعة ، وهذا الجسد يخطو نحو الفناء ببطء ، فلا أنت تتمهلين ولا هو يسرع ، وهذا يا نفس منتهى التعاسة .

أنت ترتفعين نحو العلو بجاذب السماء ، وهذا الجسد يسقط إلى تحت بجاذبية الأرض ، فلا أنت تعزينه ولا هو يهنئك وهذه هي البغضاء .

أنت يا نفس غنية بحكمتك ، وهذا الجسد فقير بسليقته ، فلا أنت تتساهلين ولا هو يتبع ، وهذا هو أقصى الشقاء .

أنت تذهبين في سكينة الليل نحو الحبيب وتتمتعين منه بضممة وعناق ، وهذا الجسد يبقى أبداً قتيل الشوق والتفريق .

رحماك يا نفس رحماك !

الأرملة وابنها

هجم الليل مسرعاً على شمالي لبنان مستظهراً على نهار تساقطت فيه الثلوج على تلك القرى المحيطة بوادي قاديشا جاعلة تلك الحقول والهضاب صفحة بيضاء ترسم عليها الرياح خطوطاً تمحوها الرياح وتتلاعب بها العواصف مازجة الجو الغضوب بالطبيعة الهائلة .

اختبأ الإنسان في منازلها والحيوان في مرايضه وسكنت حركة كل ذي نسمة حية ولم يبق غير برد قارس وزمهير هائج وليل أسود مخيف وموت قوي مريع .

وكان في منزل منفرد بين تلك القرى امرأة جالسة أمام موقد تنسج الصوف رداء وبقرها وحيدها ينظر تارة إلى أشعة النار ، وطوراً إلى وجه أمه الهادئ ، في تلك الساعة عصفت الرياح بشدة وهزت أركان ذلك البيت ، فذعر الصبي واقترب من أمه محتماً بحنوها من غضب العناصر ، فضمته إلى صدرها وقبلته ثم أجلسته على ركبتيها وقالت : لا تجزع يا ولدي ، فمن وراء الثلوج المتساقطة والغيوم المتلبدة والرياح العاصفة روح قدوس كلي عالم بما تحتاج إليه الحقول والآكام ، من وراء كل شيء قوة ناظرة إلى حقارة الإنسان بعين الشفقة والرحمة ، لا تجزع يا فلذة كبدي ، فالطبيعة التي ابتسمت في الربيع وضحكت في الصيف وتأوهت في الخريف تريد أن تبكي الآن ، ومن دموعها الباردة تسقي الحياة الرابضة تحت أطباق الثرى ، نم يا ولدي ، ففي الغد تستيقظ وترى السماء صافية الأديم ، والحقول لابسة رداء الثلج الناصع مثلما ترتدي النفس ثوب الطهر بعيد مصارعة الموت ، نم يا وحيدتي ، فوالدك ناظر الآن إلينا من مسارح الأبدية ، وحبذا عاصفة وثلوج تقربنا من ذكر تلك النفوس الخالدة ، نم يا حبيبي ، فمن هذه العناصر المتحاربة بعنف سوف تجني الأزهار الجميلة عندما يجيء نيسان ، كذا الإنسان يا بني لا يستثمر المحبة إلا بعد بعاد أليم ، وصبر مر ، وقنوط متلف ، نم يا صغيري ، فسوف تأتي الأحلام العذبة إلى نفسك غير خائفة من هيبة الليل وبطش البرد .

ونظر الصبي إلى أمّه وقد كحلّ النعاس عينيه وقال : لقد أثقل أجفاني الكرى يا أماه
وأخاف أن أنام قبل تلاوة الصلاة ، فعانقته الأم الحنون ونظرت من وراء الدموع إلى وجهه
الملائكي ثمّ قالت : قل معي يا ولدي : أشفق يا رب على الفقراء واحمهم من قساوة البرد
القارس واستر جسومهم العارية بيدك ، انظر إلى اليتامى النائمين في الأكواخ وأنفاس الثلج
تكلم أجسامهم ، اسمع يا رب نداء الأرامل القائمت في الشوارع بين محالب الموت وأظفار
البرد ، امدد يدك يا رب إلى قلب الغني وافتح بصيرته ليرى فاقة الضعفاء المظلومين ، ارفق
يا رب بالجائعين الواقفين أمام الأبواب في هذا الليل الظلوم واهد الغرباء إلى المأوي الدافئة
وارحم غربتهم ، انظر يا رب إلى العصافير الصغيرة واحفظ بيمينك الأشجار الخائفة من
قساوة الرياح ... ليكن هذا يا رب .

ولما عانق الكرى نفس الصبي مددته والدته على فراشه وقبلت جبهته بشفتين مرتجفتين
ثمّ رجعت وجلست أمام الموقد تنسج له الصوف رداء .



الدهر والأمة

على سفح لبنان بقرب جدول ينسل بين الصخور كأسلاك فضية جلست راعية يحيط بها
قطيع غنم مهزول يرتعي الأعشاب اليابسة بين الأشواك الغضة ، صبية تنظر نحو الشفق
البعيد كأنها تقرأ مآتي الآتي على صفحات الجو وقد نمق الدمع عينيها مثلما ينمق الندى
أزهار النرجس ، وفتح الأسى شفتيها كأنه يريد سلب قلبها تنهدًا .

ولما جاء المساء وأخذت تلك الروابي تلتف برداء الظل وقف أمام الصبية فجأة شيخ
يتدلّ شعره الأبيض على صدره وكتفيه حاملاً يمينه منجلًا سنيًا وقال بصوت يحاكي هدير
الأمواج :

- سلام على سوريا .

فوقفت الفتاة مذعورة وأجابته بصوت يقطعه الوجل ويصله الحزن قائلة : ماذا تبتغي
الآن مني أيها الدهر؟

ثم أومأت نحو أغنامها وزادت : هذه بقايا قطع كان يملأ الأودية ، هذه فضلة مطامعك
فهل جئت لتستزيد منها؟

هذه هي المسارح التي أجدها دوس قدميك وقد كانت منبت الخصب والرزق ، كانت
نعاجي ترتعي رؤوس الأزهار وتدرّ لبنًا زكيًا ، فها هي الآن خمص البطون تقضم الأشواك
وأصول الأشجار مخافة الفناء .

اتق الله يا دهر وانصرف عني فقد كرّهتني الحياة ذكرى مظالمك وحببت إليّ الموت قساوة
منجلك .

اتركيني ووحدتي أرشف الدمع شراباً وأتنشق الحزن نسيماً ، واذهب يا دهر إلى الغرب
حيث القوم في عرس الحياة وعيدها ودعني أنتحب في مآتم أنت عاقدها .

فنظر الشيخ إليها نظرة الأب وقد أخفى منجله طي أثوابه وقال :

- ما أخذت منك يا سوريا إلا بعض عطايي وما كنت ناهباً قط بل مستعيراً أردّ ، ووفياً
أُوجع .

واعلمي أن لأخواتك الأمم نصيباً باستخدام مجد كان عبدك ، وحقاً بلبس رداء كان لك
، أنا والعدل أفنومان لذات واحدة ، فلا يجمل بي سوى إعطاء أخواتك ما أعطيتك ، ولست
قادرًا على تسويتكن في محبتي ، لأن المحبة لا تنقسم إلا على السواء ، لك يا سوريا أسوة
بجاراتك مصر وفارس واليونان إذ لكل منهن قطيع يشابه قطيعك ومرعى نظير مرعاك ، إن
ما تدعيه انحطاطاً يا سوريا أدعوه نومًا واجبًا يعقبه النشاط والعمل ، فالزهرة لا تعود إلى
الحياة إلا بالموت ، والمحبة لا تصير عظيمة إلا بعد الفراق .

واقترب الشيخ من الفتاة ومد يده قائلاً : هزي يدي يا ابنة الأنبياء ، فأخذت يده وهي
تنظر إليه من وراء الدمع وقالت : الوداع أيها الدهر الوداع .

فأجابها : إلى اللقاء يا سوريا إلى اللقاء .

حينئذٍ اختفى الشيخ كما يختفي البرق ، فنادت الصبية أغنامها ومضت مرددة : هل من
لقاء يا ترى ، هل من لقاء؟



أمام عرش الجمال

هربتُ من الاجتماع وهمتُ في ذاك الوادي الواسع متبعًا مجاري الجدول تارة مصغيًا إلى محاورات العصافير طورًا ، حتى بلغت مكانًا حمته الأغصان من نظرات الشمس ، فجلستُ أسامرٌ وحدثني وأناجي نفسي ، نفس ظامئة رأت كل ما يرى سرابًا وكل ما لا يرى شرابًا .

ولما انطلقتُ عاقلتي من محبس المادة إلى فضاء الخيال التفتُ فإذا بفتاة واقفة على مقربة مني ، حورية لم تتخذ من الحلي والحلل سوى غصن من الكرمة تستر به بعض قامتها وإكليل من الشقيق يجمع شعرها الذهبي ... وإذ علمتُ من نظراتي أنني مسلوب الفجأة والحيرة قالت : أنا ابنة الأحراج فلا تجزع .

قلت وقد ردت حلاوة صوتها بعض رمقي : وهل يقطن من كان مثلك برية الوحشة والوحوش ؟ قولي لي بعيشك من أنت ومن أين أتيت ؟ فقالت وقد جلست على الأعشاب : أنا رمز الطبيعة ، أنا العذراء التي عبدها آباؤك فبنوا لها مذابح وهياكل في بعلبك وأفقا وجبل ، قلت : تلك الهياكل قد انهدمت وعظام أجدادي ساوت أديم الأرض ولم يبق من آثار آلهتهم وأديانهم سوى صفحات قليلة في بطون الكتب .

قالت : بعض الآلهة يحيون بحياة عبادهم ويموتون بموتهم ، وبعضهم يحيون بألوهية أزلية ، أما ألوهيتي فهي مستمدة من جمال تراه كيفما حولت عينيك ، جمال هو الطبيعة بأسرها ، جمال كان بدء سعادة الراعي بين الربى والقروي بين الحقول والعشائر الرحل بين الجبل والساحل ، جمال كان للحكيم مراقبة إلى عرش حقيقة لا تجرح ، قلتُ ودقات قلبي تقول ما لا يعرفه اللسان : إن الجمال قوة مخيفة رهيبة ، فقالت وعلى شفيتها ابتسامة الأزهار وفي نظرها أسرار الحياة : أنتم البشر تخافون كل شيء حتى ذواتكم ، تخافون السماء وهي منبع الأمن ، تخافون الطبيعة وهي مرقد الراحة وتخافون إله الآلهة وتعززون إليه الحقد والغضب وهو إن لم يكن محبة ورحمة لم يكن شيئًا .

وبعد سَكينة مازَجَتْهَا الْأَحْلَامُ اللَّطِيفَةُ سَأَلَتْهَا : ما هذا الجمال ؟ فقد تباين الناس بتعريفه
ومعرفته مثلما اختلفوا بتمجيده ومحبه ، قالت : هو ما كان بنفسك جاذب إليه ، وهو ما تراه
وتودُّ أَنْ تُعْطِيَ لَا أَنْ تَأْخُذَ ، هو ما شَعَرْتَ عند ملقاه بأيدٍ ممدودةٍ لضمِّه إلى أعماقك ، هو ما
تحسبه الأجسام محنة والأرواح منحة ، هو ألفة بين الحزن والفرح ، هو ما تراه محجوبًا
وتعرفه مجهولًا وتسمعه صامتًا ، هو قوة تبتدئ في قدس أقداس ذاتك وتنتهي فيما وراء
تخيالاتك .

واقْتَرَبَتْ ابْنَةُ الْأَحْرَاجِ مِنِّي ووضعت يدها المَعْطَرَةَ على عيني ولما رَفَعَتْهَا رَأَيْتُنِي وحيدًا في
ذلك الوادي ، فرجعت ونفسي مرددة : إن الجمال هو ما تراه وتود أن تعطي لا أن تأخذ .



زيارة الحكمة

في هدوء الليل جاءت الحكمة ووقفت بقرب مضجعي ونظرت إليّ نظراً أماً الحنون ومسحت دموعي وقالت : سمعت صراخ نفسك فأتييت لأعزيها ، أبسط قلبك أمامي فاملأه نوراً ، سلني فأريك سبيل الحق ، فقلت : من أنا أيتها الحكمة ، وكيف سرت إلى هذا المكان المخيف ؟ ما هذه الأمانى العظيمة والكتب الكثيرة والرسوم الغريبة ؟ ما هذه الأفكار التي تمر كسرب الحمام ؟ ما هذا الكلام المنظوم بالميل ، المنشور باللذة ؟ ما هذه النتائج المحزنة ، المفرحة ، المعانقة روي ، المساورة قلبي ؟ ما هذه العيون المحدقة بي ، الناظرة أعماقي ، المنصرفة عن آلامي ؟ ما هذه الأصوات النائحة على أيامي ، المترنمة بصغري ؟ ما هذا الشباب المتلاعب بميولي ، المستهزئ بعواطفني ، الناسي أعمال الأمس ، الفارح بتفاهة الحال ، المستنكف ببطء الغد ؟ ما هذا العالم السائر بي إلى حيث لا أدري ، الواقف معي موقف الهوان ؟ ما هذه الأرض الفاغرة فاها لا ابتلاع الأجسام ، المفرجة صدرها لسكنى المطامع ؟ ما هذا الإنسان الراضي بمحبة السعادة ، ودون وصاها الهاوية ، الطالب قبلة الحياة والموت يصفعه ، الشاري دقيقة اللذة بعام الندامة ، المستسلم للكرى والأحلام تناديه ، السائر مع سواقي الجهالة إلى خليج الظلمة ؟ ما هذه الأشياء أيتها الحكمة ؟

فقلت : أنت تريد أيها البشري أن ترى هذا العالم بعين إله وتريد أن تفقه مكنونات العالم الآتي بفكرة بشرية ، وهذا منتهى حماقة ، اذهب إلى البرية تجد النحلة حائمة حول الزهور والنسر ينقض على الفريسة ، ادخل بيت جارك ترَ الطفل مدهوشاً بأشعة النار والوالدة مشغولة بأعمال منزلها ، كن كالطفل وافرح بأشعة النار ودع والدتك وشأنها ، كل ما تراه كان ويكون من أجلك ، الكتب الكثيرة والرسوم الغريبة والأفكار الجميلة هي أشباح نفوس الذين تقدموك ، الكلام الذي تحوكة هو الواصل بينك وبين إخوانك البشر ، النتائج المحزنة المفرحة هي البذور التي ألقاها الماضي في حقل النفس وسوف يستغلها المستقبل

... إن هذا الشباب المتلاعب بميولك هو الفاتح باب قلبك لدخول النور ، إن هذا العالم السائر بك هو قلبك ؛ فقلبك هو كل ما تظنه عالماً ، إن هذا الإنسان الذي تراه جاهلاً وصغيراً هو الذي جاء من لدن الله ليتعلم الفرح بالحزن والمعرفة من الظلمة .

ووضعت الحكمة يدها على جبهتي الملتهبة وقالت : سر إلى الأمام ولا تقف البتة ، فالأمام هو الكمال ، سر ولا تخش أشواك السبيل ، فهي لا تستبيح إلا الدماء الفاسدة .

حكاية صديق

- 1 -

عرفته فتى ضائعاً في مسالك حياته ، محكوماً بمفاعيل شببيته ، مستميتاً في إدراك غرض ميوله ، عرفته زهرة لينة حملتها رياح النزق إلى لجة الشهوات .

عرفته في تلك القرية صبيّاً شرساً يمزق بيديه أعشاش العصافير ويميت أفرانها ، ويسحق برجليه تيجان الأزهار ويبيد محاسنها ، وعرفته في المدرسة يافعاً ، بعيداً عن الاقتباس ، قريباً من الغطرسة ، عدواً للسكينة ، وعرفته في المدينة شاباً يتاجر بشرف أبيه في سوق الخسائر ، ويذر أمواله في نوادي التهلكة ، ويعطي عاقلته لابنة الكرم .

ولكنني كنت أحبه ، أحبه محبةً يساورها الأسف ويهازجها الإشفاق ، أحبه لأن منكراته لم تكن نتائج نفس صغيرة ، بل كانت مآتي نفس ضعيفة قانطة ، النفس أيها الناس تميل عن سبل الحكمة مكرهةً وتعود إليها مريدةً وللشبيبة أعاصير تهب حاملة غباراً وربما تملأ الأجفان فتغمضها وتعميها ، تعميها إلى أمد بعيد في أكثر المواطن .

أحببت هذا الفتى وكنت مخلصاً له لأنني رأيت حماسة ضميره تغالب نسر- سيئاته فتغلب تلك الحماسة بقوة عدوها لا بجبانته ، الضمير قاضٍ عادل ضعيف والضعف واقف في سبيل تنفيذ أحكامه .

قلت : أحببته والمحبة تأتي بأشكال مختلفة ، فهي الحكمة أنا ، والعدل آونةً والأمل أخرى ، فمحبتي له كانت أمني باستظهار نور شمسه الوضعي على ظلمة متاعبها العرضية ، على أنني كنت جاهلاً متى وأين تتبدل الأدراة بنقاوة ، والشراسة بوداعة ، والطيش بحكمة ، والإنسان لا يدري كيفية انعتاق النفس من عبودية المادة إلا بعد الانعتاق ، ولا يعرف كيف تبسم الأزهار إلا بعد مجيء الصباح .

مرت الأيام آخذة أعماق الليالي ، وأنا أذكر ذلك الفتى بغصاة مؤلمة ، وأردف لفظ اسمه بتنهدات تجرح القلب وتدميه ، حتى وافاني بالأمس كتاب منه قال فيه :

«تعال إليّ يا صديقي فانا أريد أن أجمع بينك وبين فتى يسر- قلبك لقاءه وتطيب نفسك بمعرفته» .. قلت : ويحي! أريد أن يشفع صداقته المحزنة بصداقة آخر على شاكلته؟ أولم يكن وحده أمثلة كافية لتعريف آيات الضلال؟ وهل يروم الآن تذييل تلك الأمثلة بآيات رفاقه كيلا يفوتني حرف من كتاب المادة؟ ثمّ قلت : اذهب فالنفس تجني من العوسج تينا بحكمتها ، والقلب يستمد من الظلمة نورًا بمحبته ... ولما جاء الليل ذهبت فوجدت ذلك الفتى منفردًا في غرفته يقرأ كتابًا شعريًا ، فحييته مستغربًا وجود الكتاب بين يديه وقلت : أين الصديق الجديد؟ قال : هو أنا يا خليلي ، هو أنا ، ثمّ جلس بهدوء ما عهدته فيه ونظر إليّ وفي عينيه نور غريب يخرق الصدر ويحيط بالجوارح تانك العينان اللتان طالما تأملتتهما ولم أر فيهما غير العنف والقساوة أصبحتا تبعثان نورًا يملأ القلب انعطافًا ، ثمّ قال بصوت حسبه صادرًا من غيره : إن ذاك الذي عرفته في الحادثة ورافقته أيام المدرسة وماشيته في الحادثة قد مات وبموته قد ولدت أنا ، أنا صديقك الجديد فخذ يدي ، أخذت يده فشعرت عند الملامسة أن في تلك اليد روحًا لطيفًا يسري مع الدماء ، تلك اليد العنيفة قد صارت لينة ، تلك الأصابع التي شابهت بالأمس مخالب النمر بأعمالها أصبحت اليوم تلامس القلب برقتها ، ثمّ قلت وليتني اذكر غرابة ما قلت : من أنت وكيف سرت وكيف صرت؟ هل اتخذك الروح هيكلاً فقدسك أم أنت تمثل إمامي دورًا شعريًا؟ قال : إي يا صديقي إن الروح قد حل عليّ وقدسني ،

الحبّ العظيم قد جعل قلبي مذبحًا طاهرًا ، هي المرأة يا خليلي ، المرأة التي ظننتها
بالأمس ألعبوبة الرجل قد أنقذتني من ظلمة الجحيم وفتحت أمامي أبواب الفردوس
فدخلت ، المرأة الحقيقية قد ذهبت بي إلى أردن محبتها فعمدتني ، تلك التي احتقرت أختها
بغباوتي قد رفعتني إلى عرش المجد ، تلك التي دنست رفيقتها بجهلي قد طهرتني بعواطفها ،
تلك التي استعبدت بنت جنسها بالذهب قد حررتني بجماها ... تلك التي أخرجت آدم من
الجنة بقوة إرادتها وضعفه قد أعادتني إلى تلك الجنة بحنوها وانقيادي .

في تلك الدقيقة نظرت إليه فوجدت المدامع تتلألأ في عينيه ، والابتسام يراود شفثيه ،
وشعاع الحبّ يكلل رأسه ، فاقتربت منه وقبلت جبهته متبركًا مثلما يقبل الكاهن صحن المذبح ،
ثم ودعته ورجعت مرددًا قوله : تلك التي أخرجت آدم من الجنة بقوة إرادتها وضعفه قد
أعادتني إلى الجنة بحنوها وانقيادي .

بين الحقيقة والخيال

تَحْمِلُنَا الحَيَاةَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ وَتَنْتَقِلُ بِنَا التَّقَادِيرِ مِنْ مَحِيطٍ إِلَى آخَرٍ وَنَحْنُ لَا نَرَى إِلَّا مَا وَقَفَ عَثْرَةَ فِي سَبِيلِ سِيرِنَا وَلَا نَسْمَعُ سَوَى صَوْتِ يَخِيفُنَا .

يَتَجَلَّى لَنَا الْجَمَالَ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ فَتَقْتَرِبُ مِنْهُ وَبِاسْمِ الشُّوقِ نَدْنُسُ أَذْيَالَهُ وَنَخْلَعُ عَنْهُ تَاجَ طَهْرِهِ ، يَمُرُّ بِنَا الْحَبُّ مَكْتَسِيًّا ثَوْبَ الْوَدَاعَةِ ، فَنَخَافُهُ وَنَخْتَبِئُ فِي مَغَاوِرِ الظُّلْمَةِ أَوْ نَتَّبِعُهُ وَنَفْعَلُ بِاسْمِهِ الشُّرُورَ ، وَالْحَكِيمُ بَيْنَنَا يَحْمِلُهُ نِيرًا ثَقِيلًا وَهُوَ الْطِفُّ مِنْ أَنْفَاسِ الْأَزْهَارِ وَأَرْقَ مِنْ نَسِيمَاتِ لَبْنَانٍ ، تَقِفُ الْحَكِيمَةُ فِي مَنْعُطَاتِ الشُّوَارِعِ وَتَنَادِينَا عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ فَنَحْسِبُهَا بَطْلًا وَنَحْتَقِرُ مَتَبِعِيهَا ، تَدْعُونَا الْحَرِيَّةَ إِلَى مَائِدَتِهَا لِنَلْتَذَّ بِخَمَرِهَا وَأَطْعَمَتِهَا فَزُهِبَ وَنُشِرَ فَتَصِيرُ تِلْكَ الْمَائِدَةُ مَسْرَحًا لِلْإِبْتِذَالِ وَمَجَالًا لِحَقْثَارِ الذَّاتِ ، تَمُدُّ الطَّبِيعَةُ نَحُونَا يَدَ الْوِلَاءِ وَتَطْلُبُ مِنَّا أَنْ نَتَمَتَّعَ بِجَمَالِهَا فَنَخْشَى سَكِينَتَهَا وَنَلْتَجِئُ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهَنَّا نَتَكَاثَرُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ كَقَطِيعٍ رَأَى ذُبَّابًا خَاطِفًا ، تَزُورُنَا الْحَقِيقَةُ مَنَقَادَةً بِابْتِسَامَةِ طِفْلِ أَوْ قَبْلَةِ مَحْبُوبَةٍ فَنُوصِدُ دُونَهَا أَبْوَابَ عَوَاطِفِنَا وَنَغَادِرُهَا كَمَجْرَمٍ دَنَسَ الْقَلْبَ الْبَشَرِيَّ يَسْتَنْجِدُ بِنَا وَالنَّفْسُ تَنَادِينَا ، وَنَحْنُ أَشَدُّ صَمَمًا مِنَ الْجَمَادِ لَا نَعِي وَلَا نَفْهَمُ ، وَإِذَا مَا سَمِعَ أَحَدٌ صَرَخَ قَلْبِهِ وَنَدَاءَ نَفْسِهِ قَلْنَا : هَذَا ذُو جَنَّةٍ وَتَبَرَّأْنَا مِنْهُ .

هَكَذَا تَمُرُّ اللَّيَالِي وَنَحْنُ غَافِلُونَ وَتُصَافِحُنَا الْأَيَّامُ وَنَحْنُ خَائِفُونَ مِنَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، نَقْتَرِبُ مِنَ التُّرَابِ وَالْآلِهَةِ تَنْتَمِي إِلَيْنَا ، وَنَمُرُّ عَلَى خَبْزِ الْحَيَاةِ وَالْمَجَاعَةِ تَتَغَذَّى مِنْ قَوَانَا ، فَمَا أَحَبَّ الْحَيَاةَ إِلَيْنَا وَمَا أَبْعَدَنَا عَنْ الْحَيَاةِ !



يا خليلي الفقير

يا من ولدت على مهد الشقاء وربيت على أحضان الذل وشبيت في منازل الاستبداد ،
أنت الذي تأكل خبزك اليابس بالتنهد وتشرب ماءك العكر ممزوجاً بالدموع والعبرات .

ويا أيها الجندي المحكوم عليه من شرائع البشر الظالمة بأن يترك رفيقته وصغاره ومحبيه
ويذهب إلى ساحة الموت من أجل طمع يدعونه الواجب .

ويا أيها الشاعر الذي يعيش غريباً في وطنه ومجهولاً بين معارفه ويرضى من العيش
بمضغة ومن الخطام بالخبز والورق .

ويا أيها السجين المطروح في الظلمة من أجل ذنب صغير جسمه غي الذين يقابلون الشر-
بالشر واستغربته عاقلة الألى يرومون الإصلاح بواسطة الفساد .

وأنت أيتها المسكينة التي وهبها الله جمالاً رآه فتى العصر- فاتبعك وغرك وتغلب على
فقرك بالذهب فاستسلمت له وغادرك فريسة ترتعد بين مخالب الذل والتعاسة .

أنتم يا أحبائي الضعفاء شهداء شرائع الإنسان ، أنتم تعساء وتعاستكم نتيجة بغي القوي
وجور الحاكم وظلم الغني وأنانية عبد الشهوات .

لا تقنطوا ، فمن مظالم هذا العالم ، من وراء المادة ، من وراء الغيوم ، من وراء الأثير ، من
وراء كل شيء ، قوة هي كل عدل وكل شفقة وكل حنو وكل محبة .

أنتم مثل أزهار نبتت في الظل ، سوف تمر نسيئات لطيفة وتحمل بذوركم إلى نور الشمس
فتحيون هناك حياة جميلة .

أنتم نظير أشجار عارية مثقلة بثلوج الشتاء ، سوف يأتي الربيع ويكسوكم أوراقاً خضراء-
غضة ، سوف تمزق الحقيقة غشاء الدمع الحاجب ابتساماتكم .

أنا أقبلكم يا إخوتي وأحتقر مضطهدكم .



مناحة في الحقل

عند الفجر قبيل بزوغ الشمس من وراء الشفق في وسط الحقل أناجي الطبيعة ، في تلك الساعة المملوءة طهراً وجمالاً بينما كان الإنسان مستتراً طي الكرى تتنابه الأحلام تارة واليقظة أخرى كنت متوسداً الأعشاب أستفسر كل ما أرى عن حقيقة الجمال وأستحكي ما يرى عن جمال الحقيقة .

ولما فصلت تصوراتي بيني وبين البشريات وأزاحت تخيلاتي برقع المادة عن ذاتي المعنوية شعرت بنمو روحي يقربني من الطبيعة ويبين لي غوامض أسرارها ويفهمني لغة مبتدعاتها .

وبينما كنت على هذه الحالة مر النسيم بين الأغصان متنهداً تنهداً يتيماً يائساً ، فسألت مستفهماً : لماذا تنهد يا أيها النسيم اللطيف ؟ فأجاب : لأنني ذاهب نحو المدينة مدحوراً من حرارة الشمس ، إلى المدينة حيث تتعلق بأذيالي النقية مكروبات الأمراض وتتشبث بي أنفاس البشر السامة ، من أجل ذلك تراني حزيناً .

ثم التفت نحو الأزهار فرأيتها تذرف من عيونها قطرات الندى دمعاً ، فسألت : لماذا البكاء يا أيتها الأزهار الجميلة ؟ فرفعت واحدة منهن رأسها اللطيف وقالت : نبكي لأن الإنسان سوف يأتي ويقطع أعناقنا ويهذب بنا نحو المدينة ويبيعنا كالعبيد ونحن حرائر ، وإذا ما جاء المساء وذبلنا رمى بنا إلى الأقدار ، كيف لا نبكي ويد الإنسان القاسية سوف تفصلنا عن وطننا الحقل ؟

وبعد هنيهة سمعت الجدول ينوح كالثكلي ، فسألته : لماذا تنوح أيها الجدول العذب؟
فأجاب : لأنني سائر كرهًا إلى المدينة حيث يحتقرني الإنسان ويستعيز عني بعصير الكرمة
ويستخدمني لحمل أدرانه ، كيف لا أنوح وعن قريب تصبح نقاوتي وزرًا ، وطهارتي قذرًا؟

ثم أصغيت فسمعت الطيور تغني نشيدًا محزنًا يحاكي الندب فسألتها : لماذا تنديين يا أيتها
الطيور الجميلة؟ فاقترب مني عصفور ووقف على طرف الغصن وقال : سوف يأتي ابن آدم
حاملًا آلة جهنمية تفتك بنا فتك المنجل بالزرع ، فنحن نودع بعضنا بعضًا لأننا لا ندري من
منّا يتملص من القدر المحتوم ، كيف لا نندب والموت يتبعنا أينما سرنا؟

طلعت الشمس من وراء الجبل وتوجت رؤوس الأشجار بأكاليل ذهبية وأنا أسأل ذاتي :
لماذا يهدم الإنسان ما تبنيه الطبيعة؟

بين الكوخ والقصر

- 1 -

جاء المساء وشعشت الأنوار الكهربائية في صرح الغنى فوقف الخدام على الأبواب
بملايس مخرمفة وعلف صءورهم الأزارار اللامعة فففظرون مءفء المدعوفن .
صءءء الموسفقى بأنغامها المطربة وءقاطر الأشراف والشرفاء ءجرهم الخفول المظهمة
نءو ذلك القصر فءءلوا فرفلون بالملافس المزركةة وفءرون أذفال العزة والفخر .
قام الرءال وءعوا النساء للرقص فوقفن واآرن الأعزاء وأصبءء تلك المقصورة
روضة ءمر بها نسفماء الموسفقى فءفمافل أزاهرها ففها وإعءابا .
انءصف اللفل فمءء سفرة علفها كل ما عز من الفاكهة وطاب من الألوان ، وءارء
الكؤوس على الءمفع فلعبء بنء الكرمة فف عقولهم ءءى ألبءهم .
ءاء الصباء وفرق شمل أولئك الأشراف الأغفاء بعء أن أضناهم السهر وسرقت
عاقلءهم الخمرة وأءعبهم الرقص وأذبلهم القصف وذهب كل إلى فراشه الناعم .

بعد أن غابت الشمس وقف رجل يرتدي أثواب الشغل أمام باب كوخ حقير وقرع ففتح له ودخل وحيا مبتسماً ثم جلس بين صبية يصطلون بقرب النار ، وبعد برهة هيأت زوجته العشاء فجلسوا جميعاً حول مائدة خشبية يلتهمون الطعام ، ثم قاموا وجلسوا بقرب مسرجة ترسل سهام أشعتها الصفراء الضعيفة إلى كبد الظلمة . وبعد مرور الهزيع الأول من الليل قاموا بسكينة كلية واستسلموا للملك الرقاد .

جاء الفجر فهب ذلك الفقير من نومه وأكل مع صغاره وزوجته قليلاً من الخبز والحليب ثم قبلهم وحمل على كتفه معولاً ضخماً وذهب إلى الحقل ليسقيه من عرق جبينه ويستثمر ويُطعم قواه أولئك الأغنياء الأقوياء الذين صرفوا ليلة أمس بالقصف والخلاعة .

طلعت الشمس من وراء الجبل وثقلت وطأة الحر على رأس ذلك الحارث وأولئك الأغنياء ما برحوا خاضعين لسنة الكرى الثقيل في صروحهم الشاهقة . هذه مأساة الإنسان المستتبة على مسرح الدهر وقد كثر المتفرجون المستحسنون وقل من تأمل وعقل .

طفلان

وقف الأمير على شرفة القصر ونادى الجموع المزدحمة في تلك الحديقة وقال : أبشر-كم وأهنئ البلاد ، فالأميرة قد وضعت غلامًا يحيي شرف عائلتي المجيدة ويكون لكم فخرًا وملاذًا ووارثًا لما أبقتة أجدادي العظام ، افرحوا وتهللوا فمستقبلكم صار منطًا بسليل المعالي .

فصاحت تلك الجموع وملاأت الفضاء بأهازيج الفرح متأهلة بمن سوف يربي على مهد الترف ويشب على منصة الإعزاز ويصير بعد ذلك حاكمًا مطلقًا برباب العباد ، ضابطًا بقوته أعنة الضعفاء ، حرًا باستخدام أجسادهم وإتلاف أرواحهم ، من أجل ذلك كانوا يفرحون ويغنون الأناشيد ويعاقرون كاسات السرور . وبينما سكان تلك المدينة يمجدون القوي ويحتقرون ذواتهم ويتغنون باسم المستبد والملائكة تبكي على صغرهم ، كان في بيت حقير مهجور امرأة مطروحة على سرير السقام تضم إلى صدرها الملهب طفلًا ملتفًا بأقمطة بالية .

صبية كتبت لها الأيام فقرًا ، والفقر شقاء ، فأهملها بنو الإنسان ، زوجة أمات رفيقها الضعيف ظلم الأمير القوي ، وحيدة بعثت إليها الآلهة في تلك الليلة رفيقًا صغيرًا يكبل يديها دون العمل والارتزاق .

ولما سكنت جلبة الناس في الشوارع وضعت تلك المسكينة طفلها على حضنها ونظرت في عينيه اللامعتين وبكت بكاء مرًا ، كأنها تريد أن تعمده بالدموع السخينة ، وقالت بصوت تتصدع له الصخور : لماذا جئت يا فلذة كبدي من عالم الأرواح؟ أطمعًا بمشاطرتي الحياة المرة؟ أرحمة بضعفي؟ لماذا تركت الملائكة والفضاء الواسع وأتيت إلى هذه الحياة الضيقة المملوءة شقاء ومذلة؟ ليس عندي يا وحيدي إلا الدموع ، فهل تتغذى بها بدلًا من الحليب؟ وهل تلبس ذراعي العاريتين عوضًا عن النسيج؟ صغار الحيوان ترعى الأعشاب وتبيت في أوكارها آمنة ، وصغار الطير تلتقط البذور وتنام بين الأغصان مغتبطة ، وأنت يا ولدي ليس لك إلا تنهداتي وضعفي .

حينئذٍ ضمت الطفل إلى صدرها بشدة كأنها تريد أن تجعل الجسدين جسدًا واحدًا ، ورفعت عينيها نحو العلاء وصرخت : ارفق بنا يا رب!

ولما انقشعت الغيوم عن وجه القمر دخلت أشعته اللطيفة من نافذة ذلك البيت الحقير وانسكبت على جسدين هامدين .

شعراء المهجر

لو تخيّل الخليل أن الأوزان التي نظم عقودها وأحكم أوصالها ستصير مقياسًا لفضلات القرائح وخيوطًا تعلق عليها أصداف الأفكار لنثر تلك العقود وفصم عرى تلك الأوصال .

ولو تنبأ المتنبّي وافترض الفارض أن ما كتباه سيصبح موردًا لأفكار عقيمة ومقودًا لرؤوس مشاعير يومنا لهرقا المحابر في محاجر النسيان وحطما الأقلام بأيدي الإهمال .

ولو درت أرواح هوميروس وفرجيل وأعمى المعرة وملتون أن الشعر المتجسم من النفس المشابهة الله سيحط رحاله في منازل الأغنياء لبعدت تلك الأرواح عن أرضنا واختفت وراء السيارات .

ما أنا من المتعنتين ، لكن يعز علي أن أرى لغة الأرواح تتناقلها ألسنة الأغنياء ، وكوثر الآلهة يسيل على أقلام المدعين ، ولست منفردًا في وهدة الاستياء بل رأيتني واحدًا من كثيرين نظروا الضفدع تنتفخ تمثلاً بالجاموس .

الشعر يا قوم روح مقدسة متجسمة من ابتسامة تحيي القلب أو تنهدة تسرق من العين مدامعها .

أشباح مسكنها النفس وغذاؤها القلب ومشرّبها العواطف ، وإن جاء الشعر على غير هذه الصور فهو كمسيح كذاب نبذه أوقى .

فيا آلهة الشعر ، يا أدانو ، اغتفري ذنوب الألى يقتربون منك بثرثرة كلامهم ولا يعبدونك
بشرف أنفسهم وتخيلات أفكارهم .

ويا أرواح الشعراء الناظرة إلينا من أعالي الخلود ، ليس لنا عذر لتقدمنا من مذابح
زيتموها بلآلى أفكارهم وجواهر أنفسكم سوى أن عصرنا هذا قد كثرت فيه قلقلة الحديد
وضجيج المعامل فجاء شعرنا ثقيلاً ضخماً كالقطارات ومزعجاً كصفير البخار .

وأنتم أيها الشعراء الحقيقيون سامحونا ، فنحن من العالم الجديد نركض وراء الماديات ،
فالشعر عندنا صار مادة تتناقلها الأيدي ولا تدري بها النفوس .



تحت الشمس

« رأيت كل الأعمال التي عملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح »
الجامعة .

يا روح سليمان السابحة في فضاء عالم الأرواح ، يا من خلعت ثوب المادة الذي نحن
نرتديه الآن ، لقد تركت وراءك هذا الكلام المنبثق من الضعف والقنوط فولد ضعفاً وقنوطاً
في أسرى الأجسام .

أنت تعلمين الآن أن في هذه الحياة معنى لا يخفيه الموت ، ولكن أنى للبشر- تلك المعرفة
التي لا تدرك إلا بعد اعتاق النفس من ربة التراب؟

أنت تعلمين الآن أن الحياة ليست كقبضة الريح ، وأن ليس تحت الشمس شيء باطل ،
بل كل شيء كان وسيبقى سائراً نحو الحقيقة ، ولكن نحن المساكين قد تشبثنا بأقوالك
وتدبرناها وما برحنا نظنها حكمة باهرة هي ، وأنت تعلمين ، ظلمة تضيع العاقلة وتخفي
الأمل .

أنت تعلمين الآن أن للحماقة والشر والظلم أسباباً جميلة ، ونحن لا نرى جمالاً إلا بظواهر
الحكمة ونتاج الفضيلة وثمار العدل .

أنت تعلمين أن الحزن والفقر يطهران القلب البشري ، وعاقلتنا القاصرة لا ترى شيئاً
حريراً بالوجود إلا السير والفرح .

أنت تعلمين الآن أن النفس سائرة نحو النور قهراً من عقبات العمر ، ونحن ما برحنا نردد كلامك الذي يدل على أن الإنسان ليس إلا العوبة في يد القوة غير المعروفة .

أنت ندمت على بئسك روحاً يضعف محبة الحياة الحاضرة ويميت الشغف بالحياة الآتية ، ونحن لم نزل مصرين على حفظ أقوالك .

يا روح سليمان الساكنة في عالم الخلود ، أوحى إلى محبي الحكمة ألا يسلكوا سبل القنوط والجحود ، فقد يكون ذلك كفارة عن خطأ غير مقصود .



نظرة إلى الآتي

من وراء جدران الحاضر سمعت تسايح الإنسانية ، سمعت أصوات الأجراس تهز
دقائق الأثير معلنة بدء الصلاة في معبد الجمال ، أجراس سبكتها القوة من معدن الشواعر
ورفعتها فوق هيكلها المقدس ، القلب البشري .

من وراء المستقبل رأيت الجموع ساجدة على صدر الطبيعة ، متجهة نحو المشرق ، منتظرة
فيض نور الصباح ، صباح الحقيقة .

رأيت المدينة قد اندثرت ولم يبق من آثارها غير طلل بالٍ يخبر الرجال باندحار الظلمة أمام
النور .

رأيت الشيوخ جالسين بظل أشجار الحور والصفصاف وقد جلس الصبيان حولهم
يسمعون أخبار الأيام .

رأيت الفتيان يوقعون على القيثارة وينفخون في الناي ، والصبايا مسدولات الشعر
يرقصن حولهم تحت أغصان الياسمين والفل .

رأيت الكهول يحصدون الزرع ، والنساء يحملن الأغمار ويترنمن بأناشيد أوحيتها الغبطة
والمسرة .

رأيت المرأة مستعيضة عن الملابس المشوهة بإكليل من الزنبق ومنطقة من أوراق الأشجار
الغضة .

رأيت الألفة مستحكمة بين الإنسان والمخلوقات ، فجماعات الطير والفراش تقترب منه
آمنة وأسراب الغزلان تنثني نحو الغدير واثقة ، نظرت فلم أر فقراً ولا ما يزيد عن الكفاف
، بل ألفت الإخاء والمساواة ، ولم أر طبيياً ، إذ كل غداً طيب ذاته بحكم المعرفة والاختبار ،
ولم أر كاهناً ، لأن الضمير أصبح الكاهن الأعظم ، ولم أر محامياً لأن الطبيعة قامت بينهم
مقام محكمة تسجل معاهدات الألفة والوئام .

رأيت الإنسان قد علم أنه حجر زاوية المخلوقات ، فترفع عن الصغائر ، وتعالى عن الدنيا ،
وكشف عن بصيرة النفس مناديل الالتباس ، فأصبحت تقرأ ما تكتبه الغيوم على وجه
السماء ، وما ينمقه النسيم على صفحات الماء ، وتفقه كنه أنفاس الأزهار وتعرف معنى أغاني
الشحارير والبلابل .

من وراء جدران الحاضر ، على مسرح الأجيال الآتية ، رأيت الجمال عريساً والنفس
عروساً والحياة كلها ليلة القدر .

ملكة الخيال

بلغتُ خرائب تدمر وقد نهكني المسير ، فاستلقيت على أعشاب نبتت بين أعمدة سلّها
الدهر وأناخها إلى الحضيض فبانت كأنها أشلاء حرب هائلة ، وصرت أتأمل بعظام أجلها
وهي مهدومة منقوضة عن صغائر قائمة عامرة .

ولما جاء الليل وتشاركت المخلوقات المتنازدة بارتداء ثوب السكينة شعرتُ بأنّ في الأثير
المحيط بي سيالاً يضارع البخور عطراً ويعادلُ الخمر فعلاً ، فصرت أجرحه محكوماً وأحس
بأيد خفية تتساهم عاقلتي وتثقل جفني وتحل نفسي من سلاسلها ، ثمّ مادت الأرض واهتزّ
الفضاء فوثبت مدفوعاً بقوة سحرية ، فوجدتني في رياضٍ لم يتخيّلها بشر - مصحوباً بجوق
من العذارى لم يرتدين بغير الجمال ، يمشين حولي ولا تلمس أرجلهنّ الأعشاب وينشدن
تسبيحة منسوجة من أحلام الحبّ ويضربنّ على قيثارات من العاج ذات أوتار ذهبية ، ولما
وصلتُ إلى منفرج قام في وسطه عرشٌ مرصّع بالجواهر بين مسارح تنسكب منها أنوارٌ بلون
قوس قزح وقفت العذارى على اليمين واليسار ورفعن أصواتهن عن ذي قبل ونظرن إلى
جهة تنبعث منها رائحة المر واللبان ، فإذا بمليكة ظهّرت من بين الأغصان الزاهرة ومشت
ببطء نحو العرش واستوت عليه فهبط إذ ذاك سربٌ حمام كالثلج بياضاً واستقرّ حول
قدّمها بشكلٍ هلال .

صار هذا والعذارى يغنين مجد المليكة سوراً ، والبخور يتصاعد لتكريمها أعمدة ، وأنا
واقف أرى ما لم تر عين إنسان ، وأسمع ما لم تعه أذن بشري .

حينئذٍ أشارت المليكة بيدها فَسَكَنْتْ كُلَّ حركة ، ثُمَّ قالت وصوتها يهزُّ نفسي- مثلما تفعل يدُ الموقع بأوتارِ عودِهِ ، ويؤثِّرُ بِمَجْمُوعِ ذاك المحيطِ السَّحَرِيِّ كأنَّ للأشياءِ آذانًا وأفئدة : دعوتُكَ أيها الإنسيُّ وأنا ربُّهُ مسارح الخيال ، وَحَبَوْتُكَ المثلَّ أمامي وأنا مليكةُ غابةِ الأحلام ، فاسمع وصاياي ونادِ بها أمام البشر ، قل : إِنَّ مَدِينَةَ الخيال عرسٌ يَخْفَرُ بِأَبِهِ مارِدٌ جَبَّار فلن يدخله إلَّا من لبس ثياب العرس ، قل : هي جَنَّةٌ يحرسها ملائكةُ المحبَّة فلا ينظرها سوى من كان على جبهته وسمُّ الحبِّ ، هي حقلُ تصورات أنهاره طيبة كالخمر ، وأطيَّارُه تسبَّحُ كالملائكة ، وأزهارُه فاتحة العبير فلا يدوسه غيرُ ابنِ الأحلام ، خَبِرِ الإنسِ بأني وهبتهم كأَسًا يفعمُّها السرور فهرقوها بجهلهم فجاء ملائكةُ الظلمة فملأوها من عصير الحزن فَجَرَعُوها صِرْفًا وَسَكَرُوا ، قل : لم يحسن الضربُ على قيثارِ الحياة غيرُ الذين لَمَسَتْ أَنَامِلُهُمْ وشاحي وَنَظَرْتُ أَعْيُنُهُمْ عرشي ، فاشعيا نظم الحكمة عقودًا بأسلاكِ محبتي ، ويوحنا روى رؤياه بلساني ، ولم يسلكِ دانتني مراتع الأرواح بغير أدلتي ، فأنا مجاز يعانق الحقيقة ، وحقيقة تبين وحدانية النفس ، وشاهد يزكي أعمال الآلهة ، قل : إن للفكرة وطنًا أسمى من عالم المريَّات لا تُكَدِّرُ سماءه غيومُ السرور ، وإن للتخيلاتِ رسومًا كائنةً في سَمَاءِ الآلهة تنعكس على مرآة النفس ليعم رجاؤها بما سيكون بعد اعتاقها من الحياة الدنيا .

وَجَذَبْتَنِي مَلِيكَةُ الخيال نحوها بنظرةٍ سحرية وقبَّلت شفتيَّ الملتَهَبَتَيْنِ وقالت : قل : من لا يصرف الأيام على مسرح الأحلام كان عبدَ الأيام .

عندئذٍ تصاعدت أصوات العذارى وارتفعت أعمدة البخور وحجبت الرؤية ، ثُمَّ مادَت الأرض واهتزَّ الفضاء فوجدتني بين تلك الخرائب المحزنة وقد ابتسم الفجر وبين لساني وشفتيَّ هذه الكلمات : ومن لا يصرف الأيام على مسرح الأحلام كان عبدَ الأيام .



يا لائمي

دعني يا لائمي ووحدتي ، أستحلفك بحب يضم نفسك بجمال الرفيقة ويوثق قلبك
بحنو الأم ويربط فؤادك بعواطف الابن، أن تتركني وحالي .

خلني وشأني وأحلامي واصبر على الغد ، فالغد يقضي علي بما يشاء .

محضنتي النصيح والنصح طيف يسير بالنفس إلى مرتع الحيرة ويقودها إلى حيث الحياة
جامدة كالتراب .

لي قلب صغير أريد أن أخرج من ظلمة صدري وأحمله على كتفي متفحصاً أعماقه
ومستحكياً أسرارها ، فلا تترصده يا لائمي بنبال من أهبك مسبباً خوفه واختفائه ضمن قفص
الضلوع قبل أن يسكب دماء خفاياه ويقوم بفرض عقده الآلهة عندما ابتدعته من الجمال والحب .

هنا قد طلعت الشمس وغرد الهزار والبلبل وتصاعدت أرواح الآس والمشور وأنا أريد
الانعتاق من لحف الكرى لأسير مع الحملان البيضاء فلا تعتقني يا لائمي ولا تخفني بأسد
الغاب وصل الوادي لان نفسي لا تعرف الجزع ولا تنذر بالسوء قبل مجيئه .

دعني يا لائمي ، ولا تعظني لأن المصائب فتحت بصيرتين والدموع جلت بصري
والحزن علمني لغة القلوب .

اعتزل ذكر المحرمات ، قلبي من ضميري محكمة تقضي بالعدل علي وتقيني العقاب إن
كنت ذا برارة وتحرمني الثواب إن كنت من المجرمين .

ها قد سار موكب الحبّ ، فمشى الجمال رافعا أعلامه وسارت الشبيبة نافخة أبواق الفرح
فلا تردعني يا لائمي ، بل دعني أسر ، فالطريق مفروشة بالورود والرياحين والهواء قد
عطرته مجامر المسك .

اعتقني من حكاية المال وقصص المجد لان نفسي غنية باكتفائها ومشغولة بمجد الآلهة .
اعفني من مآتي السياسة وأخبار السلطة لأن الأرض كلها وطني وجميع البشر مُواطني .



مناجاة

أين أنت الآن يا جميلتي؟ أفي تلك اللجنة الصغيرة تسقين الأزهار التي تحبك محبة الأطفال
ثدي أمها ، أم في خدرك حيث أقمت للطهر مذبحًا وقفت عليه روحي وحشاشتي ، أم بين
كتبك تستزيدين من حكمة البشر وأنت غنية بحكمة الآلهة؟

أين أنت يا رفيقة نفسي؟ أفي الهيكل تصلين من أجلي ، أم في الحقل تناجين الطبيعة مرتع
إعجابك وأحلامك ، أم بين أكواخ المساكين تعزين منكسرات القلوب بحلاوة نفسك
وتملأين أيديهن بإحسانك؟

أنت في كل مكان ، لأنك من روح الله ، وفي كل زمان ، لأنك أقوى من الدهر .

هل تذكرين ليالي جمعتنا وشعاع نفسك يحيط بنا كالهالة وملائكة الحب تطوف حولنا
مترنمة بأعمال الروح؟ وتذكرين أيام جلسنا بظل الأغصان وهي مخيمة علينا كأنها تريد أن
تحجبنا عن البشر- مثلما تحجب الضلوع أسرار القلب المقدسة؟ هل تذكرين ممرات
ومنحدرات مشينا عليها وأصابعك محبوكة بأصابعي احتباك ضفائرك ، وقد أسندنا رأسينا
برأسينا كأننا نحتمي منا بنا؟ وهل تذكرين ساعة جئتك مودعًا فعانقتني ثم قبلتني قبله
مرميمة علمت منها بأن الشفاه إذا انضمت جاءت بأسرار علوية لا يعرفها اللسان ، قبله
كانت توطئة لتنهدة مزدوجة حاكت نفسًا نفخه الله في الطين فصار إنسانًا ، تلك تنهدة
سبقتنا إلى عالم الأرواح معلنة مجد نفسينا ، وهناك ستبقى حتى نجتمع بها إلى الأبد ... ثم
قبلتني وقلت والدمع يساعذك : إنَّ للأجسام أغراضًا مجهولة ، فهي تفرق لشؤون عالمية
وتتباعد لما رب دنيوية ، أما الأرواح فتظل في قبضة الحب مستأمنة حتى يجيء الموت ويسير
بها إلى الله ، اذهب يا حبيبي ، لقد انتدبتك الحياة فأطعها ، فهي حسناء تسقي مطيعيها من
كوثر اللذة كؤوسًا مفعمة ، أما أنا فلي من حبك عريس ملازم ، ومن ذكراك عرس طويل
مبارك .

أين أنت الآن يا رفيقي؟ هل أنت ساهرة في سكينة الليل نسيًا أحمله دقات قلبي وخفايا
جوارحي كلما هب نحوك؟ أو أنت ناظرة رسم فتاك؟ ذاك رسم لم يعد ينطبق على مرسومه ،
فالحزن قد ألقى خياله على جبهة كانت بالأمس منفرجة بقربك ، والنواح أذبل أجفانًا كانت
مكحولة بجمالك ، والوجد جفف ثغرا كان مرطبًا بقبلاتك .

أين أنت يا حبيبتي؟ هل أنت سامعة من وراء البحار ندائي وانتحابي ، وناظرة ضعفي
ومذلي ، وعالمة بصبري وتجلدي؟ أوليست في الهواء أرواح تنقل أنفاس محتضر- متوجع؟
أولم تكن بين النفوس أسلاك خفية تحمل شكوى محبّ دنف؟
أين أنت يا حياتي؟ لقد احتضنتني الظلمة وغلبنى الأسى ، ابتسمي في الهواء فأنتعش ،
تنفسي في الأثير فأحيا .

أين أنت يا حبيبتي ، أين أنت؟
آه ما أعظم الحبّ وما أصغرني!



المجرم

على قارعة الطريق قعد شاب مستعطياً ، فتى قوي الجسم أضعفه الجوع فجلس في منعطف الشارع ماداً يده نحو العابرين متسولاً مستغيثاً بالمحسنين ، مردداً آيات انكساره ، شاكياً آلام جوعه .

خيم الليل وقد يبست شفتاه وكل لسانه ولم تنزل يده فارغة مثل جوفه ، فقام إذ ذاك وذهب إلى خارج المدينة وجلس بين الأشجار وبكى بكاء مرّاً ، ثم رفع نحو السماء عينين يغشاهما الدمع وقال والجوع يلقنه : يا رب قد ذهبت إلى الموسر أطلب عملاً ، فطردت لثرثة أثوابي ، وطرقت باب المدرسة ، فمنعت لفراغ يدي ، ورمت الاستخدام ولو بكفاف يومي ، فأبعدت لسوء طالعي ، وأخيراً سعت متسولاً ، فرآني عبادك يا رب وقالوا : هذا قوي نشيط والإحسان لا يجوز على ابن التواني والكسل ، قد ولدني أُمي بإرادتك يا رب ، وأنا كائن الآن بكيانك ، فلماذا يمنع الناس الخبز عني وأنا طالب باسمك ؟

في تلك الدقيقة تغيرت سحنة الرجل اليائس ، فانتصب وقد لمعت عيناه كالشهب ثم اقتضب من الأغصان اليابسة نبوتاً ضخماً وأشار به نحو المدينة وصرخ قائلاً : طلبت الحياة بعرق الجبين فلم أجدها ، فسوف أحصل عليها بقوة ساعدي ، وسألت الخبز باسم المحبة فلم يسمعني الإنسان ، فسأطلبه باسم الشر وأستزيد منه .

مرت الأيام والشباب يقطع الأعناق من أجل الحصول على العقود ، ويهدم هياكل الأرواح إن تصدت لمطامعه ، فنمت ثروته وعم بطشه وصار محبوباً من لصوص القوم ومخيفاً لعقلائهم ، ثم انتدبه الأمير وكيلاً عنه في تلك المدينة شأن الأمراء بانتقاء ممثلهم .

كذا يبتدع الإنسان من المسكين سفاحاً باستمساكه ، ومن ابن السلام قاتلاً بقساوته .



الرفيقة

أول نظرة :

هي الدقيقة الفاصلة بين نشوة الحياة ويقتطعها ، هي الشعلة الأولى التي تنير خلايا النفس ، هي أول رنة سحرية على أول وتر من قيثاره القلب البشري ، هي آونة قصيرة تعيد على مسمع النفس أخبار الأيام الغبرة ، وتكشف لبصرها أعمال الليالي ، وتبين لبصيرتها أعمال الوجدان في هذا العالم ، وتبيح سر الخلود في العالم الآتي ، هي نواة تطرحها عشتروت من العلاء ، فتلقاها في حقل القلب ، فتستنبتها العواطف ثم تستثمرها النفس ، أول نظرة من الرفيقة تشابه الروح الذي كان يرف على وجه الغمر ومنه انبثقت السماء والأرض ، أول نظرة من شريكة الحياة تحاكي قول الله : كن .

أول قبلة :

هي الرشفة الأولى من كأس ملأتها الآلهة من كوثر الحب ، هي الحد بين شك يراود القلب فيحزنه ويقين يفعمه فيغبطه ، هي مطلع قصيدة الحياة الروحية والفصل الأول من رواية الإنسان المعنوي ، هي عروة توثق غرابة الماضي ببهاء الآتي ، وتجمع بين سكينة الشوارع وأغانيها ، هي كلمة تقولها الشفاه الأربع معلنة صيرورة القلب عرشاً ، والحب مليكاً ، والوفاء تاجاً ، هي ملامسة لطيفة تحاكي مرور أنامل النسيم على ثغر زهرة الورد حاملة معها تنهداً مستطيلاً لذيذاً وأنة خفيفة عذبة ، هي بدء اهتزازات سحرية تفصل المحبين عن عالم المقاييس والكمية إلى عالم الوحي والأحلام ، هي ضم زهرة الشقيق إلى زهرة الجلنار ومزج أنفاسهما لتوليد نفس ثالث وإذا كانت النظرة الأولى تشابه نواة ألقته آلهة الحب في حقل القلب البشري ، فالقبلة الأولى تحاكي أول زهرة في أطراف أول غصن في شجرة الحياة .

القران :

ههنا يبتدىء الحب أن ينظم نثر الحياة شعراً وينشئ من معاني العمر سُورًا ترتلها الأيام وتنغمها الليالي ، ههنا يزيج الشوق ستائر الأشكال عن معميات السنين الماضية ويؤلف من نتف اللذات سعادة لا يفوقها غير سعادة النفس عندما تعانق ربها ، القران هو اتحاد ألوهيتين على إيجاد ألوهية ثالثة على الأرض .

هو تكاتف اثنين قويين بحبهما لمقاومة دهر ضعيف ببغضه ، هو تمازج خمرة صفراء برحيق قرمزي لتوليد شارب برتقاني يحاكي لون الشفق عند مجيء الفجر ، هو تنافر روحين من التنافر واتحاد نفسين مع الاتحاد .

هو حلقة ذهبية من سلسلة أولها نظرة ، وآخرها اللانهاية ، هو انهمال غيث نقي من سماء طاهرة نحو طبيعة مقدسة لاستخراج قوى حقول مباركة ... فإذا كانت النظرة الأولى من وجه المحبوبة مثل نواة ألقته المحبة في حقل القلب ، والقبلة الأولى من شفيتها تشابه أول زهرة في غصن الحياة ، فالقران بها يحاكي أول ثمرة من أول زهرة من تلك النواة .



بيت السعادة

تعب قلبي في داخلي فودعني وذهب إلى بيت السعادة ، ولما بلغ ذلك الحرم الذي قدسته النفس وقف حائرًا ، لأنه لم يرَ هناك ما طالما توهّمه ، لم يرَ قوة ، ولا مالا ، ولا سلطة ، لم يرَ غير فتى الجمال ورفيقتة ابنة المحبة وطفلتها الحكمة .

وخاطب قلبي ابنة المحبة قائلاً : أين القناعة أيتها المحبة ، فقد سمعت أنها تشاطركم سكنى هذا المكان؟ قالت : ذهبت القناعة تركز في المدينة حيث المطاعم ، فنحن لا نحتاج إليها ، السعادة لا تبغى قناعة ، إنما السعادة شوق يعانقه الوصال ، والقناعة سلو يساوره النسيان ، النفس الخالدة لا تقنع ، لأنها تروم الكمال ، والكمال هو اللانهاية .

وخاطب قلبي فتى الجمال قائلاً : أرني سرّ المرأة أيها الجمال ، وأنرني لأنك معرفة ، فقال : هي أنت أيها القلب البشري وكيفما كنت كانت ، هي أنا وأينما حللت حلت ، هي كالدين إذا لم يحرفه الجاهلون وكالبدر إذا لم تحجبه الغيوم ، وكالنسيم إذا لم تتعلق بأذياله أنفاس الفساد . واقترب قلبي من الحكمة ابنة المحبة والجمال وقال : أعطيني حكمة أحملها إلى البشر . فأجابت : قل هي السعادة تبتدىء في قدس أقداس النفس ولا تأتي من الخارج .



مدينة الماضي

وقفت بي الحياة على سفح جبل الشباب وأومأت إلى الوراق ، فنظرت ، فإذا بمدينة غريبة الشكل والرسوم متربعة في صدر سهول تتموج فيها الأخيلة والأبحرة المتلوّنة متوشحة بقناع ضباب لطيف يكاد يحجبها .

قلت : ما هذه أيتها الحياة؟ قالت : هي مدينة الماضي فتأمل !

فتأملت ورأيت .

معاهد وأعمال جالسة كالجبابة تحت أجنحة النوم ، مساجد أقوال تحوم حولها أرواح صارخة صراخ القنوط ، مترنمة ترنيمة الأمل ، هياكل أديان أقامها اليقين ثمّ هدمها الشك ، مآذن أفكار مرتفعة نحو العلو كأنها أيدي المتسولين ، شوارع ميول منبسطة انبساط النهر بين الربى ، مخازن أسرار حرسها الكتمان فسرقته لصوص الاستعلام ، أبراج أقدجام بنتها الشجاعة فثلثتها المخاوف ، صروح أحلام زينتها الليالي وخربتها اليقظة ، أكواخ صغار سكنها الضعف ، وجوامع وحدة قام فيها نكرات الذات ، نوادي معارف أنارها العقل فأظلمها الجهل ، حانات محبة سكر بها العشاق فاستهزأ بهم الخلو ، مسارح أعمال مثلث عليها الحياة رواياتها ثمّ جاء الموت وختم مأساته .

تلك مدينة الماضي فهي بعيدة قريبة ، منظورة محجوبة .

ومشت الحياة أمامي وقالت : اتبعني فقد طال بنا الوقوف ، قلت : إلى أين أيتها الحياة؟ قالت : إلى مدينة المستقبل ، قلت : رفقا فقد نهكني المسير ، وكَلَمْتُ قَدَمِي ، وهَدَّتْ قَوَايِ الْعُقَبَات ، قالت : سِرّ فالوقوف جبانة ، والنظر إلى مدينة الماضي جهالة .



اللقاء

عندما أكمل الليل تنميق ثوب السماء بجواهر النجوم تصاعدت من وادي النيل حورية
محفوفة بأجنحة غير منظورة ، وجلست على عرش من الغيوم مرتفع فوق بحر الروم
مفَضِّضٍ من أشعة القمر ، فمرّ من أمامها جوق أرواح سابحة في الفضاء صارخة : قدوس ،
قدوس ، ابنة مصر ، مجدها ملء كلّ الأرض .

وتصاعد من أعالي فم الميزاب المحيط بغابة الأرز طيف فتى مكتنفًا بأيدي الساروفيم
وجلس على العرش بقرب الحورية فعادت الأرواح ومرت من أمامها هاتفة : قدوس ، قدوس ،
قدوس فتى لبنان ، مجده ملء كلّ الدهور .

ما أكمل بهاءكِ يا ابنة إيسس (□□) وما أعظم حبي لك !
ما أجملك بين الفتيان يا ابن عشتروت وما أكثر شوقي إليك !
محبتني نظير أهرامك فلا تهدمها الأجيال يا حبيبتني .
محبتني تحاكي أرزك فلن تغلبها العناصر يا حبيبتني .
حكماء الأمم يأتون من المشرق والمغرب ليستحكموا حكمتك يستفسروا رموزك يا حبيبتني .
عظماء الأرض يحيئون من الممالك ليسكروا من رحيق جمالك وسحر معانيك يا حبيبتني .
إن راحتك منبت خيرات غزيرة تملأ الأهراء يا حبيبتني .
إن ذراعيك منبع المياه العذبة ، وأنفاسك نسيجات منعشة يا حبيبتني .
قصور الليل وهياكله تذيع مجدك ، وأبو الهول يحدث بعظمتك يا حبيبتني .
الأرز على صدرك وسام شرف أثيل ، والأبراج حولك تروي بطبعك متدارك يا حبيبتني .
أه ما أميلح محبتك وما أحيل الأمل المناط بارتقائك يا حبيبتني .

(37) لعله يقصد «إيزيس» ، زوجة أوزويريس .

آه ما أكرمك خليلًا ، وأوفاك حليلاً ، وما أجمل هداياك وأنفس عطاياك! بعثت إليّ
بالتيتان فكانوا يقظة بعد نوم عميق ، أتحتني « بالفارس » فغلب ضعف قومي ، وحبوتني «
بالأديب » فأنهضهم و« بالنجيب » فأثلمهم .

بعثت إليك بالبذور فصيرتها أزهارًا ، وبالأنصاب فجعلتها أشجارًا ، فأنت حقل بكر
يحيي الورد والسوسن ويرفع السرو والأرز .

- أرى بعينيك حزنًا يا حبيبتى ، أتحنن وأنت بقربي؟

- لي أبناء رحلوا إلى ما وراء البحار وخلفوني حليف بكاء وأليف شوق .

- ليت لي ما يشابه حزنك وتنصرف عني مخاوفي يا حبيبتى .

- أتخافين يا ابنة النيل وأنت عزيزة الأمم؟

- أخاف من طاغية تقترب مني بحلاوة روعها وتمتلك أعنتي بقوة ساعديها .

- إن حياة الأمم يا حبيبتى مثل حياة الأفراد ، حياة يؤاخيها الأمل ، ويقارنها الخوف ،
وتحفّ بها الأمانى ، ويرمقها القنوط .

وتعانق الحبيبان وشربا من كؤوس القبل رحيقًا عاطفًا ، فمرت أجواق الأرواح منشدة :
قدوس ، قدوس ، قدوس المحبة مجدها ملء السماء والأرض .



مخبات الصدور

في صرح فخيم واقف تحت جناح الليل وقوف الحياة بين ستائر الموت جلست صبية
بقرب منضدة عاجية تسند رأسها الجميل بيدها مثلما تتكىء زنبقة ذابلة على أوراقها ، وتنظر
إلى ما حولها نظرات سجين يائس يريد أن يخرق بعينه جدران حبسه لدى الحياة السائرة في
موكب الحرية .

مرت الساعات مرور أشباح الظلمة ، وتلك الصبية مستأنسة بدموعها ، مستأمنة
بانفرادها ولوعتها ، حتى إذا ما اشتدت على قلبها وطأة عواطفها وامتلكت شواعرها
خزائن أسرارها ، تناولت قلماً وأخذت تمزج على صفحات الورق قطرات الحبر بدموعها
وتجمع بين الكلام ومكنونات نفسها ، وهاك ما كتبت :

أيتها الأخت المحبوبة!

عندما يضيق القلب بأسراره ، وتتقرح الأجفان من حرارة دموعها ، وتكاد الضلوع
تتمزق من نمو مخبات الصدور ، لا يجد المرء غير الكلام والشكوى ، فالخزين يا صديقي
يستعذب الشكوى ، يجد المحبّ تعزية بالتشبيب ، والمظلوم لذة بالاسترحام ... فأنا أكتب
إليك الآن لأنني أصبحت كشاعر يرى جمال الأشياء فينتظم تأثيرات ذلك الجمال محكوماً
بقوة ألوهية ، أو كطفل الفقير الجائع يستغيث مدفوعاً بمرارة جوعه غير راحم فاقة أمّه
وانكسارها .

اسمعي قصتي الموجهة يا أختي وابكي من أجلي ، لأن البكاء كالصلاة ، ودموع الشفقة
كالإحسان لا تذهب سدى ، لأنها متصاعدة من أعماق نفس حيّة شاعرة ... شاء والدي
وجمع بالقران بيني وبين رجل شريف غني شأن كل والد غني شريف يروم تعزيز المال بالمال
مخافة الفقر وضمّ الشرف إلى الشرف هرباً من ذل الأيام .

فكنت مع عواطفي وأحلامي ضحية على مذبح ذهب أحتقره وشرف موروث أكرهه ،
وفريسة ترتعد بين أظافر المادة التي لم تكن خادمة مطيعة للروح كانت أقسى من الموت وأمرّ
من الهاوية ، أنا أعتبر بعلي لأنه كريم الخلق ، شريف القلب ، يجهد النفس في سبيل سعادي ،
ويبدل المال لرضاي ، ولكنني وجدت تأثير هذه الأشياء كلها لا يساوي دقيقة محبة حقيقية
مقدسة ، تلك المحبة التي تستصغر كل شيء وتبقى عظيمة .

لا تسخري بي يا رفيقتي ، فأنا الآن أعلم الناس بحاجات قلب المرأة ، هذا القلب الخفوق
، هذا الطائر السابح في فضاء المحبة ، هذا الإناء الطافح من خمرة الدهور المعدة لمرآشف الأرواح
، هذا الكتاب المطبوعة فيه فصول السعادة والشقاء ، واللذة والألم ، والمسرة والأحزان ، فلا
يقرأه إلا الرفيق الحقيقي نصف المرأة المخلوق لها منذ الأزل وإلى الأبد ... نعم صرت أدرى
النساء بأغراض النفس وميول القلب عندما وجدت أن خيول بعلي المطهمة ومركباته
البديعة وخزائنه الطافحة وشرفه الرفيع لا تساوي نظرة واحدة من عيني ذلك الفتى الفقير
الذي جاء هذه الحياة من أجلي وجئت من أجله ، ذلك الصابر على مضض البلوى وذُلّ
التفريق ، ذلك المظلوم عفواً بإرادة والدي ، والمسجون بلا إثم في ظلمة العمر .

إيّاك يا صديقتي محاولة تعزيتي ، لأن لي من مصائب معزياً ، هو إدراكي قوّة حبي ،
ومعرفتي شرف شوقي وحنيني ، فأنا أنظر الآن من وراء الدموع فأرى المنية تقترب مني
يوماً فيوماً لتقودني إلى حيث أنتظر رفيق نفسي- وألتقي به وأعانقه عناقاً طويلاً مقدساً ، ولا
تلوميني ، فأنا قائمة بواجبات الزوجة الأمينة خاضعة لأحكام الشرائع البشرية بتجلد
وهدوء ، أكرم بعلي بعافلتني ، وأعتبره بقلبي ، وأجله بنفسي- ، ولا يمكنني أن أهبه كليتي ،
لأن الله أعطاها لحبيبي قبل معرفتي حبيبي ، شاءت السماء لحكمة خفية أن أصرف العمر مع
رجل خلقت لغيره فأنا أنفق هذا العمر حسب مشيئة السماء بسكينة ، ولكن إذا ما انفتحت
أبواب الأبدية التحمت بنصف نفسي الجميل ونظرت إلى الماضي ، وذاك الماضي هو هذا الآن
، نظرة الربيع إلى الشتاء ، وتأملت حياتي هذه مثلما يتأمل العقبات من بلغ قمة الجبل .

هنا وقفت تلك الصبية عن الكتابة ، وحجبت وجهها بيديها ، وبكت بكاء مرًا ، كأن نفسها الكبيرة أبت أن تسلم أقدس أسرارها إلى الورق ، فأعطتها لدموع سخيّة تجف بسرعة وتمتزج بالآثير اللطيف موطن أنفاس المحبين وأرواح الأزهار ، وبعد هنيهة أخذت القلم وكتبت :

هل تذكرين يا صديقتي ذلك الفتى؟ هل تذكرين تلك الأشعة المنبعثة من عينيه وتلك الأحزان المرسومة على جبينه؟ هل تذكرين ابتسامه المشابه دموع الثكلى؟ هل تذكرين صوته المحاكي صدى الوادي البعيد؟ هل تذكرينه إذ كان يتأمل الأشياء بنظرات طويلة هادئة ، ثم يتكلم عنها بغرابة ، ثم يحني رأسه ويتنهد كأنه يخاف أن يشف حديثه عن خفايا قلبه الكبير؟ وهل تذكرين أحلامه وعقائده؟ هل تذكرين كلّ هذه الأشياء في فتى يحسبه البشر من البشر- ويحتقره والذي أنه أسمى من المطامع الترابية وأشرف من أن يرث الشرف عن الجود؟ إي يا أختي أنت تعلمين أنني شهيدة صغائر هذا العالم وضحية الغباوة ، وترحمين أختًا ساهرة في سكونة الليل المخيف لتكشف لك ستائر صدرها عن أسرار قلبها ، أنت ترحمين لأن الحب قد زار قلبك .

جاء الصباح فقامت تلك الصبية واستسلمت للكرى علّها تجد فيه أحلامًا ألطف من أحلام اليقظة .



القوة العمياء

جاء الربيع وتكلمت الطبيعة بألسنة السواقي ففرّحت القلب ، وابتسمت بشفاه الأزهار فأسعدت النفس ، ثم غضبت ودكت المدينة الجميلة فأنست الإنسان عذوبة كلماتها ورقة ابتسامتها ، قوة عمياء مخيفة نقضت بساعة ما أقامته الأجيال ، موت ظلوم قبض بأظافره المحددة على الأعناق فسحقها بقساوة ، نار آكلة التهمت الأرزاق والأعمار ، ليل قاتم أخفى جمال الحياة تحت لحف الرماد ، عناصر هائلة هبّت من مرابضها وقاتلت الإنسان الضعيف وخربت مساكنه وذرت بسرعة ما جمعه بالتأني ، زلزال عنيف حبلت به الأرض فتمخضت متوجعة ولم تلد غير الخراب والشقاء .

جرى كلّ ذلك والنفس الحزينة ناظرة من بعيد تتأمل وتتألم ، تتأمل بمقدرة الإنسان المحدودة تجاه القوى غير العاقلة ، وتتألم مع المصابين الهاربين من النار والدمار ، تتأمل بأعداء ابن آدم الكامنة له تحت أطباق الثرى وبين دقائق الأثير ، وتتألم مع الوالدات النائحات والأطفال الجائعين ، تتأمل بقساوة المادة واستصغارها الحياة العزيزة ، وتتألم مع الذين رقدوا بالأمس مستأمنين في منازلهم فأصبحوا اليوم واقفين عن بعد يرثون المدينة الجميلة بغصات مؤلمة وعبرات مرة ، تتأمل بكيفية انقلاب الأمل يأساً ، والفرح حزناً ، والراحة عذاباً ، وتتألم مع قلوب ترتعد بين محالب اليأس والحزن والعذاب .

كذا وقفت النفس بين التأمل والتألم ، تنقاد تارة إلى الشك بعدالة النواميس الرابطة القوات بعضها دون الآخر ، وتعود طوراً فتهمس في آذان السكينة قائلة : إن من وراء الكائنات حكمة سرمدية تبتدع من كوارث ونوازل نراها محاسن نتائج لا نراها ، فالنار والزلازل والعواصف من جسم الأرض بمكان البغض والحقد والشر . في القلب البشري تثور وتضج ثم تخمد ، ومن ثورتها وضجيجها وخودها تبتدع الآلهة معرفة جميلة يبتاعها الإنسان بدمعه ودمه وأرزاقه .

أوقفتني الذكرى ونكبة هذه الأمة تملأ الأسع آنّة وعويلاً ، وصورت أمام عيني كلّ ما
مر على مسرح الأيام الغابرة من العبر والخطوب ، فرأيت الإنسان في كلّ دواره يقيم على
صدر الأرض البروج والقصور والهياكل ، والأرض ترجعها إلى قلبها ، رأيت الأشداء
يشيدون المباني القوية ، والنحاتين يختلقون من الصخور صوراً أو أشباحاً ، والرسامين
يزينون الجدران والمداخل بالنقوش والنسيج ، ثمّ رأيت هذه اليابسة تفغر فاهها وتبتلع
بخشونة ما ألفته الأيدي المتفننة والعقول الراجحة ، ماحية بقساوتها ظواهر الصور
والأشباح ، مدمرة بسخطها خطوط الرسوم والنقوش ، دافنة بعنفها فخامة الدعائم
والجدران ، ممثلة دور حسناء مسـتغيثة عـن
الحلى التي يصوغها ابن آدم ، مستكفية بحلل المروج الخضراء المزركشة بذهب الرمال
وجواهر الحصى .

على أنني وجدت بين هذه النكبات المخيفة والرايا الهائلة ألوهية واقفة كالجبّار تسخر
بحماسة الأرض وغضب العناصر ، ومثل عمود نور منتصب بين خرائب بابل ونينوي وتدمر
وبمباي وسان فرانسيسكو ترتل أنشودة الخلود قائلة : لتأخذ الأرض ما لها فلا نهاية لي .



منيتان

في سكيّنة الليل هبط الموت من لدن الله نحو المدينة النائمة واستقر على أعلّة مئذنة فيها وخرق بعينه النيرتين جدران المساكن ورأى الأرواح المحمولة على أجنحة الأحلام والأجساد المحكومة بمفاعيل الكرى .

ولما تورى القمر وراء الشفق وتوشحت المدينة بنقاب الخيال سار الموت بقدم هادئة بين المساكن حتى بلغ صرح القوي الغني ، فدخل ولم تصده الحواجز ، ووقف بجانب سريره ثم لمس جبينه فاندعر من غفلته ، ولما رأى خيال الموت أمامه صرخ بصوت تجسّمت فيه عوامل الخلق والخوف وقال : ابعّد عني أيها الحلم المخيف ، اذهب أيها الخيال الشرير ، كيف دخلت أيها السارق وماذا تروم أيها الخاطف ؟ اذهب فأنا رب البيت ، اذهب وإلا ناديت العبيد والحراس فيمزقونك إرباً إرباً .

حينئذٍ اقترب الموت ، وبصوت يحاكي الرعد قال : أنا هو الموت فانتبه واعتبر ! فأجاب القوي الموسر : ماذا تريد مني الآن وماذا تطلب ؟ لماذا جئت وأنا لم أنه أعمالي بعد ؟ ماذا تطلب من الأقوياء نظيري ؟ اذهب إلى السقماء ، اغرب عني ولا ترني أظافرك الجارحة وشعرك المسدول كالأفاعي ، رُحْ فقد سئمت النظر إلى جناحيك الهائلتين وجسدك البالي .

وبعد سكيّنة مزعجة زاد : لا ، لا ، أيها الموت الرؤوف ، لا تحفل بما قلته ، فالخوف يوحى ما يجرمه القلب ، خذ مكياً من ذهبي أو قبضة من أرواح عبيدي واطركني وشأني لي يا موت مع الحياة حساب لم أنه ومع الناس مال لم أستوفه ، لي بين أمواج البحر مراكب لم تصل إلى الساحل ، وفي قلب الأرض غلّة لم تنبت ، خذ ما شئت من هذه الأشياء واطركني ، لي جوارٍ كالصباح جمالاً فاختر منهم ما تريد ، اسمع أيها الموت : لي وحيد أحبه وهو عقدة آمالي ، خذه واطركني ، خذ ما تشاء ، خذ كل شيء واطركني .

حينئذٍ وضع الموت يده على فم الحياة الترابية وأخذ حقيقته وأعطاهما للهواء .
سار الموت بين أحياء الفقراء الضعفاء حتى بلغ بيتًا حقيرًا فدخله واقترب من سرير عليه
فتى ، في ربيع العمر ، وبعد أن تأمل وجهه الهادئ لمس عينيه فاستيقظ ، ولما رأى الموت واقفًا
بجانبه جثا على ركبتيه ورفع ذراعيه نحوه وقال بصوت أودعه كل ما في نفسه من المحبة
والشوق : هاءنذا أيها الموت الجميل ، اقتبل نفسي يا حقيقة أحلامي وموضع آمالي ! ضمنني
يا حبيب نفسي ، فأنت رحوم ، لا تتركني ههنا .

أنت رسول الآلهة ، أنت يمين الحق ، فلا تتخل عني ، كم طلبتك ولم أجذك ، وكم
ناديتك ولم تسمع ، قد سمعتني الآن ، فلا تقابل شغفي بالصدود ، عاتق نفسي- يا حبيبي
الموت .

وضع الموت إذ ذاك أنامله اللطيفة على شفتي الفتى وأخذ حقيقته ووضعها تحت جناحيه

ولما حلّق الموت في الجو نظر نحو هذا العالم ونفخ في الهواء هذه الكلمات : لن يرجع إلى
الأبدية من جاء من الأبدية .



على ملعب الدهر

ودقيقة تراوح بين تأثيرات الجمال وأحلام الحبّ هي أسمى وأثمن من جيل ملأه المجد الذي يمنحه الضعيف المسكين للقوي الطامع .

من تلك الدقيقة تنبثق ألوهية الإنسان ، وفي ذاك الجيل تنام نومًا عميقًا مكتنفة ببراقع أحلام مزعجة ، في تلك الدقيقة تتحرر النفس من أعباء شرائع الإنسان المتباينة ، وفي ذلك الجيل تحبس وراء جدران الإهمال مثقلة بقيود الظلم ، تلك الدقيقة كانت مهد نشيد سليمان وموعظة الجبل وتائية الفارض ، وذاك الجيل كان القوة العمياء التي هدمت هياكل بعلبك ودكت مباني تدمر وسحقت بروج بابل .

ويوم صرفته النفس أسفة على موت حقوق الفقير ، متأوهة على فقدان العدل ، لهو أجلّ وأفضل من عمر يضيعه الإنسان مسرورًا على مائدة الشهوات مستسلمًا لقضاء الأنانية ، ذاك يوم يطهر القلب بناره ويفعمه بنوره ، وذا عمر يخيم عليه بجنحه القاتم ويلحده في طبقات التراب ، ذاك يوم كان يوم العبر ، ويوم الجلجلة ، ويوم الهجرة ، وذا عمر أنفقه نيرون في سوق المظالم ، ووقفه قارون على مذبح المطامع ، وطمره دون جوان في قبر الجسديات .
وهذه هي الحياة ، تمثلها الليالي على ملعب الدهر نظير مأساة ، وتنشدها الأيام كأغنية ، وفي النهاية تحفظها الأبدية كجوهرة .



خليلي

لو علمت ، يا خليلي الفقير ، أن الفاقة التي تقضي عليك بالشقاء هي التي توحى إليك معرفة العدل وتبشك إدراك كنه الحياة ، لرضيت بقسمة الله ، قلت : معرفة العدل ، لأن الغني مشغول عن تلك المعرفة بخزائنه ، وقلت : كنه الحياة ، لأن القوي منصرف عنها إلى المجد ، فافرح إذن بالعدل ، لأنك لسانه ، وبالحياة ، لأنك كتابها ، وابتهج ، فأنت مصدر فضيلة عاضديك وعاضد فضيلة الآخذين بيدك .

ولو دريت يا حبيبي الحزين أن الإرزاء التي أصبحت مغلوبها هي تلك القوة التي تنير القلب وترفع النفس من دركات الاستهزاء إلى درجات الاعتبار لقنعت بها إرثاً ، وبتأثيراتها مهذباً ، وعلمت أن الحياة سلسلة ذات حلقات آخذة بعضها برقاب البعض ، وأن الحزن حلقة ذهبية تفصل بين الاستسلام لمآتي الحاضر والتعلل ببهجة الآتي ، كما يفصل الصبح بين النوم واليقظة .

خليلي ، إن الفقر يظهر شرف النفس ، والغنى يبين لؤمها ، والحزن يلطف العواطف ، والسرور يدملها ، لأن الإنسان ما برح يستخدم المال والسرور توصلاً للازدياد ، مثلما يفعل باسم الكتاب شراً ينزه عنه الكتاب ، وباسم الإنسانية ما تأباه الإنسانية .

لو باد الفقر ونأى الحزن لأصبحت النفس صحيفة خالية إلا من أرقام تدل على الأنانية ومحبة الإكثار ، وألفاظ مفادها الشهوات الترابية ، لأنني نظرت فوجدت الألوهية ، وهي الذات المعنية في الإنسان ، لا تباع بالمال ولا تنمو بمسرات فتيان العصر ، وتأملت ، فرأيت الغني ينبذ ألوهيته ويحرص على أمواله ، وفتى العصر يغادرها ويتبع ملذاته .

إن الساعة التي تصرفها ، أيها الفقير ، مع رفيقتك وصغارك بعد مجيئك من الحقل هي رمز العائلة البشرية المستقبلية ، هي عنوان سعادة الأجيال الآتية ، والحياة التي يصرفها المثري بين الخزائن هي حياة دنيّة تحاكي حياة الدود في القبور ، هي رمز الخوف .
والدموع التي تذرفها أيها الحزين ، هي أعذب من ضحك المتناسي وأحلى من قهقهة المستهزئ .

تلك دموع تغسل القلب من أدران البغض وتعلم ذارفها كيف يشارك منكسري القلب بشواعره ، هي دموع الناصري .

إن القوة التي زرعتها أيها الفقير ، واستغلها الغني القوي ، سوف تعود إليك ، لأن الأشياء ترجع إلى مصادرها بحكم الطبيعة ، والأسى الذي عانته ، أيها الحزين ، ينقلب فرحاً بحكم السماء .

سوف تتعلم الأجيال الآتية المساواة من الفقر ، والمحبة من الأحزان .



حديث الحب

في بيت منفرد جلس فتى في صبح الحياة أنا من النافذة إلى السماء المزدانة بالكواكب ، وآونة إلى رسم صبية بين يديه ، رسم تنعكس خطوطه وألوانه على وجهه ، فتظهر عليه أسرار هذا العالم وخفايا الأبدية ، صورة ملامح امرأة تناجيه جاعلة آذاناً تفقه لغة الأرواح السابحة في فضاء تلك الغرفة ومبتدعة من مجموعة قلوباً أنارها الحب وأفعمها الشوق .

كذا مرت ساعة ، كأنها دقيقة أحلام مستحبة أو عام من حياة البقاء ، ثم وضع الفتى الرسم أمامه وأخذ قلمًا وورقة وكتب :

يا حبيبة نفسي !

إن الحقائق العظيمة الفائقة الطبيعة لا تنتقل من بشري إلى آخر بواسطة الكلام البشري المتعارف ، لكنها تختار السكينة سبيلًا بين النفوس ، وأنا أشعر بأن سكينة هذا الليل تسعى بين نفسينا حاملة رسائل أرق من تلك التي يكتبها النسيم على وجه الماء ، تالية كتاب قلبينا على قلبينا ، ولكن مثلما شاء الله فجعل النفوس في أسر الأجسام شاء الحب فجعلني أسير الكلام ... يقولون يا حبيبتى إن الحب ينقلب بالعباد نارًا آكلة ، وأنا وجدت أن ساعة الفراق لم تقوَ على فصل ذاتينا المعنويتين ، مثلما علمت عند أول لقاء أن نفسي- تعرفك منذ دهور ، وأن أول نظرة إليك لم تكن بالحقيقة أول نظرة ... يا حبيبتى ، إن تلك الساعة التي جمعت قلبينا المنفيين عن العالم العلوي هي من ساعات قليلة تدعم بأزلية النفس وخلودها في مثل تلك الساعة تكشف الطبيعة القناع عن وجه عدلها المتناهي والمظنون به ظلمًا .

هل تذكرين يا حبيبتى ذك الروض ، حيث وقفنا وكلانا ناظر وجه حبيبته؟ وهل تعلمين أن نظراتك كانت تقول لي إن محبتك لي لم تنبثق من الشفقة علي؟ تلك النظرات التي علّمتني أن أقول لذاتي وللعالمين إن العطاء الذي يكون مصدره العدل هو أعظم من الذي يبتدئ من الحسنة ، وإن المحبة التي تبتدعها الظروف تشابه مياه المستنقعات .

أمامي يا حبيبي حياة أريدها أن تكون عظيمة وجميلة ، حياة تؤاخي ذكر الإنسان الآتي
وتستدعي اعتباره ومحبه ، حياة قد ابتدأت عندما لقيتك وأنا واثق بخلودها ، لأنني مؤمن
بكونك قادرة على إظهار القوة التي أودعني الله إياها متجسمة بأقوال وأعمال كبيرة ، مثلما
تستنبت الشمس أزهار الحقل ذات العرف الطيب ، وكذا تظل محبتي لي وللأجيال ، وتبقى
منزهة عن الأنانية لتعميمها ، ومتعالية عن الابتذال لتخصيصها بك .
وقام الفتى ومشى بتمهل في تلك الغرفة ، ثمّ نظر من النافذة ورأى القمر قد طلع من
وراء الأفق وملاً الفضاء أشعة لطيفة ، فرجع وكتب في تلك الرسالة :
ساحيني يا حبيبي فقد ناجيتك بضمير المخاطب وأنت نصفي الجميل الذي فقدته عندما
خرجنا من يد الله في آن واحد ، ساحيني يا حبيبي .



الحيوان الأبكم

وفي نظرات الحيوان الأبكم

كلام تفهمه نفس الحكيم

شاعر هندي

في عشية يوم تغلبت فيه تخيلاتي على عاقلتي مررت بأطراف أحياء المدينة ووقفت أمام منزل مهجور تداعت أركانها وحطت دعائمه ولم يبقَ منه سوى أثر يخبر عن هجر طويل ويدل على زوال محزن ، فرأيت كلبًا يتوسد الرماد وقد ملأت القروح جسمه الضعيف واستحكمت العلل بهيكله المهزول ، فصار يرمق الشمس الجانحة نحو الغروب بعين وسمت عليها أشباح الذل وبدت فيها مظاهر القنوط واليأس ، فكأنه درى بأن الشمس قد أخذت تسترجع حرارة أنفاسها عن تلك البقعة المهجورة البعيدة عن الأولاد مضطهدي الحيوان الضعيف ، فصار يرمقها بعين آسفة مودعة ، فاقتربت منه على مهل وادًا لو عرفت النطق بلسانه فأعزيه في شدائده وأبدي له شفقة في بؤسه ، ولما دنوت منه خافني وتحرك ببقايا حياة قاربت الانحلال مستنجدًا بقوائم شلتها العلة وراقبها الفناء ، وإذ لم يقو على النهوض نظر إليّ نظرة فيها مرارة استرحام وحلاوة استعطاف ، نظرة فيها انعطاف وملازمة ، نظرة قامت مقام النطق ، فكانت أفصح من لسان الإنسان وأبلغ من دموع المرأة ، ولما تلاقت عيناى بعينييه الحزينتين تحرّكت عواطفى وتمايلت تأثراى فجسمت تلك النظرات وابتدعت لها أجسادًا من كلام متعارف بين البشر- ، نظرات مفادها : كفى ما بي يا هذا ، وكفى ما عانيت من اضطهاد الناس ، وما قاسيت من ألم الأمراض ، امض واتركني وسكيتي أستمد من حرارة الشمس دقائق الحياة ،

فقد هربت من مظالم ابن آدم وقسوته والتجأت إلى رمال أكثر نعومة من قلبه واختبأت بين خرائب أقل وحشة من نفسه ، اذهب عني ، فما أنت إلا من سكان أرض ما برحت ناقصة الأحكام ، خالية من العدل ... أنا حيوان حقير لكنني خدمت ابن آدم وكنت في منزله مخلصًا ووفيًا ، وفي رفقته متربصًا وجاسوسًا ، كنت شريكًا في أحزانه ، ومغتبطًا في أفراحه ، متذكرًا أيام بعده ، مرحبًا عند مجيئه ، وكنت أكتفي بفتات مائدته وأسعد بعظم جرده بأضراسه ، ولكن ، لما شخت وهرمت وأنشبت الأمراض في جسمي أظافرها ، نبذني وأبعدني عن داره وصيرني ملعبة لصبيان الأزقة القساة ، وهدفًا لنبال العلل ، ومحطًا لرحال الأقدار ، أنا ، يا ابن آدم ، حيوان ضعيف ، لكنني وجدت نسبة كائنة بيني وبين الكثيرين من إخوانك البشر الذين إذا ما ضعفت قواهم قل رزقهم وساء حالهم ، أنا مثل جنود يحاربون عن الوطن في شبيبتهم ويستثمرون الأرض في كهولتهم ، حتى إذا ما جاء شتاء الحياة وقلّ نفعهم أبعدهم ونسوهم ، أنا مثل امرأة تجملت صبية لتفريح قلب الشبيبة ، وسهرت زوجة في الليالي لتربية الأطفال ، وتعبت امرأة لإيجاد رجال المستقبل ، ولكن لما شاخت وعجزت أصبحت نسيًا منسيًا وأمرًا مكروهاً ... آه ما أظلمك يا ابن آدم وما أقساك !

كانت نظرات ذلك الحيوان تتكلم وقلبي يفهم ، ونفسي تراوح بين شفتي عليه وتصوراتي بأبناء بجدي ، ولما أغمض عينيه لم أشأ إزعاجه فذهبت .



السلم

سكنت العاصفة بعد أن لوت الأغصان وحتت الزروع ، وبانت النجوم وكأنها بقايا البرق المتكسرة على أديم السماء ، وسكتت تلك الحقول كأن حرب العناصر لم تكن .

في تلك الساعة دخلت الصبية مرقدتها وجثت على سريرها وبكت بكاء مرًا ، ثم تصاعدت زفرتها وتجسمت أنفاسها الحارة بهذه الكلمات : رده إليّ يا رب فقد جفت دموعي ونابت حشاشتي ، أرجعه أيها الروح القاضي بحكمة تسمو عن نهى الإنسان ، فقد جفاني التجلد وتحكم بي الأسى ، خلصه من مخالب الحرب المحددة ، أنقذه من الموت القاسي وارحمه فتى ضعيفًا حنت عليه قوة القوي فسلبني إياه . تغلبي أيتها المحبة على عدوتك الحرب وخلصي حبيبي فهو من أبنائك . ابتعد عنه أيها الموت ودعه يراني أو تعالى وخذني إليه .

في تلك الدقيقة دخل فتى تضم رأسه عصائب بيضاء كتبت عليها الهيحاء أحرفا قرمزية واقترب من الصبية وحيها بدمعة وابتسامة ثم أخذ يدها ووضعها على شفثيه الملتهبتين وبصوت تألفت فيه عوامل الحبّ الجارح ومفاعيل اللقاء المفرح قال : لا تحفلي فقد أتى من تبكين من أجله ، افرحي فقد أعاد إليك السلم من سرقة الحرب ، وأرجع إليك فتى الإنسانية ما سلبه ابن المطامع ، كفكفي الدمع يا حبيبتى وابتسمي لأن للشعوب أئمة ترحم متى عمت قساوة أئمة الشعوب ، لا تعجبي من إيابي حيا ، فللحب وسم يراه الموت فينصرف ، ويتوسمه العدو فيتهقّر ، أنا هو ، فلا تحسبيني خيالًا جاء من مرتع المنايا ليزور مربعًا يسكنه جمالك والسكون ، لا تخافي فأنا حقيقة سلمت من بين الأسنة لتخبر الناس بغلبة الحبّ على الحرب ، أنا كلمة لفظها رجل السلم لتكون توطئة لرواية سعادتك .

انعقد اللسان إذ ذاك وناب الدمع عن الكلام وحامت ملائكة السرور حول ذلك الكوخ
الحقير واسترجع القلبان ما فقداه من الوداع .

ولما جاء الصباح وقف الاثنان في وسط الحقل يتأملان جمال الطبيعة وبعد سكونة فيها من
الأحاديث ما فيها ينظر الجندي نحو المشرق الأقصى- وقال لحبيته : انظري الشمس طالعة من
الظلمة .



الشاعر

حلقة تصل بين هذا العالم والآتي ، منهل عذب تستقي منه النفس العطشى ، شجرة مغروسة على ضفة نهر الجمال ذات ثمار يانعة تطلبها القلوب الجائعة ، بلبل يتنقل على أغصان الكلام وينشد أنغامًا تملأ خلايا الجوارح لطفًا ورقة ، غيمة بيضاء تظهر فوق خط الشفق ثم تتعاضد وتتصاعد حتى تملأ وجه السماء وتنسكب لتروي أزهار حقل الحياة ، ملك بعثته الآلهة ليعلم الناس الإلهيات ، نور ساطع لا تغلبه ظلمة ولا يخيفه مكيال ، ملأته زيتًا عشتروت إلهة الحب وأشعله أبولون إله الموسيقى .

وحيد يرتدي البساطة ويتغذى اللطف ويجلس على أحضان الطبيعة ليتعلم الابتداء ويسهر في سكينة الليل منتظرًا هبوط الروح ، زراع يبذر حبات قلبه في رياض الشواعر ، فتبت زرعًا خصيبًا تستغله الإنسانية وتتغذى به .

هذا هو الشاعر الذي تجهله الناس في حياته وتعرفه عندما يودع هذا العالم ويعود إلى موطنه العلوي ، هذا الذي لا يطلب من البشر إلا ابتسامة صغيرة والذي تتصاعد أنفاسه وتملأ الفضاء أشباحًا حية جميلة والناس تبخل عليه بالخبز والمأوى .

فإلى متى أيها الإنسان ، إلى متى أيها الكون تقيم من الفخر بيوتًا للألى جبلوا أديم التراب بالدماء ، وتعرض بتهامل عن الذين يهبونك من محاسن أنفسهم سلامًا ووداعة؟ وحتى متى تعظم القتلة والذين حنوا الرقاب بنير الاستعباد وتتناسى رجالًا يسكبون نور الأحداق في ظلمة الليل ليعلموك أن ترى بهاء النهار ويصرفون العمر بين محالب الشقاء كيلا تفوتك لذة السعادة؟

وأنتم أيها الشعراء ، يا حياة هذه الحياة ، قد تغلبتم على الأجيال قسرًا عن قساوة الأجيال ، وفزتم بأكاليل الغار غصبًا عن أشواك الغرور ، وملكتم في القلوب وليس لملككم نهاية وانقضاء ، يا أيها الشعراء .



يوم مولدي

كتبت في باريس

في 6 كانون الأول سنة 1908

في مثل هذا اليوم ولدتني أمي .

في مثل هذا اليوم منذ ست وعشرين سنة وضعتني السكينة بين أيدي هذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك.

ها قد سرت خمسًا وعشرين مرة حول الشمس ، ولا أدري كم مرة سار القمر حولي ، لكنني لم أدرك بعد أسرار النور ، ولا عرفت خفايا الظلام .

قد سرت خمسًا وعشرين مرة مع الأرض والقمر والشمس والكواكب حول الناموس الكلي الأعلى ، ولكن هوذا نفسي تهمس الآن أسماء ذلك الناموس مثلما ترجع الكهوف صدى أمواج البحر ، فهي كائنة بكيانه ، ولا تعلم ماهيته ، وترنم بأغاني مده وجزره ، ولا تستطيع إدراكه .

منذ خمس وعشرين سنة خطتني يد الزمان كلمة في كتاب هذا العالم الغريب الهائل ، وهأنذا كلمة مبهمه ، ملتبسة المعاني ، ترمز تارة إلى لاشيء ، وطورًا إلى أشياء كثيرة .

إن التأملات والأفكار والتذكريات تتزاحم على نفسي في مثل هذا اليوم من كل سنة ، وتوقف أمامي مواكب الأيام الغابرة ، وتريني أشباح الليالي الماضية ، ثم تبدها كما تبدد الرياح بقايا الغيوم فوق خط الشفق ، فتضمحل في زوايا غرفتي اضمحلال أناشيد السواقي في الأودية البعيدة الخالية .

في مثل هذا اليوم من كل سنة تجيء الأرواح التي رسمت روحي متراكضة من جميع أطراف العالم ، وتحيط بي مرتلة أغاني الذكرى المحزنة ، ثم تتراجع على مهل وتختفي وراء المرئيات ، كأنها أسراب من الطير هبطت على بيدر مهجور فلم تجد بذورًا تلتقطها فرفرفت هنيهة ثم طارت ساحبة إلى مكان آخر .

في هذا اليوم تنتصب أمامي معاني حياتي الغابرة ، كأنها مرآة ضئيلة انظر إليها طويلاً فلا أرى سوى أوجه السنين الشاحبة كأوجه الأموات ، وملامح الآمال والأحلام والأمانى المتجعدة كملامح الشيوخ ، ثم أغمض عيني وانظر ثانية في تلك المرأة ، فلا أرى غير وجهي ، ثم أهدق إلى وجهي فلا أرى فيه غير الكآبة، ثم أستنطق الكآبة فأجدها خرساء لا تتكلم ، ولو تكلمت الكآبة لكانت أكثر حلاوة من الغبطة.

في الخمس وعشرين سنة الغابرة قد أحببت كثيراً ، وكثيراً ما أحببت ما يكرهه الناس وكرهت ما يستحسنونه ، والذي أحببته عندما كنت صبياً مازلت أحبه الآن ، والذي أحبه الآن سأحبه إلى نهاية الحياة ، فالمحبة هي كل ما أستطيع أن احصل عليه ولا يقدر احد أن يفقدني إياه .

قد أحببت الموت مرات عديدة ، فدعوته بأسماء عذبة وتشببت به سرّاً وعلناً ، ولئن لم أسأل الموت ولا نقضت له عهداً ، فإنني صرت أحب الحياة أيضاً ، فالموت والحياة قد تساويا عندي بالجمال ، وتضارعا باللذة ، وتشاركاً بإنماء شوقي وحنيني ، وتساهما محبتي وانعطافي . وقد أحببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهوان ، وتتسع باتساع إدراكي خضوعهم للأصنام المخيفة التي نحتتها الأجيال المظلمة ، ونصبتها الجهالة المستمرة ، ونعمت جوانبها ملامس شفاه العبيد ، لكنني كنت أحب هؤلاء العبيد بمحبة الحرية ، وأشفق عليهم لأنهم عميان يقبلون أحناء الضواري الدامية ولا يبصرون ، ويمتصون لهاث الأفاعي الخبيثة ولا يشعرون ، ويحفرون قبورهم بأظافرهم ولا يعلمون . قد أحببت الحرية أكثر من كل شيء لأنني وجدت لها فتاة قد أضناها الانفراد ، وأنحلها الاعتزال ، حتى صارت خيالاً شفافاً يمرُّ بين المنازل ، ويقف في منعطفات الشوارع ، وينادي عابري الطريق فلا يسمعون ولا يلتفتون .

في الخمس والعشرين سنة قد أحببتُ السعادة مثل جميع البشر- ، فكنت أستيقظ كل يوم وأطلبها كما يطلبونها ، لكنني لم أجدها قط في سبيلهم ، ولا رأيت أثر أقدامها على الرمال المحيطة بقصورهم ، ولا سمعت صدى صوتها خارجاً من نوافذ هياكلهم ، ولما انفردتُ بطلبها سمعت نفسي تهمس في أذني قائلة : السعادة صبيّة تولدُ وتحيا في أعماق القلب ولن تجيء إليه من محيطه ، ولما فتحتُ قلبي لكي أرى السعادة وجدت هناك مرآتها وسريرتها وملابسها ، لكنني لم أجدها . وقد أحببت الناس ، أحببتهم كثيراً ، والناس في شرعي ثلاثة : واحد يلعن الحياة ، وواحد يباركها ، وواحد يتأمل بها ، فقد أحببت الأول لتعاسته ، والثاني لساحته ، والثالث لمداركه .

هكذا انقضت الخمس والعشرون سنة ، وهكذا ذهبت أيامي ولياليّ مسارعة ، متتابعة ، متساقطة من حياتي مثلما تتناثر أوراق الشجر أمام رياح الخريف .

واليوم وقد وقفت متذكراً ، وقوف سائر متعب بلغ منتصف العقبة ، أنظر إلى كل ناحية فلا أرى لماضي حياتي أثراً أستطيع أن أومئ إليه أمام وجه الشمس قائلاً : هذا لي ، ولا أجد لفصول أعوامي غلة سوى أوراق مخضبة بقطرات الحبر السوداء ، ورسوم غريبة مبعثرة مملوءة خطوطاً وألواناً متباينة متناسقة .

في هذه الأوراق المنشورة ، والرسوم المبعثرة ، قد كفنت ودفنت عواطفني وأفكاري وأحلامي ، مثلما يدفن الزّراع البذور في بطن الأرض ، ولكن الزّراع الذي يخرج إلى الحقل ويلقي البذور بين ثنايا التراب يعود إلى بيته في المساء آملاً راجياً منتظراً أيام الحصاد والاستغلال ، أما أنا فقد طرحت حبات قلبي بلا أمل ولا رجاء ، ولا انتظار .

والآن وقد بلغت هذه المرحلة من العمر ، فترأى لي الماضي من وراء ضباب التنهد والأسى ، وبان لناظري المستقبل من وراء نقاب الماضي ، أقف وأنظر إلى الوجود من خلال بلور نافذتي ، وأرى وجوه الناس وأسمع أصواتهم متصاعدة إلى الفضاء ، وأعني وقع أقدامهم بين المنازل وأشعر بملابس أرواحهم وتموجات ميولهم ونبضات قلوبهم ، أنظر ، فأرى الأطفال يلعبون ويتراكضون ويذرون التراب بعضهم في وجوه بعض ضاحكين مقهقهين ، وأرى الفتيان يسرون بعزم رافعين رؤوسهم كأنهم يقرأون قصيدة الشباب مكتوبة بين حواشي الغيوم المبطنة بأشعة الشمس ، وأرى الصبايا يخطرن ويتثنين كالأغصان ويتسمن كالأزهار وينظرن إلى الفتيان من وراء جفون ترتعش بالليل والانعطاف ، وأرى الشيوخ يمشون على مهل مُحْدَوِدِي الظهور ، متوكئين على العصي- ، محققين إلى الأرض ، كأنهم يبحثون بين دقائق التراب عن جواهر أضاعوها ، أقف بجانب نافذتي وأنظر متأملاً بما وراء المدينة ، فأرى البرية بكل ما فيها من الجمال الرهيب والسكينة المتكاملة ، والتلول الباسقة ، والأودية المنخفضة ، والأشجار النامية ، والأعشاب المتمايلة ، والأزهار العطرة ، والأنهار المترنمة ، والأطيوار المغردة ، ثم أنظر إلى ما وراء البرية ، فأرى البحر بكل ما في أعماقه من الغرائب والعجائب ، والمدافن والأسرار ، وما على سطحه من الأمواج المزبدة ، الغضوب ، المتسارعة ، المتهاونة ، والأبخرة المتصاعدة ، المتبددة ، المتساقطة .

ثم أنظر متأملاً بما وراء البحر ، فأرى الفضاء غير المتناهي بكل ما في من العوالم السابحة ، والكواكب اللامعة ، والشموس والأقمار والسيارات والثوابت ، وما بينها من الدوافع والجواذب المتسائلة المتنازعة ، المتولدة ، المتحولة ، المتناسكة بناموس لا حد له ولا مدى ، الخاضعة لشرع كلي ليس لبده ابتداء ولا لنهايته نهاية ، أنظر وأتأمل بجميع هذه الأشياء من خلال بلور نافذتي فأنسى الخمس والعشرين وما جاء قبلها من الأجيال وما سيأتي بعدها من القرون ، ويظهر لي كياني ومحيطي بكل ما أخفاه وأعلنه كذرة من تنهدة طفل ترتجف في خلال أزلي الأعماق ، سرمدى العلو ، أبدي الحدود ، لكنني أشعر بكيان هذه الذرة ، هذه النفس ، هذه الذات التي أدعوها أنا ، أشعر بحراكها ، وأسمع ضجيجها ، فهي ترفع الآن أجنحتها نحو العلاء وتمتد يداها إلى كل ناحية ، وتتمايل مرتعشة في مثل هذا اليوم الذي أبانها للوجود ، وبصوت متصاعد من قدس أقداسها تصرخ قائلة :

سلام أيتها الحياة ، سلام أيتها اليقظة ، سلام أيتها الرؤيا ، سلام أيها النهار الغامر بنورك
ظلمة الأرض ، و سلام أيها الليل المظهر بظلمتك أنوار السماء ، سلام أيتها الفصول ، سلام
أيها الربيع المعيد شببية الأرض ، سلام أيها الصيف المذيع مجد الشمس ، سلام أيها الخريف
الواهب ثمار الأتعاب وغلة الأعمال ، سلام أيها الشتاء الرجوع بثوراتك عزم الطبيعة ، سلام
أيتها الأعوام الناشرة ما أخفته الأعوام .

سلام أيتها الأجيال المصلحة ما أفسدته الأجيال ، سلام أيها السائر بنا نحو الكمال ،
سلام أيها الروح الضابط أعنة الحياة ، المحجوب عنا بنقاب الشمس ، و سلام لك أيها القلب
، لأنك لا تستطيع أن تهزأ بالسلام وأنت مغمور بالدموع ، و سلام لك أيتها الشفاه ، لأنك
تتلفظين بالسلام وأنت تذوقين طعم المرارة .



الطفل يسوع

والحب الطفل

كنت بالأمس وحيداً في هذا العالم يا حبيبتى ، وكانت الوحدة قاسية كالموت ، وكنت منفرداً كالزهرة النابتة في ظل الصخور المتعالية فلا تشعر الحياة بوجودي ، ولا أنا أشعر بكيان الحياة ، واليوم قد استيقظت نفسي- ورأتك منتصبه بقربها ، فتهيت وتهللت ، ثم سجدت أمامك ، مثلما فعل ذلك الراعي عندما رأى العليقة مشتعلة .

كانت بالأمس ملامس الهواء خشنة يا حبيبتى ، وأشعة الشمس ضعيفة ، وكان الضباب يستر وجه الأرض وضجيج أمواج البحر يشابه الرعود القاصفة ، وكنت أتلقت إلى كل ناحية فلا أرى غير ذاتي المتوجعة واقفة بجانبني وخيالات الظلمة تهبط وتتصاعد حولي كالغربان الجائعة ، واليوم قد خف الهواء ، وغمر النور الطبيعة ، وسكنت الأمواج وانقشعت الغيوم ، فكيفما نظرت أراك وأرى أسرار الحياة محيطة بك كالهالات التي يُحدثها جسم العصفور على وجه البحيرة الهادئة عندما يتحمم بمائها الهادئ .

كنت بالأمس كلمة صامتة في خاطر الليالي ، فأصبحت أغنية مفرحة على ألسن الأيام ، وقد تم هذا كله في دقيقة واحدة مؤلفة من نظرة وكلمة وتنهدة وقبله .

تلك الدقيقة يا حبيبتى قد جمعت بين استعدادات نفسي الغابرة وأمانيتها الآتية ، فكانت كالوردة البيضاء الخارجة من قلب الأرض المظلم إلى نور النهار ، تلك الدقيقة هي من كل حياتي بمنزلة ميلاد يسوع من كل الأجيال ، لأنها كانت مملوءة روحاً وطهرًا ومحبة ، لأنها جعلت الظلمة في أعماقي شعاعاً ، والكآبة مرحاً ، والشقاء سعادة .

إن شعلات المحبة يا حبيبتى تهبط من السماء متموجة بصور متباينة وأشكال متنوعة ، لكن فعلها وتأثيرها في هذا العالم هو واحد : فالشعلة الصغيرة التي تنير خلايا قلب الإنسان الفرد هي كالشعلة العظيمة المشعشة التي تنحدر من الأعالي وتنير ظلمات الأمم جميعها لأن في النفس الواحدة عناصر وميولاً وعواطف لا تختلف البتة عن العناصر والميول والعواطف الكائنة في نفس العائلة البشرية .

كان اليهود يا حبيبتى يترقبون مجيء عظيم موعود به منذ ابتداء الدهر ليخلصهم من عبودية الأمم ، وكانت النفس الكبيرة في اليونان ترى أن عبادة المشتري ومينرفا قد ضعفت ، فلم تعد الأرواح تشبع من الروحانيات ، وكان الفكر السامي في رومة يتأمل فيجد أن ألوهية أبولون أصبحت تتباعد عن العواطف ، وجمال فينيس الأبدى قد أخذ يقترب من الشيخوخة ، وكانت الأمم كلها تشعر على غير معرفة منها بمجاعة نفسية إلى تعاليم مترفعة عن المادة وبميل عميق إلى الحرية الروحية التي تعلم الإنسان أن يفرح مع قريبه بنور الشمس وجمال الحياة ، تلك هي الحرية الجميلة التي تحوّل الإنسان أن يقترب من القوة غير المنظورة بلا خوف ولا وجل بعد أن يقنع الناس طرّاً بأنه يقترب من أجل سعادتهم .

كان ذلك كله من ألفي سنة يا حبيبتى ، عندما كانت عواطف القلب البشري تحوم مرفرفة حول المرئيات وتحشى الدنو من الروح الكلي الخالد ، عندما كان « بان » إله الأحرار يملأ نفوس الرعاة جزعاً ، و« بعل » إله الشمس يضغط بأيدي كهانة على قلوب المساكين والضعفاء .

ففي ليلة واحدة ، بل في ساعة واحدة بل في لمحة واحدة تنفرد عن الأجيال ، لأنها أقوى من الأجيال ، انفتحت شفاه الروح ولفظت « كلمة الحياة » التي كانت في البدء عند الروح ، فنزلت مع نور الكواكب وأشعة القمر وتجسدت وصارت طفلاً بين ذراعي ابنة من البشر- ، في مكان حقير ، حيث يحمي الرعاة مواشيهم من كواسر الليل ... ذلك الطفل النائم على القش اليابس في مذود البقر - ذلك الملك الجالس فوق عرش مصنوع من القلوب المثقلة بنير العبودية ، والنفوس الجائعة إلى الروح ، والأفكار التائقة إلى الحكمة - ذلك الرضيع الملتف بأثواب أمه الفقيرة قد انتزع بلطفه صولجان القوة من المشتري وأسلمه للراعي المسكين المتكئ على الأعشاب بين أغنامه ، وأخذ الحكمة من مينرفا برقته ووضعها على لسان الصياد الفقير الجالس في زورقه على شاطئ البحيرة ، واستخلص الغبطة بحزن نفسه من أبولون ووهبها لكسير القلب الواقف مستعطياً أمام الأبواب ، وسكب الجمال بجماله من فينيس وبثه في روح المرأة الساقطة الخائفة من قساوة المضطهدين ، وأنزل البعل عن كرسي جبروته وأقام مكانه الفرع البائس الذي ينثر في الحقل البذور مع عرق الجبين .

أولم تكن عواطفني بالأمس كأسباط إسرائيل يا حبيبتني؟ أما ترقبت في سكينة الليل مجيء مُخلص ينقذني من عبودية الأيام ومتاعبها؟ أما شعرت كالأمم الغابرة بالمجاعة الروحية العميقة؟ أما سرت على طرق الحياة مثل صبي ضائع بين الأحياء المهجورة؟ أولم تكن نفسي- كالنواة المطروحة على الصخرة :

لا الطير يلتقطها فيميتها ، ولا العناصر تشقها فتحيتها؟ قد كان ذلك كله بالأمس يا حبيبتي عندما كانت أحلامي تدب في جوانب الظلمة وتخاف الاقتراب من النور ، عندما كان اليأس يلوي أضلعي والضجر يقومها ، ففي ليلة واحدة ، بل في ساعة واحدة ، بل في لحظة واحدة تنحى عن سني حياتي ، لأنها أجمل من سني حياتي ، هبط الروح من وسط دائرة النور الأعلى ، ونظر إليّ من وراء عينيك ، وتكلم معي بلسانك ، ومن تلك النظرة وهاتيك الكلمة انبثق الحبّ وحل في أعشار قلبي ... هذا الحي العظيم الجالس في هذا المذود المنزوي في صدري - هذا الحبّ الجميل الملتف بأقمطة العواطف - هذا الرضيع اللطيف المتكى على صدر النفس قد جعل الأحزان في باطني مسرة واليأس مجداً والوحدة نعيماً ، هذا الملك المتعالي فوق عرض الذات المعنوية قد أعاد بصوته الحياة لأيامي الميتة ، وأرجع بملامسه النور إلى أجفاني المقرحة بالدموع ، وانتشل بيمينه آمالي من لجة القنوط .

كان كلّ الزمن ليلاً يا حبيبتي ، فصار فجرًا ، وسيصير نهارًا ، لأن أنفاس الطفل يسوع قد تخللت دقائق الفضاء ومازجت ثانويات الأثير ، وكانت حياتي حزنًا ، فصارت فرحًا ، وستصير غبطة ، لأن ذراعي الطفل قد ضممتا قلبي وعانقتا نفسي .



مناجاة أرواح

- استيقظي يا حبيبي! استيقظي لأن روعي تناديك من وراء البحار الهائلة ، ونفسي تمدّ جناحيها نحوك فوق الأمواج المزبدة الغضوب ، استيقظي ، فقد سكنت الحركة وأوقف الهدوء ضجة سنابك الخيل ووقع أقدام العابرين ، وعانق النوم أرواح البشر- ، فبقيت وحدي مستيقظاً ، لأن الشوق يتشلني كلما أغرقني النعاس ، والمحبة تدنيني إليك عندما تقصيني الهواجس ، قد تركت مضجعي يا حبيبي خوفاً من أخيلة السلو المختبئة بين طيات اللحف ، ورميت بالكتاب لأن تأوهي قد أباد السطور من صفحاته فأصبحت خالية بيضاء أمام عيني ، استيقظي! استيقظي يا حبيبي واسمعي .

- هاءنذا يا حبيبي! قد سمعت نداءك من وراء البحار وشعرت بملامس جناحيك ، فانتبهت وتركت مخدعي وسرت على الأعشاب فتبللت قدماي وأطراف ثوبي من ندى الليل ، ها أنا واقفة تحت أغصان اللوز المزهرة أسمع نداء نفسك يا حبيبي!

- تكلمي يا حبيبي! ودعي أنفاسك تسيل مع الهواء القادم نحوي من أودية لبنان ، تكلمي ، فلا سامع غيري لأن الظلمة قد دحرت جميع المخلوقات إلى أوكارها ، والنعاس أسكر سكّان المدينة وبقيت وحدي صاحياً .

- قد نسجت السماء نقاباً من أشعة القمر وألقته على جسد لبنان يا حبيبي!

- قد حاكت السماء من ظلمة الليل رداء كثيفاً مبطناً بدخان المعامل وأنفاس الموت وسترت به أضلع المدينة يا حبيبي!

- قد رقد سكان القرى في أكواعهم القائمة بين أشجار الجوز والصفصاف وتسابقت نفوسهم نحو مسارح الأحلام يا حبيبي!

- قد أناخت أحمال الذهب قامات البشر- ، وأوهنت عقبات المطامع ركبهم ، وأثقلت المتاعب أجفانهم ، فارتقوا على الفرش وأشباح الخوف والقنوط تعذب قلوبهم يا حبيبتى .
- قد سرت في الأودية أخيلة الأجيال الغابرة ، وحامت على الروابي أرواح الملوك والأنبياء ، فأنثت فكرتي نحو مسارح الذكرى وأرتني عظام الكلدانيين وفخامة الآشوريين ونبالة العرب .

قد سرت في الأزقة أرواح اللصوص القائمة ، وظهرت من بين شقوق النوافذ رؤوس أفاعي الشهوات ، وجرت في منعطفات الشوارع أنفاس الأمراض ممزوجة بلهات المنيا ، فأزاحت الذكرى ستائر النسيان وأرتني مكاره صادوم وآثام عامورة .

قد تمايلت الأغصان يا حبيبي وتحالف حفيفها مع خرير ساقية الوادي ورددت على مسامعي نشيد سليمان ورنات قيثاره داود وأغاني الموصلي .

قد ارتعشت نفوس أطفال الحي وأقلقهم الجوع ، وتسارعت تنهدات الأمهات المضطجعات على أسرة الهمم واليأس ، وراعت أحلام العوز قلوب الرجال المقعدين ، فسمعت نواحا مرًا وزفيرًا متقطعًا يملأ الضلوع ندبًا ورثاء .

قد فاحت روائح النرجس والزنبق وعانقت عطر الياسمين والبليسان ثم تمازجت بأنفاس الأرز الطيبة وسرت مع تموجات النسيم فوق الطلول المتشعبة والممرات الملتوية ، فملأت النفس انعطافًا ومنحتها حنينًا إلى الطيران .

قد تصاعدت روائح الأزقة الكريهة واختمرت بجراثيم العلل ، ومثل أسهم دقيقة خافية قد خدشت الحس وسممت الهواء .

- ها قد جاء الصباح يا حبيتي وداعبت أصابع اليقظة أجفان النيام وفاضت الأشعة البنفسجية من وراء الليل ، وأزالت غشاء الليل من عزم الحياة ومجدها ، فاستفاقت القرى المتكئة بهدوء وسكينة على كتفي الوادي وترنمت أجراس الكنائس وملاّت الأثير نداء مستحباً معلنة بدء صلاة الصباح ، فأرجعت الكهوف صدى رنينها ، كأن الطبيعة بأسرها قامت مصلية ، قد غادرت العجول مرائبها وتركت قطعان الغنم والماعز حظائرها وانشت نحو الحقول ترتعي رؤوس الأعشاب المتلمعة بقطر الندى ، ومشى أمامها الرعاة ينفخون الشبابات ووراءها الصبايا المتأهلات مع العصافير بقدوم الصباح .

قد جاء الصباح يا حبيتي وانبسطت فوق المنازل المكردسة أكف النهار الثقيلة ، فأزيمحت الستائر عن النوافذ وانفتحت مصاريع الأبواب ، فبانَت الوجوه الكالحة والعيون المعروكة ، وذهب التعساء إلى المعامل وداخل أجسادهم يقطن الموت في جوار الحياة ، وعلى ملامحهم المنقبضة قد بان ظل القنوط والخوف ، كأنهم منقادون قهراً إلى عراقك هائل مهلك ، ها قد غصت الشوارع بالمرعين الطامعين ، وامتلأ الفضاء من قلقلة الحديد ودوي الدواليب وعويل البخار ، وأصبحت المدينة ساحة قتال يصرع فيها القوي الضعيف ويستأثر الغني الظلوم بأتعاب الفقير المسكين .

- ما أجمل الحياة ههنا يا حبيبي ، فهي مثل قلب الشاعر المملوء نوراً ورقة .
ما أقسى الحياة ههنا يا حبيبي ، فهي مثل قلب المجرم المفعم بالإثم والمخاوف .



أيتها الريح

تمرّين أنا مترنحة فرحة ، وآونة متأوهة نادية ، فنسمعك ولا نشاهدك ، ونشعر بك ولا نراك ، فكأنك بحر من الحب يغمر أرواحنا ولا يغرقها ، ويتلاعب بأفئدتنا وهي ساكنة .

تتصاعدين مع الروابي وتنخفضين مع الأودية وتنسطين مع السهول والمروج ، ففي تصاعدك عزم ، وفي انخفاضك رقة ، وفي انبساطك رشاقة ، فكأنك ملك رؤوف يتساهل مع الضعفاء الساقطين ويرفع مع الأقوياء المتشاخين .

في الخريف تنوحين في الأودية فتبكي لنواحك الأشجار ، وفي الشتاء تثورين بشدة فتثور معك الطبيعة بأسرها ، وفي الربيع تعتلين وتضعفين ولضعفك تستفيق الحقول ، وفي الصيف تتوارين وراء نقاب السكون فنخالك ميتاً قتلته سهام الشمس ثم كفتته بحرارتها .

لكن ، أنادبة كنت أيام الخريف ، أم ضاحكة من خجل الأشجار بعد أن عريتها من ملابسها؟ أغاضبة كنت أيام الشتاء ، أم راقصة حول قبور الليالي المكلسة بالثلوج؟ أعليلة كنت أيام الربيع ، أم حبيبة أضناها البعاد فجاءت تصعد بالتنهد أنفاسها على وجه حبيبها شاب الفصول لتنبهه من رقاده؟ أميئة كنت أيام الصيف ، أم هاجعة في قلوب الأثمار وبين جفئات الكروم وعلى بيادر القش؟

أنت تحملين من أزقة المدينة أنفاس العلل ومن الروابي أرواح الأزهار ، وهكذا تفعل النفوس الكبيرة التي تحتمل أوجاع الحياة بسكينة ، وبسكينة تلتقي بأفراحها .

أنت تهمسين في أذن الورد أسراراً غريبة تفهم مفادها ، فتضطرب تارة ، وطوراً تبتسم ، وهكذا تفعل الآلهة بأرواح البشر .

أنت تبطين هنا ، وتتسارعين هناك ، وتتراكضين هنالك ، ولكنك لا تقفين أبداً ، وهكذا تفعل فكرة الإنسان التي تحيا بالحركة وتموت بالسبات .

أنت تكتبين على وجه البحيرة أشعاراً ثم تمحينها ، وهكذا يفعل الشعراء المترددون .
من الجنوب تحيين حارة كالمحبة ، ومن الشمال تأتين باردة كالموت ، ومن الشرق لطيفة كملامس الأرواح ، ومن المغرب تتدفقين شديدة كالبغضاء ، أمتقلبة أنت كالدهر؟ أم أنت رسول الجهات تبلغين إلينا من تأمنك عليه؟

تمرين غاضبة في الصحاري فتدوسين القوافل بقساوة ثم تلحدينها بلحف الرمال ، فهل أنت أنت ذلك السيل الخفي ، المتموج مع أشعة الفجر بين أوراق الغصون ، المنسل كالأحلام في منعطفات الأودية حيث تتمايل الأزهار شغفاً بك وتتخاصر الأعشاب سكرًا من أنفاسك؟

تثورين ظلمًا في البحار فتحركين ساكن أعماقها ، حتى إذا أزيدت حنقًا عليك فتحت فاهها لجة ولقمتها من السفن الأرواح لقماً مرة ، فهل أنت ذلك المحب المتلاعب حنواً بغدائر الأطفال المتراكضين حول المنازل؟

إلى أين تتسارعين بأرواحنا وتنهداتنا وأنفاسنا؟ إلى أين تحملين رسوم ابتساماتنا؟ وماذا تفعلين بشعلات قلوبنا المتطائرة؟ هل تذهبين بها إلى ما وراء الشفق ، إلى ما وراء هذه الحياة؟ أم تجرينها فريسة إلى المغاور البعيدة والكهوف المخيفة وهناك تقذفينها يميناً وشمالاً حتى تضمحل وتختفي؟

في سكينة الليل تبيع لك القلوب أسرارها ، وعند الفجر تحملك العيون اهتزازات أجفانها ، فهل أنت ذاكرة ما شعرت به القلوب وما رأته العيون؟

بين جنحيك يستودع الفقير صدى انسحاقه ، واليتيم حرقة ، والحزينة تأوهاتما ، وطي
أثوابك يضع الغريب حنينه ، والمتروك لهفته ، والساقطة عويل نفسها ، فهل أنت حافظة
لهؤلاء الصغار ودائعهم؟ أم أنت كهذه الأرض لا نودعها شيئاً إلا وتحوله إلى جسمها؟
أسمعة أنت هذا النداء ، هذا العويل ، وهذا الضجيج ، وهذا البكاء؟ أم أنت كالأقوياء
من البشر تمتد إليهم الأكف فلا يلتفون ، وتتصاعد نحوهم الأصوات فلا يسمعون؟
أسامعة أنت يا حياة للسامع؟



رجوع الحبيب

ما جاء الليل حتى انهزم الأعداء وفي ظهورهم تخديش السيوف ووخز الرماح ، فعاد الظافرون حاملين ألوية الفخر ، منشدین أهازیج النصر على توقيع حوافر خيولهم المتساقطة كالمطارق على حصباء الوادي .

أشرفوا على الجبهة وقد طلع القمر من وراء فم الميزاب ، فظهرت تلك الصخور الباسقة متشاخمة مع نفوس القوم نحو العلاء وبانت غابة الأرز بين تلك البطاح كأنها وسام مجد أثيل علقتة الأجيال الغابرة على صدر لبنان .

ظلوا سائرين وأشعة القمر تتلمع على أسلحتهم ، والكهوف البعيدة تتقلد تهاليلهم ، حتى إذا ما بلغوا جبهة العقبة أوقفهم سهيل فرس واقف بين الصخور الرمادية كأنه قد منها ، فاقربوا منه مستطلعين ، وإذا بجثة هامدة مرمية على أديم التراب المجبول بنجيع الدماء ، فصرخ زعيم القوم قائلاً : أروني سيف الرجل فأعرف صاحبه ، فترجل بعض الفرسان وأحاطوا بالمصروع مستفسرين ، وبعد هنيهة التفت أحدهم نحو الزعيم وقال بصوت أجش : قد عانقت أصابعه الباردة قبضة السيف بشدة ، فمن العار أن ننزعه .

وقال آخر : قد لبس السيف غمداً من الدماء فاخفى فولاذه .

وقال آخر : قد تجمدت الدماء على الكف والقبضة وأوثقت الشفرة بالزند وصيرتها واحداً . فترجل الزعيم واقترب من القتيل قائلاً : أسندوا رأسه ودعوا أشعة القمر ترينا وجهه ، ففعلوا مسرعين ، وبان وجه القتيل من وراء نقاب الموت ظاهرة عليه ملامح البطش والبأس والتجلد ، وجه فارس قوي يتكلم بلا نطق من شدة رجوليته ، وجه متأسف فارع ، وجه من لاقى العدو عابساً وقابل الموت مبتسماً ، وجه بطل لبناني حضر موقعة ذلك النهار ورأى طلائع الاستظهار لكنه لم يبق لينشد مع رفقاءه أهازیج النصر ،

ولما أزاحوا كوفيته ومسحوا غبار المعمة عن وجهه المصفر زعر الزعيم وصرخ متوجعاً : هذا ابن الصعبي ، فيا للخسارة! فردد القوم هذا الاسم متأوهين ، ثم سكتوا كأن قلوبهم السكري بخمر النصر قد فاجأها الصحو ، فرأت أن خسارة هذا البطل هي أجسم من مجد التغلب وعز الانتصار ، ومثل تماثيل الرخام أوقفهم هول المشهد وأيبس ألسنتهم فسكتوا ، وهذا كل ما يفعله الموت في نفوس الأبطال ، فالبكاء والنحيب حريان بالنساء ، والعويل والصراخ خليقان بالأطفال ، ولا يجمل برجال السيف غير السكوت المملوء هيبة ووقاراً ، ذلك السكوت الذي يقبض على القلوب القوية مثلما تقبض مخالب النسر- على عنق الفريسة ، ذلك السكوت الذي يترفع عن الدموع والعويل فيزيد بترفعه البلية هولاً وقساوة ، ذلك السكوت الذي هبط بالنفس الكبيرة من قمم الجبال إلا أعماق اللجج ، ذلك السكوت الذي يعلن مجيء العاصفة ، وإن لم تجيء كان هو أشد فعلاً منها .

خلعوا أثواب الفتى المصروع ليروا أين وضع الموت يده ، فبانت كلوم الشفار في صدره كأنها أفواه مزبدة تتكلم في هدوء ذلك الليل عن همم الرجال ، فاقترب الزعيم وجثا مستفحصاً فوجد دون سواه منديلاً مطرزاً بخيوط الذهب مربوطاً حول زنده ، فتأمله سرّاً وعرف اليد التي غزلت حريره والأصابع التي حاكت خيوطه ، فستره بالأثواب وتراجع قليلاً إلى الوراء حاجباً وجهه المنقبض بيده المرتعشة ، تلك اليد التي كانت تزيج بعزمها رؤوس الأعداء قد ضعفت وارتجفت وصارت تمسح الدموع ، لأنها لامست حواشي منديل عقدت أطرافه محبوبة حول زند فتى جاء ليشهد يوم الكريهة مدفوعاً ببسالته فصرع وسوف يرجع إليها محمولاً على أكف رفاقه .

وبينما كانت نفس الزعيم تراوح بين مظالم الموت وخفايا الحبّ قال أحد الواقفين : تعالوا نحفر له قبرًا تحت تلك السنديانة ، فتشرب أصولها من دمه وتتغذى فروعها من بقاياها ، فتزداد قوة وتصير خالدة وتكون له رمزًا يمثل لهذه الطلول بطشه وبأسه .

فقال آخر : لنحمله إلى غابة الأرز ونقبره بقرب الكنيسة ، فتظل عظامه مخفورة بظل الصليب إلى الدهر .

وقال آخر : هنا اقبروه ، هنا ، حيث جُبل التراب بدمائه ، واتركوا سيفه في يمينه ، واغرسوا رمحه بجانبه ، وانحروا حصانه على قبره ، ودعوا أسلحته تؤنسه في هذه الوحدة .

وقال آخر : لا تلحدوا سيفًا مضرّجًا بدم الأعداء ، ولا تنحروا مهراً يخوض المنايا ، ولا تتركوا في الوعر سلاحًا تعود هز الأكف وعزم السواعد ، بل احملوها إلى ذويه لأنها خير ميراث .

وقال آخر : تعالوا نجثو مصلين حواليه صلاة الناصري ، فتغفر له السماء وتبارك انتصارنا .

وقال آخر : لنرفعه على الأكتاف جاعلين له الرماح والتروس نعشًا فنطوف به في هذا الوادي منشدين أهازيج النصر فيشهد أشلاء الأعداء وتبتسم شفاه جراحه قبل أن يخرسها تراب القبر .

وقال آخر : تعالوا نُعليه سرج جواده ونسند به جماجم القتلى ونقلده رمحه وندخله الأحياء ظافرًا ، فهو لم يستسلم للمنية إلا بعد أن حملها من أرواح الأعداء حملًا ثقيلاً .

وقال آخر : تعالوا نودعه لحف هذا الجبل ، فيكون له صدى الكهوف نديًا ، وخرير السواقي مؤنسًا ، فترتاح عظامه في برية يكون فيها وقع أقدام الليالي خفيف الوطأة .

وقال آخر : لا تغادروه ههنا ، ففي البرية وحشة مملة ووحدة قاسية ، بل تعالوا ننقله إلى جبّانة القرية ، فيكون له من أرواح جدودنا رفاق تناجيه في سكينة الليل وتقص عليه أخبار حروبهم وأحاديث أمجادهم .

فتقدم الزعيم إذ ذاك إلى وسط رجاله وأسكتهم بإشارة ، ثم قال متنهّداً : لا ترعجوه بذكرى الحروب ، ولا تعيدوا على مسامع روحه الحائمة فوق رؤوسنا أخبار السيوف والرماح ، بل تعالوا نحمله بسكينة وهدوء إلى مسقط رأسه ، ففي ذلك الحي نفس ساهرة تترقب قدومه ، نفس صبية تنتظر رجوعه من بين الأسنة ، فلنعدّه إليها كيلا تحرم نظرة من وجهه وقبله من جبينه .

حملوه على المناكب مطأطي الرؤوس ، خاشعي العيون ، ومشوا بسكينة مخزنة يتبعهم فرسه الكئيب يجر مقوده على الأرض ويصهل من وقت إلى آخر ، فتجيبه الكهوف بصداها ، كأن للكهوف أفئدة تشعر مع البهيمة بشدة الضيم والأسى .
بين أضلع ذلك الوادي ، حيث أشعة القمر تسترق خطواتها ، سار موكب النصر- وراء موكب الموت وقد مشى أمامهما طيف الحبّ ساحباً أجنحته المكسورة .



جمال الموت

مرفوعة إلى M.E.H

دعوني أنم ، فقد سكرت نفسي بالمحبة .
دعوني أرقد ، فقد شبت روحى من الأيام والليالي .
أشعلوا الشموع وأوقدوا المبخار حول مضجعي ، وانثروا أوراق الورد والنرجس على
جسدي ، وغفروا بالمسك المسحوق شعري ، وأهرقوا الطيوب على قدمي ، ثم انظرو
واقراءوا ما تخطه يد الموت على جبهتي .
خلوني غارقاً بين ذراعي الكرى فقد تعبت أجفاني من هذه اليقظة .
اضربوا على القيثارات ودعوا رنات أوتارها الفضية تتمايل في مسامعي .
انفخوا الشبابات والنايات وحيكوا من أنغامها نقاباً حول قلبي المتسارع نحو الوقوف .
ترنموا بالأغاني الرهاوية وابسطوا من معانيها السحرية فراشا لعواطفي ثم تأملوا
وانظروا شعاع الأمل في عيني .
امسحوا الدموع يا رفاقي ثم ارفعوا رؤوسكم مثلما ترفع الأزهار تيجانها عند قدوم
الفجر وانظروا عروسة الموت منتصبة كعمود النور بين مضجعي والفضاء ... امسكوا
أنفاسكم وأصغوا هنيهة واسمعوا معي حفيف أجنحتها البيضاء .
تعالوا ودعوني يا بني أُمي ! قبلوا جبهتي بشفاه مبتسمة ، قبلوا شفتي بأجفانكم وقبلوا
أجفاني بشفاهكم . قربوا الأطفال إلى فراشي ودعوهم يلامسوا عنقي بأصابعهم الوردية
الناعمة ، قربوا الشيوخ ليباركوا جبهتي بأيديهم الذابلة المتجمدة ، دعوا بنات الحي يقتربن
وينظرن خيال الله في عيني ويسمعن صدى نغمة الأبدية متسارعة مع أنفاسي .

ها قد بلغت قمة الجبل فسبحت روعي في فضاء الحرية والانعتاق .

قد صرت بعيداً بعيداً يا بني أُمي ، فأنحجبت عن بصيرتي جبهات الطلول وراء الضباب ،
وغمرت خلالي الأودية ببحر السكون ، وامحت السبل والممرات بأكف النسيان ، وتوارت المروج
والغابات والعقبات وراء أشباح بيضاء كغيوم الربى ، وصفراء كشعاع الشمس ، وحمراء كوشاح
المساء .

قد تضعضعت أغاني أمواج البحر ، واضمحلت ترنيمة السواقي في الحقول ، وسكنت
الأصوات المتصاعدة من جوانب الاجتماع ، فلم أعد أسمع سوى أنشودة الخلود متآلفة مع ميول
الروح .

الراحة

اخلعوا نسيج الكتان عن جسدي وكفنوني بأوراق الفل والزنبق .

انتشلوا بقاياي من تابوت العاج ومددوها على وسائد من زهر البرتقال والليمون ، لا
تدبوني يا بني أُمي ، بل انشدوا أغنية الشباب والغبطة ، لا تذرفي الدموع يا ابنة الحقول ، بل
ترنمي بموشحات أيام الحصاد والعصير .

لا تغمروا صدري بالتأوه والتنهد ، بل ارسموا عليه بأصابعكم رمز المحبة ووسم الفرح .

لا تزعجوا راحة الأثير بالتعزيم والتكهن ، بل دعوا قلوبكم تتهلل معي بتسيحة البقاء
والخلود .

لا تلبسوا السواد حزناً علي ، بل تردوا البياض فرحاً معي .
ولا تتكلموا عن ذهابي بالغصات ، بل اغمضوا عيونكم تروني بينكم الآن وغداً وبعده .
مددوني على أغصان مورقة وارفعوني على الأكتاف وسيروا بي ببطء إلى البرية الخالية .
لا تحملوني إلى الجبانة ، لأن الزحام يزعج راحتي ، وقضضة العظام والجهاجم تسلب
سكينة رقادي .
احملوني إلى غابة السرو واحفروا لي قبراً في تلك البقعة حيث ينبت البنفسج بجوار
الشقيق .
احفروا قبراً عميقاً كيلا تجرف السيول عظامي إلى الوادي .
احفروا قبراً واسعاً لكي تحيي أشباح الليل وتجلس بجانبني .
اخلعوا هذه الأثواب ودلوني عارياً إلى قلب الأرض ، مددوني ببطء وهدوء على صدر أُمي .
اغمروني بالتراب الناعم وألقوا مع كل حفنة قبضة من بذور السوسان والياسمين والنسرین
فتنبت على قبري ممتصة عناصر جسدي ، وتنمو ناشرة في الهواء رائحة قلبي ، وتتعالى رافعة في
وجه الشمس سرائر راحتي ، وتتمايل مع النسيم مذكرة عابر الطريق بماضي ميولي وأحلامي .
اتركوني الآن يا بني أُمي ، اتركوني وحدي وسيروا بأقدام خرساء مثلما تسير السكينة في
الأودية الخالية .

دعوني وحدي وتفرقوا عني بهدوء مثلما تتفرق أزاهر اللوز والتفاح عندما تنثرها أنفاس
نيسان .

ارجعوا إلى منازلكم فتجدوا هناك ما لم يستطع الموت أن يأخذه مني ومنكم .
اتركوا هذا المكان ، فالذي تطلبونه صار بعيداً ، بعيداً عن هذا العالم .



أغاني

أغنية

في أعماق نفسي لا ترتضي الألفاظ ثوبًا ، أغنية تقطن حبة قلبي ، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على الورق ، وتحيط بعواطفي كغلاف شفاف ، فلن تنسكب على لساني كالرضاب .

كيف أنتهدا وأنا أخاف عليها من دقائق الأثير؟ ولمن أنشدها وقد تعودت سكنى بيت نفسي فأخشى عليها من خشونة الآذان؟

إن نظرت إلى عيني رأيت خيال خيالها ، وإن لمست أطراف أصابعي شعرت باهتزازتها .
أعمال يدي تبينها مثلما تعكس لمعان النجم ، ودموعي تبيحها كما تبيح قطرات الندى سر زهرة الورد عندما تبعثرها الحرارة .

أغنية تنشرها السكينة ويطويها الضجيج وترددها الأحلام وتخفيها اليقظة .

هي أغنية الحب أيها الناس ، فأني اسحق ينشدها بل أي داود يرتلها؟

هي أعبق من أنفاس زهرة الياسمين ، فأية حنجرة تستعبدتها؟ وأصوّن من سر العذارى ،
فأية أوتار تستبيحها؟ من يجمع بين قواصف البحر وتغريدة البلبل ويقرن العواصف بتنهدة الطفل؟ أي بشري ينشد أغنية الآلهة؟

أغنية الموج

أنا والشاطئ عاشقان يقربهما الهوى ويفصلهما الهواء ، أجيء من وراء الشفق الأزرق كيما أمزج فضة زبدي بذهب رماله ، وأبرد حرارة قلبه برضابي .

عند الفجر أتلو شرع الغرام على مسامع حبيبي ، فيضمنني إلى صدره ، وفي المساء أترنم بصلاة الشوق فيقبلني .

أنا لجوج جزوع وحببي حليف صَبْر وأليف تجلد .

يأتي المد فأعانق حبيبي ، ويعقبه الجزر فأترامى على أقدامه .

كم رقصت حول بنات البحر عندما كن يطلعن من الأعماق ويجلسن على الصخور
ليتفرجن على النجوم ، وكم سمعت المحب يشكو الغرام لذات حُسْنٍ فساعدته على التأوه
والتنهد ، وكم نادمت الصخور وهي جامدة وداعبتها ضاحكًا ولم تبتسم .

وكم خلصت من اللجة أجسادًا وجئت بها إلى الأحياء ، وكم سرقت من الأعماق درًا
أهديته إلى ربات الجمال !

في سكينة الليل عندما تعانق المخلوقات طيف الكرى أسهر مترنمًا تارة ، متنهدًا أخرى ،
ويحي ! لقد أتلفني السهر ، ولكن أنا محب وحقيقة الحب يقظة .

هذه حياتي وذا ما عشت أصنعه .

أغنية المطر

أنا خيوط فضية تطرحني الآلهة من الأعالي فتأخذني الطبيعة وتنمق بي الأودية .

أنا لآلئ جميلة نثرت من تاج عشتروت فسرقتني ابنة الصباح ورصعت بي الحقول .

أنا أبكي فتبتسم الطلول ، وأتضع فترتفع الأزهار .

الغيمة والحقل عاشقان وأنا بينهما رسول مسعف أنهمل فأبرد غليل هذا واشفي علة تلك .

صوت الرعد وأسياف البرق تبشر بقدومي ، وقوس قزح يعلن نهاية سفرتي ، كذا الحياة الدنيا تبتدىء بين أقدام المادة الغضبي وتنتهي على أكف الموت الهادىء .

أصعد من قلب البحيرة وأسير على أجنحة الأثير ، حتى إذا ما رأيت روضة جميلة سقطت وقبلت ثغور أزهارها وعائقت أغصانها .

في السكينة أطرق بأناملي اللطيفة بلور النوافذ فتؤلف تلك الطرقات نغمة تفقهها النفوس الحساسة .

حرارة الهواء تولدني وأنا اقتل حرارة الهواء ، كذا المرأة التي تتغلب على الرجل بقوة استمدتها من الرجل .

أنا تنهدة البحر ، أنا دمعة السماء ، أنا ابتسامة الحقل ، كذا الحبّ تنهدة من بحر العواطف ودمعة من سماء التفكير وابتسامة من حقل النفس .

أغنية الجمال

أنا دليل الحبّ ، أنا خمرة النفس ، أنا مأكّل القلب ، أنا وردة أفتح قلبي عند فتوة النهار فتأخذني الصبية وتقبلني وتضعني على صدرها .

أنا بيت السعادة ، أنا مصدر الفرح ، أنا مبدأ الراحة ، أنا ابتسامة لطيفة على شفتي غادة ، يراني الشاب فينسى أتعابه وتصير حياته مسرح أحلام لذينة .

أنا موحى الشعراء وهادي المصورين ومعلّم الموسيقيين .
أنا نظرة في عين طفل تراها الأم الحنون فتسجد وتصلي وتمجّد الله .
تجلّيت لأدم بجسم حواء فاستعبدته ، وظهرت لسليمان في قدّ حبيبته فصيرته حكيمًا شاعرًا .
ابتسمت لهيلانة فخربت طروادة ، وتوجت كليوباترا فعم الأنس وادي النيل .
أنا كالدهر أبني اليوم وأهدم غدًا ، أنا الله أحي وأميت .
أنا أرق من تنهدة زهرة البنفسج ، أنا أشد من العاصفة .
أنا حقيقة أيها الناس ، أنا حقيقة وهذا خير ما تعلمونه .

أغنية السعادة

الإنسان حبيبي وأنا حبيبته ، أشتاق إليه ويهيم بي ، ولكن ، أواه! لي في محبته شريكة
تشقيني وتعذبه ، وضرة طاغية تدعى المادة تتبعنا حيث نذهب ، وتفرقنا كالرقيب .
أطلب حبيبي في البرية تحت الأشجار وبقرب البحيرات فلا أجده ، لأن المادة قد غرته
وذهبت به إلى المدينة ، إلى الاجتماع والفساد والشقاء .
أطلبه في معاهد المعرفة وفي هياكل الحكمة فلا أجده ، لأن المادة ، تلك التي ترتدي
التراب ، قد قادتني إلى معادل الأناية حيث يقطن الانهباك .
أطلبه في حقل القناعة فلا أجده ، لأن عدوتي قد قيدته في مغاور الطمع والشراسة .
أنادي به عند الفجر عندما يبتسم المشرق ، فلا يسمعني ، لأن كرى الاستمساك قد أثقل عينيه ،
أداعبه في المساء إذ تسود السكينة وتنام الأزهار ، فلا يحفل بي ، لأن انشغافه بمآتي الغد
يشغل ضميره .

حبيبي يحبني ، يطلبني في أعماله وهو لن يجدني إلا في أعمال الله ، يروم وصالي في صرح
المجد الذي بناه على جماجم الضعفاء وبين الذهب والفضة وأنا لا أوافيه إلا في بيت البساطة
الذي بنته الآلهة على ضفة جدول العواطف ، يريد تقبيلي أمام الطغاة والقتلة وأنا لا أدعه
يلثم ثغري إلا في الوحدة بين أزهار الطهر ، يتغني الحيلة وسيطاً بيننا ولا أطلب وسيطاً إلا
العمل المنزه ، العمل الجميل .

قد تعلّم حبيبي الصراخ والضجيج من عدوتي المادة وأنا سوف أعلمه أن يذرف دمعة
استعطاف من عين نفسه ويتنهد تنهدة استكفاء ، حبيبي لي وأنا له .

أنشودة الزهرة

أنا كلمة تقولها الطبيعة ثم تستردها وتخفيها طي قلبها ثم تقولها ، أنا نجم هبط من الخيمة
الزرقاء على بساط أخضر .

أنا ابنة العناصر التي حبل بها الشتاء وتمخض بها الربيع وربّاه الصيف ونوّمها الخريف .
أنا هديّة المحبين ، أنا إكليل العرس ، أنا آخر عطية من حي إلى ميت .

عند الصباح أتعاون والنسيم على إعلان مجيء النور ، وفي المساء أشارك مع الطيور
بوداعه .

أتمايل في السهول فأزيناها ، وأتنفس في الهواء فأعطره ، أضمّ الكرى فترمقني عيون الليل
العديدة ، وأطلب اليقظة لأحدق بعين النهار الوحيدة .

أنا أشرب خمرة الندى وأسمع أغاني الشحارير وأرقص على تصفيق الأعشاب ، أنا أنظر
إلى العلو دائماً كي أرى النور ولا أرى خيالي ، وهذه حكمة لم يتعلمها الإنسان بعد .



نشيد الإنسان

﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 28] .

أنا كنت منذ الأزل ، وها أنا ذا ، وسأكون إلى آخر الدهر ، وليس لكياني انقضاء .

سبحت في فضاء اللانهاية ، وطرت في عالم الخيال ، واقتربت من دائرة النور الأعلى ، وما أنا الآن سجين المادة .

سمعت تعاليم كنفوشيوس ، وأصغيت لحكمة برهما ، وجلست بقرب بوذا تحت شجرة المعرفة ، وها أنا الآن أغالب الجهل والجحود ، كنت على الطور إذ تجلى « يهوه » لموسى ، وفي عبر الأردن فرأيت معجزات الناصري ، وفي المدينة فسمعت أقوال رسول العرب ، وها أنا الآن أسير الحيرة ، شاهدت قوة بابل ، ومجد مصر ، وعظمة اليونان ، ولم أزل أرى الضعف والذل والصغر بادية في جميع تلك الأعمال ، جالست سحرة عين دور ، وكهنة آشور ، وأنبياء فلسطين ، وما برحت أنشد الحقيقة ، حفظت الحكمة التي نزلت على الهند ، واستظهرت الشعر المنبثق من قلوب سكّان جزيرة العرب ، ووعيت الموسيقى المتجسمة من عواطف أهل المغرب ، وما زلت أعمى لا أرى ، وأصم لا أسمع ، احتملت قساوة الفاتحين الطامعين ، وقاسيت ظلم الحكام المستبدين وعبودية الأقوياء الباغين ، وما برحت ذا قوة أكافح بها الأيام .

شاهدت وسمعت كلّ ذلك وأنا طفل ، ولسوف أشاهد أعمال الشيبية ومآتيها ، ولسوف أشيخ وأبلغ الكمال وأرجع إلى الله .

أنا كنت منذ الأزل ، وها أنا ذا ، وسأكون إلى آخر الدهر ، وليس لكياني انقضاء .



صوت الشاعر

- 1 -

القوة تزرع في أعماق قلبي وأنا أحصد وأجمع السنبال وأعطيها أغماراً للجائعين ، الروح يحيي هذه الجفنة الصغيرة وأنا أعمر عناقيدها وأسقيها للظامئين ، السماء تملأ هذا السراج زيتاً وأنا أنيره وأضعه في نافذة بيتي من أجل العابرين في ظلمة الليل ، أنا فاعل هذه الأشياء ، لأنني أحيا بها ، وإذا منعني الأيام وغلت يدي الليالي طلبت الموت ، فالموت أخلق بنبي منبوذ في أمته وشاعر غريب بين أهله .

البشر يضجون كالعاصفة وأنا أتنهد بسكينة ، لأنني وجدت عنف العاصفة يزول وتبتلعه لجة الدهر أما التنهدة فتبقى ببقاء الله .

البشر يلتصقون بالمادة الباردة كالثلج وأنا أطلب شعلة المحبة لأضمها إلى صدري فتأكل ضلوعي وتبري أحشائي ، لأنني ألفت المادة تमित الإنسان بلا ألم ، والمحبة تحييه بالأوجاع .

البشر ينقسمون إلى طواف وعشائر ويتمون إلى بلاد وأصقاع ، وأنا أرى ذاتي غريباً في بلد واحد ، وخارجاً عن أمة واحدة ، فالأرض كلها وطني والعائلة البشرية عشيرتي ، لأنني وجدت الإنسان ضعيفاً ومن الصغر أن ينقسم على ذاته ، والأرض ضيقة ومن الجهل أن تتجزأ إلى ممالك وإمارات .

البشر يتكاتفون على هدم هياكل الروح ويتعاونون على بناء معاهد الجسد ، وأنا وحدي واقف في موقف الرثاء ، على أنني أصغي فأسمع من داخلي صوت الأمل قائلاً : مثلما تحيي المحبة القلب البشري بالأوجاع كذا تعلمه الغباوة سبل المعرفة ، فالأوجاع والغباوة تؤول إلى لذة عظيمة ومعرفة كاملة ، لأن الحكمة السرمدية لم تخلق شيئاً باطلاً تحت الشمس .

أحن إلى بلادي لجمالها وأحب سكّان بلادي لتعاستهم ، ولكن إذا ما هب قومي مدفوعين بما يدعونه وطنية وزحفوا على وطن قريبي وسلبوا وقتلوا رجاله ويتموا أطفاله ورملوا نساءه وسقوا أرضه دماء بنيه وأشبعوا ضواريه لحوم فتiane ، كرهت إذ ذاك بلادي وسكّان بلادي .

أتشعب بذكر مسقط رأسي وأشتاق إلى بيت ربيت فيه ، ولكن إذا مر عابر طريق وطلب مأوى في ذلك البيت وقوئاً من سكانه ومُنِع مطروداً استبدلت تشيبي بالثناء وشوقي بالسلو وقلت بذاتي : إنّ البيت الذي يضمن بالخبز على محتاجه ، وبالفراش على طالبه ، هو أحق البيوت بالهدم والخراب .

أحب مسقط رأسي ببعض محبتي لبلادي ، وأحب بلادي بقسم من محبتي لأرض وطني ، وأحب الأرض بكليتي لأنها مرتع الإنسانية روح الألوهية على الأرض ، الإنسانية المقدسة روح الألوهية على الأرض ، تلك الإنسانية الواقفة بين الخرائب ، الساترة قامتها العارية بالأطمار البالية ، الذارفة الدموع السخينة على وجتيها الذابلتين ، المناذية أبناءها بصوت يملأ الأثير أنّّه وعويلاً وأبناؤها مشغولون عن ندائها بأغاني العصبية ، منصرفون عن دموعها بصقل السيوف ، تلك الإنسانية الجالسة وحدها تستغيث بالقوم وهم لا يسمعون ، وإن سمعها فرد واقترب منها ومسح دموعها وعزاها في شدائدّها قال القوم : اتركوه فالدموع لا تؤثر بغير الضعيف .

الإنسانية روح الألوهية على الأرض ، تلك الألوهية السائرة بين الأمم ، المتكلمة بالمحبة ، المشيرة إلى سبل الحياة والناس يضحكون مستهزئين بأقوالها وتعاليمها ، تلك التي سمعها بالأمس الناصري فصلبوه وسقراط فسمموه ، والتي سمعها اليوم القائلون بالناصري وسقراط وجاهروا باسمها أمام الناس والناس لا يقدرّون على قتلهم لكنهم يسخرون بهم قائلين : السخرية أقسى من القتل وأمرّ .

ولم تقوَ أورشليم على قتل الناصري ، فهو حي إلى الأبد ، ولا آثينا على إعدام سقراط ، فهو حي إلى الأبد ، ولن تقوى السخرية على سامعي الإنسانية وتابعي أقدام الألوهية ، فيسيحون إلى الأبد ، إلى الأبد .

أنت أخي وكلانا ابن روح واحد قدوس كلي ، وأنت مماثلي لأننا سجيننا جسدين جبلا من طينة واحدة ، وأنت رفيقي على طريق الحياة ومسعفي في إدراك كنه الحقيقة المستترة وراء الغيوم ، أنت إنسان وقد أحببتك يا أخي .

قل عني ما شئت ، فالغد يقضي- عليك ويكون قولك قرينة ظاهرة أمام حكمه وبينه صائبة لدى عدله .

خذ مني ما شئت ، فلست بسالب غير مال لك الحق بقسم منه ، وعقار استأثرت به لمطامعي ، فأنت خليق ببعضه إن كان يرضيك بعضه .

افعل بي ما تشاء فلست بقادر على مسّ حقيقتي ، اهرق دمي وأحرق جسدي فلن تؤلم نفسي ولن تميتها ، كبل يدي ورجلي بالقيود وانزل بي إلى ظلمة السجون ، فإنك لا تقوى على أسر فكري ، لأنها حرة كالنسيم السائر في فضاء لا حد له ولا مدى .

أنت أخي وأنا أحبك .

أحبك ساجداً في جامعك وراكعاً في هيكلك ومصلياً في كنيستك ، فأنت وأنا ابنا دين واحد هو الروح ، وزعماء فروع هذا الدين أصابع ملتصقة في يد الألوهية المشيرة إلى كمال النفس .

أحبك لمحبة حقيقتك المنبثقة من العقل العام ، تلك الحقيقة التي لا أراها الآن لعمאوتي ،
لكني أعتبرها مقدسة لأنها من أعمال النفس ، تلك الحقيقة التي ستلتقي بحقيقتي في العالم
الآتي فتمتزجان كأنفاس الأزهار وتصيران حقيقة واحدة كلية خالدة بخلود الحب والجمال .

أحبك لأنني رأيتك ضعيفاً أمام الأقوياء القساة وفقيراً محتاجاً أمام صروح الأغنياء الطامعين
، لذلك بكيت من أجلك ، ومن وراء دموعي رأيتك بين ذراعي العدل وهو يتسم لك
ويستهزئ بمضطهديك أنت أخي وأنا أحبّك .

أنت أخي وأنا أحبك ، لماذا إذن تخاصمني ؟

لماذا تأتي بلادي وتحاول إخضاعني إرضاء لأئمة يطلبون المجد بقولك والمسرة بمتاعبك ؟
لماذا تترك رفيقتك وصغارك متبعًا الموت إلى أرض بعيدة من أجل قواد يبتغون ابتياع المعالي
بدمائك والشرف الرفيع بأحزان والدتك ؟ ولكن أمن الشرف الرفيع أن يصرع الإنسان
أخاه ؟ لنرفعن إذن تمثالًا لقائين مترنمين بمديح حانان .

يقولون يا أخي إن المحافظة على الذات قاعدة طبيعية أولية ، ولكنني رأيت الطامعين بالتميز
يحبون إليك بذل الذات توصلًا إلى امتلاك رقاب إخوانك ، ويقولون إن حب البقاء يوجب
الاعتداء على حقوق الغير ، وأنا أقول : إن المحافظة على حقوق الغير هي أشرف وأجمل مآتي
الإنسان ، وأقول أيضًا : إن كان بقائي يوجب فناء سواي فالموت إذن ألد لدي وأحب ، وإن لم
أجد من يقتلني شريفًا ومحبًا ومنزهاً تمتعت بتقديم ذاتي بيدي إلى الأبدية قبل أوان الأبدية .

الأنانية يا أخي أوجدت التنافس الأعمى ، والتنافس ولد العصبية ، والعصبية وضعت
السلطة وكانت هذه داعيًا للمنازعات والاستعباد ، النفس تقول بسلطة الحكمة والعدالة
على الجهالة والظلم ، ولكنها تنكر تلك السلطة التي تستل من المعادن قواضب وبواتر
لتعميم الجهالة والمظالم ، تلك السلطة التي هدمت بابل وقوضت أركان أورشليم ودكت
مباني رومية ، تلك التي أوجدت سفاكي الدماء والقتلة الذين ينعتهم الناس بالعظماء
والكتاب تجل أسماءهم والكتب لا تأبى حفظ معاركهم في بطونها ، كما أن الأرض لم تأب
حملهم على ظهرها حينما كانوا يخضبون محياها بالدماء الزكية ... فما أغراك يا أخي بما يغرك
وألهجك بمن يضرك ! السلطة الحقيقية هي الحكمة المحافظة على الشريعة الطبيعية العامة
العادلة .

فأين عدالة السلطة إذا قتلت القاتل وسجنت الناهب ثم زحفت بذاتها إلى بلاد مجاورة
وقتلت ألوف ونهبت الربوات؟ ما قول العصبيين بقتلة يعاقبون من يقتل ولصوص تجازي
من يسلب؟

أنت أخي وأنا أحبك ، والمحبة هي العدل بأسمى ظواهره ، فإن لم أكن عادلاً بمحبتتي
لك في كلّ المواطن كنت مراوغاً ساتراً بشاعة الأنانية بثوب المحبة البهي .



خاتمة

لي من نفسي صديق يعزيني إذا ما اشتدت خطوب الأيام ويؤانسني عندما تلم مصائب الحياة ، ومن لم يكن صديقاً لنفسه كان عدو الناس ، ومن لم ير مؤنساً من ذاته مات قانطاً لأن الحياة تنبت من داخل الإنسان ولن تجيء مما يحبك به .

جئت لأقول كلمة وسأقولها ، وإذا أرجعني الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد ، فالغد لا يترك سرّاً مكنوناً في كتاب اللانهاية .

جئت لأحيا بمجد المحبة ونور الجمال ، وهاءنذا حيّ والناس لا يستطيعون إبعادي عن حياتي ، إن سَمَلُوا عينيّ تمتعت بالإصغاء لأغاني المحبة وألحان الجمال ، وإن حجبوني عن الهواء عشت ونفسي ، فالنفس ابنة الحبّ والجمال .

جئت لأكون للكل وبالكل ، والذي أفعله اليوم في وحدتي يعلنه المستقبل أمام الناس ، والذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة .



المواكب

(نشرت عام 1919)

المواكب

الْخَيْرُ فِي النَّاسِ مَصْنُوعٌ إِذَا جُبرُوا
وَأَكْثَرُ النَّاسِ آلاَتُ تُحَرِّكُهَا
فَلَا تَقُولَنَّ هَذَا عَالِمٌ عَلِمَ
فَأَفْضَلُ النَّاسِ قِطْعَانٌ يَسِيرُ بِهَا
لَيْسَ فِي الْغَابِياتِ رَاحٍ
فَالنَّاسُ تَائِمِشِي وَلَكِنْ
خُلِقَ النَّاسُ عَبِيدًا
فَإِذَا مَا هَبَّ يَوْمًا
أَعْطَنِي النَّبَايَ وَغَنَنْ
وَأَنْبَيْنُ النَّبَايَ أَبْقَى

وَمَا الْحَيَاةُ سِوَى نَوْمٍ تُرَاوِدُهُ
وَالسُّرُوفُ فِي النَّفْسِ حَزْنُ النَّفْسِ يَسْتَرْهُ
وَالسُّرُوفُ فِي الْعَيْشِ رَغْدُ الْعَيْشِ يَحْجِبُهُ
فَإِنْ تَرَفَعْتَ عَنْ رَغْدٍ وَعَنْ كَدَرٍ
لَيْسَ فِي الْغَابِياتِ حَزْنٌ
فَإِذَا مَا هَبَّ نَسِيمٌ
لَيْسَ حَزْنُ النَّفْسِ إِلَّا
وَعِوَمُ النَّفْسِ تَبَدُّدُ
أَعْطَنِي النَّبَايَ وَغَنَنْ
وَأَنْبَيْنُ النَّبَايَ يَبْقَى

أَحْلَامُ مَنْ بِمَرَادِ النَّفْسِ يَأْتُرُ
فَإِنْ تَوَلَّى فَبِالْأَفْرَاحِ يَسْتَتِرُ
فَإِنْ أُزِيلَ تَوَلَّى حُجْبَهُ الْكَدَرُ
جَاوَرَتْ ظِلَّ الَّذِي حَارَتْ بِهِ الْفِكْرُ
لَا ، وَلَا فِيهِ الْهَمُّومُ
لَمْ تَجْهِيءْ مَعَهُ السَّهْمُومُ
ظِلُّ وَهْمٍ لَا يَدُومُ
مَنْ تَنَابَاهُ النَّجْمُومُ
فَالْغِنَا يَمَحُو الْمَحْزَنُ
بَعْدَ أَنْ يَفْنَى السَّزَمُنُ

وقلَّ في الأرض مَنْ يَرْضَى الحياة كما
لذلك قد حوَّلوا نهر الحياة إلى
فالنَّاسُ إن شربُوا سُورُوا كما أنهم
فإذا يُعْرِضُونَ إن صُلِّيَ وذلك إذا
فالأرض خَمَارَةٌ والذَّهْرُ صاحبها
فإن رَأَيْتَ أَخَا صَاحِبٍ فَقُلْ عَجَبًا!
ليس في الغاباتِ سَكْرٌ
فالتَّوَاقِي ليس فيها
إنما التَّخْدِيرُ ثَنَدِي
فإذا شَاخُوا وَمَاتُوا
أعطيني النَّبَايَ وَعَنِّي
وَأَنْبِيَّ النَّبَايَ يَبْقَى

تَأْتِيهِ عَفْوًا ولم يحْكَمْ بِهِ الضَّجْرُ
أَكْوَابَ وَهُمْ إذا طافوا بها خَدَرُوا
رَهْنُ الْهَوَى وَعَلَى التَّخْدِيرِ قد فُطِرُوا
أَثَرِي وذلك بالأحلامِ يَجْتَمِرُ
وليس يَرْضَى بها غير الألى سَكْرُوا
هل اسْتَظَلَ بَغِيمٌ مُطِيرٌ قَمَرٌ؟
ممن مُدَامٍ أَوْ خِيَالٍ
غَيْرِ إكْسِيرِ الْغَنَامِ
وحليٍّ لِلْأَنْبِيَاءِ
بلغوا سَنَ الْفُطَامِ
فَالْغَنَاءُ خَيْرُ الشَّرَابِ
بَعْدَ أَنْ تَفْنَى الْهَضَابِ

والدِّينُ في النَّاسِ حَقْلٌ ليس يزرعه
مِنْ آمَلٍ بِنَعِيمِ الْخَلْدِ مَبْتَشِرٌ
فالقَوْمُ لولا عِقَابُ الْبَعَثِ ما عبدوا
كأنما الدِّينُ ضَرْبٌ مِنْ مَتَاجِرِهِمْ
ليس في الغاباتِ دِينٌ
فإذا الْبُلْبُلُ غَنَّى
إنَّ دِينَ النَّاسِ بِسَاتِي
أعطيني النَّبَايَ وَعَنِّي
وَأَنْبِيَّ النَّبَايَ يَبْقَى

غَيْرُ الألى لَهُمْ في زَرْعِهِ وَطَرٌ
ومَنْ جُهُولٌ يَخَافُ النَّارَ تَسْتَعْرِ
رَبًّا وَلولا الثَّوَابُ المرتجى كَفَرُوا
إن وَاظَبُوا رَبَحُوا أو أَهْمَلُوا خَسِرُوا
لا ، ولا الكَفَرُ الْقَبْرِ يَحْيِ
لم يَقُلْ هَذَا الصَّحِيحُ
مَثَلٌ ظَلُّ وَتَرُوحُ
فَالْغَنَاءُ خَيْرُ الصَّلَاةِ
بَعْدَ أَنْ تَفْنَى الْحَيَاةُ

والعدل في الأرض يُكي الجِنَّ لو سمعوا
فالسَّجُن والموت للجانين إن صغروا
فسارق الزَّهر مَذْمومٌ ومحتَقَرٌ
وقاتلُ الجسمِ مَقْتُولٌ بفعليته
ليس في الغاباتِ عدلٌ
فإذا الصنم صاف ألقى
لا يَقتولُ السرُّوهُذي
إن عدلُ النَّاسِ ثلجٌ
أعطيني النَّسايَ وعَنّ
وأنيُّ النَّسايَ يبقَى

والحقُّ للعزم ، والأرواحُ إن قويت
ففي العريضة ربحٌ ليس يقربُه
وفي الزَّرايزِر جُبنٌ وهي طائفة
والعزمُ في الروح حقٌ ليس ينكره
فإن رأيت ضميماً سائداً فعلى
ليس في الغاباتِ عزمٌ
فإذا ما الأسدُ صاح
إن عزمُ النَّاسِ ظِلٌّ
وحقُّوق النَّسايَ تَبلى
أعطيني النَّسايَ وعَنّ
وأنيُّ النَّسايَ يبقَى

سادت وإن ضعفت حلت بها الغيرُ
بنو النعالِبِ غاب الأسدُ أم حضروا
وفي البزاة شموخٌ وهي تُختَضِرُ
عزمُ السواعد شاء النَّاسُ أم نكروا
قومٌ إذا ما رأوا أشباههم نفروا
لا ، ولا فيها الضَّعيفُ
لم تقل هذا المخيفُ
في قضا الفِكَرِ يطوفُ
مثل أوراق الخريفِ
فالغنمُ عزمُ النَّفوسِ
بعده أن تفنَى الشَّموخُ

والعلمُ في النَّاسِ سُبُلٌ بَانَ أَوَّلُهَا
وأَفْضَلُ العلمِ حِلْمٌ إِنْ ظَفَرَتْ بِهِ
فإن رأيت أخصا الأحلامِ منفردًا
فهو النَّبِيُّ وبُردُ الغدِّ يحجبُهُ
وهو الغريبُ عن الدُّنيا وساكنها
وهو الشَّدِيدُ وإن أبدى ملاينَةً
ليس في الغابيات علمٌ
فإذا الأغصانُ مالَت
إن علم النَّاسِ طُورًا
فإذا الشَّمسُ أطلَّت
أعطيني النَّسايَ وعَـنَّ
وَأُنسِئُ النَّسايَ يَبْقَى

أما أواخرها فالذَّهرُ والقَدْرُ
وسرَّت ما بين أبناء الكرى سخرُوا
عَن قومِهِ وهو منبُودٌ ومُحتقِرُ
عن أمةٍ برِداء الأُمسِ تاتِرُ
وهو المَهْـاجِرُ لأم النَّاسِ أو عَدَرُوا
وهو البَعِيدُ تدانى النَّاسِ أم هجرُوا
لا ، ولا فيها الجاهلُ
لم تقل هذا الجليلُ
كضبابٍ في الحقِّ
ممن ورا الأفقِ يَزُولُ
فالغنى خَيْرُ العُلومِ
بَعْدَ أن تطفئ النَّجومِ

والحرُّ في الأرضِ بيني من منازلِهِ
فإن تحرَّرت من أبناء بجدتِهِ
فهو الأريبُ ولكن في تصلُّبِهِ
وهو الطَّليقُ ولكن في تسرُّعِهِ
ليس في الغابات حُرٌّ
إنما الأجمادُ سُخْفٌ
فإذا ما اللَّـوزُ ألقَى
لم يقل هذا حقَّيرٌ
أعطيني النَّسايَ وعَـنَّ
وَأُنسِئُ النَّسايَ أَبْقَى

سجنًا لَهُ وهو لا يدري فيؤتسِرُ
يظلَّ عبدًا لمن يهوى ويفتكِرُ
حتى وللحقِّ بطلُّ بل هو البطرُ
حتى إلى أوجِ مجيدِ خالِدٍ صغرُ
لا ، ولا العبدُ الذَّمِيمُ
وفقَّ اقْبَعُ تَعْمُومِ
زهرُهُ قَسْوَقُ المَشِيمِ
وأنما المولى الكَرِيمِ
فالغنى ما يجْدُ أثيمُ
ممن زنتيم وجليـلُ

والحبُّ في الناسِ أشكَّالٌ وأكثرُها
وأكثرُ الحبِّ مثلُ الرِّاحِ أيسرُه
والحبُّ إنْ قادتِ الأجسامُ موكبُه
كانتْهُ ملَكٌ في الأسرِ معتقِلُ
ليسَ في الغنابِ خليفٌ
فإذا الثَّـيرانِ خارَتْ
إنَّ حـبَّ النـساسِ دائِ
فإذا ولَّى شـبابُ
أعطيني النَّـايَ وعَـنَّ
وأُنـسِ النَّـايَ أبـقـى

فإنْ لقيتَ مُحِبًّا هاتِا كَلِّها
والناسُ قالوا هوَ المجنونُ ماذا عسى
أفي هوى تلكِ يستدمي محاجرُه
فقلْ همُ البهْمُ ماتوا قبل ما وُلدوا
ليسَ في الغاباتِ عـذْلُ
فإذا الغـزلانُ جـنَّتْ
لا يـقـوُلُ النـسرُ واهـا
إنـما العـاقـلُ يـدعى
أعطيني النَّـايَ وعَـنَّ
وأُنـسِ النَّـايَ أبـقـى

في جوعِه شـيخٌ في وردِه الصَّـدرُ
يغني من الحبِّ أو يـرجو فيصـطـبرُ؟
وليس في تلكِ ما يحلـو ويـعـتـبرُ
أنسى دروا كنهه من يحـيـي وما اختـبروا
لا ، ولا فيـها الرِّقـيبُ
إذا تـرى وجـهـه المغيـبُ
إنَّ ذا شـيءٌ عجـيبُ
عنـدنا الأمـر الغريـبُ
فالغـنـا خـيـرُ الجنـون
مـن حـصـيفٍ ورـصـين

وقل نسينا فخر الفاتحين وما
 قد كان في قلب ذى القرنين مجرّة
 ففي انتصارات هذا غلبة خفيّة
 والحب في الروح لا في الجسم نعرفه

ليس في الغابات ذكّر
 فالألئى سادوا ومادوا
 أصبوحوا مثل حروف
 فالهوى الفضّاح يُدعى

أعطيني التّاي وعَنّ
 إننما الزنبق ككأس

وما السعادة في الدنيا سوى شبح
 كالنهر يركض نحو السهل مكتدحاً
 لم يسعد النّاس إلّا في تشوّقهم
 ليس في الغياب رجاء
 كيف يرجو الغاب جرّة
 وبما السعي بغياب
 إننما العيش رجاء
 أعطيني التّاي وعَنّ
 وأنن النّاي شوق

نسسى المجانين حتى يغمّر الغمر
 وفي حشاشة قيس هكل وقر
 وفي انكسارات هذا الفور والظفر
 كالخمر للوحي لا للسكر ينعصر

غير ذكر العاشقين
 وطغوا في العالين
 في أسامي المجرمين
 عندنا الفتح المبين

وانس ظلّم الأقوياء
 للّذى لا للذّماء

يرجى فإن صار جسماً ملّهُ البشر
 حتى إذا جاءه يطسي ويعتكّر
 إلى المنيع فإن صاروا به فتروا
 لا ، ولا فيهِ الملل
 وعلى الكل حصّل؟
 أملاً وهو الأمل؟
 إحدى هاتيك العلل
 فالغنى نثار ونور
 لا يُدانيه الفُتور

وغايَةُ الروح طَيِّ الروح قد خفيتُ
 فذا يَقُولُ هي الأزواح إن بَلَغَتْ
 كأنها هي أثَها إِذا نَضَجَتْ
 وذا يَقُولُ هي الأجسامُ إن هَجَعَتْ
 كأنها هي ظِلُّ في العَدير إِذا
 ضَلَّ الجميع فلا الذرَّاتُ في جسدِ
 فما طَوَتْ شَمالُ أذبالِ عاقلَةٍ
 لم أَجِدُ في الغابِ فرقًا
 فهاهنا ماءً تهادى
 والشَّاذِ زهَرٌ تهادى
 وظلالُ الحُورِ حُورُ
 أعطاني النَّسايَ وعَــنَّ
 وأنَّيْنُ النَّسايَ أَبَقَى

والجسمُ للروح رحمٌ تستكنُّ بهِ
 فهي الجنينُ وما يوم الحام سوى
 لكن في الناس أشباحًا يلازمها
 فهي الدخيلةُ والأرواح ما وُلدت
 وكم على الأرض من نبتٍ بلا أريجٍ
 ليس في الغابِ عقيمٌ
 إنَّ في التمر نِــواةً
 وبقصر الشهد رمزٌ
 إنما العاقرُ لفظٌ
 أعطاني النَّسايَ وعَــنَّ
 وأنَّيْنُ النَّسايَ أَبَقَى

فلا المظاهرُ تبديها ولا الصُّورُ
 حدَّ الكمالِ تلاشت وانقضى — الخبرُ
 ومَرَّتِ الرِّيحُ يومًا عافها الشَّجرُ
 لم يبقَ في الرُّوحِ تَــوِيمٌ ولا سَــمُرُ
 تعكَّرَ الماءُ ولَّتْ وانحَى الأثرُ
 تُسَوِّى ولا هي في الأرواح تحتضِرُ —
 إلا ومَرَّ بها الشَّرقي فتتشرُّ —
 بينَ نَفْسٍ وجَسَدٍ
 والتَّهادى ماءً رَكَدَ
 والثَّرى زَهَرٌ جَدَ
 ظَنَنْ لَــيلاً فَرَقَدَ
 فالغنى جَسَمٌ ووُحُ
 ممن عَبَّوْقي وصَبَّوْحُ

حتى البلوغ فتستعلى وينغمُرُ
 عهدِ المخاض فلا سقطٌ ولا عسُرُ
 عقمُ القسي — التي ما شَدَّها وترُ
 من القليل ولم يجبل بها المدرُ
 وكم علا الأفق غيمٌ ما به مطرُ
 لا ، ولا فيها السَّــدْخِيلُ
 حفظت سر النخيل
 عمن فقيرٍ وحقولُ
 صبيغ من معنى الخمولُ
 فالغنى جَسَمٌ يسَّـيْلُ
 ممن مسَّـوْخ ونغولُ

والموتُ في الأرض لا بمن الأرض خاتمةً
فمن يعانق في أحلامه سحرًا
ومن يلازم ترابًا حال يقظته
فالموت كالبحر مَنْ خَفَّتْ عناصره
ليس في الغابات موتٌ
فإذا نيسان وليَّ
إنَّ هــولَ الموت وهــمٌ
فالنـدي عـاش ربيعًا
أعطيني التـاي وعـنَّ
وأزوين التـاي يبقـي

وانسَ ما قلتُ وقلتُ
فأفـلـدني ما فعلتُ

هل تحذت الغاب مثلي
فتتبعـت السـواقـي

هل تحممت بعطـرٍ
وشربت الفجر خـرًا

هل جَلَسَتِ العـصـرَ مثلي
والعناقيـدُ تـدَّتْ

فهي للصـادي غـيـونٌ
وهي شـهـدٌ وهـي عـطرٌ

وللائيرِي فهو البـدءُ والظفرُ
يبقى ومن نامَ كلَّ الليل يندثرُ
يعانقُ التـربَ حتـى تحمـد الزهـرُ
يجتازُه وأخـو الأثـقال ينحـدرُ
لا ولا فيهـم القـبـورُ
لم يمـتْ معـهُ السـرورُ
يشنـي طـيـي الصـدورُ
كالـذي عـاش السـدورُ
فالغـنـا سرُّ الخـلـودُ
بعـد أن يـفـنـي الوجـودُ

هَلْ فَرَشْتَ الْعَشَبَ لَيْلًا وَتَلَحَفْتَ الْفَضْلَ
زَاهِدًا فِي مَا سَسَيْتُ نَاسِيًا مَا قَدْ مَضَى؟

وَسَكَوْتُ اللَّيْلَ بِحُرٍّ مُوجَّعُهُ فِي مَسَمَعِكَ
وَبَصْدِرِ اللَّيْلِ قَلْبُ خَافَقَ فِي مَضَى جَعِكَ

أَعْطِنِي النَّيَّ وَغَنِّ وَانْسِ دَاءَ وَدَوَاءَ
إِنَّمَا النَّاسُ سُطُورٌ كُتِبَتْ لِكِرْنٍ بِهَاءَ

لَيْسَتْ شَمْرِي أَيُّ نَفْعٍ فِي اجْتِمَاعٍ وَزَحَامٍ
وَجِدَالٍ وَضَجِيجٍ وَاحْتِجَاجٍ وَخَصَامٍ؟

كُلُّهَا أَنْفَاقُ خُلْدٍ وَخِيوطُ الْعَنْكَبُوتِ
فَالَّذِي يَحْيَا بِعَجَزٍ فَهُوَ فِي بَطْءٍ يَمُوتُ

الْعَيْشُ فِي الْغَابِ وَالْأَيْسَامُ لَوْ نُظِمَتْ فِي قَبْضَتِي لَغَدَتِ فِي الْغَابِ تَنْثَرُ
لَكِنْ هُوَ الدَّهْرُ فِي نَفْسِي لَهُ أَرْبٌ فَكُلَّمَا رَمَيْتُ غَائِبًا قَامَ يَعْتَذِرُ
وَلِلتَّقَادِيرِ سَبِيلٌ لَا تَغْيِرُهَا وَالنَّاسُ فِي عَجْزِهِمْ عَنْ قَصْدِهِمْ قَصْرُوا



العَوَاطِف

(نشرت عام 1920)

حفار القبور

في وادي ظل الحياة ، المرصوف بالعظام والجماجم ، سرت وحيداً في ليلة حجب فيها الضباب نجومها ، وخامر الهول سكينتها .

هناك ، على ضفاف نهر الدماء والدموع ، المنساب كالحية الرقطاء ، المتراكض كأحلام المجرمين ، وقفت مصغياً لهمس الأشباح ، محدقاً إلى اللاشيء .

ولما انتصف الليل وقد خرجت مواكب الأرواح من أوكارها ، سمعت وقع أقدام ثقيلة تقترب مني ، فالتفت وإذا بشبح جبّار مهيب منتصب أمامي ، فصرخت مذعوراً : ماذا تريد مني ؟

فنظر إليّ بعينين مشعشتين كالمسارج ثم أجاب بهدوء : لا أريد شيئاً وأريد كلّ شيء .

قلت : دعني وشأني وسِرْ في سبيلك .

فقال مبتسماً : ما سبيلي سوى سبيلك ، فأنا سائر حيث تسير واربض حيث تربض .

قلت : جئت أطلب الوحدة فخلني ووحدي .

فقال : أنا الوحدة نفسها فلماذا تخافني ؟

قلت : لست بخائف منك .

فقال : إن لم تكن خائفاً ، فلماذا ترتجف مثل قصبة أمام الريح ؟

قلت : إن الهواء يتلاعب بأثوابي فترتجف ، أما أنا فلا أرتجف .

فضحك مقهقهة بصوت يضارع ضجيج العاصفة ثم قال : أنت جبان تخافني وتخاف أن تخافني ، فخوفك مزدوج ولكنك تحاول إخفاءه عني وراء خداع أوهى من خيوط العنكبوت فتضحكني وتغيظني .

ثم جلس على الصخر فجلست قسر إرادتي محققا إلى ملامحه المهيبة .
وبعد هنيهة خلتها ألف عام نظر إلى مستهزئا وسألني قائلا : ما اسمك ؟
قلت : اسمي عبد الله .

فقال : ما أكثر عبيد الله وما أعظم متاعب الله بعبيده ! فهلا دعوت نفسك سيد الشياطين وأضف بذلك إلى مصائب الشياطين مصيبة جديدة ؟

قلت : اسمي عبد الله وهو اسم عزيز أعطاني إياه والدي يوم ولادتي فلن أبدله باسم آخر .

فقال : إن بلية الأبناء في هبات الآباء ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات ؟

فحنيت رأسي مفكرا في بكلماته ، مسترجعا إلى حافظتي رسوم أحلام شبيهه بحقيقته ، ثم عاد فسألني قائلا : وما صنعتك ؟

قلت : أنظم الشعر وأثره ، ولي في الحياة آراء أطرحتها على الناس .

فقال : هذه مهنة عتيقة مهجورة لا تنفع الناس ولا تضرهم .

قلت : وما عسى أن أفعل بأيامي وليالي لأنفع الناس ؟

فقال : اتخذ حفر القبور صناعة تريح الأحياء من جثث الأموات المكردسة حول منازلهم ومحاكمهم ومعابدهم .

قلت : لم أر قط جثث الأموات مكردسة حول المنازل !

فقال : أنت تنظر بعين الوهم فترى الناس يرتعشون أمام عاصفة الحياة فتظنهم أحياء وهم أموات منذ الولادة ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منطرحين فوق الثرى ورائحة التثنت تنبعث منهم .

قلت وقد ذهب عني بعض الوجل : وكيف أميّز بين الحي والميت وكلاهما يرتعش أمام العاصفة؟

فقال : إن الميت يرتعش أمام العاصفة ، أما الحي فيسير معها راكضاً ولا يقف إلا بوقوفها .

واتكأ إذ ذاك على ساعده فبانت عضلاته المحبوكة كأصول سنديانه مملوءة بالعزم والحياة ، ثم سألني قائلاً : أمتزوج أنت؟

قلت : نعم وزوجتي امرأة حسناء وأنا كلف بها .

فقال : ما أكثر ذنوبك ومساوئك ! إنما الزواج عبودية الإنسان لقوة الاستمرار ، فإن شئت أن تتحرر طلق امرأتك وعش خالياً .

قلت : لي ثلاثة أولاد كبيرهم يلعب بالأكر وصغيرهم يلوك الكلام ولا يلفظه ، فماذا أفعل بهم؟

فقال : علّمهم حفر القبور أعط كل واحد رفشاً ثم دعهم وشأنهم .

قلت : ليس لي طاقة على الوحدة والانفراد ، فقد تعودت لذة العيش بين زوجتي وصغاري ، فإن تركتهم تركتني السعادة .

فقال : ما حياة المرء بين زوجته وأولاده سوى شقاء أسود مستتر وراء طلاء أبيض .
ولكن إن كان لابد من الزواج فاقترب بصبيبة من بنات الجن .

قلت مستغربا : ليس للجنة حقيقة فلماذا تخدعني ؟

فقال : ما أغباك فتى ! ليس لغير الجن حقيقة ، ومن لم يكن من الجن كان من عالم الريب
والالتباس .

قلت : وهل لصبايا الجن ظرف وجمال ؟

فقال : لهن ظرف لا يزول وجمال لا يذبل .

قلت : أرني جنية فأقنع .

فقال : لو كان بإمكانك أن ترى الجنية وتلمسها لما أشرت عليك بزواجها .

قلت : وما النفع من زوجة لا تُرى ولا تُمس ؟

فقال : هو نفع بطيء ينتج عنه انقراض المخاليق والأموال الذين يختلجون أمام العاصفة
ولا يسرون معها .

وحول وجهه عني دقيقة ثم عاد فسألني قائلا : وما دينك ؟

قلت : أوّمن بالله وأكرم أنبياءه وأحب الفضيلة ولي رجاء بالآخرة .

فقال : هذه ألفاظ رتبها الأجيال الغابرة ثم وضعها الاقتباس بين شفتيك . أما الحقيقة
المجردة فهي أنك لا تؤمن بغير نفسك ولا تكرم سواها ولا تهوى غير ميولها ولا رجاء لك
إلا بخلودها . منذ البدء والإنسان يعبد نفسه ولكنه يلقبها بأسماء مختلفة باختلاف ميوله
وأمانيه ، فتارة يدعوها البعل وطورا المشتري وأخرى الله .

ثم ضحك فانفجرت ملامحه تحت نقاب من الهزء والسخرية وزاد قائلا : ولكن ما أغرب
الذين يعبدون نفوسهم ، ونفوسهم جيف منتنة!

ومرت دقيقة وأنا أفكر بأقواله فأجد فيها معاني أغرب من الحياة وأهول من الموت
وأعمق من الحقيقة ، حتى إذا ما تاهت فكري بين مظاهره ومزايه ، هاجت ميولي لاستعلان
أسراره وخفائيه ، صرخت قائلا : إن كان لك رب قل لي من أنت؟

قال : أنا رب نفسي .

فقلت : وما اسمك؟

قال : الإله المجنون .

فقلت : وأين ولدت؟

قال : في كل مكان .

فقلت : ومتى ولدت؟

قال : في كل زمان .

فقلت : ممن تعلمت الحكمة ، ومن ذا الذي باح لك بأسرار الحياة وبواطن الوجود؟

قال : لست بحكيم ، فالحكمة صفة من صفات البشر الضعفاء ، بل أنا مجنون قوي أسير
فتميد الأرض تحت قدمي وأقف فتقف معي كواكب النجوم . وقد تعلمت الاستهزاء
بالبشر من الأبالسة ، وفهمت أسرار الوجود والعدم بعد أن عاشرت ملوك الجن وجبابرة
الليل .

فقلت : وماذا تفعل في هذه الأودية الوعرة وكيف تصرف أيامك ولياليك؟

قال : في الصباح أجذّف على الشمس ، وعند الظهيرة ألعن البشر- ، وفي المساء أسخر بالطبيعة ، وفي الليل أركع أمام نفسي وأعبدها .

فقلت : وماذا تأكل وماذا تشرب وأين تنام؟

قال : أنا والزمان والبحر لا ننام ولكنّا نأكل أجساد البشر ونشرب دماءهم ونتحلّى بلهائهم .

وانتصب إذّاك مبكّلاً ذراعيه على صدره ثمّ حدق إلى عيني وقال بصوت عميق هادئ :
إلى اللقاء ، فأنا ذاهب إلى حيث تلتئم الغيلان والجبابرة .

فهتفت قائلاً : أمهلني دقيقة في سؤال آخر .

فأجاب وقد انحجب بعض قامته بضباب الليل : إن الآلهة المجانين لا يمهلون أحدا . فإلى اللقاء .

واختفى عن بصري وراء ستائر الدجى وتركني خائفاً طائشاً محتاراً به وبنفسي .

ولما حولت قدمي عن ذلك المكان سمعت صوته متموجاً بين تلك الصخور الباسقة
قائلاً :

- إلى اللقاء ! إلى اللقاء !

وفي اليوم التالي طلقت امرأتي وتزوجت صبية من بنات الجن . ثمّ أعطيت كلّ واحد من
أطفالي رفشاً ومحفراً وقلت لهم : اذهبوا وكلّموا رأيتم ميتاً واروه التراب .

ومن تلك الساعة إلى الآن وأنا أحفر القبور وألحد الأموات ، غير أن الأموات كثيرون
وأنا وحدي وليس من يسعفني .

العبودية

إنما الناس عبيد الحياة وهي العبودية التي تجعل أيامهم مكتنفة بالذل والهوان ولياليهم مغمورة بالدماء والدموع .

ها قد مر سبعة آلاف سنة على ولادتي الأولى وللآن لم أرَ غير العبيد المستسلمين والسجناء المكبلين .

لقد جبت مشارق الأرض ومغاربها ، وطففت في ظل الحياة ونورها ، وشاهدت مواكب الأمم والشعوب سائرة من الكهوف إلى الصر-روح ، ولكنني لم أرَ للآن غير رقاب منحنية تحت الأثقال ، وسواعد موثقة بالسلاسل ، وركب جاثية أمام الأصنام .

قد اتبعت الإنسان من بابل إلى باريس ، ومن نينوى إلى نيويورك ، ورأيت آثار قيوده مطبوعة على الرمال بجانب آثار أقدامه ، وسمعت الأودية والغابات تردد صدى نواح الأجيال والقرون .

دخلت القصور والمعابد والهيكل ، ووقفت حذاء العروش والمذابح والمنابر ، فرأيت العامل عبداً للتاجر ، والتاجر عبداً للجندي ، والجندي عبداً للحاكم ، والحاكم عبداً للملك ، والملك عبداً للكاهن ، والكاهن عبداً للصنم ، والصنم تراب جبلته الشياطين ونصبته فوق رابية من جماجم الأموات .

دخلت منازل الأغنياء الأقوياء وأكواخ الفقراء الضعفاء ، ووقفت في المخادع الموشاة بقطع العاج وصفائح الذهب ، وفي المآوي المفعمة بأشباح اليأس وأنفاس المنايا ، فرأيت الأطفال يرضعون العبودية مع اللبن ، والصبيان يتلقنون الخضوع مع حروف الهجاء ، والصبايا يرتدين الملابس مبطنة بالانقياد والخنوع ، والنساء يهجعن على أسرة الطاعة والامتثال .

اتبعت الأجيال من ضفاف الكنج إلى شاطئ الفرات ، إلى مصب النيل ، إلى جبل سينا ، إلى ساحات أثينا ، إلى كنائس رومية إلى أزقة القسطنطينية ، إلى بنايات لندن ، فرأيت العبودية تسير بكل مكان في موكب مذابحها ويدعوها إلهًا ، ثم يسكبون الخمر والطيب على قدميها ويدعوها ملكًا ، ثم يحرقون البخور أمام تماثيلها ويدعوها نبيا ، ثم يخرون ساجدين لديها ويدعوها شريعة ، ثم يتحاربون ويتقاتلون من أجلها ويدعوها وطنية ، ثم يستسلمون إلى مشيئتها ويدعوها ظل الله على الأرض ، ثم يحرقون منازلهم ويهدمون مبانيهم بإرادتها ويدعوها إخاء ومساواة ، ثم يجدون ويجهدون في سبيلها ويدعوها مالا وتجارة ... فهي ذات أسماء عديدة وحقيقة واحدة ومظاهر كثيرة لجوهر واحد ، بل هي علة أزلية أبدية تحيي بأعراض متباينة وقروح مختلفة يتوارثها الأبناء عن الآباء مثلما يتوارثون نسمة الحياة ، وتلتقي بذورها العصور في تربة العصور مثلما تستغل الفصول ما تزرعه الفصول .

وأغرب ما لقيت من أنواع العبادات وأشكالها العبودية العمياء ، وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم وتنيخ نفوسهم أمام تقاليد جدودهم وتجعلهم أجسادا جديدة لأرواح عتيقة وقبورًا مكلسة لعظام بالية .

والعبودية الخرساء ، وهي التي تعلق أيام الرجل بأذيال الزوجة التي يمقتها ، وتلصق جسد المرأة بمضجع الزوج الذي تكرهه وتجعلهما من الحياة بمنزلة النعل من القدم .

والعبودية الصماء ، وهي التي تُكره الأفراد على إتباع مشارب محيطهم والتلون بألوانه والارتداء بأزيائه فيصبحون من الأصوات كرجع الصدى ومن الأجسام كالحيلالات .

والعبودية العرجاء ، وهي التي تضع رقاب الأشداء تحت سيطرة المحتالين ، وتسلم عزم الأقوياء إلى أهواء الطامعين بالمجد والاشتهار فيمسون مثل آلات تحركها الأصابع ثم توقفها ثم تكسرها .

والعبودية الشمطاء ، وهي التي تهبط بأرواح الأطفال من الفضاء المتسع إلى منازل الشقاء حيث تقيم الحاجة بجانب الغباوة ، ويقطن الذل في جوار القنوط ، فيشبون تعساء ويعيشون مجرمين ويموتون مرذولين .

والعبودية الرقطاء ، وهي التي تتباع الأشياء بغير أثمانها ، وتسمي الأمور بغير أسمائها ، فتدعو الاحتيال ذكاء ، والثرثرة معرفة ، والضعف ليناً ، والجبانة إباء .

والعبودية العوجاء ، وهي التي تحرك بالخوف ألسنة الضعفاء فيتكلمون بما لا يشعرون ، ويتظاهرون بما لا يضمرون ، ويصبحون بين أيدي المسكنة مثل ثوب تطويه وتنشره .

والعبودية الحدباء ، وهي التي تقود قومًا بشرائع قوم آخرين .

والعبودية الجرباء ، وهي التي تتوج أبناء الملوك ملوكًا .

والعبودية السوداء ، وهي التي تسم بالعار أبناء المجرمين الأبرياء .

والعبودية للعبودية نفسها هي قوة الاستمرار .

ولما تعبت من ملاحقة الأجيال ، ومللت النظر إلى كواكب الشعوب والأمم ، جلست وحيداً في وادي الأشباح حيث تختبئ خيالات الأزمنة الغابرة وتربض أرواح الأزمنة الآتية ، هناك رأيت شبحاً هزياً منفرداً محدقاً إلى وجه الشمس فسألته : من أنت وما اسمك ؟

قال : اسمي الحرية .

قلت : وأين أبناؤك ؟

قال : واحد مات مصلوباً ، وواحد مات مجنوناً وواحد لم يولد بعد .

ثم توارى عن عيني وراء الضباب .



المليك السجين

خفف عنك أيها المليك الأسير ، فلست في سجنك أشد بلاء مني في جسدي .

اربض وكن متجلدًا يا أبا الأهوال ، فالاضطراب أمام النوائب حريّ بنات آوى ، ولا
يجمل بالملوك المسجونين سوى الاستهزاء بالسجن والسجان .

سكن روعك يا فتى العزم وانظر إليّ فأنا بين عبيد الحياة مثلك بين قضبان القفص ، وما
الفرق بيننا سوى حلم مزعج يجاور روعي ولكنه يخشى الاقتراب إليك .

كلانا منفي عن بلاده بعيد عن أهله وأحبابه ، فخفض عليك جأشك وكن مثلي صابرًا
على ماض الأيام والليالي ، ساخرًا بهؤلاء الضعفاء الذين يتغلبون علينا بعددهم لا بعزم
أفرادهم .

وما عسى ينفع الزئير والضجيج والناس طرش لا يسمعون؟

لقد صرخت قبلك في آذانهم فلم استوقف غير أشباح الدجى ، وتفحصت مثلك
طبقاتهم فلم أجد بينهم سوى جبان يستبسل متجبرًا أمام المقيدين بالسلاسل ، وضعيف
يترفع متصلبًا أمام المسجونين في الأقفاص .

أنظر أيها المليك الجبار ، انظر إلى هؤلاء المحيطين بسجنك الآن ، تفرس في وجوههم تجد
في ملامحهم ما كنت تراه في سحنات أدنى رعاياك وأعوانك في مجاهل الصحراء ، فمنهم من
يشبه الأرنب بضعف قلبه ، ومنهم من يماثل الثعلب باحتياله ، ومنهم من يضارع الأفعى
بخبثه ، ولكن ليس بينهم من له سلامة الأرنب وذكاء الثعلب وحكمة الأفعى .

انظر فهذا كالحنزير قذارة أما لحمه فلا يؤكل ، وهذا كالجاموس خشونة أما جلده فلا ينفع ، وذاك كالحمار غباوة ولكنه يمشي على الاثنتين ، وذلك كالغراب شؤماً ولكنه يبيع نعيه في الهياكل ، وتلك كالطاووس تيهًا وإعجاباً أما ريشها فمستعار .

وانظر أيها السلطان المهيب ، انظر تلك القصور والمعاهد ، فهي أوكار ضيقة يسكنها الإنسان مفاخرًا بزخارف سقوفها التي تحجبه عن النجوم ، مغتبطًا بصلابة جدرانها التي تفصله عن أشعة الشمس .

هي كهوف مظلمة تذبل في ظلالها أزاهر الشباب ، وترمد في زواياها جمرة الحب ، وتتحول في فضائها رسوم الأحلام إلى أعمدة من دخان ، هي سراديب غريبة يتمايل فيها سرير الطفل بجانب فراش المنازع ، ويتصب فيها تحت العروس بقرب نعش الميت .

وانظر أيها الأسير الجليل ، انظر إلى تلك الشوارع المنفرجة والأزقة الضيقة ، فهي أودية خطيرة المعابر يتربص اللصوص بين منعرجاتها وتحتبئ الخوارج بين جنباتها ، هي ساحة قتال مستتب بين الرغائب والرغائب ، تتنازل فيها الأرواح متضاربة ولكن بغير السيوف ، وتتصارع متناهشة ولكن بغير الأنياب ، بل هي غابة الأهوال تسكنها حيوانات داجنة المظاهر ، معطرة الأذنان ، مصقولة القرون ، لا تقضي شرائعها ببقاء الأنسب بل بدوام الأروغ والأحيل ، ولا تؤول تقاليدها إلى الأفضل والأقوى بل إلى الأخبث والأكذب ، أما ملوكها فليست أسدًا نظيرك بل هم مخاليق عجيبة لهم مناقد النور وبرائن الضبع وألسنة العقارب ونقيق الضفادع .

فدتك روعي أيها المليك السجين ، فقد أطلت الوقوف لديك وأسهب بالكلام أمامك ، ولكن هو القلب المخلوع عن عرشه يتعزى بالملوك المخلوعين ، وهي النفس السجينة المستوحشة تستأنس بالسجناء والمستوحشين ، فسامح فتى يلوك الكلام متسليًا به عن الطعام ، ويرتشف الأفكار مستعيضًا بها عن الشارب .

إلى اللقاء أيها الجبار المهيب ، فإن لم يكن اللقاء في هذا العالم الغريب فسيكون في عالم الأشباح حيث تجتمع أرواح الملوك بأرواح الشهداء .



يسوع المصلوب

كتبت يوم الجمعة الحزينة

اليوم وفي مثل هذا اليوم من كل سنة تستيقظ الإنسانية من رقادها العميق وتقف أمام أشباح الأجيال ناظرة بعيون مغلقة بالدموع نحو جبل الجلجلة لترى يسوع الناصري معلقاً على خشبة الصليب ... وعندما تغيب الشمس عن مآتي النهار تعود الإنسانية فتركع مصلية أمام الأصنام المنتصبة على قمة كل رابية وفي سفح كل جبل .

اليوم تقود الذكرى أرواح المسيحيين من جميع أقطار العالم إلى جوار أورشليم فيقفون هناك صفوفاً صفوفاً قارعين صدورهم ، محدقين إلى شبح مكلل بالأشواك ، باسط ذراعيه أمام اللانهاية ، ناظر من وراء حجاب الموت إلى أعماق الحياة ... ولكن لا تسدل ستائر الليل على مسارح هذا النهار حتى يعود المسيحيون فيضطجعوا جماعات جماعات في ظلال النسيان بين لحف الجهالة والخمول .

وفي مثل هذا اليوم من كل سنة يترك الفلاسفة كهوفهم المظلمة والمفكرون صوامعهم الباردة والشعراء أوديتهم الخيالية ويقفون جميعهم على جبل عال صامتين متهيئين مصغين إلى صوت فتى يقول لقاتليه : « يا أبتاه ، اغفر لهم لأنهم لا يدرون ما يفعلون » ولكن لا تكتنف السكينة أصوات النور حتى يعود الفلاسفة والمفكرون والشعراء فيكفون أرواحهم بصفحات الكتب البالية .

إن النساء المشغولات ببهجة الحياة المشغوفات بالحلى يخرجن اليوم من منازلهن ليشاهدن المرأة الحزينة الواقفة أمام الصليب وقوف الشجرة اللينة أمام عواصف الشتاء ، ويقتربن منها ليسمعن أنينها العميق وغصاتها الأليمة .

أما الفتيان والصبايا الراكضون مع تيار الأيام إلى حيث لا يدرون فيقفون اليوم هنيهة ويلتفتون إلى الوراء ليروا الصبية المجذلية تغسل بدموعها قطرات الدماء عن قدمي رجل منتصب بين الأرض والسماء .

ولكن عندما تمل عيونهم النظر إلى هذا المشهد يتحولون مسرعين ضاحكين .

في مثل هذا اليوم من كل سنة تستيقظ الإنسانية بيقظة الربيع وتقف باكية لأوجاع الناصري ثم تطبق أجفانها وتنام نومًا عميقًا ، أما الربيع فيظل مبتسمًا سائرًا حتى يصير صيفًا مذهب الملابس معطر الأذيال .

الإنسانية امرأة يلذ لها البكاء والنحيب على أبطال الأجيال ، ولو كانت الإنسانية رجلًا لفرحت بمجدهم وعظمتهم .

الإنسانية طفلة تقف متأوهة بجانب الطائر الذبيح ولكنها تخشى الوقوف أمام العاصفة الهائلة التي تهصر بمسيرها الأغصان اليابسة وتجرف بعزمها الأقدار المنتنة .

الإنسانية ترى يسوع الناصري مولودًا كالفقراء عائشًا كالمساكين مهانًا كالضعفاء مصلوبًا كالمجرمين ، فتبكيه وترثيه وتندبه ، وهذا كل ما تفعله لتكريمه .

منذ تسعة عشر جيلًا والبشر يعبدون الضعف بشخص يسوع ، ويسوع كان قويًا ولكنهم لا يفهمون معنى القوة الحقيقية .

ما عاش يسوع مسكينًا خائفًا ولم يمت شاكياً متوجعًا بل عاش ثائرًا وصلب متمرّدًا ومات جبارًا .

لم يكن يسوع طائرًا مكسور الجناحين بل كان عاصفة هوجاء تكسر بهوبها جميع الأجنحة المعوجة .

لم يحيي يسوع من وراء الشفق الأزرق ليجعل الألم رمزاً للحياة بل جاء ليجعل الحياة رمزاً للحق والحرية .

لم يخف يسوع مضطهديه ولم يخش أعداءه ولم يتوجع أمام قاتليه بل كان حرّاً على رؤوس الأشهاد جريئاً أمام الظلم والاستبداد ، يرى البثور الكريهة فيبضعها ، ويسمع الشر- متكلماً فيخرسه ، ويلتقي الرياء فيصرعه .

لم يهبط يسوع من دائرة النور الأعلى ليهدم المنازل ويبني من حجارتها الأديرة والصوامع ، ويستهوئ الرجال الأشداء ليقودهم قسوساً ورهباناً ، بل جاء ليثبت في فضاء هذا العالم روحاً جديدة قوية تقوض قوائم العروش المرفوعة على الجماجم وتهدم القصور المتعالية فوق القبور وتسحق الأصنام المنصوبة على أجساد الضعفاء المساكين .

لم يحيي يسوع ليعلم الناس بناء الكنائس الشاهقة والمعابد الضخمة في جوار الأكواخ الحقيرة والمنازل الباردة المظلمة ، بل جاء ليجعل قلب الإنسان هيكلًا ونفسه مذبحة وعقله كاهنًا .

هذا ما صنعه يسوع الناصري وهذه هي المبادئ التي صُلب لأجلها مختاراً ، ولو عقل البشر لوقفوا اليوم فرحين متهللين منشدين أهازيج الغلبة والانتصار .

وأنت أيها الجبار المصلوب ، الناصر من أعالي الجبلجة إلى مواكب الأجيال ، السامع ضجيج الأمم ، الفاهم أحلام الأبدية ، أنت على خشبة الصليب المضرجة بالدماء أكثر جلالاً ومهابة من ألف ملك على ألف عرش في ألف مملكة ، بل أنت النزع والموت أشد هولاً وبطشاً من ألف قائد في ألف جيش في ألف معركة .

أنت بكأبتك أشد فرحاً من الربيع بأزهاره ، أنت بأوجاعك أهدأ بالاً من الملائكة بسائها ، وأنت بين الجلادين أكثر حرية من نور الشمس .

إن إكليل الشوك على رأسك هو أجل وأجمل من تاج بهرام ، والمسمار في كفك أسمى وأفخم من صولجان المشتري ، وقطرات الدماء على قدميك أسنى لمعاناً من قلائد عشتروت ، فسامح هؤلاء الضعفاء الذين ينوحون عليك لأنهم لا يدرون كيف ينوحون على نفوسهم ، واغفر لهم لأنهم لا يعلمون أنك صرعت الموت بالموت ووهبت الحياة لمن في القبور .



على باب الهيكل

قد طَهَّرْتُ شَفَتِيَّ بالنار المقدَّسة لأتكلَّم عن الحبِّ ولَمَّا فتحت شَفَتِيَّ للكلام وجدُّني
أخرس .

كنت أترنِّم بأغاني الحبِّ ، قبل أن أعرفه ، ولما عرفته تحوَّلت الألفاظ في فمي إلى لهاث
ضئيل والأنغام في صدري إلى سَكينة عميقة .

وكنتم أيها الناس فيما مضى- تسألونني عن غرائب الحبِّ وعجائبه فكنت أحدثكم
وأُقنعُكم ، أما الآن وقد غمرني الحبُّ بوشاحه فجئتُ بدوري أسألكم عن مسالكه ، ومزايه ،
، فهل بينكم من يَحييني؟ جئتُ أسألكم عما بي وأستخبركم عن نفسي- ، فهل بينكم من
يستطيع أن يُبَيِّنَ قلبي لقلبي ويوضحَ ذاتي لذاتي؟

ألا فأخبروني ما هذه الشعلة التي تَتَّقِدُ في صدري وتلتهم قواي وتُذيب عواطفني
وميولي؟

وما هذه الأيدي الخفية الناعمة الخشنة التي تَقْبِضُ على روحي في ساعة الوحدة
والانفراد وتسكب في كبدي خمرًا ممزوجة بمرارة اللذة وحلاوة الأوجاع؟

وما هذه الأجنحة التي ترفرف حول مضجعي في سَكينة الليل فأسهرَ مترقبًا ما لا أعرفه ،
مُصَغِّيًا إلى ما لا أسمعُه ، مُحَدِّقًا إلى ما لا أراه ، مفكِّرًا بما لا أفهمه ، شاعرًا بما لا أدركه ،
مُتَأَوِّهاً لأنَّ في التأوُّه غصَّاتٍ أحبُّ لديَّ من رَنِّ الضَّحِكِ والابتهاج . مستسلمًا إلى قوة غير
منظورة تُمَيِّتُنِي وتُحييني ثم تُمَيِّتُنِي وتُحييني حتى يطلع الفجر ويملأ النور زوايا غرفتي فأنام إذ
ذاك وبين أجفاني الذابلة ترتعش أشباح اليقظة وعلى فراشي الحجري تتمايل خيالات
الأحلام .

وما هذا الذي ندعوه حباً؟

أخبروني ما هذا السر الخفيّ الكامنُ خلفَ الدهور ، المختبئ وراء المرئيات ، الساكنُ في ضمير الوجود؟

ما هذه الفكرة المطلقة التي تحيُّ سبباً لجميع النتائج وتأتي نتيجةً لجميع الأسباب؟
ما هذه اليقظة التي تتناول الموت والحياة وتبتدع منهما حلماً أغرب من الحياة وأعمق من الموت؟

أخبروني أيها الناس ، أخبروني ، هل بينكم من لا يستيقظ من رقدة الحياة إذا ما لمس الحبّ روحه بأطراف أصابعه؟

هل بينكم من لا يترك أباه وأمه ومسقط رأسه عندما تناديه الصبيّة التي أحبّها قلبه؟
هل فيكم من لا يمخر البحر ويقطع الصحاري ويمتاز الجبال والأودية ليلتقي المرأة التي اختارتها روحه؟

أي فتى لا يتبع قلبه إلى أقاصي الأرض إذا كان له في أقاصي الأرض حبيبة يستطيب نكهة أنفاسها ويستلطف ملامس يديها ويستعذب رنة صوتها؟

أي بشري لا يحرق نفسه بخوراً أمام إله يسمّع ابتهاله ويستجيب صلواته؟
وقفتُ بالأمس على باب الهيكل أسأل العابرين عن خفايا الحبّ ومزاياه .

فمرّ أمامي كهل مهزول القامة ، كاسف الوجه وقال متأوهاً : الحبّ ضعف فطري ورثناه عن الإنسان الأوّل .

ومرّ فتى قوي الجسم ، مفتول الساعدين وقال مترنماً : الحبّ عزم يلازم كياننا ويصل
حاضرنا بماضي الأجيال ومستقبلها .

ومرّت امرأة كئيبة العينين وقالت متنهّدة : الحبّ سمّ قتّال تتنفسه الأفاعي السّوداء
المتقلبة في كهوف الجحيم فيسيل منتشراً في الفضاء ، ثمّ يهبط مغلفاً بقطرات الندى فترشفه
الأرواح الظامئة فتسكر دقيقة ثمّ تصحو عامّاً ثمّ تموت دهرّاً .

ومرّت صبيّة مورّدة الوجنتين وقالت مبتسمة : الحبّ كوثر تسكبه عرائس الفجر في
الأرواح القوية فيجعلها تتعالى متجمدة أمام كواكب الليل وتسبح مترنمة أمام شمس النهار .

ومر رجل ذو وجه صبيح وملامح منفرجة وقال فرحاً : الحبّ معرفة علوية تنير بصائرنا
فنرى الأشياء كما تراها الآلهة .

ومر أعمى يحبس الأرض بعكازه وقال منتحباً : الحبّ ضباب كثيف يكتنف النفس من
كلّ ناحية ويحجب عنها رسوم الوجود أو يجعلها لا ترى سوى أشباح ميولها مرتعشة بين
الصخور ولا تسمع غير صدى صراخها آتياً من خلایا الوادي .

ومر شاب يحمل قيثارة وقال منغمّاً : الحبّ شعاع سحري ينبثق من أعماق الذات الحسّاسة
وينير جنباتها فترى العالم موكباً سائراً في مروج خضراء ، والحياة حلماً جميلاً منتصباً بين
اليقظة واليقظة .

ومر هرم منحني الظهر يجر قدميه كأنهما خرقتان وقال مرتعشاً : الحبّ راحة الجسم في
سكينة القبر وسلامة النفس في أعماق الأبدية .

ومرّ طفلُ ابنُ خمسٍ وهتف ضاحكاً : الحبّ أبي والحبُّ أمّي .

وانقضى النهار والناس يَمُرُّونَ أمام الهيكل وكلُّ يَصوِّرُ نفسَه متكلمًا عن الحبِّ ويوحي
بأمانيه مُعلنًا سرَّ الحياة .

ولمَّا جاء المساء وسكنت حركة العابرين سَمِعْتُ صوتًا آتيًا من داخل الهيكل يقول : الحياة
نصفان : نصف متجلّد ونصف ملتهب ، فالحب هو النصف الملتهب .

فدخلت الهيكل إذ ذاك وسجدت راکعًا مبتهلاً مصليًا هاتفًا : اجعلني يا رب طعامًا
للّهيب - اجعلني أيها الإله مأكلاً للنار المقدّسة ، آمين .



أيها الليل

يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين .

يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة .

يا ليل الشوق والصبابة والتذكار .

أيها الجبار الوقف بين أقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر ، المتقلد سيف الرهبة ، المتموج بالقمر ، المتشح بثوب السكوت ، الناظر بألف عين إلى أعماق الحياة ، المصغي بألف أذن إلى آنة الموت والعدم .

أنت ظلام يرينا أنوار السماء ، والنهار نور يغمرنا بظلمة الأرض .

أنت أمل يفتح بصائرنا أمام هيبة اللانهاية ، والنهار غرور يوقفنا كالعميان في عالم المقاييس والكمية .

أنت هدوء يبيح بصمته خفايا الأرواح المستيقظة السائرة في الفضاء العلوي ، والنهار ضجيج يثير بعوامله نفوس المنطرحين بين سنابك المقاصد والغرائب .

أنت عادل يجمع بين جنحي الكرى أحلام الضعفاء بأمانى الأقوياء ، وأنت شقوق يغمض بأصابعه الخفية أجفان التعساء ويحمل قلوبهم إلى عالم أقل قساوة من هذا العالم .

بين طيات أثوابك الزرقاء يسكب المحبون أنفاسهم ، وعلى قدميك المغلفتين بقطر الندى يهرق المستوحشون قطرات دموعهم ، وفي راحتيك المعطرتين بطيب الأودية يضيع الغرباء تنهدات شوقهم وحنينهم ، فأنت نديم المحبين وأنيس المستوحدين ورفيق الغرباء والمستوحشين .

في ظلالك تدب عواطف الشعراء ، وعلى منكبيك تستفيق قلوب الأنبياء ، وبين ثنايا صفائك ترتعش قرائح المفكرين ، فأنت ملقن الشعراء والموحي إلى الأنبياء والموعز إلى المفكرين والمتأملين .

عندما ملت نفسي البشر وتعبت أجفاني من النظر إلى وجه النهار سرت إلى تلك الحقول البعيدة حيث تهجع أشباح الأزمنة الغابرة .

هنالك وقفت أمام كائن أقتم جامد مرتعش سائر بألف قدم فوق السهول والجبال والأودية .

هنالك حدقت شاخصاً بعيون الدجى ، مصغياً لحفيف الأجنحة غير المنظورة شاعراً بملايس ملابس السكوت ، مستبسلاً أمام مخاوف الظلام .

هنالك رأيتك أيها الليل شبحاً هائلاً جميلاً منتصباً بين الأرض والسماء ، متشجاً بالسحاب ، بمنطقاً بالضباب ، ضاحكاً من الشمس ، ساخرًا بالنهار ، مستهزئاً بالعييد الساهرين أمام الأصنام ، غاضباً على الملوك الراquدين فوق الحرير والديباج ، محملاً بوجوه اللصوص ، خافراً بقرب أسرة الأطفال ، باكياً لابتسام الساقطات ، مبتسماً لبكاء العشاق ، رافعاً بيمينك كبار القلوب ، ساحقاً بقدميك صغار النفوس .

هناك رأيتك أيها الليل ورأيتني ، فكنت بهولك لي أباً وكنت بأحلامي لك ابناً ، فأزيمحت من بيننا ستائر الأشكال وتمزق عن وجهينا نقاب الظن والتخمين ، فأبحت لي أسرارك ونياتك ، وأبنت لك أماني وآمالي ، حتى إذا تحولت أهوالك إلى أنغام أعذب من همس الأزهار ، وتبدلت مخاوفي بأنس أطيب من طمأنينة العصافير ، رفعتني إليك ، وأجلستني على منكبيك ، وعلمت عيني النظر ، وعلمت أذني السمع ، وعلمت شفتي الكلام ، وعلمت قلبي محبة ما لا يحبه الناس وكره ما لا يكرهونه ، ثم لمست بأناملك أفكارني فتدفقت أفكارني نهرًا راکضًا مترنمًا يجرف الأعشاب الذابلة ، ثم قبلت بشفتيك روحي فتمايلت روحي شعلة متقدة تلتهم الأنصاب اليابسة .

لقد صحبتك أيها الليل حتى صرت شبيهاً لك ، وألفتك حتى تمازجت ميولي بميولك ،
وأحببتك حتى تحول وجداني إلى صورة مصغرة لوجودك .

ففي نفسي- المظلمة كواكب ملتمعة ينثرها الوجد عند المساء وتلتقطها الهواجس في
الصباح ، وفي قلب الرقيب قمر يسعى تارة في فضاء متلبد بالغيوم وطوراً في خلاء بمواكب
الأحلام ، وفي روعي الساهرة سكينه تبيح بمفاعيلها سرائر المحيين وترجع خلاياها صدى
صلوات المتعبدين ، وحول رأسي غلاف من السحر تمزقه حشرة المنازعين ثم تخيطه أغاني
المتشبين .

أنا مثلك أيها الليل ، وهل يحسبني الناس مفاخرًا إذا ما تشبهت بك وهم إذا تفاخروا
يتشبهون بالنار!

أنا مثلك وكلانا متهم بما ليس فيه .

أنا مثلك بميولي وأحلامي وخلقي وأخلاقي .

أنا مثلك وإن لم يتوجني المساء بغيومه الذهبية .

أنا مثلك وإن لم يرصع الصباح أذيالي بأشعته الوردية .

أنا مثلك وإن لم أكن ممنطقاً بالمجرة .

أنا ليل مسترسل منبسط هادئ مضطرب وليس لظلمتي بدء وليس لأعماقي نهاية ، فإذا
ما انتصبت الأرواح متباهية بنور أفراحها تتعالى روعي متجمدة بظلام كآبتها .

أنا مثلك أيها الليل ولن يأتي صباحي حتى ينتهي أجلي .



الجنينة الساحرة

إلى أين تسيرين بي أيتها الساحرة؟

حتى مَ أتبعك على هذه الطريق الوعرة ، المناسبة بين الصخور ، المفروشة بالأشواك ،
المتصاعدة بأقدامنا نحو الأعالي ، الهابطة إلى الأعماق؟

قد تمسكت بأذيالك وسرت وراءك كطفل يلاحق أمه ، متناسياً ما بي من الأحلام ، محدّقاً
إلى ما فيك من الجمال ، متعامياً عن مواكب الأشباح المتطايرة حول رأسي ، مجذوباً بالقوّة
الخفيّة الكامنة في جسدك .

قفي بي هنيهة لأرى وجهك . انظري إليّ دقيقة لعلّي أرى في عينيك أسرار صدرك ،
وأفهم من ملامحك مخبّات نفسك .

قفي قليلاً أيتها الجنينة ، فقد مللت المسير وارتعدت روحي من مخاوف الطريق ، قفي فقد
بلغنا ملتقى السبل حيث يعانق الموت الحياة ، ولن أسير خطوة أخرى حتى تستعلن روحي
نيات روحك ويستوضح قلبي خزائن قلبك .

اسمعي أيتها الجنينة الساحرة .

كنت بالأمس طائرًا حرّاً أتنقل بين السواقي وأسبح في الفضاء وأجلس على أطراف
الغصون عند المساء متأملاً بالقصور والهياكل في مدينة الغيوم المتلوّنة التي تبنيها الشمس
عند الأصيل وتهدمها قبل الغروب .

بل كنت كالفكر أسير منفرداً في مشارق الأرض ومغاربها ، فرحاً بمحاسن الحياة
وملذاتها ، مستقصياً خفايا الوجود وأسراره .

بل كنت كالحلم أسعى تحت جناح الليل وأدخل من شقوق النوافذ إلى خدور العذارى
النائمات وأتلاعب بعواطفهن . ثم أقف بجانب أسرة الفتیان وأثير ميولهم . ثم أجلس
بقرب مضاجع الشيوخ وأستجلي أفكارهم .

واليوم ، وقد لقيتك أيتها الساحرة ، وتسممت بقبل يديك ، فقد أصبحت مثل أسير أجرّ
قيودي إلى حيث لا أدري ، بل صرت مثل نشوان أستزید من الخمرة التي سلبتني إرادتي
وألثم الكفّ التي صفعت وجهي .

ولكن قفي قليلاً أيتها الساحرة ، فها قد استرجعت قواي وكسرت القيود التي برت
قدمي وسحقت الكأس التي شربت منها السم الذي استطيتته . فماذا تريدین أن نفعل وعلى
أية طريق تريدین أن نسیر ؟

قد استرددت حرיתי فهل ترضین بي رفيقاً حرّاً «يحدق وجه الشمس بأجفان جامدة
ويقبض على النار بأصابع غير مرتعشة؟» .

لقد فتحت جناحي ثانية فهل تصبحین فتى يصرف الأيام متنقلاً كالنسر- بين الجبال ،
ويقضي الليالي رابضاً كالأسد في الصحراء ؟

هل تكتفين بحبّ رجل يتخذ الحبّ ندياً ويأباه سيّداً؟

هل تقنعين بشغف قلب يهيم ولا يستسلم ويشتعّل ولكنّه لا يذوب؟

هل ترتاحين إلى ميول نفس ترتعش أمام العاصفة ولكنّها لا تنصهر ، وتثور مع الزوابع
ولكنّها لا تُقتلع من مكانها؟

على ترضين بي صاحباً لا يستعبد ولا يُستعبد؟

إذا هذه يدي فهزيها بيدك الجميلة . وهذا جسدي فضميه بذراعيك الناعمتين ، وهذا
فمي فقبّليه قبله طويلة عميقة خرساء .



قبل الانتحار

في هذه الغرفة المنفردة الهادئة قد جلست بالأمس المرأة التي أحبّها قلبي .

إلى هذه المساند الوردية الناعمة قد أَلقت رأسها الجميل ، ومن هذه الكأس البلورية قد شربت جرعة من الخمر ، ممزوجة بقطرة من العطر .

كلّ ذلك قد كان بالأمس والأمس حلم لا يعود ، أمّا اليوم فقد ذهبت المرأة التي أحبّها قلبي إلى أرض بعيدة خالية مقفرة باردة تدعى بلاد الخلو والنسيان .

إنّ آثار أصابع المرأة التي أحبّها قلبي لم تزل ظاهرة على بلّور مرآتي ، وعطر أنفاسها ما برح متضوّعاً بين طيات أثوابي ، وصدى صوتها لم يضمحل بعد من زوايا منزلي . ولكن المرأة نفسها - المرأة التي أحبّها قلبي - قد رحلت إلى مكان قصي يدعى وادي الهجر والسلوان ، أمّا آثار أصابعها وعطر لهاثها وأشباح روحها فستبقى في هذه الغرفة حتى صباح الغد ، وعند ذلك أفتح نوافذ منزلي لتدخل أمواج الهواء وتجرف بتيارها كلّ ما تركته لي تلك الساحرة الحسنة .

إن رسم المرأة التي أحبّها قلبي لم يزل معلقاً بجانب مضجعي ، ورسائل الحبّ التي بعثت بها إلىّ ما برحت في العلبة الفضيّة المرصعة بالعقيق والمرجان ، وذؤابه الشعر الذهبية التي حبتني بها تذكّاراً لم تخرج قط من الغلاف الحريري المبطن بالمسك والبخور ، - جميع هذه الأشياء ستبقى في أماكنها حتى الصباح - وعند مجيء الصباح أفتح نوافذ منزلي ليدخل الهواء ويحملها إلى ظلمة العدم إلى حيث تقطن السكينة الخرساء .

إن المرأة التي أحبّها قلبي شبيهة بالنساء اللواتي أحبّتهن قلوبكم أيّها الفتيان . هي مخلوقة عجيبة صنعتها الآلهة من وداعة الحمامة وتقلبات الأفعى وتيه الطاووس وشراسة الذئب وجمال الورد البيضاء وهول الليلة السوداء مع قبضة من الرماد وغرفة من زبد البحر .

وقد عرفت المرأة التي أحبّها قلبي أيّام الطفولة فكنت أركض وراءها في الحقول وأتمسك بأذيالها في الشوارع .

وعرفتّها أيّام الصبا فكنت أرى خيال وجهها في وجوه الكتب والأسفار وأشاهد خطوط قامتها بين غيوم السماء وأسمع نغمة صوتها متصاعدة مع خرير السواقي .

وعرفتّها أيّام الرجولة فكنت أجالسها محدثاً وأسألها مستفتياً وأقترب منها شاكياً ما في قلبي من الأوجاع بأسطاً ما في روحي من الأسرار .

كلّ ذلك كان بالأمس والأمس حلم لا يعود ، أمّا اليوم فقد ذهبت تلك المرأة إلى ارض بعيدة خالية مقفرة باردة تدعى بلاد الخلو والنسيان .

أمّا اسم المرأة التي أحبّها قلبي فهو الحياة .

فالحياة امرأة ساحرة حسناء تستهوي قلوبنا ، وتستغرق أرواحنا ، وتغمر وجداننا بالوعد ، فإن مطلّت أماتت فينا الصبر ، وإن برّت أيقظت فينا الملل .

الحياة امرأة تستحم بدموع عشاقها وتتعطر بدماء قتلاها .

الحياة امرأة ترتدي الأيام البيضاء المبطّنة بالليالي السوداء .

الحياة امرأة ترضى بالقلب البشري خليلاً وتأباه حليلاً .

الحياة امرأة عاهرة ولكنّها جميلة ومن يرّ عهرها يكره جمالها .



يا بني أمي

ماذا تريدون مني يا بني أمي ؟

أتريدون أن أبني لكم من المواعيد الفارغة قصورًا مزخرفة بالكلام وهيكل مسقوفة بالأحلام ، أم تريدون أن أهدم ما بناه الكاذبون والجبناء وأنقض ما رفعه المراءون والخبثاء ؟

ماذا تريدون أن أفعل يا بني أمي ؟

أأهدل كالحمام لأرضيكم أم أزنجر كالأسد لأرضي نفسي ؟

قد غنيت لكم فهل ترقصوا ، ونحتُ أمامكم فلم تبكوا ، فهل تريدون أن أترثم وأنوح في وقت واحد ؟

نفوسكم تتلوى جوعًا وخبز المعرفة أوفر من حجارة الأودية ، ولكنكم لا تأكلون ، وقلوبكم تختلج عطشًا ومناهل الحياة تجري كالسواقي حول منازلكم ، فلماذا لا تشربون ؟

للبحر مدّ وجزرٌ ، وللقمر نقص وكمال ، وللزمن صيف وشتاء ، أما الحق فلا يحول ولا يزول ولا يتغير ، فلماذا تحاولون تشويه وجه الحق ؟

ناديتكم في سكينة الليل لأريكم جمال البدر وهيبة الكواكب فهببتم من مضاجعكم مدعورين وقبضتم على سيوفكم ورماحكم صارخين : أين العدو لنصرعه ؟ عند الصباح وقد جاء العدو بخيله ورَجْله ناديتكم فلم تهبّوا من رقادكم بل ظللتُم تغالبون مواكب الأحلام .

قلت لكم : تعالوا نصعد إلى قمة الجبل لأريكم ممالك العالم ، فأجبتم قائلين : في أعماق هذا الوادي عاش آباؤنا وجدودنا ، وفي ظلاله ماتوا ، وفي كهوفه قبروا ، فكيف نتركه ونذهب إلى حيث لم يذهبوا ؟

قلت لكم : هلمّوا نذهب إلى السهول لأريكم مناجم الذهب وكنوز الأرض فأجبتم قائلين : في السهول تربض اللصوص وقطّاع الطرق .

قلت لكم : تعالوا نذهب إلى الساحل حيث يعطي البحر خيراته فأجبتم قائلين : ضجيج اللجّة يخيف أرواحنا وهول الأعماق يमित أجسادنا .

لقد كنت أحبكم يا بني أمي وقد أضربني الحبّ ولم ينفعكم . واليوم صرت أكرهكم والكره سيل لا يجرف غير القضبان اليابسة ولا يهدم سوى المنازل المتداعية .

كنت أشفق على ضعفكم يا بني أمي والشفقة تكثر الضعفاء وتنمي عدد المتوانين ولا تجدي الحياة شيئاً ، واليوم صرت أرى ضعفكم فترتعش نفسي اشمئزاً وتنقبض ازدراء .

كنت أبكي على ذلّكم وانكساركم وكانت دموعي تجري صافية كالبلور ، ولكنها لم تغسل أدرانكم الكثيفة بل أزال الغشاء عن عيني ، ولا بلّلت صدوركم المتحجرة بل أذاب الجزع في قلبي ، واليوم صرت أضحك من أوجاعكم والضحك رعود قاصفة تجيء قبل العاصفة ولا تأتي بعدها .

ماذا تريدون مني يا بني أمي ؟

أتريدون أن أريكم أشباح وجوهكم في أحواض المياه الهادئة ؟ تعالوا إذن وانظروا ما أقبح ملامحكم .

هلمّوا وتأمّلوا فقد جعل الخوف شعور رؤوسكم كالرماد ، وعرك السهر عيونكم فأصبحت كالحفر المظلمة ، ولمست الجبانة خدودكم فبانت كالخرق المتجعّدة ، وقبّل الموت شفاهكم فأمست صفراء كأوراق الخريف .

ماذا تطلبون يا بني أمي ، بل ماذا تطلبون من الحياة والحياة لم تعد تحسبكم من أبنائها ؟
أرواحكم تنتفض في مقابض الكهّان والمشعوذين ، وأجسادكم ترتجف بين أنياب الطغاة
والسفّاحين ، وبلادكم ترتعش تحت أقدام الأعداء والفاحين ، فماذا ترجون من وقوفكم
أمام وجه الشمس ؟

سيوفكم مغلّفة بالصدأ ، ورماحكم مكسورة الحراب ، وتروسكم مغمورة بالتراب ،
فلماذا تقفون في ساحة الحرب والقتال ؟

دينكم رياء ودنياكم ادعاء وآخرتكم هباء ، فلماذا تحيون والموت راحة الأشقياء ؟
إنّما الحياة عزم يرافق الشيبه ، وجدّ يلاحق الكهولة ، وحكمة تتبع الشيخوخة ، أمّا أنتم
يا بني أمي فقد ولدتُم شيوخًا عاجزين ثمّ صغرت رؤوسكم وتقلّصت جلودكم فصرتم
أطفالًا تتقلّبون على الأوحال وتترامون بالحجارة .

إنّما الإنسانية نهر بلّوري يسير متدفّقًا مترنّمًا حاملًا أسرار الجبال إلى أعماق البحر . أمّا أنتم يا
بني أمي فمستنقعات خبيثة تدبّ الحشرات في أعماقها وتتلوّى الأفاعي على جنباتها .

إنّما النفس شعلة زرقاء متّقدة تلتهم الهشيم وتنمو بالأنواء وتنير أوجه الآلهة . أمّا
نفوسكم يا بني أمي فرماد تذرّيه الرياح على الثلوج وتبدّده العواصف في الأودية .

أنا أكرهكم يا بني أمي لأنكم تكرهون المجد والعظمة .

أنا احتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم .

أنا عدوّكم لأنكم أعداء الآلهة ولكنكم لا تعلمون !!!



نحن وأنتم

نحن أبناء الكآبة وأنتم أبناء المسرات .

نحن أبناء الكآبة ، والكآبة ظلّ إله لا يسكن في جوار القلوب الشريرة . نحن ذوو النفوس الحزينة ، والحزن كبير لا تسعة النفوس الصغيرة . نحن نبكي ونتحب أيها الضاحكون ، ومن يغتسل بدموعه مرّة يظلّ نقياً إلى نهاية الدهور .

أنتم لا تعرفوننا أمّا نحن فنعرفكم . أنتم سائرون بسرعة مع تيار نهر الحياة و فلا تلتفتون نحونا ، أمّا نحن فجالسون على الشاطئ نراكم ونسمعكم . أنتم لا تعون صراخنا لأن ضجيج الأيام يملأ آذانكم ، أمّا نحن فنسمع أغانيكم لأن همس الليالي قد فتح مسامعنا . نحن نراكم لأنكم واقفون في النور المظلم ، أمّا أنتم فلا تروننا لأننا جالسون في الظلمة المنيرة .

نحن أبناء الكآبة . نحن الأنبياء والشعراء والموسيقيون ، نحن نحوك من خيوط قلوبنا ملابس الآلهة ونملأ بحبات صدورنا حفلات الملائكة ، وأنتم - أنتم أبناء غفلات المسرات ويقظات الملامهي - أنتم تضعون قلوبكم بين أيدي الخلو لأن أصابع الخلو ليّنة الملامس وترتاحون بقرب الجهالة لأن بيت الجهالة خال من مرآة ترون فيها وجوهكم .

نحن نتنهد ومع تنهداتنا يتصاعد همس الزهور وحفيف الغصون وخيرير السواقي ، أمّا أنتم فتضحكون وققهقة ضحككم تمتزج بسحيق الجماجم وحرقة القيود وعويل الهاوية .

نحن نبكي ودموعنا تنسكب في قلب الحياة مثلما يتساقط الندى من أجفان الليل في كبد الصباح ، أمّا أنتم فتبتسمون ومن جوانب أفواهكم المبسمة تنهرق السخرية مثلما يسيل سم الأفعى على جرح الملسوع .

نحن نبكي لأننا نرى تعاسة الأرملة وشقاء اليتيم ، وأنتم تضحكون لأنكم لا ترون غير
لمعان الذهب . نحن نبكي لأننا نسمع أنه الفقير وصراخ المظلوم ، وأنتم تضحكون لأنكم لا
تسمعون سوى رنة الأقداح .

نحن نبكي لأن أرواحنا منفصلة بالأجساد عن الله ، وأنتم تضحكون لأن أجسادكم
تلتصق مرتاحة بالتراب .

نحن أبناء الكآبة وأنتم أبناء المسرات ، فاهلموا نضع مآتي كآبتنا وأعمال مسراتكم أمام
وجه الشمس .

أنتم بنيتم الأهرام من جماجم العبيد ، والأهرام جالسة الآن على الرمال تحدث الأجيال
عن خلودنا وفنائكم . ونحن هدمنا الباستيل بسواعد الأحرار والباستيل لفظة ترددها الأمم
فتباركنا وتلعنكم . أنتم رفعتم حدائق بابل فوق هياكل الضعفاء وأقمتهم قصور نينوى فوق
مدافن البؤساء ، وها قد أصبحت بابل ونينوى نظير آثار أخفاف الإبل على رمال الصحراء .
أما نحن فقد نحتنا تماثيل عشتروت من الرخام فجعلنا الرخام يرتعش جامداً ويتكلم صامتاً
، وضربنا النهاوند على الأوتار فاستحضرت الأوتار أرواح المحبين الحائمة في الفضاء ،
ورسمنا مريم بالخطوط والألوان فغدت الخطوط كأفكار الآلهة والألوان كعواطف الملائكة
.

أنتم تتبعون الملاهي وأظفار الملاهي مزّقت ألفَ ألفٍ من الشهداء في مسارح رومية وأنطاكية . ونحن نلاحق السكينة وأصابع السكينة نسجت الإلياذة وسفر أيّوب والتائية الكبرى . أنتم تضاجعون الشهوات وعواصف الشهوات جرفت ألف موكب من أرواح النساء إلى هاوية العار والفجور . ونحن نعانق الوحدة وفي ظلال الوحدة تجسّمت المعلقات ورواية هملت وقصيدة دانتي . أنتم تسامرون المطاعم وأسياف المطاعم أجرت ألف نهر من الدماء ونحن نرافق الخيال وأيدي الخيال أنزلت المعرفة من دائرة النور الأعلى .

نحن أبناء الكآبة وأنتم أبناء المسرّات ، وبين كآبتنا وسرروكم عقبات صعبة المسالك ضيقة المعابر لا تتجاوزها خيولكم المطهّمة ولا تسير عليها مركباتكم الجميلة .

نحن نشفق على صغارتكم وأنتم تكرهون عظمتنا وبين شفقتنا وكرهكم يقف الزمان محتارًا بنا وبكم .

نحن ندنو منكم كالأصدقاء وأنتم تهاجموننا كالأعداء ، وبين الصداقة والعداوة هوّة عميقة مملوءة بالدموع والدماء .

نحن نبني لكم القصور وأنتم تحفرون لنا القبور ، وبين جمال القصر- وظلمة القبر تسير الإنسانية بأقدام من حديد .

نحن نفرش سبلكم بالورود وأنتم تغمرون مضاجعنا بالأشواك ، وبين أوراق الورد وأشواكها تنام الحقيقة نومًا عميقًا أبديًا .

منذ البدء وأنتم تصارعون قوانا اللينة بضعفكم الخشن . تغلبون ساعة فتضجون فرحين كالضفادع ونغلبكم دهرًا ونظّل صامتين كالجبابة . قد صلبتم الناصري ووقفتم حوله تسخرون به وتجدّفون عليه ، ولكن لما انقضت تلك الساعة نزل من على صليبه وسار كالجبار يتغلّب على الأجيال بالروح والحقّ ويملأ الأرض بمجده وجماله .

قد سممتم سقراط ورجمتم بولس وقتلتم غليلو وفتكتم بعلي بن أبي طالب وخنقتم مدحت باشا ، وهؤلاء يحيون الآن كالأبطال الظافرين أمام وجه الأبدية . أمّا أنتم فتعيشون في ذاكرة الإنسانية كجثث فوق التراب لا تجد من يدفنها في ظلمة النسيان والعدم .

نحن أبناء الكآبة ، والكآبة غيوم تمطر العالم خيرًا ومعرفة ، وأنتم أبناء المسرات ومهما تعالت مسراتكم فهي كأعمدة الدخان تهدمها الرياح وتبددها العناصر .



أبناء الآلهة وأحفاد القروء

ما أغرب الدهر وما أغربنا ! فقد تغير الدهر وغيرنا وسار إلى الأمام وسيرنا وأسفر عن وجهه فأذهلنا وفرحنا .

كنّا بالأمس نشكو الدهر ونخشاه فأصبحنا اليوم نحبه ونهواه ، بل صرنا ندرك مقاصده وسجاياه ونفهم أسرارهم وخفياهم .

بالأمس كنّا ندب متحذرين كالأشباح المرتعشة بين أهوال الليل ومخاوف النهار ، فأصبحنا اليوم نسير متحمسين نحو قمم الجبال حيث تكمن العواصف الشديدة وتتولد البروق اللامعة ، والرعود القاصفة .

كنّا بالأمس نأكل الخبز معجوناً بالدماء ونشرب الماء ممزوجاً بالدموع ، فصرنا اليوم نتناول المنّ من أيدي عرائس الصباح ونرشف الخمر معطرة بأنفاس الربيع .

بالأمس كنّا ألعوبة في يد القضاء وكان القضاء جباراً ثملاً يتلوى بنا إلى اليمين وإلى اليسار ، أمّا اليوم فقد صحا القضاء من سكره فأصبحنا نلاعبه في لعب ، ونداعبه فيضحك ، ثم نقوده وراءنا فينقاد .

كنّا بالأمس نحرق البخور أمام الأصنام وننحر الضحايا أمام الآلهة الغضوب ، أمّا اليوم فصرنا لا نحرق بخوراً إلا لنفوسنا ، ولا نقدم ذبيحة لغير ذواتنا ، لأن أعظم الآلهة وأبهاهم جمالاً قد جعل هيكله في صدورنا .

بالأُمس كنّا نخضع للموك ونلوي رقابنا أمام السلاطين ، أمّا اليوم فصرنا لا ننحني إلّا
للحق ولا نتبع غير الجمال ، ولا نطيع سوى المحبة .

كنّا بالأُمس نخشع بأبصارنا أمام الكهّان ونتهيّب رؤية العرافين ، أمّا اليوم وقد تغيّر الدهر
وغيرنا فأصبحنا لا نحدق إلى غير وجه الشمس ، ولا نصغى إلّا لنغمة البحر ، ولا نهتر إلّا مع
الزوابع .

بالأُمس كنّا نهدم عروش نفوسنا لنبني منها قبورًا لأجدادنا ، أمّا اليوم فقد تحوّلت نفوسنا
مذابح مقدّسة لا تدنو منها أشباح القرون الغابرة ولا تلامسها أصابع الأموات البالية .

كنّا فكرًا صامتًا مختبئًا في زوايا النسيان فأصبحنا صوتًا ترتجف له أعماق الفضاء .

كنّا شرارة ضئيلة مكتنفة بالرماد فصرنا نارًا متقدة فوق أكتاف الأودية .

وكم سهرنا الليالي متوسّدين التراب ملتحقين بالثلوج باكين على إلف أضعناه ورزقٍ فقدناه
وكم صرفنا الأيام رابضين كنعاج لا راعي لها نقضم أفكارنا ونلوك عواطفنا ونظل جائعين
ظامئين . وكم وقفنا بين نهار زائل ومساء آت نائحين على شباب ذابل مشتاقين إلى من لا
نعرفه مستوحشين لأسباب نجهلها محدقين إلى فضاء خال مظلم ، مصغين إلى أنّه السكون
والعدم .

تلك أجيال مرّت مرور الذئاب الخاطفة بين المدافن ، أمّا اليوم وقد صحا الفضاء وصحونا ،
فصرنا نقضي الليالي البيضاء على أسرة علويّة ، مساهرين الخيال ، مسامرین الفكر ، معانقين
الميول ، تتمايل حولنا شعلات النار فنقبض عليها بأصابع غير مرتعشة وتتصاعد حولنا
أرواح الجن فنخاطبها بلغة غير ملتبسة ، وتمرّ بنا أجواق الملائكة فنستهويها بشوق قلوبنا
ونسكرها بنغمة أرواحنا .

كنّا بالأمس وأصبحنا اليوم ، وهذه مشيئة الآلهة بأبناء الآلهة ، فما هي إرادتكم يا أبناء القروء ؟

هل سرتم خطوة واحدة إلى الأمام منذ انبثقتم من شقوق الأرض ؟ أم رفعتم أبصاركم نحو الأعالي منذ فتحت الشياطين أبصاركم ؟ أم تلفظتم بكلمة من سفر الحق منذ قبّلت أفواه الأفاعي أفواهكم ؟

أم أصغيتم هنيهة لأغنية الحياة منذ أغلق الموت أذانكم ؟

منذ سبعين ألف سنة مررت بكم فرأيتم تتقلبون كالخشرات في زوايا الكهوف ، ومنذ سبع دقائق نظرت من وراء بلّور نافذتي فوجدتكم تسرون في الأزقة القذرة وأبالسة الخمور تقودكم وقيود العبودية تتمسك بأقدامكم وأجنحة الموت تصفّق فوق رؤوسكم . فأنتم اليوم كما كنتم بالأمس وستظلون غداً وبعده مثلما رأيتم في البدء .

كنّا بالأمس فأصبحنا اليوم ، وهذا ناموس الآلهة بأبناء الآلهة . فما هي سنّة القروء بكم يا أبناء القروء ؟



بين ليل وصباح

اسكت يا قلبي فالفضاء لا يسمعك .

اسكت فالأثير المثقل بالنوح والعيول لن يحمل أغانيك وأناشيدك .

اسكت فأشباح الليل لا تحفل بهمس أسرارك ومواكب الظلام لا تقف أمام أحلامك .

اسكت يا قلبي ، اسكت حتى الصباح ، فمن يترقب الصباح صابراً يلاقي الصباح قوياً .
ومن يهوى النور فالنور يهواه .

اسكت يا قلبي واسمعني متكلاً .

في الحلم رأيت شحروراً يغرد فوق فوهة بركان ثائر .

ورأيت زنبقة ترفع رأسها فوق الثلوج .

ورأيت حورية عارية ترقص بين القبور .

ورأيت طفلاً يلعب بالجماجم وهو يضحك .

رأيت جميع هذه الصور في الحلم ، ولما استيقظت ونظرت حولي رأيت البركان هائجاً ،
ولكنني لم أسمع الشحروور مغرداً ولا رأيت مرفراً .

ورأيت الفضاء ينثر الثلوج على الحقول والأودية سائراً بكفانه البيضاء أجسام الزنابق
الهامدة . ورأيت القبور صفوفاً منتصبة أمام سكينه الدهور وليس بينها من يتمايل راقصاً ولا
من يجثو مصلياً .

ورأيت رابية من الجماجم وليس هناك من ضاحك سوى الريح .

في اليقظة رأيت الحزن والأسى ، فأين ذهب أفراس الحلم ومسراته ؟

أنى توارت بهجة المنام وكيف اضمحلت رسومه ؟ وكيف تتجلد النفس حتى يعيد النوم
أشباح أمانيتها وآمالها ؟

اصغ يا قلبي واسمعني متكلمًا :

كانت نفسي بالأمس شجرة قويّة مسنّة تمدّ عروقها إلى أعماق الأرض وتتعالى غصونها نحو
اللانهاية .

ولقد أزهرت نفسي في الربيع وأثمرت في الصيف ، ولما جاء الخريف جمعت أثمارها في
أطباق من الفضة ووضعتها على قارعة الطريق ، فكان العابرون يتناولون منها ويأكلون ثمّ
يسيرون في سبيلهم .

ولما انقضى الخريف وتحوّلت تهاليله إلى الندب والولولة ، نظرت فلم أر في أطباقي سوى
ثمرة واحدة أبقاها الناس لي فتناولتها وأكلت فألفيتها مرّة كالعلقم ، وحامضة كالخصر-م ،
فقلت لنفسي :

ويحي لقد وضعت في أفواه الناس لعنة ، وفي أجوافهم عداء ، فماذا ترى فعلت يا نفسي-
بالحلاوة التي امتصتها عروقك من أحشاء الأرض ، وبالأريج الذي تشربته قضبانك من نور
الشمس ؟

بعد ذلك اقتلعت شجرة نفسي القويّة المسنة .

اقتلعتها بعروقها من التربة التي نمت فيها وترعرعت . اقتلعتها من ماضيها ونزعت عنها
ذكر ألف ربيع وألف خريف .

وعدت فزرعت شجرة نفسي في مكان آخر .

زرعتها في حقل بعيد عن سبل الزمن . وكنت أسهر بجانبها قائلاً : إن السهر يدنينا من النجوم . وكنت أسقيها بدمي ودموعي قائلاً : إن في الدم نكهة ، وفي الدموع حلاوة . ولما عاد الربيع أزهرت نفسي ثانية .

وفي الصيف أثمرت نفسي . ولما جاء الخريف جمعت أثمارها الناضجة بأطباق من الذهب ووضعتها على ملتقى السبل فمرّ الناس أفراداً وجماعات ولكن لم يمد أحد يده ليتناول منها . فأخذت إذ ذاك ثمرة وأكلت ، فوجدتها حلوة كالشهد ، لذيدة كالكوثر ، طيبة كالخمر البابلية ، عطرة كأنفاس الياسمين ، فصرخت قائلاً .

إن الناس لا يريدون البركة في أفواههم ولا الحق في أجوفهم ، لأن البركة ابنة الدموع ، والحق ابن الدماء .

ثم عدتُ وجلست فيظلّ شجرة نفسي المنفردة في حقل بعيد عن سبل الزمان .

اسكت يا قلبي حتى الصباح .

اسكت ، فالفضاء قد أخمته رائحة الأشلاء فلم يتشرب أنفاسك .

اصغ يا قلبي واسمعني متكئاً .

كانت ، بالأمس فكرتي سفينة تتقلب بين أمواج البحار وتتنقل مع الأهوية من شاطئ إلى شاطئ .

ولقد كانت فكرتي خالية إلا من سبعة أكواب طافحة بألوان مختلفة تشابه ألوان قوس قزح بنضارتها .

وجاء زمن مللت فيه التنقل على وجه البحار فقلت : سأعود بسفينة فكرتي الفارغة إلى ميناء البلد الذي ولدت فيه .

ثم أخذت أطلي جوانب سفيتي بألوان صفراء كشمس المغيب ، وخضراء كقلب الربيع ، وزرقاء ككبد السماء ، وحمراء كذوب الشفق ، وأرسم على شراعها ودفتها رسوماً غريبة تجذب العين وتبهج البصيرة . ولما انتهيت من عملي وقد ظهرت سفينة فكرتي كرؤيا نبي تطوف بين اللانهايتين : البحر والسماء ، دخلت ميناء بلدي فخرج الناس لملاقاتي بالتهليل والتعظيم وأدخلوني المدينة ضاربين الدفوف ، نافخين الزمور .

فعلوا ذلك لأن خارج سفيتي كان مزخرفاً بهجاً ولم يدخل أحد سفينة فكرتي .

ولم يسأل أحد ماذا جلبت فيها من وراء البحار .

ولم يدر أحد أنني عدت بها فارغة إلى الميناء .

عند ذلك قلت في سرّي : لقد ضللت الناس ، وبسبعة أكواب من الألوان قد كذبت على باصرائهم وبصائرهم .

وبعد عام ركبت سفينة فكرتي وأبحرت ثانية .

سرتُ إلى جزر الشرق فجمعتُ منها المرّ واللبان والصندل وأدخلتها إلى سفيتي .

وإلى جزر الغرب فجلبت منها التبر والعاج والياقوت والزمرد وجميع الحجارة الكريمة .

وإلى جزر الشمال فعدت منها بالخز والوشي والبرفير .

وإلى جزر الجنوب فحملت منها الدروع المزودة والسيوف المشرفية والرماح السمهرية وسائر أنواع الأسلحة .

ملأت سفينة فكري بنفائس الأرض وغرائبها . وعدت إلى ميناء بلدي قائلاً :
سوف يمجّدي قومي ولكن عن جدارة ، وسيدخلونني المدينة منشدين مزمّرين ولكن
عن استحقاق .

ولكن لما بلغت الميناء لم يخرج أحد لملاقاتي ، ودخلت شوارع بلدي فلم يلتفت إلى أحد .
ووقفت في ساحاتها معلناً للناس ما جلبت لهم من ثمار الأرض وطرائفها فكانوا ينظرون
إلى والضحك ملء أفواههم والسخرية على وجوههم ثم يتحوّلون عني .

فعدت إلى الميناء كئيلاً مستغرباً . ولكنني لما لمحت سفيتي حتى فطنت لأمرٍ كنت مشغولاً
عنه بمنازع أسفاري ورغائبها . فهتفت قائلاً :

إن أمواج البحار قد محت الطلاء عن سفيتي فبانت كهيكل من عظام ، وعفت الأرياح
والأنواء وحرارة الشمس الرسوم عن أشرعتها فظهرت كأثواب رمادية بالية .

لقد جمعت طرائف الأرض ونفائسها في تابوت يعوم على وجه الماء وعدت إلى قومي
فنبذوني لأن عيونهم لا ترى سوى المظاهر الخارجية .

في تلك الساعة تركت سفينة فكري وذهبت إلى مدينة الأموات وجلست بين القبور
المكلّسة مفكراً بأسرارها .

اسكت يا قلبي حتى الصباح . اسكت فالعاصفة الهوجاء تسخر بهمس أعماقك ،
وكهوف الوادي لن ترجع بصداها رنّات أوتارك .

اسكت يا قلبي حتى الصباح . فمن يترقّب الصبح متجلداً يعانقه الصباح مشتاقاً .

ها قد طلع الفجر يا قلبي فتكلّم إن كنت تستطيع الكلام .

هو ذا موكب الصباح يا قلبي . فهل أبقى سكوت الليل في أعماقك أغنية تلاقى بها
الصباح ؟

هو ذا أسراب الحمام والشحارير تتطاير متنقلة في أطراف الوادي . فهل أبقي هول الليل
في جناحك صلابة تطير معها ؟

هو ذا الرعيان يسرون أمام قطعانهم من الحظائر والمرابض . فهل أبقت لك أشباح الليل
عزماً لتسير وراءها إلى المروج الخضراء ؟

هو ذا الفتیان والصبابا يمشون الهوينا نحو الكروم . فهلاً نهضت ومشيت معهم ؟
قم يا قلبي . قم وسر مع الفجر فالليل قد مضى . ومخاوف الليل قد اضمحلت مع
أحلامه السوداء .

قم قلبي وارفع صوتك مترنماً . فمن لم يشارك الصبح بأغانيه كان من أبناء الظلام .

المخدرات والمباضع

هو متطّرف بمبادئه حتى الجنون .

هو خيالي يكتب ليفسد أخلاق الناشئة . لو اتبع الرجال والنساء المتزوجون وغير المتزوجين آراء جبران في الزواج لتقوّضت أركان العائلة ، وانهدمت مباني الجامعة البشرية ، وأصبح هذا العالم جحيماً وسكّانه شياطين .

قهرّاً عمّا في أسلوبه الكتابي من الجمال فهو من أعداء الإنسانية .

هو فوضوي كافر ملحد ، ونحن ننصح لسكّان هذا الجبل المبارك بأن ينبذوا تعاليمه ويحرقوا مؤلفاته لئلا يعلق منها شيء على نفوسهم .

قد قرأنا له « الأجنحة المتكسرة » فوجدناها السمّ في الدسم .

هذا بعض ما يقوله الناس عني وهم مصيبون ، فأنا متطّرف حتى الجنون ، أميل إلى الهدم ميلي إلى البناء ، وفي قلبي كُرّة لما يقدسه الناس وحبّ لما يابونه ، ولو كان بإمكانني استئصال عوائد البشر وعقائدهم وتقاليدهم لما تردّدت دقيقة . أمّا قول بعضهم إن كتابي سمّ في دسم فكلام يبيّن الحقيقة من وراء نقاب كثيف . فالحقيقة العارية هي أنّني لا أمزج السمّ بالدسم بل أسكبه صرفاً .. غير أنّني أسكبه في كؤوس نظيفة شفافة .

أمّا الذين يعتذرون عني أمام نفوسهم قائلين : هو خيالي يسبح مرفرفاً بين الغيوم فهم الذين يحدقون إلى لمعان تلك الكؤوس الشفّافة منصرفين عمّا في داخلها من الشراب الذي يدعونه سمّاً لأن معدتهم الضعيفة لا تهضمه .

قد تدلّ هذه التوطئة على الوقاحة الخشنة ، ولكن أليست الوقاحة بخشونتها أفضل من الخيانة بنعومتها ؟ إن الوقاحة نفسها بنفسها أمّا الخيانة فترتدي ملابس فصلت لغيرها .

يطلب الشرقيون من الكاتب أن يكون كالنحلة التي تطوف مرفوفة في الحقول جامعة حلاوة الأزهار لتصنع منها أقراصاً من العسل .

إن الشرقيين يحبّون العسل ولا يستطيعون سواه مأكلاً . وقد أفرطوا بالتهامه حتى تحوّلت نفوسهم إلى عسل تسيل أمام النار ولا تتجمّد إلّا إذا وضعت على الثلج .

ويطلب الشرقيون من الشاعر أن يحرق نفسه بخوراً أمام سلاطينهم وحكامهم وبطاركتهم . وقد تلبّد فضاء الشرق بغيوم البخور المتصاعدة من جوانب العروش والمذابح والمقابر ولكنّهم لا يكتفون . ففي أيّامنا هذا مدّا حون يضارعون المتنبّي ، وراثون يضاهون الخنساء ، ومهنتون أكثر طلاوة من صفّي الدين الحلي .

ويطلب الشرقيون من العالم أن يبحث في تاريخ آبائهم وجدودهم ، متعمّقاً بدرس آثارهم وعوائدهم وتقاليدهم صارفاً أيّامه ولياليه بين مطوّلات لغاتهم واشتقاقات ألفاظهم ومباني معانيهم وبيانهم وبديعهم .

ويطلب الشرقيون من المفكر أن يعيد على مسامعهم ما قاله بيدبا وابن رشد وأفرام السرياني ويوحنا الدمشقي وأن لا يتعدّى بكتابته حدود الوعظ البليد وإرشاد السقيم وما يجيئ بينهما من الحكم والآيات التي إذا ما تمشى عليها الفرد كانت حياته كالأعشاب الضئيلة التي تنبت في الظل ونفسه كالماء الفاتر الممزوج بقليل من الأفيون .

وبالاختصار فالشرقيون يعيشون في مسارح الماضي الغابر ويميلون إلى الأمور السلبية
المسلية المفككة ويكرهون المبادئ والتعاليم الإيجابية المجردة التي تلسعهم وتنبههم من
رقادهم العميق المغمور بالأحلام الهادئة .

إنما الشرق مريض قد تناوبته العلل وتداولته الأوبئة حتى تعود السقم الأم وأصبح ينظر
إلى أوصابه وأوجاعه كصفات طبيعية بل كخلال حسنة ترافق الأرواح النيلة والأجساد
الصحيحة ، فمن كان خاليًا منها عُدّ ناقصًا محرومًا من المواهب والكمالات العلوية .

وأطباء الشرق كثيرون يلزمون مضجعه ويتآمرون في شأنه ، ولكنهم لا يداؤونه بغير
المخدرات الوقتية التي تطيل زمن العلة ولا تبرئها .

أمّا تلك المخدرات المعنوية فكثيرة الأنواع متعددة الأشكال متبانية الألوان . وقد تولد
بعضها عن بعض مثلما تناسخت الأمراض والعاهات عن بعض . وكلما ظهر في الشرق
مرض جديد يكتشف له أطباء الشرق مخدرًا جديدًا .

وأمّا الأسباب التي آلت إلى وجود المخدرات فعديدة أهمها استسلام العليل إلى
فلسفة القضاء والقدر المشهورة ، وجبانة الأطباء وخوفهم من تهيج الألم الذي تحدثه
الأدوية الناجعة .

وإليك أمثلة من تلك المخدرات والمسكنات التي يتخذها الأطباء الشرقيون لمعالجة
الأمراض العائلية والوطنية والدينية :

ينفر الرجل من زوجته والمرأة من بعلها لأسباب وضعية حيوية فيتخاصمان ويتضاربان ويتباعدان ، ولكن لا يمرّ يوم وليلة حتى يجتمع أهل الرجل بأهل زوجته فيتبادلون الآراء المزخرفة والأفكار المرصعة ثم يتفقوا على إيجاد السلام بين الزوجين ، فيأتون بالمرأة ويستهوون عواطفها بالمواعظ الملفقة التي تخجلها ولا تقنعها ، ثم يستدعون الرجل ويغمرون رأسه بالأقوال والأمثال المزركشة التي تليّن أفكاره ولا تغيّرها . وهكذا يتمّ الصلح - الصلح الوقتي - بين الزوجين المتنافرين بالروح فيعودان قهراً عن إرادتهما إلى السكنى تحت سقف واحد حتى « يبوخ » الطلاء ويزول تأثير المخدر الذي استخدمه الأهل والأنساب فيعود الرجل إلى إظهار نفوره ومقته والمرأة إلى إزالة النقاب عن تعاستها . غير أن الذين أوجدوا الصلح في المرّة الأولى يوجدونه ثانية ، ومن يرتشف جرعة من المخدرات لا يأتى شرب كأس دهاق .

يتمردّ قوم على حكومة جائرة أو على نظام قديم فيؤلفون جمعية إصلاحية ترمي على النهوض والانعقاد فيخطبون بشجاعة ويكتبون بحماسة وينشرون اللوائح والبرامج ويبعثون الوفود والممثلين ، ولكن لا يمرّ شهر أو شهران حتى نسمع بأن الحكومة قد سجنت رئيس الجمعية أو عهدت إليه بوظيفة .

أما الجمعية الإصلاحية فلا نعود نسمع عنها شيئاً لأن أفرادها قد تجرّعوا قليلاً من المخدرات المعهودة وعادوا إلى السكينة والاستسلام .

تتمردّ طائفة على رئيس دينها لأمر أولية فتنتقد شخصه وتنكر أعماله وتبرّم من مآتيه ثم تهدّده باعتناقها مذهباً آخر أقرب إلى العقل وأبعد عن الأوهام والخرافات . ولكن لا يمرّ ربح من الزمن حتى نسمع بأن عقلاء البلاد قد أزالوا الخلاف بين الراعي ورعيته وأرجعوا بفضل المخدرات السحرية الهيبة إلى شخص الرئيس والطاعة العمياء إلى نفوس الرؤوسين العقوقين !

يتظلم مغلوب ضعيف من ظالم قوي فيقول له جاره : اسكت فالعين التي تعاند السهم تفقأ .

يشك القروي بتقي الربان وإخلاصهم فيقول له زميله : اصمت فقد جاء في الكتاب : اسمعوا أقوالهم ولا تفعلوا أفعالهم .

يعرض التلميذ عن استظهار مباحث البصريين والكوفيّين اللغوية فيقول له أستاذة : إن الكسالي والمتوانين يخلقون لنفوسهم أعداءاً أقبح من الذنوب .

تمتنع الصبية عن اتباع عوائد العجائز فتقول لها والدتها : ليست الابنة أفضل من أمّها فالطريق التي سلكتها تسلكينها أنت أيضاً .

يسأل الشاب مستفسراً معاني الزوائد الدينية فيقول له الكاهن : من لا ينظر بعين الإيمان لا يرى في هذا العالم سوى الضباب والدخان .

وهكذا تمرّ الأيام إثر الليالي ، والشرقي مضطجع على فراشه الناعم ، يستيقظ دقيقة عندما تلسعه البراغيث ، ثم يعود ويهجع جيلاً بحكم المخدرات التي تمازج دمه وتسير في عروقه . فإذا ما قام رجل وصرخ بالنائمين وملاً منازلهم ومعابدهم ومحاكمهم بالضجيج يفتحون أجفانهم المطبقة بالنعاس الأبدي ثم يقولون متثائبين : ما أخشنه فتى لا ينام ولا يدع الناس ينامون ! ثم يغمضون عيونهم ويهمسون في آذان أرواحهم : هو كافر ملحد يفسد أخلاق الناشئة ويهدم مباني الأجيال ويرشق الإنسانية بالسهام السامة .

قد سألت نفسي مرّات ما إذا كنت من المستيقظين المتردين الذي يأبون شرب المخدرات والمسكّنات ، فكانت نفسي تجيبني بكلمات مبهمة ملتبسة ، ولكنني لما سمعت الناس يجدفون على أسمي ويتأففون مبادئي أيقنت بحقيقة يقظتي وعلمت أنّي لست من المستسلمين إلى الأحلام اللذيذة والخيالات المستحبة . بل من أولئك المستوحدين الذين تسيرهم الحياة على سبل ضيقة مغروسة بالأشواك والأزهار مخوفة بالذئاب الخاطفة والبلابل المترنمة .

ولو كانت اليقظة فضيلة لمنعني الاحتشام عن ادعائها ، ولكنها ، ليست بفضيلة بل حقيقة غريبة تظهر على حين غفلة للأفراد المستوحدين وتسير أمامهم فيتبعونها قسر إرادتهم مجذوبين بأسلاكها الخفية محدقين إلى معانيها المهيبة .

وعندي أن الاحتشام في إظهار الحقائق الشخصية هو نوع من الرياء الأبيض المعروف عند الشرقيين باسم التهذيب .

غداً يقرأ الأدباء المفكرون ما تقدم فيقولون متضجرين : هو متطرف ينظر إلى الحياة من الوجهة المظلمة فلا يرى غير الظلام ، وطالما وقف فينا نادباً نائحاً باكياً علينا متأوهاً لحالنا .

فلهؤلاء الأدباء المفكرين أقول : أنا أندب الشرق لأن الرقص أمام نعيش الميت جنون مطبق .

أنا أبكي على الشرقيين لأن الضحك على الأمراض جهل مركب .

أنا أنوح على تلك البلاد المحبوبة لأن الغناء أمام المصيبة العمياء غباوة عمياء .

أنا متطرف لأن من يعتدل بإظهار الحق يبين نصف الحق ويبقى نصفه الآخر محجوباً وراء خوفه من ظنون الناس وتقولاتهم .

أنا أرى الجيفة المتننة فتشمئز نفسي وتضطرب أحشائي ولا أستطيع أن أجلس قبالتها وفي يميني كأس من الشراب وفي شمالي قطعة من الحلوى .

فإن كان هناك من يريد أن يبدل نوحى بالضحك ويحول اشمئزازي على الانعطاف وتطرفي إلى الاعتدال ، فعليه أن يريني بين الشرقيين حاكماً عادلاً ومتشرباً مستقيماً ورئيس دين يعمل بما يعلم ، وزوجاً ينظر على امرأته بالعين التي يرى بها نفسه .

إن كان هناك من يريد أن يشاهدني راقصاً ويسمعني مطبلاً ومزمرًا فعليه أن يدعوني إلى بيت العريس لا أن يوقفني بين المقابر .



السرجين المفضّض

- 1 -

سلمان أفندي :

هو رجل في الخامسة والثلاثين من عمره ، حسن اللباس ، رشيق القامة ، ذو شاربين معقوفين وحذاء لامع ، يلبس الأجرة الحربية ، ويدخن اللفائف الثمينة ، ويجعل بيده الناعمة عصا جميلة ذات قبضة ذهبية مرصعة بالحجارة الكريمة ، ويأكل في المطاعم الكبيرة حيث يلتئم سراة القوم وأشرفهم ، ويذهب إلى المتنزهات المشهورة في مركبة فاخرة يجرها فرسان كريمان .

ولم يرث سلمان أفندي المال عن أبيه لأن أباه رحمه الله كان رجلاً فقيراً مسكيناً ، ولا جدّ متاجراً فاكسب ثروة لأنه كسلان متوانٍ يكره العمل ويظنّه محطاً بمقامه ، وقد سمعناه مرّة يقول : إن جسدي وأخلاقي لا تساعدني على الشغل ، فالشغل قد وجد لذوي الأخلاق الباردة والأجساد الخشنة .

إذا كيف حصل سلمان أفندي على المال ، وأيّ ساحر حوّل التراب في كفيه إلى فضّة وذهب ؟ ذلك سرّ من أسرار السرجين المفضّض أعلنه لنا عزرائيل ونحن بدورنا نعلنه لكم :

منذ خمسة أعوام تزوّج سلمان أفندي من السيدة فهيمة أرملة المرحوم بطرس نعمان التاجر الذي اشتهر بين أترابه بالجد والمواظبة والأمانة . وقد كانت السيدة فهيمة حينئذ في الخامسة والأربعين من عمرها وفي السادسة عشرة من سني عواطفها وميولها ، وهي الآن تصبغ شعرها وتكحل عينيها وتطلي وجهها بالألوان والمساحيق ولكنها لا ترى سلمان أفندي قبل نصف الليل وقلماً حظيت منه بغير النظرات الحادة والألفاظ القاسية ، فهو مشغول عنها بتبذير الثروة التي جمعها زوجها الأوّل بكده وعرق جبينه .

أديب أفندي :

فتى في السابعة والعشرين من عمره ، ذو أنف كبير وعينين صغيرتين ووجه قذر ويدين ملطختين بالخبز وأظافر محشوة بالأوساخ . أمّا ملابسه فممزقة الأطراف وعلى حواشيها بقع من الزيت والدهن والقهوة . وليست هذه المظاهر القبيحة من نتائج العوز والحاجة بل من مولدات إهماله واشتغال باله بالأمور المعنوية والمسائل العلوية والمواضيع الإلهية ... وقد سمعناه يقول مستشهداً بأمين الجندي : إن القريحة لا تنصرف إلى شيئين . أي أن الأديب لا يستطيع أن يميل إلى صناعة القلم وإلى النظافة في وقت واحد .

أديب أفندي يتكلم كثيراً ويتكلم دائماً ، فهو منصرف عن كل شيء إلى الكلام ، وقد علمنا أنه صرف عامين في إحدى مدارس بيروت ودرس علم البديع على أحد الأساتذة المشهورين ونظم الشعر وأنشأ الرسائل والمقالات ولكنه لآن لم ينشر - منها شيئاً لأسباب كثيرة أهمها انحطاط الصحافة العربية وغبابة القراء !

وقد انصرف أديب أفندي في الآونة الأخيرة إلى خفايا الفلسفة القديمة والحديثة ، فهو معجب بسقراط ونيشيه في وقت واحد! ويميل إلى أقوال القديس أغسطينس ميله إلى كتابات فولتر وجان جاك روسو . وقد لقيناه مرة في عرس والناس حوله ينشدون الأهازيج ويشربون الخمر وهو يتكلم ببلاغته المشهورة عن مأساة هملت لشكسبير! ورأيناه مرة أخرى سائراً في جنازة وجيه والمشيّعون يمشون إلى جانبه برؤوس منخفضة وملامح كئيبة وهو يتكلم بفصاحته المعهودة عن خمريات أبي نواس وغزليات ابن الفارض !

لماذا يا ترى يعيش أديب أفندي؟ وما الغرض من صرفه الأيام والليالي بين الكتب القديمة والأوراق التالية؟ ولماذا لا يقتني حمارًا ويصير في عداد الماكزين الأقوياء النافعين؟

ذاك سِرٌّ من أسرار السرجين المفصّض أعلنه لنا بعكزبول ونحن بدورنا نعلن لكم :

منذ ثلاث سنوات نظم أديب أفندي قصيدة في مدح سيادة المطران يوحنا شمعون وأنشدها أمامه في دار حبيب بك سلوان ، ولما فرغ من تنعيمها دعاه سيادة المطران ووضع يده على كتفه وقال له مبتسمًا : عافاك الله يا ابني ، فما أبلغك شاعرًا وما أذكاك أديبًا! فأنا أفخر بأمثالك ولا أشكّ بأنك ستكون من رجال الشرق الكبار .

ومن تلك الساعة إلى الآن ووالد أديب أفندي وعمّه وخاله ينظرون إليه معجبين ويتحدّثون عنه مفاخرين قائلين :

أوّل يقل المطران يوحنا شمعون أنّه سيكون من رجال الشرق العظام؟

- 3 -



فريد بك دعبس :

هو رجل يناهز الأربعين ، طويل القامة ، صغير الرأس ، كبير الفم ، ضيق الجبهة أصلعها ، يمشي متثاقلاً بصدر منتفخ وعنق مستطيل ، ولخطواته وزن خاص يضارع بخثرة جمل يقلّ هودجاً . وعندما يتكلّم بصوته الجهوري وأسلوبه الفخم تحاله إن لم تكن تعرفه أحد وزراء الدولة المشغولين بتدبير شؤون الناس المهتمّين بتكليف أمور العباد .

وليس لفريد بك من عمل سوى الجلوس في صدور المحافل وتعداد مآتي أسرته المجيدة ومزايا محتده الكريم . وهو مغرم بسر-د أخبار الرجال العظام وأعمال الأبطال الكبار ك نابليون وعنزة العبي ، وله ولع خاص بالأسلحة النفيسة ولديه منها مجموعة حسنة معلّقة بترتيب على جدران منزله ولكنّه لا يحسن استعمالها!

ومن أقواله الماثورة : إن الله خلق الناس طبقات متفاوتة منها للرئاسة ومنها للخدمة . ومنها : إنّما الشعب حمار حرون لا يسير إلّا إذا علوت ظهره . ومنها : القلم للضعفاء أمّا السيف فللأشداء ..

وما هي الأسباب التي تجعل فريد بك يتجمّد متغطرساً ويتجبرّ متعجرفاً ويزهو مختالاً متبذخاً متبجحاً؟

ذاك سر من أسرار السرجين المفَضّض أبانه لنا سطانائيل ونحن بدورنا نبينه لكم :

في الثلث الأول من القرن التاسع عشر بينما كان الأمير بشير الشهابي سائراً بكوكبة من رجاله بين أودية لبنان مرّ بقرب القرية التي كان يقطنها منصور دعبس جد فريد بك دعبس . ولما كان النهار حاراً والشمس تريش الأرض بسهامها الدقيقة فتكاد تحرقها ترجل الأمير قائلاً لرجاله : تعالوا نرتاح في ظلال تلك السنديانة .

وعلم منصور دعبس بذلك فنادى جيرانه الفلاحين وأخبرهم بوجود الأمير الكبير على مقربة من قريتهم ، فساروا وراءه نحو تلك السنديانة حاملين أطباق التين والعنب وجرار اللبن والخمر والعسل . ولما بلغوا المكان تقدّم منصور دعبس وقبّل أطراف أذيال الأمير ثم نحر كبشاً أمامه وهتف قائلاً : هذا من خير أميرنا وولي نعمتنا .

فسرّ الأمير بأريحيّته وخلع عليه قائلاً : ستكون منذ الآن وصاعداً شيخاً على هذه القرية مشمولاً بنظري الخصوصي . وقد أعفيت سكّان قريتك من الأموال الأميرية في هذه السنة .

وفي تلك الليلة بعد أن تابع الأمير مسيره اجتمع في بيت «الشيخ منصور دعبس» جميع سكان القرية ونادوا به رئيساً مطاعاً في السراء والضراء - رحمهم الله جميعاً .

وللسرجين المفَضّض أسرار لا عداد لها تعلنها لنا الشياطين والأبالسة في كلّ يوم وليلة وسوف نظهرها لكم قبل أن يسيرنا الدهر إلى ما وراء الشفق الأزرق . أمّا الآن وقد انتصف الليل وملّت أجفاننا السهر فاسمحوا لنا أن ننام لعلّ عروس الأحلام تحمل روحنا إلى عالم أنظف من هذا العالم .



رؤيا

عندما جن الليل وألقى الكرى رداءه على وجه الأرض تركت مضجعي وسرت نحو البحر قائلاً في نفسي : البحر لا ينام . وفي يقظة البحر تعزية لروح لا تنام .

بلغت الشاطئ وكان الضباب قد انحدر من أعالي الجبال وغمر تلك النواحي مثلما يوشى النقاب الرمادي وجه الصبية الحسناء . فوقفت محدقاً إلى جيوش الأمواج مصغياً إلى تهاليلها ، مفكراً بالقوى السرمديّة الكامنة وراءها ، تلك القوى التي تركض مع العواصف وتثور مع البراكين وتبتسم بثغور الورود وتترنم مع الجداول .

وبعد هنيهة النفث فإذا بثلاثة أشباح جالسين على صخر قريب وأغشية الضباب تسترهم ولا تسترهم ، فمشيت نحوهم ببطء كأن في كيانهم جاذباً يستميلني قسر إرادتي .

ولما صرت على بعد بضع خطوات منهم وقفت شاخصاً بهم كأن في المكان سحراً أجمداً ما بي من العزم وأيقظ ما في روحي من الخيال .

في تلك الدقيقة وقف أحد الأشباح الثلاثة ، وبصوت خلته آتياً من أعماق البحر قال :

- الحياة بغير الحب كالشجرة بغير أزهار ولا أثمار . والحب بغير الجمال كأزهار بغير عطر ، وأثمار بغير بذور ... الحياة والحب والجمال - ثلاثة أقانيم في ذات واحدة مستقلة مطلقة لا تقبل التغيير ولا الانفصال . قال هذا وجلس في مكانه .

ثم انتصب الشبح الثاني ، وبصوت يماثل هدير مياه غزيرة قال :

- الحياة بغير تمرّد كالفضول بغير بيع . والتمرّد بغير حق كالربيع في الصحراء القاحلة الجرداء .. الحياة والتمرّد والحق - ثلاثة أقانيم في ذات واحدة لا تقبل الانفصال ولا التغيير .

ثم انتصب الشبح الثالث ، وبصوت كقصف الرعد قال :

الحياة بغير الحرّية كجسم بغير روح . والحرّية بغير الفكر كالروح المشوّشة ... الحياة والحرّية والفكر - ثلاثة أقانيم في ذات واحدة أزليّة ولا تضمحل .

ثمّ وقف الأشباح الثلاثة ، وبأصوات هائلة قالوا معاً :

- الحب وما يولده . والتمرد وما يوجدّه . والحرّية وما تنميه - ثلاثة مظاهر من مظاهر الله . والله ضمير العالم العاقل .

وحدث إذ ذاك سكون مفعم بحفيف أجنحة غير منظورة وارتعاش أجسام أثرية . فأغمضت عينيّ مصغيّاً إلى صدى الأقوال التي سمعتها . ولما فتحتها ونظرت ثانية لم أر غير البحر متشجّاً بدثار الضباب ، فاقتربت من الصخرة حيث كان الأشباح الثلاثة جالسين فلم أرَ إلاّ عموداً من البخور متصاعداً نحو السماء .



في ظلام الليل

كتبت أيام المجاعة

في ظلام الليل ينادي بعضنا بعضًا .

في ظلام الليل نصرخ ونستغيث وخيال الموت منتصب في وسطنا . وأجنحته السوداء تخيم علينا . ويده الهائلة تجرف إلى الهاوية أرواحنا . أمّا عيناه الملتهبتان فمحدقتان إلى الشفق البعيد .

في ظلام الليل يسير الموت ونحن نسير خلفه خائفين منتحبين وليس بيننا من يستطيع الوقوف وليس فينا من له أمل بالوقوف .

في ظلام الليل يسير الموت ونحن نتبعه ، وكلّما التفت الموت إلى الوراء يسقط منّا ألف إلى جانبي الطريق ، ومن يسقط يرقد ولا يستيقظ ، ومن لا يسقط يسير قسر- إرادته عالمًا بأنّه سيسقط ويرقد مع الذين رقدوا . أمّا الموت فيظلّ سائرًا محدّقًا إلى الشفق البعيد .

في ظلام الليل ينادي الأخ أخاه والأب أبناءه والأم أطفالها وكلّنا جائعون لاغبون متضوّرون . أمّا الموت فلا يجوع ولا يعطش ، فهو يلتهم أرواحنا وأجسادنا ويشرب دماءنا ودموعنا ولكنّه لا يشبع ولا يرتوي .

في الهزيع الأوّل من الليل ينادي الطفل أمّه قائلاً : يا أمّاه أنا جائع . فتجيبه الأم قائلة : اصبر قليلاً يا ولداه .

وفي الهزيع الثاني ينادي الطفل أمّه ثانية قائلاً : يا أمّاه أنا جائع فأعطيني خبزًا . فتجيبه : ليس لديّ خبز يا ولداه .

وفي الهزيع الثالث يمرّ الموت بالأم وطفلها ويصفعهما بجناحه فيرقدان على جانب الطريق ، أمّا الموت فيظلّ سائرًا محدّقًا إلى الشفق البعيد .

في الصباح يذهب الرجل إلى الحقول طالبًا القوت فلا يجد فيها غير التراب والحجارة .

وعند الظهر يعود إلى زوجته وصغاره خائر القوى فارغ اليدين .

وعندما يجيء المساء يمرّ الموت بالرجل وزوجته وصغاره فيجدهم راقدين فيضحك ثمّ يسير محدّقًا إلى الشفق البعيد .

في الصباح يترك الفلاح كوخه ويذهب إلى المدينة وفي جيبه حلي أمّه وأُختيه لبيتاع بها الدقيق . وعند العصر يعود إلى قريته ولا حلي فيجد أمّه وابنتيه راقدات ، أمّا عيونهن فلم تزل شاخصة إلى اللاشيء ، فيرفع ذراعيه نحو السماء ثمّ يهبط إلى الحضيض كطائر رماه الصياد . وفي المساء يمرّ الموت بقرب الفلاح وأمّه وأُختيه فيجدهم راقدين فيبتسم ثمّ يسير محدّقًا إلى الشفق البعيد . في ظلام الليل ، وليس لظلام الليل نهاية ، نناديكم أيّها السائرون في نور النهار فهل أنتم سامعون صراخنا؟

قد بعثنا إليكم أرواح أمواتنا رسلاً فهل وعيتم ما قاله الرسل؟

وحملنا الهواء الشرقي من أنفاسنا حملاً فهل بلغ الهواء شواطئكم البعيدة وألقى بين أيديكم أحماله الثقيلة؟ هل عرفتم ما بنا فقمتم تسعون لإنقاذنا أم وجدتم نفوسكم في سلامة وطمأنينة فقلتم : ماذا عسى يستطيع الجالسون في النور أن يفعلوا لأبناء الظلام؟ فلندع الموتى يدفنون أمواتهم ولتكن مشيئة الله . أي ، لتكن مشيئة الله .

ولكن هلاًّ تستطيعون أن ترفعوا نفوسكم إلى ما فوق نفوسكم ليصيّركم الله مشيئة له وعوناً لنا؟

في ظلام الليل ينادي بعضنا بعضًا .

في ظلام الليل ينادي الأخ أخاه والأم ابنها والزوج زوجته والمحِبَّ حبيبته . وعندما
تتمازج أصواتنا وتتعالى إلى كبد الفضاء يقف الموت هنيهة ضاحكًا مِنَّا مستهزئًا بنا ثم يسير
محددًا إلى الشفق البعيد .



الأضراس المسوسة

كان في فمي ضرّس مسوّس ، وكان يحتال على تعذيبي فيسكن متربصًا ساعات النهار ويستيقظ مضطربًا في هدوء الليل عندما يكون أطباء الأسنان نائمين والصيدلية مقفلة .

ففي يوم وقد نفذ صبري ذهبت إلى أحد الأطباء وقلت له : ألا فانزعه ضرّسًا خبيثًا يحرمني لذة الرقاد ويحوّل سكينه لياليّ إلى الأئين والضجيج .

فهزّ الطبيب رأسه قائلاً : من الغباوة أن نستأصل الضرّس إذا كان بإمكاننا تطيبه .

ثمّ أخذ يحفر جوانب الضرّس وينظف زواياه ويتفنّن بتطهيره من العلة . ولما وثق بأنّه صار خاليًا من السوس حشا ثقوبه بالذهب الخالص ثمّ قال مفاخرًا : لقد أصبح ضرّسك العليل أشد وأصلب من أضراسك الصحيحة . فصدقت كلامه وملاّت حفتته بالدنانير وذهبت فرحًا .

ولكن لم يمر الأسبوع حتى عاد الضرّس المشؤوم إلى تعذيبي وإبدال أنغام روحي بحشرة الاحتضار وعويل الهاوية .

فذهبت إلى طبيب آخر وقلت له بصوت يعانقه الحزم : ألا فاخلعه ضرّسًا مذهبًا شريرًا ، ولا تعترض « فمن يأكل العصي لا كمن يعدّها » .

فنزح الطبيب الضرّس وكانت ساعة هائلة بأوجاعها ولكنّها كانت ساعة مباركة .

وقد قال لي الطبيب بعد أن استأصل الضرّس وتفحصه جيّدًا : لقد فعلت حسنًا ، فالعلة قد تحكّمت بأصول ضرّسك هذا حتى لم يبق رجاء بشفائه .

وقد نمت مرتاحًا في تلك الليلة ، ولم أزل في راحة ، والحمد للخلع والاستئصال .

في فم الجامعة البشريّة أضرّاس مسوّسة وقد نخرتها العلّة حتى بلغت عظم الفك ، غير أن الجامعة البشريّة لا تستأصلها لترتاح من أوجاعها بل تكتفي بتمريرها وتنظيف خارجها وملء ثقبها بالذهب اللّماع .

وما أكثر الأطباء الذين يداوون أضرّاس الإنسان بالطلاء الجميل والمواد البرّاقة . وما أكثر المرضى الذين يستسلمون إلى مشيئة أولئك الأطباء المصلحين فيتوجعون ويسقمون ثمّ يموتون بعثتهم مخدوعين .

غير أن الأمّة التي تعتلّ تموت لا تُبعث ثانية لتظهر للملأ أسباب الأمراض المعنويّة وماهية الأدواء الاجتماعيّة التي تؤول بالأمم إلى الانقراض والعدم .

وفي فم الأمّة السوريّة أضرّاس بالية سوداء قدرة ذات رائحة كريهة وقد حاول أطباؤنا تطهيرها وحشوها بالميناء وإلباس خارجها رقوق الذهب ولكنّها لا تشفى ولن تشفى بغير الاستئصال . والأمّة التي تكون أضرّاسها معتلّة معدتها ضعيفة ، وكم أمّة ذهبت شهيدة عسر الهضم .

ومن شاء أن يرى أضرّاس سوريا المسوّسة فليذهب إلى المدرسة حيث يستظهر رجال الغد ما قاله الأخفش نقلاً عن سيويوه وسيويوه عن سائق الأظعان .

أو فليذهب إلى المحكمة حيث يتلاعب الذكاء البهلواني بالقضايا الشرعيّة مثلما تلعب القطة بصيدها . أو فليذهب إلى منازل المثرين حيث التصنّع والكذب والرياء .

وبعد ذلك فليذهب إلى أطباء الأسنان ذوي الأصابع الناعمة والآلات الدقيقة والمساحيق المخدّرة الذين يصرفون الأيّام بملء ثقب الأضرّاس المسوّسة وتطهير زواياها المعتلة ، وإذا أراد محادثتهم والانتفاع بمواهبهم فهم هم النبهاء الفصحاء البلغاء الذين يؤلّفون الجمعيات ويعقدون المؤتمرات ويخطبون في النوادي والساحات ، ففي حديثهم نعمة أسمى من أناشيد حجر الرحي وأنبل من أغاني الضفادع في ليالي تموز .

ولكن إذا قال لهم إن الأمة السوريّة تقضم قوت الحياة بأضرار مسوّسة ، وإنّ كل لقمة
تلوّكها تمتزج بلعاب مسمّم ، وإنّه قد نتج عن ذلك مرض في أمعائها ، إذا قال هذا يجيئونه
بقولهم : نعم نحن الآن منصرفون إلى درس أحدث المساحيق وأجدّ المخدّرات .

وإذا قال لهم : ما قولكم بالاستئصال؟ يضحكون منه لأنّه لم يدرس طب الأسنان الشريف .
وإذا أعاد السؤال ثانية يتعدّون عنه متضجرين قائلين في نفوسهم : ما أكثر الخياليين في
هذا العالم وما أوهى أحلامهم!



مساء العيد

جاء المساء وغمر الظلام المدينة فشعشت الأنوار في القصور والمنازل وخرج الناس إلى الشوارع بملابس العيد الجديدة وعلى وجوههم سيماء البشر والاستكفاء ، ومن بين دقائق لهائهم تنبعث رائحة المآكل والخمور .

أما أنا فسرت وحيداً منفرداً مبتعداً عن الزحام والضجيج أفكر بصاحب العيد .

أفكر بنابغة الأجيال الذي ولد فقيراً وعاش متجرّداً ومات مصلوباً .

أفكر بالشعلة النارية التي أوقدها الروح الكلي في قرية حقيرة بسوريا فطافت مرفوفة فوق رؤوس العصور مخترقة مدنية بعد مدنية .

ولما بلغت الحديقة العمومية جلست على مقعد خشبي أنظر من خلال أغصان الأشجار العارية نحو الشوارع المزدهمة وأسمع عن بُعد أناشيد المعيّدين السائرين في موكب اللهو والخلو .

وبعد ساعة مفعمة بالأفكار والأحلام التفت وإذا برجل جالس بقربي على المقعد وفي يده عصا يرسم بطرفها خطوطاً ملتبسة على التراب .. فقلت في نفسي : هو مستوحّد مثلي . ثمّ تفرست فيه متبصّراً شكله فألفيته رغم أثوابه القديمة وشعره المسترسل المشوّش ذا هيبة ووقار .. وكأنّه قد شعر بأنني أنظر إليه متفحّصاً شكله وملاحمه فالتفت نحوي وقال بصوت عميق هادئ : مساء الخير . فأرجعت التحية قائلاً : أسعد الله مساءك .

ثم عاد يرسم الخطوط بعكازه على أديم الأرض . وبعد هنيهة وقد أعجبت بنغمة صوته خاطبته ثانية قائلاً : هل أنت غريب في هذه المدينة؟

فأجاب : أنا غريب في هذه المدينة وأنا غريب في كل مدينة أخرى .

قلت : إن الغريب في مثل هذه المواسم يتناسى ما في الغربة من الضيم والوحشة لما يجده في الناس من الأُنس والانعطاف .

فأجاب : أنا غريب في مثل هذه الأيام أكثر مني في غيرها .

قال هذا ونظر إلى الفضاء الرمادي فأتسعت عيناه وارتعشت شفتاه كأنه رأى على صفحة الفضاء رسوم وطن بعيد .

قلت : إن القوم في هذه المواسم يعطف بعضهم على بعض ، فالغني يذكر الفقير والقوي يرحم الضعيف .

فأجاب : نعم، وما رحمة الغني بالفقير سوى نوع من حبّ الذات ، وليس انعطاف القوي على الضعيف إلا شكلاً من التفوّق والافتخار .

قلت : قد تكون مصيباً ولكن ماذا يهمّ الفقير الضعيف ما يجول في باطن الغني القوي من الرغائب والميول ؟ إن الجائع المسكين يحلم بالخبز ولكنّه لا يفكر في الكيفيّة التي يعجن بها الخبز .

فأجاب : إن الموهوب لا يفكر ما الواهب فيجب عليه أن يفكر ويفكر طويلاً .

فأعجبت بكلامه وعدت أتأمل منظره الغريب وأثوابه القديمة .

وبعد سكينه نظرت إليه قائلاً : يلوح لي أنك في حاجة ، فهلاً قبلت درهماً أو درهمن ؟

فأجاب وقد ظهرت على شفثيه ابتسامه محزنة : نعم أنا بحاجة ولكن إلى غير المال .

قلت : وماذا تحتاج ؟

فقال : أنا بحاجة إلى مأوى .. أنا بحاجة إلى مكان أسند إليه رأسي .

قلت : خذ مني درهمن واذهب إلى النزل واستأجر غرفة .

فأجاب : قد ذهبت إلى كل نزل في هذه المدينة فلم أجد لي مأوى ، وطرقت كل باب فلم أر صديقاً ، ودخلت كل مطعم فلم أعط خبزاً .

فقلت في نفسي : ما أغربه فتى يتكلم تارة كالفيلسوف وطوراً كالمجنون!

ولكن لم أهمس لفظة «مجنون» في أذن روحي حتى حدّق إليّ شاخصاً ورفع صوته عن ذي قبل وقال : نعم أنا مجنون ، من كل مثلي يرى نفسه غريباً بلا مأوى جائعاً بلا طعام .

قلت مستدرّكاً مستغفراً : سامح ظنوني فأنا لا أعرف من أنت وقد استغربت كلامك ، فهلاً قبلت دعوتي وذهبت معي لتصرف الليلة في منزلي؟

فأجاب : قد طرقت بابك ألف مرّة ولم يفتح لي .

قلت وقد تحققت جنونه : تعال الآن واصرف الليلة في منزلي .

فرفع رأسه وقال : لو عرفت من أنا لما دعوتني .

قلت : ومن أنت ؟

قال وفي صوته هدير مياه غزيرة : أنا الثورة التي تقيم ما أقعدته الأمم . أنا العاصفة التي تقتلع الأنصاب التي أنبتتها الأجيال . أنا الذي جاء ليلقي في الأرض سيفاً لا سلاًماً .

وقف منتصباً وتعالق قامته وسطع وجهه وبسط ذراعيه فظهر أثر المسامير في كفيه ، فارتميت راکعاً أمامه وصرخت قائلاً : يا يسوع الناصري .

وسمعه يقول إذ ذاك : العالم يعيد لاسمي وللتقاليد التي حاكتها الأيام حول اسمي . أما أنا فغريب أطوف تائهاً في مغارب الأرض ومشارقها وليس بين الشعوب من يعرف حقيقتي .

للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار وليس لابن الإنسان أن يسند رأسه .

ورفعت رأسي إذ ذاك ونظرت فلم أرَ أمامي سوى عمود من البخور ولم أسمع سوى صوت الليل آتياً من أعماق الأبدية .



الجبابة

ليس من يكتب بالخبر كمن يكتب بدم القلب .

وليس السكوت الذي يحدثه الملل كالسكوت الذي يوجد الألم .

أما أنا فقد سكتّ لأن آذان العالم قد انصرفت عن همس الضعفاء وأنينهم إلى عويل الهاوية وضجتها ، ومن الحكمة أن يسكت الضعيف عندما تتكلم القوى الكامنة في ضمير الوجود . تلك القوى التي لا ترضى بغير المدافع ألسنة ولا تقنع بسوى القنابل ألفاظاً .

نحن الآن في زمن أصغر صغائره أكبر من كبائر ما تقدمه . فالأمور التي كانت تشغل أفكارنا وميولنا وعواطفنا قد انزوت في الظل . والمسائل والمشاكل التي كانت تتلاعب بآرائنا ومبادئنا قد توارت وراء نقاب من الإهمال . أما الأحلام المستحبة والأشباح الجميلة التي كانت تميز متنقلة على مسارح وجداننا فقد تبددت كالضباب وحل محلها جبابة تسير كالعواصف ، وتهايل كالبحار ، وتتفّس كالبراكين .

وما عسى أن يصير إليه العالم بعد أن تنتهي الجبابة من صراعتها؟

هل يعود القروي إلى حقله فيلقي البذور حيث زرع الموت جماجم القتلى؟

هل يعود الراعي مواشيه إلى مروج مزّقت أديمها السيوف ويوردهما مناهل يمتزج ماؤها بنجيع الدماء؟

هل يركع العابد في هيكل رقصت فيه الشياطين ، ويردّد الشاعر قصائده أمام كواكب حُجبت بالدخان ، وينغم المنشد أغانيه في ليل عانقت سكينته الأهوال؟

هل تجلس الأم بجانب سرير رضيعها مرتلة بهدوء أغاني النوم وهي لا ترتجف وجلاً ممّا
سيجلبه الغد؟

هل يلتقي الحبيب بحبيبته ويتبادلان القبل حيث التقى العدو وتبادلا القذائف؟

وهل يعود نيسان إلى الأرض ويستر بقميصه أعضاءها المكلومة؟

ليت شعري ، هل يعود نيسان إلى الحقول؟

وما عسى تصير إليه بلادكم وبلادي ، وأي من الجبابرة يضع يده على تلك التلال
والهضاب التي أنبتتنا وصيرتنا رجالاً ونساء أمام وجه الشمس ؟

هل تبقى سورية مطروحة بين مغاور الذئاب وحظائر الخنازير ، أم تنتقل مع العاصفة إلى
عرين الأسد أو ذروة النسر ؟

وهل يطلع الفجر فوق قمم لبنان؟

كلّما خلوتُ بنفسي- أطرح عليها هذه السؤالات ، غير أن النفس كالقضاء تبصر- ولا
تتكلم ، وتسير ولكنها لا تلتفت ، فهي ذات عيون تتجلّى وأقدام تسارع ، أمّا لسانها فثقيل .

ومن منكم أيّها الناس لم يسأل نفسه في كلّ يوم وليلة عن مصير الأرض وسكانها بعد أن
تختمر الجبابرة من دموع الأرامل والأيتام؟

أنا من القائلين بسنة النشوء والارتقاء ، وفي عرفي أن هذه السنة تتناول بمفاعيلها
الكيانات المعنوية بتناولها الكائنات المحسوسة ، فتنتقل بالأديان والحكومات من الحسن إلى
الأحسن انتقلها بالمخلوقات كافة من المناسب إلى الأنسب . فلا رجوع إلى الوراء إلاّ في
الظاهر ولا انحطاط إلاّ في السطحي .

ولسنة الارتقاء سبل متشعبة بعضها من بعض ولكنها متلازمة الأصول ، ومظاهر قاسية
ظالمة مظلمة تنكرها الأفكار المحدودة وتتمرد عليها القلوب الضعيفة ، أمّا خفاياها فعادلة
منيرة ، متمسكة بحق أسمى من حقوق الأفراد ، محدقة إلى غرض أعلى من مرام الجماعة ،
مصيغة إلى صوت يغمر بهوله وعذوبته تنهدات المنكوبين وغصّات المتوجّعين .

حولي بكلّ مكان أقزام يرون عن بُعد أشباح الجبابة متناضلين ، ويسمعون في المنام
صدى تهليلهم ، فيضجون كالضفادع قائلين : قد رجع العالم إلى فطرته الوضعيّة . فما بنته
الأجيال بالعلم والفن قد هدمه الإنسان الوحشي - بالطمع والأنانية ، فحالنا اليوم حال
سكّان الكهوف ولا يميزنا عنهم سوى آلات نبتدعها للدمار وحيل نستخدمها للهلاك !

هذا ما يقوله هؤلاء الذين يقيسون ضمير العالم بمقياس ضمائرهم ، ويحلّلون مراد
الوجود بالفكرة القصيرة التي يستخدمونها لحفظ وجودهم الفردي . فكأن الشمس لم تكن
إلا لتدفّتهم ، وكأن البحر لم يوجد إلا لغسل أرجلهم .

من أحشاء الحياة ، من وراء المرئيات ، من أعماق الكون المدبر حيث تصان أسرار الكون
المدبر قد انبثقت الجبابة كالريح وتصاعدوا كالغيوم ثمّ تلاقوا كالجبال وهم الآن
يتصارعون ليحلوا مشكلة في الأرض لا يحلّها غير الصراع .

أمّا البشر وكلّ ما في رؤوسهم من المدارك والمعارف ، وما في قلوبهم من المحبة والبغضاء
، وما يعانق نفوسهم من الصبر والجزع والأوجاع فآلات يتناولها الجبابة ويديرونها توصلاً
إلى غاية علويّة لا بدّ من بلوغها .

أمّا الدماء التي أُهرقت فسوف تجري أنهارًا كثريةً ، وأمّا الدموع التي نثرت فستنبت
أزهارًا زكيةً ، وأمّا الأرواح التي فاضت فسوف تجتمع وتتألف وتطلع من وراء الأفق
الجديد صباحًا جديدًا فيعلم الناس أنّهم قد ابتاعوا الحقّ في سوق البؤس وإن من ينفق في
سبيل الحق لن يخسر .

وأمّا نيسان فسيعود - لكن من يطلب نيسان من غير كف الشتاء فلن يجده .



مات أهلي

كتبت أيام المجاعة

مات أهلي وأنا قيد الحياة أندب أهلي في وحدتي وانفرادي .

مات أحبابي وقد أصبحت حياتي بعدهم بعض مصابي بهم .

مات أهلي وأحبابي وغمرت الدموع والداء هضبات بلادي ، وأنا ههنا أعيش مثلما كنت عائشاً عندما كان أهلي وأحبابي جالسين على منكبي الحياة وهضبات بلادي مغمورة بنور الشمس .

مات أهلي جائعين ، ومن لم يمت منهم جوعاً قضى - بحد السيف ، وأنا في هذه البلاد القصية أسير بين قوم فرحين مغتبطين يتناولون المأكّل الشهية والمشارب الطيبة وينامون على الأسرة الناعمة ويضحكون للأيّام والأيّام تضحك لهم .

مات أهلي أذلّ ميتة ، وأنا ههنا أعيش في رغد وسلام . وهذه هي المأساة المستتبة على مسرح نفسي .

لو كنت جائعاً بين أهلي الجائعين مضطهداً بين قومي المضطهدين ، لكنت الأيّام أخفّ وطأة على صدري ، والليالي أقلّ سواداً أمام عينيّ ، لأن من يشارك أهله بالأسى والشدة يشعر بتلك التعزية العلوية التي يولدها الاستشهاد ، بل يفتخر بنفسه لأنّه يموت بريئاً مع الأبرياء .

ولكنني لست مع قومي الجائعين ، المضطهدين ، السائرين في موكب الموت نحو مجد الاستشهاد ، بل أنا ههنا وراء البحار السبعة أعيش في ظلّ الطمأنينة وخمول السلامة ، أنا ههنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ولا أستطيع أن أفتخر بشيء حتى ولا بدموعي .

وماذا عسى يقدر المنفيُّ البعيد أن يفعل لأهله الجائعين؟

ليت شعري ، ماذا ينفع ندب الشاعر ونواحه ؟

لو كنت سنبله من القمح نابته في تربة بلادي لكان الطفل الجائع يلتقطنهي ويزيل بحبّاتي يد الموت عن نفسه .

لو كنت ثمرة يانعة في بساتين بلادي لكانت المرأة الجائعة تتناولني وتقضمني طعامًا .

لو كنت طائرًا في فضاء بلادي لكان الرجل الجائع يصطادني ويزيل بجسدي ظلّ القبر عن جسده . ولكن ، واحرّ قلباه ، لست بسنبله من القمح في سهول سوريا ، ولا بثمره يانعة في أودية لبنان . وهذه هي نكبتني ، هذه نكبتني الصامته التي تجعلني حقيرًا أمام نفسي- وأمام أشباح الليل .

هذه هي المأساة الموجهة التي تعقد لساني وتكبّل يديّ ثم توقفني بلا عزم ، ولا إرادة ، ولا عمل .

يقولون لي : ما نكبة بلادك سوى جزء من نكبة العالم ، وما الدموع والدماء التي أهرقت في بلادك سوى قطرات من نهر الدماء والدموع المتدفق ليلاً ونهارًا في أودية الأرض وسهولها .

نعم ، ولكن نكبة بلادي نكبة خرساء ، نكبة بلادي جريمة حبلت بها رؤوس الأفاعي والثعابين ، نكبة بلادي مأساة بغير أناشيد ولا مشاهد .

لو ثار قومي على حكامهم الطغاة وماتوا جميعاً متمردين لقلت إن الموت في سبيل الحرية
لأشرف من الحياة في ظلال الاستسلام . ومن يعتنق الأبدية والسيف في يده كان خالداً
بخلود الحق .

لو اشتركت أمّتي بحرب الأمم وانقضت على بكرة أبيها في ساحة القتال لقلت هي
العاصفة الهوجاء تهصر بعزمها الأغصان الخضراء واليابسة معاً ، وإن الموت تحت أغصان
العواصف لأشرف منه بين ذراعي الشيخوخة .

ولو زلزلت الأرض زلزالها وقلبت ظهر بلادي صدرًا وغمر التراب أهلي وأحبائي لقلت
هي النواميس الخفية تتحرك بمشيئة قوة فوق قوى البشر . فمن الجهالة أن نحاول إدراك
أسرارها وخفاياها .

ولكن لم يمت أهلي متمردين ، ولا هلكوا محاربين ، ولا زعزع الزلزال بلادهم فانقضوا
مستسلمين .

مات أهلي على الصليب .

ماتوا وأكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب وعيونهم إلى سوداء الفضاء .

ماتوا صامتين لأن آذان البشرية أغلقت دون صراخهم .

ماتوا لأنهم لم يحبوا أعداءهم كالجناء ، ولم يكرهوا محبيهم كالجاحدين .

ماتوا لأنهم لم يكونوا مجرمين .

ماتوا لأنهم لم يظلموا الظالمين .

ماتوا لأنهم كانوا مسالمين .

ماتوا جوعاً في الأرض التي تدرّ لبناً وعسلاً .

ماتوا لأن الثعبان الجهنمي قد التهم كلّ ما في حقولهم من المواشي وما في أهرائهم من الأقوات .

ماتوا لأن الأفاعي أبناء الأفاعي قد نفثوا السموم في الفضاء الذي كانت تملؤه أنفاس الأرز وعطور الورود والياسمين .

مات أهلي وأهلكم أيها السوريون ، فماذا نستطيع أن نفعل لمن لم يمت منهم ؟

إن نواحنا لا يسدّ رمقهم ، ودموعنا لا تروي غليلهم ، إذن ماذا نفعل لننقذهم من الجوع والشدة ؟

هل نبقي مرتايين ، مترددين ، متكاسلين ، مشغولين عن المأساة العظمى بتوافه الحياة وصغائرها ؟

إن العاطفة التي تجعلك ، يا أخي السوري ، تعطي شيئاً من حياتك لمن يكاد يفقد حياته هي الأمر الوحيد الذي يجعلك حريّاً بنور النهار وهدوء الليل .

وإن الدرهم الذي تضعه في اليد الفارغة الممدودة إليك هو الحلقة الذهبية التي تصل ما فيك من البشرية بما فوق البشرية .



الأمر وذواتها

الأمة مجموع أفراد متبايني الأخلاق والمشارب والآراء تضمّهم رابطة معنويّة أقوى من الأخلاق وأعمق من المشارب وأعمّ من الآراء .

وقد تكون الوحدة الدينيّة بعض خيوط هذه الرابطة ، غير أن الخلاف في العقيدة لا يحلّ الروابط الأُمّية إلا إذا كانت ضعيفة واهية كما هي في بعض البلاد الشرقيّة .

وقد تكون وحدة اللغة سبباً أساسياً لإيجاد هذه الرابطة ، ولكن هناك شعوب كثيرة تتكلّم لغة واحدة مع أنّها في خلاف مستمر من حيث السياسة والإدارة والنظريات الاجتماعيّة .

وقد تكون الوحدة الدمويّة أساساً لهذه الرابطة ، ولكن في التاريخ أمثلة عديدة نستدلّ منها على أن أفخاذ عنصر- واحد انشقت بعضها على بعض وكان ذلك الانشقاق مجلبة للتطاحن والتباغض ثمّ الاضمحلال .

وقد تكون المصلحة المادية نولاً تحاك عليه الرابطة ، ولكن هناك شعوب عديدة لم تُحكّ مصلحتهم المادية سوى المنافسة والمناقشة .

إذن ما هي تلك الرابطة الاجتماعية؟ وما هي التربة التي تنبت فيها أنصاب الأمم؟
لي رأي في الرابطة الأُمّية قد يحسبه بعض المفكرين غريباً لأن أصوله ونتائجه ليست من
الأمور المحسوسة .

أمّا رأيي فهو هذا :

لكلّ شعب ذاتٌ عامّة ، تشابه بجوهرها وطبيعتها ذات الفرد . ومع أن هذه الذات
العامة تستمد كيائها من أفراد الشعب كما تستمد الشجرة حياتها من الماء والتراب والنور
والحرارة فهي مستقلّة عن الشعب ولها حياة خاصّة وإرادة منفردة . وكما يصعب عليّ تحديد
وتعيين الزمن الذي تتولّد فيه ذات الفرد الواحد ، هكذا يصعب عليّ تعيين وتحديد الزمن
الذي تتولّد فيه الذات العامة . غير أنني أشعر أن الذات المصريّة - مثلاً - قد تبلورت قبل
ظهور الدولة الأولى على ضفاف النيل بزمن لا يقلّ عن خمسمائة سنة . ومن تلك الذات
العامة قد استمدّت مصر مظاهرها الفنيّة والدينية والاجتماعيّة . وما أقوله عن مصر- يصح
في آشور وفارس واليونان ورومة والعرب وغيرها من الأمم الحديثة ، أعني تلك التي
ظهرت بعد انقضاء الأجيال المتوسطة .

قلت إن للذات العامة حياة خاصّة ، نعم ، ولما كان لكلّ حيٍّ عمر محدود كان لتلك
الذات العامة أجل محدود لا تتجاوزه . ومثلما يسير الكيان الفردي من الطفولة إلى الشبيبة ،
إلى الكهولة ، إلى الشيخوخة ، هكذا يتدرّج كيان الذات العامة من يقظة الفجر الموشحة
بنقاب النوم ، إلى يقظة الظهر المتجلّبة بنور الشمس ، إلى يقظة المساء المتسرّبة بلباس
التضجر ، إلى يقظة الليل المغمورة بالنعاس ، إلى سبات عميق .

إن الذات اليونانية قد استيقظت في القرن العاشر قبل المسيح ، ومشيت بعزم وجلال في القرن الخامس قبل المسيح . ولما بلغت عهد الناصري كانت قد ملّت أحلام اليقظة فنامت على مضجع الأبدية لتعانق أحلام الأبدية .

أمّا الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام ، ولم تتمخض بالنبي محمد حتى انتصبت كالجبار واثارت كالعاصفة متغلبة على كل ما يقف في سبيلها . ولما بلغت العباسيين تربعت على عرش منتصب فوق قواعد لا عداد لها أولها في الهند وآخرها في الأندلس . ولما بلغت عصاري نهارها وكانت الذات المغولية قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق إلى الغرب كرهت الذات العربية يقظتها فنامت ولكن نومًا خفيًا متقطعًا . وقد تعود وتفوق ثانية لتبين ما بقي خفيًا في نفسها كما عادت الذات الرومانية في زمن النهضة الإيطالية المعروفة بالرنسانس وأكملت في البندقية وفلورنسا وميلانو ما ابتدأت به قبل أن تباغتها الشعوب التوتونية في بدء الأجيال المظلمة .

وأغرب الذوات العامة في التاريخ هي الذات الفرنسية ، فهي قد عاشت ألفي سنة أمام وجه الشمس ولم تزل في شبيهة نضرة . وهي اليوم أدق فكرًا وأحدّ وأوسع فناءً وعلمًا مما كانت في أي زمن من تاريخها .

فرودان وكارير وشيتان وهوغو ورينان وساسه وسيموني ، وجميعهم من أبناء القرن التاسع عشر ، كانوا أعظم رجال العالم فناءً وأكثرهم علمًا وأبعدهم خيالاً ، الأمر الذي يدلنا على أن لبعض الذوات العامة أعمارًا أطول من الأخرى . فالذات المصرية عاشت ثلاثة آلاف سنة . أمّا الذات اليونانية فلم تعيش أكثر من ألف سنة . وقد تكون الأسباب في طول آجال الذوات العامة أو قصرها شبيهة بأسباب قصر أعمار الأفراد أو طولها .

وماذا يا ترى يحلّ بالذات العامة بعد أن تلعب دورها على مسرح الوجود؟

هل تموت وتفنى بدورها غير تاركة وراءها سوى الذكرى لمن يجيء بعدها؟ هل تضمحل أمام الأيام والليالي كأنّها لم تكن مظهرًا لليالي والأيام؟

في عقيدتي أن الكيان المعنوي يتغيّر ولكنّه لا ولن يضمحل . فهو كالكيان المادي يتحوّل من شكل إلى شكل ومن صورة إلى صورة ، أمّا دقائقه وذراته الوضعيّة فباقية ببقاء الزمن . فذات الأمة العامّة تنام ولكن نوم الأزاهر بعد أن تلقي بذورها في تربة الأرض ، أمّا عطرها فيتصاعد إلى عالم الخلود . وعندي أن العطر في الأمة أو في الزهرة هو الحقيقة المجردة ، هو الجوهر المطلق ، فعطر ثيب وبابل ونينوي وأثينا وبغداد موجود الآن في الغلاف الأثيري المحيط بالأرض ، بل هو موجود في أعماق أرواحنا . ونحن ، أفرادًا وجماعات ، ورثة كلّ الذوات العامة التي وجدت على سطح الأرض .

غير أن ذلك الإرث العلوي لا يتخذ له صورًا محسوسة في الفرد أو الجماعات حتى تتبلور الأمة التي ينتسب الأفراد والجماعات إليها وتصير ذاتًا لها حياة خاصّة وإرادة منفردة .



فلسفة المنطق

أو معرفة الذات

في ليلة من ليالي بيروت الممطرة جلس سليم أفندي دعبس أمام منضدة فوقها أكداس من الكتب العتيقة والأوراق المنثورة يقلّب الأسفار ويرفع رأسه بين الآونة والأخرى مخرجاً من بين شفتيه الغليظتين سحابة من دخان التبغ . وقد كان بين يديه إذ ذاك رسالة فلسفية أوحاها سقراط لتلميذه أفلاطون في « معرفة الذات » .

كان سليم أفندي يتبصّر- آيات تلك الرسالة النفيسة مستحضراً- إلى حافظته ما قاله الفلاسفة والمرشدون في موضوعها حتى لم تبقَ شاردة لمفكر غربي إلاّ لازمت فكرته ولا واردة لمعلم شرقي إلاّ لاحمت ذاكرته ، حتى إذا ما غرقت ذاته في موضوع معرفة الذات نهض فجأة ومدّ ذراعيه وصرخ بأعلى صوته قائلاً : نعم . نعم . إن معرفة الذات هي أم كلّ معرفة ، أمّا أنا فعليّ أن أعرف ذاتي . وأعرفها تماماً . وأعرفها بتفاصيلها ومعالمها ودقائقها وذراتها . عليّ أن أزيل النقاب عن أسرار نفسي وأحوال لباس عن مكامن قلبي . بل عليّ أن أُبين معاني كياني المعنوي لكياني الهولي ، وخفايا وجودي الهولي لوجودي المعنوي .

قال هذا بحماسة غريبة وفي عينيه تتقدّ شعلة « محبة المعرفة » ، معرفة الذات ، ثمّ دخل إلى غرفة محاذية وانتصب كالتمثال أمام مرآة كبيرة تصل أرض الغرفة بسقفها ونظر محدّقاً إلى شبّحه متفرّساً في وجهه متأمّلاً بشكل رأسه وخطوط قامته وإجمال هيأته .

ظلّ واقفاً حامداً على هذه الحالة نصف ساعة كأن الفكرة الأزليّة قد أنزلت عليه أفكاراً هائلة بسموها تجعله بواسطتها يكتشف بواطن روحه ويملاً بالنور خلايا ذاته . ثمّ فتح شفتيه بهدوء وقال مخاطباً نفسه :

أنا قصير القامة وهكذا كان نابليون وفكتور هوغو .

أنا ضيق الجبهة وهكذا كان سقراط وسينوزا .

أنا أصلع وهكذا كان شكسبير .

أنفي كبير ومنحن إلى جهة واحدة وهكذا كان سفنرولا وفولتر وجورج واشنطن .

في عينيّ سقم وهكذا كان بولس الرسول ونيتشه .

فمي غليظ وشفتي ناتئة وهكذا كان شيشرون ولويس الرابع عشر .

عنقي غليظ وهكذا كان هنيبال ومرقس أنطونيوس .

أذناي مستطيلتان بارزتان إلى الجهة الوحشية وهكذا كان برونر وسرفانتي .

وجنتاي بارزتان وخدّاي ضامران وهكذا كان لافيات ولنكلن .

ذقني متقاهر إلى الوراء وهكذا كان غولد سميث ووليم بت .

كتفائي متباينتان فالواحدة تعلو على الأخرى ، وهكذا كان غمبتا وأديب إسحق .

يداي ثخيتا الكفّين قصيرتا الأصابع وهكذا كان بليك ودانتون .

وبالإجمال جسدي ضعيف نحيل وهذا شأن كثير المفكرين الذين تتعب أجسادهم في مرامي نفوسهم ، ومن الغريب أني لا أستطيع الجلوس كاتباً أو مطالعاً إلاّ وبجانبني إبريق القهوة مثلما كان يفعل بلزاك . وفوق ذلك فلي ميل إلى معاشرة الرعاع والبسطاء كتولستوي ومكسيم غوركي . وقد يمرّ اليوم واليومان دون أن أغسل وجهي ويديّ وهكذا كان بيتهوفن وولت وتمر . وللعجب أنّني أستريح لسماع أخبار النساء وما يفعلنه في غياب أزواجهن كبوكاشيو وريبالي . أمّا عطشي إلى الحمرة فيضارع عطش نوح وأبي نواس ودي موسيه ومارلو . وأمّا مجاعتي للمآكل الشهية والموائد المرصوفة بالألوان المتنوعة فتقارن بهم بطرس الأكبر والأمير بشير الشهابي .

ووقف سليم أفندي دقيقة عن مخاطبة نفسه ثمّ لمس جبهته بأطراف بنانه وزاد قائلاً : « هذا أنا . هذه هي حقيقتي . فأنا مجموع صفات كان حائزاً عليها أعظم الرجال من بدء التاريخ إلى يومنا هذا . وفتى جامع لهذه المزايا لا بد أن يفعل شيئاً عظيماً في هذا العالم .

« رأس الحكمة معرفة الذات . وأنا قد عرفت نفسي في هذه الليلة ومنذ الليلة سأبتدئ بالعمل العظيم الذي انتدبتني إليه فكرة هذه العالم بوضعها في أعماقي عناصر متعددة متباينة . رافقت عظماء البشر من نوح إلى سقراط إلى بوكاشيو إلى أحمد فارس الشدياق . أنا لا أدري ما هو العمل العظيم الذي سأقوم به ولكن رجلاً جمع في شخصه الهولي وذاته المعنوية ما أنا جامع لهو من معجزات الأيام ومبتكرات الليالي .. لقد عرفت نفسي ، نعم والآلهة قد عرفت نفسي ، فلتحي نفسي ولتعش ذاتي وليبق الكون كوناً حتى تتم أعمالي » .

ومشى سليم أفندي في تلك الغرفة ذهاباً وإياباً وسياء البشر في سحنته القبيحة وهو يردّد بصوت يأتلف بنبراته مواء القطط بقلقلة العظام بيت أبي العلاء القائل :

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الْآخِرَ زَمَانُهُ لَا تَبْ بِمَا لَمْ تَسْطَعُ الْأَوَائِلُ

وبعد ساعة كان صاحبنا مضطجعاً بملابسة المشوشة على سريريه المشقلب وغطيطه يملأ فضاء ذلك الحيّ بنغمة أدنى إلى جعجعة الطاحون منها إلى صوت ابن آدم .



العاصفة

- 1 -

كان يوسف الفخري في الثلاثين من عمره عندما ترك العالم وما فيه وجاء ليعيش وحيداً متزهداً صامتاً في تلك الصومعة المنفردة القائمة على كتف وداي قاديشا في شمال لبنان .

وقد اختلف سكّان القرى المجاورة في أمره ، فمنهم من قال : هو ابن أسرة شريفة مثرية وقد أحبّ امرأة فخانت عهده فهجر الديار وطلب الخلوة توصلّاً إلى السلوان . ومنهم من قال : هو شاعر خيالي قد انصرف عن ضجة الاجتماع ليدوّن أفكاره وينظم عواطفه . ومنهم من قال : هو متصوّف متعبّد قد اقتنع بالدين دون الدنيا . ومنهم من اكتفى بقوله : هو مجنون .

أما أنا فلم أكن من رأي هذا ولا ذاك لعلمي أن في داخل الأرواح أسراراً غامضة لا تكشفها الظنون ولا ييوح بها التخمين ، غير أنني كنت أتمنى لقاء هذا الرجل الغريب وأشتهي محادثته . وقد حاولت مرّتين التقرب إليه لأستطلع حقيقته وأستفسر - مقاصده وأمانيه ، فلم أظفر منه بسوى نظرات حادة وبعض ألفاظ تدلّ على الجفاء والبرودة والترفع . ففي المرّة الأولى ، ولقد لقيته سائراً بقرب غابة الأرز ، حييته بأحسن ما حضرني من الكلام فلم يردّ التحية إلا بهزّ رأسه ثم تحوّل عني مسرعاً . وفي المرّة الثانية وجدته واقفاً في وسط كرمة صغيرة بقرب صومعة فدنوت منه قائلاً : قد سمعت بالأمس أن هذه الصومعة بناها ناسك سرياني في القرن الرابع عشر ، فهل لك علم بذلك يا سيّدي ؟

فأجاب بلجهة خشنة : لا أعلم من بنى هذه الصومعة ولا أريد أن أعلم . ثم أدار لي ظهره وزاد ساخراً : لماذا لا تسأل جدّتك فهي أقدم عهداً وأكثر علماً بتاريخ هذه الأدوية . فتركته مكسوفاً نادماً على تطفلي .

وهكذا مرّ عامان وحياة هذا الرجل المكتنفة بالأسرار تراود خيالي وتتمايل مع أفكاره وأحلامي .

ففي يوم من أيام الخريف وقد كنت متجوّلاً بين تلك التلّول والمنحدرات المجاورة لصومعة يوسف الفخري فاجأني العاصفة بأهويتها وأمطارها وأخذت تتلاعب بي مثلما يتلاعب البحر الهائج بمركب كسّرت الأمواج دفته ومزّقت الريح شراعه ، فتحولت نحو الصومعة قائلاً في نفسي : هذه فرصة موافقة لزيارة هذا المتنسك وستكون العاصفة عذري وأثوابي المبلّلة شفيعي .

بلغت الصومعة وأنا في حال يرثى لها ، ولم أطرق الباب حتى ظهر أمامي الرجل الذي طالما تشوّقت إلى لقائه حاملاً بيده طائراً مهشّم الرأس منبوش الريش وهو يختلج كأنه على آخر رمق من الحياة . فقلت بعد أن حيّته : اعذرني يا سيّدي على مجيئي إليك في هذه الحالة ، ولكن العاصفة شديدة وأنا بعيد عن المنزل .

فتفرّس فيّ عابساً وأجاب بصوت الاستنكاف : الكهوف كثيرة في هذه النواحي وقد كان بإمكانك الالتجاء إليها .

قال هذا وهو يلامس رأس الطائر بانعطاف لم أر مثله في حياتي ، فعجبت لمراى الضدين : الرأفة والخشونة في وقت واحد ، وتحيرت في أمري . وكأنّه قد علم بما يخالج ضميري فنظر إليّ نظرة استيضاح واستعلام ثمّ قال : إن العاصفة لا تأكل اللحوم الحامضة فلم تخافها وتهرب منها ؟

فأجبتّه : العاصفة لا تحب الحوامض ولا الموالح ولكنها تميل إلى الرطب البارد ولا أشك بأنها ستجديني لقمة لذيذة إذا قبضت عليّ ثانية .

فقال وقد انفرجت ملامحه قليلاً : لو مضغتك العاصفة لقمة لحصلت على شرف لا تستحقّه .

فأجبتة : نعم يا سيّدي ، ولقد جئت إليك هارباً من العاصفة لكي لا أنال ذلك الشرف الذي لا أستحقه !

فحوّل وجهه محاولاً إخفاء ابتسامة ضئيلة ، ثمّ أشار نحو مقعد خشبي بقرب موقد تتأجج فيه النار وقال : اجلس وجفّف أثوابك .

فجلست بقرب النار شاكرًا وجلس وهو قبّالتي على مقعد محفور في الصخر وأخذ يغمس أطراف أصابعه بمزيج زيتي في طاسة فخاريّة ويدهن بها جناح الطائر ورأسه المجروح . ثم التفت نحوي قائلاً : قد دفعت الريح هذا الشحور فهبط على الصخور بين حيّ وميت .

فقلت : والريح قد حملتني أيضًا إلى بابك يا سيّدي وأنا لن لا أدري ما إذا كانت قد كسرت جناحي أو هشمت رأسي .

فنظر إلى وجهي بشيء من الاهتمام وقال : حبّذا لو كان للإنسان بعض طباع الطيور . حبّذا لو كسرت العواصف أجنحة البشر وهشمت رؤوسهم . ولكن الإنسان مطبوع على الخوف والجبابة ، فهو لا يرى العاصفة مستيقظة حتى يختبئ في شقوق الأرض ومغاورها .

فقلت وقصدي متابعة الحديث : نعم إن للطير شرفاً ليس للإنسان . فالإنسان يعيش في ظلال شرائع وتقاليدها لنفسه ، أمّا الطيور فتحيا بحسب الناموس الكلي المطلق الذي يسير بالأرض حول الشمس .

فلمعت عيناه وانبطست ملامحه كأنّه وجد بي تلميذاً سريع الفهم . ثمّ قال : أحسنت، فإذا كنت تعتقد حقيقة بما تقول فاترك الناس وتقاليدهم الفاسدة وشرائعهم التافهة وعش كالطيور في مكان بعيد خالٍ إلّا من ناموس الأرض والسماء .

فقلت : إنِّي أعتقد بما أقول يا سيّدي .

فرفع يده وقال بصوت يمازجه التعنّت والتصلّب : الاعتقاد شيء والعمل به شيء آخر .
كثيرون هم الذين يتكلّمون كالبحر أمّا حياتهم فشيبهة بالمستنقعات . كثيرون هم الذين
يرفعون رؤوسهم فوق قمم الجبال أمّا نفوسهم فتبقى هاجعة في ظلمة الكهوف .

قال هذا ولم يدع لي فرصة للكلام بل قام من مكانه ومدّد الشحورور على جبّة قديمة بقرب
النافذة . ثم تناول رزمة من القضبان اليابسة وألقاها في الموقد قائلاً : إخلع حذاءك وجفّف
قدميك فالرطوبة أضّرّ بالإنسان من كلّ شيء آخر . جفّف أثوابك جيّداً ولا تكن خجولاً .

فاقتربت من النار والبخار يتصاعد من أثوابي الرطبة . أمّا هو فوقف في باب الصومعة
محدّقاً إلى الفضاء الغضوب .

وبعد هنيهة سألته قائلاً : هل جئت إلى هذه الصومعة منذ زمن بعيد؟

فأجاب دون أن يلتفت نحوي : جئت إلى هذه الصومعة عندما كانت الأرض خربة وخالية
، وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرفّ على وجه المياه .

فسكّت قائلاً في سرّي : ما أغرب هذا الرجل وما أصعب السبيل إلى حقيقته . ولكن لا بدّ
من محادثته ومعرفة خفايا روحه ، وسوف أصبر حتى يتحوّل شموخه إلى اللين والدعة .

- 3 -

وغمر الليل تلك البطاح بردائه الأسود ونمت العاصفة وغزرت الأمطار حتى خُيّل لي
أن الطوفان قد جاء ثانية ليبيد الحياة ويظهر الأرض من أدراجها . وكأن ثورة العناصر قد
ولدت في نفس يوسف الفخري تلك الطمأنينة التي تجيء في بعض الأحياء مظهرًا لردّ
الفعل فتحوّل نفوره مني إلى الاستئناس بي ، فقام وأشعل شمعتين ثمّ وضع أمامي جرّة
طافحة بالخمير وطبقاً عليه الخبز والجبن والزيتون والعسل وبعض الأثمار المجفّفة ، ثم جلس
قبالي وقال بلطف :

- هذا كلّ ما عندي من الزاد فتنفّض يا أخي وشاركني به .

تناولنا العشاء صامتين صاغيين إلى ولولة الريح وبكاء الأمطار . غير أنّني كنت أتبصّر - وجهه بين اللقمة والأخرى ، مستفسراً - ملاحه عن غوامضه ، سائلاً معانيه عن الميول والمقاصد المستحكمة بوجدانه .

وبعد أن رفع المائدة تناول من جانب الموقد إبريقاً نحاسياً وصبّ منه قهوة صافية زكيّة الرائحة في فنجانين ثم فتح علبة مفعمة بلقائف التبغ ، وقال بهدوء : تفضّل يا أخي .

فأخذت لفافة رافعاً بيدي فنجان القهوة وأنا لا أصدق ما تراه عينايا ، فنظر إليّ وكأنّه قد سمعني مفكراً فابتسم هازاً رأسه ثم قال بعد أن أشعل لفافة وشرب قليلاً من القهوة : أنت بالطبع تستغرب وجود الخمر والتبغ والقهوة في هذه الصومعة ، وقد تستغرب وجود الطعام والفراش ، وأنا لا ألومك فأنت واحد من الكثيرين الذين يتوهّمون أن البعد عن البشر يستوجب البعد عن الحياة وما في الحياة من الملذات الطبيعيّة والمسرات البسيطة .

فأجبتّه : نعم يا سيّدي ، فقد تعودنا الاعتقاد بأن من يتنحى عن العالم ليعبد الله يترك وراءه كلّ ما في العالم من الملذات والمسرات ليعيش وحده متنسكاً متقشّفاً مستكفياً بالماء والأعشاب .

فقال : لقد كان بإمكاننا عبادة الله وأنا بين خلقه ، لأن العبادة لا تستلزم الوحدة والانفراد وأنا لم أترك العالم لأجد الله لأنني كنت أجده في بيت أبي وفي كل مكان آخر ، ولكنني هجرت الناس لأن أخلاقي لا تنطبق على أخلاقهم ، وأحلامي لا تتفق مع أحلامهم . تركت البشر لأنني وجدت نفسي دولاباً يدور يميناً بين دواليب تدور يساراً . تركت المدنيّة لأنني وجدت شجرة مسنّة فاسدة قويّة هائلة عروقتها في ظلمة الأرض وأغصانها تتعالى إلى ما وراء الغيوم ، أمّا أزهارها فمطامع وشرور وجرائم . وأمّا أثمارها فويل وشقاء وهموم . ولقد حاول بعض المصلحين تطعيمها وتغيير طبيعتها فلم يفلحوا ، بل ماتوا قانطين مضطهدين مغلوبين على أمرهم .

واتكأ إذ ذاك إلى جانب الموقد ، وكأنّه قد وجد لذّة في تأثير كلامه فيّ فرفع صوته أكثر من ذي قبل وزاد قائلاً :

لا ، لم أطلب الوحدة للصلاة والتنسّك ، لأن الصلاة ، وهي أغنية القلب ، تبلغ آذان الله وإن تصاعدت ممزوجة بصياح ألوف الألوف ، وأمّا التنسّك ، وهو قهر الجسد وإماتة رغائبه ، فمسألة لا مكان لها في ديني ، لأن الله بنى الأجسام هياكل للأرواح وعلينا أن نحافظ على هذه الهياكل لتبقى قويّة نظيفة لائقة بالألوهيّة التي تحلّ فيها .

لا ، يا أخي لم أطلب الوحدة للصلاة والتقشف بل طبلتها هارباً من الناس وشرائعهم وتعاليمهم وتقاليدهم وأفكارهم وضجتهم وعويلهم .

طلبت الوحدة لكي لا أرى أوجه الرجال الذين يبيعون نفوسهم ليشتروا بائناً ما كان دون نفوسهم قدرًا وشرفًا .

طلبت الانفراد لكي لا ألتقي النساء اللواتي يسرنَ ممدودات الأعناق غامزات العيون وعلى ثغورهن ألف ابتسامة وفي أعماق قلوبهن غرض واحد .

طلبت الانفراد لكي لا أجالس ذوي نصف المعرفة الذين يبصرون في المنام خيال العلم فيتخيّلون أنّهم أصبحوا من المدارك بمقام النقطة من الدائرة ، ويرون في اليقظة أحد أشباح الحقيقة فيتوهمون أنّهم قد امتلكوا جوهرها الكامل المطلق .

طلبت الخلوة لأنني مللت مجاملة الخشن الذين يظن اللطف شرباً من الضعف ، والتساهل نوعاً من الجبانة ، والترفع شكلاً من الكبرياء .

طلبت الخلوة لأن نفسي تعبت من معاشرّة المتمولين الذين يظنون أن الشموس والأقمار والكواكب لا تطلع إلا من خزائنها ولا تغيب إلا في جيوبهم ، ومن الساسة الذين يتلاعبون بأمانى الأمم وهو يذرون في عيوبها الغبار الذهبي ويملاؤن آذانها برنين الألفاظ ، ومن الكهّان الذين يعظون الناس بما لا يتعظون به ويطلبون منهم ما لا يطلبونه من نفوسهم .

طلبت الوحدة والانفراد لأنني لم أحصل على شيء من يد بشري إلا بعد أن دفعت ثمنه من قلبي .

طلبت الوحدة والانفراد لأنني سئمت ذلك البناء العظيم الهائل المدعو حضارة ، ذلك البناء الدقيق الصنع والهندسة القائم فوق رابية من الجماجم البشرية .

طلبت الوحدة لأن في الوحدة حياة للروح والفكر والقلب والجسد .

طلبت البرية الخالية لأن فيها نور الشمس ورائحة الأزهار وأنغام السواقي .

طلبت الجبال لأن فيها يقظة الربيع وأشواق الصيف وأغاني الخريف وعزم الشتاء .

جئت إلى هذه الصومعة المنفردة لأنني أريد معرفة أسرار الأرض والدنو من عرش الله .

وسكت متنفساً الصعداء كأنه ألقى حملاً ثقيلاً عن عاتقه وقد تلمعت عيناه بأشعة غريبة سحرية وظهرت على وجهه أمارات الأنفة والإرادة والقوة .

ومرت بضع دقائق وأنا أنظر إليه مسروراً بظهور ما كان محجوباً عني . ثم خاطبته قائلاً : أنت مصيب في كل ما قلته ، ولكن ألا ترى يا سيدي أنك بتشخيصك أمراض المجتمع وأوصابه قد أبنت لي أنك أحد الأطباء الماهرين وأنه لا يجدر بالطبيب الإعراض عن العليل قبل أن يشفى أو يموت؟ إن العالم بحاجة ماسة إلى أمثالك وليس من العدل أن تعتزل عن الناس وأنت قادر على نفعهم .

فحدق إليّ هنيهة ثم قال بلهجة ملؤها القنوط والمرارة : منذ البدء والأطباء يحاولون إنقاذ العليل من علته . فمنهم من جاء بالمباضع ومنهم من جاء بالأدوية والمساحيق ، ولكنهم ماتوا جميعاً دون رجاء ولا أمل ، ويا ليت عليل الدهور

يكتفي بملازمة مضجعه القدر ومؤانسة قروحه المزمنة ، ولكنه يمدّ يده من بين اللحف
ويقبض على عنق كلّ من يزوره ممرضاً ويخنقه . والأمر الذي يغنيني ويحوّل الدم في عروقي
إلى نار محرقة هو أن ذلك العليل الخبيث يقتل الطبيب ثم يعود فيغمض عينيه قائلاً لنفسه :
لقد كان بالحقيقة طبيباً عظيماً ... لا يا أخي . ليس بين الناس من يستطيع أن ينفع الناس ،
فالحارث وإن كان حكيماً ماهراً لا يقدر على استنبات حقله في أيام الشتاء .

فأجبت قائلاً : قد يمرّ شتاء العالم يا سيّدي ويحيى بعده ربيع بهي جميل فتظهر الأزهار في
الحقول وتترنّم الجداول في الأودية .

فقطب ما بين عينيه متنهّداً ، وبصوت تعانقه الكآبة قال : ليت شعري هل قسم الله حياة
الإنسان ، وهي الدهر بكامله ، إلى فصول تشابه فصول السنة بمسيرها وتتابعها؟ هل يظهر
على سطح الأرض بعد ألف ألف عام طائفة من البشر تحيا بالروح والحق؟ هل يأتي زمن
يتمجّد فيه الإنسان فيجلس عن يمين الحياة فرحاً بنور النهار وطمأنينة الليل؟ هل يتمّ ذلك
يا ترى؟ هل يتمّ ذلك بعد أن تشبع الأرض من لحوم البشر وترتوي من دمائهم؟

وانتصب إذ ذاك واقفاً رافعاً يمينه نحو العلاء كأنّه يشير إلى عالم غير هذا العالم : تلك
أحلام بعيدة ، وليست هذه الصومعة منزلاً للأحلام ، لأنّ ما أعمله يقيناً يشغله كلّ فسحة
وكلّ قرنة فيها ، بل يُشغل كلّ مكان في هذه الأودية وهذه الجبال . أما ما أعلمه يقيناً فهو
هذا : أنا كائن موجود ، وفي أعماق وجودي جوع وعطش ، ولي الحق أن أتناول خبز الحياة
وخمرها من الآنية التي أصنعها بيدي . من أجل ذلك تركت موائد الناس وولائهم وجئت
هذا المكان وسأبقى فيه حتى النهاية .

وأخذ يمشي- ذهابًا وإيابًا في وسط تلك الغرفة وأنا أتأملله وأفكر بكلامه وبالعوامل والبواعث التي صوّرت له الجامعة البشريّة بخطوط عوجاء وألوان قاتمة ، ثم استوقفته قائلاً :
إني أحترم أفكارك ومقاصدك يا سيدي ، وأحترم وحدتك وانفرادك ، غير أنني أعلم ، والعلم مجلبة الأسف ، إن هذه الأمة التعسة قد فقدت بتنحيك وابتعادك رجلاً موهوباً قادراً على خدمتها وإيقاظها .

فأجاب هازأ رأسه : ليست هذه الأمة إلا في الظواهر والمظاهر الخارجيّة التي لا يعتدّ بها ، فتعاسة الأمم الشرقيّة هي تعاسة الأرض بكاملها ، وليس ما تحسبه رقيّاً في الغرب سوى شبح آخر من أشباح الغرور الفارغ ، فالرياء يظل رياء وإن قلّم أظافره ، والغش يبقى غشاً وإن لانت ملامسه ، والكذب لا يصير صدقاً إذا لبس الحرير وسكن القصور ، والخداع لا يتحوّل إلى أمانة إذا ركب القطار أو اعتلى المنطاد ، والطمع لا ينقلب قناعة إذا قاس المسافات أو وزن العناصر ، والجرائم لا تصبح فضائل وإن سارت بين المعامل والمعاهد ... أمّا العبودية : العبوديّة للحياة ، العبوديّة للماضي ، العبوديّة للتعاليم والعوائد والأزياء ، والعبوديّة للأموال فستبقى عبوديّة وإن طلت وجهها وغيّرت ملابسها . العبوديّة تظلّ عبوديّة حتى إذا دعت نفسها حريّة . لا يا أخي ليس الغربي أرقى من الشرقي ولا الشرقي أحطّ من الغربي ، وما الفرق بينهما إلا كالفرق الكائن بين الذئب والضبع . ولقد نظرت فرأيت وراء مظاهر الاجتماع المتباينة ناموساً أولياً عادلاً يفرق التعاسة والعمالة على السواء فلا يميّز شعباً عن شعب ولا يظلم طائفة دون طائفة .

فقلت وقد بلغ بي الاستغراب حد الالتباس : إذا فالمدينة باطلة وكل ما فيها باطل .

فأجاب متهيجًا : نعم باطلة هي المدنيّة وباطل كل شيء فيها . فما الاختراعات والاكتشافات سوى ألعيب يتسلّى بها العقل وهو في حالة الملل والضجر ، وما تقصير المسافات وتمهيد الجبال والأودية والتغلّب على البحار والفضاء غير أثمار غشاشة مملوءة بالدخان لا ترضي العين ولا تغذي القلب ولا ترفع النفس ، أمّا تلك الألغاز والأحاجي التي يدعونها بالمعارف والفنون فهي قيود وسلاسل ذهبيّة يجرّها الإنسان مبتهيجًا بلمعانها ورنين حلقاتها ، بل هي أقفاص ابتداء الإنسان بتطريق أعمدتها وأسلاكها منذ القدم غير عالم بأنّه لا ينتهي من صنعها إلا ويجد نفسه أسيرًا مسجونًا في داخلها ... نعم باطلة هي أعمال الإنسان وباطلة هي تلك المقاصد والمرامي والمنازع والأمانى وباطل كلّ شيء على الأرض . وليس بين أباطيل الحياة سوى أمر واحد خليق بحبّ النفس وشوقها وهيامها - ليس هناك غير شيء واحد .

فقلت : وما ذلك يا سيّدي ؟

فوقف دقيقة ساكتاً ثم أغمض أجفانه واضعاً يديه على صدره وقد أشرق وجهه وانبسّط ملامحه ، وبصوت عذب مرتعش قال : هي يقظة في النفس ، هي يقظة في عمق أعماق النفس . هي فكرة تفاجئ وجدان الإنسان على حين غفلة وتفتح بصيرته فيرى الحياة مكتنفة بالأنعام ، محاطة بالهالات ، منتصبه كبرج من النور بين الأرض واللا نهاية . هي شعلة من شعلات ضمير الوجود تتأجج فجأة في داخل الروح فتحرق ما يحيط بها من الهشيم وتصعد سابحة مرفرفة في الفضاء الواسع . هي عاطفة تهبط على قلب الفرد فيقف مستغرباً مستهجنًا كلّ ما يخالفها ، كارهاً كلّ شيء لا يجاريها ، متمردًا على الذين لا يفهمون أسرارها . هي يد خفيّة قد أزال الغشاء عن عيني وأنا في وسط الاجتماع بين أهلي وأصحابي ومواطني ، فوقفت مندهلاً مدهوشاً قائلاً في نفسي : ما هذه الوجوه وما شأن هؤلاء الناظرين إليّ وكيف عرفتهم ، وأين لقيتهم ، ولماذا أقيم بينهم ، بل لماذا أجالسهم وأحدثهم ؟ هل أنا غريب بينهم ، أم هم الغرباء في ديار بنتها الحياة لي وأسلمتني مفاتيحها ؟

وسكت فجأة كأن الذكرى قد رسمت على حافظته صوراً وأشباحاً لا يريد إظهارها ، ثم بسط ذراعيه وقال همساً : هذا ما حل بي منذ أربع سنوات فتركت العالم وجئت هذه البريّة الخالية لأعيش في اليقظة متمتعاً بالفكر والعاطفة والسكينة .

ومشى إذ ذاك نحو باب الصومعة ناظرًا إلى أعماق الليل ثم هتف كأنه يخاطب العاصفة : هي يقظة في أعماق النفس فمن يعرفها لا يستطيع إظهارها بالكلام ، ومن لم يعرفها لا ولن يدرك أسرارها .

ومرّت ساعة طويلة بمنطقة بهمس الفكر ونداء العاصفة ويوسف الفخري يمشي تارة في وسط تلك الحجرة ويقف طورًا في بابها محققًا إلى الفضاء العابس . أمّا أنا فبقيت صامتًا شاعرًا بتموّجات روحه مستظهرًا أقواله ، مفكرًا بحياته وما وراء حياته من لذّة الوحدة وآلامها . وعند انقضاء الهزيع الثاني من الليل اقترب مني ونظر طويلًا إلى وجهي كأنّه يريد أن يحفظ في ذاكرته رسم الرجل الذي باح له بسرّ وحدته وانفراده . ثم قال ببطء : أنا ذاهب الآن للتجوّل في العاصفة ، وهي عادة أتمتع بلذتها في الخريف وفي الشتاء .. هاك إبريق القهوة واللفائف ، وإن طلبت نفسك الخمر تجدها في الجرّة . وإذا شئت النوم تجد اللحف والمساند في تلك القرنة .

قال هذا والتفّ بجبة سوداء كثيفة ثم زاد مبتسمًا : أرجوك أن توصل باب الصومعة عندما تذهب في الصباح لأنني سأصرف الغد في غابة الأرز .

ثم سار نحو الباب وتناول من جانبه عكّازًا طويلًا وقال : إذا فاجأتك العاصفة ثانية وأنت في هذه النواحي فلا تتأخّر عن الالتجاء إلى هذه الصومعة . ولكنني أرجو أن تعلم نفسك حبّ العواصف لا الخوف منها ... مساء الخير يا أخي .

وخرج إلى الليل مسرعًا .

ولما وقفت في باب الصومعة لأرى وجهته كان الظلام قد أخفاه ولكنني بقيت بضع دقائق أسمع وقع قدميه على حصباء الوادي .

جاء الصباح وقد مرّت العاصفة وانقشعت الغيوم وظهرت تلك الصخور والغابات متشحة بنور الشمس ، فتركت الصومعة بعد أن أقفلت بابها وفي نفسي شيء من تلك اليقظة المعنويّة التي تكلم عنها يوسف الفخري .

ولكنني لم أبلغ منازل الناس وأرّ حركاتهم وأسمع أصواتهم حتى وقفت قائلاً في سرّي :
نعم ، إن اليقظة الروحيّة هي أخلق شيء بالإنسان بل هي الغرض من الوجود ، ولكن
أليست المدنيّة بما فيها من التلبس والإشكال من دواعي اليقظة الروحيّة؟ وكيف يا ترى
نستطيع إنكار أمر موجود ونفس وجوده دليلٌ على إثبات صلاحيته؟ قد تكون المدنيّة
الحاضرة عرضاً زائلاً ولكن الناموس الأبدي جعل الأعراض سلماً تنتهي درجاته بالجواهر
المطلق .

ولم أجمع ثانية بيوسف الفخري لأن الحياة أبعدتني عن شمال لبنان في أواخر ذلك
الخريف فجئت منفيّاً إلى بلاد قصيّة عواصفها داجنة . أمّا التنسك فيها فضرب من الجنون .



الشيطان

كان الخوري سمعان عالماً بدقائق الأمور الروحية ، متبسّاً بالمسائل اللاهوتية ، متعمقاً بأسرار الخطايا العرضية والمميتة ، متضلّعاً بخفايا الجحيم والمطهر والفردوس .

وكان يتنقّل بين قرى شمال لبنان ليعظ الناس ويشفي أرواحهم من أمراض الإثم وينقذهم من حبائل الشيطان ، فالشيطان كان عدو الخوري سمعان يحاربه ليلاً ونهاراً بلا ملل ولا تعب .

وكان سكّان القرى يكرمون الخوري سمعان ويرتاحون إلى ابتياع عظاته وصولته بالفضّة والذهب ويتسابقون إلى إهدائه أطيب ما تثمره أشجارهم وأفضل ما تنبته حقولهم .

ففي عشية يوم من أيّام الخريف ، وقد كان الخوري سمعان سائرًا في مكانٍ خالٍ نحو قرية منفردة بين تلك الجبال والأودية ، سمع أنينًا موجعًا آتيًا من جانب الطريق ، فالتفت فإذا برجل عاري الجسم منطرح على الحصباء ونجيع الدم يتدفّق من جراح بليغة في رأسه وصدره ، وهو يقول مستنجدًا : أنقذني .

أعني ، أشفق علىّ فأنا مائت !

فوقف الخوري سمعان محتارًا ونظر إلى الرجل المتوجّع ثمّ قال في ذاته : هذا أحد اللصوص الأشقياء وأظن أنّه قد حاول سلب عابري الطريق فغلب على امره . وهو منازع فإذا مات وأنا بقربه اتهمت بما أنا براء منه .

قال هذا وهمّ ليتابع السير فأوقفه الجريح بقوله : لا تتركني ، لا تتركني ! أنت تعرفني وأنا أعرفك . أنا مائت لا محالة !

فقال الخوري في ذاته وقد اصفرّ وجهه ، وارتعشت شفتاه : أظنّه أحد المجانين الذين يتيهون في البرية . ثمّ عاد فقال لنفسه : إن منظر جراحه يخيفني فماذا عسى أن أفعل له ؟ .. إن طبيب النفوس لا يستطيع أن يداوي الأجساد .

ومشى الخوري بضع خطوات ، فصاح الجريح بصوت يذيب الجهاد قائلاً : اقترب مني
اقترب ، فنحن أصدقاء منذ زمن بعيد . أنت الخوري سمعان الراعي الصالح وأنا - أنا -
لست بلص ولا بمجنون . اقترب مني ولا تدعني أموت وحيداً في هذه البرية الخالية .
اقترب فأقول لك من أنا .

فاقترب الخوري سمعان من المنازع وانحنى فوقه متفرساً فرأى وجهاً غريب الخطوط
يأتلف بين تقاطيعه الذكاء بالدهاء ، والقباحة بالجمال ، والخبائة بالدمائة ، فراجع إلى الوراء
وصرخ قائلاً : من أنت ؟

فقال المنازع بصوت خافت : لا تخف يا أبتِ فنحن أصدقاء منذ عهد بعيد : أعني على
النهوض وسر بي إلى الساقية القريبة واغسل جراحي بمنديلك .

فصرخ الخوري : قل لي من أنت ، فأنا لا أعرفك ولا أذكر أنني رأيتك في حياتي .

فأجاب في كل مكان . أنا أقرب المخلوقات إليك ، بل أنا أعزّ عليك من حياتك .

فصاح الخوري قائلاً : أنت كاذب محتال ، وخليق بالمنازعين الصدق ، فأنا لم أر وجهك
في حياتي .

قل من أنت وإلا تركتك تموت مضرّجاً بدمائك .

فتحرّك الجريح قليلاً وشخص بعيني الخوري وقد ظهرت على شفثيه إبتسامة معنوية ،
وبصوت هادئ ناعم عميق قال : أنا الشيطان .

فصرخ الكاهن صوتاً هائلاً ارتعشت له زوايا ذلك الوادي ، ثمّ نظر إليه محدّقاً فرأى أن
جسد الجريح ينطبق بتفاصيله ومعالمه على هيئة الأبالسة في صورة الدينونة المعلقة على جدار
كنيسة القرية ، ثمّ صرخ مرتجفاً : لقد أراني الله صورتك الجهنمية ليزيد بك كرهِي ، فلتكن
ملعوناً إلى أبد الأبدين !

قال الشيطان : لا تكن متسرّعاً يا أبتاه ، ولا تضيع الوقت بالكلام الفارغ ، بل اقترب وضمّد جراحي قبل أن يسيل ما في جسدي من الحياة .

فقال الخوري : إن أصابعي التي ترفع الذبيحة الربّانية في كلّ يوم لن تلمس جسدك المصنوع من مفرزات الجحيم ، فمت ملعوناً من ألسنة الدهور وشفاه الإنسانية لأنّك عدو الدهور والعامل على إبادة الإنسانية .

فقال الشيطان متململاً : أنت لا تدري ما تقول ولا تعلم أيّ ذنب تقترفه نحو نفسك . اسمع فأخبرك حكايتي . كنت اليوم سائراً وحدي في هذه الأودية المنفردة ، ولما بلغت هذا المكان التقيت جماعة من أجلاف الملائكة فهجموا عليّ وضربوني ضرباً مبرحاً ، ولو لم يكن مع أحدهم سيف ذو حدين لفتكت بهم جميعاً ، ولكن ماذا يفعل الأعزل مع المسلّح ؟

وقف الشيطان عن الكلام هنيهة واضعاً يده على جرح بليغ ثمّ زاد قائلاً : أمّا الملاك المسلّح ، وأظنّه ميخائيل ، فداهية يحسن ضرب السيف ، ولو لم أنطح على الأرض وأمّثل دور النزع والموت لما أبقي مني عضواً بجوار عضو آخر .

فقال الخوري بصوت تعانقه رنة النصر والتغلب : ليكن اسم ميخائيل مباركاً فقد أنقذ الإنسانية من عدوها الخبيث !

فقال الشيطان : ليست عداوتي للإنسانية أشدّ سواداً من عداوتك لنفسك . فأنت تبارك ميخائيل وهو لم يفدك بشيء ، وتجدف على أسمى في ساعة انكساري مع أنّي كنت ولم أزل سبباً لراحتك وسعادتك . أتجحد نعمتي وتنكر معروفي وأنت عائش في ظلال كياني ؟ أو لم تتخذ وجودي صناعة لك وأسمى دستوراً لأعمالك ؟ هل أغناك ماضي عن حاضري ومستقبلي ؟

هل تمت ثروتك إلى حدٍّ لا تحتمل معه الزيادة ؟ ألا تعلم أن زوجتك وبنيك وهم كثيرون يفقدون رزقهم بفقد بل يموتون جوعاً بموتي ؟ ماذا تفعل لو حكم القضاء باضمحلالى ، وأية صنعة تحسنها إذا أبادت الأرياح أسمى ؟ منذ خمس وعشرين سنة وأنت تسير متجولاً بين قرى هذا الجبل لتحذر الناس من حبائلي وتبعدهم عن مصائبي وهم يبتاعون مواعظك بأموالهم وغلة حقولهم ، فأى شيء يبتاعون منك غداً إذا علموا أ ، عدوهم الشيطان قد مات ، وأنهم أصبحوا في مأمن من حبائله ومعاقله ، وأية وظيفة يسندها إليك القوم إذا أُلغيت وظيفة محاربة الشيطان بموت الشيطان ؟ ألا تعلم وأنت اللاهوتي المدقق أن وجود الشيطان قد أوجد أعداء الكهّان ، وأن تلك العداوة القديمة هي اليد الخفية التي تنقل الفضّة والذهب من جيوب المؤمنين إلى جيوب الوعاظ والمرشدين ؟ ألا تعلم وأنت العالم الخبير أنه بزوال السبب يزول المسبّب ؟ إذا كيف ترضى بموتي وبموتي تفقد منزلتك وينقطع رزقك ويكفّ الخبز عن أفواه زوجتك وبنيك ؟

وسكت الشيطان دقيقة وقد تبدّلت في وجهة دلائل الاستعطاف بأمارات الاستقلال ، ثم عاد فقال : ألا فاسمع أيّها الغبيّ المكابر فأريك الحقيقة التي تضمّ كياني إلى كيائك ، وتربط وجودي بوجدانك . في أوّل ساعة من الزمن وقف الإنسان أمام الشمس وبسط ذراعية وصرخ لأوّل مرّة قائلاً : ما وراء الأفلاك إله عظيم يحبّ الخير ! ثم أدار ظهره للنور فرأى ظله منبسطاً على أديم التراب فهتف قائلاً : وفي أعماق الأرض شيطان رجيم يحبّ الشرّ ! ثم سار نحو كهفه هامساً في نفسه : أنا بين إلهين هائلين : إله أنتمي إليه ، وإله أحاربه . ومَرّت العصور إثر العصور والإنسان بين قوتين مطلقتين : قوّة تصعد روحه إلى العلاء فيباركها ، وقوّة تهبط بجسده إلى الظلمة فيلعنها . غير أنّه لم يكن يدري معاني البركة ولا مباني اللعنة ، بل كان بينهما كشجرة بين صيف يكسوها وشتاء يعريها .

ولما بلغ الإنسان فجر المدنيّة وهي الألفة البشريّة ظهرت العائلة ثمّ القبيلة فتفرّقت الأعمال بتفرّق الميول ، وتباينت الصناعات بتباين المشارب والمنازع ، فقام البعض من تلك القبيلة بحراثة الأرض وآخرون ببناء المآوي وغيرهم بنسج الملابس ، وغيرهم بصهر المعادن . في ذلك العهد البعيد ظهرت الكهانة في الأرض . وهي الحرفة الأولى التي ابتدعها الإنسان دون حاجة حيويّة أو داعٍ طبيعي إليها

وقف الشيطان دقيقة عن الكلام ثم قهقه ضاحكاً بصوت ارتعشت له تلك الأودية الخالية وكأنّ الضحك قد أوسع فوهات كلومة فأسند خاصرته بيده متوجّعاً ، ثمّ شخص بالخوري سمعان وزاد قائلاً : في ذلك العهد ظهرت الكهانة في الأرض وإليك يا أخي كيفية ظهورها : كان في القبيلة الأولى رجل يدعي « لاويص » ولا أدري لماذا اتخذ له هذا الاسم الغريب . وكان لاويص هذا رجلاً ذكياً ؛ ولكنّه كان بطّالاً متوانياً ، يكره حراثة الأرض وبناء المآوي ورعاية المواشي وصيد الوحوش . بل كان يكره كلّ عمل يستلزم السواعد والحركة الجسدية . ولما كان الرزق في ذلك العهد لا يأتي إلّا بالعمل كان لاويص يبيت أكثر لياليه خاوي الجوف فارغه . ففي ليلة من ليالي الصيف وأفراد تلك القبيلة ملتئمون حول كوخ زعيمهم يتحدثون بمآتي يومهم ويرتقبون النعاس ، انتصب أحدهم فجأة وأشار نحو القمر وصرخ بخوف قائلاً : انظروا نحو إله الليل فقد شحب وجهه واضمحلّ بهاؤه وتحول إلى حجر أسود معلق بقبة السماء .

فشخص القوم بالقمر ثم ضجّوا صارخين متهيّبين ، مرتعشين ، خائفين ، وكأن أيدي
الظلام قد قبضت على قلوبهم لأنهم رأوا إله ليايلهم يتحوّل ببطء إلى كرة قائمة وقد تغيّر
لذلك وجه الأرض وانحجبت البطاح والأودية وراء نقاب أسود . فتقدّم إذ ذاك لاويص
وكان قد شهد الخسوف والكسوف مرّات عديدة في سابق حياته فوقف في وسط الجماعة
رافعاً ذراعية إلى العلاء ، وبصوت أودعه كلّ ما في ذكائه من التصنّع والاحتيال صاح قائلاً :
اسجدوا وصلّوا متهلّلين وعفّروا وجوهكم بالتراب ، فإله الشرّ- المظلم يصارع إله الليل
المنير ، فإذا غلبه متناً وإذا غلب بقينا عائشين . اسجدوا وصلّوا وعفّروا وجوهكم بالتراب ،
بل اغمضوا أجفانكم ولا ترفعوا رؤوسكم نحو السماء لأن من يشاهد صراع إله النور وإله
الشرّ يفقد بصره ورشده ، ويظلّ مجنوناً إلى نهاية أيامه . فخرّوا راكعين وساعدوا بقلوبكم إله
النور على عدوّه .

وظلّ لاويص يتكلم بهذه اللهجة مبتدعاً من خياله ألفاظاً جديدة غريبة مردّداً كلمات ما
سمعوها قبل تلك الليلة ، حتى إذا ما مرّ نصف ساعة وقد عاد القمر إلى سابق كماله
وجلاله رفع لاويص صوته عن ذي قبل وقال بلهجة تعانقها رنة الغبطة والسرور : قفوا
الآن وانظروا فقد تغلب إله الليل على عدوّه الشرّير وتابع سيره بين الكواكب والنجوم .
واعلموا أنّكم بركوعكم وابتهالكم قد نصرتموه وسررتموه ولذلك ترونه الآن أبهى نوراً
وأشدّ لمعاً .

فوقف القوم وشخصوا بالقمر فإذا به قد عاد ساطعاً منيراً ، فتحول خوفهم إلى طمأنينة
واضطرابهم إلى مسرّة وأخذوا يقفزون راقصين ويصرّخون مهلّلين ويضربون بنبايتهم
صفائح الحديد والنحاس مفعمين خلايا ذلك الوادي بعويلهم وضجيج لهجتهم ...

في تلك الليلة استدعى زعيم القبيلة لاويص وقال له : لقد أتيت في هذه الليلة بما لم يأت به بشرى قبلك ، وعلمت من أسرار الحياة ما لا يعلمه بيننا سواك . فافرح وابتهج لأنك ستكون من الآن وصاعداً صاحب المقام الأول من بعدي في هذه القبيلة . فأنا أشد الرجال بطشاً وأقواهم ساعداً وأنت أكثر الرجال معرفة وأكثرهم حكمة ، بل أنت الوسيط بيني وبين الآلهة تبلغني مشيئتهم وتبين لي أعمالهم وأسرارهم وتعلمني ما يجب أن أقله لأكون حاصلاً على رضائهم ومحبتهم .

فأجاب لاويص : كل ما يقوله على الآلهة في الحلم أقوله في اليقظة ، وما أراه من مآتهم أظهره لك فأنا الوسيط بينك وبين الآلهة .

فسر الزعيم ووهب لاويص فرسين وسبعة عجول وسبعين كبشاً وسبعين شاة وقال له : سوف يبني لك رجال القبيلة بيتاً يماثل بيتي ، وسيهدون لك في نهاية كل موسم قسماً من غلة الأرض وأثمارها فتعيش سيّداً مطاعاً مكرماً .

وانتصب إذ ذاك لاويص للانصراف فأوقفه الزعيم وسأله قائلاً : ولكن من هو هذا الإله الذي تدعوه بإله الشر ؟ من هو هذا الإله الذي يجسر - أن يصارع إله الليل البهي ؟ إننا لم نسمع به قط ولا علمنا بوجوده .

ففرح لاويص بجهته ، وأجاب قائلاً : اعلم يا سيدي أنه في قديم الزمان وذلك قبل ظهور الإنسان ، كان جميع الآلهة يعيشون بسلام ومودة في مكان قصي وراء المجرة . وكان إله الآلهة ، وهو والدهم ، يعلم ما لا يعلمونه ويفعل ما لا يستطيع أحدهم أن يفعله ، ويحفظ لنفسه بعض الأسرار الربانية الكائنة وراء النواميس الأزلية . ففي العصر السابع من الدهر الثاني عشر تمردت روح « بعطار » وهو يكره الإله الأعظم ، فوقف أمام أبيه وقال : لماذا تحفظ لنفسك السلطة المطلقة على جميع المخلوقات حاجباً عنا أسرار الأكوان والناموس والدهور ؟ أولسنا أبناءك وبناتك ومشاركين لك بقوتك وخلودك ؟

فغضب إله الآلهة وأجاب : سوف أحفظ لنفسي القوّة الأولى والسلطة المطلقة والأسرار الأساسية إلى أبد الدهر ، فأنا البدء وأنا النهاية . فقال بعطار : إن لم تقاسمني قوّتك وجبروتك تمرّدت أنا وأبنائي وأحفادي على قوّتك وجبروتك . فانتصب إذ ذاك إله الآلهة فوق عرشه وقد امتشق المجرّة سيفاً وقبض على الشمس ترساً ، وبصوت ارتعشت له جوانب العالم صرخ قائلاً : ألا فاهبط أيّها المترّد الشرير إلى العالم الأدنى حيث الظلمة والشقاء وابقَ هناك منفياً شريداً تائهاً حتى تنقلب الشمس رماداً وتحوّل الكواكب إلى هباء منثور . في تلك الساعة هبط بعطار من مقرّ الآلهة إلى العالم الأدنى حيث تقيم الأرواح الخبيثة . وقد أقسم بسرّ خلوده أنّه سيصرف الدهور محارباً والده وإخوانه واضعاً الأشرار لكل محب لوالده أو مريد لإخوانه .

فقال الزعيم وقد تقلّصت جبهته واصفرّ وجهه : إذا فاسم إله الشرّ بعطار؟

فأجاب لأويص : كان اسمه بعطار إذ كان في مقرّ الآلهة ، ولكنّه اتخذ بعد هبوطه إلى العالم الأدنى أسماء أخرى منها بعزبول ، وإبليس وسطنائيل وبليال وزميال واهريمان وماره وأبدون والسيطان ، وأشهرها الشيطان .

فردّد الزعيم لفظة الشيطان مرّات بصوت مرتعش يشابه حفيف الأغصان اليابسة لمروور الهواء ، ثمّ قال : ولماذا يا ترى يكره الشيطان البشر بكرهه الآلهة؟

فأجاب لأويص : إن الشيطان يكره البشر ويعمل على إبادتهم لأنّهم من نسل إخوانه وأخواته .

فقال الزعيم محتاراً : إذا فالشيطان هو عمّ البشر وخالهم ؟

فأجاب لاويص وقال بلجهة لا تخلو من التشويش والالتباس : نعم يا سيدي ، ولكنه عدوهم الأكبر ومناظرهم الحقود ، يملأ أيامهم بالتعاسة ولياليهم بالأحلام المخيفة . فهو القوة التي تحوّل العاصفة نحو أكوأخهم وتحرق بالقيظ مزارعهم وتقرض بالأوبئة مواشيهم وتلامس بالأمراض أجسادهم . هو إله قوي شرير خبيث يضحك لشقائنا ويكتئب لأفراحنا . فعلينا أن نتفحص طباعه لتنقي شره وندرس أخلاقه لنبتعد عن سبيل احتياله .

فأسند الزعيم رأسه على نبوته وهمس قائلاً : قد عرفت الآن ما كان خافياً عني من أسرار تلك القوة الغريبة التي تحوّل العاصفة نحو منازلنا وتقرض بالأوبئة مواشينا ، وسوف يعرف البشر كافة ما أعرفه الآن فيطوبونك يا لاويص لأنك أبنت لهم خفايا عدوهم القوي وعلمتهم كيف يتقون حبائله .

وانصرف لاويص من أمام زعيم القبيلة وذهب إلى مرقده فرحاً بذكاء فكرته ، نشوان بخمرة خيالية . أما الزعيم ورجاله فقد صرفوا تلك الليلة يتقلبون على مراقب محاطة بالأشباح المخيفة والأحلام المزعجة .

وقف الشيطان الجريح دقيقة عن الكلام والخوري سمعان يحرق إليه وفي عينيه جمود الحيرة والاستغراب وعلى شفثيه ابتسامة الموت .

ثمّ استأنف الشيطان الكلام قائلاً : كذا ظهرت الكهانة في الأرض . وهكذا كان وجودي سبباً لظهورها . وقد كان لاويص أوّل من اتخذ عداوتي صناعة . وقد راجت هذه الصناعة بعد موت لاويص بواسطة أبنائه وأحفاده فنمت وتدرّجت حتى صارت فناً دقيقاً مقدساً لا يتخذه غير أصحاب العقول المختمرة والنفوس الشريفة والقلوب الطاهرة والخيال الواسع . في بابل كان الناس يسجدون سبع مرّات أمام الكاهن الذي يحاربني بتعازيمه . وفي نينوي كانوا ينظرون إلى الرجل الذي يدعي معرفة أسرارى وخفاياى كحلقة ذهبية بين الآلهة والبشر . وفي ثيب كانوا يلقبون من يصارعني بـابن الشمس والقمر . وفي بابلس وأفسس وأنطاكية كانوا يضحون بأبنائهم وبناتهم إرضاء لخصمى . وفي أورشليم ورومة كانوا يضعون أرواحهم في قبضة من يتفنّن في كرهى وإبعادى . في كلّ مدينة ظهرت أمام وجه الشمس كان اسمى محوراً لدوائر الدين والعلم والفن والفلسفة . فلهياكل لم تقم إلا في ظلالى ، والمعاهد والمدارس لم تظهر بغير مظاهرى ، والقصور والبروج لم ترتفع إلا برفعة منزلتى . فأنا العزم الذى يولد العزم فى البشر ، وأنا الفكرة التى تستنبت الحيلة فى الأفكار ، وأنا اليد التى حرّكت أيدي الناس .

أنا الشيطان الأزلى الأبدى . أنا عاصفة هوجاء خرساء أهبّ فى أدمغة الرجال وصدور النساء وأجرف ميولهم إلى الأديرة والصوامع ليمجدونى بخوفهم منى أو إلى منازل البغى والخلاعة ليفرحونى باستسلامهم إلى مشيئتى . فالراهب الذى يصلى فى سكينة الليل لكى أبتعد عن مضجعه هو كالمومسة التى تنادىنى لكى أقرب من مضجعه .

أنا الشيطان الأزلى الأبدى . أنا بانى الأديرة والصوامع على أسس الخوف ، وأنا مقيم الخمارات وبيوت الفحش على أسس الشهوة واللذة . فإن زال كيانى زال الخوف واللذة من العالم ، وبزوالها تضحل الميول والأمانى فى القلب البشرى فتصبح الحياة خالية مقفرة باردة كقثارة مقطعة الأوتار مكسّرة الجوانب .

أنا الشيطان الأزلي الأبدى . أنا موحى الكذب والنميمة والاعتياب والغش والسخرية ،
فإذا انقرضت هذه العناصر في العالم أصبحت الجامعة البشرية كبستان مهجور لا تنبت فيه
سوى أشواك الفضيلة .

أنا الشيطان الأزلي الأبدى . أنا أبو الخطيئة وأمّها ، فإذا ما زالت الخطيئة زال محاربوها
وزلت أنت أيضًا وزال أبنائك وأحفادك وزملاؤك ورصفاؤك . أنا أبو الخطيئة وأمّها ، فهل
تريد أن تموت الخطيئة بموتي؟ هل تريد أن تقف الحركة البشرية بوقوف نبضات قلبي؟ هل
تريد أن تحو السبب لتمحي المسببات؟ أنا هو السبب الوضعي ، فهل تريد أن أموت في
هذه البرية الخالية؟ أجبني أيها اللاهوتي ، هل تريد أن تنتهي العلاقة الأولى الكائنة بينك
وبيني؟

وبسط الشيطان ذراعيه وألوى عنقه إلى الأمام وتنهّد طويلاً فظهر بلونه الرمادي المائل
إلى الاخضرار كأحد تلك التماثيل المصرية التي أبقاها الدهر مطروحة على ضفاف النيل . ثمّ
حدّق إلى وجه الخوري سمعان بعينين مشعشتين كالمسارج وقال : لقد نهكني الكلام وكان
الأحرى بي وأنا جريح منازع أن لا أطيل معك الحديث ، ومن العجيب أنّي قد استرسلت
بإظهار حقيقة أنت أدرى بها مني ، وبيان أمور هي أدنى إلى صالحك منها إلى صالحى . إمّا
الآن فلك أن تفعل ما تشاء . لك أن تحملني على ظهرك وتذهب بي إلى منزلك لتداوي
جراحي ، أو أن تتركني في هذا المكان لأنزع وأموت .

وكان الشيطان يتكلم والخوري سمعان يرتعش ويفرك يداً بيد ، وبصوت تعانقه الحيرة والارتباك قال : أنا أعرف الآن ما لم أكن أعرفه منذ ساعة ، فسامح غباوتي . أنا أعلم أنك موجود في العالم لكي تجرب ، والتجربة هي مقياس يعرف الله بواسطته قدر النفوس البشرية . بل هي ميزان يستخدمه الله عز وجلّ ليدرك ثقل الأرواح أو خفتها . أنا أعلم الآن أنك إذا مت تموت التجربة وبموتها تزول تلك القوى المعنوية التي تجعل الإنسان متحذراً ، بل يزول السبب الذي يقود الناس إلى الصلاة والصوم والعبادة . يجب أن تحيا لأنك إن قضيت وعرف الناس يزول خوفهم من الجحيم فيبطلون العبادة ثم يتمرغون بالإثم . من أجل ذلك يجب أن تحيا ، لأن بحياتك خلاص الجنس البشري من الرذيلة . أمّا أنا فسوف أضحى كرهى لك على مذبح محبتي للجنس البشري .

فضحك الشيطان ضحكة تشابه انفجار بركان ثم قال : ما أذكاك وما أبرعك يا حضرة الأب ، بل وما أعمق معارفك بالأمور اللاهوتية . فهذا قد أوجدت بقوة إدراكك سبباً لوجودي لم أكن أعرفه من قبل . والآن وقد فهم كل منّا الأسباب الوضعية واللاهوتية التي أوجدتنا في البدء وتوجدنا الآن يجب أن نترك هذا المكان . اقترب يا أخي . تعالّ واحملني إلى بيتك فأنا لست بثقل الجسم . ها قد غمر الليل البطاح بعد أن أهرقت نصف دمي على حصباء هذا الوادي .

فاقترب الخوري سمعان من الشيطان وقد شمّر عن ساعدين وشكل أطراف عباءته بحزامه ورفع الشيطان فوق ظهره ومشى نحو الطريق .

بين تلك الأودية المغمورة بالسكون ، الموشاة بنقاب الليل ، سار الخوري سمعان نحو قريته منحني الظهر تحت هيكل عارٍ وقد تلطخت ملابسه السوداء ولحيته المسترسلة بقطرات الدم السائلة من كلومه .



الصلبان

المكان : منزل يوسف مسرة في بيروت .

الزمان : ليلة من ليالي الخريف سنة 1901 .

الأشخاص :

بولس الصلبنان : موسيقي وأديب .

يوسف مسرة : كاتب وأديب .

الآنسة هيلانة مسرة : شقيقة يوسف .

سليم معوض : شاعر وعواد .

خليل بك تامر : موظف في الحكومة .

يرفع الستار عن قاعة حسن في منزل يوسف مسرة مفعمة بالكتب والأوراق . خليل بك تامر يدخن بالنارجيلة . الآنسة هيلانة تطرز . يوسف مسرة يدخن لفافة .

خليل بك (مخاطباً يوسف مسرة) : قد قرأت اليوم مقالتك في الفنون الجميلة وتأثيرها في الأخلاق وقد أعجبتني كثيراً ، ولولا صبغتها الإفرنجية لكنت خير ما كتب في الموضوع . أنا يا مسرة أفندي من الذين يرون تأثير الآداب الغربية في لغتنا من الأمور المضرة .

يوسف مسرة (مبتسماً) : قد يكون الحق معك يا صديقي ، ولكن بارتدائك الملابس الإفرنجية وبتناولك الطعام بأنية إفرنجية ، وبجلوسك على مقاعد إفرنجية ، قد عارضت ذاتك بذاتك ، وفوق كل ذلك أنت أكثر ميلاً إلى مطالعة الكتب العربية .

خليل بك : ليس لهذه الأمور السطحية من علاقة بالآداب والفنون .

يوسف مسرة: نعم هناك علاقة حيوية وضعية . وإذا تعمقت قليلاً في الموضوع تجد أن الفنون تلازم العادات والأزياء والتقاليد الدينية والاجتماعية بل تلازم كل مظهر من مظاهر حياتنا الاجتماعية .

خليل بك: أنا شرقي وسأبقى شرقياً إلى آخر حياتي وقهراً عن بعض مظاهري الأوربية ، فأنا أرجو أن تبقى الآداب العربية طاهرة ونقية من جميع التأثيرات الأجنبية .

يوسف مسرة: إذا أنت ترجو موت اللغة والآداب العربية ؟

خليل بك: وكيف ذلك ؟

يوسف مسرة: إن الأمم المسنة التي لا تكتسب مما تثمره الأمم الحديثة تموت أدبياً وتنقرض معنوياً .

خليل بك: إن كلامك هذا يحتاج إلى برهان .

يوسف مسرة: لدي ألف برهان وبرهان .

« في هذه الدقيقة يدخل بولس الصلبان وسليم معوض فيقف الحاضرون لهما احتراماً » .

يوسف مسرة: أهلاً وسهلاً بالإخوان . « مخاطباً الصلبان » أهلاً وسهلاً بببليل سوريا .

– الأنسة هيلانة تنظر إلى الصلبان وقد تورّدت وجنتها قليلاً وظهرت على محياها أمارات السرور » .

سليم معوض: بالله عليك يا يوسف لا تقل كلمة حسنة لبولس .

يوسف مسرة : ولماذا ؟

سليم معترض (بين الجد والمزاح) : لأنّه لا يستحق التكريم ولا المديح ولا الإطراء ، لأنّه ذو أطوار وأخلاق غريبة ، لأنّه مجنون .

بولس الصلبان (مخاطبًا معوض) : هل أحضرتك برفقتي إلى هذا المنزل لتبين عيوبي وتشرح أخلاقي ؟

الآنسة هيلانة : ماذا جرى يا ترى ؟ هل كشفت يا سليم أفندي عيوبًا جديدة في أخلاق بولس ؟

سليم معوض : إن عيوبه القديمة ستبقى جديدة حتى يموت ويدفن وتتحوّل عظامه إلى تراب .

يوسف مسرة : أخبرنا . ماذا جرى ؟ أخبرونا بالحكاية من أوّلها إلى آخرها .

سليم معوض (مخاطبًا الصلبان) : هل تسمح لي أن أتكلّم عن جرائمك يا بولس أم تريد أن تعترف أنت بها ؟

بولس الصلبان : أريد أن تبقى صامتًا كالمقبرة ، هاجعًا كقلب العجوز .

سليم معوض : إذا فسوف أتكلّم .

الصلبان : يظهر لي أنّك تريد أن تنغص عيشي في هذه السهرة .

سليم معوض : لا بل أريد أن أعرض قصتك أمام هؤلاء الأصحاب لينظروا في أمرك .

الآنسة هيلانة (مخاطبة معوض) : تكلم وأسمعنا ما جرى . «الصلبان» قد تكون الجريمة التي يريد سليم أن يظهرها إحدى فضائلك .

الصلبان : لم أقترف جريمة كما أنني لم أفعل فضيلة . أمّا المسألة التي يتوق صاحبنا إلى إظهارها فهي لا تستحق الذكر ، وفوق كل ذلك فأنا لا أريدكم أن تصرفوا السهرة بحديثي .

الآنسة هيلانة : حسن . إذا فلنسمع الخبر !

سليم معوض (يشعل لفافة ويجلس بقرب يوسف مسرة) : قد سمعتم طبعاً يا سادتي بزواج ابن جلال باشا ، وقد عرفتم أن والد العريس قد أقام ليلة أمس حفلة طرب دعا إليها وجهاء المدينة وكبارها (مشيراً إلى بولس) وقد دعا هذا الشرير ودعيت أنا أيضاً . والسبب في ذلك أن الناس يحسبونني ظلاً لبولس أسير حيث يسير وأقوم حيث يقوم ، ولأنّ أدامه الله وأبقاه لا يحبّ الإنشاد إلّا على نقرات عودي . بلغنا منزل جلال باشا متأخرين وبولسنا كالمملوك لا يجيء إلّا متأخراً ، فوجدنا هناك الوالي والمطران ، بل وجدنا هناك الحسنة الفاضلة والأديب والشاعر والمثري والزعيم . جلسنا بين مجامر البخور وكؤوس الخمر والقوم ينظرون إلى بولس كأنه ملاك هبط من السماء . أمّا السيّدات فأخذنَ يقدّمنَ إليه كؤوس الخمر وصحاف النقل وطاقات الأزهار مثلما كانت تفعل نساء أثينا عند رجوع أحد الأبطال من ساحات الحرب . خلاصة الكلام أن بولسنا كان في بدء السهرة موضوعاً للتكريم والاحتفاء .. أخذت عودي وضربت أولاً وثانياً وثالثاً ، ففتح بولس شفّتيه المقدّستين وأنشد بيتاً .. بيتاً واحداً من قصيدة ابن الفارض :

غـيرى عـلى السـلوان قـادر و سـواي في العـشـاق غـادر

فأصغى القوم وتناولت أعناقهم كأن الموصلي قد جاء من وراء حجب الأبدية ليهمس في آذانهم أنغاماً سحرية علوية . وبعد ذلك سكّ بولس فظنّ الحاضرون أنّه سيعود إلى الإنشاد بعد أن يشرب كأساً من العرق ، ولكن بولس ظل ساكناً .

بولس الصلبان (بلهجة جدية): أرجوك أن تقف عند هذا الحدّ ، فأنا لا أقدر أن أسمع هذا الحديث البليد ، وأنا لا أشك بأن أصحابك لا يجدون لذة بهذه الثروة الخالية من المعنى .

يوسف مسرة : بحقك دعنا نسمع البقية .

بولس الصلبان (ينهض من مكانه قائمًا): الظاهر أنكم تفضلون هذا الحديث البارد على وجودي بينكم . أودعكم .

الآنسة هيلانة (تنظر إلى بولس نظرة معنوية): إجلس يا بولس ومهما كان الخبر فنحن معك . (يجلس بولس وعلى وجهه دلائل الصبر والتجلّد) .

سليم معوض (متابعًا حديثه): قلت إن بولس المعطر المعظم قد أنشد بيتًا - بيتًا واحدًا من قصيدة ابن الفارض وسكت . أعني بذلك أنّه أذاق أولئك الجياع المساكين لقمة واحدة من طعام الآلهة ثمّ رفس المائدة وكسر أنيتها وكؤوسها ثمّ جلس ساكتًا جلوس أبي الهول على رمال النيل . وقامت السيّدات الواحدة بعد الأخرى يستعطفنه بأرقّ الكلام لينشد أغنية أخرى فكان يعتذر لهن بقوله : أنا مرشح ، أشعر بألم في حنجرتي . ثم قام الوجهاء والأغنياء يرجونه ويتذلّلون أمامه فلم يحنّ ولم يلين ، بل بقي جامدًا قاسيًا متمنّعًا كأن الله قد أبدل قلبه بحجر من الصوّان وحوّل الأنعام في نفسه إلى الغنج والدلال . وبعد نصف الليل وقد بلغ القنوط من الحاضرين حدّ الألم ناداه جلال باشا إلى غرفة محاذية ووضع في جيبه قبضة من الدنانير قائلاً : أنت تستطيع يا بولس أفندي أن تحتم حفلتنا بالسرور أو بالأكدار ، لذلك أرجوك أن تقبل مني هذه الهدية الصغيرة لا كمكافأة بل كمظهر لشعوري نحوك ، فلا تخيب آمالي وآمال الحاضرين بك . عند ذلك تعالت قامة بولس

وظهرت لوائح الكبرياء على وجهه ورمى بالدنانير إلى مقعد بجانبه قائلاً بلهجة الملوك الفاتحين : أنت تهينني يا جلال باشا بل أنت تحتقري ، فأنا لم أجيء إلى منزلك لكي أنشد وأغني وأبيع أنفاسي بالمال ، بل جئت كأحد المهنيين . بعد هذا فقد جلال باشا صبره وتجلده وتلفظ ببعض كلمات خشنة جعلت بولس الحساس يخرج من المنزل لاعناً مجدداً . أما أنا ، أنا المسكين ، فقد تناولت عودي وتبعت بولس تاركاً ورائي الوجوه الجميلة والقامات النحيلة والخمر الطيبة والمال الشهية . نعم قد ضحيت كل ذلك لكي لا أفقد صداقة هذا المتصلب المتعنت . قد ضحيت كل ذلك على مذبح هذا المعلم وهو الآن لم يشكرني ولم يمدح بسالتي ولم يعترف بمودتي وولائي .

يوسف مسرة (ضاحكاً) : هذه بالحقيقة حكاية لذيدة حريّة أن تكتب بالإبر على آماق البصر !

سليم معوض : لم أصل للآن إلى نهاية الحكاية . أمّا اللذة فهي النهاية ، تلك النهاية الشيطانية التي لم يحلم بمثلها أهريمان الفرس ولا سيفا الهنود .

الصلبان (مخاطباً الأنسة هيلانة) : بقيت هنا إكراماً لك ، والآن أرجوك أن تطلبي من هذا الضفدع أن يقف عند هذا الحد .

هيلانة : دعه يتكلم يا بولس ! ومهما كانت نهاية الخبر فنحن معك قلباً وقالباً .

سليم معوض (يشعل لفافة ثانية ويتابع الحديث) : قلت أننا خرجنا من منزل جلال باشا وبولس يجدف على اسم الأغنياء والوجهاء وأنا أجدف على اسمه في سري . وبعد ذلك ... وبعد ذلك هل تظنون أن كلاً منا ذهب إلى منزله ؟ هل تظنون أن ليلة أمس قد انتهت على هذه الصورة ؟ اسمعوا وتعجبوا ! تعلمون أن بيت حبيب سعادة محاذٍ لمنزل جلال باشا ولا يفصلهما غير حديقة صغيرة . وأنتم تعلمون أن حبيب سعادة من عشاق المدام والأنغام والأحلام ومن يعبدون هذا البعليم (مشيراً إلى بولس) . فلما خرجنا من منزل جلال باشا وقف بولس دقيقة في منتصف الشارع فارغاً جبهته كأنه قائد عظيم يفكر بفتح مملكة عاصية ، ثم مشى - فجأة نحو منزل حبيب سعادة وقرع الجرس بشدة فظهر حبيب بملابس النوم وهو يفرك عينيه ويتمتم ويتشاءب ، ولكنه عندما رأى وجه بولس ورآني حاملاً العود تحت إبطي تغيرت سحته ولمعت عيناه كأن السماء قد انفتحت أمامه وصرخ مسروراً مؤهلاً قائلاً : ما أتى بكم في هذه الساعة المقدسة ؟ فأجاب بولس : قد جئنا لنتحتفل بعرس ابن جلال باشا في دارك . فقال حبيب : هل ضاقت عليكم دار جلال باشا فجئتم إلى هذا المنزل الحقير ؟ فأجاب بولس : ليس لجدران بيت الباشا آذان تسمع رنات العود والأنشيد . من أجل ذلك جئنا إليك فهات قينة العرق وصحفة المازة ولا تطل الكلام . الخلاصة جلسنا حول مائدة الشراب ولم يتناول بولس كأساً أو كأسين من العرق حتى قام وفتح النوافذ التي تطل على حديقة الباشا ثم ناولني العود وقال آمراً : هذه عصاك يا موسني فحوّ لها إلى أفعى ومرها أن تبتلع جميع أفاعي مصر . اضرب النهاوند واضرب طويلاً واضرب جميلاً . فتناولت العود وليس على العبد إلا الطاعة وضربت النهاوند فحوّل بولس وجهه نحو منزل جلال باشا وأخذ ينشد بصوت عال ...

هنا يسكت سليم دقيقة وتزول سياء المزاح عن وجهه ويقول بلهجة هادئة جدية :

أنا أعرف بولس منذ خمس عشرة سنة . أعرفه منذ كنا صبيين في المدرسة . ولقد سمعته منشداً في حالتي الفرح والشقاء . سمعته ينوح كالثكلى ويترنم كالعاشق ويهلل كالمنتصر . سمعته يهمس في سكون الليل وقد نامت هذه المدينة وشكّانها . وسمعته بين أودية لبنان وأجراس الكنائس البعيدة يملأ الفضاء سحراً وهيبة . نعم لقد سمعته منشداً ألف مرة ومرة وكنت أتوهم أنني أعرف حركات روحه وسكناتها . ولكنني في ليلة أمس لما حوّل وجهه نحو منزل جلال باشا وأغمض عينيه وأنشد :

كلّ يوم أشكو من غرام قلبي وكلّما أشكو يزيّد الغرام

عندما أنشد هذا الدور متلاعباً بمقاطعته مثلما يتلاعب الهواء بأوراق الخريف قلت في نفسي : لا، ما عرفت في الماضي من روح بولس إلا القشور ، أمّا الآن فقد بلغت اللباب . لم أسمع في الماضي غير لسان بولس منشداً أمّا الآن فإني أسمع قلبه وروحه .. وظلّ بولس يلاحق الدور بالدور ويتدرّج من نشيد إلى نشيد حتى خيّل لي أن في الفضاء طغمة من أرواح العشاق تحوم مرفرفة هامسة منادية مرددة تذكارات الماضي البعيد ، ناشرة ما طوته الليالي من أماني البشر . وأحلامهم . نعم يا سادتي (مشيراً إلى بولس) إن هذا الرجل قد صعد ليلة أمس على سلم الفن حتى بلغ الكواكب ، ومن العجائب أنّه لم يهبط على الأرض حتى الفجر . لم يسكت حتى وضع أعداءه تحت موطئ قدميه كما جاء في المزامير ! أمّا ضيوف جلال باشا فلم يسمعوا صوته خارجاً من منزل حبيب سعادة حتى تراحموا في النوافذ وجلسوا نساء ورجالاً يتأوّهون بعد كلّ مقطع وكلّ نبرة تخرج من فمه . وقد خرج بعضهم إلى الحديقة ووقفوا تحت الأشجار مغتبطين مصغين مختارين في أمر هذا المعلم الذي ينكيهم ويهينهم وفي الوقت نفسه يملأ قلوبهم بخمرة علوية ، وقد كان البعض يناديه مستعطفاً مترجّياً والبعض متوعداً مجدّفاً . وقد علمت من أحد المدعوين أن جلال باشا كان يزأر كالأسد متنقلاً من غرفة إلى غرفة لاعناً الصلبان غاضباً على ضيوفه خصوصاً على أولئك الذين خرجوا إلى الحديقة حاملين كؤوس العرق وصحف المازة بأيديهم . هذا ما جرى ليلة أمس ، فما قولكم في هذا النابغة المجنون ؟ وما رأيكم بأطوار هذا الرجل وأخلاقه الغريبة ؟

خليل بك : هذه حادثة عجيبة . أمّا رأيي فيها فهو هذا : أنا من المعجبين بمواهب بولس أفندي ، ومع كلّ احترامي له أقول إنّّه قد أخطأ ليلة أمس ، فقد كان بإمكانه أن ينشد في بيت جلال باشا كما أنشد في بيت حبيب سعادة ويقابل استعطاف القوم بشيء من فنّه . (مخاطباً يوسف مسرة) ما رأيك يا يوسف أفندي؟

يوسف مسرة: أنا لا ألوم الصלבان كما أنني لا أحاول فهم أسرارهم وخفاياهم لعلمي أن المسألة شخصيّة تتعلّق به دون سواه ، ولعلمي أن أخلاق الفنّين خصوصاً الموسيقيين منهم تختلف عن أخلاق الناس كافة . وليس من الصواب أو العدالة أن نقيس أعمالهم ومآثرهم على المقاييس التي نستخدمها لإدراك أعمال غيرهم . إن الفني - وأعني بالفني ذلك المبدع الذي يخلق لأفكاره وعواطفه صوراً جديدة - وهو رجل غريب بين أهله وخلانه وغريب في وطنه بل هو غريب عن هذا العالم . الفني يميل شرقاً عندما يميل الناس غرباً ، ويتأثر لعوامل باطنيّة لا يستطيع هو نفسه أن ييسطها ، فهو تعس بين الفرحين ، فرح بين التعساء . ضعيف بين القادرين ، قادر بين الضعفاء . الفني فوق الشريعة .

خليل بك : إن كلامك هذا يا يوسف أفندي لا يختلف بمعانيه ومفاده عمّا جاء في مقالاتك عن الفنون الجميلة ، واسمح لي أن أقول ثانية إن الروح الغربيّة ، الروح الإفرنجيّة التي تركز بها ستكون سبباً لزوالنا كشعب واضمحلالنا كأمة .

يوسف مسرة: هل تحسب ما فعله بولس أفندي ليلة أمس مظهرًا للروح الإفرنجيّة التي تنكرها وتكرهها ؟

خليل بك : إني أستغرب ما فعله بولس أفندي . أقول ذلك مع الاحترام لشخصه .

يوسف مسرة : أوليس للصلبان تمام الحرية أن يفعل بصوته وفنّه ما يشاء ومتى يشاء ؟

خليل بك : نعم له تمام الحرية أن يفعل ما يشاء ، ولكنني أرى أن حياتنا الاجتماعية لا تتفق مع هذا النوع من الحرية . إن ميولنا وعاداتنا وتقاليدينا لا تسمح للفرد الواحد أن يفعل ما فعله بولس أفندي ليلة أمس دون أن يضع نفسه في موقف حرج .

الآنسة هيلانة : هذه مناظرة لذيذة ومفيدة . ولكن بما أن السبب في هذه المناظرة موجود بيننا فهو بالطبع يستطيع أن يدافع عن نفسه بنفسه .

بولس الصلبان (بعد سكوت طويل) : كنت أتمنى لو لم يفتح سليم هذا الحديث . بل كنت أودّ أن يزول ما جرى ليلة أمس مع ليلة أمس . ولكن بما أنني في مركز حرج كما يقول حضرة البك فأنا لا أرى بداً من إظهار أفكارى في هذا الموضوع . أنتم تعلمون وأنا أعلم أيضاً أن أكثر من يعرفني ينتقدي . هذا يقول إنني مغنج وذلك إنني أعوج . وهنالك فئة تقول إنني لئيم وليس للئيم كرامة . وما هو السبب يا ترى في هذه الانتقادات الجارحة؟ إن السبب في أخلاقي نعم في أخلاقي التي لا أقدر أن أغيرها ولو قدرت لما اردت . ولماذا يا ترى يهتم الناس بي وبأخلاقي؟ أليس بإمكانهم أن يتناسوا كياني؟ في هذه المدينة كثير من المغنيين والمنشدين والموسيقيين وكثير من الشعراء والمقرّطين وكثير من المبحرين والشحاذين الذين يبيعون أصواتهم وأفكارهم وعواطفهم بل ويبيعون نفوسهم بدينار أو بعلفة أو بقنينة من الخمر . وقد عرف أغنياؤنا ووجهائنا هذا السرّ ، لذلك نراهم يتعاون أبناء الفن والأدب بأبخس الأثمان ويعرضونهم في منازلهم وقصورهم كما يعرضون خيولهم

ومركباتهم في الساحات والطرق . نعم أيها السادة إن المغنين والشعراء في الشرق هم حملة المباخر بل هم العبيد ، وقد فرض عليهم أن ينشدوا في الأعراس ويترنموا في الحفلات ويندبوا في المآتم ويرثوا في المقابر . هم الآلات التي تدار في أيام الحزن وليالي الأفراح . فإذا لم يكن من داع للحزن أو الفرح طُرحوا جانباً كأنهم سلع لا قيمة لها . وأنا لا أُلوم الوجهاء والأغنياء بل أُلوم المغنين والشعراء والأدباء الذين لا يحترمون نفوسهم ولا يضمنون بماء وجوههم . أُلومهم لأنهم لا يترفعون عن الصغائر والتوافه . وأُلومهم لأنهم لا يفضلون الموت على الخضوع والتذلل .

خليل بك (متهيجاً) : إن القوم كانوا يستعطفونك ليلة أمس ويحاولون بكل وسيلة لديهم أن يسترضوك لتتكرم عليهم بأغنية أو نشيد . فهل تحسب إنشادك في بيت جلال باشا نوعاً من الخضوع والتذلل ؟

بولس الصلبنان: لو استطعت الإنشاد في منزل جلال باشا لفعلت . ولكنني نظرت حولي فلم أجد بين الحاضرين غير الموسرين الذين لا يسمعون من الأصوات إلا رنات الدنانير ، والوجهاء الذين لا يفهمون من الحياة إلا ما يرفعهم ويخفض سواهم . نظرت حولي فلم أجد من يميّز النهاوند عن الرصد أو العشاق عن الأصفهان ، لذلك لم أستطع أن أفتح صدري أمام العميان أو أعرض أسرار قلبي أمام الطرشان . إنّها الموسيقى لغة الأرواح . هي سيّال خفي يتموّج بين روح المنشد وأرواح السامعين ، فإذا لم يكن هناك من أرواح تسمع وتفهم ما تسمع فالمنشد يفقد ذلك الميل إلى البيان ويفقد ذلك الشوق إلى إظهار ما في أعماقه من الحركات والسكنات . والموسيقى مثل قيثارة ذات أوتار مشدودة حسّاسة فإذا تراخت تلك الأوتار فقدت خاصتها وأصبحت كخيوط من الكتان . (يقف ويسير بضع خطوات ثم يقول ببطء) لقد تراخت أوتار روحي في منزل جلال باشا عندما تفرست في الحاضرين نساء ورجالاً ولم أرَ بينهم غير المتكلّف والمتصنّعة والمتقلّد والبليدة ، والعقيم والمتعجرفة . أمّا استعطفهم إياي فلم يكن ناتجاً إلا عن تمنّعي وسكوّتي . ولو كنت كالكثيرين من ضفادع المنشدين لما اهتّم أحد بي .

خليل بك (يقاطعه مداعباً) : وبعد ذلك ذهبت إلى منزل حبيب سعادة . وللنكاية . والنكاية فقط .
جلست منشداً حتى الصباح !

بولس الصلبان : جلست منشداً حتى الصباح لأنني أردت أن أفرغ مكنونات قلبي . لأنني أردت أن ألقى حملاً ثقيلاً عن عاتقي . لأنني أردت أن أعاتب الليل والحياة والدهر . لأنني شعرت بحاجة ماسة إلى شدّ تلك الأوتار التي تراخت في منزل الباشا . أمّا إذا كنت تظن يا خليل بك أنني أردت النكاية فلك الحق بأن تفكر بما تريد . إن الفن طائر حر يسبح محلّقاً عندما يشاء ويهبط إلى الأرض عندما يشاء ، وليس من قوّة في هذا العالم تستطيع تقييده أو تغييره . الفن روح سام لا يباع ولا يشرى ، وعلى الشرقيين أن يعرفوا هذه الحقيقة المطلقة . أمّا الفنيون بيننا . وهم أندر من الكبريت الأحمر . فعليهم أن يكرموا نفوسهم لأنهم الإناء الذي يملأه الله خمرة علوية .

يوسف مسرة : إني متفق معك يا بولس . ولقد أبت أفكاري في هذا الموضوع بصورة لا أستطيع أنا إظهارها . أنت ابن الفن أمّا أنا فباحث بالفنون ، والفرق بيننا هو كالفرق الكائن بين العنب الحامض والخمرة المعتقة .

سليم معوض : الصلبان يتكلّم مثلما ينشد وليس على سامعه إلا الاقتناع والإذعان .

خليل بك : لم أقتنع بعد ولن أقتنع . وما فلسفتكم هذه إلا إحدى تلك العلل المتسرّبة إلينا من بلاد الإفرنج .

يوسف مسرة : لو سمعت الصلبان منشداً يا حضرة البك لاقتنعت ونسيت الفلسفة .

في هذه الدقيقة تدخل الخادمة وتخطب الأنسة هيلانة : يا معلّمتي قد جاءت الكنافة من الفرن فوضعتها على المائدة .

يوسف مسرة (ينتصب مخاطبًا الجميع) : تفضّلوا أيّها الإخوان فقد هيأنا لكم أكلة لذيذة ، لذيذة جدًا ،
وتكاد تكون صلبانية بنكهتها وحلاوتها!

(يقف الجميع ثم يخرج يوسف مسرة و خليل بك وسليم معوض ، أمّا الصلبان والأنسة
هيلانة فيظلان واقفين في وسط القاعة وكلّ يحدق إلى وجه الآخر وفي عينيها أشعة لا توصف)

هيلانة (هامسة) : هل علمت أنّي كنت مصغيةً إليك ليلة أمس؟

الصلبان (مستغربًا) : ماذا تعنين يا هيلانة قلبي؟

هيلانة (بخجل ووجل) : كنت أمس في بيت شقيقتي مريم . ذهبت لأنام عندها لأن زوجها
متغيّب وهي تخاف وحدها .

الصلبان : أَوَ بَيْتُ صهرك على طريق الحرج ؟

هيلانة : ولا يفصله عن بيت حبيب سعادة غير زقاق ضيق .

الصلبان : وهل سمعتني منشداً ؟

هيلانة : سمعت نداء روحك من نصف الليل حتى الفجر . سمعتك حتى سمعت الله متكلمًا .

(يسمع صوت يوسف مسرة آتياً من الغرفة المحاذية قائلاً :)

تفضّل يا بولس فقد بردت الكنافة .

(يخرج بولس وهيلانة . الستار) .



الشاعر البعلبكي

- 1 -

في مدينة بعلبك سنة 112 قبل الميلاد :

جلس الأمير على عرشه الذهبي ، المحاط بالمسارج المشتعلة والمباخر المتّقدة ، فجلس القوّاد والكهّان عن يمينه وشماله ، ووقف الجنود والعبيد أمامه وقوف الأنصاب أمام وجه الشمس .

بعد هنيهة وقد انتهى المرتّلون من إنشادهم ، وتوارت أنفاسهم بين طيّات أثواب الليل ، وقف كبير الوزراء أمام الأمير وقال بصوت تهدجه ضالة الشيخوخة :

أيّها الأمير العظيم ، قد جاء المدينة بالأمس حكيم من حكماء الهند ذو أطوار غريبة ومذاهب عديدة لم نسمع قط مثلها ، فهو يدعو الناس إلى الاعتقاد بتقمُّص الأرواح من جسد إلى جسد ، وانتقال النفوس من جيل إلى جيل حتى بلغ الكمال ، وتصير إلى مصفّ الآلهة . وقد جاء الليلة طالبًا الدخول عليك ليبسط تعليمه أمامك .

فهز الأمير رأسه وقال مبتسمًا :

من بلاد الهند تأتي الغرائب والعجائب فأدخلوه لنسمع حجّته .

ولم تمر دقيقة حتى دخل كهل أسمر اللون ، مهيب المنظر ، ذو عينين كبيرتين ، وملامح منفرجة ، تتكلم بلا نطق عن أسرار عميقة وميول غريبة ، وبعد أن انحنى مستأذناً رفع رأسه وتلمعت عيناه وطفق يتكلم عن بدعته مظهرًا كيف تنتقل الأرواح من هيكل إلى هيكل مرتقبة بعوامل الوسط الذي تختاره ، متدرجة بتأثيرات الأمور التي تختبرها ، متمائلة مع الأجداد التي ترفعها وتقويها ، نامية مع الحب الذي يسعدها ويشقيها .. ثم تطرق إلى كيفية انتقال النفوس من مكان إلى مكان باحثة عما تحتاج إليه من الكماليات مكفرة في حاضرها عن ذنوب اقترفها في ماضيها مستغلة في بلد ما زرعت في بلد آخر .

ولما طال الكلام وقد بدت على ملامح الأمير سياء الملل والضجر اقترب كبير الوزراء من الحكيم وهمس في أذنه قائلاً : كفى الآن فدع البحث إلى فرصة ثانية .

فراجع الحكيم إلى الوراء وجلس بين الكهّان مطبقاً أجفانه كأنّ عينيه قد تعبتا من التحديق إلى خفايا الوجود وأسراره .

وبعد سكونة شبيهة بغيوبة الأنبياء تلقت الأمير إلى اليمين وإلى اليسار ثمّ سأل قائلاً : أين شاعرنا؟ فقد مرّ زمن ولم نره .. ماذا حلّ به وقد كان يحضر مجلسنا كلّ ليلة؟

فقال أحد الكهّان : قد رأيته منذ أسبوع جالساً في رواق هيكل عشتروت وهو ينظر بعينين جامدتين كئيبتين نحو الشفق البعيد كأنّه أضاع بين الغيوم قصيدة من قصائده .

وقال أحد القوّاد : قد رأيته بالأمس واقفاً بين أشجار السرو والصفصاف فحييته ولم يردّ التحية بل ظلّ غارقاً في بحر أفكاره وأحلامه .

وقال رئيس الخصيان : قد رأيته اليوم في حديقة القصر فدنوت منه فوجدته أصفر اللون شاحب الوجه ، تراود الدموع أجفانه وتلاعب الغصّات بأنفاسه .

قال الأمير بصوت تلاحقه اللهفة : اذهبوا وابحثوا عنه وعودوا به مسرعين فقد شغل بالنا أمره .

خرج العبيد والجنود يبحثون عن الشاعر ، وظل الأمير وأعوانه صامتين حائرين مترقبين كأن نفوسهم قد شعرت بوجود شبح غير منظور منتصب في وسط تلك القاعة . وبعد هنيهة عاد رئيس الخصيان وارتقى على قدمي الأمير كطائر رماه الصياد بسهم . فصرخ به الأمير قائلاً : ما الخبر .. ماذا جرى ؟

فرجع الزنجي رأسه وقال مرتعشاً : قد وجدنا الشاعر ميتاً في حديقة القصر . فانتصب الأمير وقد علت سحنته سيماء الحزن والكمد ، ثم خرج إلى الحديقة يتقدمه حاملو المسارج ويتبعه القواد والكهّان . ولما بلغوا أطراف الحديقة حيث أشجار اللوز والرمان جلّت لهم أشعة السرج الصفراء جثة هامدة مرتمية على الأعشاب كغصن ورد ذابل .

فقال أحد الأعوان : انظروا كيف عانق قيثارته كأنها صبية حسناء أحبّها وأحبّته فتعاهدا على أن يموتا معاً .

وقال أحد القواد : لم يزل يحدق إلى أعماق الفضاء كعادته كأنه يرى بين الكواكب خيال إله معروف .

وقال رئيس الكهّان مخاطباً الأمير : غدًا نقره في ظلال هيكل عشتروت المقدسة ، فيسير سكان المدينة وراء نعشه ، وينشد الفتیان قصائده وتنثر العذارى الأزهار على ضريحه . لقد كان شاعراً عظيماً فليكن احتفالنا بدفنه عظيماً .

فهزّ الأمير رأسه دون أن يحوّل عينيه عن وجه الشاعر المتّشح بنقاب الموت ، ثم قال ببطء : لا . لا . لقد أهملناه إذ كان حيّاً جوانب البلاد من أشباح نفسه ويعطر الفضاء بأنفاسه ، فإذا ما أكرمناه ميتاً تسخر بنا الآلهة وتضحك منّا عرائس المروج والأودية . ادفنوه ههنا حيث فاضت روحه وابقوا قيثارته بين ذراعيه . وإن كان بينكم من يريد أن يكرمه فليذهب إلى بيته ويخبر أبناءه بأن الأمير قد أهمل شاعره فمات كئيّباً وحيداً منفرداً .

ثم التفت حوله وزاد قائلاً : أين الفيلسوف الهندي؟

فتقدّم الفيلسوف وقال : ها أنذا أيها الأمير العظيم .

فقال الأمير : قل - أيها الحكيم - هل ترجعني الآلهة أميراً إلى هذا العالم وتعيده شاعراً؟ هل تلبس روحي جسد ابن مليك عظيم ، وتتجسّم روحه في جسد شاعر كبير؟ هل توفقه النواميس ثانية أمام وجه الأبدية لينظم الحياة شعراً وتعيدني لأنعم عليه وأفرح قلبه بالهبات والعطايا؟

فأجاب الفيلسوف قائلاً : كلّ ما تشتاقه الأرواح تبلغه الأرواح ، فالناموس الذي يعيد بهجة الربيع بعد انقضاء الشتاء سيعيدك أميراً عظيماً ويعيده شاعراً كبيراً .

فانفرجت ملامح الأمير وانتعشت نفسه حتى مشى نحو قصره مفكراً في أقوال الحكيم الهندي محدثاً ذاته بقوله : كلّ ما تشتاقه الأرواح تبلغه الأرواح .

طلع القمر والقي وشاحه الفضي على المدينة وأمير البلاد جالس في شرفة قصره ، ينظر إلى الفضاء الصافي ، مفكراً بمآتي الأجيال التي مرّت متتابعة على ضفاف النيل ، مستوضحاً أعمال الملوك والفاحين الذين وقفوا أمام هيبة أبي الهول ، مستعرضاً مواكب الشعوب والأمم التي سيرها الدهر من جوانب الأهرام إلى قصر عابدين .

ولما اتسعت دائرة أفكاره ، وانبسطت مسارح أحلامه ، التفت نحو نديمه الجالس بقربه وقال : في نفسنا الليلة ميل إلى الشعر فأنشدنا شيئاً منه .

فحنى النديم رأسه وأخذ ينشد قصيدة لشاعر جاهلي فقاطعه الأمير قائلاً : أنشدنا شعراً أحدث عهداً .

فانحنى النديم ثانية وابتدأ يردّد أبياتاً لأحد الشعراء المخضرمين .

فقاطعه الأمير أيضاً وقال : أحدث عهداً .. أحدث عهداً .

فانحنى النديم للمرّة الثالثة وأخذ يترنّم بمقاطع موشح أندلسي .

فقال الأمير : أنشدنا قصيدة لشاعر معاصر .

فرفع النديم يده إلى جبهته كأنه يريد أن يستحضر إلى حافظته كلّ ما نظمه شعراء العصر ، ثم برقت عيناه وتهلل وجهه ، وطفق يرتّل أبياتاً خياليّة ذات رنة سحرية ، ومعانٍ رقيقة مبتكرة ، وكنيات لطيفة نادرة تجاوز النفس فتملأها شعاعاً وتحيط بالقلب فتذيبه انعطافاً .

فحدق الأمير إلى نديمه ، وقد استهوته نغمة الأبيات ومعانيها . وشعر بوجود أيدي خفية تجتذبه من ذلك المكان إلى مكان قصي . ثم سأل قائلاً : لمن هذه الأبيات ؟

فأجاب النديم : للشاعر البعلبكي .

الشاعر البعلبكي ! كلمتان غريبتان تموجتا في مسامع الأمير وولدتا في داخل روحه النبيلة
أشباح ميول ملتبسة بوضوحها قويّة بدقّتها .

الشاعر البعلبكي اسم قديم جديد ، أعاد إلى نفس الأمير رسوم أيّام منسيّة وأيقظ في
أعماق صدره خيالات تذكارات هاجعة . ورسم أمام عينيه بخطوط شبيهة بثنايا الضباب
صورة فتى ميت يعانق قيثارة وقد وقف حوله القوّاد والكهّان والوزراء .

وامحت هذه الرؤية أمام عيني الأمير مثلما تتوارى الأحلام بمجيء الصباح ، فوقف
ومشى جامعاً ذراعيه على صدره ، مردّداً آية النبي العربي : ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ
يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة] .

ثمّ التفت نحو نديمه قائلاً : يسرنا وجود الشاعر البعلبكي في بلادنا وسوف نقربه ونكرمه .
وبعد دقيقة زاد بصوت منخفض : إنما الشاعر طائر غريب المزايا يفلت من مسارحه العلويّة
ويجيء هذا العالم مغرداً ، فإن لم نكرمه يفتح جناحيه ويعدّ طائراً إلى مواطنه .

وانقضى الليل فخلع الفضاء أثوابه المرصعة بالنجوم ولبس قميصه المنسوج من أشعة
الصباح ، ونفس أمير البلاد تتمايل بين عجائب الوجود وغرائبه ، وخفايا الحياة وأسرارها .



السم في الدسم

في صباح يوم من أيام الخريف الذهبية التي تظهر شمال لبنان بكلّ مظاهره العلوية اجتمع سكّان قرية تولا حول الكنيسة القائمة في وسط منازلهم يتساءلون ويتبادلون الآراء في سفر فارس الرحال الفجائي إلى مكان قصي لا يعلم به غير الله تاركاً عروسته الصبية التي تزوّج بها منذ ستة أشهر .

كان فارس الرحال شيخ القرية وزعيمها ، وقد ورث هذه المنزلّة عن أبيه وجدّه . ومع أنّه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره فقد كان في شخصيته ما يوعز الاحترام والوقار في قلوب مواطنيه . وعندما اقترن في أواسط الربيع الغابر بسوسان بركان قال الناس : ما أسعده فتى ! فهو قد حصل قبل أن يبلغ الثلاثين على كلّ ما يتمناه الإنسان من السعادة في الحياة الدنيا .

ولكن في ذلك الصباح عندما استيقظ سكّان تولا وقيل لهم إن الشيخ فارس قد جمع ما تيسر له من المال وركب فرسه وغادر القرية دون أن يودّع نسيّاً أو صديقاً ، تعاضمت ظنونهم وأخذوا يتساءلون عن الأسباب الخفية التي جعلته يتركهم ويترك عروسته ومنزله وحقوقه وكرومه .

إن الحياة في شمال لبنان أقرب إلى الاشتراكية منها إلى كل تعليم آخر ، فالقوم هناك يتساهمون أفراح الوجود وشدائده مدفوعين بميول فطرية وضعيّة ، فإذا ما جاءت الأيام بحادث إلى قرية ينصرف سكّانها بكليتهم إلى استقصاء ذلك الحادث حتى تجيء الأيام إليهم بأمر آخر .

تلك هي العوامل التي صرفت سكان تولا عن أعمالهم اليومية فاجتمعوا حول كنيسة مار تولا يتحدثون ويتساءلون ويتبادلون الآراء بسفر فارس الرحال .

وبينما هم على هذه الحالة إذا بالخوري أسطفان كاهن القرية يقترب منهم منحني الرأس منقبض الملامح ، فدنوا منه مستطلعين ، فظلّ ساكتاً يفرك يداً بيد ، وبعد هنيهة قال : لا تسألوني . لا تسألوني . كل ما أعرفه يا أبنائي هو هذا : قرع فارس باب منزلي قبل طلوع الفجر . ولما فتحت له وجدته متمسكاً بمقود فرسه وعلى وجهه أمارات الحزن الشديد . فسألته مستغرباً عما يريد فقال : جئت لأودعك يا أبتني ، فأنا مسافر إلى ما وراء البحار ولن أعود إلى هذه البلاد وأنا حي . ثم وضع في يدي رسالة مختومة باسم صديقه نجيب مالك وطلب إليّ أن أسلمها إليه يدّاً بيد . فعل هذا واعتلى فرسه وراح مسرعاً قبل أن أستوضح أمره . هذا كلّ ما أعرفه . فلا تسألوني الزيادة .

فقال أحد الواقفين :

لا شك أن في الرسالة ما ينبئنا عن سبب سفره لأن نجيب مالك كان أعزّ صديق له في القرية .

وقال آخر :

وهل رأيت عروسته يا أبتاه ؟

فأجاب الكاهن :

قد زرتها بعد صلاة الصباح فوجدتها جالسة بقرب النافذة تنظر إلى البعيد بعينين زجاجيتين كأنها فقدت إدراكها ، ولما سألتها هزّت رأسها وقالت : لا أدري ، لا أدري ، ثم طفقت تبكي وتتنحب كالأطفال .

ولم ينته الكاهن من كلامه إلا وذعر القوم حوله لطلق بندقية جاء من الوجهة الشرقيّة من القرية . ثم تبعه صراخ امرأة جارح ارتعشت له دقائق الفضاء ، فبهت القرويون دقيقة ثم تراكضوا نساء ورجالاً وعلى وجه كل واحد منهم برقع من الخوف والتشاؤم . ولما بلغوا البستان الذي يحيط بمنزل فارس الرحال شاهدوا هناك منظرًا أجمل الدم في عروقهم والفكرة في رؤوسهم . رأوا نجيب مالك منظرًا على التراب والنجيع يتدفق من أمعائه . وعلى مقربة منه سوسان زوجة فارس الرحال تنبش شعرها وتمزّق أثوابها وتصرخ متوجّعة : قد قتل نفسه . قد أطلق البندقية في صدره .

فبهت القوم كأن أكف القضاء غير المنظورة قد قبضت على أرواحهم . ولما اقترب الكاهن من الصريع وجد في يمينه الرسالة التي كان قد سلّمه إيّاها في ذلك الصباح ، وقد قبض عليها بشدّة كأنّه يريد أن يجعلها جزءًا من أصابعه ، فتناولها الكاهن ووضعها في جيبه دون أن يراه أحد ثم تراجع إلى الوراء لاطمًا وجهه .

وحمل القوم جثّة المتحرر إلى بيت والدته المسكينة التي لم تر جثّة وحيدها حتى فقدت عقلها .

واهتمّ بعض النساء بزوجة فارس الرحال فاقتدنها إلى منزلها بين حية وميتة .

ولما بلغ الخوري أسطفان منزله أوصد الباب ووضع النظارات على عينيه منتشلاً الرسالة التي وجدها في يد نجيب مالك ، وبصوت مرتعش أخذ يقرأ :

أخي نجيب ،

أنا تارك هذه القرية لأن وجودي فيها يجلب التعاسة لك ولزوجتي ولي أيضًا . أنا أعلم أن: شريف النفس تترفع عن خيانة صديقك وجارك . وأعلم أن زوجتي سوسان طاهرة الذيل ، ولكنني أعلم في الوقت نفسه أن الحب الذي يضم قلبك إلى قلبها هو أمر فوق إرادتكما ، فأنت لا تستطيع إزالته كما أنك لا تقدر أن توقف مجاري نهر قاديشا . لقد كنت صديقًا لي يا نجيب منذ كنا صبيين نلعب في الحقول وفي ساحة الكنيسة . وأنت لم تزل صديقي أمام الله ، وأرجوك أن تفكر بي في المستقبل مثلما كنت تفكر بي في الماضي ، وإذا التقيت سوسان غدًا أو بعده فقل لها إنني أحبها وأرحمها . وقل لها أيضًا إنني كنت أذوب شفقة عندما كنت أستيظ في سكينة الليل وأراها راكعة أما صورة يسوع تبكي وتتحب وتجلد صدرها ، ليس أصعب من حياة المرأة التي تجد نفسها واقفة بين رجل يحبها ورجل تحبه . وسوسان المسكينة كانت في حرب دائمة . كانت تريد أن تقوم بواجباتها الزوجية ولكنها لم تكن قادرة على قتل عواطفها . أما أنا فمسافر إلى مكان بعيد ولن أعود إلى هذه الديار لأنني لا أريد أن أكون حجر عثرة في سبيل سعادتكما . وفي الختام أرجوك يا أخي أن تبقى مخلصًا لسوسان وأن تحافظ عليها حتى النهاية لأنها قد ضحت بكل شيء من أجلك . فهي تستحق كل ما يستطيع الرجل أن يقدمه للمرأة . ابقَ يا نجيب كما عهدتك شريف القلب كبير النفس والله يحفظك لأخيك .

فارس الرحال

ولما انتهى الخوري أسطفان من قراءة الرسالة طواها وأعادها إلى جيبه وجلس بقرب النافذة ينظر إلى الوادي البعيدة وعلى وجهه المتجدد أمارات التفكير العميق .

ولكن لم تمر دقيقة حتى انتصب فجأة على قدميه كأنه وجد بين ثنايا أفكاره سرًا دقيقًا هائلًا محجوبًا بالظواهر ملتفًا بالسطحيات . فهتف صارخًا : ما أكثر دهائك يا فارس الرحال ، فقد عرفت كيف تقتل ابن مالك وتبقى بريئًا من دمه . فقد بعثت إليه بالسهم ممزوجًا بالعسل . قد بعثت إليه بالسيف ملتفًا بالحرير . قد بعثت إليه بالموت طي الرسالة . فعندما صوّب بندقيته إلى صدره كانت يدك قابضة على يده وإرادتك محيطة بإرادته .. أواه ما أكثر دهائك يا فارس الرحال !

وعاد الخوري أسطفان فجلس على المقعد هازًا رأسه ممشطًا لحيته بأصابعه مبتسمًا ابتسامات ذات معانٍ أشدَّ هولاً من المأساة ، وبعد هنيهة تناول كتابًا من خزانة قريبة وأخذ يتلو بعض موشحات القديس إفرام السرياني وهو يرفع عينيه بين الآونة والأخرى ليسمع صراخ النساء آتيًا من قلب القرية .



ما وراء الرداء

عندما انتصف الليل فتحت راحيل عينيها وحدّقت هنيهة إلى سقف الغرفة ثم أغمضتها وتنهدت تنهدة عميقة متقطعة ، وبصوت يكاد يكون لهاثاً قالت : ها قد بلغ الصباح أطراف الوادي ، فلنذهب إلى لقائه .

فاقترب إذ ذاك الكاهن من مضجعها وجسّ يدها فوجدها باردة كالثلج ، ثم وضع أصابعه بلطف فوق قلبها فألفاه ساكنًا كالدهور ، فحنى رأسه وارتعشت شفثاه كأنه يريد أن يلفظ كلمة علوية ترددها أشباح الليل في تلك الأودية القاصية الخالية . ثم صلّب ذراعيها فوق صدرها والتفت نحو الرجل الجالس في قرنة مظلمة من تلك الغرفة وقال بصوت ملؤه الشفقة والانعطاف : قد ذهبت زوجتك إلى لقاء ربّها فقم يا أخي واركن بجانبني لنصليّ .

فرفع الرجل رأسه وقد تغيّرت ملامحه وكبرت عيناه كأنه رأى في فضاء الغرفة ظلّ إله غير معروف . ثم وقف بهدوء وتقدّم من مضجع زوجته وركع بجانب الكاهن مصلياً ، منتحباً ، راسماً بين الآونة والأخرى إشارة الصليب على وجهه وصدره .

وانصب الكاهن واضعاً يده على كتف الرجل قائلاً :

قم يا أخي! تعال إلى الغرفة الثانية . فأنت بحاجة إلى النوم والراحة . فلم يبدِ الرجل معارضة ، بل وقف وسار إلى الغرفة المحاذية ورمى بنفسه على سرير ضيق ممدّداً جسده شأن من ينهكه الهمّ والسهر والانتظار .

ولم تمر بضع دقائق حتى غلب النوم أجفانه فرقد كطفل بين ذراعي أمّه .

أمّا الكاهن فظلّ منتصباً كالتمثال في وسط تلك الغرفة ينظر بعينين غارقتين بالدموع نحو جثة الصبية الباردة ويلتفت كلّ دقيقة نحو زوجها النائم في الغرفة المحاذية .

ومرّت ساعة أطول من الدهر وأشدّ هولاً من الموت والكاهن واقف بين رجل وامرأة راقدين : رجل راقد رقود حقل يحلم بمجيء الربيع ، وامرأة راقدة مع الأزمنة الغابرة تحلم أحلام الأبدية .

حينئذ اقترب الكاهن من مضجع الصبية وجثا أمامها كما يجثو أمام المذبح ، ثم أخذ يدها الباردة ووضعها على شفثيه المرتجفتين ، ونظر إلى وجهها المتشح بنقاب الموت ، وبصوت هادئ كالليل عميق كالبحر مرتعش كآمال البشر قال :

يا راحيل ، يا راحيل ، يا أخت روحي ، اسمعيني يا راحيل فأنا أستطيع الآن الكلام . وقد فتح الموت شفثي لأبوح لك بسرّ أعماق من الموت ، وأطلق الألم لساني لأكشف لك أمراً أشدّ من الألم . اسمعي صراخ روحي أيتها الروح المرفرفة بين الأرض واللا نهاية . اسمعي الشاب الذي كان يراك راجعة من الحقل فيتحنّى محتجباً بين الأشجار خائفاً من جمال وجهك . اسمعي الكاهن الذي يخدم الله فهو يناديك الآن بلا وجل لأنك بلغت مدينة الله .

همس هذه الألفاظ ثم انحنى فوقها وقبّل جبهتها وقبّل عينيها وقبّل عنقها ، قبلات طويلة حارّة ، خرساء ، علوية تبين ما في نفسه من أسرار الحب والألم .

ثم تراجع فجأة إلى الوراء وارتمى على الأرض مرتعشاً كأوراق الخريف كأن ملامسة وجه المرأة الثلجة قد أيقظت في داخله عاطفة الندم ، ثم انتصب جاثياً سائراً وجهه بيديه قائلاً في سرّه :

اغفر ذنبي يارب! سامح ضعفي يا إلهي! فأنا لم أتجلد حتى النهاية . فالسرّ- الذي أخفته
الحياة في قلبي سبعة أعوام قد أباحه الموت بدقيقة واحدة . اغفر لي ياربّ . سامح ضعفي يا
إلهي .

وظل على هذه الحالة ينتحب ويتوجّع ويميل برأسه ذات اليمين وذات اليسار ولا ينظر
إلى جثة الصبية خائفاً على نفسه من خفايا نفسه حتى جاء الصباح وألقى وشاحه الوردي
على تلك الرسوم الهيوليّة التي تمثل الحب والدين والحياة والموت .



البنفسجة الطموح

كان في حديقة منفردة بنفسجة جميلة الثنايا ، طيبة العرف ، تعيش قانعة بين أترابها وتتمایل فرحة بين قامات الأعشاب .

ففي صباح ، وقد تكللت بقطر الندى ، رفعت رأسها ونظرت حوالها فرأت وردة تتناول نحو العلاء بقامة هيفاء ورأس يتسامى متشامخاً كأنه شعلة من النار فوق مسرجة من الزمرد .

ففتحت البنفسجة ثغرها الأزرق وقالت متنهدة : ما أقل حظي بين الرياحين ، وما أوضع مقامي بين الأزهار! فقد ابتدعتني الطبيعة صغيرة ، حقيرة ، أعيش ملتصقة بأديم الأرض ولا أستطيع أن أرفع قامتي نحو ازرقاق السماء أو أحوّل وجهي نحو الشمس مثلما تفعل الورود .

وسمعت الوردة ما قالته جارتها البنفسجة فاهتزت ضاحكة ثم قالت : ما أغباك بين الأزهار! فأنت في نعمة تجهلين قيمتها . فقد وهبتك الطبيعة من الطيب والظرف والمال ما لم تهبه لكثير من الرياحين . فخلي عنك هذه الميول العوجاء والأمانى الشريرة وكوني قنوعاً بما قسم لك واعلمي أن من خفض جناحه رفع قدره ، وإن من طلب المزيد وقع في النقصان .

فأجابت البنفسجة قائلة : أنت تعزينني أيتها الوردة لأنك حاصلة على ما أتمناه ، وتغمرين حقارتي بالحكم ، لأنك عظيمة . وما أمر مواعظ السعداء في قلوب التاعسين ، وما أقسى القوي إذا وقف خطيباً بين الضعفاء !

وسمعت الطبيعة ما دار بين الوردة والبنفسجة فاهتزت مستغربة ثم رفعت صوتها قائلة :
ماذا جرى لك يا ابنتي يا بنفسجة ؟ فقد عرفتك لطيفة بتواضعك عذبة بصغرك شريفة
بمسكنتك ، فهل استهوتك المطامع القبيحة أم سلبت عقلك العظمة الفارغة ؟

فأجابت البنفسجة بصوت ملؤه التوسل والاستعطاف :

أيتها الأم العظيمة بجبروتها ، الهائلة بحنانها ، أضرع إليك بكل ما في قلبي من التوسل ،
وما في روحي من الرجاء ، أن تحييي طلبي وتجعليني وردة ولو يوماً واحداً .

فقالت الطبيعة : أنت لا تدرين ما تطلبين ولا تعلمين ما وراء العظمة الظاهرة من البلايا
الخفية ، فإذا رفعت قامتك وبدلت صورتك وجعلتك وردة تندمين حين لا ينفع الندم .

فقالت البنفسجة : حوّلي كياني البنفسجي إلى وردة مديدة القامة مرفوعة الرأس ... ومهما
يحلّ بي بعد ذلك يكن صنع رغائبي ومطامعي .

فقالت الطبيعة : لقد أجبت طلبك أيتها البنفسجة الجاهلة المتمردة ، ولكن إذا دهمتك
المصائب والمصاعب فلتكن شكواك من نفسك .

ومدّت الطبيعة أصابعها الخفية السحرية ولمست عروق البنفسجة فتحوّلت بلحظة إلى
وردة زاهية متعالية فوق الأزهار والرياحين .

ولما جاء عصر ذلك النهار تلبّد الفضاء بغيوم سوداء مبطنة بالإعصار ثم هاجت سواكن
الوجود فأبرقت ورعدت وأخذت تحارب تلك الحداق والبساتين بجيش عرمرم من
الأمطار والأهوية ، فكسرت الأغصان ولوت الأنصاب واقتلعت الأزهار المتشاخنة ولم تبق
إلا على الرياحين الصغيرة التي تلتصق بالأرض أو تحتبئ بين الصخور .

أما تلك الحديقة المنفردة فقد قاست من هياج العناصر ما لم تقاسه حديقة أخرى .

فلم تمر العاصفة وتنقشع الغيوم حتى أصبحت أزهارها هباء منثورًا ولم يسلم منها بعد تلك المعمعة الهوجاء سوى طائفة البنفسج المختبئة بجدار الحديقة .

ورفعت إحدى صبايا البنفسج رأسها فرأت ما حل بأزهار الحديقة وأشجارها فابتسمت فرحًا ثم نادى رفيقاتها قائلة : ألا فانظرن ما فعلته العاصفة بالرياحين المتشاحنة تيهًا وعُجبًا .

وقالت بنفسجة أخرى : نحن نلتصق بالتراب ، ولكننا نسلم من غضب العواصف والأنواء .

وقالت بنفسجة ثالثة : نحن حقيرات الأجسام غير أن الزوابع لا تستطيع التغلب علينا .

ونظرت إذ ذاك مليكة طائفة البنفسج فرأت على مقربة منها الوردة التي كانت بالأمس بنفسجة وقد اقتلعتها العاصفة وبعثرت أوراقها الرياح وألقته على الأعشاب المبللة فبان كقتيل أرداه العدو بسهم .

فرفعت مليكة البنفسج قامتها ومدّت أوراقها ونادت رفيقاتها قائلة : تأملن وانظرن يا بناتي . انظرن إلى البنفسجة التي غرّتها المطامع فتحوّلت إلى وردة لتتشامخ ساعة ثم هبطت إلى الحضيض . ليكن هذا المشهد أمثلة لكنّ .

عندئذ ارتعشت الوردة المحتضرة واستجمعت قواها الخائرة وبصوت متقطع قالت :

ألا فاسمعن أيتها الجاهلات القانعات ، الخائفات من العواصف والأعاصير . لقد كنت بالأمس مثلكنّ أجلس بين أوراق الخضراء مكتفية بما قسم لي ، وقد كان الاكتفاء حاجزاً منيعاً يفصلني عن زوابع الحياة وأهويتها ويجعل كياني محدوداً بما فيه من السلامة ، متناهيًا بما يساوره من الراحة والطمأنينة . ولقد كان بإمكانني أن أعيش نظيركنّ ملتصقة بالتراب حتى يغمرنني الشتاء بثلوجه وأذهب كمن ذهب قبلي إلى سكينه الموت والعدم قبل أن أعرف من أسرار الوجود ومخبئته غير ما عرفته طائفة البنفسج منذ وجد البنفسج على سطح الأرض . لقد كان بإمكانني الانصراف عن المطامع والزهد في الأمور التي تعلو بطبيعتها عن طبيعتي . ولكنني أصغيت في سكينه الليل فسمعت العالم الأعلى يقول لهذا العالم : « إنما القصد من الوجود الطموح إلى ما وراء الوجود » . فتمردت نفسي على نفسي وهام وجداني بمقام يعلو عن وجداني ، ومازلت أتمرد على ذاتي وأتشوّق إلى ما ليس لي حتى انقلب تمردي إلى قوّة فعالة واستحال شوقي إلى إرادة مبدعة فطلبت إلى الطبيعة - وما الطبيعة سوى مظاهر خارجيّة لأحلامنا الخفيّة - أن تحولني إلى وردة ففعلت ، وطالما غيرت الطبيعة صورها ورسومها بأصابع الميل والتشويق .

وسكتت الوردة هنيهة ثم زادت بلهجة مفعمة بالفخر والتفوّق :

لقد عشت ساعة كملكة . لقد نظرت إلى الكون من وراء عيون الورود ، وسمعت همس الأثير بأذان الورود ، ولمست ثنايا النور بأوراق الورود . فهل بينكنّ من تستطيع أن تدّعي شرفي ؟

ثم لوت عنقها ، وبصوت يكاد يكون لهاثاً قالت :

أنا أموت الآن . أموت وفي نفسي ما لم تكنه نفس بنفسجة من قبلي . أموت وأنا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذي ولدت فيه ، وهذا هو القصد من الحياة . هذا هو الجوهر الكائن وراء عروضيات الأيام والليالي .

وأطبقت الورود أوراقها وارتعشت قليلاً ثم ماتت وعلى وجهها ابتسامة علوية - ابتسامة من حققت الحياة أمانيه - ابتسامة النصر والتغلب - ابتسامة الله .



الشاعر

أنا غريب في هذا العالم .

أنا غريب وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة غير أنها تجعلني أفكر أبداً بوطن
سحري لا أعرفه ، وتملاً أحلامي بأشباح أرض قصية ما رأتها عيني .

أنا غريب عن أهلي وخلائي ، فإذا ما لقيت واحداً منهم أقول في ذاتي : من هذا ، وكيف
عرفته ، وأي ناموس يجمعني به ، ولماذا أقترب منه وأجالسه؟

أنا غريب عن نفسي ، فإذا ما سمعت لساني متكلاً تستغرب أذني صوتي ، وقد أرى ذاتي
الخفية ضاحكة ، باكية ، مستبسلة ، خائفة ، فيعجب كياني بكياني ، وتستفسر روحي روحي
، ولكنني أبقي مجهولاً مستتراً ، مكتئفاً بالضباب ، محجوباً بالسكوت .

أنا غريب عن جسدي ، وكلما وقفت أمام المرأة أرى في وجهي ما لا تشعر به نفس ،
وأجد في عيني ما لا تكنه أعماقي .

أسير في شوارع المدينة فيتبعني الفتیان صارخين : هوذا الأعمى فلنعطه عكازه يتوكأ عليها .
فأهرب منهم مسرعاً . ثم ألتقي سرباً من الصبايا فيتشبتن بأذيالي قائلات : هو أطرش
كالصخر فلنملاً أذنيه بأنغام الصبابة والغزل . فأتركهن راکضاً . ثم ألتقي جماعة من الكهول
فيقفون حولي قائلين : هو أخرس كالقبر فتعالوا نقوم اعوجاج لسانه . فأغادرهم خائفاً . ثم
ألتقي رهطاً من الشيوخ فيومئون نحوي بأصابع مرتعشة قائلين : هو مجنون أضاع صوابه في
مسارح الجن والغيلان .

أنا غريب في هذا العالم .

أنا غريب وقد جبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أجد مسقط رأسي ولا لقيت من يعرفني ولا من يسمع بي .

أستيقظ في الصباح فأجدني مسجوناً في كهف مظلم تتدلى الأفاعي من سقفه وتدب الحشرات في جنباته ، ثم أخرج إلى النور فيتبعني خيال جسدي ، أما خيالات نفسي- فتسير أمامي إلى حيث لا أدري ، باحثة عن أمور لا أفهمها ، قابضة على أشياء لا حاجة لي بها ، وعندما يجيء المساء أعود وأضطجع على فراشي المصنوع من ريش النعام وشوك القتاد فتراودني أفكار غريبة وتتناوبني ميول مزعجة مفرحة موجعة لذيذة ، وعندما ينتصف الليل تدخل عليّ من شقوق الكهف أشباح الأزمنة الغابرة وأرواح الأمم المنسية فأحدق إليها وتحديق إليّ ، وأخاطبها مستفهماً فتجيبني مبتسمة ثم أحاول القبض عليها فتتاوري مضمحلة كالدخان .

أنا غريب في العالم .

أنا غريب وليس في الوجود من يعرف كلمة من لغة نفسي .

أسير في البرية الخالية فأرى السواقي تتصاعد متراكضة من أعماق الوادي إلى قمة الجبل ، وأرى الأشجار العارية تكتسي- وتزهو وتثمر وتنشر أوراقها في دقيقة واحدة ، ثم تهبط أغصانها إلى الحضيض وتتحول إلى حيات رقطاء مرتعشة . وأرى الأطيّار تتنقل متصاعدة ، هابطة ، مغردة ، مولولة ، ثم تقف وتفتح أجنحتها وتنقلب نساء عاريات ، محلولات الشعر ، ممدودات الأعناق ، ينظرن إليّ من وراء أجفان مكحولة بالعشق ويتسمن لي بشفاه وردية مغموسة بالعسل ويمددن نحوي أيدياً بيضاء ناعمة معطرة بالمرّ واللبن ، ثم ينتفضن ويختفين عن ناظري ويضمحلن كالضباب تاركات في الفضاء صدى ضحكهن مني واستهزائهن بي .

أنا غريب في هذا العالم .

أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة وأنثر ما تنظمه ، ولهذا أنا غريب وسأبقى غريباً حتى
تخطفني المنايا وتحملني إلى وطني .



الكلام وطوائف المتكلمين

لقد مللت الكلام والمتكلمين .

لقد تعبت روحي من الكلام والمتكلمين .

لقد ضاعت فكري بين الكلام والمتكلمين .

أستيقظ في الصباح فأرى الكلام جالسًا بجانب مضجعي على صفحات الرسائل والجرائد والمجلات . وهو ينظر إليّ بعيون ملؤها الدهاء والخبث والرياء .

أغادر فراشي واجلس إلى جانب النافذة لأزيح نقاب النوم عن بصيرتي بفنجان من القهوة فيتبعني الكلام ويتنصب أمامي راقصًا صارخًا معربدًا ثم يمد يده مع يدي إلى فنجان القهوة ويرتشف منه بارتشافي ، وإذا تناولت لفافة يتناولها معي . وإذا رميت بها رماها معي أيضًا .

وأقوم للعمل فيلحق بي الكلام موسوسًا في أذني ، مهمهمًا حول رأسي ، مقرقعًا في خلايا دماغي . فأحاول طرده فيضحك مقهقهًا ثم يعود إلى الوسوسة والهمهمة والقرقعة .

أخرج إلى الشارع فأرى الكلام واقفًا في باب كل حانوت ، منبسطًا على جدران كل منزل . أراه في أوجه الناس وهم صامتون . وفي حركاتهم وسكناتهم وهم لا يدرون .

إن جالست صديقي يكون الكلام ثالثنا . وإن التقيت عدوي ينتفخ الكلام إذ ذاك ويتمدد ثم يتجزأ متحوّلًا إلى جيش عرمرم أوله مشارق الأرض وآخره مغاربها . فإذا غادرته هاربًا ظل صدى كلامه يتمايل مختبطًا في باطني اختباط الطعام لا تهضمه المعدة .

أذهب إلى المحاكم والمعاهد والمدارس فأرى الكلام وأبا الكلام وأخاه وهم يلبسون الكذب رداء والاحتيال عمامة وحذاء .

ثم أسير إلى المعمل وإلى المكتب وإلى الإدارة فأجد الكلام واقفًا بين أمّه وعمّته وجدّته وهو يقلب لسانه بين شفّتيه الغليظتين وهن يتسمن له ويضحكن مني .

وإذا بقي لي شيء من العزم والتجلّد وزرت المعابد والهياكل رأيت هناك الكلام جالسًا على عرشه وهو متوّج الرأس وفي يده صولجان دقيق الصنع لطيف الجوانب ناعمها .

وعندما أعود في المساء إلى غرفتي أجد الكلام الذي سمعته سحابة نهاري متدليًا كالأفاعي من سقفها ، منسلًا كالعقارب في قرانيها .

الكلام في الفضاء وما وراءه ، وعلى الأرض تحتها .

الكلام على أجنحة الأثير وفي أمواج البحر وفي الغابات والكهوف وفوق قمم الجبال .

الكلام في كل مكان . فإلى أين يذهب من يريد الهدوء والسكينة ؟

أيوجد في هذا العالم طائفة من الخرسان لأنتمي إليها ؟

هل يرحمني الله ويمنحني موهبة الطرش فأحيا سعيدًا في جنّة السكون الأبدي ؟

أليس على وجه البسيطة قرنة خالية من شقشقة اللسان وبلبلّة الألسن حيث الكلام لا يباع ولا يشترى ، ولا يعطى ولا يؤخذ ؟

ليت شعري ! أيّين سكّان الأرض من لا يعبد نفسه متكلمًا ؟ هل يوجد بين طغّمات الخلق من لم يكن فمه مغارة للصو ص الألفاظ ؟

ولو كان المتكلمون نوعاً واحداً لرضينا وتجلدنا ، ولكنهم أنواع وأشكال لا عداد لها .

فهناك طائفة « المستضعفين » الذين يعيشون في المستنقعات النهار بطوله . وعندما يجيء المساء يقتربون من الشواطئ رافعين رؤوسهم فوق سطح الماء مفعمين صدر الليل بضجيج قبيح تأباه المسامع والأرواح .

وهناك طائفة « المستبعضين » والبعوض من مولدات المستنقعات أيضاً ، وهم الذين يرفرفون حول أذنك بنغمة تافهة رفيعة شيطانية ، سداها النكاية ولحمتها البغضاء .

وهناك طائفة « المستطحين » وهي طائفة غريبة ، في داخل كل فرد من أفرادها حجر يدار بالكحول فيولد جعجة جهنمية أخفها أثقل مما تحدثه حجارة الرحي .

وهناك طائفة « المتبقرين » وهم الذين يملأون أجوافهم حشيشاً ثم يقفون على منعطفات الشوارع والأزقة مبطين الهواء بخوار ألطفه أغلظ من خوار الجاموس .

وهناك طائفة « المستبومين » وهم الذين يصرفون الساعات بين مقابر الحياة وأجدائها محوّلين سكينه الدجى إلى عويل أفرحه أحزن من نعيب البوم .

وهناك طائفة « المستنشرين » وهم الذين لا يرون من الحياة إلا أخشابها فيصرفون الأيام بتجزئتها وتفصيلها ، محدثين بذلك خشخشة أعذبها أضنك مما تحدثه المناشير .

وهناك طائفة « المستطبلين » وهم الذين يقرعون نفوسهم بمطارق ضخمة فيخرج من أفواههم الفارغة قرقة ألطفها أغلظ من قرقة الطبول .

وهناك طائفة « المستعلكين » وهم الذين لا شغل لهم ولا عمل فيجلسون حيثما يجدون مقعداً ويمضغون الكلام ولكنهم لا يلفظونه .

وهناك طائفة « المستهزئين » وهم الذين يستغيبون الناس ويستغيبون بعضهم بعضًا ويستغيبون نفوسهم على غير معرفة من نفوسهم ، ولكنهم يدعون الاستغابة باسم المجون . والمجون ضرب من الجذولكنهم لا يعلمون .

وهناك طائفة « الأنوال » التي تحرك الهواء بالهواء ولكنها تظل هي دون قمصان ولا سراويل .

وهناك طائفة « الزراير » التي قال عنها الشاعر : لما حام حائمها توهمت أنها صارت شواهينا .

وهناك طائفة « الأجراس » وهي التي تدعو الناس إلى الهياكل ولكنها لا تدخلها .

وهناك طائفة وعشائر لا تُعدّ ولا تحصى . ولا توصف ، أغربها في عقيدتي طائفة نائمة ولكنها تملأ الفضاء غطيظًا إلا أنها لا تدري .

والآن وقد أبنت بعض « قرني » واشمئززي من الكلام والمتكلمين ، أراني كالطبيب المعتلّ أو كمجرم يقف واعظًا بين المجرمين . فقد هجوت الكلام ولكن بالكلام . وتطيرت من المتكلمين وأنا واحد من المتكلمين . فهل يغفر الله ذنبي قبيل أن يرحمني وينقلني إلى غابة الفكر والعاطفة والحقّ حيث لا كلام ولا متكلمين ؟



البدائع والطرائف

(نشرت عام 1923)

القشور واللباب

ما شربت كأسًا علقميّة إلا كانت ثملتها عسلًا .
وما صعدت عقبة حرجة إلا بلغت سهلاً أخضر .
وما أضعت صديقًا في ضباب السماء إلا وجدتّه في جلاء الفجر .
وكم مرّة سترت ألمي وحرقتي برداء التجلّد متوهّمًا أن في ذلك الأجر والصلاح ، ولكنني
لما خلعت الرداء رأيت الألم قد تحوّل إلى بهجة والحرقة قد انقلبت بردًا وسلامًا .
وكم سرت ورفيقي في عالم الظهور فقلت في نفسي ما أحقه وما أبلده ، غير أنني لم أبلغ
عالم السرّ حتى وجدتني الجائر الظالم وألفيته الحكيم الظريف .
وكم سكرت بخمرة الذات فحسبتي وجليسي- حملاً وذئبًا ، حتى إذا ما صحوت من
نشوتي رأيتني بشرًا ورأيتّه بشرًا .
أنا وأنتم أيّها الناس مأخوذون بما بان من حالنا ، متعامون عمّا خفى من حقيقتنا . فإن
عشر أهدنا قلنا هو الساقط ، وإن تماهل قلنا هو الخائر التلف ، وإن تلعثم قلنا هو الأخرس ،
وإن تأوّه قلنا تلك حشرة النزع فهو مائت .
أنا وأنتم مشغوفون بقشور « أنا » وسطحيات « أنتم » لذلك لا نبصر ما أسره الروح إلى
« أنا » وما أخفاه الروح في « أنتم » .

وماذا عسى نفعل ونحن بما يساورنا من الغرور غافلون عمّا فينا من الحق ؟

أقول لكم ، وربّما كان قولي قناعاً يغشى وجه حقيقتي ، أقول لكم ولننسى- : إنّ ما نراه بأعيننا ليس بأكثر من غمامة تحجب عنّا ما يجب أن نشاهده ببصائرنا . ومن نسمعه بأذاننا ليس إلّا طنطنة تشوّش ما يجب أن نستوعبه بقلوبنا . فإن رأينا شرطياً يقود رجلاً إلى السجن علينا ألاّ نجزم في أيّهما المجرم . وإن رأينا رجلاً مضرّجاً به وآخر مخضوب اليدين فمن الحصافة ألاّ نحتم في أيّهما القاتل وأيّهما القتيل . وإن سمعنا رجلاً يئسّ وآخر يندب فلنصبر ريثما تثبت أيّهما الطروب .

لا يا أخي لا تستدلّ على حقيقة امرئ بما بان منه ، ولا تتخذ قول امرئ أو عملاً من أعماله عنواناً لطويته . فربّ من تستجهله لثقل في لسانه وركاكة في لهجته كان وجدانه منهجاً للفظن وقلبه مهبطاً للوحي . وربّ من تحتقره لدمامة في وجهه وخساسة في عيشه كان في الأرض هبة من هبات السماء وفي الناس نفحة من نفحات الله .

قد تزور قصرًا وكوخًا في يوم واحد ، فتخرج من الأوّل متهيّبًا ومن الثاني مشفقًا ، ولكن لو استطعت تمزيق ما تحوكه حواسك من الظواهر لتقلص تعيبك وهبط إلى مستوى الأسف ، وانبذت شفقتك وتصاعدت إلى مرتبة الإجلال .

وقد تلتقي بين صباحك ومساءلك رجلين فيخاطبك الأوّل وفي صوته أهازيج العاصفة وفي حركاته هول الجيش ، أما الثاني فيحدّثك متخوّفًا وجلًّا بصوت مرتعش وكلمات متقطّعة ، فتعزو العزم والشجاعة إلى الأوّل ، والوهن والجبن إلى الثاني . غير أنّك لورأيتهما وقد دعتهما الأيام إلى لقاء المصاعب ، أو إلى الاستشهاد في سبيل مبدأ ، لعلمت أن الوقاحة المبهرجة ليست ببسالة والخجل الصامت ليس بجبانة .

وقد تنظر من نافذة منزلك فترى عابري الطريق ؛ راهبة تسير يميناً ومومساً تسير شمالاً ؛ فتقول على الفور : ما أنبل هذه وما أقبح تلك ! ولكنك لو أغمضت عينيك وأصغيت هنيهة لسمعت صوتاً هامساً في الأثير قائلاً : هذه تشدني بالصلاة وتلك ترجوني بالألم ، وفي روح كل منهما مظلة لروحي .

وقد تطوف في الأرض باحثاً عما تدعوه حضارة وارتقاء ، فتدخل مدينة شاهقة القصور فخمة المعاهد رحبة الشوارع ، والقوم فيها يتسارعون إلى هنا وهناك فذا يخترق الأرض ، وذاك يحلّق في الفضاء ، وذلك يمتشق البرق ، وغيره يستجوب الهواء ، وكلّهم بملابس حسنة الهندام ، بديعة الطراز ، كأنهم في عيد أو مهرجان .

وبعد أيام يبلغ بك المسير إلى مدينة أخرى حقيرة المنازل ضيقة الأزقة إذا أمرتها السماء تحوّلت إلى جُزُر من المدر في بحر من الأوحال . وإن شخصت بها الشمس انقلبت غيمة من الغبار . أمّا سكانها فما برحوا بين الفطرة والبساطة كوتر مسترخ بين طرفي القوس . يسرون متباطئين ويعملون متهاولين وينظرون إليك كأن وراء عيونهم عيوناً تحديق إلى شيء بعيد عنك ، فترحل عن بلدهم ماقئاً مشمئزاً قائلاً في سرّك : إنّما الفرق بين ما شهدته في تلك المدينة وما رأيته في هذه هو كالفرق بين الحياة والاحتضار . فهناك القوّة بمدّها وهنا الضعف بجزره . هناك الجذ ربيع وصيف وهنا الخمول خريف وشتاء . هناك اللجاجة شباب يرقص في بستان وهنا الوهن شيخوخة مستلقية على الرماد .

ولكن لو استطعت النظر بنور الله إلى المدينتين لرأيتهما شجرتين متجانستين في حديقة واحدة . وقد يمتد بك التبصر في حقيقتيهما فترى أنّ ما توهمته رقيّاً في إحدهما لم يكن سوى فقاقيع لماعة زائلة . وما حسبته خمولاً في الأخرى كان جوهرًا خفياً ثابتاً .

لا ليست الحياة بسطوحها بل بخفاياها ، ولا المرئيات بقشورها بل بلبابها ، ولا الناس بوجوههم بل بقلوبهم .

لا ، ولا الدين بما تظهره المعابد وتبينه الطقوس والتقاليد ، بل بما يختبئ في النفوس ويتجوهر بالنيات .

لا ، ولا الفن بما تسمعه بأذنك من نبرات وخفصات أغنية ، أو من رنات أجراس الكلام في قصيدة ، أو بما تبصره بعينيك من خطوط وألوان صورة . بل الفن بتلك المسافات الصامتة المترعشة التي تجيء بين النبرات والخفصات في الأغنية . وبما توحيه إليك الصورة فترى وأنت محدق إليها ما هو أبعد وأجمل منها .

يا أخي ، ليست الأيام والليالي بظواهرها ، وأنا ، أنا السائر في موكب الأيام والليالي ، لست بهذا الكلام الذي أطرحة عليك إلا بقدر ما يحمله إليك الكلام من طويتي الساكنة . إذن لا تحسبني جاهلاً قبل أن تفحص ذاتي الخفية ، ولا تتوهمني عبقرياً قبل أن تجردني من ذاتي المقتبسة . لا تقل هو بخيل قابض الكف قبل أن ترى قلبي ، أو هو الكريم الجواد قبل أن تعرف الواعز إلى كرمي وجودي . لا تدعني محباً حتى يتجلى لك حبي بكل ما فيه من النور والنار ، ولا تعدني خلياً حتى تلمس جراحي الدامية .



نفسى مثقلة بأثمارها

نفسى مثقلة بأثمارها فهل من جائع يجني ويأكل ويشبع ؟

أليس بين الناس من صائم رؤوف يفطر على نتاجي ويريجني من أعباء خصبي وغزاتي ؟
نفسى رازحة تحت عبء من التبر واللجين ، فهل بين الناس من يملأ جيبه ويخفف عني
حملي ؟

نفسى طافحة من خمرة الدهور ، فهل من ظامئ يسكب ويشرب ويرتوي ؟

هوذا رجل واقف على قارعة الطريق يبسط نحو العابرين يداً مفعمة بالجواهر ويناديهم
قائلاً : ألا فارحموني وخذوا مني . اشفقوا علىّ وخذوا ما معي . أمّا الناس فيسيرون ولا
يلتفتون .

ألا ليتّه كان شحاذاً متسوّلاً يمدّ يداً مرتعشة نحو العابرين ويرجعها فارغة مرتعشة . ليتّه
كان مُقعداً أعمى يمرّ به الناس ولا يحفلون .

هوذا مثير جوادٍ نصب خيامه بين مجاهل البيداء ولحف الجبل ، يوقد كلّ ليلة ويبعث عبيده
ليرصدوا السبل لعلّهم يقودون إليه ضيفاً يقريه ويكرمه ، ولكن السبل بخيله لا تجود على
هباته بمرتزق ، ولا تعبت إلى هباته بطالب .

ألا ليتّه كان صعلوكاً منبوذاً !

ليتّه كان عيَّاراً متشرّداً يطوف البلاد وفي يده عكّاز وفي كوعه دلو ، فإذا ما جاء المساء
جمعتة ملتويات الأزقة بزملائه العيَّارين المتشردين فيجلس بقربهم ويقاسمهم خبز الصدقة !

هوذا ابنة الملك الأكبر قد استيقظت من رقادها ، وهبت من مضجعها ، وقامت فتردت بأرجوانها وبرفيرها ، وتزينت بلؤلؤها وياقوتها ، ونثرت المسك على شعرها وغمست بذوب العنبر أصابعها ثم خرجت إلى حديقتها ، ومشت وقطرات الندى تبلل أطراف ثوبها .

في سكون الليل سارت ابنة الملك الأكبر في جنتها تبحث عن حبيبها . ولكن لم يكن في مملكة أبيها من يحبها . ألا ليتها كانت ابنة زراع ترعى أغنام أبيها في الأودية وتعود مساء إلى كوخ أبيها وعلى قدميها غبار المنعكفات وبين طيات ثوبها رائحة الكروم . حتى إذا ما جنّ الليل ونام سكّان الحي اختلست خطواتها إلى حيث يترقبها حبيبها .

ليتها كانت راهبة في الدير تحرق قلبها بوراً فينشر الهواء عطر قلبها . وتوقد روحها شمعاً فيحمل الأثير نور روحها . وتركع مصلية فتحمل أشباح الخفاء صولتها إلى خزائن الزمن حيث تصان صلوات المتعبدين بجانب حرقة المحبين وهواجس المستوحدين !

ليتها كانت عجوزاً مسنة تجلس مستدفئة في أشعة الشمس بمن تقاسموا صباها ، فذاك خير من أن تكون ابنة الملك الأكبر وليس في مملكة أبيها من يأكل قلبها خبزاً ويشرب دمها خمرًا !

نفسي مثقلة بأثمارها ، فهل في الأرض جائع يجني ويأكل ويشبع ؟

نفسي طافحة بخمرها ، فهل من ظامئ يسكب ويشرب ويرتوي ؟

ألا ليتني كنت شجرة لا تزهر ، ولا تثمر ، فألم الخصب أمرّ من ألم العقم ، وأوجاع ميسور لا يؤخذ منه أشدهولاً من قنوط فقير لا يُرزق .

ليتني كنت برّاً جافة والناس ترمي بي الحجارة فذلك أهون من أن أكون ينبوع ماء حي والظامئون يجتازونني ولا يستقون .

ليتني كنت قصة مرضوضة تدوسها الأقدام فذاك خير من أن أكون قيثارة الأوتار في
منزلٍ ربّه مبتور الأصابع وأهله طرشان !



حفنة من رمال الشاطئ

- * كآبة الحب تترنم . وكآبة المعرفة تتكلم . وكآبة الرغائب تهمس . وكآبة الفقر تندب . ولكن هناك كآبة أعمق من الحب . أنبل من المعرفة . وأقوى من الرغائب . وأمر من الفقر . غير أنها خرساء لا صوت لها أمّا عيناها فمشعشتان كالنجوم .
- * عندما تشكو مصاباً لجارك تهبه جزءاً من قلبك . فإن كان كبير النفس شكرك . وإن كان صغيرها احتقرك .
- * ليس التقدّم بتحسين ما كان ، بل بالسير نحو ما سيكون .
- * المسكنة نقاب يخفي ملامح الكبرياء . والدعوى قناع يغشى وجه البلاء .
- * عندما يجوع المتوحش يقطف ثمرة من شجرة ويأكلها ، وعندما يجوع المتمدّن يشتري ثمرة ممّن اشتراها ممّن اشتراها ممّن اشتراها ممّن قطفها من الشجرة .
- * الفن خطوة من المعروف الظاهر نحو المجهول الخفي .
- * بعض الناس يستحثونني على الأمانة ليتمتعوا بلذة السماح عني .
- * ما أدركت طوية امرئ إلاّ حسبني مديوناً له .
- * تتنفس الأرض فنولد ثمّ تستريح أنفاسها فنموت .
- * عين الإنسان مجهر تبين له الدنيا أكبر ممّا هي حقيقة .
- * أنا برئ من قوم يحسبون القحة شجاعة واللين جبانة .
- * وأنا برئ ممّن يتوهم الثرثرة معرفة والصمت جهالة والتصنّع فناً .

- * قد يكون في استصعابنا الأمر أسهل السبل إليه .
- * يقولون لي : إذا رأيت عبداً نائماً فلا تنبهه لعلّه يحلم بحريته . وأقول لهم : إذا رأيت عبداً نائماً نبهته وحدثته عن الحرية .
- * المعاكسة أدنى مراتب الذكاء .
- * الجميل يأسرنا أمّا الأجهل فيعتقدنا حتى ومن ذاته .
- * الحماسة بركان لا تنبت على قمّته أعشاب التردد .
- * يظلّ النهر جاداً نحو البحر ، انكسر دولا ب المطحنة أم لم ينكسر .
- * صُنع الأديب من الفكر والعاطفة ثمّ وهب الكلام . أمّا الباحث فقد صُنع من الكلام ثمّ أعطي قليلاً من الفكر والعاطفة .
- * تأكل مسرعاً وتمشي متباطئاً ، فهلا أكلت برجلك ومشيت على كفيك !
- * ما تعاضم فرحك أو حزنك إلاّ صغرت الدنيا في عينيك .
- * العلم يستنبت بذورك ولا يلقي بك بذراً .
- * ما أبغضت إلاّ كان البغض سلاحاً أدافع به عن نفسي- ، ولكن لو لم أكن ضعيفاً لما اتخذت هذا النوع من السلاح .
- * لو علم جدّ جدّ يسوع ما كان محتبئاً في شخصه لوقف خاشعاً متهيّئاً أمام نفسه .
- * الحب سعادة ترتعش .

* يحسبونني حادّ النظر ثاقبة لأنني أراهم من خلال شبكة الغربال .

* لم أشعر بألم الوحشة حتى مدح الناس عيوبي الثرثرة وطعنوا في حسناتي الخرساء .

* بين الناس قتلة لم يسفكوا دمًا قطّ ، ولصوص لم يسرقوا شيئًا البتة ، وكذبة لم يقولوا إلا الصحيح .

* الحقيقة التي تحتاج إلى برهان هي نصف حقيقة .

* ألا فأبعدوني عن الحكمة التي لا تبكي وعن الفلسفة التي لا تضحك وعن العظمة التي لا تحني رأسها أمام الأطفال .

أيها الكون العاقل ، المحجوب بظواهر الكائنات ، الموجود بالكائنات وفي الكائنات
وللكائنات ، أنت تسمعي لأنك حاضرٌ في ذاتي . وإنك تراني لأنك بصيرة كلّ شيء حيّ .
ألقِ في روحي بذرة من بذور حكمتك لتنبت نضبة في غابتك وتعطي ثمرًا من أثارك . آمين .



سفينة في ضباب

هذا حديث رجل جمعنا في منزله المنفرد القائم على كتف وادي قاديشا في ليلة مغمورة بالثلوج مرتعشة بالهوية .

قال محدثنا وهو ينبش رماد الموقد بطرف قضيب كان بيده :

تريدون أن أحدثكم عن المأساة التي تعيد الذكرى تمثيلها في صدري كل يوم وكل ليلة .

لقد مللت سكوتي وتكلمي . وضجرت من تنهدي وتلملي . وقال بعضكم لبعض : إذا كان لا يدخلنا هذا الرجل إلى هيكل أو جاعه فكيف نستطيع الدخول إلى بيت مودته ؟

أنتم مصييون يا رفاقي . فمن لا يساهمنا الألم لن يشاركنا في شيء آخر .

فاسمعوا إذن حكايتي . اسمعوا ولا تكونوا مشفقين فالشفقة تجوز على الضعفاء وأنا لم أزل قويا بكأبتي .

منذ شبابي وأنا أرى في أحلام يقظتي وأحلام نومي طيف امرأة غريبة الشكل والزوايا . كنت أراها في ليالي الوحدة واقفة قرب مضجعي . وكنت أسمع صوتها في السكينة . وكنت في بعض الأحيان أغمض عيني وأشعر بملامس أصابعها على جبهتي فأفتح عيني وأهبط مذهورا مصغيا بكل ما بي من المسامع إلى همس اللاشيء .

وكنت أقول لذاتي : هل تطوح بين خيالي حتى ضعت في الضباب ؟ وهل صنعت من أبخرة أحلامي امرأة جميلة الوجه عذبة الصوت ليّنة الملامس لتأخذ مكان امرأة من الهولي ؟ هل خولطت بعقلي فاتخذت من ظلال عقلي رفيقة أحبها واستأنس بها وأركن إليها وأبتعد عن الناس لأقترب منها وأغلق عيني ومسامعي عن كل ما في الحياة من الصور والأصوات لأرى صورتها وأسمع صوتها ؟ أمجنون أنا يا ترى ؟ أمجنون لم يكتف بالانصراف إلى العزلة بل ابتدع له من أشباح العزلة رفيقة وقرينة ؟

قلت « قرينة » وأنتم تستغربون هذه اللفظة ، ولكن هناك بعض الاختبارات التي نستغربها بل وننكرها لأنها تظهر لنا بمظاهر المستحيل ولكن استغرابنا ونكراننا لا يمحوان حقيقتها في نفوسنا . لقد كانت تلك المرأة الخيالية قرينة لي ، تساهمني وتبادلني كل ما في الحياة من الميول والمنازع والأفراح والرغائب ، فلم أستيقظ صباحًا إلا رأيته متكئة على مساند سريري وهي تنظر إليّ بعينين يملأهما طهر الطفولة وعطف الأمومة . ولم أحاول عملاً إلا ساعدتني على تحقيقه . ولم اجلس إلى مائدة إلا جلست قبالي تحادثني وتبادلني الآراء والأفكار . وما جاء مساء إلا اقتربت مني قائلة : قم بنا نسرين التلول والمنحدرات ، كفانا الإقامة في هذا المنزل . فأترك إذا ذاك عملي وأسير قابضاً على أصابعها ، حتى إذا ما بلغنا البرية المتحشة بنقاب المساء المغمور بسحر السكون نجلس جنباً إلى جنب على صخرة عالية محدقين إلى الشفق البعيد . فكانت تارة تومئ إلى الغيوم المذهبة بأشعة الغروب وطوراً تسترعي سمعي إلى تغريد الطائر يبعث صوته تسبيحة شكر وطمأنينة قبيل أن يلتجئ إلى الأغصان للمبيت .

وكم مرّة دخلت لي وأنا أشتغل في غرفتي قلقاً مضطرباً فلا تلمحها عيني حتى يتحوّل قلقي إلى الهدوء واضطرابي إلى الائتلاف والاستئناس .

وكم لقيت الناس وفي روحي جيش يزحف متمرداً على ما أكرهه في نفوسهم ، ولكنني ما تبيّنت وجهها بين وجوههم إلا انقلبت الزوبعة في باطني إلى أنغام علوية .

وكم جلست منفرداً وفي قلبي سيف من ألم الحياة ومتاعبها وحول عنقي سلاسل من مشاكل الوجود ومعضلاته ، ثم ألتفت فأراها واقفة أمامي محدقة إليّ بعينين تفيضان نوراً وبهاء فتتنشع غيومي ويتهلّل قلبي وتبدو الحياة لبصيرتي جنةً أفراح ومسرات .

وأنتم تسألون ، يا رفاقي ، ما إذا كنت مقتنعًا بهذه الحالة الشاذة الغريبة - تسألون ما إذا كان المرء وهو في عنفوان شبابه يستطيع الاكتفاء بما تدعونه وهمًا وخيالًا وحلمًا وعلّة نفسية ؟

أقول لكم : إن الأعوام التي صرفتها في تلك الحالة هي زبدة ما عرفته في الحياة من الجمال والسعادة واللذة والطمأنينة . أقول لكم إنني كنت ورفيقتي الأثيرية فكرة مطلقة مجردة تطوف في نور الشمس وتطفو على وجه البحار وتسعى في الليالي القمرية وتهلّل بأغانٍ ما سمعتها أذن وتقف أمام مشاهد ما رأتها عين . إن الحياة ، كلّ الحياة ، هي ما نخبره بأرواحنا . والوجود كلّ الوجود هو في ما نعرفه ونتحقّقه فنبتهج به ونتوجّع لأجله . وأنا قد اختبرتُ أمرًا بروحي ، اختبرته كلّ يوم وكلّ ليلة حتى بلغت الثلاثين من عمري .

ليتني لم أبلغ الثلاثين . ليتني متّ ألف مرّة ومرّة قبل أن أبلغ تلك السنة التي سلبتني لباب حياتي واستنزفت دماء قلبي وأوقفتني أمام الأيام والليالي شجرة يابسة عارية مستوحدة فلا ترقص أغصانها لغاني الهواء ، ولا تحوّل الأطيّار أعشاشها بين أوراقها وأزهارها .

وسكت محدّثنا دقيقة وقد ألوى رأسه وأغمض عينيه وأرخى زنديه إلى جانب مقعدة فبان كأنّه اليأس مجسمًا . أمّا نحن فبقينا صامتين مترقّبين استماع تتمة حديثه . ثمّ فتح أجفانه وبصوت خارج من أعماق كيان مكلوم قال : تذكرون ، يا رفاقي ، أنّه منذ عشرين سنة بعثني حاكم هذا الجبل بمهمة علمية إلى مدينة البندقية ، وأصبحني برسالة إلى محافظ تلك المدينة الذي كان قد عرفه في القسطنطينية .

تركت لبنان وأبحرت على سفينة إيطالية وقد كان ذلك في شهر نيسان وروح الربيع ترتعش بين ثنايا الهواء وتنثني مع أمواج البحر وتمثلّ بصور جميلة متقلّبة في الغيوم البيضاء المتلبّدة فوق الآفاق . كيف أصف لكم تلك الأيام وتلك الليالي التي صرفتها على ظهر السفينة؟ إن قوة الكلام المتعارف بين البشر لا تتجاوز ما تحويه مدارك البشر وما يشعرون به . وفي الروح ما هو أبعد من إدراك وأدقّ من الشعور فكيف أرسمها لكم بالكلام؟

لقد كانت تلك السنون التي صرفتها مع رفيقتي الأثريّة منطقة بالأنس والألفة مغمورة بالسكينة والرضى فلم يدر في خلدي أن الألم رابض لي وراء حجب سعادتي ، وأن المرارة ثمالة راكدة في أعماق كأسّي . لا لم أخش قطّ ذبول زهرة نبتت فوق الغيوم واضمحلال أنشودة ترنّمت بها عرائس الفجر . ولما تركت هذه التلول والأودية كانت رفيقتي جالسة بقربي في المركبة التي حملتني إلى الساحل . وفي الثلاثة الأيام التي قضيتها في بيروت قبيل سفري كانت قرينتي تذهب حيثما أذهب وتقف عندما أقف ، فلم أجتمع بصديق إلا رأيتهما تبسم له ، ولم أزر معهدًا إلا شعرت بيدها قابضة على يدي ، ولم أجلس مساء في شرفة النزل مصغيًا إلى أصوات المدينة إلا شاركتني في التأمل وساهمتني الفكر . ولكن لما فصلني الزورق عن ميناء بيروت ، في الدقيقة التي وطئت فيها ظهر السفينة ، شعرت بتغير في فضاء روحي ، شعرت بيد خفيّة قويّة تتمسك بساعدي وسمعتُ صوتًا عميقًا يهمس في أذني قائلاً : ارجع ، ارجع من حيث أتيت . انزل إلى الزورق وعد إلى شواطئ بلادك قبل أن تبهر السفينة .

وأبحرت السفينة وأنا على ظهرها أشبه شيء بعصفور بين مخالب باشق يسبح محلّقًا في الخلاء . ولما جاء المساء وقد أنحجبت قمم لبنان وراء ضباب البحر رأيته واقفًا وحدي على مقدّمة السفينة وفتاة أحلامي ، المرأة التي أحبّها قلبي ، المرأة التي رافقت شبابي ، لم تكن معي .. الصبية العذبة التي كنت أرى وجهها كلّما مددت يدي إلى الأمام ، لم تكن على ظهر تلك السفينة ، ولأول مرّة ، لأول مرّة ، وجدتني واقفًا وحدي أمام الليل والبحر والفضاء .

وبقيت على هذه الحالة أنتقل من مكان إلى مكان منادياً رفيقتي في قلبي ناظراً إلى الأمواج المتقلبة لعلّي أرى وجهها في بياض الزبد .

وعندما انتصف الليل وقد التجأ ركاب السفينة إلى مراقدهم وبقيت أنا وحدي هائماً ضائعاً مضطرباً ، التفتُ بغتة فرأيتها واقفة في الضباب على بعد خطوات ، فانتفضت مرتعشاً ومددتُ يدي إليها هاتفاً : لم تركتني ؟ .. لم تركتني في وحدتي ؟ إلى أين ذهبت ؟ أين كنت يا رفيقتي ؟ اقتربي ، اقتربي مني ولا تتركنيني بعد الآن .

فلم تدنُ مني ، بل ظلّت جامدة في مكانها ثم بدت على وجهها سيماء توجّع ولهفة ما رأيت أهول منهما في حياتي ، وبصوت خافت ضيئل قالت : جئت من أعماق اللجة لأراك لمحة واحدة . وها أنا راجعة إلى أعماق اللجة . ادخل مخدعك وأرقد وأحلم .

قالت هذه الكلمات وامتزجت بالضباب واضمحلت . فطفقتُ أناديها بلجاجة الطفل الجائع وأبسط ذراعي إلى كلّ ناحية فلا أقبض إلاّ على الهواء المثلث بندى الليل .

دخلت مخدعي وفي روحي عناصر تتقلب وتتصارع وتهبط وتتصاعد ، فكنتُ في جوف تلك السفينة سفينة أخرى في بحر من اليأس والالتباس ، وللغربة أنني لم ألقِ رأسي على وسائل مضجعي حتى أحسست بثقل في أجفاني وبتخدر في جسدي ، فنمت نوماً عميقاً حتى الصباح . ولقد رأيت في نومي حلماً . رأيت رفيقتي مصلوبة على شجرة تفاح مزهرة وقطرات الدماء تسيل من كفيها وقدميها على غصني الشجرة وعمدها ثم تنسكب على الأعشاب وتمتزج بأزهار الشجرة المنثورة .

وظلّت السفينة تسعى الأيام والليالي بين اللجتين وأنا على ظهرها لا أدري ما إذا كنت بشراً مسافراً إلى بلد بعيد بمهمة بشرية أم شبحاً تائهاً في فضاء خالٍ من الضباب ، فلم أشعر بقرب رفيقتي ولم ألمح وجهها في البقطة أو في المنام ، وباطلاً كنتُ أنادي مصلياً مبتهلاً للقوي الخفية لتسمعني مقطّعا من مقاطع صوتها أو لتريني ظلاً من ظلالها أو تجعلني أشعر بملامس أصابعها على جبھتي .

ومرّ أربعة عشر يومًا وأنا في هذه الحالة . وعند ظهيرة اليوم الخامس عشر- ظهرت عن بعد شواطئ إيطاليا ، وفي مساء ذلك النهار دخلت السفينة مياه البندقية وجاء قوم بزوارق مطلية بألوان ورسوم بهجة لينقلوا الركاب وأمتعتهم إلى المدينة .

أنتم تعلمون ، يا رفاقي ، أن مدينة البندقية قائمة على عشرات من الجزر الصغيرة المتقاربة فشوارعها ترع ومنازلها وقصورها مبنية في الماء ، والزوارق هناك تقوم مقام المركبات .

فلما نزلت من السفينة إلى الزورق سألني النوتي قائلاً :

- إلى أين يريد سيدي أن يذهب ؟

فلما ذكرت اسم محافظ المدينة نظر إليّ باهتمام واحترام وأخذ يضرب الماء بمقدافه .

سار بي الزورق وكان قد جاء الليل وألقى رداءه على المدينة فظهرت الأنوار في نوافذ القصور والمعابد والمعاهد فانعكست أشعتها في الماء متلاثلة مرتعشة ، فبانت البندقية كحلم شاعر يفتنه الغريب من المشاهد والوهمي من الأماكن . ولم يبلغ بي الزورق إلى منعطف أول حتى سمعت رنين أجراس لا عداد لها تملأ الفضاء بأنات محزنة متقطعة هائلة مخيفة . ومع أنني كنت في غيبوبة نفسية تفصلني عن كل المظاهر الخارجية فقد كانت تلك الطنات النحاسية تخرق لوح صدري كالمسامير .

ووقف الزورق بجانب سلّم حجري تتصاعد درجاته من الماء إلى الرصيف ، فالتفت البحريّ إليّ وأشار بيده نحو قصر قائم في وسط حديقة وقال : هذا هو المكان ، فصعدت من الزورق وسرّْتُ مبطئاً نحو المنزل والبحري يتبعني حاملاً حقييتي على كتفه ، حتى إذا ما بلغت باب المنزل ناولته أجرته وصرفته ثم طرقت الباب ففتح لي وإذا أنا أمام رهط من الخدم مطأطيء الرؤوس وهم يبكون وينوحون ويتأوهون بأصوات منخفضة فاستغربت هذا المشهد واحترت بأمره .

وبعد هنيهة تقدّم مني خادم كهّل ونظر من وراء أجفان مقروحة وسألني متنهّداً : ماذا تريد يا سيدي ؟ فقلت : أليس هذا منزل محافظ المدينة ؟ فحنى رأسه إيجاباً .

فأخرجت ، إذ ذاك ، الرسالة التي أصحبني بها حاكم لبنان وناولته إيّاها فنظر في عنوانها صامتاً ثمّ راح متماهلاً نحو باب في مؤخر ذلك الدهليز .

جرى كل ذلك وأنا بدون فكر ولا إرادة . ثمّ دنوت من خادمة صبيّة وسألتها عن سبب حزنهم ونواحيهم فأجابت متوجعة : عجّباً ، ألم تسمع أن ابنة المحافظ قد ماتت اليوم ؟

ولم تزد على هذه الكلمات بل غمرت وجهها بكفّها واستسلمت إلى البكاء .

تأملوا ، يا رفاقي ، حالة رجل قطع البحار وهو كفكرة سديمية ملتبسة أضاعها جبار من جبابرة الفضاء بين الأمواج المزبدة والضباب الرمادي . صورورا لنفوسكم حالة فتى سار أسبوعين بين عويل اليأس وصراخ اللجة ، ولما بلغ نهاية الطريق وجد نفسه واقفاً في باب منزل تتمشى في جنباته أشباح التفجّع وتملأ قرانيه أنات اللوعة . صورورا لنفوسكم ، يا رفاقي ، رجلاً غريباً يطلب الضيافة في قصر تخيم عليه أجنحة الموت .

وعاد الخادم الذي حمل الرسالة إلى سيّده وانحنى قائلاً : تفضّل يا سيدي فالمحافظ ينتظرك .

قال هذا ومشى أمامي فاتبعته حتى إذا ما بلغنا باباً في نهاية الممشى أوماً إلى أن أدخل قاعة واسعة عالية السقف منارة بالشموع وقد جلس فيها بعض الوجهاء والكهّان وكلّهم في سكوت عميق . فلم أكد أخط بضع خطوات حتى قام من صدر القاعة شيخ ذو لحية بيضاء وقد حنت ظهره الأشجان وثلمت وجهه الأوجاع وتقدم نحوي وأخذ بيدي قائلاً : يعزّ عليّ أن تأتي من بلاد بعيدة وتجندنا مصابين بأحبّ من لدينا . ولكنني أرجو أن لا يكون مصابنا حائلاً دون إتمام الغرض الذي جئنا من أجله ، فكن مطمئن البال يا ولدي .

فشكرت له عطفه مظهرًا أسفي لمصابه ببعض الألفاظ المشوشة .

وقادني الشيخ إلى كرسي بجانب مقعده فجلست صامتًا مع الجلاس الصامتين أنظر خلسة إلى وجوههم الكثيرة فتتولد في صدري كتلات من الضيم واللهفة . وبعد ساعة انصرف القوم الواحد تلو الآخر ولم يبقَ سواي مع الوالد الحزين في تلك القاعة الخرساء ، فوقفت إذ ذاك وتقدّمت قائلاً : اسمح لي يا سيدي بالانصراف . فقال ممانعًا : لا يا صديقي . لا تذهب . كن ضيفنا إن كان بإمكانك احتمال النظر إلى كآبتنا واستماع أنّة لوعتنا . فأخجلني كلامه وحنيت رأسي امتثالاً . ثم عاد وقال : أنتم اللبنانيين أبرّ الناس بالضيف ، فهلاً بقيت عندنا لنريك ولو قليلاً ممّا يلقيه الغريب في بلادكم !

وبعد هنيهة قرع الشيخ المنكوب جرساً فضياً فدخل علينا حاجب بملابس مزركشة مقصبة فقال له الشيخ مشيراً إلى : سر بضيفنا إلى الغرفة الشرقية وانظر بشأن مأكله ومشربه وتولّ بنفسك شؤونته وكن ساهراً على راحته .

فقادني الحاجب إلى غرفة رحبة بديعة الهندسة فخمة الرياش تغشي جدرانها الرسوم والمنسوجات الحريرية في وسطها سرير نفيس مغطى باللحف والمساند المطرزة .

تركني الحاجب فارتميت على مقعد أفكر بنفسي - ومحيطي وبغربتي ووحدتي ومآتي أوّل ساعة صرفتها في بلاد قصية عن بلادي .

وعاد الحاجب يحمل طبقاً عليه الطعام والشراب ووضعته أمامي فأكلت قليلاً ولكن بدون رغبة ثمّ صرفت الحاجب .

ومرّت ساعتان وأنا أتمشى تارة في تلك الغرفة وطورًا أقف في جوانب إحدى نوافذها
محدقًا إلى الفضاء مصغيًا إلى أصوات البحارة وخفق مقاذيفهم في الماء ، حتى إذا ما نهكني
السهر وتضعضت فكري بين مظاهر الحياة وخفاياها ارتميت على السرير مستسلمًا إلى
غيبوبة تتألف فيها سكرة الهجوع وصحو اليقظة ويتقلب فيها التذكار والنسيان مثلما يتناوب
الشواطئ مد البحر وجزره ، فكنت كساحة حرب صامته تتناضل فيها فيالق صامته ويجندل
الموت فرسانها فيقضون صامتين .

لا ، لا أدري ، يا رفاقي ، كم ساعة صرفت وأنا في هذه الحالة . إن في الحياة فسحات
تجتازها أرواحنا ولكننا لا نستطيع أن نقيسها بالمقاييس الزمنية التي ابتدعتها فكرة الإنسان .

لا ، لا أعرف كم ساعة بقيت في هذه الحالة . كل ما عرفته الآن هو أنني بينما كنت في
تلك الحالة الملتبسة شعرت بكيان حي واقف بقرب سريري ، شعرت بقوة ترتعش في فضاء
الغرفة ، شعرت بذات أثريّة تناديني ولكن بدون صوت ، وتستفزني ولكن بدون إشارة ،
فنهضت على قدمي وخرجت من الغرفة إلى الدهليز مدفوعًا مأمورًا مجذوبًا بعامل قاهر
ضابط كلي . سرت ولكن بغير إرادتي ، سرت كمن يسير وهو نائم ، سرت في عالم مجرد عمّا
نحسبه زمنًا ومسافة ، حتى إذا ما بلغت نهاية الدهليز دخلت قاعة كبرى في وسطها نعش
تنيره كوكبتان من الشموع وتحيط به الأزهار ، فتقدمت وركعت بجانبه ونظرت ، نظرت
فرأيت وجه رفيقتي ، رأيت وجه رفيقة أحلامي وراء نقاب الموت . رأيت المرأة التي أحببتها
حبًا فوق الحب . رأيتها جثة هادمة بيضاء بأثواب بيضاء بين أزهار بيضاء تحيم عليها سكينه
الدهور ورهبة الأزل .

يا إلهي ، يا إله الحب والحياة والموت ، أنت الذي كوّنت أرواحنا ثمّ سيّرتها في هذه الأنوار وهذه الظلمات . أنت الذي فطرت قلوبنا ثمّ جعلتها تنبض بالأمل والألم . أنت الذي أريتني رفيقتي جسداً بارداً . أنت الذي قدتني من أرض إلى أرض لتظهر لي مراد الموت بالحياة ومشية الوجع بالفرح . أنت الذي أنبت في صحراء وحدتي وانفرادي زنبقة بيضاء ثمّ سيّرتني إلى واد بعيد لتبينها لي زنبقة ذابلة ذاوية فانية !

نعم ، يا رفاقي ، يا رفاق وحشتني واغترابي إن الله قد شاء فسقاني الكأس العلقمية . لتكن مشيئة الله . نحن البشر ، نحن الذرات المرتعشة في خلاء لا حدّ له ولا مدى ، نحن لا نستطيع سوى الخضوع والامتثال . فإن أحببنا فحبّنا ليس منّا وليس لنا . وإن سرنا فسرورنا ليس فينا بل في الحياة نفسها . وإن تألمنا فالألم ليس بكلومنا بل بأحشاء الطبيعة بأسرها .

لم أقصّ عليكم حكايتي شاكياً . إن من يشكو يشك في الحياة وأنا من المؤمنين أو من بصلاحيّة هذه المرارة التي تمازج كلّ رشفة أرتشفها من كؤوس الليالي . أو من بجمال هذه المسامير التي تخترق صدرى . أو من برأفة هذه الأصابع الحديدية التي تمزّق غشاء قلبي .

هذه حكايتي فكيف أصل على نهايتها وهي بدون نهاية ؟ لقد بقيت راکعاً أمام نعش الصبية التي أحببتها في أحلامي محدّقاً إلى وجهها حتى وضع الفجر يده على بلور النوافذ ، فقمّت إذ ذاك وعدت إلى غرفتي متوكئاً على أوجاع الإنسانية منحنيّاً تحت أعباء الأبدية .

وبعد ثلاثة أسابيع تركت البندقية ورجعت إلى لبنان رجوع من صرف جيل في أعماق الدهر ، رجعت رجوع كلّ لبناني من غربة إلى غربة .

ساحووني ، يا رفاقي ، فقد أطلت حديثي ، ساحووني !



المراحل السبع

شجيت نفسي سبع مرّات : المرّة الأولى لما حاولت الحصول على الرفعة عن طريق الضعة . والمرّة الثانية لما عرجت أمام المقعدين . والمرّة الثالثة لما خيرت بين الصعب والهيّن فاخترت الهيّن . والمرّة الرابعة لما أخطأت فتعزّزت بخطأ غيرها . والمرّة الخامسة لما تجلّدت عن ضعف وعزت جلدها إلى القوة . والمرّة السادسة لما لمّت أذيالها عن أحوال الحياة . والمرّة السابعة لما وقفت مرتلة أمام الله أو حسبت الترتيل فضيلة فيها .



وعظتني نفسي

وعظتني نفسي فعلمتني حبّ ما يمقته الناس ومصافاة من يضاغنونه ، وأبانت لي أن الحبّ ليس بميزة في المحبّ بل في المحبوب . وقبل أن تعظني نفسي كان الحبّ بي خيطاً دقيقاً مشدوداً بين وتدين متقاربين ، أمّا الآن فقد تحوّل إلى هالة أوّلها آخرها وآخرها أوّلها تحيط بكلّ كائن وتتوسّع ببطء لتضم كلّ ما سيكون .

وعظتني نفسي فعلمتني أن أرى الجمال المحجوب بالشكل واللون والبشرة ، وأن أصدق متبصراً بما يعده الناس شناعة حتى يبدو لي حسناً . وقبل أن تعظني نفسي- كنت أرى الجمال شعلات مرتعشة بين أعمدة من الدخان ، واضمحل فلم أعد أرى سوى ما يشتعل .

وعظتني نفسي فعلمتني الإصغاء إلى الأصوات التي لا تولدها الألسنة ولا تضجّ بها الحناجر . وقبل أن تعظني نفسي كنت كليل المسامع مريضها ، لا أعني سوى الجلبة والصياح ، أمّا الآن فقد صرت أتوجس بالسكينة فأسمع أجواقها منشدة أغاني الدهور ، مرتلة تسايح الفضاء ، معلنة أسرار الغيب .

وعظتني نفسي فعلمتني أن أشرب ممّا لا يعصر ولا يسكب بكوؤس لا ترفع بالأيدي ولا تلمس بالشفاه . وقبل أن تعظني نفسي كان عطشي شرارة ضئيلة في رابية من رماد أخذها بعبة من الغدير أو برشفة من جرن المعصرة . أمّا الآن فقد صار شوقي كأسّي ، وغلّتي شرابي ، ووحدتي نشوتي . وأنا لا ولن أرتوي . ولكن في هذه الحرقعة التي لا تنطفئ مسرة لا تزول .

وعظمتني نفسي فعلمتني لمس ما لم يتجسّد ولم يتبلور، وأفهمتني أن المحسوس نصف المعقول . وإن ما نقبض عليه بعض ما نرغب فيه . وقبل أن تعظني نفسي كنت أكتفي بالحر إن كنت باردًا . والبارد إن كنت حارًا . وبأحدهما إن كنت فاترًا . أمّا الآن فقد انتشرت ملامسي المنكشفة وانقلبت ضبابًا دقيقًا يخترق كلّ ما ظهر من الوجود ليمتزج بها خفي منه .

وعظمتني نفسي فعلمتني استنشاق ما لا تبثه الرياحين ولا تنشره المجامر . وقبل أن تعظني نفسي كنت إن اشتفيت عطراً طلبته من البساتين أو من القوارير أو المباخر . أمّا الآن فقد صرّت أشمّ ما لا يحترق ولا يهرق . وأملأ صدري من أنفاس زكية لم تمر بجنة من جنّات هذا العالم ولم تحملها نسمة من نسّات هذا الفضاء .

وعظمتني نفسي- فعلمتني أن أقول «لبيك» عندما يناديني المجهول والخطر . وقبل أن تعظني نفسي- كنت لا أنهض إلاّ لصوت مناد عرفته . ولا أسير إلاّ على سبل خبرتها فاستهونتها . أمّا الآن فقد أصبح المعلوم مطية أركبها نحو المجهول ، والسهل سلماً أتسلّق درجاته لأبلغ الخطر .

وعظمتني نفسي فعلمتني ألاّ أقيس الزمن بقولي : كان بالأمس وسيكون غدًا . وقبل أن تعظني نفسي كنت أتوهم الماضي عهدًا لا يُرد ، والآتي عصرًا لن أصل إليه . أمّا الآن فقد عرفت أن في الهنيهة الحاضرة كلّ الزمن بكلّ ما في الزمن ممّا يرجى وينجز ويتحقّق .

وعظتني نفسي فعلمتني ألاّ أحدّ المكان بقولي : هنا وهناك وهناك . وقبل أن تعظني نفسي كنت إذا ما صرت في موضع في الأرض ظننتني بعيداً عن كلّ موضع آخر . أمّا الآن فقد علمت أن مكاناً أحلّ فيه هو كلّ مكان .. وأن فسحة أشغلها هي كلّ المسافات .

وعظتني نفسي فعلمتني أن أسهر وسكّان الحيّ راقدون . وأن أنام وهم متبهبهون . وقبل أن تعظني نفسي كنت لا أرى أحلامهم في هجعتي ولا يرصدون أحلامي في غفلتهم . أمّا الآن فلا أسبح مرفرفاً في منامي إلّا وهم يرقبونني ولا يطفرون في أحلامهم إلّا وفرحت بانعتاقهم .

وعظتني نفسي فعلمتني أن لا أطرب لمديح ولا أجزع لمذمة . وقبل أن تعظني نفسي كنت أظّل مرتاباً في قيمة أعمالي وقدرها حتى تبعث إليها الأيام بمن يقرظها أو يهجوها . أمّا الآن فقد عرفت أن الأشجار تزهر في الربيع وتثمر في الصيف ولا مطمع لها بالثناء . وتثمر أوراقها في الخريف وتتعرّى في الشتاء ولا تخشى الملامة .

وعظتني نفسي فعلمتني وأثبتت لي أنني لست بأرفع من الصعاليك ، ولا ادنى من الجبابرة ، وقبل أن تعظني نفسي كنت أحسب الناس رجلين : رجلاً ضعيفاً أرقّ له أو أزدري به ، ورجلاً قوياً أتبعه أو أتمرّد عليه . أمّا الآن فقد علمت أنني كوّنت فرداً ممّا كوّن البشر - منه جماعة . فعناصرى عناصرهم . وطويّتي طويّتهم .. ومنازعي منازعهم . ومحبتى محبتهم . فإن أذنبوا فأنا المذنب . وإن أحسنوا عملاً فأخرت بعملهم . وإن نهضوا نهضت وإياهم . وإن تقاعدوا تقاعدت معهم .

وعظتني نفسي فعلمتني أن السراج الذي أحمله ليس لي ، والأغنية التي أنشدها لم تكون في أحشائي . فأنا وإن سرت بالنور لست بالنور ، وأنا وإن كنت عودًا مشدود الأوتار فلست بالعود .



وعظتني نفسي يا أخي وعلمتني . ولقد وعظتك نفسك وعلمتك . فأنت وأنا متشابهان ومتضارعان . وما الفرق بيننا ، أنني أتكلّم عمّا بي وفي كلامي شيء من اللجاجة . وأنت تكتم ما بك وفي تكتمك شكل من الفضيلة .



لكم لبنانكم ولي لبناني

لكم لبنانكم ولي لبناني :

لكم لبنانكم ومعضلاته ، ولي لبناني وجماله .

لكم لبنانكم بكل ما فيه من الأغراض والمنازع ، ولي لبناني بما فيه من الأحلام والأمان .

لكم لبنانكم فاقنعوا به ، ولي لبناني وأنا لا أقنع بغير المجرد المطلق .

لبنانكم عقدة سياسية تحاول حلها الأيام ، أمّا لبناني فتلول تتعالى بهيبة وجلال نحو
ازرقاق السماء .

لبنانكم مشكلة دولية تتقاذفها الليالي ، أمّا لبناني فأودية هادئة سحرية تتموّج في جنباتها
رنّات الأجراس وأغاني السواقي .

لبنانكم صراع بين رجل جاء من المغرب ورجل جاء من الجنوب ، أمّا لبناني فصلاة
مجنحة ترفرف صباحاً عندما يقود الرعاة قطعانهم إلى المروج وتتصاعد مساءً عندما يعود
الفلاحون من الحقول والكروم .

لبنانكم حكومة ذات رؤوس لا عداد لها ، أمّا لبناني فجبل رهيب وديع جالس بين البحر
والسهول جلوس شاعر بين الأبدية والأبدية .

لبنانكن حيلة يستخدمها الثعلب عندما يلتقي الضبع ، والضبع حينما يجتمع بالذئب ، أمّا
لبناني فتذكارات تعيد على مسمعي أهازيج الفتيات في الليالي المقمرة ، وأغاني الصبايا بين
البيادر والمعاصر .

لبنانكم مربعات شطرنج بين رئيس دين وقائد جيش ، أمّا لبناني فمعبد أدخله بالروح
عندما أمل النظر إلى وجه هذه المدنية السائرة على الدواليب .

لبنانكم رجلاّن : رجل يؤدي المكوس ورجل يقبضها ، أمّا لبناني فرجل فرد متكئ على ساعده في ظلال الأرز وهو منصرف عن كل شيء سوى الله ونور الشمس .

لبنانكم مرافئ وبريد وتجارة ، أمّا لبناني ففكرة بعيدة وعاطفة مشتعلة وكلمة علوية تهمسها الأرض في أذن الفضاء .

لبنانكم موظفون وعمّال ومديرون ، أمّا لبناني فتأهب الشباب وعزم الكهولة وحكمة الشيخوخة .

لبنانكم وفود ولجان ، أمّا لبناني فمجالس حول الموّاقد في ليالي تغمرها هيبة العواصف ويجلّلها طهر الثلوج .

لبنانكم طوائف وأحزاب ، أمّا لبناني فصبيّة يتسلّقون الصخور ويركضون مع الجداول ويقذفون الأكر في الساحات .

لبنانكم خطب ومحاضرات ومناقشات ، أمّا لبناني فتغريد الشحارير ، وحفيف أغصان الحور والسنديان ، ورجع صدى النيات في المغاور والكهوف .

لبنانكم كذب يحتجب وراء نقاب من الذكاء المستعار ، ورياء يختبئ في رداء التقليد والتصنّع ، أمّا لبناني فحقيقة بسيطة عارية إذا نظرت في حوض ماء ما رأت غير وجهها الهادئ وملاحة المنبسطة .

لبنانكم شرائع وبنود على أوراق ، وعقود وعهود في دفاتر ، أمّ لبناني ففطرة في أسرار الحياة وهي لا تعلم أنّها تعلم ، وشوق يلامس في اليقظة أذيال الغيب ويظن نفسه في منام .

لبنانكم شيخ قابض على لحيته ، قاطب ما بين عينيه ولا يفكر إلا بذاته ، أمّا لبناني ففتى ينتصب كالبرج ، ويتسم كالصباح ، ويشعر بسواه شعوره بنفسه .

لبنانكم ينفصل أنا عن سوريا ويتصل بها آونة ثم يحتال على طرفيه ليكون بين معقود ومحلول ، أما لبناني فلا يتصل ولا ينفصل ولا يتفوق ولا يتصاغر .

لكم لبنانكم ولي لبناني .

لكم لبنانكم وأبناءؤه ولي لبناني وأبناءؤه .

ومن هم يا ترى أبناء لبنانكم؟

ألا فانظروا هنيهة لأريكم حقيقتهم .

هم الذين ولدت أرواحهم في مستشفيات الغربيين .

هم الذين استيقظت عقولهم في حضن طامع يمثل دور أريحي .

هم تلك القضبان اللينة التي تميل إلى اليمين وإلى اليسار ولكن بدون إرادة ، وترتعش في الصباح وفي المساء ولكنها لا تدري أنها ترتعش .

هم تلك السفينة التي تصارع الأمواج وهي بدون دفة ولا شراع ، أما ربّانها فالتردد ، وأما ميناؤها فكهف تسكنه الغيلان - أوليست كلّ عاصمة في أوروبا كهفًا للغيلان؟

هم الأشداء الفصحاء البلغاء ولكن بعضهم لدى بعض ، والضعفاء الخرسان أمام الإفرنج .

هم الأحرار المصلحون المتحمسون ولكن في صحفهم وفوق منابرهم ، والمنقادون الرجعيون أمام الغربيين .

هم الذين يضجون كالضفادع قائلين : لقد تملصنا من عدونا الطاغية القديم ، وعدوهم القديم الطاغية ما برح يختبئ في أجسادهم .

هم الذين يسرون أمام الجنازة مزمرين راقصين ، حتى إذا ما التقوا موكب العرس تحوّل تزميرهم إلى نواح ورقصهم إلى قرع الصدور وشقّ الأثواب .

هم الذين لا يعرفون المجاعة إلا إذا كانت في جيوبهم ، فإذا ما التقوا من كانت مجاعته في روحه ضحكوا منه وتحولوا عنه قائلين : ما هذا سوى خيال يسير في عالم الأخيلة .

هم أولئك العبيد الذين تبدل الأيام قيودهم المصدأة بقيود لامعة فيظنون أنهم أصبحوا أحراراً مطلقين .

هؤلاء هم أبناء لبنانكم ، فهل بينهم من يمثل العزم في صخور لبنان أم النبل في ارتفاعه أم العذوبة في مائة أم العطر في هوائه؟ هل بينهم من يتجرأ أن يقول : إذا ما متّ تركت وطني أفضل قليلاً مما وجدته عندما ولدت؟ هل بينهم من يتجرأ أن يقول : لقد كانت حياتي قطرة من الدم في عروق لبنان أو دمعة بين أجفانه أو ابتسامة على ثغره؟

هؤلاء هم أبناء لبنانكم ، فما أكبرهم في عيونكم وما أصغرهم في عيني!

ولكن قفوا قليلاً وانظروا لأريكم أبناء لبناني :

هم الفلاحون الذين يحولون الوعر إلى حدائق وبساتين .

هم الرعاة الذين يقودون قطعانهم من وادٍ فتنموا وتكاثر وتعطيكم لحومها غذاء وصوفها رداء .

هم الكرامون الذين يعصرون العنب خمرًا ويعقدون الخمر دبسًا .

هم الآباء الذين يربّون نصاب التوت والأمّهات اللّواتي يغزلن الحرير .

هم الرجال الذين يحصدون الزرع والزوجات اللّواتي يجمعن الأغمار .

هم البنّاءون والفخّارون والحائكون وصانعو الأجراس والنواقيس .

هم الشعراء الذين يسكبون أرواحهم في كؤوس جديدة ، وهم شعراء الفطرة الذين ينشدون العتابا والمعنى والزجل .

هم الذين يغادرون لبنان وليس لهم سوى حماسة في قلوبهم وعزم في سواعدهم ويعودون إليه وخيرات الأرض في أكفّهم وأكاليل الغار على رؤوسهم .

هم الذين يتغلّبون على محيطهم أينما حلّوا ويجتذبون القلوب إليهم أينما وجدوا .

وهم الذين يولدون في الأكواخ ويموتون في قصور العلم . هؤلاء هم أبناء لبنان . هؤلاء هم السّرج التي لا تطفئها الرياح والملح الذي لا تفسده الدهور .

هؤلاء هم السائرون بأقدام ثابتة نحو الحقيقة والجمال والكمال .

وماذا عسى أن يبقى من لبنانكم وأبناء لبنانكم بعد مئة سنة؟ خبروني - ماذا تتركون للغد سوى الدعوى والتلفيق والبلادة؟ هل تحسبون أن الزمن يحفظ في ذاكرته مظاهر الخداع والمداهنة والتدليس؟

أتظنون أن الأثير يخزن في جيوبه أشباح الموت وأنفاس القبور؟ أتتوهمون أن الحياة تستر جسدها العاري بالخرق البالية؟ أقول لكم والحق شاهد عليّ إن نصبة الزيتون التي يغرستها القروي في سفح لبنان لأبقى من جميع أعمالكم ومآتيكم ، والمحراث الخشبي الذي تجرّه العجول في منعطفات لبنان لأشرف وأنبل من كلّ أمانيككم ومطامحكم . أقول لكم وضمير الوجود صاغ إليّ أن أغنية جامعة البقول بين هضبات لبنان لأطول عمراً من كلّ ما يقوله أوجه وأضخم ثرثار بينكم . أقول لكم إنكم لستم على شيء . ولو كنتم تعلمون أنكم لستم على شيء لتحول اشمئزاي منكم إلى شكل من العطف والحنان ، ولكنكم لا تعلمون .

لكم لبنانكم ولي لبناني .

لكم لبنانكم وأبناء لبنانكم فاقتنعوا به وبهم إن استطعتم الاقتناع بالفقايع الفارغة ، أمّا
أنا فمقتنع بلبناني وأبنائه ، وفي اقتناعي عذوبة وسكينة وطمأنينة .



الأرض

تنبتق الأرض من الأرض كرها وقسراً .
ثم تسير الأرض فوق الأرض تيهًا وكبرًا .
وتقيم الأرض من الأرض القصور والبروج والهيكل .
وتنشئ الأرض في الأرض الأساطير والتعاليم والشرائع .
ثم تملّ الأرض أعمال الأرض فتحول من هالات الأرض الأشباح والأوهام والأحلام .
ثم يراود نعاس الأرض أجفان الأرض فتنام نومًا هادئًا عميقًا أبدًا .
ثم تنادي الأرض قائلة للأرض : أنا الرحم وأنا القبر وسأبقى رحمًا وقبرًا حتى تضمحل
الكواكب وتتحول الشمس إلى رماد .



بالأمس . واليوم . وغداً

قلت لصديقي : ألا فانظرها متكئة على ساعده ، وبالأمس كانت على ساعدي .

فقال : وغداً على ساعدي .

قلت : تأملها جالسة إلى جانبه ، وبالأمس كانت إلى جانبي .

فقال : وغداً إلى جانبي .

قلت : ألا تبصرها تشرب الخمر من كأسه ، وبالأمس كانت ترشفها من كأسِي؟

فقال : وغداً من كأسِي .

قلت : انظر إليها ترمقه بعين ملؤها الحب ، وبالأمس كانت ترمقني .

فقال : وغداً ترمقني .

قلت : اسمعها تهمس أغاني الغرام في أذنه ، وبالأمس كانت تهمسها في أذني .

فقال : وغداً في أذني .

قلت : انظر فهي تعانقه ، وقد كانت بالأمس تعانقني .

فقال : وغداً تعانقني .

قلت : ما أغربها امرأة!

قال : هي كالحياة يمتلكها كلّ البشر . وكموت تتغلب على كلّ البشر . وكالأبدية تضمّ كلّ البشر .



الكمال

تسألني يا أخي متى يصير الإنسان كاملاً .

فاسمع جوابي :

يسير الإنسان نحو الكمال عندما يشعر بأنه هو الفضاء ولا حدّ له ، وهو هو البحر بدون شواطئ ، وأتته النار المتأججة دائماً ، والنور الساطع أبداً ، والرياح إذا هبّت أو إذا سكنت ، والسحب إذا برقت وأرعدت وأمطرت ، والجدول إذا ترنّمت أو ناحت ، والأشجار إذا أزهرت في الربيع أو تجرّدت في الخريف ، والجبال إذا تعالت ، والأودية إذا انخفضت ، والحقول إذا أخصبت أو أجذبت .

إذا شعر الإنسان بكل هذه الأمور بلغ منتصف طريق الكمال ، أمّا إذا شاء بلوغ محجّة الكمال فعليه إن شعر بكيانه ، أن يشعر بأنه الطفل المتكل على أمّه ، والشيخ المسؤول عن عياله ، والشاب الضائع بين أمانيه وغرامه ، والكهل الذي يصارع ماضيه ومستقبله ، والعابد في صومعته ، والمجرم في سجنه ، والعالم بين كتبه وأوراقه ، والجاهل بين ظلمة ليله وظلمة نهاره ، والراهبة بين أزهار إيمانها وأشواك وحشتها ، والمومس بين أنياب ضعفها ومخالب حاجتها ، والفقير بين مرارته وامثاله ، والغني بين مطالعه وإذعانه ، والشاعر بين ضباب أمسائه وشعاع أسحاره .

إذا استطاع الإنسان أن يختبر ويعلم جميع هذه الأمور يصل إلى الكمال ويصير ظلاً من ظلال الله .



الاستقلال والطرابيش

قرأت منذ أمد غير بعيد مقالاً لأديب قام يعترض ويحتج فيه على ربّان وموظفي باخرة فرنسية أفلّته من سورية إلى مصر . ذلك لأن هؤلاء قد أجبروه ، أو حاولوا إجباره على خلع طربوشه أثناء جلوسه إلى مائدة الطعام ، وكلّنا يعلم أن خلع القبّعات تحت كل سقف عادة مرعية عند الغربيين .

ولقد أعجبني هذا الاحتجاج لأنّه أبان لي تمسّك الشرقي برمز من رموز حياته الخاصّة .
أعجبت بجرأة ذلك السوري كما أعجبت مرّة بأمير هندي دعوته إلى حضور رواية غنائيّة في مدينة ميلانو في إيطاليا فقال لي : « لو دعوتني إلى زيارة جحيم دانتي لذهبت معك مسروراً ، ولكني لا أستطيع الجلوس في مكان يحظرون فيه عليّ استبقاء عمامتي وتدخين اللفائف » .

أجل يعجبني أن أرى الشرقي متمسكاً ببعض مزاعمه قابضاً ولو على ظلّ من ظلال عاداته القوميّة .

ولكن إعجابي هذا لا ولن يمحو ما وراءه من الحقائق الخشنة المستتبّة المتشبّثة بذاتية الشرق ومنازع الشرق ومزاعم الشرق .

لو فكّر ذلك الأديب الذي استصعب خلع طربوشه في الباخرة الإفرنجية بأن ذلك الطربوش الشريف قد صنع في معمل إفرنجي هان عليه خلعه في أيّ مكان في أيّة باخرة إفرنجيّة .

لو فكّر أديبنا بأن الاستقلال الشخصي في الأمور الصغيرة كان وسيكون رهن الاستقلال الفني والاستقلال الصناعي ، وهما كبيران ، خلع طربوشه ممثلاً صامتاً .

ولو فكّر صاحبنا بأن الأمة المستعبّدة بروحها وعقلها لا تستطيع أن تكون حرّة بملابسها وعاداتها .

ولو فكّر بذلك لما كتب مقاله معترضاً .

لو فكّر أديبنا بأن جدّه السوري كان يبحر إلى مصر على ظهر مركب سوري مرتدياً ثوباً غزلته وحاكته وخاطته الأيدي السوريّة ، لما تردّد بطلنا الحرّ إلا بالملابس المصنوعة في بلاده ولما ركب سوى سفينة سوريّة ذات ربّان سوري وبحّارة سوريين .

مصاب أديبنا الشجاع أنّه قد اعترض على النتائج ولم يحفل بالأسباب فتناولته الأعراض قبل أن يستميله الجوهر ، وهذا شأن أكثر الشرقيّين الذين يأبون أن يكونوا شرقيّين إلا بتوافه الأمور وصغائرها مع أنهم يفاخرون بما اقتبسوه من الغربيّين مما ليس بتافه أو صغير .

أقول لأديبنا وأقول لجميع المتطربشين : ألا فاصنعوا طرايشكم بيدكم ثم تخيروا في ما تفعلونه بطرايشكم على ظهر الباخرة أو على قمة الجبل أو في جوف الوادي .

وتعلم السماء أن هذه الكلمة لم تُكتب في الطرايش أو في شأن خلعتها أو استبقائها على الرؤوس تحت السقوف أو تحت المجرة . تعلم السماء أنّها كتبت في أمر أبعد من كلّ طربوش ، فوق كلّ رأس ، فوق كل جثة مختلجة .



أيتها الأرض

ما أجملك أيتها الأرض وما أبهاك .

ما أتمّ امتثالك للنور وأنبل خضوعك للشمس .

ما أظرفك متشحة بالظلّ وما أملح وجهك مقنعًا بالدجى .

ما أعذب أغاني فجرك وما أهول تهاليل مسائك .

ما أكملك أيتها الأرض وما أسناك .

لقد سرت في سهولك ، وصعدت على جبالك ، وهبطت إلى أوديتك وتسَلّقت صخورك ، ودخلت كهوفك ، فعرفت حلمك في السهل ، وأنفتك على الجبل ، وهدوءك في الوادي ، وعزمك في الصخر ، وتكتمك في الكهف ، فأنت أنت المنبسطة بقوّتها ، المتعالية بتواضعها ، المنخفضة بعلوّها ، اللينة بصلابتها ، الواضحة بأسرارها ومكنوناتها .

لقد ركبت بحارك ، وخضت أنهارك ، وتتبع جداولك ، فسمعت الأبدية تتكلم بمدك وجزرك ، والدهور تترنم بين هضابك وحزونك ، والحياة تناجي الحياة في شِعْبِكَ ومنحدراتك ، فأنت أنت لسان الأبدية وشفاهها ، وأوتار الدهور وأصابعها ، وفكرة الحياة وبيانها .

لقد أيقظني ربيعك وسيرني إلى غاباتك حيث تتصاعد بخورًا ، وأجلسني صيفك في حقولك حيث يتجوهر إجهادك أثمارًا ، وأوقفني خريفك في كرومك حيث يسيل دمك خمراً ، وقادني شتاؤك إلى مضجعك حيث يتناثر طهرك ثلجًا ، فأنت أنت العطرة بربيعها ، الجوّادة بصيفها ، الفيّاضة بخريفها ، النقيّة بشتائها .

وفي الليلة الصافية قد فتحتُ نوافذ نفسي- وأبوابها وخرجتُ إليك مثقلاً بمطامعي ،
مكبلاً بقيود أنايتي ، فألفيتك شاخصة بالكواكب وهي تبسم لك ، فنزعت عني قيودي
وأثقالتي وعلمت أن منزل النفس فضاؤك ، ورغائبها في رغائبك ، وسلامتها في سلامتك ،
وسعادتها في الغبار الذهبي الذي تنثره النجوم على جسدك .

في الليلة المبطنة بالغيوم ، وقد مللتُ غفلتي وجمودي ، خرجتُ إليك فوجدتك جبّارة
هائلة مسلحة بالعاصفة ، تحاربين ماضيك بحاضرك ، وتصير-عين قدميك بجديدك ،
وتبعثرين ضئيلك بضليعك ، فعلمت أن نظام البشر- نظامك ، وناموسهم ناموسك ،
وستتهم سنتك ، وأن من لا يهصر برياحه ما ييس من أغصانه يموت مللاً ، ومن لا يمزق
بثوراته ما يلي من أوراقه يفنى خملاً ، ومن لا يكفن بنسيان ما مات من ماضيه كان هو كفناً
لما تلي الماضي .

ما أكرمك أيتها الأرض وما أطول أناذك .

ما أشدّ حنانك على أبنائك المنصرفين عن حقيقتهم إلى أوهامهم ، الضائعين بين ما بلغوا
إليه وما قصرُوا عنه .

نحن نضحّ وأنتِ تضحكين .

نحن نُذنب وأنتِ تكفّرين .

نحن نجدّف وأنتِ تباركين .

نحن ننجس وأنتِ تقدّسين .

نحن نهجع ولا نحلم وأنتِ تحلمين في سهرك السرمدى .

نحن نكلم صدرك بالسيوف والرماح وأنتِ تغمرين كلومنا بالزيت والبلسم .
نحن نزرع راحتك العظام والجماجم وأنتِ تستنبتينها حورًا وصفصافًا .
نحن نستودعك الجيف وأنتِ تملأين بيادرنا بالأغمار ومعاصرنا بالعناقيد .
نحن نصبغ وجهك بالدم وأنتِ تغسلين وجوهنا بالكوثر .
نحن نتناول عناصرك لنصنع منها المدافع والقذائف وأنتِ تتناولين عناصرنا وتكوّنين
منها الورود والزنابق .
ما أوسع صبرك أيتها الأرض وما أكثر انعطافك .
ما أنتِ أيتها الأرض ومن أنت ؟
أذرة من الغبار تصاعدت من بين قدمي الله عندما سار من مشارق الأكوان إلى مغاربها ،
أم شرارة قذفت من موقد اللانهاية ؟
أنواة طرحت في حقل الأثير لتشق قشرتها بعزم لبابها وتتعالى ربّانية إلى ما فوق الأثير ؟
أقطرة من الدم في عروق جبّار الجبابرة ، أم أنت قطرة من العرق على جبينه ؟
أثمرة تلوّحها الشمس ببطء ؟ أثمرة أنت في شجرة المعرفة الكلية التي تمدّ عروقها في
أعماق الأزل وترفع غصونها إلى أعماق الأبد ؟ أم جوهرة أنت وضعها إله الزمن في حفنة آلهة
المسافة ؟
أطفلة أنت في حضن الفضاء ؟ أم عجوز ترقب الأيام والليالي وقد شبت من حكمة
الليالي والأيام .
ما أنتِ أيتها الأرض ومن أنت ؟

أنتِ أنا أيتها الأرض! أنتِ بصري وبصيرتي ، أنتِ عاقلتي وخيالي وأحلامي ، أنتِ
جوعي وعطشي ، أنتِ ألمي وسروري ، أنتِ غفلي وانتباهي .
أنتِ الجمال في عينيّ ، والشوق في قلبي ، والخلود في روحي .
أنتِ أنا أيتها الأرض ، فلو لم أكن لما كنتِ .



البحر الأعظم

بالأمس - وما أبعد الأمس وما أقربه ! - ذهبت ونفسي إلى البحر الأعظم لنغسل بهائه ما علق بنا من غبار الأرض وأوحالها .

ولما بلغنا الشاطئ طفقنا نبحت عن مكان خالٍ يحجبنا عن العيون .

وبينما نحن سائران التفتنا فإذا برجل جالس على صخرة غبراء وفي يده كيس يأخذ منه الملح قبضة بعد قبضة ويطحرها في البحر .

فقلت لي نفسي : « هوذا المتشائم الذي لا يرى من الحياة سوى ظلّها . وليس المتشائم بخلق أن يرى جسدينا العاريين . فلنغادر هذا المكان إذ لا سبيل إلى الاستحمام ههنا » .

فتركنا ذلك المكان وتابعنا المسير حتى وصلنا إلى خور في الشاطئ فإذا برجل واقف على صخرة بيضاء وفي يده صندوقة مرصعة بالجواهر وهو يتناول منها قطعاً من السكر ويرمي بها في البحر .

فقلت لي نفسي : « هوذا المتفائل الذي يستبشر بما لا بشر- فيه . وحذارٍ من المتفائلين أن يروا جسدينا العريين » . فعدنا نواصل السير حتى عثرنا على رجل واقف بقرب الشاطئ يلتقط الأسماك الميتة ويعيدها بحنوّ إلى البحر .

فقلت لي نفسي : « وهذا هو الشفوق الذي يحاول إرجاع الحياة لمن في القبور ، فلنبتعدّ عنه » .

ثمّ انتهينا إلى حيث رأينا رجلاً يرسم خياله على الرمال فتجيء الأمواج وتمحو ما رسمه وهو يتابع عمله المرّة بعد الأخرى .

فقلت لي نفسي : « هوذا المتصوّف الذي يقيم في أوهامه صنماً ليعبده ، فلندعه وشأنه » .
ومشينا إلى أن أبصرنا في خليج هادئ رجلاً يكشط الزبد عن سطح الماء ويضعه في إناء
من العقيق .

فقلت لي نفسي : « هوذا الخيالي الذي يحوك من خيوط العنكبوت رداء ليلبسه . وهو
ليس بجدير أن يرى جسدينا عاريين » .

فتابعنا السير وإذا بنا نسمع صوتاً هائلاً : « هوذا البحر العميق . هوذا البحر الهائل العظيم » .
فبحثنا عن مصدر الصوت فرأينا رجلاً واقفاً مديراً ظهره إلى البحر وقد وضع صدفة على
أذنه وهو يصغي إلى دمدمتها .

فقلت لي نفسي : « سر بنا ، فهذا هو الدهري الذي يدير ظهره إلى كليات لا يستطيع
الإحاطة بها ويشغل ذاته بجزئيات تستميل كليته » .

فسرنا إلى أن رأينا في معشبة رجلاً بين الصخور وقد دفن رأسه في الرمال .

فقلت لنفسي : « هلمّي يا نفس نستحمّ ههنا . فهذا الرجل لا يستطيع أن يبصرنا » .

فهزّت نفسي رأسها قائلة :

« لا ، وألف لا . إن من تراه هو شرّ الناس أجمعهم . هو التقيّ النقيّ الذي يحجب نفسه
عن مأساة الحياة فتحجب الحياة مسراتها عن نفسه » .

حينئذ ظهر على وجه نفسي حزن عميق . وبصوت تقطعه المرارة قالت :

« لنذهبن من هذه الشواطئ . فليس هنا مكان خفيّ محبوب نستطيع أن نستحمّ به . وأنا
لن أَرْضَى أن أسرح غداثري الذهبية في هذه الريح ، أو أن أكشف صدري البض أمام هذه
الفضاء ، أو أن أتجرّد وأقف عارية أمام هذا النور » .

فغادرت ونفسي ذلك البحر العظيم ، وسرنا ننشد البحر الأعظم .



في سنة لم تكن قط في التاريخ

... في تلك الدقيقة ظهرت من وراء أشجار الصفصاف صبيّة تجرّ أذيالها على الأعشاب ووقفت بجانب الفتى النائّم ووضعت يدها الحريّة على رأسه ، فنظر إليها نظرة نائم أيقظه شعاع الشمس . فرأى ابنة الأمير واقفة حذاءه فجثا على ركبتيه مثلما فعل موسى عندما رأى العليقة مشتعلةً ، ولما أراد الكلام ارتج عليه فنابت عيناه الطافحتان بالدمع عن لسانه .

ثم عانقته الصبيّة وقبّلت شفّتيه ، وقبّلت عينيه راشفة المدامع السخية وقالت بصوت ألطف من نغمة الناي :

قد رأيتك يا حبيبي في أحلامي ونظرت وجهك في وحدتي وانقطاعي ، فأنت رفيق نفسي- الذي فقدته ونصفي الجميل الذي انفصلت عنه عندما حكم عليّ بالمجيء إلى هذا العالم . قد جئت سرّاً يا حبيبي . لألتقيك وها أنت الآن بين ذراعيّ فلا تجزع . قد تركت مجد والدي لأتبعك إلى أقاصي الأرض وأشرب معك كأس الحياة والموت .

قم يا حبيبي فنذهب إلى البريّة البعيدة عن الإنسان .

ومشي الحبيبان بين الأشجار تخفيهما ستائر الليل ولا يخيفهما بطش الأمير ولا أشباح الظلمة .



ابن سينا وقصيدته

ليس بين ما نظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدي وأقرب إلى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس .

في هذه القصيدة النبيلة قد وضع الشيخ الرئيس أبعد ما يراود فكرة الإنسان وأعمق ما يلزم خياله من الأمانى التي تولدها المعرفة ، والسؤالات التي يثمرها الرجاء ، والنظريات التي لا تصدر إلا عن التفكير المستمر والتأملات الطويلة .

وليس من الغرائب صدور هذه القصيدة عن وجدان ابن سينا وهو نابغة زمانه ، ولكن من الغرائب أن تكون مظهرًا لرجل صرف عمره مستقصيًا أسرار الأجسام ومزايا الهيولي . فكأنني به قد بلغ خفايا الروح عن طريق المادة وأدرك مكنونات المعقولات بواسطة المرئيات ، فجاءت قصيدته هذه برهانًا نيرًا على أن العلم هو حياة العقل يتدرج بصاحبه من الاختبارات العلمية إلى النظريات العقلية ، إلى الشعور الروحي ، إلى الله .

قد يجد المطالع في ما نظمه كبار شعراء الغربيين مقاطع متفرقة تذكره بهذه القصيدة السامية . ففي روايات شكسبير الخالدة أبيات لا تختلف بمعانيها عن قول ابن سينا :

وَصَلْتُ عَلَى كَرْهِهِ إِلَيْكَ وَرُبَّمَا كَرِهْتُ فِرَاقَكَ وَهِيَ ذَاتُ نَفَجٍّ

وفي أقوال تشلي ما يماثل :

سَجَعْتُ وَقَدْ كُشِفَ الْغَطَاءُ فَأَبْصَرْتُ مَا لَيْسَ يُدْرَكَ بِالْعُيُونِ الْهُجَعِ

وفي تأملات غوتي ما يضارع :

وَنَعُودُ عَالَمَةً بِكُلِّ خَفِيَّةٍ فِي الْعَالَمِينَ ، فَخَرَقَهَا لَمْ يُزَقِّعْ

وفي ما قاله براونن ما يضاهي :

فَكَأَنَّهُمَا بَرَزُوقُ نَالِقٍ بِالْحِمَى ثُمَّ انْطَوَى فَكَأَنَّهُ لَمْ يَلْمَعْ

ولكن الشيخ الرئيس قد تقدّم جميع هؤلاء بقرون عديدة . فوضع في قصيدة واحدة ما هبط بصور متقطعة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة . وهذا ما يجعله نابغة لعصره وللعصور التي جاءت بعده ، ويجعل قصيدته في النفس أبعد وأشرف ما نظم في أشرف وأبعد موضوع .

الغزالي

بين الغزالي والقديس أوغوستينوس رابطة نفسية ، فهما منظران متشابهان لمبدأ واحد ، رغم ما بين زمانيهما ومحيطيهما من الاختلافات المذهبية والاجتماعية . أمّا ذلك المبدأ فهو ميل وضعي في داخل النفس يتدرّج بصاحبه من المرئيات وظواهرها إلى المعقولات والفلسفة فالإلهيات .

اعتزل الغزالي الدنيا وما كان له فيها من الرخاء والمقام الرفيع وانفرد وحده متصوّفاً ، متوغلاً في البحث عن تلك الخيوط الدقيقة التي تصل أواخر العلم بأوائل الدين ، متعمّقا في التفثيش عن ذلك الإناء الخفي الذي تخرج فيه مدارك الناس واختباراتهم بعواطف الناس وأحلامهم .

وهكذا فعل أوغوستينوس قبله بخمسة أجيال . فمن يقرأ له كتاب « الاعتراف » يرى أنّه قد اتخذ الأرض ومآتيها سلماً يصعد عليه نحو ضمير الوجود الأعلى .

غير أنني وجدت الغزالي أقرب إلى جواهر الأمور وأسرارها من القديس أوغوستينوس . وقد يكون سبب ذلك في الفرق الكائن بين ما ورثه الأوّل من النظريات العلمية والعربية واليونانية التي تقدّمت زمانه ، وما ورثه الثاني من علم اللاهوت الذي كان يشغل آباء الكنيسة في القرنين الثاني والثالث للمسيح ، وأعني بالوراثة ذلك الأمر الذي يتنقل مع الأيام من فكر إلى فكر مثلما تلازم بعض المزايا الجسدية مظاهر الشعوب من عصر إلى عصر .

ووجدت في الغزالي ما يجعله حلقة ذهبية موصلة بين الذين تقدّموه من متصوّفي الهند والذين جاؤوا بعده من الإلهيين . ففي ما بلغت إليه أفكار البوذيين قديماً شيء من ميول الغزالي ، وفي ما كتبه سبينوزا ووليم بلايك حديثاً شيء من عواطفه .

وللغزالي عند مستشرفي الغرب وعلمائه منزلة رفيعة . وهم يضعونه مع ابن سينا وابن رشد في المقام الأوّل بين فلاسفة الشرق . أمّا الروحيون بينهم فيحسبونه أنبل وأسمى فكرة ظهرت في الإسلام . ومن الغرائب أنني شاهدت على جدران كنيسة في فلورنسا (إيطاليا) من بناء الجيل الخامس عشر- صورة الغزالي بين صور غيره من الفلاسفة والقديسين واللاهوتيين الذين تعتبرهم أئمة الكنيسة في الأجيال الوسطى دعائم وأعمدة في هيكل الروح المطلق .

ولكن الأغرب من ذلك هو أن الغربيين يعرفون عن الغزالي أكثر مما يعرفه الشرقيون . فهم يترجمونه ويبحثون في تعاليمه ويدققون النظر في منازعه الفلسفية ومراميه الصوفية . أمّا نحن ، نحن الذين لم نزل نتكلّم اللغة العربية ، فقلّما ذكرنا الغزالي أو تحدثنا عنه . نحن لم نزل مشغولين بالأصداف كأن الأصداف هي كل ما يخرج من بحر الحياة إلى شواطئ الأيام والليالي .



جرجي زيدان

لقد مات زيدان وماتُ زيدان عظيم كحياته ، جليل كأعماله .

لقد رقدت تلك الفكرة الكبيرة وحول مضجعها تحوم الآن سكينه توحى الهيبة والوقار وترتفع عن الحزن والبكاء .

قد تملّصت تلك الروح الطيّبة ورحلت إلى عالم نشعر به ولا ندركه ، وفي رحيلها عظة للباقيين في قبضة الأيام والليالي .

وقد تحرّر ذلك الوجدان النبيل من متاعب العمل ومشاقه وسار ملتفًا برداء مجده إلى حيث يتسامى العمل عن المشاق والمتاعب . قد ذهب زيدان إلى حيث لا تراه العين ولا تسمعه الأذن . ولكن إذا كان زيدان قد انتقل إلى إحدى السيارات السابحة في بحر اللانهاية فهو الآن مشغول بنفع سكانها ، منهمك بجمع معارفها ، مأخوذ بجمال تاريخها ، منصبّ على درس لغاتها .

هذا هو زيدان : فكرة متحمّسة لا ترتاح إلا إلى العمل ، وروح ظائمة لا تنام إلا على منكمبي اليقظة ، وقلب كبير مفعم بالرقّة والغيرة . فإذا كانت تلك الفكرة لا تزال كائنة بكيان العقل العام فهي الآن مع العقل العام . وإذا كانت تلك الروح موجودة بوجود النواميس فهي تعمل الآن مع النواميس . وإذا كان ذلك القلب باقياً ببقاء الله فهو الآن ملتهب بشعلة الله .

هذه هي حياة زيدان : ينبوع تدفق من صدر الوجود وصار نهراً صافياً يروي ما على جانبي الوادي من النبات والأنصاب .

وها قد بلغ شاطئ البحر فأبيّ متطفل يا ترى يجسر أن يندبه أو يرثيه؟
أوليس الندب والنواح خليقين بالذين يقفون أمام عرش الحياة ثم ينصرفون قبل أن
يسكبوا في راحتها قطرة من عرق جبينهم أو دم قلوبهم؟
أولم يصرف زيدان ثلاثين سنة مذيئاً قلبه مستقطراً جبينه؟ وهل بيننا من لم يستق من تلك
المجاري البلورية العذبة؟
إذا فمن شاء أن يكرم زيدان فليرفع نحو روحه ترنيمة الشكر وعرفان الجميل بدلاً من
ندبات الحزن والأسى .
من شاء أن يكرم ذكر زيدان فليطلب قسمته من خزائن المعارف والمدارك التي جمعها
زيدان وتركها إرثاً للعالم العربي . لا تعطوا الرجل الكبير بل خذوا منه وهكذا تكرمونه . لا
تعطوا زيدان ندباً ورثاء بل خذوا من مواهبه وعطاياه ، وهكذا تخلّدون ذكره .



مستقبل اللغة العربية

1 - ما هو مستقبل اللغة العربية؟

إنما اللغة مظهر من مظاهر الابتكار في مجموع الأمة ، أو ذاتها العامة ، فإذا هجعت قوّة الابتكار توقفت اللغة عن مسيرها ، وفي الوقوف التقهقر وفي التقهقر الموت والاندثار .

إذا فمستقبل اللغة العربية يتوقّف على مستقبل الفكر المبدع الكائن - أو غير الكائن - في مجموع الأمم التي تتكلم اللغة العربية . فإن كان ذلك الفكر موجوداً كان مستقبل اللغة عظيماً كماضيها ، وإن كان غير موجود فمستقبلها سيكون كحاضر شقيقتها السريانية والعبرانية .

وما هذه القوّة التي ندعوها بقوّة الابتكار؟

هي في الأمة عزم دافع إلى الأمام . هي في قلبها جوع وعطش وشوق إلى غير المعروف ، وفي روحها سلسلة أحلام تسعى إلى تحقيقها ليلاً ونهاراً ولكنها لا تحقق حلقة من أحد طرفيها إلا أضافت الحياة حلقة جديدة في الطرف الآخر . هي في الأفراد النبوغ وفي الجماعة الحماسة ، وما النبوغ في الأفراد سوى المقدرة على وضع ميول الجماعة الخفية في أشكال ظاهرة محسوسة . ففي الجاهلية كان الشاعر يتأهب لأن العرب كانوا في حالة التأهب ، وكان ينمو ويتمدد أيام المخضرمين لأن العرب كانوا في حالة النمو والتمدد ، وكان يتشعب أيام المولدين لأن الأمة الإسلامية كانت في حالة التشعب . وظلّ الشاعر يتدرج ويتصاعد ويتلون فيظهر أنا كفيلسوف ، وآونة كطبيب ، وأخرى كفلكيّ ، حتى راود النعاس قوّة الابتكار في اللغة العربية فنامت ، وبنومها تحوّل الشعراء إلى ناظمين والفلاسفة إلى كلاميين والأطباء إلى دجالين والفلكيّون إلى منجمين .

إذا صحَّ ما تقدّم كان مستقبل اللغة العربية رهن قوّة الابتكار في مجموع الأمم التي تتكلمها ، فإن كان لتلك الأمم ذات خاصّة أو وحدة معنويّة وكانت قوّة الابتكار في تلك الذات قد استيقظت بعد نومها الطويل كان مستقبل اللغة العربيّة عظيمًا كماضيها ، وإلا فلا .

2- وما عسى أن يكون تأثير التمدّين الأوروبي والروح الغربيّة فيها؟

إنّما التأثير شكل من الطعام تتناوله اللغة من خارجها فتمضغه وتبتلعه وتحوّل الصالح منه إلى كيانه الحي كما تحوّل الشجرة النور والهواء وعناصر التراب إلى أفنان فأوراق فأزهار فأثمار . ولكن إذا كانت اللغة بدون أضراس تقضم ولا معدة تهضم فالطعام يذهب سُدى . بل ينقلبُ سُماً قاتلاً . وكم من شجرةٍ تحتالُ على الحياةٍ وهي في الظلّ فإذا ما نقلت إلى نور الشمس ذبلت وماتت . وقد جاء : من له يعطي ويزاد ومن ليس له يؤخذ منه .

وأما الروح الغربيّة فهي دور من أدوار الإنسان وفصل من فصول حياته . وحياة الإنسان موكب هائل يسير دائماً إلى الأمام ، ومن ذلك الغبار الذهبي المتصاعد من جوانب طريقه تتكوّن اللغات والحكومات والمذاهب . فالأمم التي تسير في مقدّمة هذا الموكب هي المبتكرة ، والمبتكر مؤثّر ؛ والأمم التي تمشي في مؤخّراته هي المقلدة ، والمقلد يتأثر ، فلما كان الشرقيون سابقين والغربيّون لاحقين كان لمدينتنا التأثير العظيم في لغاتهم ، وها قد أصبحوا هم السابقين وأمسينا نحن اللاحقين فصارت مدينتهم بحكم الطبع ذات تأثير عظيم في لغتنا وأفكارنا وأخلاقنا .

بيد أن الغربيين كانوا في الماضي يتناولون ما نطبخه فيمضغونه ويبتلعونه محوّلين الصالح منه إلى كيانهم الغربي ، أما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ولكنه لا يتحوّل إلى كيانهم بل يحولهم إلى شبه غربيين ، وهي حالة أخشاه وأتبرّم منها لأنّها تُبين لي الشرق تارة كعجوز فقدّ أضراسه وطوراً كطفل بدون أضراس !

إن روح الغرب صديق وعدوّ لنا . صديق إذا تمكّننا منه ، وعدوّ إذا وهبنا له قلوبنا . صديق إذا خذنا منه ما يوافقنا وعدوّ إذا وضعنا نفوسنا في الحالة التي توافقه .

قد أجمع الكتّاب والمفكرون في الغرب والشرق على أن الأقطار العربية في حالة التشويش السياسي والإداري والنفسي . ولقد اتفق أكثرهم على أن التشويش مجلبة الخراب والاضمحلال .

أمّا أنا فأسأل : هل هو تشويش أم ملل؟

إن كان مللاً فالملل نهاية كلّ أمة وخاتمة كل شعب . والملل هو الاحتضار في صورة النعاس ، والموت في شكل النوم .

وإن كان بالحقيقة تشويشاً فالتشويش في شرعي ينفع دائماً لأنّه يبين ما كان خافياً في روح الأمة ويبدل نشوتها بالصحو وغيوبتها باليقظة ونظير عاصفة تهزّ بعزمها الأشجار لا لتقلعها بل لتكسر أغصانها اليابسة وتبعثر أوراقها الصفراء . وإذا ما ظهر التشويش في أمة لم تزل على شيء من الفطرة فهو أوضح دليل على وجود قوّة الابتكار في أفرادها والاستعداد في مجموعها . إنما السديم أوّل كلمة من كتاب الحياة وليس بآخر كلمة منها ، وما السديم سوى حياة مشوشة .

إذا فتأثير التطور السياسي سيحوّل ما في الأقطار العربية من التشويش إلى نظام ، وما في داخلها من الغموض والإشكال إلى ترتيب وألفة ، ولكنه لا ولن يبدل مللها بالوجد وضجرها بالحماسة . إن الخزاف يستطيع أن يصنع من الطين جرّة للخمر أو للخل ولكنه لا يقدر أن يصنع شيئاً من الرمل والحصى .

لا يعمّ انتشار اللغة في المدارس العالية وغير العالية حتى تصبح تلك المدارس ذات صبغة وطنية مجرّدة . ولن تعلم بها جميع العلوم حتى تنتقل المدارس من أيدي الجمعيات الخيريّة واللجان الطائفية والبعثات الدينية إلى أيدي الحكومات المحليّة .

ففي سوريا مثلاً كان التعليم يأتي من الغرب بشكل الصدقة ، وقد كنا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة لأننا جياع متضورون ، ولقد أحياناً ذلك الخبز ، ولما أحياناً أمانتنا . أحياناً لأنّه أيقظ جميع مداركنا ونبه عقولنا قليلاً ، وأمانتنا لأنّه فرّق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب ، كلّ مستعمرة منها تشد في حبل إحدى الأمم الغربيّة وترفع لواءها وترتّم بمحاسنها وأمجادها . فالشباب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة أميركيّة قد تحوّل بالطبع إلى معتمد أميركي ، والشباب الذي تجرّع رشفة من العلم في مدرسة يسوعيّة صار سفيراً فرنسيّاً ، والشباب الذي لبس قميصاً من نسيج مدرسة روسيّة أصبح ممثلاً لروسيا .. إلى آخر ما هناك من المدارس وما تخرجه في كل عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء . وأعظم دليل على ما تقدم اختلاف الآراء وتباين المنازع في الوقت الحاضر في مستقبل سوريا السياسي . فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الإنكليزيّة يريدون أميركا أو انكترا وصية على بلادهم ؛ والذين درسوها باللغة الفرنسية يطلبون فرنسا أن تتولى أمرهم ؛ والذين لم يدرسوا بهذه اللغة أو بتلك لا يريدون هذه الدولة ولا تلك بل يتبعون سياسة أدنى إلى معارفهم وأقرب إلى مداركهم .

وقد يكون ميلنا السياسي إلى الأمة التي نتعلم على نفقتها دليلاً على عاطفة عرفان الجميل في نفوس الشرقيين ، ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجراً من جهة واحدة وتهدم جداراً من الجهة الأخرى ؟ وما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة ؟ ما هذه العاطفة التي تحيينا يوماً وتميتنا دهرًا ؟

إن المحسنين الحقيقيين وأصحاب الأريحية في الغرب لم يضعوا الشوك والحسك في الخبز الذي بعثوا به إلينا ، فهم بالطبع قد حاولوا نفعنا لا الضرر بنا . ولكن كيف تولد ذلك الشوك ومن أين أتى ذلك الحسك ؟ هذا بحث آخر أتركه إلى فرصة أخرى .

نعم سوف يعم انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية وتعلم بها جميع العلوم فتتوحد ميولنا السياسية وتتلور منازعنا القومية ، لأن في المدرسة تتوحد الميول وفي المدرسة تتجوهر المنازع : ولكن لا يتم هذا حتى يصير بإمكاننا تعليم الناشئة على نفقة الأمة . لا يتم هذا حتى نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا ، لأن المتسول المحتاج لا يستطيع أن يشترط على المتصدق الأريحي . ومن يضع نفسه في منزلة الموهوب لا يستطيع معارضة الواهب ، فالموهوب مسير دائماً والواهب مخير أبداً .

5- وهل تتغلب (اللغة العربية الفصحى) على اللهجات العامية المختلفة وتوحدّها ؟

إن اللهجات العامية تتحوّر وتتهذب ، ويدلّك الخشن فيها فيلين ، ولكنها لا ولن تغلب . ويجب ألا تغلب . لأنّها مصدر ما ندعوه فصيحاً من الكلام ومنبت ما نعدّه بليغاً من البيان .

إن اللغات تتبع مثل كلّ شيء آخر بقاء سنّة الأنسب ، وفي اللهجات العامية الشيء الكثير من الأنسب الذي سيبقى لأنه أقرب إلى مفكرة الأمة وأدنى إلى مرامي ذاتها العامة . قلت إنّه سيبقى وأعني بذلك أنّه سيلتحم بجسم اللغة ويصير جزءاً من مجموعها .

لكلّ لغة من لغات الغرب لهجات عامية ، ولتلك اللهجات مظاهر أدبيّة وفنيّة لا تخلو من الجميل المرغوب والجديد المبتكر ، بل في أوروبا وأمريكا طائفة من الشعراء الموهوبين الذين تمكّنوا من التوفيق بين العامي والفصيح في قصائدهم وموشحاتهم فجاءت بليغة ومؤثرة . وعندى أن في الموال والزجل و « العتابا » و « المعنى » من الكنايات المستجدة والاستعارات المستملحة والتعابير الرشيقة المستنبطة ما لو وضعناه بجانب تلك القصائد المنظومة بلغة فصيحة ، والتي تملأ جرائدنا ومجلاتنا ، لبانت كباقة من الرياحين بقرب رابية من الخطب ، أو كسرب من الصبايا الراقصات المترنات قبالة مجموعة من الجثث المحنطة .

لقد كانت اللغة الإيطالية الحديثة لهجة عاميّة في القرون المتوسطة ، وكان الخاصّة يدعونها بلغة « الهمج » ، ولكن لما نظم بها دانتي وبتراك وكامونس وفرانسيس وداسيزي قصائدهم وموشحاتهم الخالدة أصبحت تلك اللهجة لغة إيطاليا الفصحى وصارت اللاتينية بعد ذلك هيكلًا يسير ولكن في نعش على أكتاف الرجعيّين .. وليست اللهجات العامية في مصر- وسوريا والعراق أبعد عن لغة المعري والمتنبي من لهجة « الهمج » الإيطالية عن لغة أوفيد وفرجيل . فإذا ما ظهر في الشرق الأدنى عظيم ووضع كتابًا عظيمًا في إحدى تلك اللهجات تحوّلت هذه إلى لغة فصحي . بيد أنّي استبعدُ حدوث ذلك في الأقطار العربيّة لأن الشرقيّين اشدّ ميلًا إلى الماضي منهم إلى الحاضر أو المستقبل ، فهم المحافظون ، على معرفة منهم أو على غير معرفة ، فإن قام كبير بينهم لزم في إظهار مواهبه السبل البيانية التي سار عليها الأقدمون ، وما سبل القدمين سوى أقصر الطرقات بين مهد الفكر ولحده .

إن خير الوسائل ، بل الوسيلة الوحيدة لإحياء اللغة هي في قلب الشاعر وعلى شفثيه وبين أصابعه ، فالشاعر هو الوسيط بين قوّة الابتكار والبشر ، وهو السلك الذي ينقل ما يحدثه عالم النفس إلى عالم البحث ، وما يقرّره عالم الفكر إلى عالم الحفظ والتدوين .

الشاعر أبو اللغة وأمّها ، تسير حيثما يسير وتربض أينما يربض ، وإذا ما قضى جلست على قبره باكية متتجة حتى يمرّ بها شاعر آخر ويأخذ بيدها .

وإذا كان الشاعر أبا اللغة وأمّها فالمقلد ناسج كفنها وحافر قبرها .

أعني بالشاعر كلّ مخترع كبيراً كان أو صغيراً ، وكلّ مكتشف قوياً كان أو ضعيفاً ، وكلّ مختلف عظيمًا كان أو حقيراً ، وكلّ محبّ للحياة المجردة إمّامًا كان أو صعلوكًا ، وكلّ من يقف متهيّئاً أمام الأيام والليالي فيلسوفًا كان أو ناطورًا للكروم .

أمّا المقلد فهو الذي لا يكتشف شيئاً ولا يخلق أمراً بل يستمدّ حياته النفسيّة من معاصريه ويصنع أثوابه المعنويّة من رقع يجزها من أثواب من تقدمه .

أعني بالشاعر ذلك الزارع الذي يفلح حقله بمحراث يختلف ولو قليلاً عن المحراث الذي ورثه عن أبيه فيجيء بعده من يدعو المحراث الجديد باسم جديد ، وذلك البستاني الذي يستنبت بين الزهرة الصفراء والزهرة الحمراء زهرة ثالثة برتقالية اللون فيأتي بعده من يدعو الزهرة الجديدة باسم جديد ، وذلك الحائك الذي ينسج على نوله نسيجاً ذا رسوم وخطوط تختلف عن الأقمشة التي يصنعها جيرانه الحائكون فيقوم من يدعو نسيجه هذا باسم جديد . أعني بالشاعر الملاح الذي يرفع لسفينة ذات شراعين شراعاً ثالثاً ، والبناء الذي يبني بيتاً ذا باين ونافذين بين بيوت كلّها ذات باب واحد ونافذة واحدة ، والصبّاغ الذي يمزج الألوان التي لم يمزجها أحد قبله فيستخرج لوناً جديداً ، فيأتي بعد الملاح والبناء والصبّاغ من يدعو ثمار أعمالهم بأسماء جديدة فيضيف بذلك شراعاً إلى سفينة اللغة ونافذة إلى بيت اللغة ولوناً إلى ثوب اللغة .

أمّا المقلّد فهو ذاك الذي يسير من مكان إلى مكان على الطريق التي سار عليها ألف قافلة وقافلة ولا يحيد عنها مخافة أن يتيه ويضيع ، ذاك الذي يتبع بمعيشته وكسب رزقه ومأكله ومشربه وملبسه تلك السبل المطروقة التي مشي عليها ألف جيل وجيل فتظلّ حياته كرجع الصدى ويبقى كيانه كظلّ ضئيل لحقيقة قصية لا يعرف عنها شيئاً ولا يريد أن يعرف .

أعني بالشاعر ذلك المتعبّد الذي يدخل هيكل نفسه فيجثو باكيًا فرحًا نادبًا مهللاً مصغيًا مناجيًا ثمّ يخرج وبين شفّتيه ولسانه أسماء وأفعال وحروف واشتقاقات جديدة لأشكال عبادته التي تتجدّد في كل يوم، وأنواع انجذابه التي تتغيّر في كلّ ليلة ، فيضيف بعمله هذا وترًا فضيًّا إلى قيثاره اللغة وعودًا طيِّبًا إلى موقدها .

أمّا المقلّد فهو الذي يرّدّ صلاة المصلّين وابتهال المبتهلين بدون إرادة ولا عاطفة فيترك اللغة حيث يجدها والبيان الشخصي حيث لا بيان ولا شخصية .

أعني بالشاعر ذلك الذي إن أحبّ امرأة انفردت روحه وتنحت عن سبل البشر- لتلبس أحلامها أجسادًا من بهجة النهار وهول الليل ولولة العواصف وسكينة الأودية ثمّ عادت لتضفر من اختباراتهما إكليلاً لراس اللغة وتصوغ من اقتناعها قلادة لعنق اللغة .

أمّا المقلّد فمقلّد حتى في حبّه وغزله وتشبيهه ، فإن ذكر وجه حبيبته وعنقها قال : بدر وغزال . وأن خطر على باله شعرها وقدها ولحظها قال : ليل وغصن بان وسهام . وإن شكّا قال : جفن ساهر وفجر بعيد وعذول قريب . وإن شاء أن يأتي بمعجزة بيانية قال : حبيبتي تستمطر لؤلؤ الدمع من نرجس العيون لتسقي ورد الخدود وتعص على عناب أناملها ببرد أسنانها . يترنم صاحبنا البغاء بهذه الأغنية العتيقة وهو لا يدري أنّه يسمم ببلادته دسم اللغة ويمتهن بسخافته وابتذاله شرفها ونبالتها .

قد تكلمت عن المستنبط ونفعه والعقيم وضرره ولم أذكر أولئك الذين يصرفون حياتهم بوضع القواميس وتأليف المطوّلات وتشكيل المجامع اللغوية . لم أقل كلمة عن هؤلاء لا اعتقادي بأنهم كالشاطيء بين مدّ اللغة وجزرها وأن وظيفتهم لا تتعدّى حدّ الغرلة . والغرلة وظيفة حسنة ولكن ما عسى يغربل المغربلون إذا كانت قوّة الابتكار في الأمّة لا تزرع غير الزوان ولا تحصد إلا الهشيم ولا تجمع على بيادها سوى الشوك والقطرب ؟

أقول ثانية إنّ حياة اللغة وتوحيدها وتعميمها وكلّ ما له علاقة بها قد كان وسيكون رهن خيال الشاعر . فهل عندنا شعراء ؟

نعم عندنا شعراء ، وكلّ شرقي يستطيع أن يكون شاعرًا في حقله وفي بستانه وأمام نوله وفي معبده وفوق منبره وبجانب مكتبته . كلّ شرقي يستطيع أن يعتق نفسه من سجن التقليد والتقاليد ويخرج إلى نور الشمس فيسير في موكب الحياة . كلّ شرقي يستطيع أن يستسلم إلى قوّة الابتكار المختبئة في روحه ، تلك القوّة الأزليّة الأبدية التي تقيم من الحجارة أبناء الله .

أمّا أولئك المنصرفون إلى نظم مواهبهم ونشرها فلهم أقول : ليكن لكم من مقاصدكم الخصوصية مانع عن اقتفاء أثر المتقدمين فخير لكم وللغة العربية أن تبوا كوخًا حقيرًا من ذاتكم الوضعية من أن تقيموا صرحًا شاهقًا من ذاتكم المقتبسة . ليكن لكم من عزّة نفوسكم زاجر عن نظم قصائد المديح والثناء والتهنئة ، فخير لكم وللغة العربية أن تموتوا مهملين محتقرين من أن تحرقوا قلوبكم بخورًا أمام الأنصاب والأصنام . ليكن لكم من حماسكم القومية دافع إلى تصوير الحياة الشرقية بما فيها من غرائب الألم وعجائب الفرح ، فخير لكم وللغة العربية أن تتناولوا أبسط ما يتمثل لكم من الحوادث في محيطك وتلبسوها حلّة من خيالكم من أن تُعربوا أجلاً وأجمل ما كتبه الغربيون .



ابن الفارض

كان عمر بن الفارض شاعراً ربّانياً . وكانت روحه الظمّانة تشرب من خمرة الروح فتسكر ثم تهيم سابحة ، مرفرفة في عالم المحسوسات حيث تطوف أحلام الشعراء وميول العشاق وأماني المتصوّفين ، ثم يفاجئها الصحو فتعود إلى عالم المرئيات لتدون ما رآته وسمعتة بلغة جميلة مؤثرة ، لكنّها غير خالية في بعض الأحيان من ذلك التعقيد اللفظي المعروف بالبديع ، وهو في شرعي ليس بالبديع .

ولكن إذا وضعنا صناعة الفارض جانباً ونظرنا إلى فنّه المجرّد وما وراء ذلك الفن من المظاهر النفسيّة وجدناه كاهناً في هيكل الفكر المطلق ، أميراً في دولة الخيال الواسع ، قائداً في جيش المتصوفين العظيم ، ذلك الجيش السائر بعزم بطيء نحو مدينة الحق ، المتغلّب في طريقه على صغائر الحياة وتوافهها ، المحدث أبدأ إلى هيبة الحياة وجلالها .

وقد عاش الفارض في زمن خال من التوليد العقلي والإحداث النفسي بين قوم منصرفين إلى التقليد والتقاليد ، مشغولين باستفسار واستيضاح ما تركه الإسلام من الأجداد الأدبيّة والفلسفية . غير أن النبوغ - والنبوغ معجزة إلهيّة - قد صار بالشاعر الحموي فتنحى عن زمنه وعن محيطه واختلى بذاته لينظم ما يترأى لذاته شعراً أبدياً يصل ما ظهر من الحياة بما خفي منها .

ولم يتناول الفارض مواضيعه من ماجريات يومه كما فعل المتنبي ، ولم تشغله معميات الحياة وأسرارها كما شغلت المعري ، بل كان يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراء الدنيا ، وبغلق أذنيه عن ضجّة الأرض ليسمع أغاني اللانهاية .

هذا هو الفارض : روح نقيّة كأشعة الشمس ، وقلب متّقد كالنار ، وفكرة صافية كبحيرة بين الجبال . وهو إن كان دون الجاهليّين عزماً وأقلّ من المولدين ظرفاً ففي شعره ما لم يحلم به الأولون ولم يبلغه المتأخرون .



العهد الجديد

في الشرق اليوم فكرتان متصارعتان : فكرة قديمة وفكرة جديدة . أمّا الفكرة القديمة فستُغلب على أمرها لأنّها منهوكة القوى محلولة العزم .

وفي الشرق يقظة تراود النوم ، واليقظة قاهرة لأن الشمس قائدها والفجر جيشها .

وفي حقول الشرق - ولقد كان الشرق بالأمس جبانة واسعة الأرجاء - يقف اليوم فتى الربيع منادياً سكّان الأحداث ليهبوا ويسيروا مع الأيام . وإذا ما أنشد الربيع أغنيته بُعثَ مصروع الشتاء وخلع أكفانه ومشى .

وفي فضاء الشرق اهتزازات حيّة تنمو وتمدد وتتوسّع وتتناول النفوس المتنبّهة الحساسة فتضمّها إليها ، وتحيط بالقلوب الأبيّة الشاعرة لتكتسبها .

وللشرق اليوم سيّدان : سيّد يأمر وينهى ويطاع ولكنّه شيخ يُحتَضَر - ، وسيّد ساكت بسكوت النواميس والأنظمة ، هادئ بهدوء الحقّ ، ولكنّه جبار مفتول الساعدين يعرف عزمه ويثق بكيانه ويؤمن بصلاحيته .

في الشرق اليوم رجлан : رجل الأمس ورجل الغد ، فأَيّ منهما أنت أيّها الشرق ؟

ألا فاقترّب مني لأتفرّسك وأتبصرك وأتحقق من ملامحك ومظاهرك ما إذا كنت من الآتين إلى النور أو الداهيين إلى الظلام .

تعال واخبرني ما أنت ومن أنت ؟

أسياسيّ يقول في سرّه : « أريد أن أنتفع من أمّتي » أم غيور متحمّس يهمس في نفسه : « أتوق إلى نفع أمّتي ؟ » .

إن كنت الأول فأنت نبتة طفيلية ، وإن كنت الثاني فأنت واحة في صحراء .

أتاجر يتخذ عوز الناس وسيلة للريح والانتفاخ فيحتكر الضر-وريات لبيع بدينار ما ابتاعه بدراهم؟ أم رجل جدّ واجتهاد يسهل التبادل بين الحائك والزارع ويجعل نفسه حلقة بين الراغب والمرغوب ، فيفيد المرغوب والراغب ويستفيد بعدل منهما؟

إن كنت الأول فأنت مجرم سكنت القصور أو السجون ، وإن كنت الثاني فأنت محسن شكرك الناس أو جحدوك .

أرئيس دين يحوك من سذاجة القوم برفيرا لجسده ، ويصوغ من بساطة قلوبهم تاجا لرأسه ، ويدّعي كره إبليس ويعيش بخيراته؟ أم تقي ورع يرى في فضلة الفرد أساسا لرقّي الأمة ، وفي استقصاء أسرار روحه سلما إلى الروح الكلي؟

إن كنت الأول فأنت كافر ملحد صُمّت النهار أو صليت الليل ، وإن كنت الثاني فأنت زنبقة في جنة الحق ضاع أريجها بين أنوف البشر أو تصاعد حرا طليقا إلى الغلاف الأثيري حيث تحفظ أنفاس الأزهار .

أصحفي يبيع فكرته ومبدأه في سوق النخاسين وينمو ويتزعرع على ما يفرزه الاجتماع من أخبار المصائب والويلات ، ونظير الشوحة الجائعة لا تهبط إلا على الجيف المتننة؟ أم معلم واقف على منبر من منابر المدنية يستمد من مآتي الأيام مواعظ يلقيها على الناس بعد أن يتعظ بها هو نفسه؟

إن كنت الأول فأنت بثور وقروح ، وإن كنت الثاني فدواء وبلسم .

أحاكم يتصاغر أمام من ولاه ويستصغر من تولّى عليهم ، فلا يحرك يداً إلا ليضعها في جيوبهم ، ولا يخطو خطوة إلا لمطمع له فيهم؟ أم خادماً أمين يدير شؤون الشعب ويسهر على مصالحه ويسعى إلى تحقيق أمانه؟

إن كنت الأول فأنت زوان في بياض الأمة ، وإن كنت الثاني فأنت بركة في أهرائها .

أزوج يستبيح لنفسه ما يحرمه على زوجته ، ويسرح ويمرح وفي حزامه مفتاح سجنها ، ويلتهم ما يشتهي حتى التخمة وهي جالسة في وحدتها أمام صحيفة فارغة؟ أم رفيق لا يسير إلى أمر إلا ويده بيد رفيقته ، ولا يفعل أمراً إلا ولها فيه فكرة ورأي ، ولا يفوز بأمر إلا لتساهمه أفراده وأمجاده؟

إن كنت الأول فأنت ممن بقي حياً من قبائل انقرضت ، وهي تسكن الكهوف وتلبس الجلود ، وإن كنت الثاني فأنت في طليعة أمة تسير مع الفجر نحو ظهيرة العدالة والحصافة .

أكاتب بحاثته يشمخ برأسه إلى ما فوق رؤوسنا أمّا ما في داخل رأسه فيدبّ في هوة الماضي الغابر حيث ألفت الأجيال ما رث من أثوابها ، ورمت ما لم يعد صالحاً لها ، أم فكرة صافية تتفحص محيطها لتعلم ما ينفعه وما يضره فتصرف العمر في بناء النافع وهدم المضر؟

إن كنت الأول فأنت سخافة مطرسة وبلادة مزركشة ، وإن كنت الثاني فأنت خبز للجائعين وماء للظامئين .

أشاعر أنت يضرب الطنبور أمام أبواب الأمراء وينثر الأزهار في الأعراس ويسير وراء الجثث الهامدة وبين فكّيه إسفنجة مثقلة بالماء الفاتر حتى إذا ما بلغ المقبرة ضغط عليها بلسانه وشفثه ، أم موهوب وضع الله في يده قيثارة يستولدها أنعاماً علوية تجذب قلوبنا وتوقفنا متهيئين أمام الحياة وما في الحياة من الجمال والهول ؟

إن كنت الأول فأنت من المشعوذين الذي لا ينبهون في نفوسنا سوى عكس ما يقصدون ، فإن تباكوا نضحك ، وإن مرحوا نكتئب ، وإن كنت الثاني فأنت بصيرة مشعشة وراء بصرنا ، وشوق عذب في قلوبنا ، ورؤيا ربّانية في غيوبتنا .

أقول في الشرق موكبان : موكب من عجائز محدودبي الظهور يسرون متوكئين على العصي- العوجاء ، ويلهثون منهوكين مع أنهم ينحدرون من الأعالي إلى المنخفضات ، وموكب من فتیان يتراكضون كأن في أرجلهم أجنحة ، ويهلّلون أن في حناجرهم أوتارًا ، ويتتهبون العقبات كأن في جبهات الجبال قوّة تجذبهم وسحرًا يجتلب ألبابهم .

فمن أيّة فئة أنت أيّها الشرقي وفي أيّ موكب تسير ؟

ألا فاسأل نفسك ، استجوبها في سكينة الليل وقد صحت من مخدرات محيطها عمّا إذا كنت من عبيد الأمس أم من أحرار الغد .

أقول لك إن أبناء الأمس يمشون في جنازة العهد الذين أوجدتهم وأوجدوه . أقول إنهم يشدّون بحبل أوهت الأيام خيوطه ، فإذا ما انقطع - وعمّا قريب ينقطع - هبط من تعلّق به إلى حفرة النسيان . أقول إنهم يسكنون منازل متداعية الأركان ، فإذا ما هبّت العاصفة - وهي على وشك الهبوب - انهدمت تلك المنازل على رؤوسهم وكانت لهم قبورًا ، أقول إن أفكارهم وأقوالهم ومنازلهم وتصانيفهم ودواوينهم وكلّ مآتيهم ليست سوى قيود تجرّهم بثقلها ولا يستطيعون جرّها لضعفهم .

أمّا أبناء الغد فهم الذين نادتهم الحياة فاتبعوها بأقدام ثابتة ورؤوس مرفوعة . هم فجر عهد جديد ، فلا الدخان يحجب أنوارهم ، ولا قلقله السلاسل تغمر أصواتهم ، ولا نتن المستنقعات يتغلّب على طيبهم . هم طائفة قليلة العدد بين طوائف كثر عددها ، ولكن في الغصن المزهّر ما ليس في غابة يابسة ، وفي حبة القمح ما ليس في رابية من التبن . هم فئة مجهولة لكنّهم يعرفون بعضهم بعضاً ، ومثل قمم عالية يرى واحد منهم الآخر ويسمع نداءه ويناجيه . أمّا المغاور فعمياء لا ترى ، وطرشاء لا تسمع . هم النواة التي طرحها الله في حلقة ما ، فشقت قشرتها بعزم لبابها ، وتمايلت نصبة غضة أمام وجه الشمس ، وسوف تنمو شجرة عظيمة تمتد عروقها إلى قلب الأرض وتتصاعد فروعها إلى أعماق الفضاء .



الوحدة والانفراد

الحياة جزيرة في بحر من الوحدة والانفراد .

الحياة جزيرة صخورها الأماني ، وأشجارها الأحلام ، وأزهارها الوحشة ، وينابيعها التعطش ، وهي في وسط بحر من الوحدة والانفراد .

حياتك يا أخي جزيرة منفصلة عن جميع الجزر والأقاليم ، ومهما سيرت من المراكب والزوارق إلى الشواطئ الأخرى ، ومهما بلغ شواطئك من الأساطيل والعمارات فأنت أنت الجزيرة المنفردة بآلامها المستوحدة بأفراحها البعيدة بحنينها المجهولة بأسرارها وخفاياها .

رأيتك يا أخي جالسًا على رابية من الذهب وأنت فرح بثروتك متفوق بغناك ، شاعر أن في كل حفنة من التبر سلكًا خفيًا يصل فكرة الناس بفكرتك ويربط ميولهم بميولك . ومثل فاتح كبير أبصرتك تقود فيالق جنود الظفر إلى المعازل الحصينة فتدكّها ، وإلى المستحكمات المنيعة فتمتلكها . ولكنني نظرت إليك ثانية فرأيت وراء جدران خزائنك قلبًا يختلج في وحدته وانفراده اختلاج ظامئ في قفص مصنوع من الذهب والجواهر ولكنه خال من الماء .

رأيتك يا أخي جالسًا على عرش من المجد وقد وقف حولك الناس مترنمين باسمك مرددين حسناتك معددين مواهبك محققين إليك كأنهم في حضرة نبي يرفع أرواحهم بعزم روحه ويطوف بها بين النجوم والكواكب ، وأنت تنظر إليهم وعلى وجهك سيماء الغبطة والقوة والتغلب كأنك منهم بمقام الروح من الجسد . ولكنني نظرت إليك ثانية فرأيت ذاتك المستوحدة واقفة إلى جانب عرشك وهي تتوجع بغربتها وتغصّ بوحشتها . ثم رأيتها تمدّ يدها إلى كل ناحية كأنها تستعطف وتستعطي الأشباح غير المنظورة . ثم رأيتها تنظر من فوق رؤوس الناس إلى مكان قصي ، إلى مكان خالٍ من كل شيء سوى وحدتها وانفرادها .

رأيتك يا أخي مشغوفًا بحب امرأة جميلة وأنت تسكب على مفرق شعرها ذوب قلبك وتملاً راحيتها بقبل شفيتك وهي تنظر إليك وأشعة الانعطاف في عينيها وحلاوة الأمومة على ثغرها ، فقلت بسري : لقد أزاليت المحبة وحدة هذا الرجل ومحت انفراده فعاد واتصل بالروح الكلية العامة التي تجذب إليها بالحب ما انفصل عنها بالخلو والسلوان . ولكنني نظرت إليك ثانية فرأيت طي قلبك المشغوف قلباً منفرداً يريد أن يسكب مخباته على رأس المرأة ولا يقدر ، ورأيت وراء نفسك الذائبة حباً نفساً أخرى مستوحدة شبيهة بالضباب تروم أن تتحول في حفتي رفيقتك إلى قطرات من الدموع ولكنها لا تستطيع .

حياتك يا أخي منزل منفرد بعيد عن جميع المنازل والأحياء .

حياتك المعنوية منزل بعيد عن سبل الظواهر والمظاهر التي يدعوها الناس باسمك . فإن كان هذا المنزل مظلماً فأنت لا تقدر أن تنيره بسراج قريبك ، وإن كان خالياً فأنت لا تستطيع أن تملأه من خيرات جارك ، وإن كان قائماً في صحراء فأنت لا تقدر أن تنقله إلى حديقة غرسها سواك ، وإن كان منتصباً على قمة جبل فأنت لا تستطيع أن تهبط إلى وادٍ وطئته أقدام غيرك .

حياتك النفسية يا أخي محاطة بالوحدة والانفراد ، ولولا هذه الوحدة وذاك الانفراد لما كنت أنت أنت ، وأنا أنا . لولا هذه الوحدة وذاك الانفراد لكنت إن سمعت صوتك ظننتني متكلاً ، وإن رأيت وجهك توهمت نفسي ناظراً في المرأة .



إرم ذات العماد

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر]

« يدخلها بعض أمتي » (الحديث) .

توطئة لإرم ذات العماد :

بعد أن ملك شدداد بن عاد جميع الدنيا أمر ألف أمير من جبابرة قوم عاد أن يخرجوا ويطلبوا أرضاً واسعة كثيرة الماء طيبة الهواء بعيدة عن الجبال ليبني فيها مدينة من ذهب . فخرج أولئك الأمراء ومع كل أمير ألف رجل من خدمه وحشمه . فساروا حتى وجدوا أرضاً واسعة طيبة الهواء فأعجبتهن تلك الأرض فأمرؤ المهندسين والبنائين فخطّوا مدينة مربّعة الجوانب دورها أربعون فرسخاً من كل جهة عشرة ، فحفروا الأساس إلى الماء وبنوا الجدران بحجارة الجزع اليماني حتى ظهر على وجه الأرض ثم أحاطوا به سوراً ارتفاعه خمسمائة ذراع وغشّوه بصفائح الفضة المموّهة بالذهب فلا يكاد يدركه البصر إذا أشرقت الشمس . وكان شدداد قد بعث إلى جميع معادن الدنيا فاستخرج منها الذهب واتخذ لبناً . واستخرج الكنوز المدفونة ثم بنى داخل المدينة مائة ألف قصر بعدد رؤساء مملكته كل قصر - على أعمدة من أنواع الزبرجد واليواقيت معقدة بالذهب طول كل عمود مائة ذراع . وأجرى في وسطها أنهاراً وعمل منها جداول لتلك القصور والمنازل وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت وحلّى قصورها بصفائح الذهب والفضّة ، وجعل على حافات الأنهار أنواع الأشجار جذوعها من الذهب وأوراقها وثمرها من أنواع الزبرجد واليواقيت ، واللالئ . وطلّى حيطانها بالمسك والعنبر . وجعل فيها جنة مزخرفة له . وجعل أشجارها الزمرد واليواقيت وسائر أنواع المعادن . ونصب عليها أنواع الطيور المسموعة الصادح والمغرّد وغير ذلك .

« الشعبي في كتاب سير الملوك »

إرذات العمداد

المكان : غابة صغيرة من الجوز والرمّان تحيط بمنزل قديم منفرد بين منبع العاصي
وقرية الهرمل في الشمال الشرقي من لبنان .

الزمان : عصاري يوم من أيام تموز في سنة 1883 .

أشخاص الرواية :

زين العابدين النهاوندي : وهو درويش عجمي في الأربعين من عمره ، معروف بالصوفي .

نجيب رحمة : أديب لبناني في الثالثة والثلاثين .

آمنة العلوية : معروفة في تلك النواحي بجنيّة الوادي ، ولا أحد يعرف عمرها .

يرفع الستار فيظهر زين العابدين متكئاً على ساعده في ظلال
الأشجار وهو يرسم براس عصاه الطويلة خطوطاً مستديرة
على التراب . بعد هنيهة يدخل الغابة نجيب رحمة راكباً على
فرس ثم يترجّل ويربط مقود فرسه بجذع شجرة وينفض
الغبار عن ملابسه ثم يقترب من زين العابدين .

نجيب رحمة : السلام عليك يا سيّدي .

زين العابدين : وعليك السلام . ويحوّل وجهه قائلاً في نفسه : أمّا السلام فنقبله ، وأمّا السيادة
فلا ندرى أنقبلها أم لا .

نجيب رحمة : (ينظر حوالبه مستفحصاً) : أهنا تسكن آمنة العلوية؟

زين العابدين : هذا منزل من منازلها .

نجيب رحمة : أتعني يا سيّد أن لها بيتًا آخر؟

زين العابدين : لها منازل لا عداد لها .

نجيب رحمة : منذ الصباح وأنا أبحث وأسأل كلّ من لقيته عن مقرّ آمنة العلوية ولم يقل لي أحد إن لها منزلين أو أكثر .

زين العابدين : هذا دليل على أنّك لم تلتق منذ الصباح غير من لا يرى إلا بعينه ولا يسمع إلا بأذنيه .

نجيب رحمة : (مستغربًا) : ربما كان الأمر مثلما تقول . ولكن أصدقني يا سيّدي أفي هذا المكان تسكن آمنة العلويّة؟

زين العابدين : نعم في هذا المكان يسكن جسدها بعض الأحياء .

نجيب رحمة : وهالاً أخبرتني أين هي الآن؟

زين العابدين : هي في كلّ مكان مشيرًا بيده إلى (الجهة الشرقية) أمّا جسدها فيسير متجوّلًا بين تلك التلول والأودية .

نجيب : وهل تعود اليوم إلى هذا المكان؟

زين العابدين : ستعود إن شاء الله .

نجيب رحمة : (يجلس على صخر أمام زين العابدين ثم يتفحصه طويلاً) : يبدو لي من لحيتك أنك فارسي .

زين العابدين : نعم ولدت في نهاوند وريت في شيراز وتثقت في نيسابور وجبت مشارق الأرض ومغاربها وأنا غريب في كل مكان .

نجيب رحمة : كلنا غريب في كل مكان .

زين العابدين : لا والحق ، فقد لقيت وحدت ألف ألف من الانس فلم أر سوى المكتفين بمحيطهم ، المستأنسين بألفهم ، المنصرفين عن العالم إلى الفسحة الضيقة التي يرونها من العالم .

نجيب رحمة : (معجباً بكلام جلسه) : الإنسان يا سيدي مطبوع على حب المكان الذي ولد فيه .

زين العابدين : المحدد من الناس مطبوع على حب المحدود من الحياة ، وشحيح البصر لا يرى غير ذراع من السبيل الذي تطأه قدماه ، وذراع من الحائط الذي يسند إليه ظهره .

نجيب رحمة : ليس لكل منا المقدرة على الإحاطة بكليات الحياة . ومن الظلم أن تطلب من شحيح أن يرى البعيد والضئيل .

زين العابدين : أصبت وأحسن ، فمن الظلم أن نطلب الخمر من الحصرم .

نجيب رحمة : (بعد دقيقة سكوت) : اسمع يا سيدي ، منذ أعوام وأنا أسمع الأخبار عن آمنة العلوية ، ولقد أثرت بي هذه الأخبار إلى درجة قصوى فعزمت على الاجتماع بها لاستفسارها ومعرفة أسرارها وخفاياها .

زين العابدين : (يقاطعه) : أوجد في هذا العالم من يستطيع معرفة أسرار آمنة العلوية وخفاياها؟
أوجد بين البشر من يقدر أن يسير متجولاً متنزّها في قاع البحر كأنه في حديقة
؟

نجيب رحمة : قد أسأت التعبير يا سيدي فسأحني . أنا لا أقدر بالطبع على الإحاطة بمكونات
آمنة العلوية ، ولكنني أرجو أن أسمع منها حكاية دخولها إلى إرم ذات العماد .
زين العابدين : ما عليك سوى الوقوف في باب حلمها ، فإن فتح لك بلغت قصدك ، وإن لم
يفتح فأنت الملوم .

نجيب رحمة : ما تعني يا سيدي بقولك إن لم يفتح لي كنت أنا الملوم ؟

زين العابدين : أعني أن آمنة العلوية أدرى الناس منهم بنفوسهم ، فهي ترى بلمحة واحدة ما في
ضمايرهم وقلوبهم وأرواحهم فإن وجدتك خليقاً بمحادثتها حدثتك وإلا فلا
.

نجيب رحمة : ماذا أقول وماذا أفعل لأكون حريّاً باستماع حديثها ؟

زين العابدين : عبثاً تحاول الدثو من آمنة العلوية بواسطة القول والعمل ، فهي لا ولن تصغي إلى
ما تقوله ، لا ، ولا تنظر إلى ما تفعله ، بل سوف تسمع بأذن أذنها ما لا تقوله
وترى بعين عينها ما لا تفعله .

نجيب رحمة : (تظهر على ملامحه سياء الدهشة) : ما أبلغ كلامك هذا وما أجمله !

زين العابدين : ليس ما أقول عن آمنة العلوية سوى دندنة أخرس يريد أن يغني نشيداً .

نجيب رحمة : أتعلم يا سيدي أين ولدت هذه المرأة العجيبة ؟

زين العابدين : ولدت في صدر الله .

نجيب رحمة : (ملتبكا) أعني أين ولد جسدها ؟

زين العابدين : بجوار دمشق .

نجيب رحمة : وهلا أخبرتني شيئا عن والديها وتربيتها ؟

زين العابدين : ما أشبه سؤالاتك هذه بسؤالات القضاء والمشرعين . أفظن أنك تستطيع إدراك الجواهر باستفسارك الأعراض ، أو معرفة طعم الخمرة بمجرد النظر إلى خارج الجرة ؟

نجيب رحمة : بين الأرواح وأجسادها رابطة ، وبين الأجساد ومحيطها علاقة ، ولما كنت لا أعتقد بالصدف أرى أن النظر في تلك الروابط وتلك العلاقات لا يخلو من الفائدة .

زين العابدين : أعجبتني ، أعجبتني . يلوح لي أنك على شيء من العلم . إذا فاسمع . لا أعرف شيئا عن والده آمنة العلوية سوى أنها ماتت وهي تتمخض بابنتها . أما والدها الشيخ عبد الغني الضرير المشهور بالعلوي فقد كان إمام زمانه في العلوم الباطنية والتصوف . وقد كان ، رحمه الله ، ولوعا بابنته إلى درجة قصوى فهذهها وثقفها وسكب في روحها كل ما في روحه . ولما بلغت أشدها أدرك أن العلوم التي أخذتها عنه لم تكن من العلم الذي انزل عليها إلا بمقام الزبد من البحر فصار يقول عنها : لقد انبثق من ظلمتي نور أستضيء به . ولما بلغت الخامسة والعشرين خرج بها لأداء فريضة الحج .

ولما قطعاً بادية الشام وأصبحت على بعد ثلاث مراحل من المدينة المنورة بلي الضرير بالحمى وتوفي فدفتته ابنته في لحف جبل هناك وجلست على قبره سبع ليالٍ تناجي روحه وتستكشفها أسرار الغيب وتستعلم منها عمّا وراء الحجاب . وفي الليلة السابعة أوحى إليه روح والدها أن تطلق راحلتها وتحمل زادها على عاتقها وتسير من ذلك المكان إلى الجنوب الشرقي ، ففعلت (يسكت دقيقة ويحدق إلى الأفق البعيد ثم يعود إلى الكلام) وظلّت آمنة العلوية سائرة في البادية حتى وصلت إلى (الربع الخالي) وهو قلب الجزيرة الذي لم تخترقه قافلة ولم يصل إليه سوى أفراد قليلين منذ بدء الإسلام إلى يومنا هذا . أمّا الحجاج فظنّوا أنها تاهت في تلك القفار وقضت جوعاً ، ولما عادوا إلى دمشق أخبروا الناس بذلك فحزن عليها وعلى أبيها من عرف فضلها ثم التحف ذكرهما النسيان كأنّهما ما كانا ... وبعد خمسة أعوام ظهرت آمنة العلوية في الموصل . وكان ظهورها بما هي عليه من الجمال والهيبة والعلم والصلاح أشبه شيء بهبوط نيزك من الفضاء . فقد كانت تسير بين الناس مسفرة وتقف بحلقات العلماء والأئمة متكلمة عن الأمور الربّانية وتصف لهم مشاهد إرم ذات العماد بفصاحة ما سمع القوم بمثلها . ولما اشتهر امرها وكثر عدد أتباعها ومريديها خاف علماء المدينة ظهور بدعة وخشو الفتنة فشكوها إلى الوالي ، فاستقدمها هذا إليه وألقى بين يديها صرّة من الذهب وطلب منها أن تغادر المدينة ، فرفضت المال وتركت المدينة ليلاً دون أن يصحبها أحد من الناس . ثم توجهت إلى الآستانة فحلب فدمشق فحمص فطرابلس ، وكانت في كل مدينة من هذه المدن تثير ما سكن في نفوس الناس وتشعل ما خمد في وجدانهم ، فيلتفون حولها ويصغون إلى محاضراتها وأحاديث اختباراتها العجيبة مجذوبين بعوامل قويّة سحرية .

غير أن أئمة الدين وشيوخ العلم في كل بلد كانوا يصادرونها ويفندون أقوالها ويعرضون بها إلى الحكّام . بعد ذلك طلبت نفسها العزلة فجاءت هذا المكان منذ أعوام واستوحدت به زاهدة متعبّدة منصرفة عن كل شيء سوى التعمق في الأسرار الربانية . هذا قليل من كثير أعرفه عن حياة آمنة العلوية . أمّات ما حباني الله بمعرفته عن ذاتها المعنوية ، وما يتآلف في نفسها من القوى والمواهب فليس بإمكانني الكلام عنه الآن . ومن من البشر- يا ترى يستطيع أن يجمع الأثير المحيط بهذا العالم في كؤوس وأكواب ؟

نجيب رحمة : (متأثراً) : اشكرك يا سيّدي ما تفضلت وحدثتني به عن هذه المرأة العجيبة . لقد ضاعفت شوقي إلى الوقوف بحضرتها .

زين العابدين : (بتفرّس فيه دقيقة) : أنت مسيحي . أليس كذلك ؟

نجيب رحمة : نعم ، ولدت مسيحياً غير أنّي أعلم أنّنا إذا جردنا الأديان ممّا تعلّق بها من الزوائد المذهبيّة والاجتماعيّة وجدنا ديناً واحداً .

زين العابدين : أصبت ، وليس بين البشر أدري بالوحدة الدينيّة المجرّدة من آمنة العلوية ، فهي في الناس على اختلاف طوائفهم كندي الصباح الذي يهبط من الأعالي وينعقد درّاً مشعشاً بين أوراق الأزهار المتباينة لوناً وشكلاً . نعم كندي الصباح ... (يقف زين العابدين فجأة عن الكلام ويلتفت إلى الجهة الشرقية مصغياً ثمّ على قدميه ويومئ إلى نجيب أن يتبّه فيفعل هذا ممثلاً) .

زين العابدين (هَامِسًا) : هو ذا أمانة العلوية .

(يرفع نجيب يده إلى جيبه كأنه أحسّ بحدوث تغيير في دقائق الهواء ثمّ ينظر فيرى العلوية آتية فتتغير ملامحه ويضطرب في داخله ولكنه يبقى واقفًا في مكانه كالتمثال ...
تدخل أمانة العلوية وتقف أمام الرجلين وهي بهيئتها وحركاتها وملابسها أقرب إلى معبودات الشعوب الغابرة منها إلى امرأة شريفة في الزمن الحاضر .
ومن الصعب تحديد عمرها بمجرد النظر إلى ملامحها ، فكأنّ الشباب في وجهها يستر ألف سنة من المعرفة والاختبار . أمّا نجيب وزين العابدين فيظلان جامدين خاشعين متهيئين كأنهما بحضرة نبيّ من أنبياء الله .. وبعد أن تحديق العلوية إلى وجه نجيب كأنّها تخترق بنظراتها صدره ، تدنو منه وقد انبسطت ملامحها وابتسمت ، وبصوت عذب تقول ...) .

أمانة العلوية : جئنا أيّها اللبناني متنسّمًا أخبارنا مستفحصًا حالنا . ولن تجد بنا إلا ما بك ولن تسمع منّا إلا ما عرفته في نفسك .

نجيب رحمة : (مفعولاً) : ها قد رأيت وسمعت وصدقت واكتفيت .

أمانة العلوية : لا تكن قنوعًا بالقليل ، فمن يرد ينابيع الحياة بجرة فارغة صرف بجرتين طافحتين .

(تمدّ يدها إليه فيتناولها بكلتا يديه خاشعاً محتشماً ويقبل أطراف أصابعها مدفوعاً بعامل خفيّ . تلتفت إلى زين العابدين وتمد يدها إليه فيفعل هذا فعل نجيب ثمّ تتراجع قليلاً إلى الوراء وتجلس على حجر منحوت أمام بيتها وتشير إلى صخر قريب وتقول لنجيب) : هذه مقاعدنا فاجلس .

(يجلس نجيب ويفعل زين العابدين فعله) .

آمنة العلوية : إنّنا نرى بعينيك نوراً من أنوار الله ، ومن ينظر إلينا ونور الله في عينه يرى حقيقتنا عارية مجرّدة . وإنّنا نرى بوجهك ما يرفعه الإخلاص عن حبّ الاستطلاع إلى الرغبة في الحق . فإن كان على لسانك كلمة فقلها فنحن إليك مصغون . وإن كان في قلبك سؤال فاطرحه فنحن لك مجيبون .

نجيب رحمة : جئت مستعلماً عن أمر يتحدّث الناس به لغرابته ، ولكنني ما وقفت بحضرتك حتى علمت أن الحياة مظاهر الروح الكلية ، فكان مثلي مثل صياد ألقى شبكته في البحر ليصطاد سمكاً ولما اجتذبتها إلى الشاطئ وجد فيها صرّة من الحجارة الكريمة .

آمنة العلوية : جئت تسألنا عن دخولنا إرم ذات العمد ؟

نجيب رحمة : نعم يا سيدي ، منذ حدثني وهذه الكلمات الثلاث « إرم ذات العمد » تعانق أحلامي وتمشي مع خيالي بما وراءها من الرموز والمقاصد الخفية .

آمنة العلوية : (ترفع رأسها وتغمض عينيها وبصوت يخاله نجيب آتياً من قلب الفضاء تقول) : أجل قد بلغنا المدينة المحجوبة ودخلناها وأقمنا فيها وملأنا روحنا من أريجها وقلبنا من أسرارها وجيوبنا من لؤلؤها وياقوتها ، فمن ينكر علينا ما شاهدناه وعرفناه كان ناكراً لذاته أمام الله

نجيب رحمة : (متأنيا) : ما أنا يا سيدتي سوى طفل يلثع متلعثما بما يزيد بيانه ، فإن سألتك عن أمر
فبخشوع أسأل . وإن استقصيت أمرا فبإمعان وإخلاص . فهلا جعلت عطفك
علي شفيعا بي لديك إذا ما أتعبت شرك بسؤالاتي الكثيرة ؟

آمنة العلوية : سل ما شئت فقد جعل الله الحقيقة ذات أبواب يفتحها بوجه من يطرقها بيد
الإيمان .

نجيب رحمة : هل دخلت إرم ذات العماد بالجسد أم بالروح ، وهل هي مدينة مصنوعة من
عناصر الأرض المتبلورة وقائمة في بقعة معلومة من الأرض أم هي مدينة
روحية ترمز عن حالة روحية يبلغها أنبياء الله وأوليائؤه في غيبوبة يلقيها الله
نقابا علي نفوسهم ؟

آمنة العلوية : ليس ما نراه علي الأرض وما لا نراه سوي حالات روحية ، وأنا قد دخلت المدينة
المحجوبة بجسدي وهو روحي الظاهرة ودخلتها بروحي وهي جسدي الخفي
ومن يحاول التفريق بين ذرات الجسد كان في ضلال مبين . إنما الزهرة
وعطرها شيء واحد . فالأعمى الذي ينكر لون الزهرة وصورتها قائلا :
« ليست الزهرة سوى عطر يتموج في الأثير » ليس هو إلا كالمزكوم الذي يقول
:

« ليست الأزهار غير صور وألوان » .

نجيب رحمة : إذا فالمدينة المحجوبة التي ندعوها بإرم ذات العماد حالة روحية ؟

آمنة العلوية : كل مكان وزمان حالة روحية . وكل المرئيات والمعقولات حالات روحية . فإن
أغمضت عينيك ونظرت في أعماق أعمالك رأيت العالم بكلياته وجزئياته
وخبرت ما فيه من النواميس وعلمت ما يلازمه من الذرائع وفهمت ما يتلمسه
من المحجبات . أجل ، إنك إذا أغمضت بصرك وفتحت بصيرتك رأيت بداية
الوجود ونهايته ، تلك التي تصير بدورها بداية ، وتلك البداية التي تتحول إلى
نهاية .

نجيب رحمة : وهل بإمكان كل إنسان أن يغمض عينيه ويرى جوهر الحياة المجرد ؟

آمنة العلوية : يستطيع كل إنسان أن يتشوق ثم يتشوق ثم يتشوق حتى ينزع الشوق نقاب
الظواهر عن بصره فيشاهد إذ ذاك ذاته . ومن ذاته ير جوهر الحياة المجرد .
فكل ذات هي جوهر الحياة المجرد .

نجيب رحمة : (يضع يده على صدره) : إذا كل ما في الوجود من محسوس ومعقول كائن هنا هنا في
صدري ؟

آمنة العلوية : كل ما في الوجود كائن فيك وبك ولك .

نجيب رحمة : أبا مكاني أن أقول لذاتي إرم ذات العمداء موجود في باطني لا في خارجي ؟

آمنة العلوية : كل ما في الوجود كائن في باطنك ، وكل ما في باطنك موجود في الوجود . وليس
هناك من حد فاصل بين أقرب الأشياء وأقصاها أو بين أعلاها وأخفضها أو
بين أصغرها وأعظمها . ففي قطرة الماء الواحدة جميع أسرار البحار ، وفي ذرة
واحدة جميع عناصر الأرض ، وفي حركة واحدة من حركات الفكر كل ما في
العالم من الحركات والأنظمة .

نجيب رحمة (تظهر على وجهه علامات الالتباس) : قد قيل يا سيّدي إنّك قطعت المسافات الشاسعة حتى بلغت ذلك المكان المعروف بالربع الخالي في قلب الجزيرة العربية . وقيل لي إن روح والدك كانت الموحية إليك والهادية لك والسائرة معك حتى بلغت إرم ذات العماد . أفليس على الراغب في الوصول إلى تلك المدينة المحجوبة أن يكون في حالة شبيهة بحالتك وأن تكون له الوسائل الجسديّة والأسباب المعنويّة ليحصل على ما حصلت أنت عليه ؟

آمنة العلويّة : أجل قد قطعنا الصحاري وقاسينا الجوع والعطش وخبرنا مخاوف النهار ورمضاءه وأهوال الليل وسكينته قبل أن رأينا أسوار مدينة الله . ولكن قد بلغ مدينة الله قبلنا من لم يسر خطوة ، وعرف جمالها وبهاءها من لم يختبر جوعاً في الجسد أو عطشاً في الروح . إي والحق لقد طاف في المدينة المقدّسة إخوانٌ لنا وأخوات دون أن يخرجوا من المنازل التي ولدوا فيها . (تسكت هنيهة ثمّ تومئ بيدها إلى الأشجار والرياحين المحيطة بها) لكلّ بذرة من البذور التي يلقها الخريف في أديم التراب أساليب خاصّة في فسخ قشرتها عن لبائها وفي تكوين أوراقها فأزهارها فأثمارها . ولكن مهما تباينت الأساليب فمحجّة جميع البذور تظلّ واحدة . وتلك المحجّة هي الوقوف أمام وجه الشمس .

زين العابدين : (يتمايل إلى الأمام وإلى الوراء متأثراً كأنه انتقل بالروح إلى عامل سام ثمّ يصرخ بصوت رخيم) : الله اكبر . لا إله إلا الله الكريم الوهاب الملقّي ظلّه بين الألسنة والشفاه .

آمنة العلوية : أجل . قل الله اكبر . لا إله إلا الله . وقل لا شيء إلا الله .

(يتمم زين العابدين هذه الكلمات في ذاته أمّا نجيب فيحديق إلى العلوية كالمسحوق وبصوت يكاد يكون همساً ، يقول) : لا شيء إلا الله .

آمنة العلوية : قل لا إله إلا الله ولا شيء إلا الله وكن مسيحاً .

نجيب رحمة : (يخني رأسه محرّكاً شفّتيه مرّداً كلماتها ثم يرفع رأسه قائلاً) : قد قلتها يا سيّدي وسوف أقولها إلى نهاية حياتي .

آمنة العلوية : ليس حياتك نهاية ، فأنت باق ببقاء كلّ شيء .

نجيب رحمة : من أنا وما أنا لأبقى خالداً ؟

آمنة العلوية : أنت أنت . وأنت كل شيء ، لذلك ستبقى خالداً .

نجيب رحمة : إنّي أعلم طبعاً يا سيّدي أن الذرّات التي تتألّف منها وحتى الهويّة ستبقى بقاء الهولي ، ولكن أباقيّة يا ترى هذه الفكرة التي أدعوها أنا ؟ أباقيّة هذه اليقظة الضئيلة الممنطقة بالهجوم ؟ أباقيّة هذه الفقاع الملتمة بنور الشمس وأمواج البحر التي ولدتها هي هي الأمواج التي تمحوها لتولد غيرها ؟ أباقيّة هذه الأماني والآمال والأوجاع والأفراح ؟ أباقيّة هذه الأوهام المرتعشة في هذا النوم المتقطّع في هذا الليل الغريب بعجائبه الهائل باتّساعه وعمقه وعلوّه ؟

آمنة العلوية : (ترفع عينيها إلى العلاء كأنها تتناول شيئاً من جيوب الفضاء وتقول بلهجة إيجابية ملؤها العزم والمعرفة والخبرة) : كلّ موجود باقٍ . ووجوده دليل على بقائه . أمّا الفكرة ، وهي العلم بكمليته ، إذ لولاها لما علم العالم موجوداً كان أو غير موجود ، فهي كيان أزليّ أبديّ خالد لا يتغيّر إلّا ليتجوهر ، ولا يختفي إلّا ليظهر بصورة أسنى ، ولا ينام إلّا ليحلم بيقظة أبهى . ولقد عجبت لمن يثبت بقاء الذرات في الغلافات الخارجية التي تصوّرّها حواسنا ولكنه ينكر ما جعلت الغلافات من أجله . عجبت لمن يقرّر خلود العناصر التي تتألف منها العين ولكنه يشكّ بخلود النظر الذي اتخذ العين آلة له . . عجبت لمن يثبت أبدية المسبّبات ، ولكنه يحتم باضمحلال الأسباب . عجبت لمن تشغله المظاهر المكونة عن المكون المظهر . عجبت لمن يقسم الحياة إلى شطرين فيؤمّن بالشر المدفوع ويحصد الشر الدافع . عجبت لمن ينظر إلى تلك الجبال والسهول المغمورة بنور الشمس ثمّ يصغى إلى الهواء متكلاًّ باللسنة الأغصان ثمّ يتجرّع عطر الأزهار والرياحين وبعد ذلك يقول لنفسه : لا ولن يزول ما أراه أسمع ، لا ولن يضمحلّ ما أعرفه وأشهر به ، ولكن هذه الروح العاقلة التي ترى فتتهيب وتتأمل وتسمع فتفرح وتكتئب ، هذه الروح التي تشعر فترتعش وتنسبط وتعلم فتكتئب وتحقّق ، هذه الروح التي تحيط بكلّ شيء سوف تضمحل اضمحلال الفقايع على وجه البحر وتزول زوال الظلّ أمام النور . إي والحق إنّني أعجب لكائن ينكر كيانه .

نجيب رحمة : (متهَيِّجًا) : قد آمنت بكياني يا سيّدي . ومن يسمعك متكلمة ولا يؤمن كان أشبه بالصخر منه بالإنسان .

آمنة العلويّة : إنّ الله وضع في كل نفس رسولا ليسير بنا إلى النور ، ولكن في الناس من يبحث عن الحياة في خارجه والحياة في داخله ، ولكنّه لا يعلم .

نجيب رحمة : أليس في خارجنا أنوار لا نستطيع بدونها الوصول إلى ما في أعماقنا ؟ أليس في محيطنا قوى تستنهض قوانا ومؤثرات تنبّه الغافل فينا ؟

يطرق هنيهة متردّدًا ثم يعود يقول : أو لم توح إليك روح والدك أمورًا يعرفها سجين الجسد ورهين الأيام والليالي ؟

آمنة العلويّة : أجل .. ولكن عبثًا يطرق الزائر باب البيت إذا لم يكن في داخل البيت من يسمع الطرقات ويقوم ليفتح في وجهه . إنّما الإنسان كائن منتصب بين اللانهاية في باطنه واللانهاية في محيطه . فلو لم يكن فينا ما فينا لما كان في خارجنا ما في خارجنا . لقد ناجيتني روح والدي لأن روحي ناجتها وأوحت إلى عاقلتي الخارجية ما كانت تعرفه عاقلتي الباطنيّة . فلو لا جوعي وعطشي- لما حصلت على الخبز والماء ، ولو لا شوقي وحنيني لما لقيت موضوع شوقي وحنيني .

نحب رحمة : أيستطيع كل منا يا سيدي أن يغزل سلكا من شوقه وحنينه ويمدّه بين روحه والأرواح المنعقة ؟ أفليس بين الناس من لم ياتمر بمشيئة القوى العاقلة غير المنظورة . فكم من عمل يأتي به الفرد متوهماً أنّه خيّر بفعله وهو بالحقيقة مسير . وكم من عظيم في الأرض كانت عظمته في استسلامه التام إلى إرادة روح من الأرواح استسلام قيثاره دقيقة الأوتار إلى نقرات عازف خبير . أجل . إن بين عالم المرئيات وعالم العقل سبيلاً نجتازه في غيبوبات تحدث لنا ونحن غافلون ، ثمّ نعود وفي اكفنا المعنوية بذور نلقيها في تربة حياتنا اليومية فتنبت أعمالاً جليلة أو أقوالاً خالدة ، ولولا تلك السبل المفتوحة بين أرواحنا والأرواح الأثيرية لما ظهر في الناس نبي ولا قام فيهم شاعر ولا سار بينهم عارف . (ترفع صوتها عن ذي قبل) أقول ، ، ومأتي الأدهار تشهد لي : إن بين الملا الأعلى والملا الأدنى روابط شبيهة بعلاقة الأمر بالمأمور والمنذر بالمنذر ، أقول : إنّنا محاطون بوجدانات تستمل وجداناتنا، وعلاقات توعز إلى علاقاتنا ، وقوى تستنهض قوانا ، أقول إن شكو كنا لا تنفي امثالنا إلى ما نشك به ، وانصرفنا إلى أمانى أجسادنا لا يصرفنا عن مراد الأرواح بأرواحنا ، وتعامينا عن حقيقتنا لا يحجب حقيقتنا عن عيون المحجوبين عنا ، فنحن وإن وقفنا فسائرون بمسيرهم ، وإن همدنا فمتحركون بحركاتهم ، وإن صمتنا فمتكلمون بأصواتهم ، فلا الهجوع فينا يزيل يقظتهم عنا ، ولا اليقظة بنا تحوّل أحلامهم عن مسارح خيالنا ، فنحن وهم في عالمين يضمهما عالم واحد ، وفي حالتين تمنطقهما حالة واحدة ، وفي وجودين يجمعهما ضمير كليّ سرمدي ، أحد ليس له بدء وليس له نهاية وليس له فوق وليس له تحت وليس له حد وليس له جهات .

نجيب رحمة: أيأتي يوم يا سيّدي نعرف فيه بالاستقراء العلمي والاختبار الحسيّ- ما تعرفه أرواحنا بالخيال وما تختبره قلوبنا بالتشويق ؟ وهل يتقرّر لنا بقاء الذات المعنويّة بعد الموت مثلما تقرّر لدينا بعض الأسرار الطبيعيّة فنلمس بيد المعرفة المجرّدة ما نتلمسه الآن بأصابع الإيمان ؟

آمنة العلوية : نعم سيأتي ذلك اليوم . ولكن ما أضلّ الذين يدركون حقيقة مجرّدة ببعض حواسهم ولكنّهم يظّلون مرتابين بها حتى تبدو لحواسهم الأخرى . ما اغرب من يسمع الشحرور مغرّداً ويشاهده مرفوفاً متنقلاً ، ولكن يبقى مشكّكاً بما سمع وما رأى حتى يقبض بيده على جسم الشحرور . ما اغرب من يحلم بحقيقة جميلة ثمّ يحاول تجسيدها وحبسها بقوالب الظواهر فلا يفلح فيرتاب بالحلم ويحدد الحقيقة ويشكُّ بالجمال ! ما أجهل من يتخيّل أمراً وسيتصوّره بشكله ومعالمه وعندما يستحيل عليه إثباته بالمقاييس السطحيّة والبراهين اللفظية يحسب الخيال وهماً والتصوّر شيئاً فارغاً .

ولكن لو تعمّق قليلاً وتأمل هنيهة لعلم أن الخيال حقيقة لم تتحرّر بعد وأن التصوّر معرفة
أسمى من أن تتقيد بسلاسل المقاييس وأعلى وأرحب من أن تسجن بأقفاص
الألفاظ .

نجيب رحمة: أفي كلّ خيال حقيقة يا سيّدي وهل في كلّ تصوّر معرفة ؟

آمنة العلوية: إي والحق . إن مرآة النفس لا تعكس سوى ما انتصب أمامها ، ولو شاءت لما استطاعت . إن البحيرة الهادئة لا تريك في أعماقها خطوط جبال ورسوم أشجار وأشكال غيوم لا وجود لها بالحقيقة ، ولو شاءت البحيرة لما استطاعت . إن خلايا الروح لا ترجع إليك صدى أصوات لم يترعرش بها الأثير حقاً ، ولو شاءت الخلايا لما استطاعت . إن النور لا يلقي على الأرض ظلّ شيء لا كيان له ، ولو شاء النور لما استطاع ، إنّما الإيمان بالشيء المعرفة بالشيء . والمؤمن يدي ببصيرته الروحيّة ما لا يراه الباحثون والمنقبون بعيون رؤوسهم ، ويدرك بفكرته الباطنة ما لا يستطيعون إدراكه بفكرتهم المقتبسة . المؤمن يختبر الحقائق القدسيّة بحواس تختلف عن الحواس التي يستخدمها الناس كافة فيظنّها جداراً محكم البناء فيسير في طرقه قائلاً : ليس لهذه المدينة من أبواب .

(تقف العلويّة وتخطو بضع خطوات نحو نجيب ، وبلهجة من أوشك أن يبلغ من الكلام حدّاً لا يريد الزيادة عليه تقول) :

آمنة العلوية: إن المؤمن يعيش كلّ الأيام وكلّ الليالي ، أما غير المؤمن فلا يعيش سوى ثوان معدودة منها ، فما أضيق عيش من يرفع يده بين وجهه والعالم أجمع فلا يرى غير الخطوط في كفّه ، وما أشدّ شفقتي على من يدير ظهره إلى الشمس فلا يرى غير ظلّ جسده على التراب .

نجيب رحمة : (ينتصب واقفاً شاعراً بدنو ساعة انصرافه) : أقول للناس يا سيدي عندما أعود إليهم إن إرم ذات العماد مدينة أحلام روحية ، وإن آمنة العلوية قد سارت إليها على سبيل الشوق ودخلتها من باب الإيمان ؟

آمنة العلوية : قل إن إرم ذات العماد مدينة حقيقية كائنة بكيان الجبال والغابات والبحار والصحاري . وقل إن آمنة العلوية وصلت إليها بعد أن قطعت البادية الخالية وقاست ألم الجوع وحرقة العطش وكآبة الوحدة وهول الانفراد . وقل إن جبابرة الدهور قد بنو إرم ذات العماد ممّا تبلور وتجوهر من عناصر الوجود ، ولم يجبوها عن الناس ولكن الناس حجبوا نفوسهم عنها ، فمن يضل الوصول إليها فليشك دليله وحادييه بدلاً من مصاعب الطريق وحراجتها . وقل للناس إن من لا يشعل سراجيه لا يرى في الظلام سوى الظلام . (ترفع وجهها نحو العلاء وتغمض عينيها ويظهر على ملامحها نقاب من العطف والحلاوة) .

نجيب رحمة : (يدنو منها منحني الرأس ويظل صامتاً هنيئاً ثم يقبل يدها هامساً) : ها قد بلغت الشمس الغروب وعلى أن أعود إلى مساكن الناس قبل أن يكتنف الظلام الطريق .

آمنة العلوية : سر في النور ، وسر بأمان الله .

نجيب رحمة : سأسير في نور المشعل الذي وضعته في يدي يا سيّدي .

آمنة العلوية : سر بنور الحق الذي لا تطفئه الأهوية . (تنظر إليه نظرة طويلة مفعمة بشعاع الأمومة ثم تتحوّل عنه وتمشي بين الأشجار حتى تنحجب عن عينيه) .

زين العابدين : (يقترّب من نجيب) : إلى أين أنت سائر الآن ؟

نجيب رحمة : إلى منزل أصحاب لي بقرب منبع العاصي .

زين العابدين : أسمح لي بمرافقتك ؟

نجيب رحمة : بكل سرور ، ولكنني ظننت أنّك باقٍ بجوار آمنة العلوية فطوبتك روعي وتمنيت لو كنت مكانك .

زين العابدين : نحن نحيا بنور الشمس عن بعد ولكن من منا يستطيع الحياة في الشمس ؟
(بلهجة ذات معان بعيدة) أجيء مرّة في الأسبوع متبرّكاً متزوّداً ، وعندما يأتي المساء أعود قانعاً مكتفياً .

نجيب رحمة : وددت لو جاء الناس كافة مرّة في الأسبوع ليتبرّكوا ويتزوّدوا ويعودوا قانعين مطمئنين (يحلّ نجيب مقود فرسه ويسير به راجلاً بجانب زين العابدين)
(الستار) .



سكوتي إنشاد

سكوتي إنشاد وجوعي نعمة	وفي عطشي ماء وفي صحتي سكر
وفي لوعتي عرس وفي غربتي لقاء	وفي باطني كشف وفي مظهري ستر
وكم أشتكي همما وقلبي مفاخر	بهمني ، وكم أبكي ونغري يفتخر
وكم أرتجى خلا وخلي بجانبي	وكم أبتغي أمرا وفي حوزتي الأمر
وقد ينثر الليل البهيم منازعي	على بسط أحلامي فيجمعها الفجر
نظرت إلى جسمي بمرآة خاطري	فألفيته روحا يقلصها الفكر
فبي من براني والذي مدّ فسحتي	وبي الموت والمنشوى وبى البعث والنشور
فلو لم أكن حيا لما كنت مائتا	ولو لم أراهم النفس ما رامنني القبر
ولما سألت النفس ما الدهر فاعل	بحشد أمانينا أجابت أنا الدهر



يا من يعاديننا

يا مَنْ يُعَادِينَا وَمَا إِنْ لَنَا ذَنْبٌ إِلَيْهِ غَيْرِ أَهْلَانَا
هَذَا رَحِيقٌ مَالِهَا أَكْثُوسُ فَكَيْفَ نَسْتَقِيهَا لِلْوَامِنَا
وَهِيَ بِحَارٍّ مَدْدُهَا صَمْتُنَا وَجَزْرُهَا فِي حَرِّ أَقْلَانَا

جَاوَرْتُمُ الْأَمْسَ وَمِلْنَا إِلَى يَوْمٍ مَوْثِيٍّ صَبْحُهُ بِالْخَفَاءِ
وَرَمْتُمُ السَّكْرَى وَأَطْيَافَهَا وَنَحْنُ نَسْمَى خَلْفَ طَيْفِ الرَّجَاءِ
وَجَبْتُمُ الْأَرْضَ وَأَطْرَافَهَا وَنَحْنُ نَطْوِي بِالْفَضَاءِ الْفَضَاءِ

لُومُوا وَسَبُّوا وَالْعَنُوا وَاسْخَرُوا وَسَاوَرُوا أَبَا مَنَا بِالْخَصَامِ
وَابْغُوا وَجُورُوا وَارْجُوا وَاصْلَبُوا فَالزَّوْحُ فِينَا جَوْهَرٌ لَا يُضَامُ
فَنَحْنُ نَحْنُ كَوَكَبٌ لَا يَسِيرُ إِلَى السُّورِ فِي النَّوْرِ أَوْ فِي الظَّلَامِ
إِنْ تَحْسَبُونَا ثَلَمَةً فِي الْأَثِيرِ لَكِنْ تَسْتَطِيعُوا رَتْقَهَا بِالْكَلامِ



يا نفس

يا نفس لولا مطمئني بالخلد ما كنت أعني

لحنًا تغني به الدهور

بل كنت أنهي حاضري قسرًا فيغدو ظاهري

سرًا تواريه القُبُور

يا نفس لو لم أعتزل بالدمع أو لم يكتحل

جفني بأشباح السقام

لعشت أعمى وعلى بصري ظفرٌ، فلا

أرى سوى وجه الظلام

يا نفس ما العيش سوى ليلى إذا جنى انتهى

بالفجر، والفجر يُدوم

وفي ظمأ قلبي دليلى على وُجود السلسيل

في جرة الموت الرحوم

يا نفس إن قال الجهل

ومما يزول لا يعود

قولي له إن الزهور

تبقى وذا كنهه الخلود



البلاد المحجوبة

هوذا الفجرُ فُقمي نَصْرِفْ عَنْ دِيَارِ مَا لَنَا فِيهَا صَدِيقُ
 مَا عَسَى يَرْجُو نَبَاتٌ يَخْتَلِفُ زَهْرُهُ عَنْ كُلِّ وَرْدٍ وَشَقِيقُ
 وَجَدِيدُ الْقَلْبِ أَتَى بِاتِّلَفِ مَعَ قُلُوبِ كُلِّ مَا فِيهَا عَتِيقُ
 هوذا الصَّيْحُ يُنَادِي فَاسْمَعِي وَهَلِّمِي نَقْتَفِي خُطَوَاتِهِ
 قَدْ كَفَانَا مِنْ مَسَاءٍ يَدَّعِي أَنْ نَوْرَ الصَّيْحِ مِنْ آيَاتِهِ

قَدْ أَقَمْنَا الْعَمَرَ فِي وَادٍ تَسِيرُ بَيْنَ ضُلَعِهِ خِيَالَاتُ الْهَمُومِ
 وَشَهَدْنَا الْيَأْسَ أَسْرَابًا تَطِيرُ فَوَقَّ مَتْنِيهِ كَعَقْبَانٍ وَبُومِ
 وَشَرَبْنَا السَّقَمَ مِنْ مَاءِ الْغَدِيرِ وَأَكَلْنَا السَّامَ مِنْ فَجِّ الْكَرُومِ
 وَلَبِسْنَا الصَّبْرَ ثَوْبًا فَالْتَهَبُ فَعَدَدْنَا نَـتَرْدَى بِالزَّمَادِ
 وَافْتَرَشْنَا وَسَادًا فَانْقَلَبُ عِنْدَمَا نَمْنَا هَشِيًّا وَقَتَادِ

يَا بِلَادًا حُجِبَتْ مُنْذُ الْأَزَلِ كَيْفَ تَرْجُوكِ وَمِنْ أَيِّ سَبِيلِ؟
 أَيِّ قَفَرٍ دَوَّهَ أَيَّ جَبَلِ سَوْرَهَا الْعَالِي وَمِنْ مَنَّا الدَّلِيلِ؟
 أَسْرَابٌ أُنْتُ أَمْ أَنْتِ الْأَمَلِ فِي نَفْسٍ تَتَمَنَّى الْمُسْتَحِيلِ؟
 أَمْنَامٌ يَتَهَادَى فِي الْقُلُوبِ فَإِذَا مَا اسْتَيْقَظَتْ وَلَّى الْمَكَامِ
 أَمْ غَيُومٌ طُفْنَتْ فِي شَمْسِ الْغُرُوبِ قَبْلَ أَنْ يَغْرَقَنَّ فِي بَحْرِ الظَّلَامِ؟

عَبَدُوا الْحَقَّ وَصَلُّوا لِلْجَمَالِ	يَا بِلَادَ الْفَكَرِ يَا مَهْدَ الْأُولَى
مَتْنِ سَفْنٍ أَنْ بَحْيِلٍ وَرَحَالِ	مَا طَلَبْنَاكَ بِرَكُوبٍ أَوْ عَلَى
فِي جَنُوبِ الْأَرْضِ أَوْ نَحْوِ الشَّامِ	لَسْتِ فِي الشَّرْقِ وَلَا الْغَرْبِ وَلَا
لَسْتِ فِي السَّهْلِ وَلَا الْوَعْرِ الْحَرَجِ	لَسْتِ فِي الْجَوِّ وَلَا تَحْتَ الْبَحَارِ
أَنْتِ فِي صَدْرِي فُؤَادِي بَخْتَلَجِ	أَنْتِ فِي الْأَرْوَاحِ أَنْسَوَا زُنَارِ



حرقه الشيوخ

يا زمانَ الحبِّ ، قد ولىَّ الشَّباب
وتَوارَى العمُرُ كالظِّلِّ الضَّئِيلُ
واتَّخَى الماضي ، كسَطِرٍ من كتاب
خطَّه الوَهْمُ على الطَّرْسِ البليِلُ
وغدَّتْ أيماننا قِيدَ العذاب
في وُجودِ الْمَسَرَّاتِ بِخَيْلٍ
فالنَّدي نَعَشَقُهُ يَأْسًا قُضِيَ —
والنَّدي حُزْنًا بِالْأَمْسِ مَضَى —
والنَّدي حُلُمٍ بَيْنَ لَيْلٍ وَصَبَاحٍ

يا زمانَ الحبِّ ، هل يغني الأملُ
بخلُودِ النَّفْسِ عن ذِكْرِ العهودِ؟
هل ، ترى ، يمحو الكَرَى رَسَمَ القَبْلُ
عن شِفاهِ مَلْهًا وَرَدُّ الخدودِ
أَوْ يُبدِّلنا وَيُنسِّبنا المَلَلُ
سَكْرَةَ الوَضَلِ وَأَشْواقِ الصُّدودِ؟
هل يصمِّمُ المَوْتُ آذاننا وَعَتَتْ
أَنَّهُ الظَّلَمُ وأنغام السَّكونِ؟
هل يُغشَّى القَبْرُ أجفانًا رَأَتْ
خافيات القَبْرِ والسَّرَّ المَصُونِ؟

كَم شَرَبْنَا مِن كُؤُوسٍ سَطَعَتْ
في يَدِ السَّاقِي كنُورِ القَبَسِ !
وَرَشَفْنَا مِن شِفاهِ جَمَعَتْ
نَغْمَةَ اللَّطْفِ بِثَغْرِ الْعَسِ !
وَتَلَوْنَا الشَّعْرَ حتَّى سَمِعَتْ
زُهُرُ الْأَفْلاكِ صَوْتَ الْأَنْفُسِ
... تِلْكَ أَيَّامٌ تَوَلَّتْ كالزَّهْوِ
بُهِوْطِ التَّلَجِّ مِن صَدْرِ الشَّتَاءِ
فالنَّدي جادَتْ بِهِ أيدي الدَّهْوِ
سَلْبَتَهُ خَلَسَتْ كَفُّ الشَّقَاءِ ...

لَوْ عَرَفْنَا مَا تَرَكْنَا لَيْلَةً	تَنْقِضِي — بَيْنَ نَعَاسٍ وَرَقَادٍ
لَوْ عَرَفْنَا مَا تَرَكْنَا لَحَظَةً	تَشْتَبِي بَيْنَ خُلُوعٍ وَسُهَادٍ
لَوْ عَرَفْنَا مَا نَزَكْنَا بُرْهَةً	مِنْ زَمَانِ الْحَبِّ تَمْضِي — بِالْبَعَادِ
قَدْ عَرَفْنَا الْآنَ، لَكِنْ بَعْدَ مَا	هَتَفَ الْوَجْدَانُ: « قَوْمُوا وَاهْبُوا ! »
قَدْ سَمِعْنَا وَذَكَّرْنَا عِنْدَنَا	صَرَاحَ الْقَبْرِ وَنَادَى: « اقْتَرُبُوا ! »



بِاللهِ يَا قَلْبِي

بِاللهِ يَا قَلْبِي أَكُنْتُمْ هَـوَكَ
وَإِخْفِ السَّيْءَ الَّذِي تَشْكُوهُ عَمَّنْ يَسْرُوكَ ، تَغْتَنِمُ

مَنْ بَسَّاحَ الْأَسْرَارِ
يُشْهِدُ بِأَهْلِ الْأَحْمَقِ
فَالصَّمْتُ وَالْكُفْتَانُ
أَحْرَى بِمَنْ يُعَشَّقُ

بِاللهِ يَا قَلْبِي إِذَا أَتَيْتُكَ
مُسْتَعْلِمٌ يَسْأَلُ عَمَّا دَهَكَ - فَكُنْ

يَا قَلْبِي إِنْ قَالُوا :
أَيُّنَ النَّبِيِّ تَهْوَى ؟
قُلْ : قَدْ سَبَّتُ غَيْرِي
ثُمَّ ادْعِ السَّيِّئَ لِي

بِاللهِ يَا قَلْبِي اسْمُ تَرْجٍ وَكَ
فَمَا الَّذِي يَضُنُّكَ إِلَّا دَوَاكُ - فَاعْلَمْ

الْحَبَّ فِي الْأَرْوَاحِ
كَخَمْرٍ فِي الْكَاسِ
مَا بَانَ مِنْهَا مَاءٌ
وَمَا خَفِيَ أَنْفَاسُ

بِاللهِ يَا قَلْبِي احْسِبْ عَنْكَ
إِنْ ضَمَّجَتِ الْأَبْحَارُ أَوْ هَدَّتِ الْأَفْلاكُ - تَسْلِمُ

أغنية الليل

سكنَ الليل ، وفي ثوبِ السكون تختبئُ في الأحلام
وسمى البدرُ ، وللبدرِ عُيون ترصدُ الأتنام

فتعالِ ، يا ابنة الحقل ، نرُورُ كرملة العُشَّاق
علنا نطفئُ بـذيتك العَصيرُ حرققة الأشواق

اسمعي البُلبُل ما بَيْنَ الحُقُولِ بسكبُ الألحانِ
في فضاء نفختُ فيه التلُولُ نسمة الرِّيحِ

لا تخافي ، يا فتاتي ، فالنَّجومُ تكتُمُ الأخبارَ
وضبابُ اللَّيلِ في تلك الكُرومِ يحجبُ الأسرارَ

لا تخافي ، فعروسُ الجنِّ في كهفها المسحورُ
هَجَعَتْ سكرى وكادتُ تحتفي عن عيون الجنِّ

ومليكُ الجنِّ إن مَرَّ يَروحُ والهوى يَنتبهُ
فهو مِثْلِي عاشقٌ كيف يُروحُ بالذي يُضنيه !



البحر

في سَكُونِ اللَّيْلِ لَمَّا تَنَنِّي بَقِظَةُ الْإِنْسَانِ مِنْ خَلْفِ الْحِجَابِ
بَصْرُحُ الْغَابِ : أَنَا الْعَزْمُ الَّذِي أَتَبَتُّهُ الشَّمْسُ مِنْ قَلْبِ التَّرَابِ
غَيْرَ أَنَّ الْبَحْرَ يَبْقَى سَاكِنًا
قَائِلًا فِي نَفْسِهِ : أَلْعَزْمُ لِي
وَيَقُولُ الصَّخْرُ : إِنْ الدَّهْرَ قَد شَادَنِي رَمَزًا إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ
غَيْرَ أَنَّ الْبَحْرَ يَبْقَى صَامِتًا
قَائِلًا فِي نَفْسِهِ : الرَّمْزُ لِي
وَيَقُولُ الرِّيحُ : مَا أَغْرَبَنِي فَاصِلًا بَيْنَ سَدِيمٍ وَسَمَاءِ
غَيْرَ أَنَّ الْبَحْرَ يَبْقَى سَاكِنًا
قَائِلًا فِي نَفْسِهِ : الرِّيحُ لِي
وَيَقُولُ النَّهْرُ : مَا أَعَذَّبَنِي مَشْرَبًا يَرَوِي مِنَ الْأَرْضِ الظَّمَا
غَيْرَ أَنَّ الْبَحْرَ يَبْقَى صَامِتًا
قَائِلًا فِي ذَاتِهِ : أَلْنَهْرُ لِي
وَيَقُولُ الطَّوْدُ : إِنِّي قَائِمٌ مَا أَقَامَ السَّجْمُ فِي صَدْرِ الْقَلْبِ
غَيْرَ أَنَّ الْبَحْرَ يَبْقَى هَادئًا
قَائِلًا فِي نَفْسِهِ : أَلطَّوْدُ لِي
وَيَقُولُ الْفَكَرُ : إِنِّي مَلِكٌ لَيْسَ فِي الْعَالَمِ غَيْرِي مِنْ مَلِكٍ
غَيْرَ أَنَّ الْبَحْرَ يَبْقَى هَاجِعًا
قَائِلًا فِي نَوْمِهِ : أَلْكُلُّ لِي



الشحرور

أَيُّهَا الشَّحْرُورُ غَرَّرْتُ فَاغْنِ سِرَّ الْوُجْدِ
لِيَتَنَبَّيَ مِثْلَكَ حَرُّ مَن سُبْحَانَ وَفِيهِ

لِيَتَنَبَّيَ مِثْلَكَ رُوحًا فِي فَصِّ الْوَادِي أَطْيَرُ
أَشْرَبُ النَّوْرَ مَدَامًا فِي كُؤُوسٍ مِّنْ أَثِيرِ

لِيَتَنَبَّيَ مِثْلَكَ طَهْرًا وَاقْتِنَاعًا وَرَضَى
مُعْرِضًا عَمَّا سِيَّئِي غَفْلًا عَمَّا مَضَى

لِيَتَنَبَّيَ مِثْلَكَ ظَرْفًا وَجَمَّالًا وَبَهَا
تَبَسَّطُ الرِّيحُ جَنَاحِي كَيْ يُوَشِّئَ لِي النَّهْدَى

لِيَتَنَبَّيَ مِثْلَكَ فَكْرًا سَابِحًا فَوْقَ الْهَضَابِ
أَسْكَبُ الْأَنْفَاسَ عَفْوًا بَيْنَ غَابٍ وَسَحَابِ

أَيُّهَا الشَّحْرُورُ غَنَّ وَاصْرِفِ الْأَشْجَانَ عَنِّي
إِنَّ فِي صَوْتِكَ صَوْتًا نَافِخًا فِي أُذُنِ أُذُنِي



الجبار الرئبال

في ظلام الليل يمشي مبطأً وهو مثل الليل هولاً قد بدا
وحده يمشي كأن الأرض لم تـبر إله عظمياً سيّداً

ويدوس التُّربَ مرفوعاً كما تلمس الأطلال أطراف السحاب
فكأن الجسـمَ في أثوابه من شعاعٍ وسديمٍ وضباب

قلتُ: يا طيفاً يعيقُ الليل في سيره، هل أنتَ جنُّ أم بشرٌ؟
قال مُغناظاً: وفي ألفاظه رنة الهزء: أنا ظلُّ القدر

قلتُ: لا، يا طيف قد ماتَ القضا يوم ضاممتني ذراع القابل
قال محتاراً: أنا الحب الذي لا ينال العيش إلا نائلاً

قلتُ: لا، فالحب زهرٌ لا يعيش بعد أن تذبل أزهار الزبيغ
قال غصّاباً: وفي لهجته ضجة البحر: أنا الموتُ المريع

قلتُ: لا، بالموتُ صبحٌ إذا أتى أبقت النائم من غفلته
قال مُحْتالاً: أنا المجد فمن لم يتلنّني مات في علته

قلتُ : لا ، فالـموتُ ظِلٌّ يـتـثـني
مضـمـحلاً بـينَ حـدٍ وكـفـنٍ
قال مُرتاباً : أنا السـرّ الـذي
يـتـهـادى بـينَ رُوحٍ وبـسـدَنٍ

قلتُ : لا ، فالسـرّ إن باحتْ بهِ
يقظُة الفـكرِ تـوَلَّى كالنـمـامِ
قال مُلتاعاً : كَفَى تَسألني
مـن أنا . قلتُ : أفي السؤـل مـلام؟

قال مُحجوباً : أنا أنتَ فلا
تسألنَّ الأرضَ عني والسما
فلإذا ما شئتُ أن تعرفني
فارقبِ المـرأة صـبـحاً ومـسـاً

قال هذا واختفى عن ناظري
مثلما الدخانُ تـذريـه الـريـاحِ
تاركاً ما بي من الفكرِ يـهـيم
بينَ أشباحِ الدجى حتـى الصـباحِ



إذا غزلتم

إذا غزلتم حوّل يَوْمِي الظَّنُونُ وإن حبكتم حوّل ليلى الملام
فلن تدكوا بَرْجَ صَبْرِي الحَصِينُ ولن تُزِيلوا من كُؤُوسِي المدام
ففي حَيَاتِي مَنْزِلٌ لِلتَّكُونِ وفي فُؤَادِي مَعْبُدٌ لِلتَّسْلَامِ
وَمَنْ تَغَذَى مِنْ طَعَامِ الْمَنُونِ لا يَحْتَشِي مَنْ أَنْ يَذُوقَ الْمَنَامِ

الشهرة

كُتِبَتْ فِي الْجَزْرِ سَطَرًا عَلَى الرَّمْلِ
أُودِعَتْ فِي كَهْلٍ رُوحِي مَعَ الْعَقْلِ

وَعُدْتُ فِي الْمَدَدِ أَقْرَأُوا أَسْمَاءَ تَجْلِي
فَلَمْ أَجِدْ فِي الشَّوْاطِي سَوَى جَهْلِي



بالأمس

كَانَ لِي بِالْأَمْسِ قَلْبٌ فَقَضَى — وَأَرَاخَ النَّاسَ مِنْهُ وَاسْتَرَاخَ
 ذَاكَ عَهْدٌ مِنْ حَيَاتِي قَدْ مَضَى — بَيْنَ تَشْوِيبٍ وَشُكُوكٍ وَنَوَاخِ
 إِنَّمَا الْحَبِّ كَنَجْمٍ فِي الْفَضَا — نُورُهُ يُمَحِّسِي بِأَنْوَارِ الصَّبَاحِ
 وَسُرُورُ الْحَبِّ وَهَمٌّ لَا يَطْوُلُ — وَجَمَالُ الْحَبِّ ظِلٌّ لَا يَقِيمُ
 وَعُهُودُ الْحَبِّ أَحْلَامٌ تَزُولُ — عِنْدَمَا يَسْتَقِظُ الْعَقْلُ السَّلِيمُ

كَمْ سَهَزْتُ اللَّيْلَ وَالنَّوْقَ مَعِي — سَاهَرُ أَرْقَبُهُ كَيْفِي لَا أَنْامُ
 وَخَيْالُ الْوَجْدِ يَحْمِي مَضْجَعِي — قَائِلًا: « لَا تَدْنُ! فَالنَّوْمُ حَرَامُ »
 وَسَقَامِي هَامٌ فِي مَسْمَعِي: — « مَنْ يَرِيدُ الْوَصْلَ لَا يَشْكُو السَّقَامُ »
 وَسَقَامِي أَيْسًا تَقَضَّصْتُ، فابْشُرِي، — بِأَعْيُونِي، بَلْقَا طَيْفِ الْكَرَى
 وَاحْذَرِي، يَا نَفْسَ، أَلَّا تَذْكُرِي — ذَلِكَ الْعَهْدَ وَمَا فِيهِ جَرَى

كَنتُ إِنْ هَبَّتْ نُسَيْمَاتُ السَّحَرِ — أَتْلُو رَاقِصًا مِنْ مَرَحِي
 وَإِذَا مَا سَكَبَ الْغَيْمُ الْمَطَرُ — خَلَّتْهُ الرِّيحُ فَأَمْلَأَ قَدَحِي
 وَإِذَا الْبَدْرُ عَلَى الْأَفْقِ ظَهَرَ — وَهِيَ قَرِيبِي صَحْتُ: « هَلَا يَسْتَحِي »
 كُلُّ هَذَا كَانَ بِالْأَمْسِ، وَمَا — كَانَ بِالْأَمْسِ تَوَلَّى كَالضَّبابِ
 وَتَحَا السَّلُولَانِ مَاضِي كَمَا — تَفَرَّطُ الْأَنْفَاسُ عَقْدًا مِنْ حَبَابِ
 يَا بَنِي أُمِّي إِذَا جَاءَتْ سُعَادُ — تَسْأَلُ الْفَتِيَانِ عَنْ صَبِّ كَثِيبِ
 فَاخْبِرُوهُمَا أَنَّ أَيْسَامَ الْبِعَادِ — أَخَذْتُ مِنْ مُهْجَتِي ذَاكَ اللَّهْيَبِ
 وَمَكَانَ الْجَمْرِ قَدْ حُلَّ الرَّمَادُ — وَتَحَا السَّلُولَانِ أَثَارَ التَّحْيَبِ
 فَلِذَا مَا غَضِبْتُ لَا تَغْضَبُوا — وَإِنَّا نَاخَتُ فَكُونُوا مُشْفَقِينَ
 وَإِذَا مَا ضَحَكْتُ لَا تَعْجَبُوا — إِنَّ هَذَا شَأْنُ كُلِّ الْعَاشِقِينَ

ليت شعري هل لما مرّ رجوع	أو معاذٍ لحبيبٍ وأليف؟
هل لنفسي — يقطّنةً بعد الهجوع	لترينبي وجهه ماضيّ المخيف؟
هل يعي أبلول أنغام الزبيع	وعلى أذنيه أوراق الخريف
لا، فلا بعثت لقلبي أو نشور	لا، ولا يحضر عود المحفل
وبعد الحصاد لا تحيي الزهور	بعد أن تُبري بحمد المنجل



شاخت الروح بجسمي وغدت	لا تری غیر خیالات السنین
فإذا الأميال في صَدري فشئت	فبعكاز اصطباري تستعين
والتوت مني الأماني وانحكت	قبل أن أبلغ حد الأربعين
تلك حالي فإذا قالت رحيل :	ماعسى حل به؟ قولوا : الجنون
وإذا قالت : أئشفي ويـزول	ما به؟ قولوا : ستشفيه المئون



ماذا تقول الساقية

سرْتُ في الوادي وقد جاء الصَّباح	معلَّنا سرُّ وُجودٍ لا يَـرُؤُل
فإذا ساقيةً بينَ البطَّاح	تَغَنَّى وتُنَادي وتَقُولُ :
مما الحياءُ بالهَناء	إنَّما العَيشُ نُزُوعٌ ومَـرام
مما المَـماتُ بالغِناء	إنَّما المَـموتُ قُنُوطٌ وسَقام
مما الحَكيمُ بالكلام	بل بِسرٍّ يَنطَوي تحَتَ الكلام
مما العَظيمُ بالمَقام	إنَّما المَجْدُ لَمَن يَأبى المَقام
مما النَّبيلُ بالجُـدود	كَم نَبيلٍ كان مِن قَتلى الجـود
مما السَّـذيلُ بِالقُيود	قَد يكون القيدُ أسنى مِن عَقود
مما النِّعميمُ بِالثَّواب	إنَّما الجَنَّةُ بالقلبِ السَّـليم
مما الجَحيمُ بِالعَمَـذاب	إنَّما القلبُ الخَلِيَّ كَلَّ الجَحيم
مما العَقارُ بالنُّضار	كَم شريدٍ كان أغنى الأَغنياء
مما الفَقيرُ بِالحَقير	ثَمَرَةُ السَّـدنيا رَغيفٌ ورداء
مما الجَمالُ بِـالوُجوه	إنَّما الحَسَنُ شِـمَاعٌ للقلوب
مما الكَمالُ لِلتَّزِيه	رُبَّ فَضلٍ كان في بَعْضِ السُّدُوب
هَـذا ما قالَتَهُ تِلْكَ السَّاقِيه	لِصُّخُورٍ عَن يَمِينٍ وَيَسار
رُبَّ ما قالَتَهُ تِلْكَ السَّاقِيه	كان مِن أسرارِ هاتيكَ البحار



الفهرس

2	بطاقة فهرسة
3	الاهداء
4	مقدمة التحقيق
27	الموسيقى
40	عرانس المروج
77	الأرواح المتمردة
170	الأجنحة المتكسرة
239	دمعة وابتسامة
363	المواكب
374	العواطف
519	البدائع والطرائف
625	الفهرس